التهذيب في التفسير

تصنيف

الإمام الحاكم أبي سعد المحسن بن محمد بن كرامة البيهقي الجشمي

توفي سنة ٤٩٤ هجرية

رحمه الله تعالى

تحقيقه

عبد الرحمن بن سليمان السالمي

دار الكتاب المصري
القاهرة

دار الكتاب اللبناني
بيروت

التهذيب في التفسير

التهذيب في التفسير

تصنيف

الإمام الحاكم أبي سعد المحسن بن محمد بن كرامة البيهقي الجشمي

توفي سنة ٤٩٤ هجرية

رحمه الله تعالى

تحقيق

عبد الرحمن بن سليمان السالمي

الجزء الثامن

سورة النمل - سورة غافر

دار الكتاب المصري

القاهرة

دار الكتاب اللبناني

بيروت

سُورَةُ النَّمل

سورة (النمل)، ثلاث وتسعون آية في الكوفي، وأربع في البصري، وخمس في المدني.

وتسمى سورة (النمل)، وسورة (سليمان) و(طس الهدهد).

والمروي عن الحسن وغيره أنها مكية.

وروى أبي بن كعب، عن رسول الله ﷺ: «من قرأ (طس) كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صَدَّقَ سليمان وكذَّب به، ويخرج من قبره وهو يقول: لا إله إلا الله».

ولما ختم سورة (الشعراء) بذكر القرآن، وأنه نزل به الروح الأمين، افتتح هذه السورة بذكر القرآن، وأنه كلام حكيم، وأنه هدى ورحمة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ
ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ
أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾
وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا
بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾﴾

القراءة

قرأ عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب: «بشهابٍ قبسٍ» منونة غير مضاف، جعل قبسًا صفة، وقرأ الباقون: «بِشِهَابِ» بغير تنوين مضاف إلى قبس، فالأول على تقدير [مُنَوِّرٍ]، والثاني على تقدير: نار؛ أي: شعلة نار، وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم.

اللغة

الإيناس: الإحساس بالشيء من جهة يؤنس بها، آنَسْتُهُ[١] أُونِسُهُ إِينَاسًا.

والشهاب: نور كالعمود من النار، وجمعه: شُهُبٌ، ومنه قيل للنجم الذي يمتد في السماء: شهاب.

والقبس: القطعة من النار، واقتبس من النار اقتباسًا؛ أي: أخذ منها شعلة، واقتبس علمًا مشبّهٌ به.

والاصطلاء: طلب التدفؤ[٢] بالنار.

الإعراب

«هُدًى وَبُشْرَى» فيه وجهان من العربية: الرفع على خبر الابتداء، أي: هو هدى، والنصب على القطع والحال، ويحتمل الجر عطفًا على ما سبقه[٣] من قوله: ﴿وَكِتَابٍ[٤] مُّبِينٍ﴾ [النمل: ١]، وقول موسى لأهله: ﴿ءَاتِيكُم﴾ قيل: لأنه أقامها مقام الجماعة، وقيل: كان معها غيرها من أولادها.

المعنى

«طس» قد بَيَّنَا فيما تقدم الكلام في هذه الحروف، وأن المفسرين أكثروا فيها، والإخبار وقع على أربعة أقوال:

---

(١) آنسته: آنسه، ز، ل، م.
(٢) التدفؤ: التدفي، ن.
(٣) سبقه: يليه؛ ز، ل، م.
(٤) وكتاب: وقرآن؛ ز، ل، م.

أولها: أنه اسم للسورة، عن الحسن، وأبي علي.

والثاني: أنها إشارة إلى أن القرآن من هذه الحروف، ويتكلمون بها، ولا يقدرون على مثلها، فيعلم أنه معجز، ليس من كلام بشر، عن أبي مسلم.

وثالثها: إشارة إلى أن القرآن مؤلف من هذه الحروف، فيعلم أنه محدث، عن أبي بكر الزبيري.

ورابعها: أن كل حرف منها مأخوذ عن اسم، فالطاء من لطيف، والسين من سميع، عن ابن عباس وجماعة.

«**تِلْكَ**» قيل: إشارة إلى الحروف، وقيل: إلى السورة «**آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ**» جمع بين صفتي الكتاب مختلفتي المعنى، والكتاب: المكتوب، والقرآن المجموع، ومعنى «**مبين**» قيل: يبين الأحكام والشرائع والمواعظ والأدلة «**هُدًى**» دلالة على الأحكام «**وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ**» وخصهم بالذكر؛ لأنهم ينتفعون بها، ولأن البشرى لهم.

ثم وصف المؤمنين، فقال: «**الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ**» قيل: يديمونها، وقيل: يقيمونها، وقيل: يؤدونها في أوقاتها بشرائطها «**وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ**» أي: يؤدونها إلى من يستحقها «**وَهُمْ بِالآخِرَةِ**» أي: بالنشأة الآخرة والجزاء والبعث «**هُمْ يُوقِنُونَ**» لا يشكُّون فيه «**إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ [بِالآخِرَةِ]**» لا يصدقون بالبعث «**زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ**» اختلفوا في موضعين:

أحدهما: التزيين بماذا.

والثاني: ما الأعمال التي زينها.

أما الأول: فقيل: بإقامة الأدلة والوعد والوعيد، وقيل: بالأمر والنهي، وقيل: بالألطاف.

وأما الثاني: قيل: أعمالهم ما أمرهم بها من الطاعات زينها لهم وأمرهم بها فخالفوا، عن الحسن، وأبي علي، وأبي مسلم. وقيل: أعمالهم القبيحة زينها لهم بالشهوة ليجتنبوا، «**فَهُمْ يَعْمَهُونَ**» عن هذا المعنى، قال القاضي: وهذا يبعد؛ لأن الشهوة لا تكون تزيينًا، والأوجه ما ذكره أبو علي.

«يَعْمَهُونَ» يتحيرون، ويترددون في الحيرة «أُوْلَئِكَ» مَنْ تقدم ذكرهم «الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ» قيل: القتل والأسر يوم بدر، وقيل: عذاب الاستئصال، وقيل: عذاب القبر، والمراد بالسوء الشدة والصعوبة ﴿وَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ بحرمان الثواب، ودخول النار.

ثم بَيَّنَ أن الله تعالى هو الذي أعطاه القرآن، فقال سبحانه: «وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ» قيل: تعطى، وقيل: يلقى إليك؛ يعني ينزل عليك «مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ» أي: من جهته تعالى.

ثم بيّن أنه كما أنزل عليه القرآن أنزل النور على موسى، فقال سبحانه: «إِذْ قَالَ مُوسَى لأَهْلِهِ» لامرأته ومن كان معه ليلة ذهابه من مدين إلى مصر وخروجه إلى الطور «إِنِّي آنَسْتُ نَارًا» أي: رأيت فامكثوا مكانكم «سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ» بشعلة نار منها، يعني آتيكم بخبر الطريق أو بشعلة من النار «لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ» تستدفئون، وإنما أدخل حرف التخيير «أَوْ آتِيكُمْ»؛ لأنه جَوَّزَ أن يجد عند النار من الخبر ما يستغني عن حمل الشهاب.

۞ الأحكام

يدل وصف القرآن بأنه هدى وبشرى ومبين على أشياء:

منها: أنه بَيَّنَ الأحكام.

ومنها: أنه مُحْدَثٌ.

ومنها: كونه مستقلاً في الدلالة، فيبطل قول من يتوقف في معانيها.

ومنها: وجوب النظر.

ومنها: أن الهدى الدلالة خلاف ما تزعمه المجبرة أن الهدى الإيمان.

وتدل أن مجرد القول لا يكفي في استحقاق الجنة، ما لم ينضم إليه الاعتقاد والعمل.

ويدل قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى﴾ أي القرآن على أنه فعله، وأنه محدث.

وتدل على أن الإيمان والصلاة وإيتاء الزكاة فِعْلُ العبد؛ حتى يصح توبيخهم وذمهم، فيبطل قولهم في المخلوق.

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا
ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ
إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ
يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾
فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا
وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾

القراءة

قراءة العامة: ﴿حُسْنًا﴾ بضم الحاء وسكون السين، وعن الأعمش: «ثم بدل حَسَنًا» بفتح الحاء والسين.

اللغة

البركة: ثبوت الخير النامي بالشيء[1]، قال الفراء: العرب تقول: باركك الله، وبارك فيك.

والجانُّ: الحية الصغيرة، أخذت من الاجتنان، وهو الاستتار، وقال الفراء: [هي حية][2] بين الصغيرة والكبيرة.

(لَمْ يُعَقِّبْ) قيل: لم يرجع، قال: سمي كل معقب راجع، وفي حديث عمر: (كان يُعَقِّبُ الجيوش في كل عام) أي: يَرُدُّ فوجًا، ويبعث آخرين يعاقبونهم.

(١) النامي بالشيء: النافي لشر، ن؛ وما أثبتناه من تفسير التبيان ٨/ ٦٩.
(٢) ما بين المعكوفين زيادة من تفسير التبيان ٨/ ٦٩.

۞ الإعراب

يقال: ما حكم الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ ؟

قلنا: فيه وجوه:

أولها: إلا مَنْ ظَلَمَ فيما يفعل من صغيرة، فيكون الاستثناء في هذا متصلاً في معنى قول الحسن.

وثانيها: لكن من ظَلَمَ العباد فهذا أمره، فيكون استثناء منقطعًا.

وثالثها: تقديره: لا يخاف لدي المرسلون، إنما الخوف على من سواهم، إلا من ظلم ثم بدل حسنًا بعد سوء.

وقيل: (إلا)[1] بمعنى الواو كقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ[2] إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [البقرة: ١٥٠] تقديره: ولا مَنْ ظلم ثم تاب.

وقيل: (إلا) بمعنى (أما)، يعني: أمّا مَنْ ظَلَمَ ثم بدل حسنًا فلا خوف عليه أيضًا.

«واستيقنتها» الواو واو الحال، عن أبي مسلم.

«إنه أنا الله» الهاء عماد، تقديره: يا موسى أنا الله «ولم يعقب» عليه تمام الكلام، ثم قال: «يا موسى» وهو رفع؛ لأنه نداء مفرد.

﴿تَخْرُجْ﴾ جزم؛ لأنه جواب الأمر في قوله: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى تمام قصة موسى (عليه السلام)، فقال سبحانه: «**فَلَمَّا جَاءَهَا**» الهاء كناية عن النار، والمعنى: جاء موضعَ النار «**نُودِيَ**» يعني: موسى، قيل: ناداه الله بأن

(١) إلا: لا، ن.
(٢) عليكم: على الناس، ن.

أحدث الكلام في الشجرة فسمعه موسى، فالشجرة محل الكلام، والمتكلم هو الله تعالى، كما أن الإنسان هو المتكلم واللسان محل الكلام «**أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ**» فيه أقوال:

أولها: «**مَنْ فِي النَّارِ**»: موسى، يعني في طلب النار أو بقربها وضوئها[١]، يقال: فلان في أمر كذا، أي: في طلبه، ولأنه يَرِدُ على النار، والوارد على الشيء يكون فيه. «**وَمَنْ حَوْلَهَا**» الملائكة، كأنه قال: دامت البركة لموسى والملائكة الذين هم حول النار.

وثانيها: (**مَنْ**) بمعنى (**ما**)، و(**ما**) للصلة، كأنه قال: بورك في النار التي هي نور الله، وبورك فيمن حولها، فالبركة ترجع إلى النار، كأنه قيل: ما أشد بركة هذه النار لمن حضرها ولمن ظفر بها، ولمن طلبها، ولمن حولها من الملائكة، وبركتها أني جعلتها دلالة لموسى.

وثالثها: معناه: تبارك مَنْ نُورُهُ هذا النورُ، كأنه قال: البركة ممن في النار سلطانُهُ وقدرته وبرهانه، فالبركة ترجع إلى اسم الله تعالى «**وَمَنْ حَوْلَهَا**» موسى والملائكة.

ورابعها: «**بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ**» الملائكة الموكلون «**وَمَنْ حَوْلَهَا**» الملائكة أيضًا، عن أبي علي.

ولما سمع من الشجرة: «**إنَّه أنا الله**»[٢] أزال الإيهام في كونه في الشجرة أو كونه متكلمًا بآلة، فبدأ بالتنزيه، فقال سبحانه: «**وَسُبْحَانَ**[٣] **اللَّهِ**» تنزيهًا عما لا يليق به وبصفاته من كونه جسمًا يحتاج إلى جهة، أو عرضًا يحتاج إلى محل أو من يتكلم بآلة «**رَبِّ الْعَالَمِينَ**».

ثم بَيَّنَ من يناديه فقال: «**يَا مُوسَى إِنَّهُ**[٤] **أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ**» القادر الذي لا يمتنع عليه شيء «**الْحَكِيمُ**» العليم بكل شيء، وقيل: المحكم لأموره وتدابيره «**وَأَلْقِ عَصَاكَ**» فيه

(١) وضوئها: وضوها، ن.
(٢) ما بين المعكوفين في ن: إني أنا الله. وما أثبتناه من نص الآية.
(٣) وسبحان: سبحان، ن.
(٤) إنه: إني، ن.

حذف، أي: ألقاها «فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ» تتحرك «كَأَنَّهَا جَانٌّ» قيل: كالجان في اهتزازه، وهي ثعبان في عِظَمِهِ، فهاله أمرها لسرعة حركتها وعظم جسمها، وقيل: كان في ابتداء الإلقاء جانًّا ثم صار ثعبانًا، فكان يربو حالاً بعد حال «وَلَّى مُدْبِرًا» أي: رجع إلى ورائه «وَلَمْ يُعَقِّبْ» أي: لم يرجع، عن قتادة، ومجاهد، وأبي علي. أي: لم يرجع على عقبه، وقيل: لم يلتفت، وقيل: لم يلبث، عن أبي مسلم. قال تعالى: «يَا مُوسَى لاَ تَخَفْ إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ إِلاَّ مَنْ ظَلَمَ» يعني إنما يخاف الظَّلَمَةُ إلا من تاب، وقد بينا ما قيل فيه «ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ» قيل: كان مشركًا فتاب، وقيل: كان ظالمًا بالمعاصي فتاب، وهو الوجه لعموم الآية «فَإِنِّي غَفُورٌ» لذنوب التوابين «رَحِيمٌ» بهم أدخلهم الجنة «وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ» قيل: إدخالها[1] جيبه أن يجعل يده على صدره، عن أبي علي. وقيل: جيب مِدْرَعَتِكَ، وقيل: كان عليه جبة صوف، عن ابن مسعود. وقيل: لم يكن لها كُمٌّ، وقيل: كان كُمُّهَا إلى بعض اليد، عن مجاهد. فأمره أن يدخل يده جيبه «تَخْرُجْ بَيْضَاءَ» يعني كالبدر «مِنْ غَيْرِ سُوءٍ» أي: من غير بَرَصٍ وآفة «فِي تِسْعِ آيَاتٍ» معجزات ودلائل، هذه آية مع تسع آيات أنه يُرْسَلُ بها إلى فرعون وقومه، وقيل: تقديره: مرسلاً في تسع آيات فحذف، وقيل: معناه «في تِسَعِ آيات» كقولهم: لي عشر من الإبل، فيها فحلان، أي منها، عن الزجاج. وقيل: الآيات التسع: العصا، واليد، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والبحر، ورفع الطور، وانفجار الحجر بالماء. وقيل بَدَلَ الجبل والبحر: الطوفان والطمس، عن ابن زيد. وقيل بدل الطور وانفجار الماء: السنون ونقص من الثمرات، عن ابن عباس. «إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ» أي: أرسلناك إليهم «إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ» خارجين عن طاعة الله والإيمان إلى الكفر «فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً» أي: حججنا واضحة بَيِّنَةً يبصر بها الصواب من الخطأ، وقيل: يبصر الحق، وأبصرته وبَصَرْتُهُ بمعنى، كقولك: كفرته وأكفرته، وكَذَبْتُهُ وأكذبته «قَالُوا» يعني: فرعون وقومه «هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ» أي: ظاهر بَيِّنَ«وَجَحَدُوا بِهَا» أي: بالآيات «وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ» أي: علموا يقينًا أنها ليس بسحر،

(١) إدخالها: إدخاله، ن.

وأنها تدل على صانع حكيم، وتدل على نبوة موسى، ومع ذلك جحدوا بها «**ظُلْمًا وَعُلُوًّا**» قيل: ظلمًا على بني إسرائيل وعلى موسى معهم، وقيل: ظلمًا على أنفسهم «**وَعُلُوًّا**» طلبًا للعلو والرفعة «**فَانظُرْ**» يا محمد، وقيل: أيها السامع «**كَيْفَ**» أزاح عللهم، فلما جحدوا كيف «**كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ**».

۞ الأحكام

يدل قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ﴾ على حدوث النداء؛ لأن ظاهره يقتضي أن النداء بعد المجيء، فإذا كان النداء كلامه وهو محدث بطل قول من قال: إنه قديم.

ويدل قوله: ﴿وَسُبْحَٰنَ[1] ٱللَّهِ﴾ على تنزيهه عن جميع ما لا يجوز عليه.

ويدل قوله: ﴿إِنَّهُۥٓ[2] أَنَا ٱللَّهُ﴾ أنه تعالى هو المخاطب.

ومتى قيل: هل يصح ذلك إلا وهو في مكان؟

قلنا: معناه مَلِكُكَ ومخاطبك، وذلك لا يقتضي المكان.

ومتى قيل: كيف علم موسى أنه نبي؟ ومتى علم أن الله هو المخاطب؟ وهل حَمَّلَهُ شريعة، فإن عندكم لا يكون نبي إلا ومعه شريعة؟

قلنا: في ابتداء الأمر لم يعلم نبوته، فلما رأى المعجزات علم أنه نبيّ، وأن المخاطب هو الله تعالى، والمعجز هو العصا والنار، فإنه رأى نارًا لا تحرق، ورأى ثعبانًا مخترعًا، وكل واحد يدل على التوحيد والنبوة.

وتدل أن موسى خاف الثعبان خوف طبيعة، فأمنه الله فَأَخَذَهُ.

وتدل أن الرسل لا تخاف عقوبة.

وتدل أن التائب لا يخاف خلاف من يقول: إن الله لا يقبل توبته، ويعاقبه بعد التوبة.

---

(١) وسبحان: سبحان، ن.

(٢) إنه: إني، ن.

وتدل على أن القوم كانوا معاندين.

وتدل على أن الظلم والجحود فِعْلُهُمْ ليس بِخَلْقِ الله تعالى.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾
وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ
ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ
ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا
يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ
وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾

اللغة

الميراث: ما يتركه الماضي للباقي، ثم يستعمل في العلم والمال والولاية وغيرها، وَرِثَ يَرِثُ وراثة.

والوَزْعُ: أصله المنع، وَزَعَهُ من الظلم: منعه، ومنه: «ما يزع السلطان[1] أكثر مما يزع القرآن».

والحَطْمُ: أصله الكسر، ومنه الحُطَمَةُ: اسم من أسماء جهنم.

الإعراب

﴿ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾ إنما يعني النمل، إلا أنها لما فَهِمَتْ وقالت[2]، خرج فِعْلها على فِعْلِ الآدميين.

(١) السلطان: الشيطان، ن. والصحيح ما أثبتناه من: روح المعاني ١٩/ ١٧٤، ومعاني القرآن ٦/ ٢٥٧.
(٢) وقالت: وقال، ن.

﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ جزم؛ لأنه جواب الأمر، إلا أنه أدخل عليه نونًا ثقيلة للتأكيد.

المعنى

ثم عطف على قصة موسى بقصة داود وسليمان عليهما السلام، فقال سبحانه: «**وَلَقَدْ آتَيْنَا**» أعطينا «**دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا**».

ومتى قيل: فما الفائدة في ذكر هذه القصص وتكرارها؟

قلنا: وجوه:

منها: ليعلم أنه كأحدهم.

ومنها: تسلية له في أذى قومه.

ومنها: ليبين أخبارهم معجزة له مع أنه لا يقرأ ولا يكتب.

ومنها: أن ينذر قومه ما نزل بأولئك.

ومنها: ما في ذكرهم من الخير والبركة.

ومنها: ليقتدي بهم.

«**وَلَقَدْ**» تأكيد للكلام، وذِكْرُ العِلْمِ يبين عن تفخيم شأنه، قيل: هو علم التوحيد وسائر أمور الدين، وقيل: العلم بالشرائع، وقيل: القضاء بين الخلق، وقيل: كلام الطير، وقيل: صُنْعهُ الدروع، وقيل: الكتب كالزبور، ولا تنافي بين الجميع فيحمل عليها «**وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ**» بالنبوة والمعجزة والملك «**وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ**» نبوته وعلمه وملكه دون سائر أولاده، وكان لداود سبعة عشر ولدًا ذكرًا، والمراد به: قام مقامه في ذلك، فشبهه بالميراث، كما أطلق اسم الإرث على الجنة تشبيهًا، عن أبي علي. وقيل: ورثه المال، عن الحسن. والأول الوجه للخبر الظاهر: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث».

ثم قال سليمان مظهرًا لنعم الله تعالى وشاكرًا: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ**»

يعني معاني منطق الطير، قيل: كان في أصواتها حروف يفهم بها، وإن كنا لا نفهم، وقيل: كان يعرف المراد لمعاني نغماتها، وقيل: هو داود، وقيل: سليمان، وقيل: إنه فيهما جميعًا «**وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ**» علمًا في كل ما يصلح أن يكون معلومًا، وقيل: من الملك والنبوة والكتاب والتسخير وجميع الخيرات «**إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ**» البين الظاهر من الله تعالى علينا «**وَحُشِرَ**» أي: جُمِعَ «**لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ**» أي: يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا، عن ابن عباس؛ لأنه جعل على كل صنف منهم رئيسًا، وقيل: «**يوزعون**» يدفعون، عن ابن عباس. وقيل: يساقون، عن ابن زيد، ومقاتل. وقيل: يتقدمون، عن الحسن. وقيل: يرتقون، عن السدي. وقيل: «**يُوزَعُونَ**»: يمنعون إن نزلوا عن مراتبهم، وقيل: يساسون؛ لأن من يقوم بأمر الجيش يسوسهم. وعن محمد بن كعب: كان معسكر سليمان مائة فرسخ، خمسة وعشرون للإنس، وخمسة وعشرون للجن، وخمسة وعشرون للوحش، وخمسة وعشرون للطير. وعن مقاتل: نسجت له الشياطين بساطًا فرسخًا في فرسخ ذهبًا في إبريسم، وقيل: كان يقعد على البساط على كرسي وحوله العلماء والناس حولهم، وتظله الطير بأجنحتها ثم ترفع الريح البساط، فيسير مسيرة شهر «**حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ**» قال: فسار سليمان حتى أتى وادي النمل، قيل: واد بالطائف، وقيل: وادي النمل بأرض الشام، عن مقاتل، وقتادة. وقيل: بين بيت المقدس وإصْطَخْرَ «**قَالَتْ نَمْلَةٌ**» قيل: كانت [عرجاء تتكاوس][(١)] مثل الذئب في العظم[(٢)]، وقيل: كانت ذات جناحين، عن الشعبي. وقيل: سمع سليمان كلامها من ثلاثة أميال، عن مقاتل. وقيل: كانت سيدة النمل[(٣)] «**يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ**» أي: لئلا يكسرنكم «**وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ**» لا يعلمون بكم وحَطْمَهُمْ إياكم، وقيل: القوم لا يشعرون بما نقول «**فَتَبَسَّمَ**» سليمان «**ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ**

---

(١) ما بين المعكوفين في ن: عليه عرفا. وما أثبتناه من البحر المديد: ٤/ ٣١٧.

(٢) في تفسير ابن كثير ٣/ ٤٧٦، وفتح القدير ٤/ ٩٢: كانت عرجاء، وكانت بقدر الذئب.

(٣) وفي مجمع البيان للطبرسي المجلد الخامس ١٩/ ٢٠٧: كانت رئيسة النمل.

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ ألهمني **﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا﴾** أي: ومعي العمل الصالح الذي **﴿تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾** قيل: مع عبادك، عن ابن زيد. وقيل: في جملتهم **﴿الصَّالِحِين﴾** الموحدين والمطيعين لك.

۞ الأحكام

يدل قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾ على أن العلم من أعظم ما أَنْعَمَ الله على عباده، وجميع العلوم منه تعالى؛ لأن الضروريات خلقه، والمكتسب هو الذي نصب الأدلة، وأمرنا لنفكر فيها.

ويدل قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على وجوب إظهار شكر المنعم.

ويدل قوله: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ أنه قام مقام داود في النبوة والعلم، ولم يرد إرث المال؛ لأنه خص بذلك سليمان، وذكر ذلك تعظيمًا له، قال أبو علي: للخبر: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة» مشهور لا يدفعه أحد.

ومتى قيل: النبوة واصلة إليه من جهته تعالى لا صنع للميت فيه؟

قلنا: لما كانت النبوة لداود ومات، وقام سليمان مقامه جاز أن يقال: ورثه كما قيل: «العلماء ورثة الأنبياء».

وتدل على معجز لسليمان؛ حيث فهم منطق الطير، وقيل: إنه فهم أصواتها، وقيل: عرف مرادها بصوت خفي، وكلاهما معجزة، وكذلك تسخير الجن والطير معجزة له، وقيل: كان يرى الجن يومئذ كالإنس، وقيل: زاد الله في أجسادهم وقواهم حتى عملوا ما عملوا.

وتدل على أن النعمة على الأسلاف تكون نعمة على الأخلاف؛ لذلك قال: ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾.

وتدل أن شكر النعمة والعمل الصالح فعله.

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾

القراءة

«ما لِيَ» بفتح الياء ابن كثير وعاصم والكسائي، وكذلك في سورة (يس) ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [يس: ٢٢]، وأرسل حمزة الياء فيهما، وفرق أبو عمرو فأرسل هاهنا وفتح في (يس)، قال: لأن هاهنا استفهام، وثَمَّ انتفاء.

وقرأ ابن كثير: «**ليأتينني بسلطانٍ**» بنونين، والآخرون بنون واحدة على الإدغام.

قرأ عاصم ويعقوب: «**فمكَث**» بفتح الكاف، الباقون بضمها(١)، وهما لغتان.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو والحسن: «**من سَبأَ بنبأ**» مفتوحة الهمزتين غير مجراة، والباقون مجرورة منونة فيهما، فمن صرفها جعلها اسمًا لمكان بعينه، أو لرجل بعينه، ومن لم يصرفها جعلها اسمًا لبقعة.

قرأ السلمي والحسن وأبو جعفر وحميد والكسائي ويعقوب: «**ألاَ يسجدوا**» بالتخفيف على تقدير: يا هؤلاء اسجدوا، وجعلوه من أمر الله تعالى مستأنفًا، وحذفوا (هؤلاء) اكتفاء [بدلالة] يا عليها(٢) كقول الشاعر:

---

(١) بضمها: بضمهما، ن. والصواب ما أثبتناه من تفسير التبيان ٨/ ٧٧.

(٢) هكذا في ن. وفي تفسير الطبري ٩/ ٥١٠: فأضمروا هؤلاء اكتفاء بدلالة «يا» عليها.

ألاَ يا اسْلَمِي(١) يا هِنْدُ هِنْدَ بني بدر(٢)

فعلى هذا (**اسجدوا**) جزم؛ لأنه أمر، وإذا وقف عليه قال: (**ألا يا**) ثم يبتدئ: اسجدوا. وقرأ الباقون: «**ألاّ يسجدوا**» بتشديد (**ألاَّ**)، وقيل في تقديره: لئلا يسجدوا، فـ(أن) في موضع نصب، و«**يسجدوا**» نصب بـ(أن)، والوقف على هذه القراءة «**ألا**» ثم يبتدئ: «**يسجدوا**»، واختار أبو عبيد التشديد وقال: للتخفيف وجه حسن إلا أن فيه انقطاع الخبر عن أمر سبأ، وفي هذا يتبع بعضه بعضًا.

وحكى الفراء عن الكسائي عن عيسى الهمذاني قال: ما كنت أسمع المشيخة يقرؤونها بالتخفيف على نية الأمر(٣).

وعن عبد الله: (**هلا يسجدوا**) بالهاء، وفي قراءة أُبيّ: «**ألا يسجدون**» فهاتان القراءتان حجة لمن خفف.

قرأ الكسائي وحفص عن عاصم: «**تُخْفُون**» و«**تُعْلِنُون**» بالتاء على الخطاب، الباقون بالياء على الكناية.

اللغة

فقدت الشيء فقدًا، وتفقدته: طلبته عند غيبته، والفاقد: المرأة، تفقد ولدها وبعلها.

والذبح: قطع الحلقوم وفَرْيُ الأوداج بما يعقبه خروج الدم.

والقتل: نقض البنية الحيوانية يعقبها زهوق الروح، وأما الموت فقيل: عرض

---

(١) اسلمي: سلمي، ن.

(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن المجلد الخامس ج١٩/ ٢١٢، وتفسير الطبري ٩/ ٥١٠. وفي تفسير البغوي ١/ ١٥٧ وفتح القدير ٤/ ١٩٠: ألا ياسلمي ياهند هند بني بكر والبيت قائله الأخطل وتكملته:

ألا يا اسلمي يا هند بني بدر ... وإن كان حيّانا عِدى آخر الدهر

انظر: ديوان الأخطل، دار صادر، بيروت.

(٣) الأمر: الأجر، ن. انظر: القرطبي، وفتح القدير.

يضاد الحياة يخلقه الله تعالى لا يقدر عليه غيره، وقيل: بل هو عدم الحياة، والأول الوجه لقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: ٢].

والمُكْث واللَّبْثُ نظيران: وهو الاستمرار على حال، والمكث عرض من جنس الأكوان.

والخَبْءُ: كل شيء غائب، وهو هاهنا بمعنى المخبوء، وقع المصدر موقع الصفة، خَبَأْتُهُ أَخْبَؤُهُ خَبْأً[1]، والمُخْبَأَة[2]: الجارية التي تُخْبَأ[3] مرة، وتظهر أخرى.

۞ الإعراب

«أَمْ كَانَ» استفهام، واختلفوا فقيل: الميم صلة، وتقديره: أكان، وقيل: (أم) بمعنى (بل).

واللام في «لأعَذِّبَنَّهُ» لام القسم، تقديره: والله لأعذبنه.

و«سبأ» يجوز فيه الصرف وترك الصرف على ما بَيَّنَا.

۞ المعنى

ثم ذكر تعالى معنى لسليمان في الهدهد، فقال سبحانه: «وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ» أي: طلبها وبحث عنها «فَقَالَ مَا لِي لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ» اختلفوا في سبب تفقد الهدهد، فقيل: احتاج إليه في سفره؛ ليدل على الماء، عن ابن عباس. وقيل: كان تفقده لإخلاله برتبته، عن وهب. وقيل: تفقد جنوده هل غاب أحد أم لا؟ فلما لم يجد الهدهد طلبه. وقيل: كانت الطيور تظله، فأخلى الهدهد مكانه، فطلعت عليه الشمس. وقيل: الهدهد يرى الماء في الأرض كما نراه في الزجاج. «أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ» أغائب هو، وقيل: لأنه كان من الغائبين، عن أبي علي. وقيل في قوله: «مَا لِي» هو

---

(١) خبأ: خباء، ن.

(٢) والمخبأة: والخباة، ن.

(٣) تخبأ: تخبو، ن.

من المقلوب كأنه قيل: ما للهدهد لا أراه، وقيل: خرج سليمان ليأتي بيت المقدس، [وزار][1] مكة والحرم، فاحتاج إلى الماء، وتفقد الهدهد. وقيل: أقام بمكة وذبح، وبَشَّرَ الناس بخروج النبي ﷺ، فلما خرج احتاج إلى الماء للصلاة [فتفقد] الهدهد «**لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا**» قيل: تعذيبه نتفُ ريشه، عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك. وقيل: ينتف ريشهم، ويلقيهم في الشمس، عن عبد الله بن شداد. وقيل: يلقيهم في وادي النمل، وقيل: لأفارقن بينه وبين إلفه. وقيل: لأودعنه القفص. وقيل: لأمنعنه من خدمتي «**أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ**» أي: بحجة واضحة تكون له عذرًا في الغيبة «**فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ**» أي: لبث قليلاً، وجاء الهدهد فقال: ما الذي أبطأ بك؟ «**فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ**» أي: علمت ما لم تعلم أنت، ثم فسر ذلك، وقال: «**وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ**» قيل[2]: هو حي من أحياء اليمن، وقيل: هو اسم أمهم، وقيل: اسم رجل، وقيل: اسم مدينة «**بِنَبَإٍ**» بخبر «**يَقِينٍ**» لا شك فيه «**إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ**» أي: تملك أهل سبأ اسمها بلقيس، وقيل: وَلَدُها أربعون ملكًا، وملكت بهم اليمن، قال النبي ﷺ وذُكِرَتْ بلقيس عنده: «لا يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»، «**وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ**» إخبار عن سعة ملكها فقد أعطيت جميع ما يُحْتاجُ إليه من زينة الدنيا وما يكون من الآلات والعدة والأموال «**وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ**» أي: سرير ضخم حسن، وكان مقدمه من ذهب مرصع بالياقوت الأحمر والزمرد الأخضر، ومؤخره من فضة مكلل بألوان الجواهر، وقيل: كان ثلاثين ذراعًا في ثلاثين ذراعًا، وطوله في الهواء ثلاثون، عن ابن عباس. وقيل: بل ثمانين في ثمانين في طول ثمانين، عن مقاتل. «**وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ**» يعني: عبادتهم للشمس «**فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ**» أي: صدهم عن سبيل الحق «**فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ**» إلى طريق الحق «**أَلاَّ يَسْجُدُوا**» قد بَيَّنَّا ما قيل فيه، واختلفوا، فقيل: إنه من كلام الهدهد، قال أبو مسلم: يجوز أن يكون من كلام الهدهد تقريرًا وداعيًا

(١) ما بين المعكوفين أثبتناه من هامش ن. ظ.

(٢) قيل: وقيل، ن.

إلى الدين، قاله بحضرة سليمان، وقيل: هو كلام الله تعالى اعْتَرَضَ في الكلام، واختلفوا في السجود، فقيل: المراد سجود الصلاة، وقيل: المراد الاستكانة والخضوع «لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ» قيل: الغيب وهو ما غاب عن الإدراك، يعني: يعلم غيب السموات والأرض، وقيل: خبء السماء: المطر والرياح، وخبء الأرض: النبات والأشجار «وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ» يعني: يعلم السر والعلانية، فذكر من صفاته ما يختص به ويستحق به العبادة، وهو قدرته على أصول النعم وعلمه بجميع الأشياء «اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ» أي: لا شريك له «رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ» وقيل: هذا أيضًا من كلام الهدهد، وقيل: بل كلام الله تعالى، ومعنى «رَبُّ الْعَرْشِ» يعني خالقه، وخصه بالذكر لقول الهدهد: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾، وقيل: المراد بالعرش: البناء، أي: له خلق البناء الذي لا يقدر عليه أحد.

۞ الأحكام

يدل قوله: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ﴾ على جواز تأديب غير المكلف كما يؤدب المراهق إذا أساء أدبه، وكما ورد الشرع بأمر الصبيان بالصلاة والضرب عليها، وكذلك للسلطان أن يؤدب مَنْ لم يبلغ حد التكليف استصلاحاً(1)؛ لأنهم أجمعوا أن ذلك الطير لم يكن مكلفًا، ولولا الإجماع لجوزنا كونه مكلفًا، ولكن صار كالمراهق يعلم ما يفعل به وما لأجله يفعل.

ويدل قوله: ﴿أَحَطتُ﴾ على عظيم محل العلم، وأن الأنبياء لا يعلمون كل شيء ولا الغيب، حتى خفي على سليمان خبر سبأ، وإذا لم يجب ذلك في الأنبياء ففي الأئمة أولى، فبطل قول الإمامية في ذلك.

ومتى قيل: كيف خفي على سليمان خبرها مع قرب الدار؟

قلنا: هذا كان في ابتداء نبوته، وقيل: عرف خبرهم مجملاً، ففصله الهدهد، وقيل: لم يبلغه خبرهم مصلحة، وقيل: ليعلم أن المحيط بالأشياء هو الله تعالى.

---

(1) استصلاحا: استصلاح، ن.

ويدل قوله: «وَزَيَّن. . .» الآية أن أفعالهم ليست بخلق لله، وأن المُزَيِّنَ هو الشيطان، خلاف قول المجبرة: إن المزين هو الله، والخالق لأعمالهم والصادّ هو الله تعالى.

وتدل على أن غير المكلف قد يعرف الفرق بين من يتمسك بالإسلام وغيره، ونحن قد نعلم ذلك من المراهقين.

ويدل قوله: ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ أن المعارف مكتسبة، وقوله: ﴿بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ يدل على أن غير المكلف يتيقن الأشياء.

﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ
عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ
بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

القراءة

«إنه من سليمان» قراءة العامة بالكسر على الابتداء، وقرئ بالفتح على تقدير: إني ألقي [إليّ] كتاب من سليمان.

وقراءة العامة: «تعلوا» بالعين غير معجمة، وعن أشهب العقيلي بالغين معجمة من الغلو، ولا تجوز القراءة به.

اللغة

العُلُوُّ: التكبر وطلب القهر، وأصله من العُلُوّ في المكان، يقال: علا في المكان يعلو علوًّا، وعَلاَ في المكارم يَعْلَى عَلاَءً، وعلا على فلان علوًا.

الإعراب

«أَلاَّ تَعْلُوا» يحتمل الرفع على البدل من الكتاب، والنصب بمعنى بألاّ تعلوا.

والهاء في قوله: «إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ» كناية عن العنوان، والهاء الثانية كناية عن الشطر الأول.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى بقية حديث سبأ، فقال سبحانه: «قَالَ سَنَنظُرُ» يعني لما سمع سليمان حديث الهدهد قال: سننظر في أمرك «أَصَدَقْتَ» فيما أخبرت «أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ».

ومتى قيل: هلا قال: كذبت؟

قلنا: لأن هذا ألطف وألين، ولأنه قد يكون معهم بالميل إليهم وبالقرابة وما به كذبٌ[1] ككذبهم.

ثم كتب سليمان كتابًا وختمه بالمسك؛ على ما حكى الله تعالى قال للهدهد: «اذْهَب بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ» قيل: تقديره اذهب بكتابي فألقه إليهم، ثم تَوَلَّ عنهم قريبًا منهم «فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ» وقيل: تقديره: اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم فانظر ماذا يرجعون، ثم تول عنهم، على التقديم والتأخير، عن ابن زيد، وأبي علي، وأبي مسلم. والأول أوجه؛ لأنه يصح من غير تقديم وتأخير، فتول عنهم أي: انصرف «فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ» يردون الجواب، وفي الكلام حذف كأنه قيل: فحملها وألقاها إليهم فقالت، واختلفوا كيف حملها وكيف ألقاها، قيل: بمنقاره، وطار حتى وقف على رأس المرأة وألقاها إليها وحَوْلَها الملأ، عن مقاتل. وقيل: كانت تقعد للقضاء إلى انتصاف النهار تخرج السرير، ثم تدخل البيت وتنام، فجاء الهدهد ودخل كوة البيت، وألقى الكتاب عند رأسها، ونقر رجلها وتولى، فانتبهت ورأت الكتاب، ففزعت وخافت أن وقع في ملكها شيء، فحملته[2] وخرجت إلى الناس على رأسها يطأطئ رأسه ليخرج من عنقه، ويخرج من حجره، وقيل: أتى بالكتاب إليها وهي على ثلاثة أيام من صنعاء اليمن نائمة في بيتها، فوضع الكتاب على صدرها، عن قتادة. وقيل: كانت لها كوة مستقبلة للشمس تقع الشمس عندما تطلع فيها، فإذا نظرت إليها سجدت، فجاء الهدهد إلى الكوة فسدها بجناحه فارتفعت الشمس، ولم تعلم فقامت

(١) كذب: يكذب، ن.

(٢) فحملته: فحملت، ن.

تنظر، فرمى الكتاب إليها، عن وهب، وابن زيد. فلما أخذت الكتاب ـ وكانت قارئة عربية كاتبة ـ «**قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلأُ**» أي: الأشراف من قومها، قيل: جمعت الأشراف، وهم يومئذ اثنا عشر ألف قائد، مع كل قائد مائة ألف، وقيل: كان أهل مشورتها ثلاثمائة وثلاثة عشر، كل رجل على عشرة آلاف «**إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ**» قيل: حسن، عن قتادة. وقيل: شريف لشرف صاحبه وكرمه، عن ابن عباس، وأبي مسلم. وقيل: سمته كريمًا؛ لأنه كان مختومًا، عن الضحاك. وعن النبي ﷺ: «كرم الكتاب ختمه»، وقيل: كريم؛ لأنه صدره بـ «بسم الله الرحمن الرحيم»، وقيل: كريم بحسن خطه، وجودة لفظه، وبيانه. وقيل: لأن طائرًا أتى به. وقيل: لما يتضمنه من التوحيد. وقيل: لأنه ممن يملك الجن والإنس والطير، وكانت سمعت بخبر سليمان. وقيل: لتواضع كتابه؛ لأنه كتب: من عبد الله سليمان إلى بلقيس ملكة سبأ «**إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**» يعني عنوانه من سليمان، وأول سطر به بسم الله الرحمن الرحيم، ولم يكن لهم بذلك عهد.

ومتى قيل: كيف قيل: «**وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**» ولم تكن لغتهم العربية؟

قلنا: قيل: هو حكاية على المعنى، والحكاية على ثلاثة أوجه: على المعنى فقط، وعلى اللفظ فقط، وعلى اللفظ والمعنى وهو الأصل. فأما الأول: فيعتبر أن يكون معنى الكلامين واحدًا، والثاني: أن يكون اللفظ واحدًا من غير اعتبار المعنى، وفي الثالث: يعتبران جميعًا. وقيل: يجوز أنه كتب بالعربية فلا مانع من حمله على حقيقته.

«**أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ**» لا تعلوا: لا تتكبروا عليّ «**وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ**» قيل: مؤمنين بالله ورسوله، مخلصين في التوحيد، وقيل: مستسلمين لأمري فيما أدعوكم إليه منقادين، وقيل: داخلين في الصلح؛ أي صلحًا بغير حرب.

الأحكام

تدل أن سليمان (عليه السلام) جوز كون خبره صدقًا وكذبًا، فلذلك قال: «سننظر...» الآية.

وتدل أن من لم يَكْمُلْ عقله قد يصدق ويكذب.

وتدل على صحة تحميل[1] الرسالة من لم يكمل عقله.

وتدل على صحة إذن الصبي في التجارة، وأنه تصح المبايعة معه، ويقبل قوله في المعاملات، خلاف قول (الشافعي).

وتدل على أن الاستفتاح كانت شريعة سليمان كما هو شريعة محمد ـ صلى الله عليهما ـ.

وتدل على أن الإسلام فعلهم؛ لذلك صح دعوتهم، ونهيهم عن خلافه.

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ
وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً
أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ
بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ
أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ
صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

القراءة

قرأ حمزة ويعقوب: «أَتُمِدُّونِّي[2]» بنون واحدة مشددة على الإدغام، والباقون بنونين مظهرتين على الأصل، فأما الياء في «أتمدونني» فأثبتها في الوصل دون الوقف أبو جعفر ونافع وأبو عمرو وسهل، وأثبتها في الوصل والوقف ابن كثير ويعقوب وحمزة. وقرأ عاصم وابن عامر والكسائي بحذفها في الوصل والوقف، أما الحذف فللخفة مع دلالة الكسر عليه، وأما الإثبات فعلى الأصل.

---

(١) تحميل: تحمّل، ن.
(٢) أتمدني: أتمدوني، ن.

۞ اللغة

الفُتْيا: بيان الحكم، أفتى المسألة: بيّن حكمها فَتْوَى وفُتْيا، وفي الحديث: «أن قَوْمًا تَفَاتَوْا إليه» أي: تحاكموا.

والإمداد: إلحاق الثواني بالأوائل.

والهدية والعطية من النظائر.

فناظرة: أي: منتظرة، تقول العرب: نظرت فلانًا وأنا ناظره، أي: منتظره.

(بِمَ) أصله «بما»، حذف الألف؛ لأنه استفهام، كقوله: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [النبأ: ١].

والذليل: نقيض العزيز، والعزيز: القادر [على الأشياء لا يمتنع عليه شيء أراد فعله][1]، والذليل: الناقص القوة حتى لا يمكنه الامتناع عن تصريف غيره، والجمع: أعِزَّة.

والصاغر: الذليل، وأصله من الصغر، أي: صغير القدر.

۞ المعنى

ثم بين حالها بعد وصول الكتاب إليها، فقال سبحانه: «**قَالَتْ**» أي: بلقيس للملأ مستشيرة «**يَا أَيُّهَا المَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي**» أي: أشيروا عليّ بالصواب «**مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا**» أي: قاضية فاصلة أمرًا «**حَتَّى تَشْهَدُونِ**» أي: حتى تحضرون وتشيرون عليّ، قيل: قالوا: إنك لا تقاوين[2] سليمان، فمالت إلى الصلح، واختارت بعثة الهدية، وقيل: قالوا: إن كان صاحب دنيا مال إلى المال، وإن كان صاحب دين لم يَمِلْ إليه، والصحيح أنهم قالوا ما حكى الله تعالى عنهم: «**نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ**» في القتال «**وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ**» أي: ذوو سلاح وشدة عند الحرب، عن أبي علي. وقيل: عرضوا عليها القتال بهذا القول، عن ابن زيد. «**وَالأَمْرُ إِلَيْكِ**» فأنت الملكة «**فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ**» تجدينا لأمرك مطيعين فـ«**قَالَتْ**» لما عرضوا الحرب «**إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواقَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا**

---

(١) في ن: القادر لا وجه لا يمنع. وثم ضبط النص من مجمع البيان ـ الطبرسي ـ ١٠/ ٢٨٥.

(٢) تقاوين: تقاوي، ن.

أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً» بالاستعباد، وقيل: إذا دخلوها عنوة، عن ابن عباس. «**أَفْسَدُوهَا**» خربوها «**وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً**» أي: أهانوا أشرافها وكبراءها كي يستقيم لهم الأمر «**وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ**» قيل: هو قول الله تصديقًا لها فيما قالت، وقيل: قال ذلك قومها. قالت بلقيس: «**وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ**» أي: إلى سليمان وقومه بهدية أُصانِعُهُ بذلك عن ملكي «**فَنَاظِرَةٌ**» أي: منتظرة «**بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ**» بقبول أو رد، وقيل: ما يلتمسون من خير أو شر، قيل: أرسلت بوصائف وغلمان على زي واحد، وقالت: إنْ رَدَّ الهدية وأبى إلا المبايعة على دينه فهو نبيّ، وإن قَبِلَ الهدية فإنما هو ملك وعندنا ما يرضيه، عن ابن عباس. وقيل: ألبس الغلمان لباس الجواري وألبس الجواري لبسة الغلمان، عن مجاهد. واختلفوا في عددهم، قيل: مائة وصيف ومائة وصيفة، عن مقاتل. وقيل: ما بين مائتين، عن مجاهد. وقيل: عشرة عشرة، عن الكلبي. وقيل: خمسمائة من الجواري وخمسمائة من الغلمان، عن وهب. وقيل: أهدت إليه صفائح الذهب في أوعية الديباج، وقيل: كانت الهدية مائتي فرس، على كل فرس غلام أو جارية، وقيل: [كانت] الهدية أربع لبنات من ذهب وفضة، وقيل: بعثت الهدية مع رجل(١) من قومها، وانطلق الرسول بالهدايا، وجاء الهدهد فأخبر سليمان، فأمر سليمان الجن أن يضربوا لَبِنَاتِ الذهب والفضة، وأن يبسطوا ذلك حول الميدان، ووقف الدواب عليها حتى بالت وراثت، وأقام الجن والإنس عنده، وقعد على السرير(٢)، واصطف الشياطين والوحوش(٣) والسباع والطيور، فلما دنا القوم ورأوا ذلك رموا ما معهم، وخافوا حتى وقفوا بين يدي سليمان وأعطوه الكتاب، والهدية(٤)، فرد سليمان الهدية و«**قَالَ أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ**» أي: أتبعثون إليّ المال وأنا أدعوكم إلى الله وإلى دينه «**فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ**» يعني: ما آتاني الله من الملك

(١) رجل: رجلا، ن.

(٢) السرير: السير، ن.

(٣) الوحوش: الوحش، ن.

(٤) والهدية: ونسخة الهدية، ن.

والنبوة والحكم خير مما آتاكم من الدنيا، وأنتم تتفاخرون بها «**بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ**» أشار إلى قلة الاكتراث بمال الدنيا «**ارْجِعْ إِلَيْهِمْ**» بالمال «**فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا**» أي: لا طاقة لهم بها «**وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا**» من أرضها وملكها «**أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ**» ذليلون إن لم يأتوني مسلمين.

۞ الأحكام

تدل الآية على حسن المشاورة في الأمور العارضة، وقد ورد الشرع بذلك في قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

وتدل على عقلها فيما دبرت أمرها، حيث لم تتعجل الحرب، ونظرت في أمره.

ويدل قوله﴿فَنَاظِرَةٌۢ﴾ أنها بعثت للاختبار، لا للقبول.

وتدل أنه لم يقبل الهدية، ودعاهم إلى الدين.

وتدل على أن الجهاد كان من شريعة سليمان.

﴿قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ
بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ
قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ
وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ
أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَـٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا
ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ
لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ
قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

۞ القراءة

قرأ ابن كثير في رواية القواس[1] «سَأْقَيْها» و«[على] سُؤْقِهِ» بالهمز، الباقون بغير همز.

قراءة العامة: ﴿عِفۡرِيتٌ﴾، وعن أبي رجاء العطاردي: «**عفاريت**».

۞ اللغة

العفريت: النافذ القواي مع خبث ودهاء، ويقال: عِفْرِيت نِفْرِيت، وعفاريت نفاريت: إذا كان خبيثًا منكرًا شريرًا، وقيل: الظلوم، والجمع: عفاريت وعفارية.

والتنكير: التغيير إلى حال ينكرها صاحبها إذا رآها، وأما الإنكار: فجحد العلم بصحة الشيء، ونقيضه: الإقرار.

والاهتداء: قبول الهدى، يقال: هدى واهتدى.

والصرح: القصر، وكل بناء مشرف فَصَرْحٌ، وصَرْحَةُ الدار: ساحتها[2]، وقارعتها: صحنها، وأصله الوضوح، ومنه: صرّح بالأمر، أي: كشفه وأوضحه، وسمي البناء المشرف: صرحًا؛ لظهوره.

واللُّجّة: معظم الماء، والجمع: لجج، ولُجَّةُ البحر خلاف الساحل، ولَجَّ في الأمر: بالغ بالدخول فيه، والبحر تلاطمت أمواجه.

والمُمَرّد: البناء الطويل، والأمرد: الشاب الذي لم تَبْدُ لحيته، وَمَرَّدَ الغُصْنَ: ألقى عنه لحاه فتركه أمرد، وشجرة مَرْدَاء، والأمرد من الخيل الذي لا شعر عليه، وأصله من الظهور، ومنه المارد: العاتي لظهور شره، ورجل أمرد لظهور مكان شعره.

۞ الإعراب

﴿مَا كَانَت تَّعۡبُدُ﴾ قيل: محله رفع؛ لأن (ما) هو العبادة، وقيل: محله نصب؛ لأن سليمان صدها عن ذلك المعبود.

---

(١) القواس: الفراش، ن.

(٢) ساحتها: وساحتها، ن.

والواو في قوله: «وصدها» واو العطف على ما تقدم، وقيل: واو الحال، تقديره: أم تكون من الذين لا يهتدون أو صدها، عن أبي مسلم.

قوله: ﴿قَوَارِيرَ﴾ «فواعيل» لا ينصرف.

المعنى

ثم بَيَّنَ ما جرى بين سليمان وبينها، فقال سبحانه: «**قَالَ يَا أَيُّهَا المَلأُ**» قيل: لما رجعت الرسل إليها بالرسالة قالت: ما هذا مَلكًا، وبعثت إلى سليمان: إني قادمة عليك، فعند ذلك قال سليمان لأشراف قومه: «**يَا أَيُّهَا المَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا**» قيل: إنها أَمَرَتْ بعرشها فأدخل بيتًا وكّلت به ثقات قومها ونادت بالرحيل، وأخبر الهدهد سليمان بخطر عرشها، فعند ذلك قال: «**أَيُّكُمْ يَأْتِينِي**»، وقيل: بل جلس سليمان يومًا وكان مهيبًا لا يبتدأ بالكلام، فرأى غبارًا قريبًا منه، فقال: ما هذا؟ قالوا: بلقيس، وكان على قدر فرسخ، فحينئذ قال: «**أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا**»، عن ابن عباس. واختلفوا في السبب الذي لأجله خص العرش بالطلب، قيل: أعجبه صفته، فأحب أن يراه، وكان من ذهب وقوائمه من جوهر مكلل باللؤلؤ، عن قتادة. وقيل: أحب أن يعاينها، ويختبر عقلها إذا رأته أتثبته أم تنكره؟، عن ابن زيد. وقيل: ليريها معجزة وقدرة الله تعالى في عرشها، وقيل: علم أنها إن أسلمت حَرُمَ عليه مالها، فأراد أخذه قبل إسلامها «**قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ**» قيل: مستسلمين طائعين، عن ابن عباس. وقيل: مسلمين من الإسلام الذي هو دين الله الذي ألزمه عباده، عن ابن جريج. «**قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ**» قيل: مارد قوي زاهٍ[1]، قيل: هو المسارع المبادر، وقيل: هو الداهية، عن ابن عباس. وقيل: الغليظ، عن الربيع. وقيل: القوي، عن الفراء. وقيل: المتكبر، عن الكسائي. «**أَنَا آتِيكَ بِهِ**» أي: بالعرش «**قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ**» قيل: من مجلسك الذي تقضي فيه بين الناس، عن قتادة. وقيل: كان يقضي بين الناس إلى نصف النهار، عن ابن عباس. وقيل: أن تقوم من مجلس الوعظ والذكر، ولم يكن ذلك الحمل معجزة؛ لأنه تعالى كان قوى الشياطين أيام سليمان، فلما مات سليمان رجعوا إلى حالهم «**وَإِنِّي عَلَيْهِ**» على حمل العرش «**لَقَوِيٌّ**» أي: قادر «**أَمِينٌ**» في ذلك، قيل: قال

(١) زاهٍ: زاهي؛ن.

سليمان: أريد أسرع من هذا «قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ» اختلفوا فيه على قولين، قيل: كان من الملائكة، وقيل: من الإنس، فمن قال بالأول اختلفوا، قيل: هو جبريل، وقيل: مَلَكٌ أيد الله به نبيّه سليمان، ومن قال بالثاني اختلفوا، قيل: هو الخضر، وقيل: آصف وزير سليمان، وكان صدِّيقًا يعلم الاسم الأعظم إن دعا به أجيب، عن ابن عباس. وقيل: رجل من الإنس كان يعلم اسم الله الأعظم، عن قتادة. وقيل: كان رجلاً صالحًا في جزيرة [من جزائر] البحر فخرج ذلك اليوم ينظر [من ساكن الأرض؟ وهل يعبد الله عز وجلَّ أم لا يعبد؟ فوجد] سليمان [عليه السلام] فدعا [بأسم من أسماء الله فإذا هو بالعرش حُمل فأتى به سليمان قبل أن يرتد إليه طرفه][(1)]، عن ابن زيد. وقيل: بل هو سليمان، عن محمد بن المنكدر، وأبي علي، والقاضي، وهو الصحيح؛ لأنه صاحب المعجزة، وهو الذي أعطي الكتاب وعلمه «أَنَا آتِيكَ بِهِ» من يقول: إنه غير سليمان يقول: المخاطب سليمان، ومن يقول: إنه سليمان، يقول: المخاطَب العفريت الذي كلمه، وأراد سليمان إظهار معجزة فتحداهم أوّلاً، ثم أظهر المعجزة، واختلفوا فيما دعا به، قيل: «قال: يا حي يا قيوم»، عن عائشة مرفوعًا. وقيل: قال: إلهنا وإله كل شيء لا إله إلا أنت، عن الزهري. وقيل: يا ذا الجلال والإكرام، عن مجاهد. «قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ» قيل: أراد المبالغة في السرعة، عن مجاهد. وقيل: قبل أن يرجع إليك ما يراه طرفك، عن قتادة. أي: قبل أن يأتيك الشخص [من] مدِّ البصر، وقيل: تمد عينك فلا ينتهي طرفك إلى مرآه حتى آتيك به، عن وهب. وقيل: قبل أن تفتح طرفك وتطرف، وقيل: أراد قبل الوقت الذي تنتظر وصوله إليك، عن أبي مسلم. «فَلَمَّا رَآهُ» يعني رأى سليمان العرش «مُسْتَقِرًّا» محمولاً إليه من اليمن موضوعًا بين يديه، قيل: حمل إليه من اليمن إلى الشام في مقدار رَجع البصر، وقيل: شقت عنه الأرض فظهوره لسليمان معجزة، وقيل: غاب في نفق من الأرض وخرج من نفق في الأرض عند سليمان، وقد قال مشايخنا: يجوز فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أن تحمله الملائكة بأمره تعالى.

---

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي، ج٩/٤٨٩.

وثانيها: أن تحمله الريح.

وثالثها: أن يخلق فيه تعالى حركات متواليات.

وقيل: فيه وجه رابع: أنه أعدمه في ذلك البيت وأعاده في مجلس سليمان، وهذا يصح على مذهب أبي علي حيث يجوز فناء بعض الأجسام دون بعض، فأما عند أبي هاشم فلا يجوز.

«**قَالَ**» سليمان «**هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ**[1] **وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ**»؛ لأن نفعه يعود عليه «**وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ**» أي: غني عن شكر الشاكرين، كريم بالإنعام على من لا يشكر نعمه، ومعنى «**لِيَبْلُوَنِي**» يكلفني.

ومتى قيل: إن كان الذي جاء بالعرش آصف أو غيره فما بال سليمان يشكر؟

قلنا: الصحيح أنه سليمان، وقيل: شكر ليكون مثله في أمته، ولأنه معجزة لسليمان.

«**قَالَ**» سليمان «**نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا**» قيل: غيروا هيئة السرير ننظر هل تهتدي أم لا؟، وقيل: كان العرش عظيمًا فأراد سليمان أن يريها قدرة الله ومعجزة نبوته لِتُسْلِمَ، وكانت من المجوس، وقيل: قُدِّمَ وأخر وزيد ونقص، وقيل: بل تُرِكَ كما كان وعرض عليها، وكان عندها أن سريرها في بيتها موكل به الثقات «**نَنظُرْ أَتَهْتَدِي**» إلى أنه عرشها «**أَمْ تَكُونُ**» من الجاهلين بذلك، وقيل: أتهتدي، أي: تستدل فتهتدي إلى الحق «**أَمْ تَكُونُ**» ممن لا يتفكر ولا يهتدي، عن أبي علي. «**فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ**» فنظرت فيه فـ«**قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ**» فلم تُقِرَّ ولم تنكر، فعرف سليمان كمال عقلها «**وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا**» قيل: هذا من قول سليمان، عن مجاهد. يعني: أوتينا العلم بالله وقدرته على ما يشاء من قَبْلِ هذه المرأة «**وَكُنَّا مُسْلِمِينَ**»، وقيل: أوتينا العلم بإسلامها، ومجيئها طائعة قبل مجيئها «**وَكُنَّا مُسْلِمِينَ**»، وقيل: هو من كلام قوم سليمان، عن أبي علي. على معنى: وأوتينا العلم بالله ودينه من قبل هذه المرأة وأمرها، وقيل: هذا من قول بلقيس لما رأت عرشها عند سليمان قالت: وأوتينا العلم بنبوة سليمان [من قبل ظهور هذه المعجزة أو من قبل هذه الحالة][2] بالآيات المتقدمة قبل هذه الآية وذلك بعثه الرسل والهدهد، عن أبي مسلم. وقيل: هذا من كلام بلقيس

---

(١) أم أكفر: أم أكفرها، ن.

(٢) تفسير اللباب لابن عادل، (ج ١٢/ ص ٣٢٩).

كنا مسلمين منقادين لك طائعين لأمرك «وَصَدَّهَا» منعها «مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ» وهو الشمس أن تعبد الله وتهتدي للحق، عن مجاهد. وقيل: صدها سليمان عما كانت تعبد من دون الله وحال بينها وبينه. وقيل: وصدها الله عند إسلامها عن عبادة غير الله بأمره ولطفه، وقيل: وصدها تلك الدلائل عن عبادة الأصنام. وقيل: صدها عن سليمان عبادتها غير الله «إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ» يعني: كافرة من جملة الكفار. «قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ» قيل: بنى سليمان قصرًا من زجاج كأنه الماء بياضًا، وقيل: الصرح صحن الدار، وقيل: أجرى الماء من تحته وألقى فيه كل شيء من دواب البحر، ثم وضع سريره في صدره وجلس عليه، وإنما أمر بالصرح قيل: لأنه قيل لسليمان: إنها ناقصة العقل؛ لكيلا تحظى عنده، فأراد اختبارها، وقيل: إنما يجمل ذلك ليريها عظم آيات الله لتسلم وقيل: قالوا له: قدمها كحافر حمار، وعلى ساقها شعر كثير، لئلا يرغب فيها، وكانت ولدت بين الجن والإنس، فأراد أن ينظر إلى ساقها، فلما نظر إلى قدمها وكشفت عن ساقيها نظر فوجد خلاف ما قيل، وهذا لا يصح ولا يظن بالأنبياء، ولا يجوز عليه ذلك. وقيل: نظر في الماء فرأى ساقها، والصحيح ما قدمناه أولاً، وقيل: أراد اختبارها بالصرح كما اختبرته بالوصف والصفة. «فَلَمَّا رَأَتْهُ» أي: رأت الصرح «حَسِبَتْهُ لُجَّةً» أي: لجة ماء، أي: معظمه، وقيل: بحرًا، عن ابن جريج. «وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا» لتخوضه إلى سليمان «قَالَ» سليمان «إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ» قيل: مملس، وقيل: مطول «مِن قَوَارِيرَ» من زجاج، وليس ببحر، فلما جلست دعاها إلى الإسلام، وقد رأت المعجزات، فأجابت و«قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي» بالكفر «وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» فحسن إسلامها، وقيل: لما رأته حسبته لجة وظنت أن سليمان يغرقها، فلما علمت حقيقة الأمر قالت: ظلمت نفسي حتى توهمت على سليمان ما توهمت. واختلفوا في أمرها بعد ذلك، فقيل: تزوجها سليمان وأقرها على ملكها، وقيل: زوجها من ملك وردها إلى أرضها، عن وهب. وقيل: انقضى ملكها مع ملك سليمان.

الأحكام

الآيات تتضمن معجزات لسليمان من حديث العرش والصرح وغيرهما، ومعجزة لنبينا ﷺ حيث أخبر عن سرائر أخبارهم من غير أَنْ قرأ كتابًا ولا سمع.

ويدل قوله: ﴿وَصَدَّهَا﴾ أن الصد عن الدين ليس بفعل الله تعالى ولا خلقه.

ويدل قوله: ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ أن الظلم والكفر فعلها.

ويدل قوله: ﴿وَأَسْلَمْتُ﴾ أنها عرفت التوحيد والنبوة فاعترفت بهما.

ويدل قوله: ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ﴾ أن القدرة قبل الفعل؛ لأن سليمان لم ينكر عليه إثبات القدرة قبل الحمل، فيبطل قول المجبرة في الاستطاعة.

قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ
يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾
قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ
تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ
لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا
وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾
وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾

۞ القراءة

قرأ حمزة والكسائي والأعمش ويحيى بن وثاب: «لَتُبَيِّتُنَّهُ»، «ثم لَتقُولُنَّ» بالتاء فيهما وضم التاء الثانية في «لتبيتُنه»، وضم اللام الثانية في «لتقولُن» على الخطاب، وقرأ مجاهد وحميد بالياء فيهما وضم الياء واللام على الخبر عنهم. وقرأ عاصم وابن عامر وأبو عمرو ونافع وابن كثير وأبو جعفر ويعقوب: «لَنُبَيِّتَنَّهُ» بالنون وفتح التاء على الحكاية عن أنفسهم «ثُمَّ لَنَقُولَنَّ» بالنون وفتح اللام على الخبر عن أنفسهم.

قرأ عاصم في رواية أبي بكر: «مَهلَك» بفتح الميم واللام، وقرأ في رواية حفص

بفتح الميم وكسر اللام، وهما بمعنى الهلاك، وقيل: موضع الهلاك. وقرأ الباقون بضم الميم وفتح اللام بمعنى الإهلاك، وقد بيناه في سورة (الكهف).

وقرأ أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: «**إِنَّا دَمَّرْنَاهُم**» بكسر ألف (إنا) على الاستئناف، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب بفتح الألف، وهو قراءة الأعمش والحسن، وفيه وجهان:

أحدهما: الرفع على البدل من (**عاقبة**).

والنصب على البدل من (**كيف**)، ويجوز على الجواب كأنه قيل: ما كان عاقبة أمرهم؟ فقيل: ذهبوا بآثارهم، ويجوز أن يكون (**كيف**) في موضع الحال و(**دمرناهم**) خبر (كان).

قراءة العامة: «**خاوية**» بالنصب، وقرأ عيسى بن عمر بالرفع على الخبر.

اللغة

الاستعجال: طلب الأمر قبل وقته، وهو في الشر مذموم، فهؤلاء الجهال خُوِّفُوا بالعقاب فاستعجلوا به إنكارًا، وقالوا: هلا تأتينا به.

والتَّطَيُّرُ: التشاؤم، وهو نسبة الشؤم إلى الشيء على ما يأتي به الطير من ناحية اليد الشمال، وهو البارح، والسانح إتيانها من جهة اليمين، وأصله من الطير، وكانت العرب تتيمن وتتشاءم لمجيء الطير، وتطيرنا: دخلنا في الطِّيرَةِ، وأصل اطّيرنا: تطيرنا، دخلت فيه ألف الوصل لما سكنت الطاء للإدغام. وطائر الإنسان: عَمَلُهُ.

والرهط: يكون بمعنى الجماعة ما بين الثلاثة إلى العشرة، ويكون بمعنى القبيلة إذا أضيف إلى رجل بعينه، يقال: رهط فلان.

والقسم: اليمين، والتقاسم: التحالف.

والمكر: الخَتْلُ بالحيلة للإيقاع في البلية.

والدمار: الهلاك، دَمَرَ القَوْمُ يَدْمُرُون دمارًا و[1] دمورًا.

---

(١) و: أو، ن.

والخاوي: الخالي الفارغ، والخواء: المكان الخالي، مكان خاوية: لا أنيس بها، خوت الدار تَخْوَى خَوَايَةً وخَوًى وخُوِيًّا، وخوى الرجل فهو خواء وأخوا جوفه، وخويت المرأة: جاعت.

الإعراب

في ﴿تَقَاسَمُواْ﴾ وجهان:

أحدهما: الجزم على الأمر.

والثاني: النصب على تقدير: مقاسمين، أو قد تقاسموا، فحذف.

﴿خَاوِيَةَۢ﴾ نصب على الحال، عن الفراء، والكسائي، وأبي عبيد. وقيل: على القطع، تقديره: فتلك بيوتهم الخاوية، فلما قطع عنها الألف واللام نصب، كقوله: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ﴾ [النحل: ٥٢].

وقال: ﴿فَرِيقَانِ﴾ ثم قال: ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ بلفظ الجمع؛ لأنهم جمع، ولأن كل إنسان واحد من الفريقين يخاصم مثله من الفريق الآخر.

المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى قصة صالح عطفًا على قصة سليمان، فقال سبحانه: «**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا**» هذه نون الكبرياء لا نون الجمع «**إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ**» في النسب «**صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ**» وحده ولا تشركوا به شيئًا «**فَإِذَا هُمْ**» يعني: ثمود «**فَرِيقَانِ**»: فريق مؤمن بصالح، وفريق كافر كاذب به «**يَخْتَصِمُونَ**» أي: يتنازعون في الدين، قيل: اختصامهم ما حكى الله عنهم في سورة (الأعراف)، عن مقاتل، وأبي مسلم. يعني قوله: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ﴾ إلى أن قالوا: ﴿يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب، فـ«**قَالَ**» لهم صالح «**يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ**» قيل: بالعذاب قبل الرحمة، عن مجاهد. يعني: لِمَ تطلبون العذاب والبلاء قبل الحسنة والرحمة، تعدلون عن أسباب الرحمة من الإيمان والطاعة إلى أسباب العقوبة من المعاصي، وقيل: لِمَ تستعجلون بالكفر قبل الإيمان، والتكذيب قبل التصديق «**لَوْلاَ تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ**» أي: هَلاَّ تستغفرون الله، يعني تطلبون مغفرته بالتوبة «**لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**» قيل: متعرضين للرحمة، وقيل: لكي ترحموا «**قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ**» أي: تشاءمنا بك «**وَبِمَنْ**

مَعَكَ» ممن هو على دينك، قيل: أمسك عنهم المطر، وقحطوا فقالوا: هذا من شؤمك وشؤم أصحابك، ولم يعلموا أن ذلك لشؤم كفرهم، وقيل: معناه: خفنا أن يصيبنا بلاء بشؤمك وشؤم أصحابك، فـ «**قَالَ**» صالح: «**طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ**» قيل: مصائبكم، عن ابن عباس. وقيل: ما يصيبكم من الخير والشر والخصب والجدب، وقيل: عملكم، وقيل: ما تخافون منه من العذاب مُعَدّ لكم عند الله، عن أبي مسلم. وقيل: «**عِنْدَ اللَّهِ**» أي: بأمره، وقيل: هو القادر عليه الفاعل له، وقيل: ما لحقكم من الجدب وقلتم: إنه بشؤمي فليس كذلك، بل هو من فعل الله، عن أبي علي. «**بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ**» قيل: معذبون بسوء أعمالكم، عن محمد بن كعب. وقيل: تمتحنون بالخير والشر، عن ابن عباس. وقيل: الفتنة ههنا قبولهم ما زين لهم من الباطل، وقيل: تمتحنون بإرسالي إليكم أتتابعونني وتثابون على طاعتي أوتعاقبون على عصياني «**وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ**» يعني مدينة ثمود وهي الحجر «**تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ**» يعني تسعة نفر، وقيل: كانوا من أشرافهم، وإنما خص هؤلاء الأنفس التسعة بالذكر، قيل: لأنهم كانوا أظهر فسادًا، وقيل: لأنهم سعوا في عقر الناقة، وقيل: لأنهم تحالفوا على قتل صالح «**يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ**» قيل: أسماؤهم: قدار بن سالف، ومصدع، وأسلم، وزهمي، وزهيم، ودعمي، ودعيم، وقبال، وصداف[1]. «**قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ**»، أي: تحالفوا أيها القوم، قيل: الذين عقروا الناقة خافوا العقاب

---

(١) في مجمع البيان في تفسير القرآن م٥/ج١٩/ ٢٣٤: هم قدار، بن سالف، ومصدع، ودهمي، ودهيم، وأسلم، وقتال، وصدف، وفي تفسير القرطبي ١٣/ ١٩٣: قلت: واختلف في أسمائهم فقال الغزنوي: وأسماؤهم قدار بن سالف، ومصدع، وأسلم، ودسما وذهيم، وذعما، وذعيم، وقتال، وصداق. ابن إسحاق: رأسهم قداربن سالف، ومصدع بن مهرع، فأتبعهم سبعة هم: بلع بن ميلع، ودعير بن غنم، وذؤاب بن مهرج، وأربعة لم تعرف أسماؤهم، وذكر الزمخشري أسماؤهم عن وهب بن منبه: الهذيل بن عبد رب، غنم بن غنم، دياب بن مهرج، مصدع بن مهرج، عمير بن كروية، عاصم بن مخرمة، سبيط بن صدقة، سمعان بن صقي، قدار بن سالف، وهم الذين سعوا في عقر الناقة، وكانوا عتاة قوم صالح، وكانوا من أبناء أشرافهم. السهيلي: ذكر النقاش التسعة الذين كانوا يفسدون في الأرض ولا يصلحون وسماهم بأسمائهم وذلك لا ينضبط برواية غير أني أذكره على وجه الاجتهاد والتخمين، ولكن نذكره على ما وجدناه في كتاب محمد بن حبيب وهم: مصدع بن دهر ويقال: دهم، وقدار بن سان، ومريم، وصواب، ودياب، وداب، ودعما، ودعين بن عمير. قلت: وقد ذكر الماوردي أسماءهم عن ابن عباس فقال: هم: دعما، ودعيم، وهرما، وهريم، وداب، وصواب، ودياب، ومسطح، وقدار، وكانوا بأرض المجر؛ وهي أرض الشام).

فتوهموا أن صالحًا قتل لما أتاهم العذاب، فاجتمعوا وتقاسموا على قتله وقَتْل من معه من المؤمنين، وقيل: لما مُتِّعُوا ثلاثة أيام خافوا العذاب ودبروا في قتله، أخذهم العذاب، فقالوا عند التحالف: «لَنُبَيِّتَنَّهُ» أي: لنأتينه ليلاً ولنقتلنه «وَأَهْلَهُ» الذين معه على دينه، وأصله من البيات، ثم طلبوا عذرًا عند أوليائه؛ لأنه كان فيهم شوكة وعُدَّة، فقالوا: «ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ» لولي دمه «مَا شَهِدْنَا» أي: ما حضرنا «مَهْلِكَ أَهْلِهِ» أي: إهلاكهم، وعلى قراءة عاصم هلاكهم أو موضع هلاكهم «وَإِنَّا لَصَادِقُونَ» في هذا العذر، قيل: لما اجتمعوا وأتوا صالحًا دفعتهم الملائكة بالحجارة، عن ابن إسحاق. وقيل: أخذتهم الصيحة، وأمطرت عليهم الحجارة «وَمَكَرُوا مَكْرًا» أي: دبروا واحتالوا حيلة حتى قصدوا بيت صالح والفتك به، وسمي مكرًا؛ لأنهم احتالوا ذلك سرًّا «وَمَكَرْنَا مَكْرًا» قيل: جازيناهم على مكرهم، فسمي الجزاء على المكر مكرًا، وقيل: معناه: دبروا شرًّا وحيلة في أمر صالح، ودبرنا عليهم ما خفي عليهم في أمرهم وأخبرنا صالحا أن عاقبة مكرهم تعود عليهم، وقيل: جازيناهم من حيث لم يشعروا به، وقيل: دبرنا عليهم، فخرج من بينهم، فسمي ذلك مكرًا توسعًا، عن أبي علي. «وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ» قيل: لا يعلمون «فَانظُرْ» يا محمد أو أيها السامع «كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ» أي: كيف آل عاقبة مكرهم عليهم، فكذلك نفعل بكفار قومك، وقيل: لِتَعْتَبِرْ أيها السامع بهم «أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ» أي: أهلكناهم، والمراد التسعة، واختلفوا في هلاكهم، قيل: أرسل الله تعالى الملائكة لما دخلوا دار صالح، فدمغتهم بالحجارة من حيث يرون الحجارة ولا يرون الملائكة، عن ابن عباس، وابن إسحاق. وقيل: خرجوا إلى صالح مسرعين فسلط الله عليهم صخرة فدمغتهم، عن قتادة. وقيل: نزلوا سفح جبل ينظر بعضهم بعضًا ليأتوا صالحًا، ونزلوا حدبًا من الأرض يكمنون[1] فيه فانهارت عليهم، عن السدي. «وَقَوْمَهُمْ» أي: أهلكنا قومهم، قيل: بالصيحة «فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا» يعني: بيوت ثمود، وهي بوادي القرى بين المدينة والشام «خَاوِيَةً» خربة خالية «بِمَا ظَلَمُوا»، «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً» لعبرة، قيل: فيما تقدم من القصص، وقيل: في إخلاء ديار ثمود «لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ، وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا» من العذاب، صالح ومن تبعه «وَكَانُوا يَتَّقُونَ» الكفر والمعاصي.

(١) يكمنون: يكتمنون، ن.

۞ الأحكام

تدل الآية على ما ذكرنا أن عادة الأنبياء الدعاء إلى التوحيد والعدل أولاً.

وتدل أن للمؤمن أن يخاصم الكافر في الدين، فتدل على صحة الحجاج.

وتدل أن الرحمة تنال بالاستغفار.

وتدل أنهم لما ذكروا أنهم تشاءموا به أجاب بأن ذلك يأتيهم من جهة الله تعالى.

ومتى قيل: أليس روي أن الطيرة شرك؟

قلنا: هو على وجهين: أحدهما: من أضاف فعل الله من المجيء والذهاب إلى غيره فهو شرك، ومن أضاف إلى الله وجعل أحدًا سببًا فيه فليس بشرك، ثم قد يكون فسقًا وقد يكون صدقًا، وهذه من الأشياء التي كانت يعتقدها أهل الكفر فأبطلها الإسلام كالعدوى ونحوه، فقال ﷺ: «لا هامة ولا عدوى ولا صَفَرَ».

وتدل على عظم حال أولئك التسعة في المعصية.

وتدل أن كل مَنْ مكر في الدين الحق أنه تعالى يبطل كيده، ويجعل دائرة السوء عليه.

وتدل على أن الظلم يعقب خراب البيوت، وعن ابن عباس: أجد في كتاب الله الظلم يخرب البيوت، وتلا هذه الآية، وروي أنه كذلك في التوراة.

وتدل أن ذلك المكر والظلم فعلهم؛ لذلك أضافه إليهم، وعاقبهم عليه.

قوله تعالى:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾

۞ القراءة

قرأ عاصم وأبو بكر ويعقوب: «يُشْرِكون» بالياء، والباقون بالتاء على الخطاب.

۞ اللغة

الغابر: الباقي، يقال: غَبرَ مضى، وغَبرَ: بقي، وهو من الأضداد.

والإنذار: الإعلام بموضع المخافة، ومنه: النذير.

والاصطفاء والاجتباء والاختيار نظائر، وهو إخراج الصفوة.

۞ الإعراب

نصب (لوطًا) لمحذوف، أي: وأرسلنا لوطًا، وقيل: واذكر لوطًا، وقيل: هو عطف على قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾.

ويقال: لماذا كان ﴿جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ بالنصب أولى منه بالرفع على أنه اسم (كان)؟

قلنا: لأن ما بعد (إلا) إيجاب، وما قبلها نفي، والنفي أحسن بالخبر من الإيجاب؛ ولذلك قال: ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾ [الجاثية: ٢٥] واسم (كان) قوله: ﴿أَن قَالُوٓا۟﴾.

«الحمد» رفع على الابتداء و«لله» خبر الابتداء، وقيل: أمر، أي: وقل: سلام على عباده الذين اصطفى، تم الكلام ههنا، ثم استأنف: «ءآلله» على الاستفهام.

۞ النظم

يقال: كيف اتصل قوله: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ بما قبله؟

قلنا: قيل: إنه أمر لوطًا بأن يحمد الله على هلاك أعدائه، واتصل بقصته، وقيل: أمر للنبي ﷺ أن يحمد الله على هلاك كفار الأمم، وقيل: أمره بأن يحمد الله؛ إذ علمه هذه الأمور والقصص، عن مقاتل. وقيل: أمره بأن يحمد الله على ما منّ عليه من النبوة، عن أبي علي.

ويقال: كيف يتصل: ﴿وَسَلَٰمٌ﴾ بما قبله؟

قلنا: تقدم ذكر الأنبياء فأمر بالسلام عليهم.

ويقال: كيف يتصل: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ﴾ بما قبله؟

قلنا: لما ذكر شركهم وهلاكهم بسببه بين أن المستحق للعبادة هو وحده.

المعنى

ثم ذكر قصة لوط عطفًا على ما تقدم، فقال سبحانه: «**وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ**» أي: القبيح الشنيع، وهو إتيان الرجال «**وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ**» قيل: تبصرون أنها فاحشة، وقيل: وأنتم ذوو رأي، وليس هذا فِعْلَ مَنْ له رأي وتمييز، عن أبي مسلم، وأنكر أن يكون المراد رؤية البصر. وقيل: المراد به رؤية البصر، أي: يرى ذلك بعضكم من بعض، يفعلون عَدْوًا وتمردًا، عن أبي علي.

ثم فسر الفاحشة: «**أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ**» الحق، قيل: تجهلون ما فيه من العقوبة «**فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ**» قيل: عن إتيان الرجال في أدبارهم، عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. يعني: إذا تطهروا من ذلك لا يريدون مجاورتكم فأخرجوهم، قيل: قالوا استهزاءً، وقيل: معناه: يطلبون أطهار النساء؛ أي: الوطء في حال الطهر، عن أبي مسلم. «**فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ**» أي: لوطًا ومن آمن به «**إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا**» قضينا عليها، وقيل: كتبنا عليها أنها «**مِنَ الْغَابِرِينَ**» الباقين في العذاب؛ لأنها شاركتهم في الشرك، ورضيت بفعلهم «**وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا**» وهو الحجارة، قيل: مُطِرُوا ثم جيِّفوا، وقيل: مُطِرَ القليبُ، وخُسِفَ الحاضرون في المدينة فهم يهوون إلى يوم القيامة، عن الحسن. «**فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ**» أي: الكفار، وقُلْ[1]: الخطاب للوط، وقيل: للنبي ـ صلى الله عليه وآله ـ، ويحتمل لكل من سمع. «**الْحَمْدُ لِلَّهِ**» قيل: على إهلاك كفار الأمم، وقيل: على ما علمتك من هذه الأمور، وقيل: على نعمه دينًا ودنيا «**وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى**» أي: اختار، قيل: هم الأنبياء؛ أي: اصطفاهم لرسالته، عن مقاتل. وقيل: هم أصحاب محمد، عن ابن عباس، والحسن، وسفيان. وقيل: الأنبياء والمؤمنون الذين خصهم بالنجاة، عن الحسن. «**ءَاللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ**» أي: أنه خير في أن يعبد أم الأصنام؟ عن ابن عباس. وهذا استفهام والمراد

---

(١) و«قُلْ»: وقيل، ن.

أن عبادته وهو الإله الذي ينفع ويضر خير من عبادة حجر، لا ينفع ولا يضر، فهو تقرير، وروي أن النبي ﷺ كان يقول عنده: «بل الله خير وأبقى، وأجل وأكرم».

۞ الأحكام

تدل قصة لوط على نجاة المؤمنين، وهلاك الكافرين، وأن امرأته فيمن هلك.

ومتى قيل: ما الفائدة في تكرير هذه القصص؟

قلنا: القرآن نزل في ثلاث وعشرين سنة، فكل قصة في مقام آخر، فلا يعد تكرارًا، وقيل: لأنها تتضمن من عجيب الفصاحة ما يدل على إعجاز القرآن، فإن الواحد منا إذا ذكر قصة مرتين انحدر كلامه إلى الدرجة الأخيرة، والله تعالى كرر هذه القصص في مواضع بألفاظ عجيبة، وهذا من عظيم الفائدة.

ويدل قوله: «**وأمطرنا**» أن في القرآن مجازًا؛ لأنه سمى الحجارة مطرًا.

ويدل قوله: «**وسلام**» أنه يجوز السلام على المؤمنين كما يجوز على الأنبياء، فبين عن عظم درجة المؤمنين.

ويدل قوله: ﴿ءَآللَّهُ﴾ أنه المستحق للعبادة. والعباد الذين اصطفاهم الذين يقولون: الله خير؛ لأنهم(١) أهل عدول وهم أهل التوحيد والعدل دون أهل الجبر لوجوه:

منها: أن الله تعالى عندهم خير للخلق من كل شيء؛ لأنه مأمول خيره مأمون شره، لا يفعل إلا ما فيه صلاحهم وهو الخير والصلاح، وعند المجبرة الأصنام خير؛ لأن عندهم يُؤْمَنُ شرهم، والله لا يؤمن شرّه عندهم؛ لأنه يفعل جميع القبائح، ويخلق الكفر، ويعذب بغير ذنب.

ومنها: أن عندهم من عبد الله استحق الجنة ولا يعاقبه البتة، وعند المجبرة يجوز أن يدخل النار ويعذبهم أبدًا ويدخل الفراعنة الجنة.

ومنها: أنه قال: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ﴾، وعندهم أنه تعالى يجيبهم يكفي أمرهم ويفعل بهم ما هو أصلح، وعند المجبرة هو الذي أوقعهم في هذه المضار والشرور.

---

(١) لأنهم: لأن، ن.

ومنها: أن عندهم أنه يكشف السوء، وعند المجبرة كل الأسواء منه.

ومنها: أنه قال ذامًّا لهم: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾، ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾، فعندهم هم الذين فعلوا ذلك، وعند المجبرة هو الفاعل الخالق لذلك.

ومنها: أن عندهم أنه المستحق للعبادة والخير لِمَا له مِنْ النعم، وعندهم لا نعمة على الكفار؛ لأنه خلقهم للكفر والنار.

قوله تعالى:

﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾

القراءة

قرأ أبو عمرو: «يَذْكُرُون» بالياء على الكناية، والباقون بالتاء على الخطاب.

وقوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ بَيَّنَّا أن أهل الكوفة والشام قرؤوا بهمزتين، وأن أهل الحجاز والبصرة بهمزة ملينة ومَدَّةٍ.

اللغة

الحديقة: البستان عليه حائط، وكل ما أحاط به البناء فهو حديقة، يقال: [حَدَقَ به] وأحدق.

والبهجة: الحسن، بهيج وباهج: حَسَنٌ، وأصله الابتهاج وهو السرور، كأنه يستر به من يراه لحُسْنِهِ.

والقرار: المكان المطمئن الذي يستقر فيه الماء وغيره، ويقال للروضة المنخفضة: القرارة، ومنه الحديث في علي، قال ابن عباس: (علمي إلى عِلْمِ عَلِيٍّ كالقرارة في المُثْعَنْجَرِ) أي: كالغدير في البحر.

وخلال الشيء: وسطه، واحده: خَلَلٌ، نحو جبل وجبال، أصله من الخلل: الفرجة تقع في الشيء.

والنهر: المجرى الواسع من مجاري الماء، وأصله الاتساع، ومنه: النهار لاتساع ضيائه، ومنه: «ما أَنْهَرَ الدَّمَ» أي: أجراه، قال الشاعر:

مَلَكْتُ بها كَفِّي فَأَنْهَرْتُ فَتْقَهَا[1]

أي: أوسعت.

والرواسي: الجبال الثابتة، رست ترسو: إذا ثبتت.

والحاجز: المانع، والحُجْزُ: العشيرة؛ لأنه يمتنع بهم، ومنه: إن رُمْتَ المُحَاجَزَةَ فَقَبْلَ المناجزة؛ يعني إن أردت المسالمة فقبل المحاربة.

والمضطر: مفتعل من الضرورة بفتح العين، ولفظ الفاعل والمفعول فيه متفق إذا لم يظهر التضعيف، فيقال: مُضْطَرٌّ لمن اضطر غيره، فإذا أظهرت التضعيف افترق الفاعل والمفعول، فقلت في الفاعل: مُضْطَرِرٌ على بناء «مُفْتَعِل» بكسر العين، وفي المفعول: مُضْطَرَرٌ بفتح العين، والمضطر المدفوع إلى ضيق شديد، وأصله من قرب الشيء ولزومه، عن أبي مسلم.

والبرهان: البيان بحجة، بَرْهَنَ قوله: بيَّنه بحجة، والبرهان: إظهار المعنى للنفس.

---

(١) البيت قائله قيس بن الخطيم وتمامه:

ملكت بها كفي فأنهرت فتقها ... يرى قائم من دونها ما وراءها

أنظر: ديوان قيس بن الخطيم، تحقيق ناصر الدين الأسد، دار صادر، بيروت، ١٩٦٧، ص ٤٦.

الإعراب

يقال: لم قال: ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ ولم يقل: ذوات، والحدائق جمع؟

قلنا: على تقدير: كل واحدة ذات حسن، فإذا قيل: ذوات أراد الجميع، يقال: نساؤك ذات حسن وذوات حسن على هذا.

ويقال: بم ينتصب «قليلاً»؟

قلنا: صفة لحذف، أي: يتذكرون تذكرًا قليلاً، بحذف المصدر، وقيل: نصب على الظرف أي: لا يتذكرون إلا في أوقات قليلة.

المعنى

ولما تقدم الأمر بعبادته عقّبه بذكر الدلائل على توحيده المتضمنة لنعمه التي بها يستحق العبادة، فقال سبحانه: «**أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ**» قال أبو حاتم: فيه إضمار، تقديره: آلهتكم خير أم الذي خلق السماوات والأرض «**وَأَنزَلَ لَكُم مِنَ السَّمَاءِ مَاءً**» يعني: المطر «**لَكُمْ**» أي: لمنافعكم، قيل: ينزله من السحاب، وقيل: ينزله من السماء، وهو الظاهر، ولا مانع منه «**فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ**» أي: بالمطر نبت أشجار بساتين «**ذَاتَ بَهْجَةٍ**» أي: ذات حُسْنٍ، وقيل: ذات ثمار يأكلها الناس «**مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا**» (ما) ههنا للنفي، أي: لا تقدرون على إنبات الأشجار «**أَءِلَهٌ مَعَ اللَّهِ**» أي معبود معه يخلق مثل خلقه أو يعينه على فعله، هذا استفهام والمراد الإنكار، أي: ليس معه إله يفعل هذا «**بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ**» بالله غيره لجهلهم، يعني: يسوون، من قولهم: عدل يعدل عدلاً، إذا سوّى بين الشيئين، وقيل: يعدلون عن الحق إلى الشرك. «**أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا**» أي: مكانًا تستقرون عليه؛ كيلا تميد بكم، وتتصرفون فيه «**وَجَعَلَ خِلالَهَا**» أي: وسطها «**أَنْهَارًا**» وأجرى فيها المياه، «**وَجَعَلَ لَهَا**» أي: للأرض «**رَوَاسِيَ**» أي: جبالاً ثوابت كالأوتاد «**وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا**» أي: بين العذب والمالح مانعًا كيلا يختلطا، وقيل: أراد بالحاجز الجزائر الذي ينتفع بها الخلق للأبنية عليها وسكونها «**أَءِلَهٌ مَعَ اللَّهِ**» أي: معبود سواه يقدر على ذلك «**بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ**» الحق؛ لأنهم لم يتفكروا فيعلموا المدبر، بل قلدوا متبوعهم. «**أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ: إِذَا دَعَاهُ**» قيل: المضطر: المجهود، عن ابن عباس. وقيل:

الذي يجيب دعاءه إذا دعاه «وَيَكْشِفُ السُّوءَ» أي: الضر والضيق الذي يسوؤه «وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ» أي: يجعلكم خلفاء الأرض وسكانها، يعني: يخلف أهل العصر الثاني أهل العصر الأول، فيهلك قرنًا، وينشئ قرنًا «أَءِلَهٌ مَعَ اللَّهِ» أي: أمعبود سواه يقدر على ذلك؟! يعني لا يقدر عليه غيره «قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ» أي: لا تتفكرون في هذا «أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ» يدلكم ويرشدكم «فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ» إذا سافرتم وحُصِرْتُمْ، والذي يهدي لمصالح الدنيا بما أنعم، ولمصالح الدين بما شرع «وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ» بالباء من البشارة، وبالنون متفرقة «بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ» أي: أمام المطر وليس للمطر يد، وإنما هو تَوَسُّعٌ «أَءِلَهٌ [مَعَ اللَّهِ]» غيره يقدر أن يفعل ذلك «تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ» أي: جل عن الشريك كما يزعمه المشركون ويصفونه به «أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ» بأن يحدثهم من العدم ابتداء لا على سبيل الاحتذاء «ثُمَّ يُعِيدُهُ» بعد الإفناء للجزاء، يعني: أنه المختص بالقدرة على ابتداء الأجسام وأكثر الأعراض وإعادتها، فكان هو الله المعبود حقًا «وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ» بالمطر «وَالأَرْضِ» بالنبات «أَءِلَهٌ مَعَ اللَّهِ» أي: إله سواه يفعل ذلك «قُلْ» يا محمد «هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ» أي: حجتكم «إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ» في قولكم: إن سواه إله.

الأحكام

تدل الآيات على إثبات الصانع وصفاته ونعمه، منها: أنه الإله المستحق للعبادة، فبدأ الخلق بالسماوات وما فيها من العبر، نحو: خَلْقِها ثم رَفْعِها ثم تزيينها بالكواكب، ثم تسيير الكواكب والأفلاك، ثم سكونها، ثم ما فيها للخلق من المنافع، ثم جريان الشمس والقمر وبزيادة القمر ونقصانه، وما يتعلق بهما من الليل والنهار والشهور والأعوام وغير ذلك من الآيات، ثم ثنى بذكر الأرض بما فيها من الدلالة في خلقها، وسكونها، وما فيها من الأنهار الجاريات، والجبال الراسيات التي جعلها خزائن لنعمته، وجعل لهم سبلاً إلى استخراج ما أودعه، ثم ذكر المطر وما فيه من العبر والمنافع، وما ينبت به من الأشجار والنبات والأزهار مع أنه تعالى يسكنه حالاً بعد حال بخلق السكون فيه، على ما قاله أبو علي، وإن كان [على] ما قاله أبو هاشم فإنه يجوز أن يكون جعل في نصفه الأعلى اعتمادًا سفليًا، وفي نصفه الأسفل اعتمادًا علويًا، غير أنه في الوجهين هو المسكن بقدرته، ثم ذكر البحر وما فيه من العبرة

والمنفعة، بَيَّنَ أنه مع عظمته يجيب دعاء الداعين، ويكشف السوء عن المضطرين، ويهدي إلى سبيل الدنيا والدين، وأنه يبدأ الخلق ثم يعيده، ويرزق الأحياء، كل ذلك دلالة على توحيده.

وتدل على أن أفعال العباد لا يجوز عليها الإعادة على ما قاله مشايخنا، وأنه المختص بالإعادة، كما أنه المختص بالقدرة على الأجسام وأكثر الأعراض.

ويدل قوله: ﴿هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾ أن كل مذهب لا دليل عليه فهو باطل.

قوله تعالى:

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَـٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

القراءة

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ومجاهد ويعقوب: «بَلْ أَدْرَكَ» بقطع الألف وسكون الدال. وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي: «بَلِ ادَّارَكَ» بكسر لام (بلِ) موصولة الألف مشددة الدال بعدها ألف، وهو قراءة الحسن والأعمش، وروي عن أبي بكر عن عاصم بوصل الألف وتشديد الدال ليس بعدها ألف[1]، أما الأول: فقيل: من الإدراك وهو اللحوق، والثاني: بمعنى تدارك وتتابع علمهم في الآخرة هل هي كائنة أم لا، وقيل: هما جميعًا بمعنى، وروي عن ابن عباس «بَلَى»[2] بإثبات الياء[3]» بغير ألف وتشديد الدال على الاستفهام، وروي عنه: (بَلَى[4] أَدْرَكَ وتتابع

(١) قرأ: (بَلِ ادَّرَكَ).

(٢) بلى: بل، ن.

(٣) يقصد الألف المقصورة التى تكتب على شكل ياء.

(٤) بلى: بلا، ن. وما أثبتناه من مجمع البيان في تفسير القرآن المجلد ٥ ج٢٠/ ٢٤٢، وفيه: وقراءة ابن عباس (بلى) بياء (أدرك).

عليهم في الآخرة، قيل: هي كائنة، وقيل: بالألف، أي: لم يُدْرَكْ، قال الفراء: وهو وجه جيد، كأنه وجهه إلى الاستهزاء بالمكذبين بالبعث، كقولك[(١)] [لرجل][(٢)] تكذّبه: بلى لعمري لقد أدركت السلف وأنت تروي ما لا يروي أحد [وأنت][(٣)] تكذبه، [وقرأ][(٤)] **سليمان بن يسار وعطاء**: «بَلِ ادَّرَكَ» غير مهموز، وقرأ ابن محيصن: «بَلْ أَدْرَكَ» على الاستفهام أي: لم يدرك.

قرأ ابن كثير: «ضِيق» بكسر الضاد، الباقون بفتحها، قال ابن السكيت: هما لغتان بمعنى، وقال الفراء: بالفتح: ما ضاق عنه صدرك، وبالكسر: ما يكون في الذي يتسع ويضيق كالدار والثواب.

فأما قوله: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾ ﴿أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ فقد بَيَّنَّا من قبل أن أبا جعفر ونافع قرآ في الأول بكسر الألف غير مستفهم، وفي الثاني بالاستفهام وبهمزة ممدودة، وأن ابن عامر والكسائي قرآ في الأول بهمزتين، وفي الثاني بنونين من غير استفهام، وقرأ ابن كثير ويعقوب في الأول بالاستفهام بهمزة غير ممدودة، وكذلك في الثاني بهمزة غير ممدودة على الاستفهام، وفيهما همزة ممدودة على عادته في الاستفهام، وقرأ عاصم وحمزة بالاستفهام فيهما بهمزتين.

۞ اللغة

الإدراك: اللحوق، تدارك القوم لحق أولهم آخرهم، وأدركوا: تتابعوا، والإدراك: الإلحاق، ومنه: أدرك قتادة الحسن.

والأساطير: جمع أسطور، وهو مما يكتب.

والضيق: خلاف السعة، يقال: في قلبه ضيق، وضاق الرجل: بَخِلَ[(٥)]، وأضاق: افتقر.

(١) كقولك: كقوله، ن. وما أثبتناه من: تفسير القرطبي ١٣/ ٢٠٣.
(٢) ما بين المعكوفين في ن مطموس. وما أثبتناه من تفسير القرطبي ١٣/ ٢٠٣.
(٣) ما بين المعكوفين زيادة من تفسير القرطبي ١٣/ ٢٠٣.
(٤) ما بين المعكوفين مطموس في ن. وما أثبتناه من تفسير القرطبي ١٣/ ٢٠٣.
(٥) بخل: بخيل، ن.

الإعراب

قال الفراء: إنما رفع ما بعد (إلا)؛ لأن قبلها، جحْدًا كما تقول: ما ذهب أحد إلا أبوك، كأنه قيل: ذهب أبوك.

وقيل: معنى (بل) ههنا معنى (هل) أي: [هل] علموا علم الآخرة أم هم في شك؟ عن ابن الأنباري. وقيل: (هل) يدرك بمعنى (أم)، والمراد به الاستفهام، والميم صلة أي: ادَّارك[1] علمهم في الآخرة؟! أي: لم يدرك، بل هم في شك لجهلهم بالآخرة، وقد تضع العرب (بل) موضع (أم) في مواضع، وقيل: بمعنى (لو) أي: لو ادَّارك[2] علمهم في الآخرة لم يَشُكُّوا، ولأجل شكهم صاروا عمين.

النزول

قيل: نزل قوله: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ﴾ في المشركين حين سألوا رسول الله عن وقت الساعة.

وقيل: نزل قوله: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ في المستهزئين الذين اقتسموا عقار مكة، وقد مضت قصتهم.

المعنى

لما تقدم دلائل الوحدانية عقبه بذكر النشأة الثانية، فقال سبحانه: «**قُلْ**» يا محمد «**لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ**» قيل: الغيب ما غاب عن[3] الحواس ولا دليل عليه عقلاً أو سمعًا، وقيل: هو ما لا يعلم ضرورة ولا اكتسابًا «**بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ**» وقيل: علموا ذلك لما عاينوا حين لا ينفعهم اليقين مع شكهم في الدنيا، عن ابن عباس، ومجاهد، وأبي علي. يعني هؤلاء لو لم يعلموا في الدنيا يعلمون في الآخرة ضرورة. وقيل: بل غاب وضل علمهم في الآخرة، فليس

---

(١) ادَّارك: ادراك؛ ن.

(٢) ادَّارك: ادراك؛ ن.

(٣) عن: من، ن.

لهم بها علم. وقيل: اجتمع علمهم في الآخرة أنها كائنة «**بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ**» من وقتها وحينها. وقيل: معناه: لو أدرك علمهم في الآخرة ما كانوا في شك منها؛ لكن هم في الدنيا عنها عمون، وقيل: لم يدرك علمهم في الآخرة؛ بل هم منها في شك، وقيل: هذا العلم أدرك العقلاء جميعًا عقلاً وسمعًا؛ لأن العقل يقتضي أن الإهمال قبيح، فلا بد من تكليف، والتكليف يقتضي الجزاء، فإذا لم يكن في الدنيا فلا بد من دار الجزاء، فهذا العلم أدركه العقلاء لو تفكروا ونظروا، وقيل: معناه هلا أدرك علمهم علم الآخرة أم هم في شك؟، وقيل: ادَّارك بمعنى تدارك ماضٍ بمعنى المستقبل كقوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٤٤] أي: سيعلمون في الآخرة ما وعدوا وإن كانوا في شك منها الآن، وقيل: هو خبر عن ثلاث طوائف: طائفة منهم **أَقَرَّتْ** بالبعث، وطائفة **شَكَّتْ**، وطائفة **نَفَتْ** «**بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا**» من القيامة «**بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ**» يعني تركوا التدبر والنظر فلم يعرفوا وصاروا كالعُمْي «**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا**» قيل: [مشركو] مكة «**أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا**» بعد الموت «**وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ**» من قبورنا أحياء «**لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا**» البعث «**نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ**» أي: من قبل محمد ﷺ، وليس ذلك بشيء «**إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ**» أحاديثهم وأكاذيبهم التي كتبوها «**قُلْ**» يا محمد «**سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ**» الذين كفروا وعصوا الله «**وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ**» أي: على تكذيبهم إياك وإعراضهم عنك فإن وباله يعود عليهم «**وَلاَ تَكُن فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ**» أي: لا يضيق صدرك بما يدبرون في أمرك، فالله حافظك وناصرك.

۞ الأحكام

تدل على أنه تعالى المختص بعلم الغيب، فيبطل قول الإمامية: إن الإمام يعلم الغيب، ويبطل قول الكهنة المنجِّمين.

وتدل على أنهم أنكروا البعث؛ لأنه غير مشاهد، ولو فكروا لعلموا أن من قدر على انتفاء الأجسام قدر على إعادتها.

وتدل على أنه تعالى عاقب الأمم عند تكذيبهم الرسل بضروب العقاب، وأن فيها عبرة، لذلك قال: ﴿قُلۡ سِيرُواْ﴾.

وتدل على أنه تعالى يعصم رسوله من قومه، وقد قال مشايخنا: إنه يجب عليه تعالى حفظ الرسول في موضعين: أحدهما: حتى يُبَلِّغَ الرسالة، وثانيهما: إذا كان في بقائه لُطْفٌ ومصلحة، فإذا لم يكن هذان الوجهان جاز أن يخلي.

وتدل أن المكر فعلهم ليس بخلق الله تعالى.

قوله تعالى:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾

اللغة

الترادف: التتابع، والرديف الذي يردفه، وكل شيء يتبع شيئًا فهو ردفه، وأرداف النجوم: تواليها، والرديفان: الليل والنهار لتتابعهما، وهذا أمر ليس له رِدْفٌ أي: تَبِعَةٌ، ويقال: أَرْدَفْتُهُ ورَدِفْتُهُ: إذا ركب خلفه، وأَرْدَفْتُهُ: أركبته خلفي، وأردفت الرجل: جئت بعده، قال ابن الأنباري: ردفت وارتدفت ولحقت بمعنى، وترادفوا: تلاحقوا.

والأكنان: جعل الشيء بحيث لا يلحقه أذى لمانع يصده، وأصله الكَنُّ، فكننت الشيء: سترته وجعلته في كِنٍّ، ومنه: الكنانة.

الإعراب

الواو في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ واو عطف، وقيل: ﴿رَدِفَ﴾ من الحروف التي تتعدى بحرف وبغير حرف، وقيل: دخل اللام لأن معناه: ردفا لكم، وقد تدخل زائدة كقولهم: ﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤]، قال الفراء: اللام صلة زائدة.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى قولهم في البعث والجواب عنه، فقال سبحانه: «**وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ**» يعني: البعث[1] «**إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ**» في ذلك «**قُلْ**» يا محمد: «**عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ**» قيل: دنا وقرب لكم، وقيل: تبعكم، وقيل: حضركم، عن ابن عباس. و(عسى) من الله واجبٌ، معناه: أنه قرب منكم سيأتيكم، قيل: هو الأسر والقتل وقد نالهم يوم بدر، وقيل: هو الإنذار عند الموت وشدته وعذاب القبر، عن أبي علي. وقيل: هو القيامة وعذاب النار «**بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ**» من العذاب «**وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ**» قيل: بضروب النعم دينًا ودنيا، وقيل: بإمهالهم ليتوبوا، وقيل: بتأخير العذاب المستحق «**وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ**» نعمه «**وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ**» أي: تخفي قلوبهم «**وَمَا يُعْلِنُونَ**» أي: يظهرون، يعني: أنه تعالى يعلم سرهم وعلانيتهم ويجازيهم عليها «**وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**» يعني: كل شيء غائب، وقيل: هو أفعال العباد، عن أبي مسلم. وقيل: أسرار الملائكة والجن والإنس. وقيل: ما من غائبة في أجزاء السماوات والأرض، عن أبي علي. «**إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ**» يعني أنه محفوظ عنده «**فِي كِتَابٍ**» قيل: هو اللوح المحفوظ أي: مثبت فيه «**مُبِينٍ**» بيّن، وقيل: في كتاب أي: جميع أفعالهم محفوظة عنده، عن أبي مسلم.

۞ الأحكام

تدل الآيات على جواز تعجيل العقاب المستحق؛ لذلك قال: «**بعض**»، فأما الجميع فهو يفعل في الآخرة، ولا اعتبار بالكثرة في معرفة الحق؛ لذلك ذم الأكثر.

وتدل على أن جميع أفعال العباد مكتوبة محفوظة للجزاء.

---

(١) البعث: بالبعث، ن.

قوله تعالى:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾

۞ القراءة

قرأ ابن كثير: «لا يَسْمَعُ» بالياء وفتحها، «الصُّمُّ» بالرفع، وفي (الروم) مثله على أن الفعل يضاف [إلى الصمّ][1] الباقون «بِهَادِي» بالياء وفتح الهاء والألف، و«العُمْيِ» بالكسر على الاسم في السورتين، وكلهم يتفقون هاهنا على الياء، وفي (الروم) بحذفها، واتبعوا الخط، وعن يعقوب أنه وقف عليها بإثبات الياء، ولا ينظر إلى الخط لجريه على الأصل، وروي ذلك عن الكسائي، ويروى عن حمزة الوجهان، قال الكسائي: من قرأ بالياء وقف عليهما بالياء في الموضعين، وروي عنه مثل قول سائر القراء.

۞ اللغة

القصص: كلام يتلو بعضه بعضًا فيما يبيّن عن المعنى، ولأيّ[2] غرض.

والهادي: القائد إلى الحق بدعائه، هَدَى هداية فهو هادٍ.

والضلال: الذهاب عن طريق الصواب، وأصله الهلاك.

۞ النزول

قيل: إن أهل مكة دعوا رسول الله صلى الله عليه إلى دين آبائه، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وأمره بالإقامة على ما هو عليه.

---

(١) ما بين المعكوفين بياض في النسخة ن. وما أثبتناه من: التبيان في تفسير القرآن؛ للطوسي: ٨/١٠٨.

(٢) ولأيّ: وأيّ، ن.

وقيل: نزل قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ﴾ في قوم من الكفار، علم الله أنهم لا يؤمنون دون جميعهم؛ لأن منهم من أسلم.

المعنى

ثم ذكر تعالى من حجته ما يقوي قلبه، وأمره بالتوكل عليه، فقال سبحانه: «**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ**» أي: يخبرهم بالصدق و«**أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**» قيل: في أمر الأديان ونبينا محمد ﷺ، وقيل: يخبرهم بسرائر أخبارهم وغوامضها معجزة له لما أطلعه الله تعالى عليها، وقيل: اختلاف فيما بينهم حتى يلعن بعضهم بعضًا كالعنانية والسامرة، وقيل: اختلافهم في المُبَشَّرِ به، فمنهم من قال: هو يوشع، ومنهم من قال: هو منتظر «**وَإِنَّهُ**» يعني القرآن «**لَهُدًى**» دلالة على الحق يرشدكم إليه ويهديكم إلى الجنة لمن عمل به «**وَرَحْمَةٌ**» أي: نعمة «**لِلْمُؤْمِنِينَ**» خصهم به؛ لأنهم ينتفعون به «**إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ**» بين المختلفين في الدين يوم القيامة «**بِحُكْمِهِ**» الذي لا ظلم فيه، فأشار إلى شيئين: أحدهما: أن الحكم له لا يفوته، فيوصل كل ذي حق إلى حقه، وثانيها: وَعَدَ المظلوم بالنصرة والانتصار [من] الظالم، [وبقضائه](1) عن دفع ما يستحقه «**وَهُوَ الْعَزِيزُ**» أي: القادر على ما يشاء لا يمتنع عليه شيء «**الْعَلِيمُ**» بأحوالهم يجازيهم بجنسها، وقيل: العزيز في انتقامه من المبطلين، العليم بالمحق من المختلفين «**فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ**» في أمورك «**إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ**» أي: الواضح.

ثم ضرب لهم مثلاً، فقال سبحانه: «**إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى**» يعني الكفار، شبههم لقلة انتفاعهم بحياتهم، كقوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، «**وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ**» شبههم بالأصم حيث لم يسمعوا ما ينتفعوا به من الحق «**إِذَا وَلَّوْا**» أعرضوا «**مُدْبِرِينَ**» معرضين عن الحق «**وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلاَلَتِهِمْ**» أي: لا تقدر أن تبصر الأعمى الطريق إذا ضلوا «**إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ**» أي: مستسلمون منقادون، يعني: إنما يسمع الحق من يستمع إليه ويقبله، فجعل قبولهم سماعًا، وترك القبول تركًا للسماع توسعًا، وقيل: مسلمون أنهم يوطنون أنفسهم على القبول خلاف مَنْ يوطن على الرد.

---

(١) بقضائه: مطموس، في ن.

الأحكام

الآية تدل على أن القرآن يَفْصِلُ بين المحق والمبطل والحق والباطل؛ حتى يضطر الجميع إليه.

وتدل على أنه هدى يمكن معرفة المراد به.

وتدل أنه تعالى يقضي بين الخلق يوم القيامة، فينتصف للمظلوم من الظالم.

وتدل على ما نقوله في الأعراض.

وتدل على تفويض الأمر إليه، وأن دينه هو الحق.

وتدل على تسلية [له صلى الله عليه وآله وسلم] إذا لم يسمعوا كلامه ولم يقبلوا، فإنهم(1) كالميت وكالأصم.

ويدل قوله: ﴿فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾ أن الإسلام والإيمان واحد.

وتدل أن التولي والاختلاف فعلهم.

قوله تعالى:

﴿۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ تُكَلِّمُهُمۡ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوۡمَ نَحۡشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ فَوۡجٗا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمۡ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبۡتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمۡ تُحِيطُواْ بِهَا عِلۡمًا أَمَّاذَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمۡ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾

القراءة

قراءة العامة: ﴿تُكَلِّمُهُمۡ﴾ بالتشديد من التكلم، وأصله من الكلام، وقرأ أبو رجاء العطاردي: «**تَكْلَمُهُمْ**» بفتح التاء وتخفيف اللام من الكَلم وهو الجرح، قال أبو الجوزاء: سألت ابن عباس عن هذه الآية ﴿تُكَلِّمُهُمۡ﴾ أو «**تَكْلَمُهُمْ**» فقال: كل ذلك: تُكلّم المؤمن وتَكْلَمُ الكافر.

---

(1) فإنهم: فإنه، ن.

وقرأ عاصم وحمزة والكسائي: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ﴾ بفتح ألف (أن) على تقدير: بأن، وقيل: لأجل أن، وقرأ الباقون بالكسر على الابتداء.

۞ اللغة

الدابة: ما يدبّ على الأرض، دَبَّ دبيبًا: إذا مشى، وكل ما يدب على الأرض دابة، ومنه: ما بالدار دُبِّيٌّ، وناقة دَبُوبٌ: لا تكاد تمشي لكثرة لحمها، إنما تَدِبُّ(١)، وفي الحديث: «ليت شعري أيتكن صاحبة الجمل الأدبب تنبحها كلاب الحَوْأب(٢)»، قيل: أراد الأَدَبّ فأظهر التضعيف، والأَدَبُّ: الكثير الوبر.

والفوج: الجماعة من الناس، والجمع: أفواج، وجمع الجمع: أفَاوِجُ وأفاويج، وأفاج الرجل: أسرع، ومنه الفجّ.

والوزع: أصله المنع، ومنه: لا بد للناس من وَزَعَةٍ، وهم الذين يزعون بعضهم من بعض، الواحد: وازع، ومنه: «ما يزع السلطان أكثر مما يزع القرآن».

والمُبصِر: الذي يبصر، أبصر فهو مُبصِر، فأما وصف النهار بأنه مبصر ففيه وجهان:

أحدهما: بمعنى ذو إبصار، كقوله: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١] أي: ذات رضًا، قال النابغة:

كِلِينِي لِهَمٍّ يا أُمَيْمَةُ نَاصِبٍ(٣)

أي: ذو نَصَبٍ.

وثانيهما: لأنه يريك الأشياء كما يراها من يبصرها، وقال أبو علي: لأنه يُبْصَرُ فيه فسمي مبصرًا توسعًا، وكما يقال: ليل نائم، أي: يُنَامُ فيه.

---

(١) إنما تدبُّ: أنها لا تدب، ن. وما أثبتناه من: الصحاح في اللغة: ٢/ ٢٩٥، لسان العرب: ١/ ٣٦٩.

(٢) الحوأب: الحوب، ن.

(٣) البيت قائله النابغة الذبياني وتكملته:

كليني لهم يا أميمة ناصب ... وليل أقاسيه بطيء الكواكب

انظر: لسان العرب وتاج العروس؛ (نصب).

الإعراب

الواو في قوله: ﴿وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا﴾ قيل: واو الحال، أي: جحدهم في حال الجهل، وقيل: واو العطف؛ أي: كذبوا ولم يعلموا حقها.

المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى علامات القيامة، فقال سبحانه: «وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ» قيل: وجب العذاب والوعيد عليهم؛ وقيل: «وَقَعَ القَوْلُ عَلَيهِمْ، بأنهم صاروا بحيث لا يفلح أحد [منهم] ولا أحد [بسببهم] فحينئذ يؤخذون، وقيل: إذا وقع ما أخبر الله أنه يقع، ثم قربت الساعة، وقيل: «وَقَعَ القَوْلُ» عبارة عن انقطاع الحجة حتى لا يبقى لهم عذر، وقيل: «وَقَعَ القَوْلُ» توجهت اللائمة عليهم من كل وجه، وقيل: لا يأمرون بمعروف ولا ينهون عن منكر، عن ابن عمر، وعطية. «أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ» قيل: تخرج بين الصفا والمروة فتخبر المؤمن بأنه مؤمن والكافر بأنه كافر، ويرتفع التكليف، ولا تقبل التوبة، وهو عَلَمٌ من أعلام الساعة، وقيل: لها[1] ثلاث خرجات: خَرْجَة بمكة، وخرجة بالمدينة، وخرجة قريبًا من مكة. وقيل: تخرج في صدع في الصفا، عن ابن عمر[2]. وقيل: من المسجد الحرام. وقيل: تخرج أيام التشريق. وقيل: تشرف على جميع الناس، عن أبي علي. وقيل: تظهر عند مسير الناس إلى مِنىً من جَمْع، عن ابن عمر. وقيل: لا يبقى منافق إلا خطمته ولا مؤمن إلا صحبته، وقيل: لا تزال تخرج ثلاثة أيام حتى تبلغ السحاب. وقيل: طولها ستون ذراعًا، لا يدركها طالب ولا يفوتها هارب، معها خاتم سليمان وعصا موسى تكتب بين عيني المؤمن أنه مؤمن، وبين عيني الكافر أنه كافر، روي ذلك مرفوعًا. وقيل: يمس رأسها السماوات، عن عبد الله بن عمر. وليس في الظاهر إلا أن دابة الأرض تخرج. وقيل: تصرخ صرخة إلى المشرق، والأخرى إلى المغرب، وأخرى إلى الشام، وأخرى إلى اليمن، فينفذ صوتها[3] إلى هذه المواضع، وتكون [معها] عصا موسى وخاتم

(١) لها: له، ن.
(٢) ابن عمر: ابن عمرو، ن.
(٣) صوتها: صوته، ن.

سليمان، فتخطم الكافر بعصا موسى، فيظهر في وجهه نكتة سوداء، لا تزال تزيد حتى يسود وجهه، وتختم وجه المؤمن بخاتم سليمان، فيظهر بين عينيه نكتة بيضاء، فتتسع حتى يبيض وجهه، فيعرف يومئذ المؤمن من الكافر، وقيل في صفتها: إنها تشبه الدواب، لها زَغَبٌ وريش وأربع قوائم. وقيل: رأسها رأس ثور، وأذنها أذن فيل، وصدرها صدر أسد، وقرنها قرن أيل، وقوائمها قوائم البعير. وقيل: وجهها كوجه الإنسان، وخلقها كالطير، عن وهب. وقيل: صورتها صورة الحمار، عن كعب. **«تُكَلِّمُهُمْ»** قيل: تكلمهم بما يَسُوؤُهم أنهم يصيرون إلى النار بلسان يفهمونه، وقيل: تكلمهم بـ**«أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ»** وهو الظاهر، وقيل: لا يؤمنون بكلامها وخروجها **«وَيَوْمَ نَحْشُرُ»** أي: نجمع **«مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ»** من أهل عصر، عن أبي مسلم. وقيل: من كل أمة من أمم الأنبياء، عن أبي علي. **«فَوْجًا»** جماعة إلى موضع الحساب يوم القيامة، قيل: هم الرؤساء والقادة، وقيل: المختص بهذا الوصف **«مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ»** قيل: نحشر أولهم على آخرهم فيجتمعون ثم يساقون إلى النار، وقيل: يُطْرَدُون فيساقون إلى النار، عن أبي مسلم. وقيل: يدفعون، عن ابن عباس. **«حَتَّى إِذَا جَاءُوا»** يوم القيامة المحشر **«قَالَ»** الله تعالى لهم **«أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي»** أي: جحدتم حججي، وقيل: أكذبتم بالساعة، وقيل: بالقرآن، وقيل: بسائر الأدلة والمعجزات **«وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا»** أي: لم تعلموا بطلانها، يعني بالجهل جحدتموها، وقيل: لم تعرفوها حق معرفتها، وقيل: يقال هذا توبيخًا لهم وتبكيتًا، أي: لِمَ كذبتم وجهلتم؟ **«أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ»** يعني: أنه تعالى أنعم عليكم لتعبدوه، فأفنيتم أيامكم في غير شيء، فكيف تعملون اليوم بأنفسكم؟ وهذا أيضًا توبيخ، وقيل: معناه: أكذبتم بآياتي أم أي شيء كنتم تعملون في الدنيا؟! عن أبي مسلم. **«وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ»** أي: وجب الوعيد والعذاب. وقيل: وجبت اللائمة **«بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لاَ يَنطِقُونَ»** قيل: بعذر وحجة، وقيل: بجواب يعتمد، وقيل: لأن أفواههم مختومة.

ثم بَيَّنَ تعالى قدرته على الإعادة، فقال سبحانه: **«أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ»** عن التعب والحركات فيستريحوا **«وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا»** أي: مضيئًا يبصر فيه **«إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»** يصدقون ويتفكرون، وخصهم بالذكر؛ لأنهم ينتفعون بها.

۞ الأحكام

تدل الآيات على خروج الدابة عند ظهور أشراط الساعة تكلم الناس.

وتدل على أنه تعالى يوبخهم يوم القيامة، وفيه تحذير عن المخالفة.

وتدل على أن الجاهل لا ينبغي أن يتكلم فيما يجهل.

ويدل قوله: ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ﴾ على أنهم ضيعوا أيامهم، وأفنوا أعمارهم في شيء لم ينتفعوا به.

ويدل قوله: ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ على شيئين:

أحدهما: أن الظلم من جهتهم.

وثانيهما: أن العذاب جزاء على الظلم.

ويدل قوله: ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ يعني: بِحُجَّةٍ على مذهب العدل؛ إذ لو كان الأمر على ما يقوله أهل الجبر لكان لهم أعظم الحجة بأن يقولوا: خَلَقْتَ فينا الكفر، ومنعتنا الإيمان، ومنعتنا قدرته.

ويدل قوله: ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أن أعمالهم حادثة من جهتهم؛ إذ لو خلقه لما صح أن يقول لغيره: لِمَ فعلت؟

قوله تعالى:

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ
أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ
إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن
جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ
أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾
وَأَنْ أَتْلُوَا ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾
وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

۞ القراءة

قرأ حمزة وحفص عن عاصم: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ مقصورة الألف غير ممدودة، والتاء مفتوحة على فعلوه، بمعنى جاؤوه كناية عن فعل ماض، عن جماعة، وهو قراءة ابن مسعود، وقرأ الباقون: «آتُوهُ» بمد الألف وضم التاء، وهو قراءة علي بن أبي طالب كناية عن الفاعلين، يقال: زيدات وزيدون آتون.

وقرأ ابن كثير وعاصم ويعقوب: «خَبِيرٌ بِمَا يَفْعَلونَ» بالياء على الكناية، واختاره أبو عبيد لقوله: «أتوه» وهو خبر عنهم، وقرأ الباقون بالتاء على الخطاب.

قرأ عاصم وحمزة والكسائي: «فَزَعٍ» منونة، «يَوْمَئِذٍ» بفتح الميم، وهي قراءة ابن مسعود، وقرأ أبو جعفر ونافع: «فَزَعِ» غير منونة على الإضافة «يَوْمَئِذٍ» بفتح الميم، وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب: «فَزَعِ» بغير تنوين على الإضافة «يَوْمِئِذٍ» بكسر الميم، واختار أبو عبيد الإضافة؛ لأن أكثر الأئمة عليه، ولأنه يعم جميع الفزع، وبالتنوين يصير كأنه من فزع دون فزع، واختار الفراء أيضًا الإضافة.

القراءة الظاهرة: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ بضم الصاد، وقرئ بفتحها، فالفتح على المصدر، والضم على الابتداء، أي: لا يقدر على صنعه أحد.

والقراءة الظاهرة: ﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ يعني الله، وعن ابن عباس: (التي) إشارة إلى البلدة.

وقرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر وحفص عن عاصم ويعقوب: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بالتاء على الخطاب، الباقون بالياء.

۞ اللغة

الصُّور: جمعه صورة، قال أبو مسلم: هذا بعيد، لأن جمع صورة صُوَرٌ بفتح الواو كسُوَرةٍ وسُوَرٍ، وقيل: هو يشبه بوق ينفخ فيه إسرافيل.

والداخر: الصاغر الذليل، دَخَرَ الرجل فهو داخر: إذا ذل، وأدخره غيره.

والجَمْدُ معروف، جَمَدَ الماءُ يَجْمُدُ، وسَنَةٌ جَمَادٌ: قليلة المطر، والجَمَادُ: الأرض لم تمطر، ويقال للبخيل: جَمَادِ، والجامدة: الواقفة التي لا تتحرك من ذلك.

وكببته لوجهه كبًّا: ألقيته فقلبته، والكَبْكَبَةُ: تدهور الشيء في هُوَّةٍ حتى يستقر.

۞ الإعراب

(يوم) قيل: نصب بمحذوف أي: اذكر يوم، وقيل: نصب على الظرف، وذلك الذي تقدم ذكره لـ(يوم ينفخ) أي: وقوعُ القول عليهم يوم.

(صُنعَ الله أتقن كل شيء) إلا أنه أظهر اسم (الله)، نصب [صُنْعَ] بما دل عليه ما تقدم من الكلام [وهو]: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾ كأنه قيل: صنع الله صنعه الذي أتقن كل شيء، إلا أنه أظهر اسم الله في الثاني؛ لأنه لم يذكره في الأول وإنما دل عليه، وقيل: نصب على المصدر، وقيل: نصب على الإغراء، أي: انظروا صنع الله.

ويقال: أين جواب: (يوم ينفخ)؟

قلنا: فيه وجهان: قيل: مضمر في الواو، وتقديره: وقع القول عليهم يوم ينفخ في الصور، وقيل: محذوف للعلم، كأنه قيل: يوم ينفخ في الصور يفعل به كذا، وقيل: تقديره: إذا نفخ في الصور فزع.

﴿دَٰخِرِينَ﴾ نصب على الحال؛ لأن الإنسان يكون هكذا في هذه الحالة.

۞ المعنى

ثم بين تعالى أحوال القيامة، فقال سبحانه: «وَيَوْمَ يُنفَخُ» قيل: النافخ إسرافيل بأمر الله «فِي الصُّورِ» قيل: قرن ينفخ فيه شبه بوق، عن مجاهد وأكثر المفسرين. وروي أن النبي ﷺ سئل عن الصور فقال: «قرن ينفخ فيه». وقيل: هي ثلاث نفخات: الأولى: نفخة الفزع، والثانية: نفخة الصعق، والثالثة: نفخة القيام لرب العالمين، وقيل: الصور: صُوَرُ الخَلْقِ؛ يعني: ينفخ الروح في الصُّوَرِ ويبعثون[1]،

(١) ويبعثون: ويبعثوا، ن.

عن الحسن، وقتادة، وأبي عبيدة. وقيل: يخرج منه صوت عظيم لا يثبت معه قلب لبشر، فإذا سمعوا حمدوا «**فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ[مَنْ فِي] الأَرْضِ**» يعني (فزع) ماضٍ بمعنى المستقبل، ومثله كثير في كلام العرب، تقول: أزورك إذا زرتني، وقال سبحانه: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٤٤]، «**إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ**» قيل: الشهداء في خبر مرفوع، وقيل: الملائكة الأربعة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وعزرائيل، فإنهم لا يموتون عند هذه النفخة ويموتون بعده. وقيل: جماعة من الملائكة يثبت الله قلوبهم، وقيل: خزنة الجنة، وقيل: الحور العين. «**وَكُلٌّ**» يعني مَنْ خَلَقَهُ وأحياه مِنْ بَرٍّ وفاجر «**أَتَوْهُ**» جاؤوه «**دَاخِرِينَ**» صاغرين، عن ابن عباس، وقتادة. يعني: يجيبون الداعي لا يقدر أحد على الامتناع «**وَتَرَى**» يا محمد أو أيها السامع «**الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً**» واقفة في رأي العين لا تتحرك، وقيل: تظنها قائمة «**وَهِيَ**» تسير سيرًا حثيثًا، عن ابن عباس. قيل: إذا جمعت الجبال مرت كالسحاب ولم يتبين مرورها. وقيل: «**تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ**» حتى تقع على الأرض، وقيل: مر السحاب لا سير بطيء ولا عاجل، وقيل: بل من سرعة سيرها كالسحاب، «**صُنْعَ اللَّهِ**» أي: جميع ذلك فِعْلُ الله «**الَّذِي أَتْقَنَ**» أحكم «**كُلَّ شَيْءٍ**» خلقه، وقيل: أحسن كل شيء خلقه، عن قتادة. وقيل: الإتقان: أن يكون حسنًا في اتساق «**إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ**» فيجازيهم به «**مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ**» من أتى القيامة بحسنات عملها وحفظها ولم يحبطها، واختلفوا في هذه الحسنة، قيل: الإيمان، عن إبراهيم، وكان يحلف لا يستثني أن الحسنة: لا إله إلا الله. وقيل: الإخلاص، عن قتادة. وقيل: جميع الطاعات وهو الوجه؛ لأن كل طاعة حسنة. «**فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا**» قيل: خير يصيبه منها، عن ابن عباس، والحسن، وعكرمة، وابن جريج. فأما أن يكون خيرًا من الإيمان فلا، فليس شيء خير من لا إله إلا الله، وقيل: بل أفضل منها في عظم النفع، وقيل: له خير الحسنة، وهو الأمن من العذاب، والفوز بالثواب، قال ابن عباس: له خير منها يعني الثواب، فالطاعة فعل العبد، والثواب فعل الله تعالى. وقيل: هو قبول الله حسناته فهو خير من فعل العبد، وقيل: هو رضوان الله، قال الله: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾ [التوبة: ٧٢]، وقيل: المراد به الأضعاف كقوله: ﴿فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾ [الأنعام: ١٦٠] ، عن محمد بن كعب، وابن زيد. «**وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ**»

قيل: هو إطباق أبواب النار على أهلها، فيفزعون فزعة عظيمة، وأهل الجنة آمنون، وقيل: من كل فزع في القيامة «وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ» قيل: بالشرك، عن إبراهيم. وقيل: سائر المعاصي من غير تكفير بتوبة «فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ» وقيل: الشرك[1]، عن ابن عباس، والضحاك. وقيل: «فَكُبَّتْ» عن أبي العالية. يعني: يلقون فيها على وجوههم «هَلْ تُجْزَوْنَ» فيه محذوف، أي: وقيل لهم على وجه التوبيخ والذم والتبرؤ من الظلم: «هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» أي: هل وصل إليكم إلا جزاء أعمالكم. قل يا محمد: «إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ» يعني مكة «الَّذِي حَرَّمَهَا» يعني جعلها حرمًا آمنًا يَحْرُمُ فيها ما يَحِلُّ في غيرها: لا ينفر صيدها، ولا يختلى خلاها، ولا يقتص فيها، وقيل: حَرَّمَ الاستخفاف بها وأوجب التعظيم لها «وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ» خلقًا وملكًا «وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ» قيل: على دين الإسلام، وقيل: من المنقادين له «وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ» أي: أقرأ عليهم ليتدبروا فيه، ويعلموا كونه معجزة ومعالم دينهم، ويعملوا بأوامره ونواهيه. «فَمَنِ اهْتَدَى» سلك طريقة الهدى بقبول الحق وما جاء فيه «فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ»؛ لأن عاقبة نفعه تعود عليه «وَمَنْ ضَلَّ» عن الدين «فَقُلْ» له: «إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ» يعني: ليس عليّ إلا التخويف والإعلام، وقد فعلت «وَقُلِ» يا محمد: «الْحَمْدُ لِلَّهِ» على نعمه «سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ» في دينه، قيل: في الدنيا بما نصب من الأدلة، وقيل: في الآخرة حتى يضطرون إلى المعرفة. قيل: سيريهم الآيات ثم القبول إليهم، وقيل: أراد بالآيات العذاب النازل بهم، وقيل: أشراط الساعة، وقيل: ما نزل بهم يوم بدر «فَتَعْرِفُونَهَا» حينئذ «وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ» أي: لا يخفى عليه شيء من ذلك فيجازيهم بجميعها.

۞ الأحكام

تدل الآية أن عند قرب الحشر ينفخ [في] الصور، وقد جرت العادة بضرب البوق للاجتماع، ففعلوا بهم يومئذ كما اعتادوه في الدنيا، وفيه مصلحة للعباد.

وتدل على أن جميع الخلق ينقاد بخلاف الدنيا.

(١) بالشرك: بالبعثة ن؛ والتصحيح تفسير الطبري.

وتدل على أن الجبال تقلع، وذلك من أشراط الساعة.

ويدل قوله: ﴿أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أن ما كان فاسدًا وقبيحًا فليس من صنعه.

ويدل قوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ أن الثواب والعقاب جزاء على الأعمال.

ويدل قوله: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ﴾ أن المؤمن لا يفزع.

ويدل قوله: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ أن صاحب الكبيرة يدخل النار، فيبطل قول المرجئة.

وتدل على اختصاص مكة بكونها[1] حرمًا، وبوجوب تعظيمها.

وتدل على أن الواجب على الرسول الإنذار.

وتدل على بطلان مذهب المجبرة من وجوه:

منها: قوله: ﴿أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ والكفر ليس بمتقن. وقوله: ﴿تَفْعَلُونَ﴾، وقوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾، ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾، وقوله: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وقوله: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾، ﴿وَمَن ضَلَّ﴾، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، وكل ذلك يبطل قولهم في المخلوق.

(١) بكونها: بكونه، ن.

سُورَةُ القَصَصِ

سورة (القصص) وهي مكية، عن قتادة وغيره، وقيل: إلا قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ﴾ فإنها نزلت بالمدينة.

وهي ثمان وثمانون آية.

وعن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأ (طسم القصص) أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بموسى وكذب به، ولم يبق ملك إلا شهد له يوم القيامة أنه كان صادقًا أن كل شيء هالك إلا وجهه».

ولما ختم سورة (النمل) بقوله: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ(١) إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [النمل: ٩٢] افتتح سورة (القصص) بقصة موسى، وما فعل بالفريقين تأكيدًا، وقيل: قال: ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [النمل: ٩٣] ومن ذلك ما أخبركم به من قصة موسى وفرعون.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾

---

(١) ما بين المعكوفين في النسخة ن: «من اهتدى فلنفسه ومن ضل فعليها».

القراءة

قرأ حمزة والكسائي: (وَيَرَي) بالياء، قالوا على فعل ماضٍ مضاف، «فرعونُ وهامانُ وجنودُهما» بالرفع لإضافة الفعل إليهم، وهو قراءة الأعمش ويحيى بن وثاب واختيار خلف بن هشام، الباقون بالنون وضمها وكسر الراء، (فرعونَ) وما بعده نصب، فالفعل في (نُرِي) مضاف إليه تعالى، وَ«فِرْعَوْنَ» وما بعده نصب، لوقوع الفعل عليهم.

اللغة

النبأ: الخبر عما يعظم شأنه، وأصله من المعرفة، ومنه النبي.

والشِّيَعُ: الفِرَق، وكل فرقة شيعة، وسموا شيعًا؛ لأن بعضهم يتابعُ بعضًا، شَيَّعَهُ: تبعه، والعرب تقول: شاعكم السلام: تبعكم، وتجمع شيعة على شِيَعٍ وأَشْياعٍ نطق القرآن بهما فقال: ﴿فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الحجر: ١٠]، وقال: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم﴾ [سبأ: ٥٤].

والتمكين: تكميل ما به يتم الفعل، وزوال الموانع.

والحذر: توقي ما فيه الضرر.

الإعراب

الواو في قوله: ﴿وَنُرِيدُ﴾ قيل: واو الحال، يعني: نريد في حال تجبره وقهره أو كان مفسدًا في حال ما نريد هلاكه، وقيل: واو الابتداء، أي: نحن نريد، فهو عِدَةٌ من الله تعالى.

والضمير في «منهم» يعود على بني إسرائيل، أي: نريهم من بني إسرائيل ما كانوا يحذرون من زوال ملكهم على أيديهم.

المعنى

«طسم» قيل: اسم للسورة، وقيل: إشارة إلى إعجاز القرآن حيث أُلِّفَ من حروف يتكلمون بها، وعجزوا عن مثلها مع وفور دواعيهم. وقيل: إشارة إلى حدوث

القرآن. وقيل: قالوا: لا تسمعوا لهذا القرآن، فأسمعهم ما لم يكن عندهم لتأتي الحجة عليهم بعده، عن قطرب. وقيل: حروف من أسماء الله تعالى، عن ابن عباس. «تِلْكَ» قيل: إشارة إلى السورة، ومعناه: هذه، وقيل: تلك الحروف، عن أبي مسلم. «آيَاتُ» قيل: هذه آيات القرآن التي وعدتك إنزاله. وقيل: هذا القرآن هو «الْكِتَابِ الْمُبِينِ»، عن الحسن. «الْمُبِينِ» قيل: الذي يبين الرشد من الغي، عن قتادة. وقيل: المبين الواضح، عن أبي مسلم. وقيل: المبين أنه من عند الله، وقيل: مبين الأحكام «نَتْلُو عَلَيْكَ» أي: نقرأ «مِن نَّبَإِ» أي: من خبر «مُوسَى و» عدوه «فِرْعَوْنَ»، قيل: لتعلموا أن سبيلنا فيك وفي قومك نحو سبيلنا في موسى وقومه «بِالْحَقِّ» بالصدق «لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» أي: يصدقون بالحق ويصدقونه في ذلك، وخصهم بالذكر؛ لأنهم يقبلونه وينتفعون به، وقيل: لأن الصلاح في تلاوته عليهم، وقيل: كأنه لم يُعْبَدْ بغيرهم، وقيل: لأن غيرهم تبع لهم «إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ» أي: تجبر واستكبر، عن ابن عباس، والسدي. وقيل: بغى، عن قتادة. وقيل: تعظم، عن مقاتل. والأرض أرض مصر؛ لأن ملكه لم يَبْعُدْها[1] «وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا» فرقًا وأصنافًا، قيل: جعل بني إسرائيل فرقًا في أعمالهم، وقيل: في الخدمة والتسخير[2]، وقيل: جعل كل فرقة في حرفة على وجه الاستعباد، وقيل: أهلها يرجع إلى جميع أهلها[3] أي: جعلهم فرقًا «يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ» وهم بنو إسرائيل، وطائفة قاهرة وهم قومه، وقيل: يراهم ضعفاء عاجزين عن الانتصار منهم «يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ»؛ لأنه أخبر أنه سيولد فيهم من يكون زوال ملكه على يده «وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ» يبقيهن أحياء «إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ»، «وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ» أي: ننعم «عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ» بني إسرائيل «وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً» قيل: قادة في الخير يقتدى بهم، عن ابن عباس. وقيل: ولاة ملوكًا، عن قتادة. وقيل: دعاة إلى الخير، عن مجاهد. «وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ» قيل: لما في يد فرعون بعد هلاكهم من الملك والمال، ونجعلهم الوارثين للنبوة والحكم «وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي

---

(١) يبعدها: يبعده، ن.

(٢) التسخير: والتحير، ن، والصواب ما أثبتناه من تفسير البغوي ١/ ١٨٩.

(٣) أهلها: أهل، ن.

الأَرْضِ» أي: نوطن لهم أرض مصر والشام، وننزلهم إياها بعد هلاك قوم فرعون، ونجعلهم مقتدرين عليها حتى يتصرفوا بحيث لا يولى عليهم «**وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ**» يخافون من زوال ملكهم وهلاكهم، قيل: هو ابتداء عِدَةٍ، وقيل: تقديره: مكنا بني إسرائيل لنري فرعون، قيل: أخبر بأن زوال ملكه على يد واحد يولد فيهم، فكان يقتل أبناءهم حذرًا من خروجه، فلم ينفعه الحذر. وقيل: ما كان موسى وهارون وقومهما يحذرون من فرعون وقومه، فأنزل الله ذلك بهم، كأنه قيل: نزل بفرعون ما كان يحذر موسى منه.

۞ الأحكام

تدل الآيات على كون الكتاب حجة مستقلة في الدلالة مُحْدَثًا.

وتدل على أنه تعالى وعد أهل الحق بالانتقام لهم من الظلمة.

وتدل على أنه وعد موسى النصرة وأنجز وعده.

وتدل على وجوب الصبر على بقاء الظلمة حتى تلحقه النصرة.

وتدل على أن العلو فِعْلُ العبد، ليس بخلق الله تعالى.

قوله تعالى:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓۖ
إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا
وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ
عَيْنٍ لِّى وَلَكَۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ
مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾

۞ القراءة

قرأ حمزة والكسائي: «حُزْنًا» بضم الحاء وسكون الزاي، الباقون بفتحهما، وهما لغتان: حُزْنٌ وحَزَنٌ، نحو: عُدْمٍ وعَدَمٍ، وسُقْمٍ وسَقَمٍ.

وظاهر القراءة: «فارغًا» بالألف، وعن ابن محيصن وفضالة بن عبيد: «فَرِغًا» بغير ألف.

۞ اللغة

الوحي: إلقاء المعنى إلى النفس من غير إفصاح بالذكر، ثم يستعمل بمعنى الإلهام والرؤيا وغير ذلك.

والإرضاع: أن تسقي الصبي اللبن من ثديها، رضع الصبي، وأرضعته أمه، والرَّضُوعَةُ: الشاة تُرْضِعُ.

واليم: البحر، وأصله: القصد، سمي لأنه يقصد بالركوب، يقال: يُمَّ(١) الرجل: إذا وقع في البحر حتى غرق، فهو مَيْمُومٌ. ومُيَمَّمٌ: يظفر بكل ما يطلب، قال الشاعر:

إنّا وجدنا أعصر(٢) بن سعد ... مُيَمَّمُ البيتِ رفيعُ المَجْدِ(٣)

والالتقاط: إصابة الشيء من غير طلب، ومنه اللُّقَطَةُ.

والربط: الشد، ومنه: الرباط؛ ما يشد به. رجل رابط الجأش، أي: شديد القلب، والرباط: ملازمة ثغر العدو.

۞ الإعراب

﴿قُرَّتُ عَيْنٍ﴾ رفع؛ لأنه خبر ابتداء محذوف، أي: هو قرة عين.

---

(١) يم: تيم، ن.

(٢) أعصر: أصعر، ن.

(٣) المجد: الحد، ن، والبيت ينسب إلى منصور بن عكرمة بن خصفة، أنظر شرح المفضليات، القاسم بن محمد بشار الأنباري، تحقيق كارلس يعقوب لايل، مطبعة الآباء اليسوعيين ـ بيروت، ٢٠١٢.

و«لولا» يقتضي جوابًا، تقديره: لولا أن ربطنا على قلبها لكانت تبدي به، وقيل: لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المصدقين بالوعد في رده عليها لما كانت كذلك.

«فارغًا» خبر (أصبح) واسمه ﴿فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ محله كسر؛ لأنه مضاف إليه.

﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ محله نصب، أي: لتكون أم موسى مؤمنة.

۞ المعنى

لما تقدم بأنه يريد إهلاك قوم فرعون على يد موسى وقومه بيّن كيف دبر فيها منبهًا على عظيم قدرته ومحكم تدابيره، فقال سبحانه: «وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى» قيل: ألقينا في قلبها وليس بوحي نبوة، عن قتادة. وقيل: كان رؤيا منام عَبَّرَ عنها مَنْ تَثِقُ به من علماء بني إسرائيل، عن أبي علي. وقيل: أَوْحَى إليها على لسان بعض الأنبياء في ذلك الزمان، وقيل: أوحى إليها على لسان بعض الملائكة، عن أبي مسلم. «أَنْ أَرْضِعِيهِ» ما دمت آمنة «فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ» القتل «فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ» قيل: في النِّيلِ «وَلاَ تَخَافِي» عليه من الغرق ولا من قوم فرعون «وَلاَ تَحْزَنِي» عليه، قيل: الضَّيْعَةَ، وقيل: لا تحزني على فراقه فـ «إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ» إلى فرعون وقومه، قيل: في الآية أمران ونهيان وخبران وبشارتان، وقيل: كان فرعون قتل في طلب موسى تسعين ألف وليد، عن وهب. وقيل: لما خافت أم موسى عليه لطلبهم الولد اتخذت تابوتًا اشترتها وذكرت القصة للنجار، وجعلت موسى في التابوت، وألقي التابوت في البحر، ويروى أنهم لما طلبوا موسى جعلته في تنور نار يسجر فصار عليه بردًا، وأن النجار لما سمع حديثها أراد أن يخبر قوم فرعون فأمسك الله عليه لسانه، فذهب إليهم ثلاث مرات كلما جاءهم اعتقل لسانه، وإذا عاد إلى حانوته رد عليه لسانه، فعلم أنه نبي «فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ» أي: أخذوه من غير طلب، وذلك أن النيل جاء(1) بالتابوت إلى موضع فيه فرعون وامرأته على شط النيل، فأمر فرعون فأتي به، وفتحت آسية بابه، وألقى الله تعالى له محبة في قلبها، فَهَمَّ فرعون بقتله فقالت آسية:

(1) جاء: جاءت، ن.

﴿لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾، فوهب لها «آلُ فِرْعَوْنَ» قيل: قومه وأهله، وقيل: من كان على دينه «لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا» اللام لام العاقبة، أي: أخذه ليكون قرة عين، فكان عاقبة ذلك أنه كان لهم عدوًا وحزنًا، عن محمد بن إسحاق وجماعة، قال الشاعر:

لِـدُوا لِـلْـمـوتِ وَابْـنُـوا لِـلْـخَـرَابِ[1]

ونظائر ذلك تكثر، وقيل: تقديره: ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين بوعد الله، وجاعلوه من المرسلين إلى فرعون وقومه؛ ليكون لهم عدوًّا وحزنا، والأول الوجه، عدوًّا في دينهم، وحزنًا عليهم في زوال ملكهم، وقيل: غيظًا في ترك قتله عند الإمكان «إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا» القبط «كَانُوا خَاطِئِينَ» عاصين آثمين «وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ» آسية، وكانت من بني إسرائيل «قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ» لعله يصير كذلك «لاَ تَقْتُلُوهُ» فإنه تعالى أتى به من أرض أخرى، وليس من بني إسرائيل، وكان القوم أشاروا عليه بقتله «عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا» لأنه لم يكن له ولد فأطمعته في الولد «وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ» أي: لا يعلمون ما هو كائن من أمره وأمرهم، عن مجاهد. وقيل: لا يشعرون أن هلاكهم على يده، عن قتادة. وقيل: لا يشعرون أني أفعل ما أريد، عن ابن إسحاق. وقيل: بنو إسرائيل لا يعلمون بالتقاطه وحاله، يعني: بنو[2] إسرائيل لا يعلمون أنا التقطناه، فهو يكون حكاية كلام امرأة فرعون، وقيل: وهم لا يشعرون بأنا لم نلده، عن الكلبي. وقيل: لا يشعرون بأن الأمر بخلاف ذلك؛ ليكون كلامه تعالى ابتداء. «وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا» أي: خاليًا، قيل: خاليًا من كل شيء إلا من ذكر موسى، عن ابن عباس، وقتادة، والضحاك. وقيل: فارغًا من وحيها الذي أوحي إليها بنسيانها، عن الحسن، وابن زيد، وابن إسحاق. يعني: أنها نسيته، فَأَوْحَى إليها أنه يرده إليها، ولا تخافي، [وكانت تخاف عليه من] فرعون، وقيل: كان

---

(١) البيت قائله أبو العتاهية:

لـدوا لـلـمـوت وابـنـوا لـلـخـراب فـكـلـكـم يـصـيـر إلـى تـبـاب

انظر: ديوان أبو العتاهية، تحقيق شكري فيصل، ص ٤٩، دار الفلاح، بيروت ١٩٦٥.

(٢) بنو: بني، ن.

فارغًا ناسيًا، عن الكسائي. وقيل: فارغًا من الحزن لعلمها أنه لم يغرق. وقيل: فارغًا من الخوف والحزن عليه لما أمنها الله تعالى، وثقة منها بوعده، وهو الأحسن. وقيل: فارغًا خائفًا وجلاً، عن أبي مسلم. «**إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ**» أي: قربت من أن تظهر، اختلفوا في (به) على قولين: أولهما: كناية عن موسى، وثانيهما: أنه كناية عن الوحي، أي: كادت لتبدي بالوحي وما كان من أمره وأمرها. ومن قال: إنه كناية عن موسى اختلفوا، فقيل: من شدة الغم والوجد كادت تظهر بذكر موسى؛ أي: تذكر موسى وتقول: يا إبناه، عن ابن عباس، وقتادة، والسدي. وقيل: لما رأت التابوت يرفعه الموج خافت الغرق، فكادت تصيح على ابنها، عن مقاتل. وقيل: أرادت أن تقول: إنه ابني. وقيل: كادت تظهر أنه من بني إسرائيل؛ لأنه لو ظهر ذلك لعلم فرعون ولقتله. وقيل: لما رأته عند دعاء فرعون إياها للإرضاع ضاق ذرعها من شدة السرور، فأرادت أن تقول: إنها أمه، عن جعفر بن حرب. وقيل: لما التقم موسى ثديها سر به فرعون، وسألوها عن السبب في ذلك، فكادت تقول: إنه ابني، فعصمها الله. وقيل: لما شبَّ والناس يقولون: ابن فرعون، شق عليها ذلك، وكادت تقول: إنه ابني «**لَوْلاَ أَن رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا**» أي: شددنا عليه بالألطاف.

ومتى قيل: كيف يصح هذا التأويل مع ما اخترتم في قوله: «**فارغًا**» خاليًا من الخوف لثقتها بوعد الله تعالى؟

قلنا: يجوز أن تكون قد همت بذكر ابنها بعد سلامته، فكان في المعلوم إظهار مضرة، فعصمها الله بلطفه فلم تظهر، ويحتمل لولا لطف الله تعالى لما كان فارغًا.

«**لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**» قيل: من المستهدين(١) الإيمان؛ إذ لو كان في المعلوم لو أصاب موسى قتل لأخطأت خلاف الإيمان، فذكر تعالى أنه نجى موسى، وأنعم عليه؛ ولذلك كانت النجاة في إيمان أمه.

۞ الأحكام

تدل الآيات على معجزات كثيرة، وقيل: كانت معجزة لنبي كان في ذلك

(١) المستهدين: المستدهين، ن.

العصر، وقيل: بل كان إرهاصًا لنبوة موسى، فالأول قول مشايخنا البصرية، والثاني قول مشايخنا البغدادية.

ويدل قوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا﴾ أن اللام في لغة العرب يكون بمعنى العاقبة، وعلى ذلك حمل مشايخنا قوله: ﴿لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ﴾ [يونس: ٨٨]، ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، فيفسد قول المجبرة.

وتدل أنه تعالى فعل بها من اللطف ما قوى قلبها.

وتدل أن الخطأ والإيمان فعل العبد.

قوله تعالى:

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾

القراءة

قراءة العامة: ﴿جُنُبٍ﴾، وعن بعضهم: «جَنْب» بفتح الجيم وسكون النون، وعن النعمان بن سالم: (عن جانب) أي: عن ناحية.

اللغة

القصّ: اتباع الأثر، قَصَّهُ يَقُصُّهُ: إذا اتبع أثره، ومنه القصص في الحديث؛ لأنه يتبع بعضه بعضًا، والقِصَاصُ: اتباع الجاني في الأخذ بمثل جنايته.

وبصرته ورأيته(١) من النظائر إلا أن «رأى» يتعدى؛ لأنه يدل على وجود المرئي،

---

(١) ورأيته: ويراته، ن.

«ويبصر» لا يدل، وإنما يدل أنه [إن] وجد المبصر أبصره، والاسم بَصِيرٌ، فإذا ألحقه حرف الإضافة تعدى، نحو: بصرت به.

والجنابة: البعد، وأصله أن يكون في جانب، ومنه: ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ [النساء:٣٦] أي: الغريب، وقيل له: جُنُبٌ؛ لأنه بجانب من يجاوره في النسب والمنزل، يقال: رجل جُنُبٌ، وقوم جُنُبُ، وامرأة جُنُبٌ على المصدر، ويقال: رجل جنب وجانب، فمن قال للواحد: جُنُب قال: جمعه أجناب، نحو: عُنُقٍ وأعناق، وطيب وأطياب، ومن قال للواحد: جانب، قال في جمعه: جُنَّاب كراكب ورُكَّابٍ، ورجل جنب: إذا أجنب من الجنابة، سمي بذلك؛ لأنه تباعد من مكان الصلاة، وأجنب عن الشيء، ويقال: جنبته من ذلك الأمر، واجتنبته، وجنبته إياه.

الكفيل: الضامن، كفل يَكْفُل كفالة، وأكفلته المال: ضَمَّنْتُهُ إياه، وأكفلنيها: أي اجعلني كافلاً لها.

والنصح: إخلاص العمل من شائب الفساد، والنصح: نقيض الغش، نصح ينصح نصحًا فهو ناصح، والتوبة النصوح: الخالص، لا يشوبها ما يبطلها.

۞ المعنى

ثم ذكر تعالى لطف تدبيره في أمر موسى وتسخير فرعون حتى تولى تربيته حتى رده على أمه، فقال سبحانه: «**وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ**» يعني أخت موسى، واسمها مريم، «**قُصِّيهِ**» اتبعي أثر موسى ليعلم خبره «**فَبَصُرَتْ**» في الكلام اختصار، أي: فذهبت فوجدت آل فرعون أخرجوا التابوت وأخرجوا موسى «**فَبَصُرَتْ بِهِ**» وهذا من إعجاز القرآن في إيجاز الكلام الدال على المعنى الكثير، فرأته أخت موسى «**عَنْ جُنُبٍ**» قيل: عن بُعْدٍ، عن مجاهد. وقيل: جعلت تنظر إليه كأنها لا تريده، عن قتادة. ومعناه: من مكان جنب، وهو الجانب «**وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ**» يعني: آل فرعون لا يعلمون أنها أخته «**وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ**» أي: منعناه بالتبغيض إليه، فهو تحريم مَنْعٍ لا تحريم نهي. وقيل: كره إليه ألبان النسوان أجمع والأطعمة أجمع بنفار خُلِقَ فيه. وقيل: كان أَلِفَ لبن أمه،

وكان في لبنها لذة ليس في غيره، فكان لا يمص ثدي غيرها ويبكي، وألقى الله محبته في قلب فرعون، ولشدة محبته وغاية شفقته طلب الرضعاء «**الْمَرَاضِعَ**» جمع مرضع «**مِن قَبْلُ**» أي: من قبل رده على أمه، وكان يؤتى بمرضع بعد مرضع فلا يقبل ثدي امرأة، فغمهم ذلك، فلما رأت أخت موسى ذلك قالت: «**هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ**» يضمنون برضاعه والقيام عليه ويضمونه إليهم، وهي امرأة قتل ولدها فأحب شيء إليها أن تجد صبيًا ترضعه «**وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ**» قيل: لموسى. وقيل: لما قالت هذا أخذوها، وقالوا: إنك عرفت هذا الغلام فدلينا على أهل بيته، فقالت: ما أعرفه ولكني قلت: هم للملك ناصحون، عن ابن جريج. وقيل: لأنه قيل لها: من أين قلت: هم له ناصحون؟ قالت: عنيت ناصحون للملك فيه. «**فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ**» أي: رجعناه إليها، فانطلقت وأخبرت أمها، فجاءت إليهم، فلما وجد الصبي ريح أمه قبل ثديها، وسكن بكاؤه، فذلك قوله: «**فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ**»، وقيل: إن فرعون قال لها: كيف ارتضع منك ولم يرضع من غيرك؟ فقالت: لأني امرأة طيبة الريح طيبة اللبن، لا أكاد أوتى بصبي إلا ارتضع مني، فسر فرعون بذلك. «**كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا**» أي: لِتُسَرَّ برد موسى عليها، وقرة العين لفظة موضوعة للسرور والاغتباط «**وَلاَ تَحْزَنَ**» عليه ولا على فراقه «**وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ**» في رده عليها «**وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ**» من تحقيق ذلك الوعد ما علمت.

۞ الأحكام

الآيات تدل على أشياء: منها وجوب التوكل على الله في جميع أموره ليصلحها، كما فعل بموسى وأمه، فرباه على يد عدوه، وجاء الأمن من موضع المخافة، وذلك من لطيف تدبيره.

وتدل أنها وثقت بوعد الله تعالى، وأنه أنجز وعده عاجلاً، وأن فرعون طلب الرضعاء، وكل ذلك من نعمته تعالى عليها.

قوله تعالى:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ
حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى
مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ
مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾
قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا
ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ
بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ
جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ
إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾

القراءة

قرأ جعفر المدني: «يَبْطُشَ» بضم الطاء، والباقون بكسرها، وهما لغتان.

اللغة

الأَشُدّ: جمع شدة، مثل نِعْمَةٍ وأَنْعُم، وهي القوة والجلادة في البدن. وقيل: الأشد في خمسة عشر إلى أربعين سنة، يقال: شد يشد شِدَّةً: إذا كان قويًا، وشددته: أوثقته.

والوَكْزُ: الدفع، والوكز: الضرب بجمع الكف، والوكز: الطعن، ونظير وكَزَهُ(١): نَكَزَهُ(٢) ولَهَزَهُ.

والظهير: المعين، وسمي بذلك لأنه يصير كالظهر له، والظهور: الغلبة.

(١) وكزه: وكز، ن.

(٢) نكزه: يكزه، ن.

والترقب: الانتظار، والرقيب: الحافظ، رَقَبْتُ أَرْقُبُ رِقْبَةً ورِقْبَانًا[1]: إذا انتظرت، والمَرْقَبُ: المكان العالي يقف عليه الرقيب.

والاستصراخ: طلب الصراخ على العدو بما يردعه من الإيقاع به.

والاستنصار: طلب النصر.

والغوي: المنهمك في الباطل، والتغاوي: التجمع له.

والائتمار: المشاورة وأمر بعضهم لبعض، ائتمر القوم وتآمروا: إذا شاور بعضهم بعضًا، وكذلك ارتأوا، قال الشاعر:

أرى الناس قد أحدثوا شيمة ... وفي كل حادثة يؤتمر[2]

أي: [يتشاور] ويرتأي[3] [فيها]، وهم يفتعلون من الأمر.

الإعراب

قوله: ﴿يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ قيل: معناه: يرقبونك، والكاف محله خفض بالباء.

ويقال: لِمَ دخلت الفاء في قوله: ﴿فَلَنْ أَكُونَ﴾ ؟

قلنا: على شبه جواب الجزاء أي: إن أنعمت عليّ فلن أكون، فوقع الإنعام موقع ﴿بِمَآ أَنْعَمْتَ﴾ فقيل: ﴿فَلَنْ أَكُونَ﴾ ؛ لأن في كلا الموضعين يدل على أن الثاني وقع من أجل الأول.

المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى حديث موسى (عليه السلام) بعد ما شب، وسبب خروجه من مصر، فقال سبحانه: «**وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ**» قيل: وقت تمام الحجة، عن الحسن. وقيل:

---

(١) ورقبانًا: ورقابًا، ن.

(٢) البيت قائله النمر بن تولب العكلي، انظر: ديوان النمر بن تولب العكلي، تحقيق محمد نبيل طريفي ص٦٤، دار صادر بيروت، ٢٠٠٠.

(٣) ويرتأي: يرتاد، ن.

أونس منه الرشد، وبلغ كمال قوته في البدن والعقل. وقيل: الأَشُدُّ: ما بين ثماني عشرة إلى ثمانين سنة، عن الكلبي. وقيل: الأشد: ثلاث وستون سنة، واستواؤه أربعون سنة، عن ابن عباس، وقتادة. «وَاسْتَوَى» بلغ نهاية العقل وتهذب وصلح، وقيل: استوى: بلغ تمام الخلق واعتدال الجسم، وقيل: يكون هذا في اثنين وعشرين سنة إلى أن يجاوز أربعين سنة. «آتَيْنَاهُ» أعطيناه «حُكْمًا وَعِلْمًا» قيل: النبوة والعلم، وقيل: فَهْمًا وعقلاً، وقيل: هو علوم الشرع. «وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ» يعني: بعثناه لأنه كان بصفة تصلح للبعثة، لا أن البعث جزاء على العمل «وَدَخَلَ» موسى «الْمَدِينَةَ» قيل: مصر، وقيل: أرض مصر، عن السدي. وقيل: على فرسخين من مصر، عن مقاتل. والأول أوجه. «عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا» قيل: وقت القائلة، وقيل: يوم عيد لهم قد اشتغلوا بلعبهم، عن الحسن. وقيل: بين المغرب والعشاء، عن محمد بن كعب. وقيل: غفلوا عن ذكره لِبُعْدِ عهدهم به، وكان أمر بإخراجه من المدينة، عن ابن زيد. واختلفوا في سبب دخول المدينة في هذا الوقت، قيل: كان خرج من مصر مع فرعون، فلما كان وقت القائلة دخل المدينة ليقيل، عن السدي. وقيل: كان بنو إسرائيل يجتمعون إلى موسى ويسمعون منه، فلما اشتد وعرف الحق خالف قوم فرعون، وأنكر ما كانوا فيه، فذكر ذلك منه وأخافوه، فكان لا يدخل قرية إلا خائفًا، فدخلها على حين غفلة، عن ابن إسحاق. وقيل: كان فرعون أمر بإخراجه من بلده، فبعد عهد موسى، فلم يدخل إلا بعد أن بلغ أشده وذلك حين دعي بالجمرة والتمرة واختبره، وترك قتله وأمر بإخراجه، عن ابن زيد. «فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ» قيل: كانت خصومتهما في الدين، عن أبي علي. وقيل: كان في أمر الدنيا، وقيل: كان يتخذ سخرة في عمل فرعون «هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ» قبطي، عن مجاهد. وقيل: هذا مسلم والآخر كافر، عن ابن إسحاق. وقيل: كانا كافرين ولم يكن أبيح قتل الكفار حينئذ فلهذا تاب، والصحيح أن الإسرائيلي كان مؤمنًا؛ لذلك استغاث بموسى، ولذلك عده من شيعته أي: أتباعه «فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ» يعني: الإسرائيلي استغاث بموسى على القبطي، استغاث به؛ لأنه علم منزلته من بني إسرائيل، ولم يعلم الناس إلا من قبل الرضاعة، فقال موسى للقبطي: خَلِّ

سبيله، فقال: إنما آخذه ليحمل الحطب إلى مطبخ أبيك، فتنازعا «**فَوَكَزَهُ مُوسَى**» أي: دفع في صدره بجميع كفه، وقيل: الوكز: الدفع بأطراف الأصابع، عن الفراء، وأبي عبيدة. «**فَقَضَى عَلَيْهِ**» أي: قتله وفرغ من أمره، ويقال لكل شيء فرغت منه على التمام: قد قضيته وقضيت عليه، واختلفوا في هذا القتل، فقيل: إن موسى لم يتعمد القتل، ولكن قصد تخليص المؤمن من يد الكافر المتعدي، وبدفعه صار مقتولاً خطأ.

ومتى قيل: إذا كان هذا قصده ـ وهو حسن ـ فلم صار مذنبًا؟

قلنا: الخطأ قد يقع في الأسباب، فقد كان يمكنه ألاّ يعجل، فيتمكن من تخليصه بالرفق والقول الجميل، ويحتمل أنه لو ضربه في غير مقتل لكان يعيش، فكان يحسن عليه التحرز من المقتل، فلم يفعل وضرب في المقتل، وقال بعضهم: لم يكن ذنبًا، وإنما ذكر ما بعده على سبيل الانقطاع على ما نبينه. وقيل: كان في دار الحرب ولم يعلم الحكم فيه، وإباحة القتل يعلم سمعًا. وقيل: كان مباح الدم إلا أنه كان نهي عن قتله؛ لما يخاف على نفسه من القصاص. وقيل: كان ذنبًا إلا أنه كان صغيرًا، عن أبي علي.

«**قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ**» أي: من إغوائه ووسوسته، قيل: يعني وزري في الإيقاع به على الدفع وإن كنت لم أتعمد، فأضافه إلى الشيطان؛ لأنه دعا إليه. وقيل: الخصومة التي وقع القتل بسببها حصلت بوسوسة الشيطان «**إِنَّهُ عَدُوٌّ**» لبني آدم «**مُضِلٌّ**» يضل الناس بوسوسته عن الحق «**مُبِينٌ**» ظاهر العداوة والإضلال «**قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي**» قيل: حصل منه صغيرة، ثم اختلفوا، فقال أبو علي: ظلمه لنفسه أنه يلزمه التوبة كلما تذكره. وقال أبو هاشم: لأنه نقص من ثوابه بقدر عقاب صغيرته. وقيل: أراد ظلمت نفسي في هذا القتل؛ فإنهم لو علموا قتلوني. وقيل: قاله على سبيل الانقطاع «**فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ**» من ضروب النعم دينًا ودنيا «**فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا**» معينًا» «**لِلْمُجْرِمِينَ**»، فضمن ألاّ يدع معاونة أهل الحق ولا التعصب في الدين، وقيل: بما أنعمت عليّ بالمغفرة، وقيل: بالهداية، وقيل: بالنجاة من فرعون، وقيل: هو عام في جميع النعم، وهو أوجه؛ لأنه يدخل فيه جميع ما ذكر. وقيل: فلن أعين بعدها على خطيئة، عن قتادة. وقيل: لم يستثن،

فابتلي في اليوم الثاني بمثل ما وقع في الأول، وقيل: هذا لا يصح؛ لأنه في اليوم الثاني لم يقتل ولكن خاف القبطي منه «**فَأَصْبَحَ**» في اليوم الثاني «**فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا**» من قتل القبطي «**يَتَرَقَّبُ**» قيل: ينتظر الأخبار في قتل القبطي، عن ابن عباس. «**فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ**» طلب نصرته «**يَسْتَصْرِخُهُ**» أي: يستغيثه، قيل: لما فشا أمر القتل قيل لفرعون: إن بني إسرائيل قتلت منا رجلاً، فقال: أتعرفون قاتله ومن يشهد عليه، وأمرهم فطلبوه، فبينا هم يطوفون إذ مر موسى من الغد فرأى ذلك الإسرائيلي، عن ابن عباس. وقيل: إنما استغاث به؛ لأن القبطي كان يناظره ويغالب فـ «**قَالَ لَهُ [مُوسَى]**» قيل: لِلإسرائيلي[(١)]: «**إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ**» ظاهر الغواية حيث قاتلت بالأمس رجلاً وتقاتل اليوم آخر، ولم يُرِدْ الغواية في الدين، وإنما أراد من خاصم آل فرعون مع كفرهم، فإنه غَوِيٌّ، أي: خائب عما يطلبهم، وقيل: بل قال للقبطي: إنك لغوي لظلمك، ولسخرك إياه.

ثم أراد موسى نصرة الإسرائيلي، فقال سبحانه: «**فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ**» أي: يأخذ بشدة «**بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا**» يعني القبطي، قال ابن عباس: تقديره يريد أخذه، فنظر الإسرائيلي، فخاف على نفسه أنه يريد قتله حيث قال له: «**إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ**» فقال لموسى: «**أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ**»، عن ابن عباس وجماعة من أهل العلم. وقيل: لا بل قاله للقبطي؛ لأنه كان استهزأ به قبله بعض بني إسرائيل، عن الحسن. وقيل: إنه شنع عليه بذلك ونسب إليه القتل من غير علم به «**إِنْ تُرِيدُ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ**» بالقتل والظلم، قال عكرمة والشعبي: لا يكون الإنسان جبارًا حتى يقتل نفسين بغير حق. «**وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ**» وقيل: أراد أن تكون جبارًا في سلطان فرعون. وقيل: لما قال الإسرائيلي ذلك علم القبطي أن القاتل موسى، فانطلق إلى فرعون فأخبره به، وأمر فرعون بقتل موسى، وبعث في قتله، فَأَخَذَ في الطريق الأعظم «**وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ**» قيل: كان من شيعة موسى فتسلط طريقًا قريبًا، فسبقهم إلى موسى وأخبره بالخبر وأنذره، واختلفوا، قيل: كان

(١) للإسرائيلي: الإسْرائيلي، ن.

حِزْقِيل[1] مؤمن آل فرعون، كان ابن عم فرعون، وقيل: بل رجل اسمه شمعون، وقيل: شمعان «يَسْعَى» يسرع في المشي لينذره، عن الكلبي. وقيل: يمشي على رجله، عن مقاتل. «قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ» أي: الأشراف من قوم فرعون، وقيل: أراد أولياء المقتول، وقيل: أراد فرعون، والصحيح أنه فرعون وملؤه[2] «يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ» قيل: يتشاورون في قتلك، وقيل: يأمر بعضهم بعضًا بقتلك «فَاخْرُجْ» من أرض مصر، وقيل: من المدينة «إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ» في هذا.

۞ الأحكام

يدل قوله: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أنه علم الدين قبل النبوة.

ويدل قوله: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ على وجوب نصرة المؤمن وصلابة موسى في دين الله؛ لأنه رأى القبطي ينصر الكفر متعصبًا لفرعون.

ويدل قوله: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أنه كان ذنبًا، وإن كان صغيرة.

ويدل أنه لم يكن خلقًا لله تعالى فيبطل قول المجبرة؛ لأنه لو خلق فيه ذلك، وخلق في الشيطان الدعاء إليه؛ فالإضافة إليه أولى منهما.

ويدل قوله في صفة الشيطان: ﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ﴾ أنه تعالى لا يُضِلّ لوجهين:

أحدهما: أن الضلال لو كان خلقًا له لما كان الشيطان مضلاً.

ومنها: أنه ذم الشيطان بأنه مُضِلٌّ فكيف يُضِلّ هو.

ويدل قوله: ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ على مواقعة صغيرة، وأنه فعله ليس بخلق لله تعالى.

ويدل قوله: ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا﴾ أنه لا يجوز معاونة الظلمة.

---

(١) حزقيل: حزبيل، ن.

(٢) وملؤه: وملائه، ن.

وتدل على وجوب النصيحة في الدين، وعظم موقعه لذلك صلاح الجاني.

قوله تعالى:

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾

القراءة

قرأ أبو جعفر وأبو عمرو وابن عامر: «حتى يَصدُر» بفتح الياء وضم الدال، وهو قراءة الحسن والسلمي، جعل الفعل للرعاة؛ أي: حتى يرجعوا هم عن الماء، الباقون بضم الياء وكسر الدال، أي: حتى يرجعوا مواشيهم عن الماء.

اللغة

الترقب: الانتظار والحفظ، ومنه: الرقيب.

وتِلْقَاءَهُ: حذاءه، ويقال: فَعَلَهُ مِنْ تلقاء نفسه، وداره تلقاء دار فلان، وأصله من اللقاء.

والتوجه: إقبالك على الشيء بوجهك.

والخطب والشأن من النظائر، يقال: ما خطبك؟ أي: ما شأنك؟ والخطب: الأمر الذي فيه تفخيم الشيء، ومنه الخطبة والخطاب والخطبة.

والصَّدْرُ: الانصراف عن الماء، صَدَرَ يَصْدُرُ، وأصدر غيره إصدارًا، ومنه: الْمُصدِر؛ لأن التدابير تصدر منه، والمصدَر؛ لأن الأفعال تصدر منه.

ذاد [الشياه]: أمالها عن المشي، يذودها ذَوْدًا: إذا حبسها عنه ومنعها، والذَّوْدُ من الإبل من الثلاث إلى العشر، وقال أبو عبيد: ما بين الثلاثين إلى التسعين من الإناث دون الذكور.

وأحد الرِّعاءِ: راعٍ، مثل: تاجر وتجار، ويجمع: رعاة ورُعْيَانٌ.

الإعراب

﴿مَدْيَنَ﴾ لا ينصرف؛ لأنه اسم بلدة، قال الشاعر:

رُهْبَانُ مَدْيَنَ لَوْ رَأَوْكِ تَنَزَّلُوا[1]

واللام في قوله: ﴿لِمَآ أَنزَلْتَ﴾ بمعنى (إلى)، عن قطرب. يقال: احْتَجْتُ له، واحتجت إليه.

﴿فَقِيرٌ﴾ خبر (إن)، والاسم في الياء.

المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى خروجه من مصر إلى مدين، فقال سبحانه: «**فَخَرَجَ**» موسى «**مِنْهَا**» من المدينة «**خَائِفًا**» من فرعون وقومه أن يأخذوه ويقتلوه بالقبطي «**يَتَرَقَّبُ**» ينتظر الطلب، عن قتادة. «**قَالَ رَبِّ نَجِّنِي**» خلصني «**مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**» يعني: فرعون وقومه. «**وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ**» أي: أقبل بوجهه على ناحية مدين قاصدًا لها خارجًا عن سلطان فرعون. وقيل: لما خرج من مصر لم يَدْرِ أين يذهب، فأخذ في طريق عنده أنه يؤديه إلى مدين وهو مدينة شعيب، وقيل: نسب إلى مدين بن إبراهيم. «**قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ**» يعني: وسط الطريق المستقيمة المؤدي إلى النجاة، وقيل: يهديني المحجة إلى مدين. قيل: خرج بغير زاد لا يأكل إلا حشيش الصحراء حتى بلغ مدين، وقيل: خرج حافيًا، فما وصل إلى مدين حتى وقع خف قدمه، عن

---

(١) البيت قائله جرير وتكملته:

رهبان مدين لو رأوك تنزلوا ... والعصم من شعف العقول الغادِرُ

انظر: لسان العرب وتاج العروس؛ (رهب).

سعيد بن جبير. وقيل: لما دعا ربه استجاب له ودله على الطريق حتى «**وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ**» بئر كانت لهم «**وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ**» أي: جماعة يسقون مواشيهم «**وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ**» [أي]: تحبسان وتمنعان أغنامهما، عن السدي. وقيل: تذودان الناس عن مواشيها، عن قتادة. وقيل: تكفان الغنم أن تختلط بأغنام الناس، عن الحسن. فترك ذكر الغنم اختصارًا، وقيل: تمنعان غنمهما عن الماء حتى يصدر الناس ويخلو لهما البئر، ثم تسقيان مواشيهما لضعفهما، وهو الوجه «**قَالَ**» موسى لهما «**مَا خَطْبُكُمَا**» أي: شأنكما لا تسقيان مع الناس، عن ابن إسحاق. «**قَالَتَا لاَ نَسْقِي**» عند المزاحمة مع الناس «**حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ**» بيّنّا القراءتين ومعناهما، أي: ينصرف الناس، قيل: قالتا: لا نفعل ذاك لئلا نختلط بالرجال، عن أبي مسلم. وقيل: لا نطيق السقي، فننتظر فضول الماء، فإذا صدروا سقينا مواشينا من فضول الحوض، عن ابن عباس، وقتادة، وابن إسحاق. «**وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ**» قيل: سألهما أَلَيْس[1] لهما أحد يكفيهما ذلك؟ فقالتا: أبونا شيخ كبير، أي: هرم لا يقدر أن يتولى ذلك بنفسه. واختلفوا في هذا الشيخ، فقيل: هو شعيب، عن مجاهد، والضحاك، والسدي. وقيل: لا؛ بل رجل مسلم قَبِلَ الدين من شعيب، ومات شعيب قبل ذلك، عن الحسن. وقيل: هو ابن أخي شعيب. عن وهب وسعيد بن جبير قالا: ومات شعيب قبل ذلك بعدما كف بصره، فدفن بين زمزم والمقام، فلما سمع قولهما رحمهما. «**فَسَقَى لَهُمَا**» قيل: رفع لهما حجرًا عن بئر آخر لا يقدر على رفعه إلا عشرة رجال، ثم استقى لهما، عن شريح. وقيل: إنه [زَحَمَ] القوم عن الماء حتى أخرهم عنه، ثم سقى لهما، عن ابن إسحاق. «**ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ**» قيل: ظل شجرة، عن السدي وغيره. «**فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ**» أي: إلى ما أنزلت إليَّ «**مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ**» قيل: أَدْرَكَهُ جوع شديد، فسأل الخبز، عن ابن عباس. وقيل: سقى لهما، وهو محتاج إلى شق تمر «**فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا**» في الكلام حذف يدل عليه ما بقي، أي: فلما رجعا إلى أبيهما قبل الناس قال لهما: ما أعجلكما؟ فقصتا عليه القصة، فقال لإحداهما: اذهبي فادْعِيهِ، «**فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ**» قيل: تستحيي من موسى، عن أبي علي. وقيل: مستترة بكم

(١) أليس: ليس، ن.

درعها، عن عمر. وقيل: سترت وجهها بيدها[1]، عن نوف. وقيل: كانت تمشي عادلة عن الطريق «**قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا**» فانطلق موسى معها، وقال لها: امشي خلفي، ودليني على الطريق إن أخطأت؛ فإنا بني يعقوب لا ننظر إلى أعجاز النساء «**فَلَمَّا [جَاءَهُ]**» جاء موسى إلى الشيخ: «**وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ**» أي: أخبره بأمره والسبب الذي له أخرج من أرضه «**قَالَ**» الشيخ: «**لاَ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**» يعني: فرعون وقومه فلا سلطان له بأرضنا، وقيل: أوحى الله إليه بأنه نجا منهم، وقيل: إن خبره يخفى فلا يطلع عليه أحد.

۞ الأحكام

تدل الآيات على أن الواجب على المرء الفرار بدينه، والتوكل على ربه.

وتدل على حسن إغاثة الضعفاء.

ويدل قوله: ﴿عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ على عظم موقع الحياء في الدين وورد الشرع عن رسول الله ﷺ: «الحياء نصف الإيمان».

ويدل قوله: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ على إباحة كلام الأجنبيات عند الحاجة والأمن على النفس.

ويدل قوله: ﴿مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ على تلطف في السؤال.

وتدل أن المجازاة على الإحسان حسن.

وتدل على بشارة بالنجاة من الظلمة.

وتدل أنها نعمة.

وتدل أن الظلم فِعْلُ العبد؛ ليصح النجاة بالهرب.

---

(١) في تفسير الطبري ١٠/٥٨: سترت وجهها بيديها.

قوله تعالى:

﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ
أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ
عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ
بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾
۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ
ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ
أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا
ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾

۞ القراءة

قرأ عاصم: ﴿جَذْوَةٍ﴾ بفتح الجيم، وقرأ حمزة بضم الجيم، الباقون بكسرها، وهي ثلاث لغات أكثرها وأشهرها الكسر.

قراءة العامة: ﴿ٱلْبُقْعَةِ﴾ بضم الباء، وعن أشهب العقيلي بفتحها.

۞ اللغة

الاستئجار: طلب الإجارة، وهي عَقْدٌ على منافع بِعِوَضٍ، وهو جائز في شريعتنا، كما جاز في شريعتهم، أَجَرَهُ يَأْجُرُهُ أجرًا، وآجرَهُ إجارةً، واستأجره استئجارًا، والأجر والثواب من النظائر، وهو الجزاء على عمل الخير.

والقوة والقدرة نظيران، والقوي: القادر العظيم المقدور، وأصل القوة: شدة الفتل من قُوَى الحبل وهي طاقاته، ثم كثر استعماله بمعنى القدرة، يقال لله تعالى: قوي.

والأمانة: نقيض الخيانة، وهو أداء ما يجب أداؤه.

والإنكاح: عقد التناكح على عقد، أنكحه: زَوَّجَهُ، والنكاح يستعمل بمعنى الوطء، وبمعنى العقد، وقد اختلفوا أنه في أيهما حقيقة، والأصح أنه في عرف الشرع حقيقة للعقد، ويجوز أن يكون الاسم مجازًا في اللغة، ثم يصير حقيقة في الشرع بالنقل إليه، وكذلك بالعُرْفِ.

والحِجَجُ: جمع حَجَّةٍ، وهي السَّنَةُ.

والأجل: الوقت.

والإيناس: رؤية ما يؤنس إليه.

والجذوة: الغليظة من الحطب فيها النار، وهي مثل الجذوة من أصل الشجر.

والاصطلاء: طلب الصلاء.

وشاطئ الوادي: جانبه، وهو الشط، وجمعه: شواطئ.

الإعراب

نصب «أيَّ» بـ«قضيت».

و(ما) في قوله: «أيما» زائدة، ومعناه: أَيَّ الأجلين، وهو كذلك في رواية ابن مسعود.

﴿عُدْوَنَ﴾ بالنصب على النفي، أي: لا اعتداء عليّ.

المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى لُبْثَ موسى في مدين وانصرافه، وأنه أوحى إليه، فقال سبحانه: «**قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ**» قيل: فلما رأوا[1] أمانته وقوته رغبوا فيه، فقالت إحدى ابنتي الشيخ - قيل: هي التي تزوجها -: «**يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ**» ليرعى أغنامنا «**إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ**» قيل: قوته أنه سقى الماشية بدلو واحد، وأمانته أنه

(١) رأوا: رأى، ن.

غض طرفه وأمرها أن تمشي خلفه، عن قتادة. وقيل: قال الشيخ لها: بم عرفت قوته وأمانته؟ قالت: قال: هل بقربكما بئر؟ قلنا: نعم، فنحى عنه صخرة لا يرفعها إلا أربعون، وقال لي: امشي خلفي، فإن أخطأت الطريق فارمي قدامي حصاة حتى أنهج نهجها، فـ «**قَالَ**» الشيخ لموسى: «**إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ**» أزوجك «**إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ**» واسمهما قيل: صعورة[1] وليا، وقيل: الكبرى صفراء، والصغرى صفيراء «**عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي**» أن تكون أجيري «**ثَمَانِيَ حِجَجٍ**» قيل: تجعل أجري على تزويجي إياك رعي ماشيتي ثماني[2] سنين، وجعل مهر ابنته هذا الذي عقد عليه، وقيل: بل زوجه بمهر، واستأجره للرعي، ولم يجعل ذلك مهرًا، ولكن شرط ذلك عليه «**فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا**» أي: عشر سنين «**فَمِنْ عِنْدِكَ**» أي: أنت مُتَبَرِّعٌ به «**وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ**» أي: أضيق حتى تلحقك مشقة «**سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ**» قيل: من الوافين بالعهد المحبين في الصحبة المطيعين لله فـ «**قَالَ**» موسى وقد رغب في العقد «**ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ**» المدتين «**قَضَيْتُ**» وفيت العشر أو الثمان[3] «**فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ**» قيل: لا حجة، وقيل: لا دعوى ولا عدوى، عن أبي مسلم. وقيل: لا سبيل عليّ حتى أطالب بزيادة، يعني: ليس لك أن تعتدي عليّ بزيادة «**وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ**» قيل: شهيد وحافظ، وقيل: شاهد على ضماننا، وقيل: تفويض أمرنا إليه «**فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ**» أي: فرغ من إتمام العمل على تمام في المدة، وفي الكلام حذف وإيجاز؛ لأن فيه: زَوَّجَها منه، وزفت إليه، وتوجه نحو الشام، واختلفوا في زوجته، [فقيل]: الكبرى، عن وهب. وقيل: الصغرى، روي مرفوعًا، روي عن النبي - صلى الله عليه - قال: «زوجه صغراهما وقضى أوفاهما»، وقيل: لما زوجها منه أمر الشيخ أن يُعْطَى موسى عصا يدفع السباع عن غنمه، فأعطي العصا، واختلفوا في تلك

---

(١) هكذا في ن. وفي تفسير ابن كثير ٢/ ٥١٠: قال شعيب الجبائي: صفوريا وليا، وقال محمد بن إسحاق: صفوريا وشرفا. وفي تفسير القرطبي ١٣/ ٢٤٠: صفوريا وليا. وفي روح المعاني ٢٠/ ٥٩ ما لفظه: امرأتين اسم أحدهما قيل: ليا، وقيل: عبرا، وقيل: شرفا، واسم الأخرى قيل: صفوريا، وقيل: صفوراء، وقيل: صفيراء. وفي الكشاف: صفيراء اسم الصغرى، واسم الكبرى صفراء.

(٢) ثماني: ثمان؛ ن.

(٣) الثمان: الثماني؛ ن.

العصا، قيل: كان آدم أخرجها من الجنة، فأخذها جبريل، ثم دفعها إلى موسى، عن عكرمة. وقيل: لم يزل الأنبياء يتوارثونها حتى وصلت إلى شعيب فأعطاها موسى. وقيل: استودعها ملك في صورة رجل، فأمر بنته أن تخرج عصا، فدخلت الجارية وأخذت العصا فأتته بها، فلما رآها الشيخ قال: لا، ائتي بغيرها، فألقتها وأرادت أخذ غيرها فلا تقع في يدها إلا هذه، فعلت ذلك مرارًا، فأعطاها موسى. وقيل: اختصم موسى والشيخ في العصا، فلقيهما ملك وقال: ضعاها على الأرض فمن رفعها كانت له، فلم يمكن الشيخ رفعها فرفعها موسى، عن السدي. قيل: كانت عنده ثلاث عشرة عصا، وإن موسى دخل ورفع ذلك، فأخبرت البنت أباها فسرّ به وقال: إن له مع هذه العصا لشأنًا، وإن زوجك نبي. والأجل: المدة **«فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ»** قيل: قضى أتم الأجلين وأبعدهما، عن ابن عباس، ذكره مرفوعًا، **«وَسَارَ بِأَهْلِهِ»** قيل: مكث بعد إيفاء الأجل عند صهره عشرًا أخرى فأقام عنده عشرين سنة، واستأذنه في العود إلى مصر ليزور والديه وأخاه، فأذن له، فسار بأهله. وقيل: لما قضى العشر سار بأهله، عن أبي علي. وقيل: سار بأهله: عياله وماله وكان في أيام الشتاء، فأخذ على غير الطريق مخافة ملوك الشام، وامرأته في شهرها، فسار في البرية غير عارف بالطريق، وألجأه المسير إلى جانب الطور الأيمن في ليلة مظلمة شديدة البرد، وأخذ امرأته الطلق، وضل عن الطريق، وتفرقت ماشيته، وأصابه المطر والبرد، فبقي لا يدري أين يتوجه وإيش يعمل، فبينما هو كذلك إذ رأى نارًا، فقال سبحانه: **«آنَسَ»** أي: رأى وأبصر **«مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا»** قيل: كانت معه امرأته فقط؛ لكن خاطبها بخطاب الجماعة تفخيمًا لشأنها، وقيل: يجوز أن يكون معها غيرها **«امْكُثُوا»** هاهنا فـ"**إِنِّي [آنَسْتُ]**» رأيت **«نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ»** من الطريق أو أجد من يدل عليه **«أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ»** قيل: شعلة من النار، عن قتادة. وقيل: قطعة، وقيل: الجذوة: العود الذي قد احترق بعضه، عن قتادة، ومقاتل. **«لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ»** أي: تستدفئون بالنار فيذهب البرد الذي أصابكم **«فَلَمَّا أَتَاهَا[1]»** **يعني: موسى النار، أي: قرب منها** **«نُودِيَ»** موسى **«مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي»** قيل: من طرف الوادي **«الأَيْمَنِ»** قيل:

(١) فلما أتاها: فلما جاءها، ن.

يمين الوادي، وقيل: يمين موسى «فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ» قيل: كانت مباركة لكثرة الأشجار والثمار والخير والنعم، وقيل: لأنها معدن الوحي والرسالة وكلام الله تعالى، وقيل: مباركة في الدين والدنيا «مِنَ الشَّجَرَةِ» يعني كان الكلام مسموعًا من الشجرة؛ لأنه تعالى جعل الشجرة محل الكلام؛ لأن الكلام عرض يحتاج إلى محل، فخلقه الله في الشجرة، فسمعه موسى وعلم بالمعجزات أنه كلامه تعالى، وأما هو تعالى لا يصح أن يكون في محل ولا مكان؛ لأنه ليس بجسم ولا عرض، وهذا كما خلق التسبيح في الحجر في يد النبي صلى الله عليه معجزة له، ولا يقال: الكلام للشجرة؛ لأنها جماد، ولا يصح أن تقول: إني أنا الله، فلم يبق إلا أن الشجرة محل الكلام والمتكلم هو الله تعالى؛ لأن المتكلم هو فاعل الكلام، كما أن الواحد منا متكلم بفعله الكلام، وإن كان اللسان محل الكلام «أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ» قيل: الشجرة شجرة خضراء، عن عبد الله. وقيل: عَوْسَجَةٌ، عن قتادة.

۞ الأحكام

يدل قوله: ﴿ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ﴾ أن الإجارة كانت جائزة في شريعتهم، وكذلك في شريعتنا هي عقد جائز يتم بالإيجاب والقبول، وبذل معلوم ومنفعة معلومة.

ويدل قبول موسى على أن المسلم يرضى بالقليل في طاعة الله، ولا يتأسف على الكثير في معصيته.

وتدل على جواز الكسب، واستدل بعض الشافعية بالآية على جواز أن تكون المنافع مهرًا، وهذا لا يصح؛ لأنه قيل: إنه ليس بمهر على ما بينا. قال القاضي: وإذا كان شريعته غير شريعتنا فلا يمكن أن نجعل ذلك دلالة على كيفية النكاح والمهر.

وتدل على جواز النكاح في شرعهم.

وتدل على أن موسى صار نبيًا بعد انصرافه من مدين.

وتدل على حدث الكلام [حيث] أدخل في الشجرة.

قوله تعالى:

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾

القراءة

قرأ أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب: «**من الرَّهَبِ**» بفتح الراء والهاء، وقرأ حفص عن عاصم بفتح الراء وسكون الهاء، وقرأ أبو بكر وعاصم وابن عامر وحمزة والكسائي بضم الراء وجزم الهاء، وكلها لغات صحيحة، ومعناه: الخوف والرعب.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب: «**فَذَانِّك**» بتشديد النون، وهو لغة قريش، والباقون بالتخفيف، وفي التشديد أربعة أوجه: فقيل: شدد النون عوضًا من الألف الساقطة، لأن أصله: فَذَاان فحذف الألف[1] الأولى لالتقاء الساكنين، وقيل: التشديد للتأكيد كما أدخلوا اللام في ذلك، وقيل: شددت فرقًا بينها وبين النون التي تسقط بالإضافة، وقيل: للفرق بينها وبين الاسم المتمكن، قال أبو عبيد: كان أبو عمرو يخص هذا الحرف بالتشديد من كل تثنية في القرآن، وأحسبه فعل ذلك، لقلة الحذف في الاسم، فقرأه بالمستقبل.

قرأ عاصم وحمزة: «**يُصَدِّقُنِي**» بضم القاف، الباقون: بجزمها، فالجزم على جواب الدعاء، والرفع على الحال، أي: ردءًا مصدقًا لي.

(١) فحذف الألف: فحذلك، ن.

قرأ أبو جعفر ونافع: «رِدًا» بغير همزة، الباقون بالهمز، فمن قرأه بالهمز فالمعنى عونًا، يقال: رَدَأْتُهُ أَرْدَؤُهُ رِدْءًا، وأَرْدَأْتُهُ: أَعَنْتُهُ، وفلان رِدْؤُهُ[1]، وأصل الردأة الهلاك، فكأنه يعينه في دفع الردأة عنه، ومن ترك الهمز، فأراد زيادة، قال الفراء: تقول العرب: الغنم تردى على مائة، أي: تزيد، ويقال: أَرْدَيْتَ الخبر؛ أي: زِدْتَ.

اللغة

الاهتزاز: شدة الاضطراب في الحركة.

والجانّ: الحيَّة، أخذ من الجُنَّة وهو الاختفاء.

والبرهان: البيان.

والسلطان: القوة التي يتسلط بها على الأمر، ثم تكون بالحجة وتكون بالقوة.

الإعراب

«لِسَانًا» نصب على التمييز.

المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى حال موسى لما أتى الطور، فقال سبحانه: «**وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ**» هذا أمر بالإلقاء، وفي الكلام حذف، أي: [ألقاها] من يده «**فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ**» تتحرك «**كَأَنَّهَا جَانٌّ**» الجان: الحية الصغيرة، والثعبان: الحية العظيمة، وقيل: انقلبت بإذن الله تعالى ثعبانًا عظيمًا تهتز كأنها جان في سرعة حركتها وشدة اهتزازها «**وَلَّى**» موسى «**مُدْبِرًا**» أي: هرب من موضعه يرجع وراءه «**وَلَمْ يُعَقِّبْ**» لم يرجع إلى ذلك الموضع الذي هرب منه، فنودي «**يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ**» قيل: لا تخف الثعبان، إنك آمن من أذاه، وقيل: آمِنٌ مِنْ كل شيء، ولا تخف شيئًا، فإن الرسل لا يخافون، وقيل: أمره أن يدخل يده في فمها، ففعل فصار ثعبانًا، عن أبي علي. قال تعالى: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ٢١]، «**اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ**» أدخل يدك

(١) ردؤه: رده، ن.

في جيبك، قيل: كان عليه قميص لا كم له «**تَخْرُجْ بَيْضَاءَ**» قيل: كانت تتلألأ كالقمر «**مِنْ غَيْرِ سُوءٍ**» من غير برص وعلة «**وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ**» قيل: **جناحك**: يدك، عن ابن عباس، ومجاهد. والرَّهْبُ: الرعب الذي لحقه من الحية، عن قتادة، ومجاهد. واختلفوا في معنى الآية، فقيل: هو مثل للأمن وحسن استعارة، فإن الطائر إذا خاف لم يلزم موضعه، ولم يضم جناحه، وإذا أمن ضم جناحه، فجعله مثالاً توسّعًا، والعبارة عن الأمن، وأزل الخوف عن قلبك وكن آمنًا، وقيل: وجه الاستعارة أن من شأن الخائف أن يضطرب قلبه، ويرتعد بدنه، وضَمُّ الجناح هو من السكون، كأنه قيل: سكن روعك واخفض [عليك] جأشك، وقيل: معناه إذا هَالَك أمر يدك وما ترى من شعاعها فأدخلها في جيبك تَعُدْ إلى حالتها الأولى، وقيل: أمره أن يضم يده إلى صدره ليذهب ما ناله من الخوف من(١) الحية، وقيل: أراد بالجناح عصاه، وقيل: الرهب: الكُمُّ بلغة حمير وبني حنيفة، حكاه الأصمعي، يعني: اضمم إليك يدك وأخرجها من الكم، لا يتناول العصا ويده في كمه. وقيل: هو يتصل بقوله: «**مِنَ الرَّهْبِ**»، وقيل: تخرج بيضاء من الرهب من الكم، والأوجه الأول؛ لأنه يستقيم الكلام من غير تقديم وتأخير «**فَذَانِكَ**» أي: العصا واليد البيضاء «**بُرْهَانَانِ**» أي: حجتان.

ومتى قيل: على ماذا؟

فجوابنا: على التوحيد والنبوة؛ لأن قلب العصا حية مما لا يقدر عليه غيره، فيدل على صانع مدبر، وهو اختص بموسى وبعثته، فدل على نبوته.

«**إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ**» أي: إلى فرعون وقومه، والملأ: الجماعة، وقيل: الأشراف «**إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ**» خارجين عن حد الطاعة، فـ «**قَالَ**» موسى «**رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا**» وهو القبطي «**فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ**» به، وقيل: لما سكن روعه واطمأن قلبه، وعلم أنه مبعوث إلى فرعون وتفكر فيما يلزمه من القيام بالرسالة سأل ربه التمكين من أداء الرسالة والأمن من القتل؛ فأجيب إلى ذلك.

---

(١) من: عن؛ ن.

ومتى قيل: أليس النبي عندكم لا يجوز أن يُقْتَلَ حتى يؤدي، فكيف سأل؟

قلنا: علم موسى ذلك، وإنما خاف بعد الأداء.

«**وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا**» وأحسن بيانًا، وإنما قال ذلك للعقدة التي كانت في لسانه، وقيل: أراد به ألطف مني لسانًا؛ لأن موسى كان فيه حدة «**فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءًا**» معينًا «**يُصَدِّقُنِي**» قيل: هارون على قولي، وقيل: حتى يصدقني فرعون.

ومتى قيل: كيف علم موسى أن هارون يصلح للرسالة؟ وكيف سأل ربه؟

فجوابنا: كان معروفًا بالصلاح والأمانة بينهم، وإنما سأل بإذن ربه، وقيل: إنه أخبره تعالى باستصلاحه، وأمره بالسؤال.

«**إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ. قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ**» هذه استعارة حسية، والمراد نقويك به ونعينك بمكانه فتضمه إليك، ويقال في المثل: (فلان عَضُدُ فلان)، «**وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا**» قيل: نقيم لكما حجة بينة لا تتهيأ لفرعون أن يصرفكما «**فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا**» أي: لا يقدرون أن يُوصِلُوا إليكما مكروهًا «**بِآيَاتِنَا**» أي: لأجل آياتنا «**أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ**» القاهرون، وهذه الغلبة غير السلطان، والسلطان بالحجة، والغلبة بالقهر، حتى هلك فرعون وملك موسى الأرض.

۞ الأحكام

تدل الآيات على معجزات موسى ونبوته.

ويدل قوله: ﴿وَلَا تَخَفْ﴾ أن الخوف يجوز على الأنبياء.

وتدل على أن للنبي أن يسأل ما يتمكن معه من الأداء.

وتدل على جواز نبيين في عصر واحد، وقد يكون اللطف في نبيين أقوى منه في نبي واحد من طريق العادة.

ومتى قيل: وعد بأن من اتبعهما لا يصل إليهم مكروه، ثم فعل بالسحرة لما آمنوا ما فعل؟

قلنا: إنما وعد ألاّ يصل مكروه إليهما، ووعد لمن تبعهما الغلبة. وقيل: لم يصل إلى السحرة منه شيء.

وتدل أن أفعال العباد فِعْلٌ لهم ليس بخلق الله؛ لأن القتل لو كان فعل الله لكان موسى لا يقول: إني أخاف أن يقتلون، وكان يقول: أخاف أن يبعثني إليهم ثم يخلق فيهم قتلي، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرا. وأيضًا: استعان بهارون، ولو كان كفر فرعون وإيمانه خلقًا له تعالى لما كان للبعثة ولا للاستعانة بهارون وَجْهٌ؛ لأنه أفصح لسانًا معنىً وفائدة، وأيضًا فإنه بعثه إليهم، وعلل بأنهم قوم فاسقون، ولو كان الفسق من خلقه لما استقام، ولكان يقول: إنك خلقت فيهم الكفر فما معنى ذهابي إليهم؟

قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ
ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ
ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ
غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي
لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ
إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ
عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا
يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾

القراءة

قرأ ابن كثير: «**قال موسى ربي**» بغير واو، وكذلك هي في مصاحف مكة، وقرأ الباقون: «**وقال**» بالواو وكذلك في مصاحفهم.

قرأ حمزة والكسائي ويعقوب: «**يَرْجِعُون**» بفتح الياء وكسر الجيم أضاف الفعل إليهم.

اللغة

الجَعْلُ: يستعمل على أربعة أوجه:

منها: إحداث الشيء كقوله: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَٰتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١].

وثانيها: تغيره من حال إلى حال، كما جعل النطفة علقة وجعل الطين خزفًا.

وثالثها: الحكم به، يقال: جعله عدلاً، وجعله فاسقًا، وجعلهم رؤساء الضلالة.

ورابعها: جعله باعتقاد أنه كذلك قولهم: جعله الله مثلاً، وجعله مرتبًا.

والافتراء: الكذب، يقال: افتريت الحديث واختلقته، وافْتَجَرْتُهُ[(١)] واخْتَرَصْتُهُ وخَرَصْتُهُ، أي: افتعلته كذبًا، والمفتري: الكذاب، والفرية: الكذب العظيم.

والإيقاد: إيقاد النار، أوقدتها: أَجَّجْتُها.

والصرح: البناء العالي، وأصله الظهور.

والاطلاع: الهجوم على الشيء.

والنبذ: الطرح، والشيء منبوذ، ومنه: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

والقبح: الإبعاد، قبحه الله، أي: أبعده، من القبح؛ لأنه يبعد القبيح، وقال عمار لرجل تناول عائشة: اسكت مقبوحًا منبوحا[(٢)]، قال شمر: فالمقبوح جعله قبيحًا[(٣)].

الإعراب

يقال: ما الفرق بين (لما) و(لو)؟

قلنا: إن (لو) لتقدير وقوع الثاني بالأول، و(لما) لإيجاب وقوع الثاني بالأول، فـ(لو) لا دليل فيه أنهم قالوا، وفي (لما) دليل على أنهم قالوا عقيب مجيء الآيات.

---

(١) وافتجرته: واخترقته، ن.

(٢) منبوحا: مقبوحا، ن.

(٣) في غريب الحديث لابن الجوزي ٢/ ٢١٥ ما لفظه: قال شمر: المقبوح الذي يرد ويخسأ، يقال: قبحه الله أي: أبعده.

۞ المعنى

ثم بيّن تعالى ما جرى بين موسى عليه السلام وبَيْنَ فرعون، فقال سبحانه: «**فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ**» تمويه وتحيَّل، قيل: أرادوا ما دعاهم إليه من الدين، وقيل: من حديث البعث، وقيل: العصا واليد «**مُفْتَرًى**» قيل: مختلق كذب لم يُبْنَ على أصل؛ لأنه حيلة وتَوَهُّمٌ «**وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ**».

ومتى قيل: كيف قالوا في نبوة موسى ودعائه إلى التوحيد والشرع ما قالوا، وقد اشتهر بينهم حديث عاد وثمود وغيرهم من النبيين؟

قلنا: للحسد جحدوا ذلك، وقيل: هم وآباؤهم لم يصدقوا شيئًا من ذلك فقلدوا آباءهم، ولم يتبعوا الحجة.

«**وَقَالَ موسى**[1]» مجيبًا لهم: «**رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ**» بأمره، يعني: بالحق والتوحيد، وقيل: المحق من المبطل «**وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ**» أي: العقبى المحمودة «**إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**» أي: لا يظفر بطلبه مَنْ ظَلَمَ نفسه بالكفر، وقيل: من ظلم الناس، فلما رأى فرعون ما لم يكن [له] عنده جوابًا أخذ في التلبيس فقال: «**يَا أَيُّهَا الْمَلأُ**» أشراف قومه «**مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ**» أي: أججِ النار على الطين فاتخذ الآجُرَّ، وقيل: إنه أول من اتخذ الآجُرَّ وبنى به، عن قتادة. وما قال في القرآن: إنه عمل الصرح أم لا، فالطريق فيه التوقف، وقيل: بل جمع هامان العَمَلَةَ[2] فاجتمع خمسون ألفا سوى الأتباع ومن يطبخ الآجر، ثم بنوا ورفعوا البناء، فلما علا وفرغوا ضربه جبريل فتقطع ووقعت[3] قطعة على عسكر فرعون فقتل خلقًا، وقطعة في البحر، وقطعة إلى المغرب، ولم يبق أحد ممن عمل فيه إلا هلك «**فَاجْعَل لِي صَرْحًا**» قيل: قصرًا وبناء عاليًا «**لَعَلِّي أَطَّلِعُ**» أنظر «**إِلَى إِلَهِ مُوسَى**» وأقف على حاله، فلبّس على العوام بوجوه:

---

(١) وقال: فقال، ن.

(٢) هكذا في ن. وفي تفسير البغوي ١/ ٢٠٨: (جمع هامان العمال والفعلة حتى اجتمع خمسون ألف...). وفي الكشاف ١/ ٩٣٣: جمع هامان العمال حتى اجتمع خمسون ألف بناء.

(٣) ووقعت: ووقع، ن.

أولها: أنه إله مع كونه بشرًا مع أنه جسم مركب يأكل ويشرب ويمشي ويأتي الخلاء.

وثانيها: أن إله موسى مثله في الصورة.

وثالثها: أوهم ببناء الصرح أنه يصل إلى إله موسى.

ورابعها: أنه يصعد السماء، وينظر إلى إله موسى هل أرسل موسى أم لا؟ وكل ذلك مبني على أنه تعالى في السماء وأنه جسم، ولم يكن في القوم من يقول: إنه ليس بجسم، ولا يجوز عليه المكان.

«**وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ**» قيل: أقر على نفسه بالشك، وقيل: إنما شك لما رأى المعجزات، وقيل: كان جاهلاً بالصانع، ولم يعرف صحة نبوة موسى، وقيل: بل عرف وعاند؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، «**وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ**» أي: تعظموا وأنفوا عن قبول الحق واتباع موسى، قيل: رأى عليه ثيابًا رثة فأنفوا من اتباعه. «**فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لاَ يُرْجَعُونَ. فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ**» في البحر فأغرقناهم فيه، قيل: نيل مصر، وقيل: بحر من وراء مصر «**فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ. وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً**» أي: قادة ورؤساء «**يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ**» قيل: إنه يأمر الملائكة بأن يقدموهم إلى النار وقومه يتبعونه، فيصير في حكم القادة لهم لما تقدمهم ويتبعوه، وهكذا كل مُتَّبَعٍ له تَبَعٌ، ويكون رأسًا في الضلالة، فعلى هذا يكون ذلك في القيامة، وقيل: هو في الدنيا، ومعنى (**جعلناهم**) حكمنا بأنهم رؤساء الضلالة؛ لأنهم يدعون إلى النار، ومعنى «**يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ**» أي: إلى الأفعال التي بها تستحق النار من معاصي الله تعالى والكفر به؛ لأن من دعا غيره إلى نفس النار لا يجيبه، ويقال: فلان كَفَّرَ فلانًا وفسّقه، وجهّله إذا حكم بذلك عليه وجعله شاهد زور، وأمثاله بكثرة.

ومتى قيل: كيف حكم به؟

قلنا: سماهم بذلك وبين للناس أنهم أئمة الكفر، وجعل ذلك صفة لهم. وقيل: معنى جَعَلْنَا أن كل من مهد طريقًا في الفساد والبدعة حتى صار متبوعًا في الضلالة فإنه

يكون متبوعًا إلى النار، فالجَعْلُ على هذا: التخلية؛ يعني: خَلَّيْنَا بينهم حتى صاروا أئمة، فلما خذلهم وخلاهم ـ لأنه لا لطف لهم ـ أضاف ذلك إلى نفسه.

«وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ يُنصَرُونَ» يعني أن أهل الضلالة كما يتناصرون في الدنيا لا ناصر لهم في القيامة يحميهم من النار. «وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً» يعني: أتبعناهم لعنة إلى آخر الدهر، وقيل: ذلك قوله: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨] قيل: إلى يوم القيامة، وقيل: هو أن كل من ذكرهم من المؤمنين وغيرهم لعنهم؛ لأن الكل يلعن الكفار والظَّلَمَةَ «وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ» قيل: المشوهين الخلقة بسواد الوجوه وزرق الأعين، عن ابن عباس. وقيل: من المهلكين، عن أبي عبيدة، وقطرب، وابن كيسان. وقيل: من الممقوتين، وقيل: جعلهم قبحًا بأن يغير صورهم إلى أقبح الصور، وقيل: يُقَبِّحُ صورهم وفعلهم عند الناس.

❁ الأحكام

تدل الآية على أنه كان يدعي الإلهية، وقيل: كان أيضًا يأمر بعبادة الأوثان، ويدعي أنه إله الجميع.

وتدل على ضروب من الجهل على ما بَيَّنَا من اعتقاده أن إله موسى في السماء، وقد وافق في هذا الاعتقاد المشبهة والكرامية، واعتقدوا أنه في السماء على العرش، ووصفهم تعالى أنهم أئمة الضلالة، فمن وافقهم في اعتقادهم يكون من أتباعهم.

وتدل على أن الدعاء إلى الضلال عظيم في العقاب، كما أن الدعاء إلى الهدى عظيم في الثواب.

وتدل أن الرجل كان يظهر الشك، والأقرب أنه عرف من نفسه أنه ليس بإله، وأن له صانعًا؛ ولكن لبّس وعاند.

وتدل على مناقضة في كلامه حيث يقول: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾ [ثم] قال: ﴿أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ﴾، وهذا حال كل ضال ومبتدع.

وتدل على وجوب التفكر والاعتبار بحالهم.

وتدل على أن التكبر وتلك الدعاوي منه، وفِعْلُهُ ليس بخلق الله تعالى.

قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾

۞ القراءة

قراءة العامة: ﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً﴾ بالنصب على تقدير: رحمناك رحمة، وقرأ عيسى بن عمر: «رحمةٌ» بالرفع على تقدير: وهو يعني النبي رحمة من ربك.

۞ اللغة

البصائر: جمع بصيرة، وهو ما يبصر به من الحجج والآيات، وأصله ظهور الشيء وبيانه، ومنه: البصائر طرائق الدم لظهوره.

والثاوي: المقيم، والمَثْوَى المقام، ومنه: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ [يوسف: ٢١]، وثَوَى وأثوى بمعنَى أقام، ويقال للضيف: ثَوِيٌّ، ولامرأة الرجل: أمّ مَثْوَاهُ، وفي الحديث: «وعليّ بجوار مثوى رسلي» يعني: نزولهم مدة مقامهم.

۞ الإعراب

نصب ﴿بَصَآئِرَ﴾ قيل: صفة للكتاب، وقيل: تقديره: وأهلكنا القرون بصائر، فعلى الأول هو مفعول (آتينا) و«أتينا» بمعنى أعطينا، فهو يتعدى إلى مفعولين، يقال: أعطيت زيدًا درهمًا.

﴿وَهُدَىٰ﴾ نصب عطفًا على ﴿بَصَآئِرَ﴾ و ﴿ثَاوِيًا﴾ خبر كان.

۞ المعنى

ثم ذكر من أخبار موسى عليه السلام ما يدل على معجزة نبينا؛ إذ لم يشهد تلك المشاهد، فقال سبحانه: «وَلَقَدْ آتَيْنَا» أعطينا «مُوسَى الْكِتَابَ» يعني: التوراة «مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى» يعني: جماعة من كان قبله من الكفار كقوم نوح وعاد وثمود، ويحتمل أنه أراد بذلك قوم فرعون، وأنه تعالى أعطى موسى التوراة بعد هلاكهم بمدة «بَصَائِرَ» قيل: هو صفة لهلاكهم، يعني: جعلنا هلاكهم عظة وبصيرة يستدل بها العاقل على قبح أفعالهم، ويرتدعون عن أمثالها، وقيل: بل صفة للكتاب أي: وآتيناه أدلة يستدل بها على الأحكام «وَهُدًى» دلالة لمن تبعه واهتدى به «وَرَحْمَةً» لمن آمن به، وقيل: جعلنا فيه هدى ورحمة، أي: بيانًا لطريق رشدهم في الدنيا والآخرة «لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» أي: ليتفكروا فيه «وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ» قيل: أراد جانب الوادي الغربي، عن ابن عباس. وقيل: غربي الجبل، عن قتادة. وقيل: هو الموضع الذي كلمه الله تعالى فيه وأرسله إلى فرعون، عن أكثر المفسرين. وقيل: الجانب الغربي جانب البحر، وأراد ما أوحى إليه من ضرب البحر بالعصا ليفترق، وصارت فيه [طريق يبس] فتجاوزه وغرق فرعون، عن أبي مسلم، وجوز الوجه الأول أيضًا. «إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ» أي: فصلنا الأمر بما أمرناه وقومه، وقيل: أخبرناه بأمرنا ونهينا، وقيل: أراد كلامه معه، وقيل: أراد صفة محمد ونبوته «وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ» قيل: من الحاضرين هناك لتخبر من ذات نفسك؛ إذ لم تكن مخلوقًا في ذلك الوقت ولكن أوحينا إليك بذلك، وقيل: ما شاهدت إحساننا إلى عبادنا بإرسال الرسل وإنزال الكتب ونصب الآيات، كما يقال: ألم ترى أثرًا[1] وإنعامًا تفخيمًا لشأنه «وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا» أي: خلقنا وأحدثنا جماعات من ذلك الوقت إلى هذا الوقت «فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ» قيل: أنشأنا قرونًا فتطاولت[2] المدة، فنسوا عهد الله وأمره ونهيه، ونظيره: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾ [الحديد:١٦]، وطول العمر ينسي، فلهذا لم تعرف العرب بعثة الأنبياء،

(١) ألم تر أثراً: لم ترى أثري، ن.

(٢) فتطاولت: فتطاول، ن.

وقيل: خلقنا خلقًا كثيرًا، وقلنا لهم صفتك ونعتك، وأمرنا الأول بالإبلاغ إلى الثاني، فامتد بهم الزمان، فنسوا عهد الله فيهم، فلم يصدق الآخر الأول في نعتك[1] وصفتك، وقيل: أنشأنا قرونًا، فطال عليهم الأمد، ولولا إرسالك لدخل الوهن في أخبارهم، فأرسلناك محافظة على تلك الأخبار معجزة لك، [ولتصبر] على الإيذاء كما صبر أولئك «**وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا**» مقيمًا «**فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ**» إياك، يعني: أرسلناك رسولاً، وقيل: ما كنت مقيمًا في أهل مدين تشاهد تلك الأحوال، ثم أخبرتهم بغوامض تلك الأخبار، فلولا الوحي لما علمت ذلك، ولذلك عقبه بقوله: «**وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ**» فعرفت من أمر شعيب ما عرفت من أمر موسى، يعني أخبرناك معجزة لك؛ لأنا أرسلناك «**وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا**» أي: ما حضرت الطور حين كلمه موسى عليه السلام بحضرة السبعين، عن أكثر المفسرين. وقيل: أراد موسى أن يرى محمدًا فقيل له: لن تصل إليه، ولكن إن شئت ناديتهم وأسمعتك أصواتهم، فقال: بلى، فقال الله تعالى: يا أمة محمد، فأجابوه من أصلاب آبائهم، عن وهب. وقيل: قال: يا أمة محمد قد أَجَبْتُكُمْ قبل أن تدعوني، وأعطيتكم قبل أن تسألوني، عن ابن عمر، وابن جريج. وليس بشيء، والأوجه الأول، وعليه أكثر العلماء، وقيل: نادينا بأن أفلح أمة محمد، وهذا خلاف الظاهر، والصحيح: نادينا موسى أني أنا الله، يا موسى أقبل [و] اذهب إلى فرعون، «**وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ**» يعني: نعمة أنعمنا عليك بأن بعثناك نبيًا، وأخبرناك بهذه الأخبار معجزة لك «**لِتُنذِرَ قَوْمًا**» أي: تخوفهم وتعلمهم بمواضع الخوف «**مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ**» من رسول «**مِنْ قَبْلِكَ**» قيل: أهل مكة، وقيل: القرن الذي بعث فيه «**لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**» أي: لكي يتفكروا.

۞ الأحكام

تدل الآيات على معجزة لنبينا ﷺ؛ إذ لم يقرأ كتابًا، ولا حضر تلك المواضع، ثم أخبرهم عن تفصيلها، وإنما خص تلك المواضع؛ لأن أكثر أمور موسى كان ثَمَّ.

(١) نعتك: بعثك، ن.

وتدل على أن البعثة رحمة منه تعالى لعباده من حيث كانت لطفًا لهم.

ومتى قيل: فقبل البعثة وجب أن يكون مانعًا للطف، وعندكم منع اللطف يقبح، ويجري مجرى منع للتمكين؟

فجوابنا: أن علماءنا اختلفوا في الجواب عنه، فقيل: يجوز أن يكون بعث إلى [مَنْ] عندهم، كما روي أن طير أبابيل كانت معجزة لخالد بن سنان العبسي.

وقيل: حجة الأنبياء كانت قائمة فيهم، وذلك لطف لهم بعد البعثة.

وقيل: يجوز أن يكونوا كلفوا ما في عقولهم، وكذلك قبل زمان الفترة.

ويدل قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أنه أراد من الجميع أن يتفكروا.

وتدل أن الإنذار والدعاء لطف في القبول، فيبطل قولهم في الإرادة وخلق الأفعال والاستطاعة؛ إذ لو كان الأمر على ما زعموا لم يكن للدعاء والإنذار تأثير؛ لأن عندهم الأمر موقوف على خلقه، والقدرة الموجبة، والإرادة الموجبة.

قوله تعالى:

﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾

القراءة

قرأ عاصم وحمزة والكسائي: «سحران» بغير ألف، وهي قراءة ابن مسعود وعكرمة، والمعنى إتيانه من الكتاب وهو التوراة والقرآن، يبين ذلك قوله: ﴿قُلْ فَأْتُواْ

﴿بِكِتَٰبٍ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ﴾، وقرأ الباقون: «**ساحران**» بالألف، يعني: محمدًا وموسى، وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم؛ لأن معنى التظاهر بالناس أَلْيَقُ.

۞ اللغة

التظاهر: التعاون، ومنه الظهير، وأصله من الظهر، كأنه يجعل غيره ظهرًا له يشد إليه.

والهوى: ميل الطباع إلى المشتهى.

۞ الإعراب

جواب (**لولا**) محذوف، تقديره: لولا ذلك لعاجلناهم بالعقوبة، أي: لولا قولهم: هلا أرسلت رسولاً، لعاجلتهم بالعقوبة. وقيل: تقديره: لولا قولهم لما أرسلهم، ولكانت الرسل الماضون[1] كافية، يعني: لولا تعلقهم بهذا لما أُرْسلتْ؛ لما في المعلوم أنهم لا يستصلحون.

﴿فَيَقُولُواْ﴾ نصب لأنه جواب الاستفهام وهو قوله: ﴿لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ﴾ أي: هلا.

﴿فَنَتَّبِعَ﴾ نصب لأنه عطف على ﴿فَيَقُولُواْ[2]﴾.

﴿أَتَّبِعۡهُ﴾ جزم لأنه جواب لقوله: ﴿فَأۡتُواْ﴾.

۞ المعنى

لما تقدم ذكر إرساله ﷺ بَيَّنَ الوجه فيه، وهو لكونه لطفًا وإزاحة للعلة، وقطعًا للحجة، فقال سبحانه: «**وَلَوْلاَ أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ**» أي: عقوبة، قيل: عذاب الاستئصال، وقيل: عذاب الدنيا والآخرة، عن أبي مسلم. «**بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ**» من الكفر والمعاصي «**فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً**» قبل أن تهلكنا «**فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ**» أي: كنا نتبع الرسول ونأخذ شريعته «**وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**» المصدقين به «**فَلَمَّا جَاءَهُمُ**

---

(١) الماضون: الماضين؛ ن.

(٢) فيقولوا: فيقول، ن.

«الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا» قيل: محمد والقرآن والإسلام **«مِنْ عِنْدِنَا»** أي: بأمرنا ووحينا **«قَالُوا»** قيل: كفار مكة، وقيل: من بقي من بني إسرائيل إلى نبوة محمد ﷺ، عن أبي علي. وقيل: في الآية تقديم وتأخير تقديره: لولا أن يقولوا: هلا أرسلت إلينا رسولاً فنكون من المؤمنين لكان العذاب يحل بهم، وتصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم، وقيل: إذا صح الكلام من غير تقديم وتأخير كان أولى **«لَوْلاَ أُوتِيَ»** أي: هلا أعطي محمد **«مِثْلَ مَا [أُوتِيَ]»** أعطي **«مُوسَى»** قيل: كتابًا جملة واحدة، وقيل: من المعجزات كالعصا واليد ونحوه، عن أبي مسلم. فقال تعالى: **«أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ»** يعني: قوم موسى، فأجاب بجواب مقنع، وهو أن المعجز لا يوجب الإيمان، وإنما يؤمن عنده من يتفكر فيه؛ ألا ترى كيف كفر قوم موسى مع تلك المعجزات والكتاب **«قَالُوا»** قيل: كفار مكة، وقيل: الذين كفروا في زمن موسى **«سَاحِرَانِ»** من قرأ بغير ألف فمعناه قيل: التوراة والقرآن، عن ابن عباس. وقيل: التوراة والإنجيل، عن عكرمة. فأما من قرأ بالألف فمعناه قيل: موسى ومحمد ـ عليهما السلام، عن ابن عباس. وقيل: موسى وهارون، عن مجاهد. و**«إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ»** قيل: كفار مكة قالوا ذلك، وقيل: مشركو العرب كفروا بالتوراة والقرآن، عن الحسن. وقيل: هم الذي كانوا في زمن موسى قالوا: كفرنا بكل ما أتيتنا به، عن أبي علي. **«قُلْ»** يا محمد: **«فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا»** كتاب موسى ومحمد عليهما السلام، عن ابن زيد. وقيل: من موسى ومحمد ﷺ **«أَتَّبِعْهُ»** أي: أتبع ذلك **«إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ»** في مقالتكم **«فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ»** أي: لم يجيبوا في دعائك ولا يأتوا بحجة هي أوضح من حجتك **«فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ»** يعني: فاعلم أنهم لا يتبعون الحجة، وإنما يتبعون الهوى والإلف وتقليد السلف **«وَمَنْ أَضَلُّ»** أي: أشد ضلالاً **«مِمَّنِ اتَّبَعَ»** الهوى في دينه وترك الحجة **«بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ»** أي: من غير بيان وهداية من الله وطريق من جهته **«إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ»** قيل: لا يهديهم إلى الجنة والثواب، عن أبي علي. وقيل: إذا لم يهتدوا بهداه فكأنه لم يهدهم، وقيل: لا يدعو إلى الظلم، ولا يشرع طريق الظلم سوى الظالمين، والظلم: الكفر، عن أبي مسلم.

۞ الأحكام

يدل قوله: ﴿وَلَوۡلَآ﴾ الآية على أنه تعالى أزاح علة المكلف، وقطع الحجة حتى لم يبق موضع للعذر؛ لأنه بَيَّنَ أن الإرسال [حجة عليهم] لئلا يتعلقوا بهذا القول في ترك الإيمان، فيبطل قول المجبرة من وجوه:

أحدها: أن عدم الرسول لو كان حجة يتعلق به لكان خلق الكفر والقدرة الموجبة أولى وأبلغ في الحجة، يوضحه أن الإيمان وترك الكفر عندهم موقوف على هذه الأشياء لا على البعثة، ولو خلق الإيمان وإرادة الإيمان ولا رسول في العالم ولا حجة لكانوا مؤمنين، ولو خلق الكفر وقد ملأ العالم بالرسل لا ينفع، أفيكون ذلك عذرًا، وهذا لا يكون عذرًا؟

ومنها: أنه لم يخلق الكفر ولا منعهم من الإيمان، وإلا لم يكن لهذا القول معنى.

ومنها: أنه لا يجوز في الحكمة أن يخلق شيئًا، ثم يبعث رسولاً يكلف بإبطال خلقه وإبطال إرادته.

ويدل قوله: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ﴾ الآية أن طريق المعرفة الاكتساب، فالواجب التمسك بالأدلة.

ويدل على بطلان التقليد؛ لأنه اتباع الهوى.

ويدل قوله: ﴿لَوۡلَآ أُوتِيَ﴾ أن المعجز يتبع المصلحة لا الاقتراح له؛ لذلك اختلفت معجزات الأنبياء.

ويدل قوله: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ(1)﴾ على صحة الحجاج في الدين.

ويدل قوله: ﴿أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾ أن ذلك فِعْلُ لهم؛ إذ لو خلق فيهم لما اتبعوا أهواءهم؛ لكن اتبعوا ما خلق فيهم.

---

(1) قل فأتوا: قل هاتوا، ن.

قوله تعالى:

﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾

۞ القراءة

قراءة العامة: ﴿وَصَّلْنَا﴾ بالتشديد على التكثير، وعن الحسن: «وَصَلْنَا» بالتخفيف، وأصلها من الوصل.

۞ اللغة

الوصل: نقيض الفصل، وهو اتصال الشيء بالشيء، وهو في الكلام أن يصير بعضه يلي بعضًا.

والدَّرْءُ: الدفع، ومنه: «ادرؤوا الحدود بالشبهات».

واللغو: ما لا يفيد، والغي واللغو بمعنى، قال الشاعر:

عـن الـلَّـغَـا ورَفَـثِ[1] الـتـكـلـم

۞ الإعراب

(قَبْلُ) مبني على الضم، فإذا أضيف أُعْرِبَ.

والهاء في «قبله» قيل: تعود إلى القرآن، وقد تقدم ذكره في قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾، وقيل: تعود على النبي ـ صلى الله عليه .

---

(١) ورفث: وسرعة، ن. وما أثبتناه من: تفسير التبيان ٨/ ١٤٤، وتفسير الطبري ٢/ ١٦٧، وتفسير القرطبي ٢/ ٤٠١، وفتح القدير ١/ ٣٠٦، وفي روح المعاني ١٨/ ٤، والكشاف ١/ ١١٤٥، والتحرير والتنوير ١/ ٥٥٦، انظر اللسان، تاج العروس (رفث) وتكملة البيت:

ورُبَّ أسـرَابِ حَـجِـيـجٍ كُـظَّـمِ   عـن الـلَّـغَـا ورَفَـث الـتَـكـلُّـمِ

﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾ نصب؛ لأنه مفعول، وتقديره: يدفعون بالحسنة السيئة.

النزول

قيل: نزل قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ في الذين أسلموا، عن مجاهد.

وقيل: هم قوم من أهل اليمن جاؤوا مسلمين، عن ابن عباس.

وقيل: هم قوم جاؤوا من الحبشة من عند النجاشي مسلمين.

وقيل: ورد قوم من المسلمين مكة، فسبهم أبو جهل وأصحابه، فنزل: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ﴾ الآية.

المعنى

ثم بَيَّنَ صفة القرآن الذي تقدم ذكره، فقال سبحانه: «**وَلَقَدْ وَصَّلْنَا**» قيل: بَيَّنَّا، عن ابن عباس. وقيل: فَصَّلْنا، عن مجاهد. وقيل: وصلنا به خير الدنيا بخير الآخرة حتى كأنهم عاينوا الآخرة في الدنيا، عن ابن زيد. وقيل: فصلنا الأمر والنهي والوعد والوعيد والمواعظ، أي: كررنا، عن أبي مسلم. وقيل: واليناهم وتابعناهم في القول والحجة مرة بعد مرة حتى لم يبق لأحد عذر، وقيل: «**وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ**» بما أهلكنا من القرون، وأخبرناهم أنا أهلكنا قوم نوح بكذا، وقوم هود بكذا، وقوم صالح بكذا «**لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**» فيخافوا أن ينزل بهم مثل ما نزل بِمَنْ قبلهم، عن الحسن. وقيل: وصلنا أخبار الأنبياء عظة وتسلية، وقيل: القول هو القرآن فإنه تعالى أتبع كل وعد وعيدًا، وكل أمر نهيًا، وأعذر وأنذر، وفصل جميع ما يحتاج إليه، عن أبي علي. «**لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**» أي: لكي يتفكروا ويعلموا الحق «**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ**» أعطيناهم «**الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ**» من قبل نزول القرآن، وقيل: من قبل محمد، والمراد بالكتاب التوراة والإنجيل «**هُمْ**» يعني الذين أوتوا الكتاب «**بِهِ**» قيل: بالقرآن، وقيل: بمحمد «**يُؤْمِنُونَ**» أي: يصدقون «**وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ**» يعني القرآن يقرأ عليهم «**قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ**» من قبل نزول القرآن «**مُسْلِمِينَ**»؛ لأنهم وجدوا صفته في كتبهم، فآمنوا به قبل البعث، فلما بعث وعاينوه آمنوا به «**أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ**» أي: يعطون «**أَجْرَهُمْ**» جزاءهم وثوابهم «**مَرَّتَيْنِ**» أي: ضعفين لإيمانهم بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر،

وقيل: الإيمان قبل البعث وبعده، وقيل: الإيمان والصبر «بِمَا[1] صَبَرُوا» على دينهم وأذى الكفار وتحمل المشاق «وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ» قيل: بالخير من الكلام يدفعون قبيح ما يسمعون من الكفار، وذلك نحو أن يؤذوهم بقبيح القول فيعظونهم ويدعونهم إلى الدين، وقيل: يدفعون العذاب بمجانبة المعاصي وفعل الطاعات أو التوبة «وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ» أي: مما أعطيناهم من النعم ينفقونها في سبيل الخير والطاعة «وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ» من المبطلين مما يؤذونهم، قيل: هو القبيح من القول والهزل الذي لا فائدة فيه، عن أبي علي. وقيل: هو اللغو في القرآن وهو قولهم: ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦] يعني إذا سمعوا اللغو في القرآن «أَعْرَضُوا عَنْهُ» لإيمانهم بالقرآن، عن أبي مسلم. وإعراضهم عنه ألاَّ يجيبوا بنحو من ذلك؛ بل يعدلون إلى العظة والقول الحسن «وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ» أي: كل واحد يجازى بعمله «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ» قيل: قالوا قولاً لطيفًا حسنًا فَيَسْلَمُونَ من شرهم، عن أبي علي. وقيل: معناه: ليس بيننا كلام لا غرض معكم، ولا نريد صحبتكم، وليس هو سلام تحية، وإنما هو سلام متاركة، وقيل: إنما قالوه مطلقًا، وطلب السلامة من شرهم، وقيل: السلام هو الله، أي: الله شاهد عليكم بما تقولون فيجازيكم «لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ» قيل: لا نريد دين الجاهلين، عن الكلبي. وقيل: لا نريد أن نكون جهالاً، وقيل: مُحَاوَرَة الجاهلين.

۞ الأحكام

يدل قوله: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا﴾ أنه أنزل القرآن كالمتصل بعضه في إثر بعض، فيدل على حدثه من حيث أنزله من حيث تقدم بعضه على بعض.

ويدل بأنه أنزله ليتفكروا فيه؛ لذلك قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فيدل على بطلان قول المجبرة: إنه أراد بإنزاله من بعضهم أن يتفكروا ومن بعضهم ألاَّ يتفكروا ويعرضوا.

ويدل على بطلان قولهم في المخلوق؛ لأن التذكر عندهم موقوف على خلقه فيه لا على وصل القول.

---

(١) بما: لما، ن.

ويدل قوله: ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم﴾ أن الإيمان قد يعظم لأمور تقترن به، فيكون ثوابه أكثر.

ويدل قوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا﴾ أن الواجب عند نشر الكلام وقبحه الإعراض، والمراد الإعراض عن قبوله والتكلم بمثله؛ إذ لا شبهة أنه يجب النهي إذا أمكن.

ويدل قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ على جواز السلام على الكافر، وقد بينا ما قيل فيه، ومن لم يجوز ذلك يحمله على متاركة مجالستهم على ما حمله إسماعيل بن إسحاق، وحمله أبو علي على أن المراد به فعل ما يسلم معه، دون نفس السلام.

ويدل قوله: ﴿أَعْمَٰلُنَا﴾ أن كل أحد مجازى بعمله، لا يؤخذ به غيره، فيبطل قول المجبرة.

قوله تعالى:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓا۟ إِن
نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ
رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ
مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا
كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى
ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا
عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾

القراءة

قرأ أبو جعفر ونافع ويعقوب: «**تُجبَى**» بالتاء لأجل الثمرات، الباقون بالياء؛ لتقدم الفعل على الجمع وحلول الحائل بينهما، وقيل: إنه يعود إلى كل شيء.

قرأ أبو عمرو: «**أفلا يعقلون**» بالياء، وروي عنه الياء والتاء، والباقون بالتاء، وهو الأوجه لقوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم﴾.

۞ اللغة

التخطف: أخذ الشيء على طريقة الاستيلاء من كل جهة، تَخَطَّفَ تَخَطُّفًا، واختطفه اختطافًا.

يُجْبَى: أصله الجمع، من قوله: جبيت الماء في الحوض: جمعته، والجابية: الحوض، والجَبَى مقصور بفتح الجيم: ما حول البئر، والجِبَى بكسر الجيم: ما جمع فيه من الماء، ويقال له أيضًا: جِبْوَة وجِباوة، وقال الكسائي: جَبَيْتُ [الماء في][1] الحوض جَباً[2] والجَبَا[3] [غير] مهموز: بئر يجمع فيه الماء، والجمع أجبو.

والبطر: الطغيان عند النعمة، وقال ابن الأعرابي: البطر سوء احتمال الغنى، واختلفوا في أصله، قيل: هو مأخوذ من قولهم: ذهب دمه بطرًا، أي: باطلاً، عن الكسائي. وقيل: البطر: الحيرة، عن الأصمعي، فكأنه يتحير عند الحق. وقيل: البطر: أن يبطر، أي: يتكبر عند الحق فلا يقبله، والأَشَرُ والبطر من النظائر.

۞ الإعراب

﴿مَعِيشَتَهَا﴾ نصب لنزع الخافضة، تقديره: بطر أهل القرية في معيشتها، فلما حذفت (في) نصب لوصول الفعل إليه.

﴿مُهْلِكِي﴾ نصب لأنه خبر (كان)، وكسر «مهلكي» لأن أصله: مهلكين، فحذف النون للإضافة، ومحله النصب، وقيل في ﴿بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ أن معنى أبطرتها معيشتها، فلما تعدى الفعل إلى صاحب المعيشة نصب على التفسير، عن الفراء.

۞ النزول

قيل: نزل قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ في أبي طالب، وذلك لأن رسول الله ﷺ كان يحب إسلامه، وإسلام أهل بيته، ويلح عليهم، ويغمه كفرهم، ففي ذلك

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة من تهذيب اللغة: ٤/ ٥٥.

(٢) جبا: جبى، ن.

(٣) والجبا: وانجباء، ن.

نزلت الآية، ورووه عن ابن عباس، والحسن، وقتادة، ومجاهد. وذكروا أنه كان يحب إسلام أبي طالب فنزلت هذه الآية، وكان يكره إسلام وحشي قاتل حمزة فنزلت فيه: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر: ٥٣]، وذكروا أن أبا طالب لم يسلم، وأسلم وحشي.

وهذه رواية غير صحيحة؛ لأنه كان رسول الله - صلى الله عليه - يحب إيمانه، فالله تعالى أيضًا يحب إيمانه؛ لأن الرسول لا يخالف في إرادته إرادة الله، كما لا يخالف في أوامره أمر الله، وكان لأبي طالب عند النبي ﷺ أيادٍ[1] مشكورةٌ عند الله تعالى، وقد روي أنه أسلم، وفي إسلامه إجماع أهل البيت، وهم أعلم بأحواله، ومن حديث الاستسقاء أنه ﷺ قال: «لله در أبي طالب لو كان حَيًّا لقرت به عيناه»، ولا يجوز [أن يقول] لكافر: لله دَرُّهُ، وكيف تقر عينا كافر بمعجز رسول الله، وقد روي أن النبي ﷺ دعاه فأسلم، وما يروون أن عليًّا قال: إن عمك الضال قد مات، فقال: «اذهب فَوَارِهِ»، فلا يليق بكلام النبي ﷺ فيه، ولا بكلام علي في أبيه، فهو من روايات النواصب، والقوم يقولون: إنه تعالى لم يرد إيمان أبي طالب وأراد كفره، والنبي ﷺ أراد إيمانه، وهذا مخالفة بين الرسول والمرسِلِ، قال: فنزلت الآية، فعلى روايتهم واعتقادهم الفاسد كأنه تعالى يقول: إنك تحب إيمانه، وأنا لا أخلق فيه الإيمان مع محبته لك وعظم نعمته عليك، وتكره إيمان وحشي لقتله عمك حمزة، وأنا أخلق فيه الإيمان، وهذا نوع مغالطة واستخفاف لا يليق بالرسول، فإذًا الصحيح أن الآية نزلت في جميع المكلفين، وأنه ﷺ كان يحب هدايتهم جميعًا، وكان حريصًا على إيمانهم، ويغمه كفرهم، فنزلت الآية.

وأما قوله: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ﴾ نزلت في الحارث[2] بن نوفل بن عبد مناف،

(١) أياد: أيادي، ن.

(٢) في ن: الحارث بن عباس بن نوفل. وهنا تصحيف لعل الناسخ خلط بين الراوي ابن عباس والقائل الحارث. والصواب ما أثبتناه من تفسير التبيان ٨/ ١٤٦. وفي تفسير القرطبي ١٣/ ٢٦٦، والتحرير والتنوير ١/ ٣١٥٢: الحارث بن عثمان بن نوفل. وفي زاد المسير ٦/ ٢٣٢: الحارث بن عامر.

(٣) صيدهم: من صيدهم، ن.

قال للنبي ﷺ: إنا لنعلم أن ما جئت به حق؛ ولكنا نخاف أن نتبعك أن تخطفنا العرب؛ لاجتماعهم على اختلافنا فلا طاقة لنا بهم، فنزلت هذه الآية.

۞ المعنى

ولما تقدم ذكر الرسول والقرآن وأنه أنزله للهداية ولها بعثه، بَيَّنَ أن الاهتداء ليس عليه إنما عليه البلاغ، ثم بيّن ما قاله الكفار وما أجيبوا به، فقال سبحانه: «**إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ**» قيل: لا تقدر على أن تجبرهم على الهداية، وقيل: ليس عليك اهتداؤهم وقبول الحق، وقيل: المراد بالهدى الألطاف، أي: لا تقدر على اللطف الذي عنده يهتدي من تحب، وقيل: المراد بالهدى الهدى إلى طريق الجنة، أي: ليس إدخال الجنة والإثابة إليك «**مَنْ أَحْبَبْتَ**» قيل: من أحببت هدايته، وقيل: لمن أحببته لقرابته «**وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي**» قيل: يلطف، قيل: إلى الجنة والثواب، وقيل: يدل «**مَنْ يَشَاءُ**» وهو من يكلف، ولا يدل من لا يكلفه «**وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**» قيل: أعلم بمن يثيبه أو يلطف له، أي: أعلم بمن يهتدي باللطف فيلطف له، وقيل: أعلم بمن يستحق الثواب فيثيبه، وقيل: أعلم بالمهتدين في المستقبل؛ لأنه المختص بعلم الغيب «**وَقَالُوا**» يعني الكفار: «**إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا**» أي: نسلب «**مِنْ أَرْضِنَا**» يعني: أرض مكة والحرم «**أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا**» يأمن من دخله، قيل: لوجهين:

أحدهما: بلطفه وما جعل في النفوس من السكون إليه والحرمة له وتعظيمه، وترك القتل فيه حتى كانت العرب تقول: أهل مكة أهل الله، ومع ما كان منهم من القتال والغزوات وأهل مكة آمنون، وكذلك يأمن صيدُهم[1] وطيرهم.

وثانيهما: بما حكم على العباد وتعبدهم به من الأمر بأمان أهل الحرم.

«**يُجْبَى إِلَيْهِ**» أي: يجمع من كل جهة «**ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا**» أي: عطاء من عندنا جاريا عليهم «**وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ**» يعني مع أنهم لا يعلمون الله ولا

---

(١) عات: عاتي، ن.

يعبدونه أنعم عليهم بالنعم السابغة دينًا ودنيا، فلو آمنوا لازدادوا ولم يتغير. وقيل: بل أكثرهم لا يعلمون أن تلك النعم تبقى عليهم لو آمنوا. وقيل: لا يعلمون ما يفوتهم من الثواب، وما يحصل لهم من العقاب. وقيل: لا يعلمون أن الدنيا بما فيها لا تعدل عقاب الآخرة، فهم توهموا السلامة في الكفر، ولم يعلموا أن السلامة في الهدى كلها. «**وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ**» أي: أهل قرية «**بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا**» أي: في معيشتها، قيل: أسرفت وطغت وكفرت بالله، مع ما حصل [لها] من العيش والمعيشة والرزق من جهته تعالى، وقيل: عاشوا في البطر والأشر، أكلوا رزق الله، وعبدوا الأصنام، عن عطاء بن أبي رباح. وقيل: معناه: أبطرتها معيشتها فصرفت المعيشة إلى غير ما خلقت له، ونظيره: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧]. «**فَتِلْكَ**» إشارة إلى معرفة يعرفونها من ديار عاد بالأحقاف، وثمود بوادي القرى؛ يعني من لم يصدقك فلينظر إلى آثارهم وبيوتهم «**لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً**» يعني: لم يعمر منها إلا الأقل وأكثرها خراب، وقيل: لم يسكنها إلا المارة والمسافر ساعة أو يومًا، عن ابن عباس. وقيل: هم المؤمنون الذين فارقوا البلد حتى عُذِّبَ الكفار، ثم سكنوها بعد هلاك الكفار، وقيل: سكنها قوم آخرون، وقيل: سكنوا قليلاً ثم تفانوا، ولم يكن لهم ولا لأعقابهم ورثة وخلف «**وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ**» يعني: لم يبق لديارهم هنالك غير الله «**وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى**» أي: أهل القرى؛ بكفرهم، يعني: بعذاب الاستئصال «**حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً**» قيل: في أم القرى مكة، وقيل: في معظم القرى رسولاً «**يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا**» أي: يكرر حجتنا قطعًا للعذر «**وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ**» قيل: كافرون؛ لأن عذاب الاستئصال يكون لهم، وقيل: كل ظالم عاتٍ(1). «**وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ**» أي: أعطيتم من مال ونحوه في الدنيا «**فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا**» أي: يُتَمَتَّعُ بها ويتزين «**وَمَا عِنْدَ اللَّهِ**» من ثوابه «**خَيْرٌ**» من الدنيا «**وَأَبْقَى**»؛ لأنه دائم لا يفنى «**أَفَلاَ تَعْقِلُونَ**» أي: هلا تعلمون، وقيل: هلا تستعملون عقولكم حتى تعرفوا الفرق بين الفاني والباقي.

---

(١) وأعماه إعماه: وأعما عماً، ن.

❁ الأحكام

تدل الآية أن الفوز والنجاة إنما هو إلى الله تعالى يعطي من استحقه بإيمانه وطاعته.

ويدل قوله: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن﴾ على صحة الحجاج في الدين.

وتدل أن ما احتج به فليس بعذر له وأنه أزاح للمكلف كل علة.

وتدل على بطلان قول المجبرة في الاستطاعة والمخلوق والإرادة؛ لأنه لو كان صحيحًا لكان التعلق به أولى، ولما كان تعالى قاطعًا للحجة.

وتدل على كثرة أعداء الحق، وأن أهل الحق أبدًا في خوف.

ومتى قيل: هل كان لقولهم جواب سوى ما ورد به القرآن؟

قلنا: نعم، إلا أنه تعالى أبطل عليهم ما ادعوه بما لا يمكن دفعه، كأنه قيل: كيف تخافون مع حفظ الله وقدرته على دفع المضار، ولو قيل لهم: هذا ليس بعذر؛ إذ لو غلبهم وقتلهم وسلبهم الشهادة والجنة فيكون أنفع لكم لكان جوابًا، ولو قيل: ما قدر الدنيا في جنب الآخرة حتى جعل لهم ذلك عذرًا كان جوابًا.

وتدل أنه لم يعذب بعذاب إلا بعد البعثة قطعًا للعذر، فيبطل قول المجبرة في المخلوق والاستطاعة وتكليف ما لا يطاق.

ويدل قوله: ﴿إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ أنه لا يعذب إلا المستحق، فيبطل قولهم في أطفال المشركين وفي جواز التعذيب ابتداء.

وتدل آخر الآيات على الترغيب في الآخرة والتزهيد في الدنيا من حيث كانت الآخرة باقية لا تفنى، والدنيا فانية.

قوله تعالى:

﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾

اللغة

المتاع: كل ما يقع الانتفاع به، والمتعة والمنفعة من النظائر، وقيل: بينهما فرق؛ لأن كل متعة منفعة، وليس كل منفعة متعة؛ لأن المتعة منفعة فوجب الالتذاذ في الحال، والمنفعة ما ينتفع بها، وقد تكون بألم يؤدي عاقبته إلى نفع، ومنه: ﴿ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام: ١٢٨] أي: انتفع.

والإحضار: جعل الشيء بحيث يُشاهَدُ، أحضره إحضارًا، وأحضره حضورًا.

والزَّعْمُ: القول على ظَنٍّ أو علم، وقيل: الزعم القول على غير صحة، والتَّزَعُّمُ: التَّكَذُّبُ.

والعمى: آفة تنافي صحة البصر، عَمِيَ يَعْمَى، وأعماه إعماء[(١)]، وليس العمى بمعنى ولا الإدراك بمعنى، فالإدراك صفة للحي يقتضيها كونه حيًا بشرط وجود المدرك وانتفاء الموانع والآفات، والعمى فساد في آلة الرؤية.

الإعراب

نصب (يومًا) على الإغراء؛ أي: احذروا يوم يناديهم.

---

(١) أي لأرسلنا فإنهم: أي فإنهم: أي لأرسلنا فإنهم، ن.

«**لاَقِيهِ**» رفع إلا أنه من بنات الياء، ولا يدخله الرفع، تقول: قاضِيهِ، فإذا لم يكن من بنات الياء تقول: هو ضارِبُهُ وسالمه.

﴿إِيَّانَا﴾ نصب بـ ﴿يَعْبُدُونَ﴾ ، وتقديره: يعبده إيانا، ويعبدون إيانا خبر (كان).

۞ النزول

قيل: نزل قوله: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا﴾ الآية، في رسول الله صلى الله عليه وفي أبي جهل، عن محمد بن هشام.

وقيل: نزل في حمزة وعلي صلى الله عليه وفي أبي جهل، عن محمد بن كعب.

وقيل: نزل في عمار والوليد بن المغيرة، عن السدي.

وقيل: هو عام في جميع المكلفين، عن أبي علي وجماعة.

۞ المعنى

لما تقدم ذكر ما أوتوا من زينة الدنيا عقبه بما وعد المؤمنين وأوعد الكافرين، فقال سبحانه: «**أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا**» قيل: الجنة وما فيها من النعم «**فَهُوَ لاَقِيهِ**» مُصِيبُهُ ومدركه «**كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ**» نفعناه «**مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**» يعني: زينة الدنيا من الأموال ونحوها؛ لأن نعم الدنيا مشوبة بالغموم وتعرض للزوال، ونِعَمَ الآخرة دائمة لا يشوبها ما ينغصها «**ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ**» للجزاء بالعقاب، وقيل: من المحضرين في النار، فدل بقوله: «**أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ**» على الثواب، وبين أنه لا يستوي هو مع من يحضر للعقاب «**وَيَوْمَ**» يعني: يوم القيامة «**يُنَادِيهِمْ**» أي: ينادي الله تعالى الكفار «**فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِي**» يعني: الأوثان «**الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ**» في الدنيا أنهم شركائي وتعبدونهم فأين هم اليوم لا ينصرونكم؟ وهذا نداء توبيخ وتقريع عند الإشهاد بما يوجب الخزي، وقيل: المراد بالشركاء الرؤساء وأئمة الضلالة بمنزلة طاعتهم لهم جعلوهم كالشركاء، وقيل: المراد به الجن، واختلفوا، فقيل: هذا النداء من الله، وقيل: يحتمل ذلك ويجوز أن ينادي ملك بأمره فيسمع أهل الجمع «**قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ**» أي: وجب عليهم الوعيد والعقاب، قيل: هم الجن الذين كان يعبدهم المشركون بالاتباع،

وقيل: رؤساؤهم وأئمتهم، عن الكلبي وغيره. «رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ» اعترفوا بذنوبهم، وقالوا: هؤلاء المتبوعين أضللناهم عن الحق بدعائنا إياهم إلى الضلال أغوينا وكان يمكنهم ألاَّ يتبعونا ويتبعوا الحق «كَمَا غَوَيْنَا» كما ضللنا نحن باتباع الرؤساء والشياطين، وأمكننا ألاَّ نتبعهم فلسنا نُوَرِّكُ بالذنب عليهم فلا تُوَرِّكوا أنتم بالذنب علينا «تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ» يعني: تبرأنا من إغوائهم وغوايتهم، قيل: هذا على وجه الرجوع والتوبة، وإن كانت لا تنفع، وقيل: تبرأنا إليك منهم ومن براءتهم.

ومتى قيل: ما فائدة هذا الاعتراف والمجادلة؟

قلنا: أما الأولون فيجوز أن يُوَرِّكوا الذنب على سادتهم ليتبرؤوا من الذنب أو ليزيدهم الله عذابًا، فيجيبهم الآخرون بأنا لم نكرههم على الإغواء، ولكن قبلوا، وكان يمكنهم ألاَّ يقبلوا، فالذنب لهم في كفرهم، لا لنا، فيكون على وجه التبري منهم ومن اتباعهم.

«مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ» قيل: هذا قول الرؤساء، أي: لأرسلنا فإنهم[1] لم يعبدونا، وإنما عبدوا الأصنام بدعائنا، فنحن منهم براء «وَقِيلَ» للكفار «ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ» قيل: الأصنام على وجه الاستعانة بهم «فَدَعَوْهُمْ» للضرورة مبالغة في الخزي والفضيحة، كما ينادي الإنسان على نفسه بأمر السلطان «فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ» أي: لم يجيبوا؛ لأنها جماد لا تسمع ولا تجيب. وقيل: هو على وجه التقدير؛ إذ لو دعوا واستغاثوا بهم لما أجابوا، ولما وجدوا عندهم النصرة «وَرَأَوُا الْعَذَابَ» قيل: عذاب النار النازل بهم، وقيل: الجحيم تبرز لهم فيرونها. «لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ» قيل: ودوا حين عاينوا العذاب لو كانوا يهتدون، و(لو) بمعنى التمني، أي: يتمنون[2] أن لو كانوا يهتدون في الدنيا، وقيل: لو كانوا يهتدون لما رأوا العذاب، وقيل: جواب (لو) محذوف على هذا، وقيل: لو كانوا يهتدون لما عبدوا الأصنام، وقيل: لو كانوا يهتدون إلى طريق تنجيهم لطلبوا الخلاص، ولكن لا سبيل إلى ذلك «وَيَوْمَ

(١) يتمنون: يتمنوا، ن.
(٢) للنبوة: النبوة، ن.

يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ» الذين بعثتهم إليكم، قيل: هذا أعظم النداء؛ لأنه نداء يجمع العلم والعمل؛ لأن الرسل يدعون إلى العمل كما يدعون إلى العلم، كأنه قيل: ماذا علمتم وماذا عملتم، وهو نداء للجميع «فَعَمِيَتْ» أي: خفيت واشتبهت بمعنى انسدت عليهم طرق الجواب، فصاروا كالعُمْيِ تنسد عليهم الطرق «عَلَيْهِمُ» أي: على هؤلاء الكفار «الأَنْبَاءُ» الأخبار، قيل: الأعذار والحجج «يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لاَ يَتَسَاءَلُونَ» قيل: لا يجيبون، وقيل: لا يحتجون، عن قتادة. وقيل: سكوت لا يسأل بعضهم بعضًا، وقيل: لا يتساءلون بالأنساب والقرابة، كما في الدنيا، عن مجاهد. وقيل: لانسداد طرق الحجة والأخبار لم يجيبوا، ولا سألوا عنه. وقيل: لا يسأل بعضهم بعضًا النصرة للإياس، وانسداد طرق الخلاص. وقيل: لا يسأل بعضهم بعضًا عن حاله لشغله بنفسه، عن أبي علي. وقيل: لا يسأل بعضهم بعضًا أن يحمل ذنوبه عنه، عن الحسن.

۞ الأحكام

تدل الآية على أنه لا يستوي حال من أطاع ربه، ومن انهمك في المعصية، واختار الشهوات، واغتر بالدنيا، فيبطل قول المرجئة.

وتدل على أنه لا ينبغي أن يغتر بالرؤساء والسادة؛ لأنهم لا يغنون عنهم شيئًا عند حاجتهم.

وتدل الآية على بطلان مذهب الجبر في المخلوق والاستطاعة من وجوه:

أحدها: ما جرى بين الفريقين من تَوْرِيكِ الذنب، ولو كان الله تعالى خالق الضلال في الفريقين، والقدرة الموجبة للإضلال لم يكن لذلك معنى، ولكان الأولى أن يقولوا: أنت خلقت فينا الضلال، ومنعتنا عن الإيمان، فأي ذنب للأتباع والمتبوعين؟

وثانيها: تمنيهم الهداية، ولو كان خلقًا له لما صح ذلك.

وثالثها: أنه أضاف جميع ذلك إليهم، وعلق به المدح والذم والثواب والعقاب.

ورابعها: ﴿مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ فكأنه: يقول ما خَلَقْتُ.

وخامسها: قوله: ﴿فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ﴾ ولو كان خلقًا له لوجدوا واضح العذر،

وقالوا: خلقت فينا الضلال، ومنعتنا عن الإيمان، وما أقدرتنا عليه، وخلقت فينا القدرة الموجبة للكفر.

قوله تعالى:
﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾

القراءة

للقراء في الوقف في هذه الآية طريقان:

أحدهما: الوقف عند قوله: ﴿ٱلْخِيَرَةُ﴾ و(ما) بمعنى (الذي) أي: يختار لهم ما هو خِيَرَةٌ ومصلحة، وكلاهما حسن.

فعلى الأول أنه إذا اختار الله شيئًا، فليس لهم أن يختاروا غيره.

وعلى الثاني: إنما يختار مصالح العباد.

اللغة

(عسى) و(لعلَّ) من النظائر، وقيل: (عسى) مِنَّا بمعنى الرجاء، ومن الله واجب إلا في قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ [التحريم: ٥].

والخيرة: إيثار شيء على غيره، ونظيره: الاختيار.

النزول

قيل: نزل قوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ﴾ الآية، جوابًا لقول الوليد بن المغيرة: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: ٣١].

وقيل: إن قومًا قالوا: لو أراد الله أن يرسل رسولاً لأرسل فلانًا وفلانًا دون محمد، فنزلت الآية، عن أبي علي.

۞ المعنى

لما تقدم الوعيد عقبه بذكر التوبة قطعًا للإياس، فقال سبحانه: «**فَأَمَّا مَنْ تَابَ**». والتوبة: أن يندم على ما سلف، ويعزم على ألاَّ يعود إلى أمثاله من فعل قبيح أو ترك واجب، ويتلافى ما يمكن تلافيه من حقوق الله تعالى وحقوق العباد «**وَآمَنَ**» قيل: آمن مع التوبة فيقلع من الكفر، وقيل: يثبت على إيمانه «**وَعَمِلَ صَالِحًا**» وهو ما كلف فعله وتركه، فيؤديه كما أمر «**فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ**» أي: يكون من المفلحين، عن أبي علي. يعني: لا بد أن ينال الفلاح وهو الظفر بالبغية، وقيل: إنما ذكر (**عسى**)؛ لأن استحقاق الثواب بالدوام على التوبة، وقيل: لأن التائب في حكم الراجي.

ثم قطع طمع الكفار في التحكم في الآيات، فقال سبحانه: «**وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ**»؛ لأنه القادر على جميع ذلك، «**وَيَخْتَارُ**» ما هو الأصلح لهم؛ لأنه أعلم بعواقب الأمور، وقيل: «يختار ما يشاء» ليس لهم تخير الأمور على الله، وقيل: يختار للنبوة من يصلح لها ليس لهم أن يختاروا؛ بل يجب أن يتبعوا أمر الله؛ لأنهم لا يعلمون من هو أهل للنبوة[١] ومن فيه المصلحة «**سُبْحَانَ اللَّهِ**» أي: تنزيهًا له عن شريك في خلقه [و] في اختياره «**وَتَعَالَى**» جل أن يلحقه في أفعاله سهو، وفي اختياره خطأ أو قبيح «**وَرَبُّكَ يَعْلَمُ**» لما بيّن كونه قادرًا عقبه ببيان كونه عالمًا؛ لأن اختيار الأحسن بهما يتم، فقال سبحانه: «**يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ**» قيل: معناه: يعلم الضمائر والسرائر وما يظهر، فيختار للنبوة من يصلح لها، وقيل: هو العالم بالأشياء فيفعل الأصلح، ولا يفعل القبيح «**وَهُوَ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى**» أي: الدنيا «**وَالآخِرَةِ**» أي: هو يستحق الحمد في الدارين؛ لأن نعم الدارين منه، لذلك استحق حمد الدارين.

۞ الأحكام

تدل الآية على أنه يحكم بين عباده، فيجازي كل أحد بفعله.

---

(١) البيت قائله قيس بن الخطيم وتكملته:

قوله تعالى:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾

اللغة

السرمد: الدائم.

والنزع: الإخراج، ومنه: نزع يده.

والنهار: اتساع الضياء، وأصله: السعة، ومنه النهر: المجرى الواسع للماء، ومنه قول الشاعر:

مَـلَـكْـتُ بِـهَـا كَـفِّـي فَـأَنْـهَـرْتُ[1]

الإعراب

الهاء في قوله: ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ قيل: يعود إلى الليل؛ لأنه للسكون والنهار للتصرف، وهو الأوجه. وقيل: يعود إليهما، ووَحَّدَ؛ لأنه يجري مجرى المصدر كقول العرب: إقبالك وإدبارك يؤذيني.

﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ محله رفع، وتقديره: ضل افتراؤهم.

النظم

ويقال: كيف تتصل هذه الآيات بما قبلها؟

ملكت بها كفي فأنهرت فتقها   يرى قائم من دونها ما وراءها

انظر ديوان قيس بن الخطيم، تحقيق ناصر الدين الأسد، دار صادر، بيروت.

(١) عبدوا: عدوا، ن.

قلنا: لما تقدم أن الحمد له في الدارين عقبه بذكر ما يوجب الحمد من النعم. وقيل: تعود إلى قوله: ﴿وَيَخْتَارُ﴾ فبيّن أنه يختار لعباده ما هو أصلح لهم وأولى لمنافعهم.

المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى نعمه وما يدل على توحيده، فقال سبحانه: «**قُلْ**» يا محمد لهؤلاء: «**أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا**» قيل: دائمًا، عن ابن عباس، ومجاهد. «**إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**» لا يكون معه نهار وضياء «**مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ**» ما بَيَّنَهُ الله لكم من أدلته ونعمه، وقيل: أفلا تقبلون ما وعظتم به «**قُلْ**» يا محمد: «**أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ**» تستريحون «**أَفَلَا تُبْصِرُونَ**» قيل: أفلا تعلمون من البصيرة وهو العلم، وقيل: أفلا تشاهدون الليل والنهار، وكيف دبرها وقدرها، فتعلموا أنه من صنع مدبر حكيم «**وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**» أي: من نعمه عليكم أن خلق الليل والنهار «**لِتَسْكُنُوا [فِيهِ]**» في الليل «**وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ**» وتتصرفوا في النهار «**وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**» أي: تشكروا هذه النعم، فبين تعالى أنه لو دام أحدهما لم يتم التدبير، وإنما تم بأن جعل أحدهما عقيب الآخر كل ذلك لمنفعة عباده، [فكيف] عبدوا(١) من لا يملك من ذلك شيئًا؟

ثم عاد الكلام إلى ذكر القيامة، فقال سبحانه: «**وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ**» قد بَيَّنَّا معناه.

ومتى قيل: لم كرر ذلك؟

فجوابنا: للتأكيد. وقيل: الأول: لتقرير الإقرار على اليقين بالضلال، والثاني: للتعجيز عن البرهان بحضرة الأشهاد. وقيل: في الأول بيان أنهم لا ينتفعون بأصنامهم، وفي الثاني توبيخ بعبادتهم، وفي كلا الوجهين إقامة الحجة عليهم.

---

(١) لإلزام: إلزام، ن.

«وَنَزَعْنَا» أي: أخرجنا «مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ» من كل أهل عصر وجماعة. وقيل: من أمة كل نبيّ «شَهِيدًا» قيل: هم الأنبياء، فبين كلامه بحضرته؛ ليشهد على أمته بما كان منها، عن مجاهد، وقتادة. وقيل: هم عدول الآخرة، ولا يخلو كل زمان منهم، ويشهدون على الناس بما عملوا. وقيل: يشهدون للأنبياء بالتبليغ، وعلى العلماء بالإنذار، وعلى العامة بالقبول والإباء «فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ» أي: حجتكم على صحة ما كنتم عليه من الشرك «فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ» قيل: معناه الحق في التوحيد، وقيل: الحق لله على عباده في عبادتهم له، وقيل: فسلموا أن الحجة كلها لله ولا حجة لهم عليه «وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ» أي: ضل ما كانوا يكذبون من حديث الأصنام، وأنها آلهة أو شفعاء، ولم يجدوا الشيء بما كانوا يعتقدونه حقيقة.

۞ الأحكام

تدل الآية على عظيم نعمة الله في الليل والنهار، واختلافهما في الزيادة والنقصان، وتعاقبهما، وأن مصالح الخلق تتعلق بهما دينًا ودنيا، وأنه من تدبير مدبر حكيم.

ويدل قوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أنه أراد من الجميع الشكر، خلاف قول المجبرة.

وتدل أن في كل أمة جماعة تشهد في الآخرة عليهم، واستدل شيخنا أبو علي رحمه الله بذلك أن كل زمان لا يخلو من شهداء لله تعالى.

ويدل قوله: ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ على صحة الحجاج في الدين لإلزام[1] الخصم الحجة.

وتدل على أنه لم يخلق الكفر؛ إذ لو خلقه لكان أعظم البرهان لهم أن يقولوا: إنه خلق فينا الشرك، ولولا ذلك لما أشركنا.

---

(١) نهوض الإنسان: النهوض بالإنسان، ن.

قوله تعالى:

﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَاۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًاۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

۞ القراءة

قرأ حفص عن عاصم ويعقوب الحضرمي: ﴿لَخَسَفَ بِنَاۖ﴾ بفتح الخاء والسين، يعني: خسف الله بنا الأرض، وقرأ الباقون: «لَخُسِفَ» بضم الخاء وكسر السين على ما لم يُسَمَّ فاعله.

۞ اللغة

البغي: طلب العلو بغير حق، وأصله من الطلب؛ ولذلك يقال لولاة الجور: بغاة.

والكنز: معروف، وأصله: الجمع، ويقال لكل مجتمع من لحم أو غيره:

مكتنز، فالكنز جمع المال بعضه إلى بعض، إلا أنه في العرف: اسم لما يخبأ تحت الأرض، وفي الشرع: اسم لمال لم تُؤَدَّ زكاته، جاء الشرع بذلك.

والمفتاح: ما يفتح به الأغلاق، يقال: مفتاح ومفاتيح ومَفَاتِحُ.

النَّوْءُ: نهوض الإنسان[1] بالحمل إذا نهض به مع ثقله يَنُوءُ نوءًا، ومنه: أخذت الأنواء: نجوم تنهض من المشرق، وقال الأصمعي: الأنواء ثمانية وعشرون نجمًا معروفة يسقط في كل ثلاث عشرة ليلة نجم في المغرب مع طلوع الفجر، ويطلع آخر يقابله من ساعته، ويكون انقضاء هذه الثمانية والعشرين مع انقضاء السنة، وكانوا يقولون: إذا سقط نجم وطلع نجم لا بد من مطر، فيقولون: مطرنا بِنَوْءِ كذا، وقال ابن الأنباري: لا يكون نَوْءٌ حتى يكون معه مطر، وقد شدد رسول الله صلى الله عليه في ذلك وذكر أنه من أمور الجاهلية؛ لأنهم أضافوا المطر إلى النجم فكفروا، ولو قالوا: أمطرنا الله عند طلوع نجم كذا لم يكن خطأ ولا كفرًا.

والعُصْبَةُ: الجماعة لا واحد له من لفظه، وكذلك العصابة، وقيل: هو من العشرة إلى الأربعين، وقيل: أصله من العَصْبِ وهو الشد.

والخسف: سَوْخُ الأرض بما عليها.

والفئة: الجماعة المنقطعة إلى أمر تجتمع عليه، وأصله من فَأَوْتُ رأسه بالسيف: إذا قطعته، وتصغيره: فُئَيَّةٌ.

❁ الإعراب

(ويكأن) قال قطرب: (وَيْ) كلمة تفجيع، (كأن) حرف تنبيه. وقال الخليل: (ويك) كلمة، و(أَيْ) كلمة، تقديره: ويكأن الله يبسط الرزق، قال عنترة:

وَلَقَدْ شَفَى نَفْسِي وأَذْهَبَ سُقْمَهَا　　　قَوْلُ الفَوَارِسِ وَيْكَ عَنْتَرَ أَقْدِمِ[2]

---

(١) البيت قائله عنترة بن شداد العبسي في معلقته وفي رواية: قيل الفوارسِ وَيك عنتر أقدمِ، انظر ديوان عنترة بن شداد، تحقيق محمد سعيد موسوي، المكتب الإسلامي، ١٩٧٠.

(٢) وما: فما، ن.

وقال سيبويه: سألت الخليل عن ذلك فقال: (وَيْ): كلمة تنبيه منفصلة من (كأن)، وقيل: هي كلمة موصولة، وقال الفراء: هي كلمة تقرير، وقيل عن قطرب: إن أصله ويلك، أسقطت منه اللام، فأما قول المفسرين فسيأتي من بعد.

۞ النظم

ويقال: كيف تتصل قصة قارون بما قبلها؟

قلنا: قيل: هو من نبأ موسى الذي وعد تلاوته في أول السورة، قصة قارون معه.

وقيل: لما قال: ﴿فَمَآ[1] أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [القصص: ٦٠] أكد ذلك بحديث قارون.

وقيل: لما تقدم أن اتباع الأنداد والعظماء لا يغني شيئًا أتبعه بذكر قارون، وأنه لم ينفعه المال والأتباع.

۞ المعنى

«إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى» قيل: كان من بني إسرائيل نسبًا، وقيل: كان من ولد لاوي بن يعقوب، وقيل: كان ابن عم موسى، عن ابن جريج. وقيل: كان ابن أخيه لأمه وأبيه، عن ابن إسحاق. وقيل: كان من قومه ممن آمن به وقَبِلَ دينه. وقيل: كان يقال له: المنور؛ لحسن صورته، عن قتادة. وقيل: لم يكن في بني إسرائيل أقرأ للتوراة منه ولا أجمل ولا أغنى، ثم نافق كما نافق السامري «فَبَغَى عَلَيْهِمْ» أي: طلب زيادة ليست له، واختلفوا في ذلك البغي، فقيل: كان بغيه أنه يستخف بهم، و[يتكبر] عليهم، عن أبي علي، وهو أحسن ما قيل فيه. وقيل: استطال عليهم بكثرة كنوزه، عن قتادة، وهذا مثل قول أبي علي. وقيل: كان عاملاً لفرعون على بني إسرائيل، فكان يبغي عليهم، ويظلمهم[2]، عن سعيد ابن المسيب. وقيل: كان ملكًا عليهم لما كانوا بمصر، عن ابن عباس. وقيل: قصد إلى امرأة بغية مشهورة بذلك، وضمن مالاً على أن تقصد موسى في مجلسه، ثم تقول: قصدته مستفتيًا فطلبني الفساد، فأجابته

(١) ويظلمهم: ويطالبهم، ن. وما أثبتناه من: الكشف والبيان، للثعلبي: ١٠/ ٧١، تفسير الثعالبي: ٣/ ١٦٢، تفسير اللباب: ١٢/ ٤٠٣.

(٢) باللهو: باللغو، ن.

إلى ذلك، فجاءت إلى موسى، وأرادت أن تقول ذلك، فأمسك الله لسانها عنه، فجرى على لسانها براءة موسى. وقال بعضهم: بل تابت وجاءت وقارون وبنو إسرائيل حول موسى فقالت: إن قارون ضمن لي مالاً على أن أقول لموسى كذا، وإن موسى بريء الساحة. وقيل: بَغْيُهُ: كفره ونفاقه. وقيل: بغيه أنه كان يشتغل باللهو[1] والفساد. وقيل: زاد عليهم في الثياب شبرًا، عن عطاء الخراساني. وقيل: طالبه موسى بالزكاة وبلغ مبلغًا عظيمًا، فمنعه وتعدى، فذلك بغيه. وقيل: كان موسى جعل إليه القربان، فعزله وجعل ذلك إلى أخيه فغضب وبغى. «**وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ**» أعطيناه من الأموال المدخرة «**مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ**» جمع مِفْتَحٍ، وهو المفتاح الذي تفتح به الأبواب. وقيل: أراد بالمفتاح الخزائن، عن ابن عباس والحسن.

ومتى قيل: الكنوز ما يكون تحت الأرض، ولا يكون لها مفاتيح؟

قلنا: إن حمل على أن المفاتيح الخزائن فلا سؤال، وإن حمل على المفتاح فيحمل على أنه كان في الصناديق ولها مفاتيح، أو في بيوت تحت الأرض ولها مفاتيح.

«**لَتَنُوءُ**» قيل: تثقل بها، وقيل: فيها تقديم وتأخير، كقول الشاعر:

فَدَيْتُ[2] بِنَفْسِه[3] نفسي ومالي[4]

وتقديره: لتنوء العصبة بها، واختلفوا في العصبة، فقيل: جماعة، وقيل: ما بين عشرة إلى خمسة عشر، عن مجاهد. وقيل: ما بين عشرة إلى أربعين، عن قتادة. وقيل: أربعون رجلاً، عن أبي صالح. وقيل: ما بين الثلاثة إلى العشرة، عن ابن عباس. وقيل: ستون، وقيل: كانت تحمل على أربعين بغلاً، وقيل: على ستين بغلاً «**أُولِي**

---

(١) فديت: فدت، ن.

(٢) بنفسه: نفسه، ن.

(٣) البيت قائله العباس بن مرداس السلمي، وتكملته:

فديتُ بنفسهِ نفسي وَمالي ... ولا آلوهُ إلا ما يُطيقُ

انظر: ديوان العباس بن مرداس، تحقيق يحيى الجبوري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩١. وكذلك مثله لعروة بن الورد:

فديت بنفسه نفسي ومالي ... وما آلوك إلا ما أطيق

انظر اللسان، (تيز).

الْقُوَّةِ» أي: تلك العصبة لهم القوة «**إِذْ قَالَ لَهُ**» لقارون «**قَوْمُهُ**» من بني إسرائيل «**لاَ تَفْرَحْ**» أي: لا تَأْشَرْ ولا تفرح، وقيل: هو شدة الإعجاب بماله وبما يلهيه عن أمر الآخرة، وقيل: لا يعجبك ذلك حتى لا تبخل بحق الله، وقيل: لا تنظر فيما يحرم عليك فإنه لشدة الحرص يجمع من كل وجه يتأتى، وقيل: حتى تصرفه إلى الفسق والمعاصي «**إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ**» الأَشِرِينَ البطرين الذين لا يشكرون الله على نعمائه، قال مجاهد: والفرح البطر. وقيل: معناه: لا تفسد إن الله لا يحب المفسدين، كأنه قيل: لا تفرح بما أتيت من الفساد «**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ**» أي: اطلب فيما أعطاك الله، قيل: من المال وزينة الدنيا، وقيل: من العلم، والأول أوجه. «**الدَّارَ الآخِرَةَ**» يعني: الجنة، بصرف المال إلى الأعمال المؤدية إلى الجنة، وعلى المعنى الآخر: اعمل بما علمك الله كما أمرك، وقيل: اغتنم فراغك وصحتك، وبما وسع الله عليك، بأن تعمل بها للآخرة قبل حلول الموت «**وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا**» اختلفوا في معناه، فقيل: بأن تعمل في الدنيا بطاعة الله تعالى للآخرة، عن ابن عباس. وقيل: لا تنس قدرتك ونشاطك وغناك أن تطلب بها الآخرة، عن علي عليه السلام. وقيل: طلب الحلال وما يكفيه في الدنيا، عن الحسن. وقيل: قوتك وقوت أهلك، وقيل: قَدِّمْ مالك فيكون ذلك نصيبك، وما أخرته فهو نصيب للوارث. وقيل: لا نسألك جميع مالك؛ بل تجعل بعضها للآخرة، وبعضها تتمتع بها في الدنيا، عن أبي مسلم. وقيل: هو الكفن؛ لأنه حظه من الدنيا عند خروجه منها. «**وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ**» قيل: أحسن إلى الناس كما أحسن إليك ربك، وقيل: اعمل بطاعة الله شكرًا على ما آتاك من إحسانه «**وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ**» أي: لا تطلب الفساد «**إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**» أي: لا يريد إكرامهم «**قَالَ**» يعني: قارون «**إِنَّمَا أُوتِيتُهُ**» أي: أعطيته «**عَلَى عِلْمٍ عِندِي**» قيل: أعطيت هذا المال لرضا الله عني وتفضيلي على غيري، ورآني لهذا المال أهلاً، وفضلني عليكم به، كما فضلني عليكم بالعلم، عن ابن زيد. وقيل: على علم عندي بوجوه المكاسب، وبما لا يتهيأ لأحد أن يثبته من التجارات والزراعات وغيرها. وقيل: هو علم الكيمياء، عن سعيد بن المسيب. يعني: جمعت هذا المال بحولي وعلم اختصصت به، فلا مِنّة لأحد عليّ، فزاد بهذا في كفره، وقيل: بالرُّشا والوجوه

المحرمة كما يفعله الظلمة وعلماء السوء. يعني: بعلمي أخذته، وقيل: كان يعلم التوراة ويكتسب بها[١] «**أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ**» الكافرة «**مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا**» أي: أكثر مالاً، بَيَّنَ تعالى أن اغتراره بماله من الخطأ العظيم؛ لأنه لا ينتفع به عند نزول العذاب به كما أن من كان قبله كانوا أقوى وأغنى، فلم يغن عنهم شيئًا «**وَلاَ يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ**» قيل: المراد به: الكافرون يدخلون النار بغير حساب؛ لأنه لا طاعة لهم، عن قتادة. وقيل: الملائكة لا تسأل عنهم؛ لأنهم يَعْرِفُونَهُمْ بسيماهم، عن مجاهد. وقيل: لا يُسْألون للتعريف، وإن كانوا يُسْألون للتوبيخ والتقريع، عن الحسن. وقيل: لا يتسآلون؛ لأن الله تعالى يعلمها ويعلم قدر استحقاق العقاب. وقيل: لا يسأل كفار هذه الأمة عن ذنوب الأمم الخالية، وقيل: هناك مواقف يُسْأَل فيها، ومواقف لا يسأل «**فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ**» أي: خرج قارون على بني إسرائيل «**فِي زِينَتِهِ**» في أربعة آلاف دابة، عليهم وعلى دوابهم الأَرْجُوَانُ، عن قتادة. وقيل: في سبعين ألفًا عليهم العصفران، عن ابن زيد. وقيل: في ثياب حمر، عن الحسن، وإبراهيم. وقيل: على براذين بيض عليها سروج الأرجوان، وثلاثمائة من الجواري عليهن[٢] الحلي، عن مقاتل. وقال بعضهم: إنما خرج على تلك الزينة مراغمًا لموسى لما طالبه بالزكاة فبخل به، فنصحه قومه فلم ينجع فيه. «**قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَا لَيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ**» فتمنوا أهل الدنيا وقالوا: ليت أنا أعطينا مثل ما أعطي قارون من أسباب الدنيا أن نالَ حظًا عظيما «**وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ**» مِنْ هذا الذي أعطي قارون، أي: أعطي من «**آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا**»؛ لأن ثوابه دائم لا يشوبه ما يكدره، وهذا فانٍ مشوب بالهموم، وقيل: كان قوم موسى فريقين: زهاد وراغبون، فلما نظروا إلى زينته تمنى الراغبون مثل حاله، فزجرهم العلماء الزاهدون، وبينوا أن ثواب الله لِمَنْ آمن ورضي بما آتاه الله خير من ذلك «**وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ**» أي: لا يلقى ولا يوقن بمثل هذه الكلمة إلا الصابرون على طاعة الله وعن زينة الدنيا «**فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ**» أي:

(١) بها: به، ن.
(٢) من الجواري عليهن: جواري عليهم، ن.

أذهبناه وداره في الأرض، قيل: لما منع الزكاة خسف به، وقيل: لما كفر ولم تنجع فيه النصيحة، وقيل: لما بينت المرأة أن قارون ضمن لها جُعْلاً لتكذب على موسى خر موسى ساجدًا يبكي، فأوحى الله إليه أني سلطتك على الأرض، فقال: يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى ركبهم، ثم قال: خذيهم، فأخذتهم إلى أعناقهم، ثم قال: خذيهم، فأطبقت عليهم، عن ابن عباس. وقيل: [ذكر لنا أنه يخسف به كل يوم قامة و] إنه يتجلجل [فيها لا يبلغ قعرها] كل يوم، عن قتادة. «**فَمَا**[1] **كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ**» جماعة «**يَنصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ**» فينجيه غيره من الخسف «**وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ**» بنفسه، وقيل: من المتمنعين «**وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ**» قيل: في المال والزينة، وقيل: في العلم لما رأوا حاله «**يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ [مِنْ عِبَادِهِ] وَيَقْدِرُ**» قيل: معنى (ويك أن): ألم تعلم؟! عن مجاهد. وقيل: ألم تر؟ عن قتادة. وقيل: رحمة ذلك. وقيل: هي كلمة تقرير، عن الفراء. وقيل: هي كلمة ابتداء وتحقيق، تقديره: إن الله يبسط، عن ابن عباس، والحسن. وقيل: هو تعجيب، عن المؤرج. وقيل: معناه: ويلك، فأسقطت اللام، عن قطرب. «**يَبْسُطُ الرِّزْقَ**» أي: يوسع على من يشاء لا لكرامة؛ بل لاعتبار، كما وسع على قارون «**وَيَقْدِرُ**» **يُضَيِّقُ على من** يشاء لا لهوان؛ لكن بحسب المصلحة. «**لَوْلاَ أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا**» قيل: لولا أنه أنعم علينا بنعمه، فلم يُعْطِنَا ما أعطى قارون وإلا لخسف بنا. [و] قيل: لولا أنه أنعم علينا بالقلة لخسف بنا بالكثرة. وقيل: لولا أن من الله علينا بالإيمان. وقيل: لولا أن مَنَّ الله علينا بالتجاوز عما تمنينا «**لَخَسَفَ بِنَا**» بما تمنينا من منزلة قارون «**وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ**» أي: لا يظفر ببغية وخير.

۞ الأحكام

الآية تدل على أن قارون كان من قوم موسى، وأن القرابة لا تنفع من غير إيمان.

ويدل قوله: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ أن البغي اسم ذم في الشرع؛ ولذلك يقال للخارج على الإمام: باغٍ، ولقومه: أهل البغي؛ ولذلك قال تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]

(١) فما: وما، ن.

وإن كان أصله في اللغة الطلب، فكان منقولاً في الشرع إلى من يطلب شيئًا ليس له ذلك.

وتدل أن قارون كان أوتي مالاً كثيرًا.

وتدل أنه كان حلالاً أضافه إلى نفسه فقال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾.

ومتى قيل: كيف تجتمع تلك الأموال العظيمة من الحلال؟

قلنا: لذلك وجوه:

منها: أن يظفر بكنوز من أهل الجاهلية.

ومنها: أن يرث.

ومنها: أن يكون له حَشَمه، فيتفق له من التجارات والزراعات ما يجتمع به المال.

ومنها: أن يتفق له من التكسب.

ومنها: أن يحصل له من الغنائم.

ويجوز أن تجتمع من جميع هذه الوجوه، وقد روي أن فرعون كان جعل إليه إمارة بني إسرائيل، فلعله تمكن من التجارات والزراعات، وغير ذلك من الأسباب.

وتدل على أن الفرح بالدنيا على سبيل البطر والتكبر قبيح، وأن الواجب الفرح بما يؤديه إلى الجنة.

وتدل أن نصيب المرء في دنياه ما أنفقه في وجوه البر، لا ما تَمَسَّكَ به حتى مات، فإن ذلك نصيب الورثة.

ويدل قوله: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أنه لا يريد الفساد، ولو كان خَلْقَهُ لأراده، فيبطل قول المجبرة في المخلوق والإرادة.

وتدل أن إضافة العلم إلى نفسه على وجه يتفرد به يقبح؛ بل يضاف أولاً إليه تعالى؛ لأنه خالق الضروري ومسبب للمكتسب بوجوه الأسباب.

وتدل على أنه لا ينبغي أن يُغْتَرَّ بزينة أهل الدنيا إذا عاقبتها العقاب، وينبغي أن يزجر من يغتر به ويدعو إلى طاعة الله تعالى والرضا بما آتاه الله.

ويدل قوله: ﴿فَخَسَفْنَا﴾ أن ذلك الخسف كان عقوبة.

وتدل على أنه يجوز أن يهلك من يستحق لطفًا حتى يعلم أنه لا يدوم ولا يعجب به؛ لذلك خسف بداره وزينته، وعلى هذا الوجه صحح أبو هاشم أن العين حق، وقال: إنما يهلكه الله لطفًا كي لا يركن المستحسن إلى الدنيا، قال القاضي ـ رحمه الله ـ: قد جمع تعالى في قوله: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ أدوات[1] الدين والدنيا؛ لأن كل ما يتناوله التكليف تناوله قوله: ﴿وَٱبْتَغِ﴾ وجميع ما يتصل بأماني النفس تناوله قوله: ﴿وَلَا تَنسَ﴾، وهذا على أن معنى قوله: ﴿وَلَا تَنسَ﴾ فإنه حقه على نفسه على ما قدمنا.

وتدل على أن أفعال العباد حادثة من جهتهم من وجوه كثيرة، هي ظاهرة إن تأملتها.

قوله تعالى:

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾
مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ
بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن
رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ
وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ
كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾

القراءة

قراءة العامة: ﴿وَجْهَهُۥ ۚ﴾ بالنصب، وقرئ بالرفع، فمن نصبه فعلى الاستثناء، ومن رفعه فالمراد: غيرُ وجهه أي: كل معبود باطل إلا ربك.

---

(١) أدوات: أدات؛ ن.

اللغة

الفرض: أصله الحَزُّ والقطع، يقال: فرضت سواكي: إذا حززته ليشتد فيه خيطًا، ومنه فرض القاضي النفقة، أي: قطع لها، والفرض: الحز في سِيَةِ القوس ليقع فيه الوتر، والفرائض سميت بذلك؛ لأن لها معالم[1] وحدودًا.

والوجه: مستقبل كل شيء، وربما يعبر عن الذات، يقال: أكرم الله وجهك، أي: أكرمك.

الإعراب

«رحمة» نصب على المصدر، أي: رحم رحمة.

و﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ نصب على الاستثناء.

النظم

يقال: كيف يتصل قوله: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ﴾ بما قبله؟

قلنا: قيل: إنه تعالى كما حرم نعم الدنيا عليهم بالهلاك، كذلك يحرم عليهم نعم الآخرة.

وقيل: لما تقدم ذكر قارون بين أن ثوابه يُنَالُ بالتواضع لا بالكبر.

وقيل: لما تم حديث موسى عليه السلام وقارون خاطب النبي ﷺ وأمته بالمواعظ والاتعاظ بما تقدم.

ويقال: كيف يتصل قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ بما قبله؟

قلنا: مَنْ حَمَلَ المعاد على البعث اتصل بقوله: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ﴾ ، ومن حمله على العود إلى مكة قال: لما بين أنه وعد أم موسى رد موسى عليها مع شرف النبوة، كذلك وعد رجوعك إلى مكة مع عظيم الشرف، وقد أنجز وعده، ومعنى الكلام: أن الذي أنزل القرآن بذلك الوعد سينجزه لك.

---

(١) معالم: معالما، ن.

۞ النزول

قيل: لما هاجر رسول الله ﷺ، وبلغ الجحفة مفارقًا مكة والمسجد الحرام بكى، فسرّه الله تعالى بهذه الآية أنه يرده إلى مكة ظاهرًا على قومه، عن مقاتل.

قال ابن عباس: نزل بالجُحْفَةِ، وليس من مكة ولا من المدينة.

۞ المعنى

«**تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا**» يعني: الجنة نجعلها «**لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ**» أي: تكبرًا وتجبرًا عن عبادة الله تعالى والانقياد لأمره «**وَلاَ فَسَادًا**» أي: عملاً بالمعاصي، عن ابن جريج، ومقاتل. وقيل: أخذ المال بغير حق، عن عكرمة. وقيل: الدعاء إلى عبادة غير الله، عن الكلبي. وقيل: علوًّا في الطاعة كما يفعل جهال القراء، و(فسادًا) إصرارًا على المعصية. «**وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**» أي: العاقبة المحمودة لمن اتقى الشرك والمعاصي، وقيل: هو الجنة للمتقين، عن قتادة.

ثم بيّن حال العاقبة، فقال سبحانه: «**مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ**» أي: من عمل حسنة ثم حفظها عما يحبطها حتى جاء بها إلى الحشر «**فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا**» قيل: ثوابها خير منها، وقيل: له خير من ثوابها؛ لأن مزيد التفضل مع الثواب خير من منفرد الثواب، عن أبي علي. «**وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ**» بالمعاصي من غير توبة عنها «**فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**» أي: لا يزيد عقابهم على قدر المستحق؛ لأنه يقبح، وقيل: معناه: من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها؛ لأنه تَفَضُّل[1]، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا بالمستحق؛ لأن الزيادة ظلم «**إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ**» قيل: أنزل عليك، عن أكثر المفسرين. وقيل: فرض عليك العمل بالقرآن، عن عطاء بن أبي رباح. وقيل: بينه وجعله معالم الأحكام، عن أبي مسلم. وقيل: معناه: إن الذي جعلك نبيًّا أوحى إليك بالقرآن وما ترجو أن تكون نبيًّا. وقيل: فرض عليك تبليغ القرآن «**لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ**» قيل: يردك إلى مكة، عن ابن عباس، ومجاهد، وأبي علي.

---

(١) تفضُّل: تفضيل، ن.

قال القتيبي: معاد الرجل بلده؛ لأنه ينصرف ثم يعود إليه، وقيل: إلى الموت، عن ابن عباس بخلاف، وأبي سعيد الخدري. وقيل: إلى المرجع يوم القيامة، يعني: يعيدك بعد الموت كما بدأك، عن الحسن، والزهري، وعكرمة، وأبي مسلم. ومعناه: إذا بعثت أنت فما ظن غيرك ألا يبعث. وقيل: إلى الجنة، عن مجاهد، وأبي صالح. والآية في ذكر القيامة والرجوع إلى النشأة الثانية إلى الجنة أولى، ولم يَجْرِ لمكة ذكر، وقيل: الظاهر يقتضي أنه العود إلى مكة؛ لأن ظاهر العود يقتضي الابتداء ثم عودًا إليه، وذلك يليق بمكة «**قُلْ**» يا محمد: «**رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**» أي: بيّن ظاهر.

ومتى قيل: كيف يتصل هذا بما قبله؟

قلنا: لما كذبوه فيما يقول قال: قل لهم: ربي أعلم بالصادق والكاذب، عن أبي مسلم. وقيل: هو يوم القيامة أعلم بالمهتدين من الضلال لا يلتبس عليه شيء.

«**وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ**» قيل: فيه تقديم وتأخير، وتقديره: إن الذي فرض عليك القرآن ـ وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب ـ لرادك إلى معاد، وقيل: تقديره: إن الذي فرض عليك القرآن وما كنت ترجو ذلك. لرادّ[1] لك إلى معاد «**فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا**». وقيل: الكلام يصح من دون تقديم وتأخير، فإنه تعالى منّ عليه لاختصاصه بما خصه به لشكره وأمره وألاَّ يكون ظهيرًا «**لِلْكَافِرِينَ**» أي: عونًا لهم «**وَلاَ يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ**» أي: لا يصرفك هؤلاء القوم عن القرآن ودين الله بعد إنزاله وبيانه، وقيل: لا يمنعوك عن تبليغه بعد أن أنزل وأمرت بالإبلاغ، وإنما نزل ذلك لما دعوه إلى دين آبائهم «**وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ**» إلى توحيده وعبادته «**وَلاَ**[2] **تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**» قيل: لا تَمِلْ إليهم، ولا ترض بطريقتهم ولا تُوَالِ أحدًا منهم «**وَلاَ تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ**» قيل: إلا هو، عن مجاهد. وقيل: دينه، عن الصادق. وقيل: إلا ما أريد به وجهه، عن أبي العالية. وقيل: وجه الله: الحق وقيل: إلا ملكه، عن ابن

---

(١) لرادّ: وراد، ن.

(٢) ولا: فلا، ن.

كيسان. «**لَهُ الْحُكْمُ**» قيل: القضاء النافذ في خلقه، وقيل: له الحكم يوم القيامة حيث لا حكم لأحد غيره، عن أبي علي. وقيل: إنه الحاكم فلا حاكم إلا هو أو من جعل هو الحكم إليه «**وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**» إلى حكمه مصير الخلق.

۞ الأحكام

يدل قوله: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ﴾ ، وقوله: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أن الجنة تنال بترك العلو والفساد، فيبطل قول المجبرة والمرجئة.

ويدل قوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ أن أحدًا لا يجازى إلا بذنبه، وذلك أيضًا يبطل قول المجبرة.

ويدل قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ﴾ الآية على نبوته من حيث وعد وعدًا، فكان كما وعد عام الفتح، هذا إذا حمل على العود إلى مكة، وهو قول أبي علي، وعندنا لا تنافي بين المعنيين، فيحمل عليهما.

ويدل قوله: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ﴾ على التحذير من معاصيه.

ويدل قوله: ﴿فَلَا(1) تَكُونَنَّ ظَهِيرًا﴾ على وجوب معاداة أهل الباطل، وهذه الآيات وإن كانت خطابًا له فالمراد غيره، وكان ابن عباس يقول: القرآن كله إياك أعني، واسمعي يا جارة.

ويدل قوله: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ أن الأجسام تفنى ثم تعاد على ما يقوله مشايخنا في الفناء والإعادة، وإذا كانت الأجسام باقية والقدرة لا تتعلق بالإعدام، خلاف ما يقوله أبو الحسين الخياط ـ والباقي لا يبقى ببقاء، خلاف قول البغدادية؛ لم يبق إلا أن يفنيها بضد، وهو الفناء.

وتدل على أن أفعال العباد حادثة من جهتهم من وجوه:

منها: قوله: ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾.

---

(1) فلا: ولا، ن.

ومنها: قوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾، ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾.

ومنها[1]: قوله: ﴿عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، و﴿يَعْمَلُونَ﴾.

ومنها: قوله: ﴿وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

ومنها: قوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا﴾، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

ومنها: قوله: ﴿وَلَا تَدْعُ﴾، وكل ذلك ظاهر.

---

(١) ومنها: ومن، ن.

سُورَةُ ٱلعَنكَبُوتِ

سورة (العنكبوت)، تسع وستون آية، وقيل: إنها مكية، عن الأكثر. وقال قتادة: عشر آيات من أولها مدنية، والباقي مكية.

وعن أبي بن كعب، أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ سورة (العنكبوت) كان له من الأجر عشر حسنات بعدد المؤمن والمنافق».

ولما ختم سورة (القصص) بالوعد والوعيد، افتتح هذه السورة بأنه تعالى إنما يفعل ذلك بهم؛ لأنه كلفهم، ولم يتركهم سدى مهملاً، ثم اتصل به الكلام.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٧﴾

اللغة

الحسبان والظن والتخيل والتوهم من النظائر، وهو قوة أحد النقيضين على الآخر من غير قطع، وفي العلمِ القطعُ، وفي الشك الاستواء، وأصله مأخوذ من الحساب.

والفتنة: أصلها الامتحان والاختبار، ثم يستعمل في العذاب والهَرْجِ.

والأجل: المدة والوقت.

الإعراب

نصب (أن) الأولى بـ(أحسب) والثانية بنزع الخافض على تقدير: لأن يقولوا.

ويقال: لم قال: ﴿يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ﴾ ، والعرب لا تقول: تركت فلانًا أن يذهب، بل يقولون: تركته يذهب؟

قلنا: فيه قولان:

الأول: على تقدير: لأن يقولوا.

والثاني: على التكرير بتقدير: أَحَسِبَ الناس أن يتركوا أحسبوا أن يقولوا.

«مَنْ» رفع بالابتداء، وخبرها (كان) وجواب الجزاء، كقوله: زيد إن كان في الدار فقد صدق الوعد، و(من) يحتمل أن يكون في محل التعريف فيكون مرفوعًا، ويحتمل أن يكون في محل النكرة فيكون منصوبًا، يقال: ساء القوم قوم فلان، وساء قومًا قوم فلان.

النزول

قيل: نزلت الآيات في عمار بن ياسر، وكان يُعَذَّبُ في الله، عن ابن جريج.

وقيل: نزلت في أناس كانوا بمكة من المسلمين كتب إليهم مَنْ بالمدينة أنه لا يقبل منكم إقرار بالإسلام حتى تهاجروا، فخرجوا عامدين المدينة فردهم المشركون، فنزلت هذه الآية، فبعثوا بها إليهم، فخرجوا، فلما أتبعهم المشركون قاتلوا، فمنهم من قُتِلَ، ومنهم من نجا، عن الشعبي.

وقيل: نزلت في مِهْجَعِ مولى عمر، وكان أول قتيل من المسلمين يوم بدر، فخرج أبواه وامرأته، فنزلت الآيات، فقال ﷺ: «سيد الشهداء مهجع»، عن مقاتل.

وقيل: نزلت في هشام بن ربيعة المخزومي ارتد عن الإسلام، ولم يحتمل أذى المشركين بمكة.

۞ المعنى

﴿الٓمٓ﴾ قيل: اسم السورة، وقيل: إشارة إلى إعجاز القرآن؛ لأنه مؤلف منها، ومع ذلك عجزتم عن الإتيان بمثلها، وقيل: إشارة إلى حدوث القرآن، وقيل: هو ابتداء أسماء الله تعالى، وقد تقدم في مواضع القول في ذلك. «**أَحَسِبَ النَّاسُ**» أي: ظنوا، يعني الذين أصابهم محن الدنيا فجزعوا، وقيل: هم الذين جزعوا من أذى المشركين، و(**أحسب**) استفهام، والمراد النهي أي: لا ينبغي أن يحسب ذلك «**أَنْ يُتْرَكُوا**» بغير اختبار «**أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ**» أي: لا يُخْتَبَرُون، يعني يعاملون معاملة المُخْتَبَرِ، وقيل: معناه ألا يمتحنوا بعد إظهار الإسلام، كلا بل يمتحنون بالشرائع؛ ليظهر الصادق من الكاذب، وقيل: يفتنون في أموالهم وأنفسهم، عن مجاهد. وقيل: يكلفون بعد الإيمان الجهاد والصلاة والزكاة وغير ذلك، وقيل: يصابون بشدائد الدنيا؛ لأن ذلك لا يندفع بقولهم: آمنا، والأولى حمله على الجميع؛ لأنه لا تنافي بينهما، وهو بعد الإيمان يكلف الشرائع، ويمتحن في النفس والمال وبشدائد الدنيا بحسب المصلحة.

ثم عزاهم تسلية بما أصاب من كان قبلهم، فقال سبحانه: «**وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**» أي: من قبل أمة محمد ـ صلى الله عليه وآله ـ «**فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ**» يعني بذلك الاختبار يعلم الصادق والكاذب، قيل: صَدَقُوا فيما قالوا آمنا، وقيل: معناه قاموا بإتمام ما قالوا وثبتوا عليه، يقال: صدق في الحرب إذا قام به تشبيهًا بالصدق.

ومتى قيل: لِمَ عظم حال هذا الحساب؟

قلنا: لأن الإهمال قبيح، فَمَنْ ظَنَّهُ كان ظنًّا قبيحًا.

ومتى قيل: ما فائدة المحنة؟

قلنا: أصل التكليف هو التعريض للثواب ثم الامتحان بعده يكون لطفًا واعتبارًا، وقد ينضم إليه العوض فيخرج عن حد الظلم والعبث.

ومتى قيل: بعد الامتحان بِمَ يعلم الصادق والكاذب؟

قلنا: لأن من تصور أحوال الآخرة صبر على شدائد الدنيا، واختار الآخرة، فظهر عند ذلك الصادق في إيمانه والكاذب.

ومتى قيل: فما معنى «**فَلَيَعْلَمَنَّ**[1] **اللَّهُ**» وهو عالم لم يزل، ولا يزال؟

قلنا: معناه ليظهر معلومه لغيره، وقيل: فليميزن الله، وقيل: فليعلمن الله موجودًا، وكان ذلك قَبْلُ معلومًا أنه سيوجد وإنما يعلمه موجودًا في الحال، وقيل: ليجازيهم بما يعلم منهم.

«**أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ**» يعني الكفر والمعاصي «**أَنْ يَسْبِقُونَا**» أي: يفوتونا فوت السابق لغيره، ويعجزونا فلا نقدر على أخذهم والانتقام منهم «**سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ**» أي: ليس حكمنا حكمهم «**مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ**» قيل: من يطمع في ثواب الله، عن سعيد بن جبير. ولما كان الثواب يرجى من جهته كان رجاء ذلك رجاء لقائه توسعًا، وقيل: من كان يخشى البعث، عن ابن عباس، ومقاتل. ولا يقال: اللقاء بمعنى الرؤية؛ لأن اللقاء في اللغة ليس من الرؤية في شيء، قال تعالى: ﴿أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٠]، ويقال: لقيت من فلان الخير والشر، وقيل: من كان يعلم ويؤمن بلقاء الله إياه، والأول الوجه «**فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ**» وقته الموعود للجزاء والبعث «**لَآتٍ**» كائن لا محالة «**وَهُوَ السَّمِيعُ**» لأقوالكم «**الْعَلِيمُ**» بما في ضمائركم «**وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ**» قيل: من لقي الجهد في طاعة الله فذلك حظه الذي ينتفع به، والمجاهدة مفاعلة فيقتضي جُهْدَانًا: جهد الشيطان في إضلاله، وجهد العدو في إهلاكه، وجهد النفس في اتباع الشهوات، وقيل: قد يستعمل المفاعلة، وإن كان من فعل واحد، وقيل: من جاهد في قتال أعداء الله فإنما يعمل لنفسه؛ لأنه إن غلب فله الظفر والغنيمة

(١) فليعلمن: وليعلمن، ن.

في الدنيا والآخرة، وإن قتل فله الجنة والشهادة «إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ» يعني غني عن خلقه وأعمالهم، فلا تمنوا عليه بطاعتكم فنفعها يعود عليكم «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ» قيل: ذنوبهم بالتوبة، وقيل: الصغائر مكفرة بثواب طاعاته إذا اجتنب الكبائر «وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ» قيل: يجزيهم بأحسن أعمالهم وهو الذي أمر الله به من العبادات دون ما نهى عنه من المعاصي ودون ما لم يَأْمُرْ ولم يَنْهَ من المباحات. وقيل: أحسن ما يعملون؛ لأن الثواب المستحق على الطاعة أنفع من العمل الصالح. وقيل: أحسن أعماله التوحيد والعدل، فيجازيه عليه وعلى سائر أعماله.

ومتى قيل: العمل الصالح يوجب الثواب، فلم قال: إنه يوجب مغفرة الذنوب؟

قلنا: التوبة من الأعمال الصالحة تكفر جميع المعاصي، والطاعات تكفر الصغائر.

۞ الأحكام

في الآية دلالة أنه لا بد من امتحان بعد الإيمان، وذلك يكون بثلاثة أشياء:

إما أن يكون لطفًا من فعله تعالى، أو لطفًا من فعل العبد فأمر به، أو يكون بلية من جهة آدمي، وفي التخلية لطف، فيخلى.

وتدل الآية على وجوب اللطف على ما نقوله.

وتدل أن الغرض بالامتحان ظهور المعلوم؛ ليقع الجزاء على فعل العبد، ولا دليل لمن قال بحدوث العلم من الرافضة في الآية؛ لأنا بينا معنى الكلام، وقد ثبت أنه تعالى عالم لم يزل على سبيل الوجوب؛ لأن العلم فعل محكم لا يتأتى إلا من عالم، فلو لم يكن عالمًا لما صار عالمًا قط، وقد ثبت أنه عالم فثبت بطلان ما ذهبوا إليه، ولا يقال: إنه لم يكن عالمًا بوجود الدنيا ثم صار عالمًا؛ لأن العلم بأن الشيء سيوجد عِلْمٌ بوجوده إذا وُجِدَ، فالعبارة تختلف، وإلا فالعلوم واحدة.

ويدل قوله: ﴿وَمَن جَٰهَدَ﴾ الآية إلى آخرها أن الإنسان ينتفع بعلمه، ويؤخذ

بعلمه، فيبطل قول المجبرة في المخلوق، وفي جزاء الأعمال، وكذلك قوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ يدل على الوجهين.

قوله تعالى:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾

۞ القراءة

قراءة العامة «حُسْناً» بضم الحاء وسكون السين، وعن أبي رجاء العطاردي بفتح الحاء والسين، وفي مصحف أُبّي: (إِحْساناً).

۞ اللغة

النبأ: الخبر العظيم الشأن، وجمعه: أنباء. والإحسان: الإنعام إلى الغير، وأصله من الحُسْنِ، يقال: حَسُنَ: يَحْسُنُ حسنًا، وأحسن إحسانًا.

۞ الإعراب

في نصب: «حُسْناً» وجهان:

أولهما: على التكرير، أي: وصيناه حسنًا أي: بالحسن، كما يقال: وصيناه خيرًا؛ يعني: بالخير.

وثانيهما: بفعل محذوف، تقديره: ووصينا أن يفعل بهما حسنًا، وقيل: تقديره: ألزمنا حسنًا.

۞ النزول

قيل: نزل قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ في سعد بن أبي وقاص آمن، فقالت أمه حمنة بنت أبي سفيان بن أمية بن عبد شمس: لا يظلني سقف، ولا آكل ولا أشرب حتى تكفر بمحمد، فأبى سعد وجاء إلى رسول الله، وسأله عن ذلك، فقال: «أَحْسِنْ إليها، ولا تطعها فيما سألت»، وفيها نزلت الآية. وروي أن سعدًا شُدَّ بسارية، ووقفت أمه في الشمس، فقال: لو كان لها سبعون نفسًا خرجت ما ارتددت، وكان يقول: أَحَدٌ أَحَدٌ.

وقيل: نزل قوله: ﴿فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ﴾ الآيات، في ناس كانوا يؤمنون بألسنتهم، فإذا أصابهم بلاء أعرضوا، عن مجاهد.

وقيل: نزلت في ناس من المنافقين يقولون: آمنا، فإذا أوذوا رجعوا إلى الشرك، عن الضحاك.

وقيل: في المؤمنين الذين أخرجهم المشركون معهم إلى بدر، فارتدوا، عن ابن عباس.

وقيل: نزلت في قوم ردهم المشركون إلى مكة، عن قتادة.

وقيل: نزلت في العَيّاش بن أبي ربيعة المخزومي آمن وهاجر قبل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة فحلفت أمه أسماء ألاّ تأكل ولا تشرب، ولا تغسل رأسها حتى يرجع إليها، فلما رآها أبو جهل والحارث ابنا هشام وما هي فيه، وهي أمهما وهما أخوان لِلْعياش لأم، ركبا في طلبه، فلقياه بالمدينة، فذكرا القصة، وأخذ عليهما المواثيق ألاّ يصرفاه عن دينه، وخرج معهما من المدينة فأخذاه وثاقًا، وجلده كل واحد مائة جلدة ليرتد فما قَبِلَ، فنزلت الآية فيه، وكان أشدهما الحارث، ونذر دمه، ثم هاجر العَيَّاش وأسلم بعد ذلك الحارث، وكان العَيَّاش غائبًا فلقيه فقتله، فقيل له: إنه مسلم، فجاء إلى رسول الله ﷺ يبكي، فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ الآية [النساء: ٩٢].

۞ المعنى

لما أمر بمجاهدة الكفار ومباينتهم بَيَّنَ حال الأبوين، فقال سبحانه: «وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ» أي: أمرناه «بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا» قيل: أن يحسن إليهما حسنًا، وقيل: وصيناه حسنًا «وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ»؛ لأنه لا شريك له، فنفى العلم كناية عن تعريه عن الأدلة، فإذا لم يكن عليه دليل لا يحصل العلم فلا يحسن اعتقاده «فَلَا تُطِعْهُمَا» في ذلك «إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ» أي: مصيركم إلى حكمي «فَأُنَبِّئُكُمْ» قيل: أخبركم، وقيل: أجازيكم «بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» من خير وشر «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ» أي: في زمرتهم وجملتهم، وقيل: في مدخل الصالحين وهو الجنة، عن ابن جريج. وقيل: (في) بمعنى (مع) أي: لندخلنهم مع الصالحين وهم الأنبياء والأولياء.

ولما ذكر تعالى المؤمن عقبه بذكر ضعفة المسلمين، وقيل: بل عقبه بذكر أهل النفاق، عن أبي مسلم، وهو أوجه، فقال سبحانه: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ [فِي اللَّهِ]» في دينه «جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ» أذيتهم، وسماها فتنة؛ لما في احتمالها من المشقة «جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ» أذيتهم وقلة الصبر على احتمالها «كَعَذَابِ اللَّهِ» في الآخرة حتى ترك الحق لأجل أذيتهم، وقيل: جعل فتنة الناس عذابًا من الله ظانًّا أن الله أخل منه الوعد بالنصر، عن أبي مسلم. وقيل: جعل ذلك الفتنة في وجوب الامتناع عن الحق لأجله كعذاب الله في أنه يجب الامتناع عن الباطل لأجله، عن أبي علي. «وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ» للمؤمنين يغلبوا الكفار «لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ» في الجهاد طمعًا في الغنيمة «أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ» من الإخلاص في الإيمان والنفاق «وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ» أي: ليظهرن معلومه في الفئتين، وقيل: يعلم المؤمن مؤمنًا في الحال لوجود الإيمان، ويعلم المنافق منافقًا في الحال لوجود النفاق، وقيل: ليميزن الله المؤمن من المنافق، فوضع العلم بموضع التمييز؛ لأنه بالعلم يميز بينهم توسعًا، عن أبي علي.

۞ الأحكام

تدل أول الآيات على وجوب بر الوالدين والإحسان إليهما فيما لا يؤدي إلى معصية، فإن أكرهاه بمعصية فلا طاعة لهما.

ويدل قوله: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ على تحريم التقليد.

ويدل قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ﴾ أن التلون في الدين مذموم، فإنه يدل على أن اعتقاده غير ثابت.

وتدل على ذم الرّياء(١) والنفاق، وأن الواجب الاستمرار في الدين، واعتقاد الحق.

وتدل على أن أفعال العباد حادثة من جهتهم من وجوه كثيرة ظاهرة لمن تأملها، فيبطل قول مخالفينا في المخلوق.

قوله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَـٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾

۞ اللغة

الثَّقَلُ: الأمتعة، وجمعه: أثقال، وأصله من الثِّقْلِ، سمي بذلك لثقله، يقال: ارتحل القوم بثَقَلِهِمْ وثَقَلَتِهِمْ أي: بأمتعتهم كلها، ومنه: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ﴾ [النحل: ٧]، ومنه الحديث: «إني تارك فيكم الثَّقَلَيْنِ: كتاب الله، وعِتْرَتِي أهل بيتي،

(١) الرّيا: الزنا، ن.

فإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»، قال ثعلب: سمي بذلك لأن الأخذ بهما والعمل بموجبهما ثقيل. وقال غيره: العرب تقول لكل شيء نفيس خطير: ثقيل، فجعلهما ثقلين تفخيمًا لشأنهما وإعظامًا لقدرهما، وكل شيء يتنافس فيه فهو ثقل، ومنه سمي الثقلان الجن والإنس؛ لما فضلا على غيرهما، كأن له وزن وثقل على غيره، وأصل الباب: الثقل، خلاف الخفة.

والافتراء: الكذب، وأصله: الفري، وهو القطع.

والطوفان: الماء الكثير الغامر؛ لأنه يطوف لكثرته في بواطن الأرض، وأصله من الطوف، قال الشاعر:

أَفْـنَـاهُـمُ طُـوفَـانُ مَـوْتٍ جَـارِفُ[1]

شبه الموت في كثرته بالطوفان.

۞ الإعراب

«وَلْنَحْمِلْ» جزم؛ لأن صورته صورة الأمر، قال الفراء: لفظه أمر ومعناه جزاء وخبر، تقديره: إن اتبعتم سبيلنا حملنا خطاياكم، كقوله: ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ [طه:٣٩]، وكقوله: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ﴾ [النمل: ١٨] لفظه نهي ومعناه جزاء وخبر، وإنما جاء بلفظ الخبر؛ لأنه تضمن إلزام النفس هذا المعنى كما يلزم الأمر.

ونصب «خَمْسِينَ» للاستثناء، والاستثناء يدخل لتوكيد العدد وكماله.

۞ النزول

قيل: إن كفار قريش قالوا للذين أسلموا مثل خباب ونحوه: إن كنتم تخافون العذاب فنحن نحمله عنكم، فنزلت الآية تكذيبًا لهم.

وقيل: كانوا يقولون: ليس لهذا العذاب أصل، فما كان فنحن نحمله عنكم، فنزلت الآية.

(١) الفراء، معاني القرآن، ج٢، ص.

۞ النظم

يقال: كيف تتصل قصة نوح بما قبلها؟ وبماذا اتصل؟

قلنا: فيه وجوه:

قيل: لما قال من قبل: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فَصَّلَ ذلك فبدأ بقصة نوح، ثم بما يليها من القصص.

وقيل: لما أمر ونهى، وأوعد على ترك الأمر أكد ذلك بقصة نوح وغيرها.

وقيل: لما جرى ذكر الكفار عقبه بهذه القصة تسلية للنبي ﷺ.

وقيل: لما ذكر حال المجاهد الصابر وحال من كان، بخلافه ذكر قصة نوح، وصبره تلك المدة الطويلة، ثم عقبه بذكر غيره من الأنبياء.

ويقال: كيف يتصل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بما قبله؟

قلنا: لما بيّن حال المنافقين عند ورود الشبه بيّن بهذه الآية أن الواجب ألاَّ يغتر المؤمن بما يرد[1] على سمعه من الشبه الفاسدة من أهل الكفر.

۞ المعنى

«**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا**» قيل: من أهل مكة، وقيل: رؤساء المنافقين، عن أبي علي. «**لِلَّذِينَ آمَنُوا**» قيل: ضَعَفَة المسلمين، وقيل: للمؤمنين الذين كانوا أتباعهم قبل الإيمان، عن أبي علي. «**اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا**» أي: ديننا «**وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ**» أوزاركم وذنوبكم نحملها عنكم فلا تؤخذون به، ويحتمل نحملها نحن فنؤخذ بها معكم. وقيل: كانوا ينكرون البعث، فالمراد: ولنحمل خطاياكم في فساد معاشكم في الدنيا. وقيل: إنما قالوا ذلك تقريرًا، يعني: إن كان عذاب فنحن نحمله عنكم، وكذبهم الله تعالى وقال: «**وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ**». وقيل: إن العذاب لعظمه وشدته لا يحمله[2] أحد عن أحد ولا يقدرون عليه، وقيل: الله هو المعذب فلا يعذب أحدًا

(١) يرد: ترد، ن.
(٢) يحمله: يحمل، ن.

بذنب غيره و«**إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**» في قولهم. «**وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ**» قيل: يحملون أوزارهم وخطاياهم في أنفسهم التي لا تعلق لها بغيرهم، ويحملون الخطايا التي ظلموا بها غيرهم، وقيل: يحملون عذاب ضلالهم وعذاب إضلالهم لغيرهم وعادوا[1] يحملون الخطايا التي ظلموا بها غيرهم، وقيل: يحملون إلى كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥]، ومثله [ما] روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من سن سنة حسنة فله أجرها ومثل أجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيئًا». وروى الحسن عن رسول الله ﷺ : «أيما داع دعا إلى هدى واتبع عليه وعمل به فله مثل أجور الذين اتبعوه لا ينقص من أجورهم شيء، وأيما داع دعا إلى ضلالة فاتبع عليها وعمل بها فعليه مثل أوزار الذين اتبعوه لا ينقص من أوزارهم شيئًا»، ثم قرأ الحسن: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾، «**وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» سؤال تبكيت وتوبيخ لا سؤال استعلام «**عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ**» يكذبون. «**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا**» وعاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثر الناس وانتشروا[2]. وقيل: دعاهم ألف سنة إلا خمسين عامًا فلما لم يؤمنوا أهلكوا «**فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ**» قيل: الماء الطاغي يعني العالي على وجه الأرض، وقيل: الطوفان: المطر الشديد «**وَهُمْ ظَالِمُونَ**» يعني: جاءهم العذاب وهم ظالمون بمعصيتهم، وقيل: ظالمون لأنفسهم «**فَأَنجَيْنَاهُ**» أي: خلصناه «**وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ**»، وهو نوح ومن آمن به «**وَجَعَلْنَاهَا**» قيل: السفينة، وقيل: تلك الفعلة من نجاتهم وهلاك قوم نوح «**آيَةً**» أي: عبرة «**لِلْعَالَمِينَ**» للخلق على توحيد الله، وصدق نبيه.

۞ الأحكام

يدل قوله: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ﴾ أن أحدًا لا يؤخذ بذنب غيره، خلاف قول الحشوية.

---

(١) وعادوا: ومعاد، ن.

(٢) وانتشروا: ونشوا؛ ن.

وتدل أن كل أحد مأخوذ بذنبه، فحذر عن الاغترار بما تلقيه شياطين الإنس والجن [من] هذه المعاصي.

وتدل على عظم حال مَنْ أَضَلَّ غيره، وأنه يلزمه زيادة عقوبة على ضلاله، فيدخل فيه أئمة البدع، وكل من أدخل في دين الله ما ليس منه من القضايا والشهادات ونحوها.

ويدل قوله: ﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ﴾ أن كل أحد مسؤول.

وتدل قصة نوح على حسن عاقبة المؤمنين وسوء عاقبة الكفار.

وتدل على أن الافتراء فعلهم، فيبطل قولهم في المخلوق.

قوله تعالى:

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾
إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا
يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن
تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟
كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾

القراءة

قرأ حمزة والكسائي: «أولم تَرَوْا» بالتاء على الخطاب، والباقون بالياء، وعن أبي بكر ابن عياش بالياء والتاء.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «النَشاءَةَ» بفتح الشين ممدودة مهموزة وهو قراءة الحسن، وقرأ الباقون ساكنة الشين مهموزة غير ممدودة، وهما لغتان كالرأفة والرآفة.

اللغة

الإفك: الكذب. والبلاغ: إلقاء المعنى إلى النفس على سبيل الإفهام.

والابتداء: ابتداء الخلق، وأصله الظهور، كأنه بالإيجاد أظهرهم، يقال: بدا يبدو، إذا ظهر، ومبدئ ومبدأ بمعنى.

والإنشاء: إيجاد من غير سبب، والنشأة الآخرة: إعادة الخلق كرة ثانية من غير سبب كما كان أول مرة، يقال: نشأ ينشأ، ونشأه وأنشأه الله تعالى.

الإعراب

نصب (إبراهيم) قيل: عطفًا على (نوح)، أي: أرسلنا إبراهيم، وقيل: نصب بمحذوف، أي: اذكر إبراهيم.

و(ما) في قوله: «إِنَّمَا تَعْبُدُونَ» قيل: (ما) الكافة، وقيل: (ما): الذي، [وليس كذلك]؛ إذ لو كان كذلك لقال[1]: أوثان لا (أوثانًا)، عن علي بن عيسى. وقيل: إنه (ما) الذي، فإن حمل على معنى الذي فـ (الأوثان) في محل الرفع وتكون (ما) مفعولاً من (إن)، وتقديره: إن الذين يعبدونه[2] أوثانٌ كما تقول: إنما أكلته[3] تَمْرٌ، وإن جعلت كلمة واحدة فيكون (أوثانًا) نصب لأنه مفعول.

المعنى

ثم بَيَّنَ قصة إبراهيم، فقال سبحانه: «وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ» وحده، واتقوا معاصيه، وقيل: اتقوا عذابه.

ومتى قيل: لِمَ حملتم على اتقاء العذاب والمعاصي دون اتقاءٍ للسيئات[4]؟ قيل: لأنه تعالى كَثَّرَهُمْ بأنواع النعم، رحيم إليه رجاء الخلق دعا إلى رحمته وفضله، صادق في وعده، ومَنْ هذا حاله تُتَّقَى مخالفته لتنال رحمته «ذَلِكُمْ» أي: ما تؤمرون به من

---

(١) لقال: يقل، ن.

(٢) يعبدونه: يعبدون، ن.

(٣) أكلته: أكلت، ن.

(٤) للسيئات: شيئاً، ن.

الدين «**خَيْرٌ لَكُمْ**» مما هو شر، وقيل: «**إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**» وجوه الأدلة والتفكر فيها «**إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا**» قيل: تقولون كذبًا بادعائكم أنها آلهة، [و] قيل: تصنعون أصنامًا بأيديكم، وسماها إفكًا لادعائهم أنها آلهة، عن مجاهد، وقتادة، وأبي علي. وقيل: تصنعون كذبًا، عن ابن عباس. وتحقيقه: تصنعون ما تقدرون عليه ثم تعبدونه، أتعبدون ما تنحتون؟! «**إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا**» يعني أن العبادة تُسْتَحَقُّ بأعلى مراتب النعم، وهي لا تقدر على شيء من النعم فلا تستحق العبادة فيه، على أنه تعالى المستحق للعبادة لأجل نعمه على عباده «**فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ**» وحده، يعني: اطلبوا النعم منه؛ لأنه القادر عليه، واعبدوه وحده؛ لأنه المستحق للعبادة «**وَاشْكُرُوا لَهُ**»؛ لأنه المنعم «**إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**» أي: إلى حكمه تصيرون يوم القيامة «**وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ**» أي: جماعات قبلكم فأهلكوا. قيل: يجوز أن يكون هذا خطابًا لقوم النبي ﷺ، وتقديره: ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه، وإن تكذبوا، ويجوز أن يكون من تمام الحكاية لكلام إبراهيم، عن أبي مسلم. «**وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ**» أي: أداء الرسالة وبذل النصيحة والدعاء إلى الدين «**الْمُبِينُ**» البين الواضح الظاهر الذي لا إشكال فيه، وهو صفة التبليغ «**أَوَلَمْ يَرَوْا**» قيل: ألم يعلموا، عن أبي علي. «**كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ**» أي: هلا فكروا في ابتداء ما خلق ثم يعيده «**إِنَّ ذَلِكَ**[1] **عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**» لا تعب عليه فيه ولا نصب، وقيل: من قدر على ذلك قدر على إرسال الرسل والإبانة بالمعجز، وقيل: من قدر عليه فهو المستحق للعبادة «**قُلْ**» يا محمد لهم؛ «**سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ**» ما ينشئ من الأشجار والنبات والإنسان وسائر الحيوانات وغيرها، فمن قدر عليها قدر على الإعادة، وقيل: كيفية إيجادها يدل على أنه القادر العالم الحي الإله، وقيل: لتنظروا إلى آثار من كان قبلكم وعاقبتهم، فيحصل العلم بالصانع القديم وقيل: أمر بالمسير ليروا آثار الذين عصوا ربهم فعوقبوا فآثارهم باقية، وديارهم خالية، وإذا رأوا ذلك خافوا العصيان وعلموا أنه لما خلقهم وأنعم عليهم كما خلق أولئك وأنعم عليهم لو خالفوا استحقوا العقاب كما استحق أولئك «**ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ**» أي: يعيدهم ثانيًا بعد إفنائهم «**إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**» فيفعل ما يشاء.

---

(١) إنّ ذلك: وذلك، ن.

۞ الأحكام

تدل الآية على قبح عبادة غير الله، وأن العبادة إنما يستحقها الله تعالى المالك للنفع والضر وأصل النعم.

ويدل قوله: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ على أشياء:

منها: أنه ليس على الناصح إلا النصيحة.

ومنها: أن على الرسول أن يؤدي وإن خاف؛ لأنه بَيَّنَ أنه واجب عليه.

ومنها: أنه يجب أن يكون البيان ظاهرًا، فيبطل قول الرافضة في التقية، والباطنية: إنه يختص بالتأويل بعضهم.

ويدل قوله: ﴿قُلْ سِيرُوا۟﴾ على وجوب النظر والتفكر، فإن[1] تفكر في النشأة الأولى يدل على قدرته على النشأة الثانية.

وتدل أن العبادة والشكر والتكذيب فِعْلُ العبد، حادثةٌ من جهته، فيبطل قول المجبرة في المخلوق.

قوله تعالى:

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

---

(١) فإن: فإذا، ن.

۞ القراءة

اختلف القراء في قوله: ﴿مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ﴾ على أربع قراءات:

أولها: قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب: «مَوَدَّةُ» رفع غير منونة «بَيْنِكُمْ» خفض بالإضافة، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم على معنى: إن الذين اتخذتم من دون الله أوثانًا هي مودة بينكم في الدنيا، ثم يوم القيامة تنقطع المودة ولا تنفع، كقوله: ﴿سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌ﴾ [الأحقاف: ٣٥] أي: هو بلاغ، وكقوله: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ۝٦٩ مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠] أي: هو متاع، كذلك هاهنا هي مضمرة.

وثانيها: قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر وعاصم في بعض الروايات عن أبي بكر عنه: «مَوَدَّةً» منصوبة منونة «بينكم» بالنصب على معنى: اتخذتم بينكم مودة.

وثالثها: قرأ حمزة وحفص: «مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ» للإضافة.

ورابعها: قرأ عاصم في بعض الروايات عن أبي بكر عنه: «مَوَدَّةٌ» مرفوعة منونة، «بَيْنَكُم» نصبًا، وهو معنى القراءة الأولى.

۞ اللغة

القلب: الرد والرجوع إلى حالة أخرى، فيقلبون: يردون إلى حال الحياة في الآخرة بحيث لا يملك النفع والضر إلا الله تعالى، والقلب: نفي الحال بحال تخالفها وأصله من القلب.

والولي: الذي يتولى المعونة لغيره بنفسه.

والنصير[١]: الذي ينصره لنفسه ولغيره.

واليأس: انقطاع الطمع [وهو] ضد الرجاء.

واللعن: الطرد والإبعاد من الرحمة.

(١) والنصير: والنصر، ن.

الإعراب

في قوله: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ قولان:

قيل: تقديره: ما أنتم بمعجزين، ولا مَنْ في السماء بمعجز، وهو من غامض العربية للضمير الذي في الثاني، ونظيره قول حسان:

فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللهِ مِنْكُمْ ... وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُه سَوَاءُ(1)

أي: ومن يمدحه، فأضمر من، عن الفراء، وابن زيد.

وقيل: لا يعجزوننا هربا في الأرض ولا في السماء.

﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾ رفع؛ لأنه اسم (كان)، تقديره: فما كان جوابَ قومه إلا قولهم.

المعنى

ثم ذكر الوعد والوعيد وبقية قصة إبراهيم، فقال سبحانه: «**يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ**» أي: يملك ذلك، والمراد به: المالك للثواب والعقاب، وإن كان لا يشاء إلا الحكمة والعدل، وما يَحْسُنُ من إثابة المستحق، وقيل: يعجل العذاب لمن يشاء من الكفار ويكفه عمن يشاء «**وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ**» أي: تردون إلى حكمه «**وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ**» قيل: لا تعجزوننا وإن هربتم في الأرض والسماء؛ لأنه عالم بمكانه قادر على أخذه، وقيل: لا يعجزنا أهل الأرض ولا أهل السماء «**وَمَا لَكُمْ مِن دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ**» أي: ليس سوى الله أحد يتولى نصرهم ونجاتهم من العذاب «**وَلاَ نَصِيرٍ**» ينصرهم «**وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ**» قيل: بالقرآن، وقيل: بسائر الحجج «**وَلِقَائِهِ**» قيل: لقاء جزائه ويوم البعث «**أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي**» لما علموا يقينًا أنه لا يرحمهم لم يطيعوا الله «**وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**» موجع، قيل: من قوله: ﴿قُلۡ سِيرُواْ﴾ إلى هاهنا اعتراض من كلام الله تعالى بين الحكاية عن إبراهيم [والإخبار] قال لقومه على نسق واحد «**فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ**

(1) انظر ديوان حسان بن ثابت، تحقيق وليد عرفات، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٦.

حَرِّقُوهُ» لما أعجزتهم الحجة عدلوا إلى الوعيد بالقتل والحريق، وهكذا حال الجهال والمبتدعة إذا أعيتهم الحجة عدلوا إلى السفاهة والوعيد «**فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ**» أي: خلصه من الحرق، قيل: خفف حرارتها وجعل مكانها بردًا؛ لأنها أعراض تتبادل، والحرارة والبرودة عرضان يتضادان لا يقدر عليهما غير الله تعالى، وقيل: بل جعل اعتماد النار إلى جانب آخر، وقيل: فصل بينه وبينها بمانع، وعلى كل الوجوه منع منه أَذِيَّةَ النار «**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**» أي: في نجاته من النار وهو في وسطها حجة على نبوته، وخص المؤمنين؛ لأنهم ينتفعون بها ويتفكرون فيها دون غيرهم، «**وَقَالَ**» إبراهيم لقومه «**إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ**» يعني: الذي اتخذتم من هذه الأوثان وعبدتموه مودة بينكم، تتحابون على عبادتها، وتتواصلون في الدنيا لها، ثم تنقطع تلك الوصلات. وقيل: تبتغون بعبادتها تقربًا إلى الرؤساء والملوك، وينقطع ذلك يوم القيامة، عن أبي مسلم. وقيل: إنكم لم تعبدوها لحجة، وإنما عبدتموها اتباعًا لأسلافكم ورؤسائكم؛ لتدوم بينكم المودة في الدنيا، عن أبي علي. «**ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ**» قيل: يتبرأ المعبودون من عبادتها والعابدون من معبودها، ويتبرأ الأتباع من المتبوعين والمتبوعون من الأتباع وصار بعضهم أعداء لبعض «**وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا**» أي: يدعو بعضكم على بعض باللعن «**وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ**» أي: مصيركم، يعني المتبوع والأتباع والعابد والمعبود «**وَمَا لَكُم مِن نَاصِرِينَ**» ينصرونكم لتنجوا من العذاب.

۞ الأحكام

تدل الآيات على معجزة لإبراهيم عليه السلام.

وتدل على أن المودات والوصلات في معصية الله تصير عداوة يوم القيامة، ويلعن بعضهم بعضًا، حَثًّا على الموالاة في الدين وزجرًا عن موالاة العصاة.

وتدل على أن المستحق للعذاب لا ناصر له.

وتدل على أن اتخاذ الأوثان فعلهم؛ فيصح قولنا في المخلوق.

قوله تعالى:

﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾

۞ القراءة

اختلف القراء في قوله: ﴿إِنَّكُمۡ[1] لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ وقوله: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ على ثلاث قراءات:

أولها: قرأ أبو جعفر ونافع وابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم ويعقوب الأول بكسر ألف (إِنَّكُمْ) غير مستفهم ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ مستفهم، ثم اختلفوا هؤلاء في الاستفهام، والأول على الخبر والثاني على الاستفهام، فأبو جعفر وقالون عن نافع وزيد عن يعقوب بهمزة واحدة ممدودة، وابن كثير ونافع ويعقوب بهمزة غير ممدودة، وابن عامر وحفص بهمزتين، فالأول للتخفيف والثاني على الأصل.

(١) أئنكم؛ ن، قراءة أبي عمرو وعاصم وهمزة والكسائي.

وثانيها: قرأ أبو عمرو بالاستفهام فيهما جميعًا بهمزة واحدة ممدودة.

وثالثها: قرأ عاصم وحمزة والكسائي بالاستفهام فيهما بهمزتين.

قرأ حمزة والكسائي ويعقوب: «لَنُنْجِيَنَّهُ» خفيفة من «أنجَى يُنْجِي»، وقرأ الباقون مشددة من «نَجَّى يُنَجِّي»، وهما بمعنى.

❁ اللغة

الهجر: ضد الوصل، وهاجر القوم من دار إلى دار أي تركوا الأولى للثانية، قال الأزهري: أصل المهاجرة خروج البدوي من البادية إلى المدن، وتَهَجَّرَ: تَشَبَّهَ[١] بالمهاجرة، وفي حديث عمر: (هاجروا ولا تَهَجَّرُوا)، أي: أخلصوا الهجرة لله، ولا تشبهوا بالمهاجرين على غير صحة. والْهَجْر: الهذيان بفتح الهاء، والْهُجر بضم الهاء: الإفحاش [في المنطق الذي] لا يجب أن يُهجَر.

والصلاح: ضد الفساد، والمصلح: القيوم لنفسه بصلاح أفعاله، وهو صفة مدح، والصالح: فاعل الصلاح.

والفاحش: الشنيع في القبح، فَحُشَ يَفْحُشُ فُحْشًا، وتَفَاحَشَ تَفَاحُشًا.

والنادي: المجلس، وكذلك النَّدِيُّ إذا اجتمعوا فيه، فإذا تفرقوا فليس بِنَدِيٍّ، ومنه: ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣]. وتنادى القوم: اجتمعوا في النادي. والندوة: الاجتماع للمشورة، ومنه[٢]: دار الندوة، وهي دار قصي بن كلاب بمكة؛ لأنهم كانوا يجتمعون فيها للمشورة تبرّكًا به، وأصل الباب: النداء، سمي بذلك؛ لأن بعضهم ينادي بعضًا.

والقرية: البلدة التي يجتمع فيها الناس من جهات، وهي من قَرَيْتُ الماء في الحوض أَقْرِيهِ[٣] قَرْيًا: إذا جمعته، ومنه: قِرَى الضيف؛ لأنك جمعته إليك لما تعده من الطعام.

---

(١) تشبه: شبيه، ن.

(٢) ومنه: منه، ن، ولسان العرب ١٥/٣١٣.

(٣) أقريه: أقريته، ن.

الإعراب

﴿وَلُوطًا﴾ نصب، قيل: عطفًا على ما تقدم، أي: وأرسلنا لوطًا، عن أبي مسلم. وقيل: لمحذوف، أي: اذكر لوطًا.

﴿مُهْلِكُوٓا۟﴾ أراد: مهلكون.

المعنى

ثم عطف تعالى قصة لوط على ما تقدم من القصص، فقال سبحانه: «**فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ**» أي: صَدَّقَهُ، وهو أول من صدق إبراهيم «**وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ**» قيل: لوط قال ذلك، عن أبي علي، وأبي مسلم. وهو نسق الكلام، ولأنه لما آمن وحده والقوم كفار لم يمكنه المقام وقال: إني مهاجر، وهو نسق الكلام. وقيل: قال إبراهيم: إني مهاجر، ومعنى مهاجر خارج عن جملة الظلمة على جهة الهجرة لقبيح أفعالهم إلى حيث أمرني ربي، [وقد] هاجر المسلمون إلى الحبشة أوَّلاً، ثم إلى المدينة ثانيًا من أذى المشركين، ومن جمع بينهما كانوا يسمونه: ذا الهجرتين. وقيل: خرج إبراهيم ومعه لوط وامرأته سارة من كُوثَى قرية من سواد الكوفة إلى الشام، عن قتادة. وقيل: هاجر إبراهيم وهو ابن خمس وسبعين سنة، عن مقاتل. «**إِلَىٰ رَبِّي**» قيل: إلى حيث أمرني ربي، وقيل: إلى الموضع الذي أكون فيه مطيعًا لله مهاجرًا للكفار، عن أبي مسلم. «**إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ**» القادر الذي لا يمتنع عليه شيء «**الْحَكِيمُ**» الذي لا تضيع الطاعة عنده. وقيل: العالم الذي يحكم أفعاله، وقيل: القادر يحفظني أينما كنت، الحكيم يجازي كُلاً بما يستحقه، عن أبي مسلم. «**وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ**» أي: أعطيناه إسحاق ابنه من سارة، ويعقوب بن إسحاق، وإنما لم يذكر إسماعيل وهو أكبر ولده؛ لأنه دخل في قوله: «**وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ**» فكفى التنبيه لعظم شأنه وشهرته «**وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ**» أولاده، وجاز إضافة الأعقاب إليه؛ لأنه الأب[1] الأكبر.

---

(١) الأب: أب، ن.

«النُّبُوَّةَ» فلم يكن بعده نبي إلا من ذريته «وَالْكِتَابَ» أراد جنس الكتب كالتوراة والإنجيل والزبور والفرقان «وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا» الثناء الحسن والولد الصالح، عن ابن عباس. وقيل: هو ما أوجب من تعظيمه ومدحه وإبقاء الذكر الجميل، عن أبي علي. وقيل: هو الأمن والسلامة في الموضع الذي ذهب إليه والنعم السابغة عليه «وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ» أي: معهم وفي جملتهم وهم الأنبياء «وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ[1] الْفَاحِشَةَ» قيل: القبيح الشنيع «مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ» من الخلق، يعني: أنتم أخذتم هذه الفاحشة. ثم فسر الفاحشة فقال: «أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ» في أدبارهم «وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ» قيل: كانوا يقطعون الطريق لأخذ أموال الناس، وقيل: للعمل الخبيث؛ لأنهم كانوا يطلبون الغرباء. وقيل: يقطعون سبيل الولد بإتيان الذكران «وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ» مجالسكم «الْمُنكَرَ» قيل: هو الضراط في مجالسهم من غير حشمة ولا حياء، عن ابن عباس، والقاسم بن محمد. وقيل: كانوا يَخْذِفُون من مر بهم يسخرون منهم، عن السدي، وروي مرفوعًا. وقيل: كانوا يأتون الرجال في مجالسهم يرى بعضهم بعضًا، عن مجاهد. وقيل: كانوا يجلسون في مجالسهم وعند كل رجل منهم قصعة فيها حَصًى، وإذا مر بهم عابر سبيل خذفوه، فأيهم أصابه كان أولى به، وروي مرفوعًا. وقيل: كانت مجالسهم تشتمل على أنواع القبائح كالشتم والصَّفْع والسُّخْف والقمار وضرب المِخْرَاق وخذف الأحجار من مر بهم، وضرب المعازف والمزامير، وكشف العورات واللواط، فلما نهاهم لوط وهددهم أجابوه بجواب الجهال، فقال تعالى: «فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ» الذي توعدنا به، وإنما استعجلوا ذلك تكذيبًا له «إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» أن العذاب نازل بنا، وقيل: إن كنت من الصادقين في نبوتك، فعند ذلك دعا عليهم فـ «قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ» فأجاب الله دعاءه؛ لأنه كان بإذن منه، فقال سبحانه: «وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى» لما بعث الملائكة لإهلاك قوم لوط

(١) إنكم لتأتون: أتأتون، ن.

دخلوا على إبراهيم أولاً فبشروه بإسحاق ويعقوب، و«**قَالُوا**» لإبراهيم: «**إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ**» يعني: قوم لوط «**إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ**»، «**قَالَ**» إبراهيم: «**إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا**» لننجينه، قيل: أراد إبراهيم: كيف يهلك أهل القرية وفيهم لوط؟ لكونه فيهم، فقالت الملائكة: «**نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ**» يعني: نخلص لوطًا بإخراجه منها «**وَأَهْلَهُ**» المؤمنين «**إِلاَّ امْرَأَتَهُ**» كانت كافرة تخبر قومها بمن ينزل على لوط «**كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ**» الباقين في العذاب.

۞ الأحكام

الآية تدل على أن الهجرة كانت في شريعتهم كما هي في شريعتنا إذا خاف في المقام الفتنة.

ويدل قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا﴾ على أن بعض الثواب يجوز أن يعجل في الدنيا، فأما جميعه فلا.

ويدل قوله: ﴿فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ أنه في المجالس أشنع وأقبح.

ويدل قوله: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِي﴾ على أن الواجب عند تضايق الأمور الانقطاع إلى الله تعالى.

ويدل قوله: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ أن القرابة لا تغني من عذاب الله.

وتدل على جواز نَبِيٍّ امرأتُهُ كافرة.

وتدل على انعقاد النكاح بين المؤمن والكافرة.

وتدل على أن تلك الفواحش كانت فعلهم حادثة من جهتهم، فيبطل قول المجبرة في المخلوق.

ويدل قوله: ﴿ظَٰلِمِينَ﴾ أن الظلم فعلهم، وأن الظالم اسم ذم، وأنه اسم لفاعل الظلم.

قوله تعالى:

﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾

القراءة

قرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم وحمزة والكسائي: «**إنا مُنجُوكَ وأهلك**» خفيفة من «أنجاه ينجيه»، الباقون مشددة من «نجّى يُنجّي».

قرأ ابن عامر: «**مُنَزِّلون**» مشددة من «نزّل ينزّل تنزيلاً» فهو مُنَزّل، الباقون مخففة من «أنزل يُنْزِل إنزالاً» فهو مُنْزِل.

اللغة

سَاءَهُ يَسُوؤُهُ: إذا أحزنه، ومنه: ﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الملك: ٢٧] يعني ساءهم ذلك حين تبين السوء في وجوههم.

والضيق: ضد السعة، ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي: ضاقت حيلته ومذهبه، والمعنى: ضاق ذرعه، فلمّا[1] حول الفعل خرج قوله: ﴿ذَرْعًا﴾ مفسرًا، وأصله من ذرع الناقة،

(١) في ن: لما. وما أثبتناه من: لسان العرب: ٨/ ٩٣، تهذيب اللغة: ١/ ٢٦٢، تاج العروس: ١/ ٢١٧.

وهو خطوها ومد أذرعها قوائمها. وضيق الذَّرْع وضيق الصدر: كلام يوضع موضع الحزن والغم.

والغابر: الباقي، يقال: غَبَرَ: بقي، وغَبَرَ: مضى، وهو من الأضداد، وبالناقة غُبْرُ لبن، أي: بقية.

والعَيْثُ: الفساد، وعاث يَعِيثُ عَيْثًا: إذا فسد، وعِثْتُ أَعْثِي لغة الحجاز.

والرَّجْفُ: الاضطراب، رَجَفَتْ الأرض رَجْفًا ورَجْفَةً، والبحر رَجَّاف لاضطرابه، أرجف الناس بالشيء: إذا خاضوا فيه واضطربوا، ومنه الأراجيف.

والجُثُومُ: السقوط مأخوذ من جثوم الطير في أوكارها لا تطير منها، عن أبي مسلم. وقيل: الجاثم اللاصق[1] بالأرض، وقيل: الجاثم: البارك على ركبتيه إذا كان وجهه إلى الأرض، عن أبي علي.

۞ الإعراب

(ما) في قوله: ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ (ما) المصدر، بمعنى بِفِسْقِهِمْ.

و«منها» كناية عن القرية.

و«آية» نصبت بـ «تركنا».

و«أخاهم» نصب قيل: عطفًا على ما تقدم، أي: أرسلنا إلى مدين أخاهم.

و(عادًا)، و(ثمود) قيل: نصب بمحذوف، أي: اذكر عادًا، وقيل: يجوز أن يكون معطوفًا على ما تقدم في قوله: ﴿فَانظُرُوا[2] كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ وانظروا عادًا وثمود، عن أبي مسلم. وقيل: نصب على تقدير: وأهلكنا عادًا وثمود، والعرب تعطف الاسم على الاسم بإضمار فِعْلٍ، قال الشاعر:

إِذَا مَا الْغَانِيَاتُ بَرَزْنَ يَوْمًا وَزَجَّجْنَ الْحَوَاجِبَ وَالْعُيُونَا

(١) اللاصق: اللاطي، ن.

(٢) فانظروا: فانظر، ن.

أي: [وكَحَّلْنَ] العيون، وقال آخر:

وَرَأَيْـــتُ زَوْجَـــكِ فـــي الْـــوَغَـــى   مُـــتَـــقَـــلِّـــدًا سَـــيْـــفًـــا وَرُمْـــحًـــا[١]

أي: وآخِذًا[٢] رمحًا.

و(استكبروا) قيل: الكناية ترجع إلى فرعون وقارون، ويجوز أن ترجع إلى جميع مَنْ تقدم، عن أبي مسلم.

«[كَانَتْ مِنَ] الْغَابِرِينَ» ماضٍ أراد به المستقبل.

و(أن) في قوله: ﴿أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا﴾ صلة.

﴿سِيٓءَ﴾ أصله: من السوء قلبت الواو لانكسار[٣] ما قبلها فتحرك.

«وَأَهْلَكَ» نصب (أهلك) بتقدير: ومنجو أهلك، وإنما أضمر ذلك؛ لأنه لا يعطف ظاهر مجرور على مضمر مجرور.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى تمام قصة لوط، وعطف عليه قصة جماعة من الأنبياء عبرة للمتأمل، فقال سبحانه: «وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا» يعني: جاءت الملائكة لوطًا، فظن أنهم من الإنس؛ لأنهم جاؤوه على صورة الإنس «سِيءَ بِهِمْ» قيل: سيء بالملائكة أي: ساءه مجيئهم لما رآهم في أحسن صورة؛ لما يعلم من خبث قومه وأفعالهم، عن قتادة. وقيل: سيء بقومه؛ أي: ساءه ما يعلم من عظم البلاء النازل بهم «وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا» أي: ضاقت حيلته فيما[٤] أراد من حفظهم وصيانتهم، عن أبي علي. وقيل: ضاق قلبه وناله الغم، عن أبي مسلم. فلما رأت الملائكة حزنه وضيق صدره قالوا: «لَا تَخَفْ» علينا وعليك «وَلَا تَحْزَنْ» بما نفعله بقومك، فإنا أُرْسِلْنَا

---

(١) البيت للراعي النميري، ديوان الراعي النميري، ص ٢٦٩؛ لسان العرب، تاج العروس؛ (زجج). والبيت ورد في تفسير الطبري، القرطبي وورد برواية أخرى كذلك «بعلك» بدل «زوجك».

(٢) وآخذا: وأخذ، ن.

(٣) لانكسار: بالانكسار، ن.

(٤) فيما: فما، ن.

لنجاتك وهلاكهم «**إِنَّا مُنَجُّوكَ**» أي: مخلِّصوك «**وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ**» الباقين في العذاب. «**إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ**» وهي الحجارة التي أمطرت عليها «**بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ**» أي: بفسقهم وخروجهم عن أمر الله تعالى «**وَلَقَد تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً**» أي: حجة وعلامة، قيل: يستدل بها العاقل على شدة البطش وقدرته سبحانه على ما يشاء، عن أبي مسلم. وقيل: تدل على وجوب الاحتراز عن مثل أفعالهم. وقيل: على توحيده. «**بَيِّنَةً**» ظاهرة، قيل: هو الخبر عما نزل بهم، وقيل: هي آثار منازلهم الخربة، عن ابن عباس. وقيل: هي الحجارة التي ألقاها الله تعالى، عن قتادة، وأبي العالية. وقيل: هي الماء الأسود على وجه الأرض، عن مجاهد. «**لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**» أي: يستعملون عقولهم ويتفكرون، وقيل: للعقلاء؛ لأنهم المكلفون. «**وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا**» أي: وأرسلنا إلى مدين «**أَخَاهُمْ**» في النسب «**شُعَيْبًا**» قيل: مدين قومه، والمراد أرسلنا في أهل مدين، وقيل: مدين اسم، وهو مدين بن إبراهيم، والمراد أولاد مدين، فذكر مدين توسعًا، عن أبي علي. «**فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ**» قيل: بالدعاء إلى التوحيد وإخلاص العبادة على عادة الأنبياء «**وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ**» قيل: ارجوا اليوم الآخر وثواب الله تعالى، عن أبي علي. وقيل: انتظروا اليوم الآخر وآمنوا به، عن أبي مسلم. وقيل: اخشوا اليوم الآخر وما فيه من العذاب «**وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ**» أي: لا تسعوا في الأرض بالفساد من التطفيف وغيره، وقيل: من الشرك والكفر وسائر المعاصي، فلما أصروا ولم يتعظوا قال الله تعالى: «**فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ**» الزلزلة وعقاب يوم الظُّلَّةِ، ومدين مسكونة، فدل أن بعض ديار المعذبين قد تُسْكَنُ «**فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ**» قيل: كُبُّوا على وجوههم هالكين، وقيل: جاثمين على ركبهم في بيوتهم لا طريق لهم إلى النجاة، وقيل: ساقطين بعضهم على بعض، عن قتادة. «**وَعَادًا**» هم قوم هود «**وَثَمُودَ**» وهم قوم صالح «**وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِن مَّسَاكِنِهِمْ**» يعني: ظهر لكم من آثارهم وبقايا ديارهم وصنع الله بهم في إهلاكهم «**وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ**» أي: زين ما هم فيه من الضلال حتى اعتقدوا أنهم في الحق وأنه باطل «**فَصَدَّهُمْ**» أي: صرفهم «**عَنِ السَّبِيلِ**» أي: طريق

الجزاء[1] «وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ» في ضلالهم لعجبهم بها وإِلْفِهِمْ لها، عن قتادة، ومجاهد. وقيل: كانوا عقلاء ذوي بصائر يمكنهم التمييز بين الحق والباطل، عن الفراء، وأبي علي. وقيل: كانوا أتتهم البصائر من عند الله والأدلة الظاهرة التي لا تشكل على مَنْ له أدنى تأمل، ولم يتركهم في عمى، عن أبي مسلم. وقيل: حسبوا أنهم على الهدى وهم على الباطل، عن الضحاك، ومقاتل، والكلبي. وقيل: كانوا مستبصرين أن عاقبتهم الهلاك. «وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ» بالحجج الظاهرة «فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ» عن قبول الحق «وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ» فائتين من عذابنا كما يفوت السابق.

❁ الأحكام

يدل قوله: ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ أن العذاب جزاء كفرهم.

ويدل أن ذلك الفسق فعلهم؛ لذلك أضافه إليهم وعاقبهم عليه، وكذلك قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ وكذلك قوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ﴾ وكل ذلك يبطل قول المجبرة.

ويدل قوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أن التزيين من الشيطان والصد، وعندهم ذلك من الله تعالى، قال أبو علي: وهو تَوَسُّعٌ؛ لأن صدودهم فعلهم عند تزيين الشيطان، إلا أنه لما كان عند تزيينه أضافه إليه.

---

(١) هكذا في ن. وفي تفسير ابن كثير ٣/ ٤٧٩: أي عن طريق الحق. وفي فتح القدير ٤/ ٢٨٨: أي الطريق الواضح الموصول إلى الحق. وفي تفسير البغوي ١/ ٢٤٢: عن سبيل الحق. وفي تفسير البيضاوي ١/ ٢٦٤: عن سبيل الحق والصواب.

قوله تعالى:

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾

القراءة

قرأ أبو عمرو ويعقوب وعاصم في بعض الروايات عنه: «**ما يدعون**» بالياء إخبارًا عن الأمم الماضية، الباقون بالتاء على الخطاب، واختار أبو عبيد الياء؛ لذكر الأمم قبلها، واختار بعضهم التاء؛ لأنه لو كان للأمم لقال: ما كانوا يدعون، والصحيح أنهما قراءتان مشهورتان مرويتان عن رسول الله ﷺ، وما قاله أبو عبيد لا يلزم؛ لأن المتصرف في الكلام يحكي ثم يخاطب، وما قاله غيره لا يلزم؛ لأنه لو اختلط ذكر الحاضرين بالماضين جرى على التغليب.

اللغة

الحاصب: الريح العاصف التي فيها الحصباء وهي الحصى الصغار، والعرب تشبه بالبرد، قال الفرزدق:

مُسْتَقْبِلِينَ شَمَالَ الشَّامِ تَضْرِبُنَا ... بِحَاصِبٍ كَنَدِيفِ القُطْنِ مَنْثُورِ(١)

---

(١) البيت قائله الفرزدق يمدح يزيد بن عبد الملك وتكملته:

على عمائمنا تلقى وأرحلنا ... على زواحف نزجيها محا سير

انظر: اللسان وتاج العروس، مادة (زحف).

وقيل: هو ريح تقلع الحصى لقوتها.

والصيحة: أصلها الصوت، صاح يصيح، والصيحة توضع موضع الهلاك[1]؛ لأن جبريل صاح بقوم ثمود صيحة أهلكتهم، وصاح فلان في مال فلان أهلكه، ومنه قول امرئ القيس:

فَدَعْ عَنْكَ نَهْبًا صِيحَ في حَجَراتِهِ ... وَلَكِنْ حَديثًا مَا حَدِيثُ الرَواحِلِ[2]

وصِيحَ بفلان[3]: فزع.

والخسف: سَوْخُ الأرض بما عليها، يقال: خسف الله به الأرض، وخسوف[4] القمر: ذهاب نوره، وقيل: الخسوف للقمر والكسوف للشمس، وقال بعضهم: إذا ذهب بعضها فهو الكسوف، وإذا ذهب كلها فهو الخسوف.

والمِثْلُ: الشبه، والجمع: الأمثال، والمَثَلُ[5]: قول سائر يشبه به حال الثاني بحال الأول.

والاتخاذ: افتعال من الأخذ.

والمولى: المتولي للنصرة عند الحاجة، والجمع: الأولياء، وولي أمر المرأة: مَنْ يتولى تزويجها، وولي الطفل: من يتولى أمره.

والعنكبوت: معروفة، وهي دويبة تنسج بيتها، وتجمع: عناكب، وتضعف عناكيب، ووزنه فعالل.

والوهن: الضعف، وَهَنَ يَهِنُ وهنًا: ضَعُفَ، وأوهنته[6] وَوَهَنْتُهُ أنا، ومنه الواهِنَةُ: أسفل الأضلاع وقُصَيْرَاها.

---

(١) الهلاك: للهلاك، ن.
(٢) اللسان وتاج العروس؛ (صيح).
(٣) بفلان: فلان، ن.
(٤) وخسوف: وخسف، ن.
(٥) والمثل: والمثال، ن.
(٦) وأوهنته: وأوهنت؛ ن.

العنكبوت مؤنثة لذلك قال: ﴿ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ﴾ مؤنث للتاء التي فيها، وقد يُذَكِّرُها بعض العرب، قال الشاعر ـ أنشده الفراء ـ:

كَـأَنَّ الْـعَـنْـكَـبُـوتَ هُـوَ ابْـتَـنَـاهَـا[1]

قال علي بن عيسى: العنكبوت يُذَكَّرُ ويؤنث.

الإعراب

(كُلًّا) نصب بـ ﴿أَخَذۡنَا﴾ تقديره: أخذنا كلاً منهم.

المعنى

لما تقدم ذكر هؤلاء الكفار بَيَّنَ تعالى كيف[2] أهلكهم، وأنهم أُتوا في هلاكهم من جهة أنفسهم، فقال سبحانه: «فَكُلًّا» أي: كلا ممن تقدم ذكرهم «أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ» أي: عاقبناه بذنبه «فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا» قيل: حَجَرًا، وقيل: ريحًا بالحصباء، واختلفوا من هم؟ فقيل: هم قوم لوط، عن ابن عباس، وقتادة. وقيل: هم عاد، وقيل: معناه أي أرسلنا عذابًا حاصبًا وهو الذي نرميهم به، والحَصْبُ: الرمي، عن أبي مسلم. «وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ» هم قوم ثمود وقوم شعيب، عن ابن عباس، وقتادة. والصيحة: العذاب، وقيل: صاح بهم جبريل فهلكوا «وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ» وهو قارون «وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا» قوم نوح وفرعون وقومه «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ» أي: لم يعذبهم بغير ذنب، وقيل: إزاحة للعلة «وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» بكفرهم ومعاصيهم «مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ» يعني: شَبَّهَ مَنْ اتخذ الأصنام آلهة يرجون نصرها ونفعها وضرها والرجوع إليها عند الحاجة [كبيت العنكبوت]، فكما أن بيت العنكبوت لا تدفع حَرًّا ولا بردًا ولا ضرًّا، ولا تجدي نفعًا، كذلك الأوثان لا تملك لهؤلاء العباد نفعًا ولا ضرًّا و[لا] خيرًا و[لا] شرًّا «وَإِنَّ أَوْهَنَ

---

(١) وتمام البيت:

على هطلهم منهم بيوت ... كأن العنكبوت هو ابتناها

انظر: لسان العرب (عنكب).

(٢) كيف: أنه كيف، ن.

«الْبُيُوتِ» أضعفها «لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» ذلك ولم يجهلوه، وقيل: (لو) يتصل بقوله: «اتَّخَذُوا» يعني لو علموا أن اتخاذهم الأوثان آلهة كاتخاذ العنكبوت بيتًا، وليس معناه لو علموا أن أوهن البيوت بيت العنكبوت «إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ» هذا وعيد منه تعالى؛ يعني: جعلهم ما يعبد هؤلاء الكفار ويتخذونه أربابًا من دونه تعالى و(ما) كناية عن الأوثان المعبودين؛ لأنها لا تعقل، أي: لا يخفى عليه شيء من أعمالهم، وهو القادر على أخذهم والانتقام منهم. وقيل: معناه أن الله عليم حكيم لا يفعل إلا الحكمة، فأمهلهم لوجه من الحكمة علمه وخفي على غيره «وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ» في القرآن «نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ» أي: الأشباه والأوصاف بيّنها لهم؛ ليعرف قبح ما هم فيه من عبادة غير الله «وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ» قيل: إلا العالمون بالتوحيد، وقيل: إلا من يعلم وجه الشبه بين المثل والممثل به، وقيل: إلا من تفكر واستدل بعلم، وعن جابر أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية فقال: «العاقل من[1] [عقل عن] الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه[2]».

ثم بيّن ما يدل على أنه المستحق للعبادة، فقال سبحانه: «خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ» لغرض صحيح «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً» حجة «لِلْمُؤْمِنِينَ» وخصهم بذلك؛ لأنهم ينتفعون بها «اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ» أي: ما أوحي إليك من القرآن، قيل: أراد أن يتلو لنفسه ويعمل به، ويبلغه إلى غيره ليؤمن به ويعمل بموجبه «وَأَقِمِ الصَّلَاةَ» قيل: أراد به الدعاء إلى ما شرع من الدين، والصلاة في أصل اللغة: الدعاء، قال الشاعر:

وَصَلَّى عَلَى دَنِّهَا وَارْتَسَمْ[3]

---

(١) من: عن، ن.

(٢) ما بين المعكوفين بياض في الأصل وما أثبتناه من: تفسير القرطبي ١٣/ ٣٠٧، وتفسير البغوي ١/ ٢٤٣، وتفسير البيضاوي ١/ ٣١٧، وتفسير النسفي ٣/ ٢٦٠، وتفسير الثعالبي ٣/ ١٩٠، الكشاف ١/ ٩٥٣ وقد ورد بلفظ: «العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه».

(٣) البيت للأعشى وتكملته:

وقابلها الريح في دنّها ... وصلى على دنها وأرتسم

انظر: اللسان (رسم).

فكأنه أمره بتلاوة الكتاب وإقامة الدعاء به إلى ما شرع من الدين، عن أبي مسلم. وقيل: أراد به القراءة، ودليله قوله: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ [الإسراء: ١١٠] أي: بقراءتك، وقيل: هي الصلاة المعروفة المشتملة على الركوع والسجود، وعليه أكثر المفسرين، وهو الصحيح؛ لأن اللفظ إذا كان له معنى في اللغة ومعنى في الشرع إذا ورد عن الله ورسوله حمل على معنى الشرع، وقيل: فيه تقديم وتأخير تقديره: أقم الصلاة واتل ما أوحي إليك؛ فإنها «تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاء وَالمُنكَر»، قيل: الدعاء إلى الحق ينهى عن الفحشاء، والمنكر المعاصي الذي ينكره العقل أو الشرع، قال ابن عباس وابن مسعود: الصلاة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، قال ابن مسعود: الصلاة لا تنفع إلا من أطاعه، ثم اختلفوا في تأويلها، فقيل: لأنها[1] بمنزلة الناهي بالقول؛ لأن فيها التكبير والتسبيح والقراءة والوقوف لله تعالى، وكل ذلك يدعو إلى ترك الفحشاء، فهي[2] كالداعي إلى تركه، ونظيره: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، وقال الشاعر:

امْتَلأَ الْحَوْضُ وَقَالَ قَطْنِي[3]

وقيل: الصلاة تنهى عن الفحشاء ما دام فيها، وقيل: القرآن الذي يَقْرَأ فيها ينهاه عن الفحشاء، وقيل: الصلاة لطفه في ترك الفحشاء والمنكر، تقرب العبد، فإن انتهى فهو لطف وتوفيق، وإلا فهو قد أُتِيَ من جهة نفسه، ووجه اللطف: إذا أداها على وجه الخضوع، وقيل: فيه تقديم وتأخير تقديره: أقم الصلاة واتل ما أوحي إليك، فهو ينهى عن الفحشاء والمنكر، وقيل: ينبغي أن تنهاه صلاته كقوله: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧] «وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ» قيل: أكبر شيء في النهي عن الفحشاء والمنكرات، يذكر العبد ربه وما ذكر من الوعد والوعيد ومن الثواب والعقاب فهو

(١) لأنها: لأنه، ن.
(٢) فهي: فهو، ن.
(٣) تكملة البيت:
امتلأ البيت وقال قطني ... سلا رويدا قد ملأت بطني
انظر: لسان العرب، مادة (قطط).

أقوى لطف يدعو إلى الطاعة وترك المعصية فهو أكبر من كل لطف؛ إذ لا لطف إلا وهو دون ذكره. وقيل: دعاء الله وذكره هو الأعلى، عن أبي مسلم. يعني: ذكر الله والدعاء إليه. وقيل: ذكر الله إياكم برحمته[1] أكبر من ذكركم إياه بطاعته، عن ابن عباس، وابن مسعود، وسلمان، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة، وروي مرفوعًا. وقيل: لأن ذكر الله على وجه الاستغناء وذكر العبد على وجه الافتقار، ولأن ذكرنا له واجب، وذكره لنا فضل وكرم. وقيل: ذكر العبد لربه أفضل من جميع أعماله، عن سلمان بخلاف، وقتادة، وابن زيد، وروي ذلك عن أبي الدرداء. وقيل: ذكر الله في الصلاة أكبر من الصلاة، عن أبي مالك. وقيل: ذكر الله والصلاة التي أنت فيها أكبر مما تنهاك عنه الصلاة من الفحشاء والمنكر، عن ابن جرير[2]. وقيل: ذكر الله أكبر من أن يقع مع المعصية، وقيل: ذكر الله لهم بالمغفرة خير من ذكرهم إياه بألسنتهم «وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ» أي: تعملون، قيل: في صلاتكم من الخشوع والانتهاء عن الفحشاء والمنكر وهو جميع المعاصي، وقيل: عليم بما تعملون من الخير والشر فيجازيكم بحسبه.

۞ الأحكام

يدل قوله: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ﴾ أن أحدًا لا يؤخذ بذنب غيره، وأن أخذهم جزاء على أعمالهم لا على جهة الابتداء، وأنهم أُتُوا من جهتهم لا من جهة الله تعالى، فدل على أنه لم يخلق الكفر، ولا خلق القدرة الموجبة للكفر، ولا أراد منهم الكفر، ولا خلقهم للكفر، فيبطل قول المجبرة في هذا الوجه.

ويدل قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ على أن الظلم لا يقع منه، وأن القوم ظلموا أنفسهم، فيبطل قولهم في المخلوق والاستطاعة والإرادة.

ويدل قوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ﴾ على صحة النظر والاعتبار بطريقة الأشباه.

---

(١) برحمته: برخصه، ن. انظر: تفسير أبي السعود، ج ٥/ ١٥٤.

(٢) في ن: عور. وكتب فوقها: أظنه جرير، كما أثبتناه.

وتدل على أن المعارف مكتسبة؛ لذلك قال: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾.

ويدل قوله: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ﴾ الآية، على توحيد الله وصفاته.

ويدل قوله: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ﴾ أنه خلقها بالحكمة ولغرض صحيح، فيبطل قول المجبرة: إنّ الباطل من فعله.

ويدل قوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ على أن العلة في وجوب الصلاة كونها لطفًا في ذلك، فوجب وجوب كل لطف صارف عن القبيح.

ويدل قوله: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أنه ينبغي للعبد أن يديم ذكره.

ويدل قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ على وعيد عظيم.

قوله تعالى:

﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ
وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥) ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا
بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوٓا ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا
وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ
يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ (٤٧) وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن
قَبْلِهِ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ
ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ (٤٩) وَقَالُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن
رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ
ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١)﴾

القراءة

قرأ أبو جعفر ونافع وأبو عمرو ويعقوب وحفص عن عاصم، وقتيبة عن الكسائي: «**لولا أنزل عليه آيات**» بالألف على الجمع، الباقون: «**آية**» بغير ألف على

الواحد، واختار أبو عبيد الأول؛ لقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْآيَٰتُ﴾ ، ويحتمل أنهم سألوه آية فقال: الآيات كلها عند الله يأتي بما شاء.

۞ اللغة

الجدل: مقابلة الحجة بالحجة ومنه الجدال، ورجل جَدِلٌ، قيل: أصله من جدل الحبل، وهو أن كل واحد يروم أن يلقي صاحبه بالْجَدَالَةِ وهي الأرض.

الخط: معروف، خَطَّ يَخُطُّ: كتب، والأمر خُطَّ، والنهي لاَ تَخُطَّ.

والارتياب والريب: شَكٌّ مع تهمة، رابني هذا الأمر.

والكفاية: حدٌّ ينافي الحاجة، كفى يكفي كفاية، والقرآن كاف في الدلالة؛ لأنه ينفي الحاجة إلى غيره.

والتلاوة: القراءة.

۞ الإعراب

﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ﴾ رفع؛ لأنه نَفْيٌ معطوف على نفي وهو قوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟﴾ ولو كان نهيًا لكان نصبًا، ولأنه لو كان يكتبه وأظهر أنه لا يكتبه لكانت الشبهة أعظم.

﴿لَرَحْمَةً﴾ نصب لأنه اسم (إن) تقديره: إن رحمة في ذلك.

۞ النزول

قيل: إن ناسًا [من المؤمنين] أتوا رسول الله ﷺ بكتب كتبها من اليهود، فنظر فيها وألقاها، وقال: «كفى بها ضلالة قوم أن تركوا ما جاء به نبيهم إلى ما جاء به غَيْرُ نبيهم إلى قوم غيرهم»، فنزل: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾.

وقيل: إنهم سألوه آيات، فنزل قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ جوابًا لهم.

۞ المعنى

لما تقدم الأمر بالدعاء إلى الله تعالى بَيَّنَ كيف يجادلهم، وبيّن صحة معرفته،

فقال سبحانه: «**وَلاَ تُجَادِلُوا**» أي: لا تخاصموا «**أَهْلَ الْكِتَابِ**» قيل: هم نصارى نجران، وقيل: أراد من أسلم من أهل الكتاب، وقيل: أراد اليهود والنصارى، وأمر باللطف معهم «**إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**» أي: بألطف قول وأرفقه؛ ليكونوا أقرب إلى القبول «**إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ**» اختلفوا في مَنْ المستثنى وكيف[1] نجادلهم؟ فقيل: إلا الذين ظلموا بالعناد وكتمان صفة نبيِّنا بعد العلم به، عن أبي مسلم. فعلى هذا: الأولُ: الجهال، والثاني: المعاندون. وقيل: هم أهل الحرب، عن سعيد بن جبير، وأبي علي. قال أبو علي: معناه: جادلوا بالقرآن من أعطى الجزية وبالسيف من امتنع منها، وقيل: الذين يتعصبون بالباطل تقليدًا هم الذين ظلموا، وقيل: إلا الذين ظلموا بالإقامة على الكفر بعد قيام الحجة عليهم، عن ابن زيد. فعلى هذا: الأولون: مَنْ آمنوا، وقيل: إلا الذين ظلموكم؛ لأن جميعهم ظالم. وقيل: هم نصارى نجران ظلموا بالمخالفة في التوحيد زيادة على كفرهم. وقيل: الآية منسوخة بآية السيف، عن قتادة، ومقاتل. «**وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا**» القرآن «**وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ**» التوراة والإنجيل «**وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ**» أي: معبودنا واحد «**وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**» مخلصون بالتوحيد منقادون بالطاعة «**وَكَذَلِكَ**» أي: كما أنزلنا الكتب عليهم «**أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ**[2] **الْكِتَابَ**» أيضًا «**فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ**» أعطيناهم «**الْكِتَابَ**» أي: علم الكتاب «**يُؤْمِنُونَ بِهِ**» قيل: الكتاب: القرآن، ومن آمن به: أصحاب النبي، عن أبي علي. «**وَمِنْ هَؤُلاَءِ**» قيل: أهل مكة، وقيل: العرب «**مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ**» بالقرآن، وقيل: الكتاب هو التوراة والإنجيل، والذين يؤمنون به: مَنْ آمن به كعبد الله بن سلام وأصحابه «**وَمِنْ هَؤُلاَءِ**» أهل مكة، عن أبي مسلم. وقيل: الذين آتيناهم الكتاب من قبلك يؤمنون به «**وَمِنْ هَؤُلاَءِ**» يعني: من أهل الكتاب الذين بين ظهرانيكم، عن ابن جرير. «**وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ**» قيل: الآيات: القرآن. وقيل: الجحود يكون بعد المعرفة، عن قتادة. وقيل: كل من جحد فهو كافر [معاند كان][3] أو غير معاند.

(١) وكيف: فكيف، ن.
(٢) إليك: عليك، ن.
(٣) ما بين المعكوفين في ن: معاند كافر. والصواب ما أثبتناه من التبيان في تفسير القرآن للطوسي: ٨/٢٠٦.

ولما احتج بالقرآن عليهم وعلم أن المبطل يتعلق بشبهة وإن ضعفت، اختار لرسالته من لا يتوجه في حاله الشبه، وبيّن ذلك، فقال سبحانه: «**وَمَا كُنتَ**» يا محمد «**تَتْلُو**» تقرأ «**مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ**» أي: من قبل القرآن وإنزال الشبهة «**إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ**» أي: لو كنت تقرأ كتابًا أو تكتب لارتاب الكفار، ولَشَكُّوا وقالوا: لعله يقرأ القرآن من كتب الأوائل، فكان يوهم أدنى شبهة. و«**الْمُبْطِلُونَ**» قيل: مشركو مكة قالوا: هو شيء كتبه محمد، عن قتادة. وقيل: هم اليهود، عن مقاتل. وقيل: «**لَّارْتَابَ**» أي: اتهموك وقالوا: إنا نجد نعته في التوراة هو أنه[1] لا يقرأ ولا يكتب، ومعنى لا يقرأ أي: من كتاب «**بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ**» حجج واضحات، يعني: القرآن، عن الحسن. وقيل: «**بَلْ هُوَ**» محمد ﷺ، عن ابن عباس. و«**الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ**» قيل: أهل الكتاب يجدونه في كتبهم. وقيل: هم علماء المؤمنين عَلِمُوا القرآن وكونه معجزًا فآمنوا به، وعملوا بما فيه، فهو محفوظ في صدورهم متلو على ألسنتهم، فلا يشكون فيه ولا في نبوته، وقيل: «**الذينَ أوتوا العِلم**» هم الأنبياء قبله، يعني كما أنزلنا إليك أنزلنا إلى أولئك، وثبتنا في صدورهم من[2] آيات بينات في صدور أولئك الأنبياء، عن أبي مسلم، وذلك التثبيت تعليم الملائكة إياهم. «**وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ**» لها بِرَدِّها، وقيل: إلا الظالمون لأنفسهم بأن أوردوها العذاب الدائم، وقيل: بل ظلم الذي ترك دينه «**وَقَالُوا**» يعني: الكفار تعنّتًا «**لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ**» أي: حجة كما أنزل على الأنبياء قبله، فجعلوا ما معه غير حجة إلقاء للشبهة بين العوام. وقيل: إنهم يعاينوها فتزول الشكوك بمعاينتها وهو من آيات القيامة التي تقع عند الضرورة، ولكن أراد رحمة منه أن يؤمنوا باختيارهم، فبعث رسوله ومعه كتاب رحمة وذكرى، عن أبي مسلم. «**قُلْ**» يا محمد: «**إِنَّمَا الْآيَاتُ**» المعجزات والحجج «**عِندَ اللَّهِ**» أي: هو قادر على جميع ذلك فيفعل ما يشاء، وإنما يفعل ما يكون مصلحة «**وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ**» مُخَوِّف «**مُبِينٌ**» وليس في مقدوري الآيات.

ثم أجاب عن اقتراحهم، فقال سبحانه: «**أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ**»

---

(١) أنه: أن، ن.

(٢) من: في، ن.

معجزة لك وبيانًا للشرائع يزيد على معجزات الأنبياء، فإذا لم يكفهم هذا لم يكفهم غيره من الآيات «يُتْلَى عَلَيْهِمْ» يقرأ «إِنَّ فِي ذَلِكَ» في القرآن «لَرَحْمَةً» أي: نعمة عظيمة؛ لأن من اتبعه وعمل به نال الثواب والجنة «وَذِكْرَى» يذكرهم أمر دينهم وأخبار من مضى ومواعظ، ويذكرهم الجزاء والمعاد «لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» خصهم؛ لأنهم انتفعوا به، وإلا فهو رحمة وذكرى للجميع.

۞ الأحكام

يدل أول الآيات أن في الجدال ما يحسن، وفيه[1] ما يقبح.

وتدل على وجوب النظر والمعرفة؛ لأنهما ثمرة المجادلة.

وتدل على أن الواجب الدعاء إلى الله تعالى بأحسن الوجوه وألطفها.

وتدل أن حال المحارب خلاف أهل الذمة، لذلك استثنى ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ فسلكوا طريقة اليأس من الانقطاع بمجادلتهم.

ويدل قوله: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ أن الجدال المأمور به كان في باب الإيمان والتوحيد والنبوات.

ويدل قوله: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ﴾ أن جحود القرآن وما فيه كفر، والجحد قد يكون باللسان فيدل على أن الكفر قد يكون في أفعال الجوارح، بخلاف من يقول: إنه من أفعال القلوب، ويكون الجحد بالقلب، والجحد هو إنكاره ودفعه، فأما إذا قَبِلَ ولم يعمل فهو فِسْقٌ، وليس بكفر.

ويدل قوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ﴾ الآيات، على أنه جَنَّبَ رسوله كل ما ينفي عنه، وأنه إنما نزهه من القراءة والخط؛ لئلا يرتاب أحد، وينفر[2]، وإنما يجب تنزيهه من المنفرات؛ لأنه بُعِثَ داعيًا وشارعًا ومُبَيِّنًا، فوجب أن يكون على صفة يكون الناس إلى القبول منه أقرب، وإذا وجب تنزيهه عن هذا القدر لأنه ينفر فلأن يُنَزَّهَ عن الكبائر والفسق أولى؛ لأنه أعظم في باب التنفير.

---

(١) وينفر: وينفروا، ن.

(٢) وفيه: وفيها، ن.

وتدل أن الارتياب فعل العبد؛ إذ لو كان خلقًا له تعالى لوقف عليه ولما اختلف بكون النبي كاتبًا وقارئًا، فيبطل قول المجبرة في المخلوق، وكذلك في الاستطاعة.

وتدل على أنه لا يريد الكفر؛ لأنه إذا لم يُرِدْ ما هو مفسدة لأنه يؤدي إلى باطل فكيف يريد الباطل؟!

وتدل أنه لا يخلق السيئة ولا يريدها، فكيف يخلق الكفر ويريده؟ لأنه لو كان يكتب ويقرأ لم يخرج القرآن من كونه معجزًا، إلا أنه كان فيه أدنى شبهة لمريد الباطل، فأزال هذا القدر، فكيف يجوز عليه أن يريد الكفر والتكذيب؟!

وتدل على أن المعجز لا يظهر على غير النبي؛ لأنه في باب الشبهة أقوى من الخط.

ومتى قيل: أليس عندكم تجوز عليه الصغائر؟

قلنا: الكبائر لا تجوز بحال، فأما الصغائر فتجوز بشرائط:

أحدها: ألا تكون في الأداء.

وثانيها: ألا تكون منفرًا.

وثالثها: ألا تكون عمدًا.

فأما المباحات فما كان منفرًا لا يجوز عليه.

ويدل قوله: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتُۢ﴾ أن القرآن محفوظ في صدور الصحابة حتى يؤدوه، فيبطل قول الرافضة أن فيه زيادة ونقصانًا.

ومتى قيل: إنما يدل أن نفس الكلام في الصدور.

قلنا: عند أبي علي الكلام معنى غير الصوت محفوظ في الصدر مكتوب في الورق متلو باللسان، فأما عند أبي هاشم فالكلام هو الصوت الواقع على وجه، وهو الحروف المنظومة، والمراد حفظها والعمل بترتيبها في صدورهم؛ لأن الدليل دل أن الكلام يكون مسموعًا.

ويدل قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ﴾ الآية، أنه قادر على جميع ما اقترحوا ولم يفعل لمصلحة.

وتدل أن النبي ﷺ لا يقدر على المعجز، وإنما إليه الأداء فقط.

ويدل قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ أن الكفاية بهذه الواحدة وهو القرآن يقع كل ما يتكافأ في المعجز، وفي الدلالة على الأحكام؛ لذلك قال: ﴿لَرَحْمَةً[1] وَذِكْرَىٰ﴾.

وتدل أنهم عرفوا معجزة [القرآن] وإلا لما قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾.

وتدل على إعجازه؛ لأنه عند هذا الاقتراح والتحدي لو قدروا على مثله لأتوا به.

وتدل على أنه معجز لمعنى يرجع إليه لا للصِّرْفَةِ؛ لأنه جعل الكفاية به، ولو كان للصرفة لكان حركة يد وطرفة عين بمنزلته في الإعجاز عند الصرفة.

وتدل أنه في أعلى درجات الإعجاز؛ لأنه جعله كافيًا عن جميع المعجزات وزيادة.

ومتى قيل: بأي شيء يزاد على سائر المعجزات.

قلنا: بوجوه كثيرة:

منها: أنه باقٍ إلى آخر الأبد.

ومنها: أنه مع كونه معجزًا يشتمل على بيان الأحكام والشرائع، ولم توجد معجزة وكتاب قبله كذلك.

ومنها: اشتماله على علوم الغيب في الماضي والمستقبل.

ومنها: اشتماله على الوعد، والوعيد، والمواعظ، والزواجر، وذكر البعث والقيامة، وأخبار الأمم.

ومنها: أنه يشتمل على أدلة التوحيد والعدل وصفات الله تعالى وأسمائه الحسنى.

ومنها: أن الكلام تختلف فصاحته باختلاف مواضعه، فمن وصف لا يكون كلامه كمن أمر ونهى أو وعظ أو حكى، لكل واحد درجة، ثم القرآن يشتمل على جميع ذلك، وفي كلها هو في أعلى درجات الفصاحة، وغير ذلك من الوجوه التي يطول ذكرها ولم يوجد في معجزة قبله.

وتدل على أن الجدال والجحود والتلاوة والريب والخطّ، كل ذلك فعل العبد، وذلك بيّن لمن تأمل الآيات.

---

(١) لرحمة: رحمة، ن.

قوله تعالى:

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (٥٢) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٥)﴾

القراءة

قرأ أبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب: «**ونقول ذوقوا**» بالنون، وقرأ الباقون: ﴿وَيَقُولُ﴾ بالياء، يعود الضمير على اسم الله تعالى، وقد تقدم ذكره، وأما النون فيحكي[(١)] على نفسه.

اللغة

الشهادة: الخبر بالشيء عن مشاهدة، والشهيد والشاهد واحد، إلا من جهة المبالغة في الصفة.

والكُفر[(٢)]: الجحود، أخذ من السَّتْرِ.

والإيمان في اللغة: هو التصديق، إلا أن الشرع نقلهما عن اللغة، فصار المؤمن اسم مدح، والكافر اسم ذم إذا أطلقا، فأما إذا قيّدا فهو على أصل اللغة، ويختلف بما أضيف إليه، فنقول: مؤمن بالله، فيكون مدحًا، ويكون مؤمن بالطاغوت فيكون اسم ذم، وكذلك كافر بالطاغوت اسم مدح، وكافر بالله اسم ذمّ، ونظير ذلك إذا أطلق وقيل: قائم دل على معنى الاستصحاب، وإذا قيل: قائم بالتدبير انقلب المعنى فدل على استقامة التدبير.

---

(١) فيحكي: فيحكم، ن.

(٢) والكفر: والكافر، ن.

والخاسر: الذاهب رأس ماله.

والاستعجال: طلب الشيء قبل وقته.

والأَجل: المدة والوقت.

والبَغْتَةُ: الفجأة.

وغَشَّيْتُ الشيء: غطيته، ومنه قيل للقيامة: غاشية؛ لأنها تغشى كل شيء بإفزاعها، وأصل الغشاء: ما كان فوق الشيء، وذكر هاهنا: ﴿وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ﴾ عطفًا للجواب وإن كان ما تحت القدم لا يسمى غشاء، قال الشاعر:

عَـلَـفْـتُـهـا تِـبْـنًـا ومـاء بـاردًا[1]

والماء لا يُعْلَفُ؛ لكن لما ذكره مع العلف عطفه عليه، أجراه مجرى ما عطف عليه.

۞ الإعراب

﴿شَهِيدًا﴾ نصب؛ لأن تقديره: مِنْ شهيد.

﴿بَغۡتَةً﴾ نصب على التفسير.

وفي قوله: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ﴾ محذوف أي: جزاء ما كنتم، ومحل (ما) نصب بـ ﴿ذُوقُواْ﴾.

۞ النزول

قيل: نزل قوله: ﴿يَسۡتَعۡجِلُونَكَ﴾ في النضر بن الحارث حين قال: فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم.

---

(١) وتكملة البيت:

لـمَّـا حـطـطـت الرَّحـل عـنـهـا واردًا   عـلـفـتـهـا تـبـنًـا ومـاءً بـاردًا

وفي رواية الفراء: علفتها تبنا وماءً باردًا حتى شتت همالة عينها. ويذكر السيد المرتضى أن البيت ينسب لذى الرمّة، ولم يذكر البيت في ديوانه. انظر: اللسان وتاج العروس، (علف).

۞ المعنى

لما تقدم طلبهم للآيات وأن القرآن كاف في المعجزات أمر رسوله بأن يحاكمهم إلى الله تعالى فهو يعلم المحق من المبطل، فقال سبحانه: «**قُلْ**» يا محمد: «**كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا**» أني محق وأنتم مبطلون، وقيل: على أني رسوله وهذا كتابه «**يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**» أي: يعلم حالي وحالكم؛ لأنه يعلم الأشياء كلها، فلا شاهد أعلم منه «**وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ**» قيل: صَدَّقُوا بالدين الباطل، وقيل: بالأصنام «**وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**» أنفسهم «**وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ**» أي: يستعجلونك بنزول العذاب عاجلاً، وإنما قالوا ذلك استهزاء «**وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُسَمًّى**» أي: وقت سماه ليبقيهم[1] إليه، وهو ما علم من الصلاح في تبقيتهم.

ومتى قيل: ما ذلك الصلاح؟

فجوابنا: نحن نعلم في الجملة أن فيه صلاحًا، وإن كنا لا نعلم تفاصيله.

وقيل: لأنه يعلم أن فيهم من يؤمن، وأن يكون في نسلهم من يؤمن.

وقيل: الأجل المسمى يوم القيامة أي: لولا ما وعدتك ألاّ أعذب قومك وأؤخر عذابهم إلى يوم القيامة، عن ابن عباس؛ كقوله: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ﴾ [القمر:٤٦]. **وقيل: لولا مدة أعمارهم في الدنيا، عن الضحاك. وقيل: يوم بدر** «**لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً**» أي: فجأة «**وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ**» بمجيئه فينالهم ما لم يتصوروا «**يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ**» قيل: كأنها محيطة بهم لما لزمهم بكفرهم. وقيل: إذا كان يوم القيامة تحيط بهم، وقيل: هو يتعلق بقوله: «**يَوْمَ يَغْشَاهُمُ**» يعني: يحيط بهم «**يَغْشَاهُمُ**» أي: يصيبهم «**الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ**» لهم توبيخًا «**ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**» أي: جزاء أعمالكم.

۞ الأحكام

يدل أول الآيات على ذم المبتدع وعظيم ذنبه؛ لأنه مؤمن بالباطل.

---

(١) ليبقيهم: ليقيم، ن.

وتدل على أن تأخير العذاب لأجل مسمى قد قدمه، ولولاه كان يعذبهم عذاب الاستئصال، وإن كانت الحياة أنفع لهم، فيبطل قول أصحاب الأصلح أن التبقية واجبة لهذه العلة؛ لأنهم يقولون: لولا اللطف في تبقيتهم لغيرهم لما أبقاهم الله، والله تعالى يقول: لولا ضرب الأجل لأفناهم.

ويدل قوله: ﴿ذُوقُواْ﴾ أن العذاب يستحق بعملهم، وأن أعمالهم حادثة من جهتهم، خلاف قول المجبرة في المسألتين.

قوله تعالى:

﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾

القراءة

قرأ أبو جعفر ونافع وابن كثير وابن عامر وعاصم: ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾ بفتح الياء، وقرأ الباقون ساكنة غير مفتوحة، وكلهم يقفون عليه بالياء وإثباتها مَنْ فتح ومن لم يفتح؛ لأنها مثبتة في جميع المصاحف.

وقرأ ابن عامر «أن» من قوله: ﴿إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ﴾ ولم يفتحها غيره.

وقرأ عاصم في بعض الروايات عنه: «يُرْجعون» بالياء إلى الكل، الباقون بالتاء على الخطاب.

قرأ حمزة والكسائي: «لَنُثْوِيَنَّهُمْ» بالثاء من أثويته منزلاً، والثَّوَاء: المقام، وقرأ الباقون: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ بالباء من بوأته منزلاً، ومنه: اللهم بوِّئْنا مُبَوَّأَ صِدْقٍ، أي: أنزلنا، واتفقوا في (النحل): ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ [النحل: ٤١] أنها بالباء.

۞ اللغة

العباد: جمع عبد، وأصله: الذلة، [ومنه]: طريق معبّد، ومنه: العبادة: الذلة بأعلى المراتب، وتجوز العبودية لغير الله، ولا تجوز العبادة لغير الله؛ لأن استحقاقها لمن يقدر على أصول النعم، وتمت قدرته ونعمته وملكه.

والذوق: ابتداء إدراك المطعوم بحاسته، فالذائق المدرك لذلك، والله تعالى يدرك المطعومات لا بالحاسة، كما يرى ويسمع لا بالحاسة، وكذلك يقال: يدرك الروائح ولا يقال: يشم، ويدرك الألم ولا يقال تألم، وإنما يقال: ذاق الموت؛ لأنه عند كربه وشدته كوجدان الذائق للطعم.

والتَّبوُّؤُ[1]: اتخاذ منزل يأوي إليه، وأصله: الرجوع، ومنه: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ﴾ [البقرة: ٦١].

۞ الإعراب

الفاء في قوله: ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾ قيل: دخل للجزاء تقديره: إن ضاق بكم موضع فإياي فاعبدون؛ لأن أرضي واسعة.

(إِيَّايَ) منصوب بمضمر تفسيره ما بعده، وهو قوله: ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾.

﴿ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾ جر على الإضافة، ويجوز لغير الإضافة.

﴿وَكَأَيِّن﴾ أي: كم.

۞ النزول

قيل: نزل قوله: ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾ الآية، في المستضعفين من المؤمنين كانوا بمكة، ولا يقدرون على إظهار الإيمان، فحثهم على الهجرة، عن مقاتل، والكلبي.

وقيل: نزل قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ﴾ في قوم كانوا بمكة يؤذيهم المشركون، فأمروا بالهجرة، فقالوا: كيف نخرج إلى المدينة وليس لنا بها دار ولا عقار، فمن يطعمنا ويسقينا؟! فأنزل الله تعالى هذه الآية.

---

(١) والتبوُّؤ: والتبوي، ن.

❁ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى أنه لا عذر في ترك الطاعة لا بالمكان وبالرزق، [فقال سبحانه: قُلْ يا محمد «يَا عِبَادِيَ][(١)] «الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ» قيل: أمر الله تعالى المؤمنين إذا كانوا في بلد لا يلتئم لهم أمر دينهم أن يُنْقَلُوا إلى غيرها؛ لئلا يقعوا في فتنة، وقوله: «فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ» تعليل الأمر الذي لأجله وجب مفارقة الوطن، يعني إذا تعذرت العبادة في موضع فانقلوا عنها واعبدون في غيرها، وقيل: إذا عمل في أمري بالمعصية فاخرجوا منها إن[(٢)] أرضي واسعة، عن سعيد بن جبير[(٣)]. وقيل: إذا أُمِرْتُمْ بالمعاصي فاهربوا فإن أرضي واسعة، عن عطاء، ومجاهد، وابن زيد. وقيل: أرضي واسعة بما أُخْرِجُ منها من الرزق لكم، عن مطرف. وقيل: «أَرْضِي وَاسِعَةٌ» أي: أرض الجنة فاعبدوني لتنالوها، عن أبي علي وجماعة، وأكثر أهل التأويل على أن المراد به أرض الدنيا. «فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ» قيل: أخلصوا في عبادتي ولا تطيعوا أحدًا في معصيتي «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ» يعني: أن كل حي يموت يناله الموت بأي أرض كان، فلا[(٤)] تقيموا بأرض الشرك فأنتم[(٥)] لا تخلدون فيها «ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ» أي: إلى حكمنا يوم القيامة بأن نحييها للجزاء، وإذا كان هكذا فبادروا إلى الطاعة والهجرة، وقيل: بين أن دار الدنيا دار نُقْلَةٍ، فلا نختارها على دار الآخرة التي إليها المرجع وفيها المقام أبدًا.

ثم بَيَّنَ تعالى أنهم لو تركوا دارهم في الدنيا لله يعطيهم خيرًا منها، فقال سبحانه: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا» أي: ننزلهم من الجنة علالي، وقيل: قصورًا «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا» أي: من تحت الغرف «الْأَنْهَارُ» أي: الماء في الأنهار «خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ» أي: نعم الجزاء لمن عمل بطاعة الله.

---

(١) ما بين المعكوفين في ن: فقال سبحانه: قل يا محمد «يا عبادي. ولعل الصواب ما أثبتناه.

(٢) فإن: وإن، ن.

(٣) هكذا في ن. وفي الدر المنثور ٦/ ٤٧٤: إذا عمل في الأرض بالمعاصي فاخرجوا منها، عن سعيد بن جبير. وفي تفسير الثوري ١/ ٢٣٦: إذا عمل فيها بالمعاصي فاخرجوا، عن سعيد بن جبير.

(٤) فلا: ولا، ن.

(٥) فأنتم: وأنتم، ن.

ثم بَيَّنَ وصف العاملين فقال سبحانه: «الَّذِينَ صَبَرُوا» على مشاق التكليف، وترك المحرمات، وأداء الواجبات، واحتمال الأذى من الأعداء، وفراق الوطن «وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» بفضله قنعون دون أسباب الدنيا، وقيل: يتوكلون عليه[1] في أرزاقهم وجهاد أعدائهم، وقيل: وصفهم بالصبر على مخالفة الشيطان، والثقة بفضل الله.

ولما بَيَّنَ حال [ممن يؤذى في] الدين حَثًّا على الهجرة بيّن حال الرزق، فقال سبحانه: «وَكَأَيِّن مِنْ دَابَّةٍ» حيوان يدب «لاَ تَحْمِلُ رِزْقَهَا» للادخار، عن الحسن. وقيل: لا تطيق حمل رزقها، عن مجاهد. وقيل: لا تدخرها لغد [وقيل]: لا تدخر شيئًا إلا الإنسان والفأرة والنملة «اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ» يعني: إن خفتم فراق الوطن لأجل الرزق والله يرزق الدواب العاجزة، فكيف لا يرزق من فارق بلده؟ فكأنه قال تعالى: هاجروا واعبدوني، فأنا أرزقكم أينما كنتم. وقيل: «وَكَأَيِّن مِنْ دَابَّةٍ لاَ تَحْمِلُ رِزْقَهَا» أينما توجهت فالله يرزقها كذلك يرزقكم إذا هاجرتم، وقيل: يرزقها يومًا بيوم «وَهُوَ السَّمِيعُ» لأقوالكم: إنا نخشى العِيلَةَ في فراق أوطاننا «الْعَلِيمُ» بما في قلوبكم، وقيل: العليم بكم، حيثما كنتم يأتيكم رزقكم.

الأحكام

تدل الآية على وجوب الهجرة إذا خاف الفتنة في الدين.

وتدل أنه ينبغي أن يشتغل بعبادة ربه فإذا لم يمكنه في أرض خرج إلى أرض أخرى.

وتدل أن كل نفس سوى الله تعالى تموت وتبعث يوم القيامة.

وتدل أن الثواب جزاء لأعمالهم، خلاف من يقول: إنه تَفَضُّلٌ.

وتدل على أنه تعالى الرازق لجميع الحيوانات، ولا شبهة أن الأرزاق كلها من جهة الله تعالى؛ لأنها أجسام وأعراض لا يقدر عليها غيره، وما دام يبقى على أصل

(١) عليه: عليهم، ن.

الإباحة فهو رزق للجميع، فإذا اختص به بعضهم ومَلَكَهُ كان رزقًا له، والحرام لا يكون رزقًا؛ لأنه يعاقب على التصرف فيه، ولأنه مدح الإنفاق من الرزق.

وتدل على أن الصبر والإيمان والعمل الصالح والهجرة فِعْلُ العبد، ليس بخلق الله، فيبطل قولهم في المخلوق.

قوله تعالى:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾
اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن
نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ
لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ
كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى الْبَرِّ
إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا
جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾
وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى
لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَٰهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾

القراءة

قرأ ابن كثير ونافع وعاصم في إحدى الروايتين عنه وحمزة والكسائي: «ولْيتمتعوا» ساكنة اللام على التهديد، والباقون بكسر اللام وهو قراءة يعقوب، واختيار أبي عبيد نسقًا على قوله: ﴿لِيَكْفُرُوا﴾، واحتج الأولون برواية أبي بن كعب: **(يمتعوا)**.

اللغة

السؤال: طلب البيان عن المعنى، والسؤال ينقسم: سؤال عن المذهب، وسؤال

عن الحجة على المذهب، وتصحيح المذهب والحجة، وينقسم من وجه آخر [إلى]: سؤال استفهام، وسؤال تقرير، وسؤال توبيخ.

والتسخير: تذليل الشيء للتصرف في خدمة(١) صاحبه، والشمس والقمر مذللان للتصرف في مصالح العباد.

وقال أبو عبيدة: الحيوان والحياة واحد، وهما مصدران حَيِيَ حياة وحيوانًا، والحياة عَرَضٌ يُصَيِّرُ الأجزاء بمنزلة الشيء الواحد حتى يصحح كونه عالمًا قادرًا، وخاصية الحياة الإدراك.

والتمتع: التلذذ بما تقع عنده اللذة.

والتخطف: تناول الشيء بسرعة، ومنه: اختطاف الطير لصيده.

۞ الإعراب

اللام في قوله: ﴿لِيَكْفُرُواْ﴾ يحتمل لام (كي)؛ لأنهم أشركوا ليكفروا؛ إذ لا بد في الشرك في العبادة من كفر النعمة، ويحتمل لام الأمر على التهديد، يوضحه: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، وقيل: اللام لام العاقبة، أي: عاقبتهم ذلك.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى قبح أقوال المشركين وأفعالهم مع اعترافهم بأنه الخالق، فقال سبحانه: «**وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ**» يعني: إن سألت يا محمد هؤلاء المشركين «**مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ**» أي: ذللهما بأن سيرهما لمنافع الخلق، وإنما يسيران بتسيير الله إياهما بأن خلق فيهما الحركات حالاً بعد حال، وينزلهما في كل وقت المَنْزِلَ الذي يشاء على ما دبر عليه أمرهما «**لَيَقُولُنَّ اللَّهُ**» أي: يعترفون ويقولون: هو الخالق لهما والمسخر لهما «**فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ**» تعجيب من حالهم وسوء اختيارهم، أي: مع إقرارهم أنه الخالق كيف يُصْرَفُون عن عبادته إلى عبادة حجر لا

---

(١) خدمة: حجة، ن.

ينفع ولا يضر؟! «اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ [لَهُ]» أي: يوسع ويضيق بحسب المصلحة «إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» يعلم مصالح عباده فيرزقهم فيها بحسبها، وقيل: إنما حث بذكر الرزق على الهجرة؛ لئلا يتخلفوا خوف العيلة، فبيّن أنه الرازق له في بلده وفي الغربة «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً» وهو المطر «فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا» يعني: إن سألتهم من المسبب لأرزاق الخلق من ماء المطر وينبت النبات ويخرج الأثمار «لَيَقُولُنَّ اللَّهُ» منشئ ذلك كله، وإنما قال: «فَأَحْيَا بِهِ» لأنه أجرى العادة أنه ينبت النبات بالماء والمطر ولولا هذه العادة لجاز أن يخرج النبات من غير ماء ومطر «قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ» قيل: قل شكرًا لله على نعمه وإن جهل أكثرهم نعمه عليهم، وقيل: قل الحمد لله على ما بصرنا من دينه وهدانا إلى معرفة توحيده وعدله والتمسك بعبادته، وقيل: قل الحمد لله على علمك بما تقول؛ فإن أكثرهم يقولون ولا يعلمون.

ومتى قيل: لِمَ قال: «لاَ يَعْقِلُونَ» وهم عقلاء؟

قلنا: قيل: معناه لا يعلمون، وقيل: لم يستعملوا عقولهم فلم ينتفعوا بها، فكأنه لا عقل لهم.

«وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ» يعني التمتع بالحياة بمنزلة اللَّهْو[1] واللعب لقصر مدتها وسرعة تَقَضِّيها «وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ» يعني: هي الحياة الدائمة، وإنما وصفها بالحيوان مبالغة لاستجماعها شرائط الملاذ من النعم والسرور والأمن والدوام، وقيل: إن الدار الآخرة لهي الحيوان أي: دار الحيوان الدائم البقاء «لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» أي: لو علموا ذلك ما اختاروا الدنيا على الآخرة. «فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ» وخافوا الغرق «دَعَوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ» أي: يخلصون له الدعوة، ولا يدعون غيره عند الضرورة «فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ. لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا» قيل: هو تهديد، أي: دعهم وما اختاروا من الكفر والتمتع. وقيل: هي لام العاقبة، أي: كان عاقبة إخلاص الله إياهم أن كفروا بنعمه وتمتعوا بالدنيا «فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» عند نزول العذاب بهم قبح ما كانوا عليه «أَوَلَمْ يَرَوْا» قيل: أولم يعلموا،

(١) اللهو: الله، ن.

وقيل: معناه أولم يتفكروا ليعلموا ما خصهم الله به من فضله والنعم العظيمة وهي الحرم الذي أسكنهم فيها «أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا» لأن أحدًا لا يتعرض لِمَنْ في الحرم، وأن بعضهم يغير على بعض خارج الحرم «وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ» أي: تسلب أموالهم حول الحرم وهم في الحرم آمنون. وقيل: «يُتَخَطَّفُ النَّاسُ» أي: يقتلون ويؤسرون «أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ» استفهام والمراد الإنكار، أي: كيف يؤمنون بالباطل، وهي الأصنام التي لا تنفع ولا تضر؟ «وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ، وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا» يعني: لا ظلم أعظم مِنْ ظلم مَنْ يكذب على الله في صفاته وأفعاله، فيصفه بما لا يليق به، أو يضيف إليه ما لا يليق بحكمته، فالأول كَمَنْ يقول: إن له شريكًا أو ولدًا، وإنه جسم أو له مكان أو أعضاء، والثاني كمن يقول: القبائح خَلْقُهُ وإرادته، وكل كفر وقبيح من جهته وبإرادته «أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ» قيل: بالقرآن، وقيل: بمحمد، وقيل: بالإسلام، وقيل: بالحجج «لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ» مبالغة في الوعيد، و(أليس) كلمة تحقيق يعني: في جهنم «مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ» أي: مقامهم ومنزلهم. «وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا» قيل: جاهدوا في طلب مرضاتنا بفعل الطاعات «لَنَهْدِيَنَّهُمْ» سبل ثوابنا، عن ابن عباس. وقيل: جاهدوا الأعداء باليد واللسان، وقيل: جاهدوا بالحجة، وقيل: أجهدوا أنفسهم في تحمل المشاق من أعداء الدين «لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا» قيل: سبل الجنة والثواب، وقيل: سبل الخير بالتوفيق والمعرفة وسائر الألطاف، وقيل: لنفتحن عليهم باب الحجج ليحتجوا على المخالفين، ويتضح لهم طريق الحق، وقيل: والذين جاهدوا في طلب العلم «لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا» في العمل به، عن فضيل بن عياض. وقيل: والذين جاهدوا بالهجرة لنهدينهم سبيل الثبات على الإيمان، عن الضحاك.

۞ الأحكام

يدل قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ الآية، أنهم كانوا مُقِرِّينَ بالخالق عارفين، وإنما كفروا بعبادة الصنم؛ فيدل أن عبادة الصنم كُفْرٌ، وإن كان من أفعال الجوارح.

ويدل قوله تعالى: «فَأَنَّى يُؤْفَكُون[1]» أنه لا ينبغي أن يعدل عمن يملك الضر والنفع إلى من لا يملكهما كما فعل أولئك.

(١) يؤفكون: تصرفون، ن. وما أثبتناه من نص الآية.

ويدل أنه لم يخلق فيهم الكفر والصرف؛ إذ لو خلق لما حسن التعجب، وكيف يقول: (فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ)(١) وهو الصارف؟ فيبطل قول المجبرة في المخلوق والاستطاعة.

ويدل قوله: ﴿لِيَكْفُرُواْ﴾ على قولنا في اللطف والأصلح؛ لأنه بين أنه يفعل بكل واحد ما هو أصلح له.

ويدل قوله: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على عظيم موقع العلم في زمان يكثر فيه الجهال.

ومتى قيل: لماذا يعظم موقعه عند كثرة الجهال؟

قلنا: لعلة الدواعي، ومشقة العلم، وصرف الجهال إياه عنه.

ويدل قوله: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ﴾ على الترغيب في الآخرة والزهد في الدنيا.

ويدل قوله: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ﴾ الآية، على أن المعارف مكتسبة.

ويدل قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أن أعظم الذنوب الكذب على الله تعالى، وقد بَيَّنَا ذلك.

ويدل قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ﴾ أن من سلك سبيل الطاعة هداه الله إلى الجنة وزيادة الألطاف.

ويدل أن الله تعالى مع المؤمنين بالنصرة، فيبطل قول من يقول: إنه ينصر الكافرين.

ويدل قوله: ﴿لِيَكْفُرُواْ﴾ أن الكفر فِعْلُهُمْ، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ﴾ أن الجهاد فعلهم، وكذلك جميع ما تعلق به المدح والذم في الآية.

---

(١) فأنّى يؤفكون: أنى تصرفون، ن. وما أثبتناه من نص الآية.

سورة الروم

سورة (الروم) ستون آية، وهي مكية فيما نُقِلَ.

وعن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة (الروم) كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل ملك سبح الله بين السماء والأرض».

ولما ختم سورة (العنكبوت) بأن نَصْرَهُ ومعونته تختص المؤمنين افتتح سورة (الروم) بأن نصره للمؤمنين، وأنهم يفرحون وعليه يتوكلون.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾

القراءة

القراءة الظاهرة: ﴿غُلِبَتِ﴾ بضم الغين وكسر اللام على ما لم يسم فاعله ﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ بفتح السين وكسر اللام على أن الروم مغلوبة في الحال، وأنهم

غالبون في الثاني. وقرأ أبو عمرو وأبو سعيد الخدري والحسن وعيسى بن عمر: «غَلَبت» بفتح الغين واللام «سيُغلَبون» بضم الياء وفتح اللام، قالوا: نزلت هذه الآية حين أخبر الله نبيه عن غلبة الروم فارس، والأولى أنه أخبر عن غلبة فارس ووعد بغلبة الروم.

والقراءة الظاهر: ﴿أَدْنَى﴾، وعن سعيد بن جبير: «أَدَانِي» بألف بين الدال والنون على الجمع، وقيل: سيغلبهم المسلمون في بضع سنين، وعند انقضاء هذه المدة أخذ المسلمون في جهاد الروم، وعن أبي الدرداء: سيجيء[1] قوم يقرؤون: «غَلَبَتِ الروم» وإنما هو: «غُلبت» يعني: بضم الغين.

والقراءة الظاهرة: ﴿غَلَبِهِمْ﴾ بفتح اللام، وقرأ أبو حيوة الشامي بسكون اللام، وهما لغتان، كالظَّعَن والظَّعْن، وقد بينا أنه لا يجوز القراءة إلا بالظاهر المستفيض.

اللغة

الغلبة: الاستعلاء على القِرْنِ غلب يغلِب، فهو غالبٌ والشيء مغلوب: معرض للغلبة، وغالبه مغالبة، والغَلْبُ والغَلَبَةُ مصدران، مثل: الجَلْبِ والجَلَبَة، عن الزجاج. وقيل: هو الغلبة، وحذفت الهاء للإضافة كما قيل: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، عن الفراء، والأول أوجه.

والبضع: القطعة من العدد ما بين الثلاثة إلى العشرة، وهو من بضعته: إذا قطعته بضعًا، ومنه: البضاعة: القطعة من المال تدور في التجارة، والمباضعة: تناول العضو في الجماع، والمِبْضَعُ؛ لأنه قطع به العروق.

والأدنى: الأزيد في الدنو، وهو[2] الأقرب، وله نقيضان، يقال: أدنى وأقصى، وأدنى وأعلى، ونقيض الأقرب: الأبعد.

---

(١) سيجيء: سخر. وماأثبتناه من الكشف والبيان، للثعلبي: ١١/ ٥.

(٢) وهو: وهم، ن.

والوعد والوعيد من جنس الأخبار، إلا أن الغالب في الوعد أن يقع في النفع والوعيد في الضرر.

والفرح والسرور نظيران، ونقيضه: الغم، وليس بجنس، وإنما هو من جنس الاعتقاد.

والخُلْفُ والخلاف بمعنى واحد، فعل خلاف ما تقدم به الوعد.

والظاهر: ما يصح إدراكه من غير كشف، والقديم ظاهر بالجملة باطن عن الحواس، والأمور كلها ظاهرة له؛ لأنه يعلمها.

والغفلة: ذهاب الشيء عن النفس كحال النائم، ونظيره: السهو، ونقيضه: الذكر.

الإعراب

(قَبْلُ) و(بَعْدُ) مبنيان على الضم، ومعناهما الغاية.

ومتى قيل: لِمَ بُنِيَ ﴿مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ ولم بُنِيَ على الحركة؟ ولم يُبْنَ على الضمة؟

قلنا: أما الأول: لأنه للغاية، فكأنه قطع من الإضافة إلى ما هو غايته فصار كبعض الاسم في استحقاق البناء. وبُنِيَ على الحركة؛ لأن لها أصلاً في التمكن يستعمل، وبني على الضمة؛ لأنها حركة لا تكون لها في حال الإعراب، فهي إذًا على البناء.

«وَعْدَ» نصب على المصدر، أي: وَعَدَ الله وَعْدَهُ، قال الشاعر:

يَسْعَى الْوُشَاةُ حَوَالَيْهَا وقِيلَهُم ... إِنَّكَ يَا ابْنَ أَبِي سَلْمَى لَمَقْتُولُ[1]

أي: ويقولون[2]، قيلهم.

(١) البيت قائله كعب بن زهير في قصيدة البردة، وورد صدر البيت بعدة روايات منها:
يسعى الوشاة بجنبيها وقولهم، وفي رواية: تمشي الوشاة جنابيها وقيلهم.
انظر: ديوان كعب بن زهير، تحقيق عباس عبد القادر، ص ١٩، دار الكتب المصرية، القاهرة ط٣، ٢٠٠٢.

(٢) ويقولون: ويقولن؛ ن.

۞ النزول

قيل: كان المشركون يغضبون للفرس، وكانوا يعبدون الأصنام والنيران أنهم [ما] كانوا أهل كتاب بغضًا للمؤمنين، فلما غلبت الفرس على الروم في حرب جرى بينهم، وغلبوا على بيت المقدس، وهو موضع عبادتهم، وكسر لذلك الروم فرح أهل مكة وقالوا للمسلمين: أهل ديننا غلبوا أهل دينكم، فنزلت الآيات وذكر أن الروم ستغلب فارسًا، فأخبر أبو بكر بذلك أبيّ بن خلف فقال: كذبت، فقال: أنت كذبت، يا عدو الله، فخاطر أبو بكر معه، وقيل: كان ذلك مع صفوان بن أمية، وقيل: عجز على ثلاث سنين وثلاث إبل، فأخبرت بذلك رسول الله ﷺ فقال: «زد في الخطر وأبعد في الأجل»، فخاطرا على سبع سنين بعشر من الإبل، فلما أراد أبو بكر الهجرة تعلق به أبيّ وأخذ ابنه عبد الله من أبي بكر كفيلاً. وعلى الرواية التي خاطر عمر أخذ عبد الله بن عمر كفيلاً، فلما أراد أبيّ أن يخرج إلى حرب أحد تعلق به عبد الله بن أبي بكر وأخذ منه ابنه كفيلاً، وخرج أبيّ وأخذته[1] جِرَاحَةٌ جَرَحَهُ [إياها] رسول الله ﷺ، وعاد إلى مكة، ومات من تلك الجراحة، وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية على رأس سبع سنين من وقت رهانهم، وأخذ عبد الله بن أبي بكر أو عبد الله بن عمر الرهان، هذا قول أكثر المفسرين.

وقيل: كان ذلك أصل ماله، وذلك قبل تحريم القمار. وقيل: إنما تجاوز ذلك؛ لأنهم كانوا في دار الحرب، وما في دار الحرب على أصل الإباحة، ولأن ذلك كان في نصرة النبي ﷺ؛ لأنه ظهر به نصره.

وعن أبي سعيد الخدري ومقاتل: لما كان يوم بدر غلب المسلمون كفار مكة، وأخبر الله رسوله أن الروم غلبت فارسًا، ففرح المسلمون بذلك، وروي أنهم استردوا[2] بيت المقدس، وأن ملك الروم مشى إليه شكرًا، وبسطت له الرياحين، فمشى عليها [مع] المؤمنين.

(١) وأخذته: وأخذ، ن.

(٢) استردوا: استرقوا، ن. وما أثبتناه من مجمع البيان في تفسير القرآن للطبرسي م٥/ج٢١/٨-٩.

وقال الشعبي: لم تمض تلك المدة التي عقدها أبو بكر مع أبيّ بن خلف حتى غلبت الروم فارسًا، وربطوا خيولهم بالمدائن، وبنوا الرومية، فأخذ أبو بكر الخطر من ورثته، وجاء به إلى رسول الله ﷺ، فتصدق به. وروي عن رسول الله ـ صلى الله [عليه وسلم] ـ أنه قال: «الفارس نطحة ونطحتان، ثم لا فارس بعدها أبدًا، والروم ذات قرون، كلما ذهب قرن خلف قرن هيهات[1] إلى آخر الأبد»، ومعنى نطحة أي: تُنْطحُ مرة أو مرتين، فيبطل ملكها، ويزول أمرها.

المعنى

﴿الٓمٓ﴾ قيل: اسم للسورة، عن الحسن، وقتادة، وأبي علي. وقيل: إشارة إلى أن القرآن مؤلف من هذه الحروف، وأنتم تتكلمون بها، وعجزتم عن مثلها، فدلكم على أنه معجز، وليس من كلام البشر، عن أبي مسلم. وقيل: إشارة إلى حدث القرآن؛ لأنه مؤلف من هذه الحروف، عن أبي بكر الزبيري. وقيل: إنه من أسماء الله تعالى «ألم» أنا الله أعلم، عن ابن عباس. وقد بينا أن في هذه الحروف أقاويل جمة؛ وأن هذه المعاني التي ذكرناها مجملة وبينا الوجه. «غُلِبَتِ الرُّومُ» أي: غلبهم فارس في بعض حروبهم وظهروا عليهم، وكان ذلك على عهد رسول الله صلى الله عليه «فِي أَدْنَى الأَرْضِ» قيل: أدنى الأرض إلى جهة عدوهم، وقيل: أدنى الأرض من أرض الشام إلى أرض فارس، قال ابن عباس: هي طرف الشام، وقال مجاهد: أرض الجزيرة، وقال مقاتل: الأردن وفلسطين «وَهُمْ» يعني الروم «مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ» أي: من بعد أن غلبت فارس عليهم «سَيَغْلِبُونَ» فارسًا «فِي بِضْعِ سِنِينَ» قيل: ما دون العشرة، والبضع ما بين الثلاثة إلى العشرة، في خبر مرفوع. «لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ» قيل: من قبل دولة الروم على فارس وبعدها، فلو أراد هلاكهم لفعل، وقيل: الأمر فيما مضى وفيما بقي، وهو عبارة عن ملكه في عموم الأوقات، فلو أراد هلاكهم لأهلكهم؛ لكن يريد إهلاك بعضهم ببعض «وَيَوْمَئِذٍ» يعني: يوم غلبت الروم فارسًا، فقد كان فيه علامة نصر الله للمؤمنين، وتصديق رسوله «يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ، بِنَصْرِ اللَّهِ»

(١) في مجمع البيان في تفسير القرآن للطبرسي م٥/ج٢١/٩: هبهب.

أي: ذلك اليوم لما فيه من صدق النبي وظهور المؤمنين، وقيل: ذلك يوم بدر، ويومئذ عبارة عنه، فرحوا بما أتاهم من النصر والفتح، وقيل: يوم الحديبية «**يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ، بِنَصْرِ اللَّهِ**» قيل: بنصر الله إياهم ومن صدق نبيهم، وكذب الكافرين والشماتة بهم[1]، ولا يجوز صرف النصر إلى الروم؛ لأنهم كفار لا ينصرهم الله تعالى، ولا يفرح المؤمنون بغلبة الكفار، قيل: فرحوا بما نال الكفار من الغلبة والقهر «**يَنصُرُ مَنْ يَشَاءُ**» من عباده وهم الأنبياء والمؤمنون «**وَهُوَ الْعَزِيزُ**» أي: القادر على نصر المؤمنين وعلى الانتقام من أعدائهم «**الرَّحِيمُ**» بمن أناب إليه من خلقه.

ثم أكد البشارة، فقال سبحانه: «**وَعْدَ اللَّهِ**» أي: وعد الله المؤمنين بالنصرة، وقيل: وعد الله في الروم وأنها تغلب فارسًا «**لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ**» في ذلك ولا في غيره «**وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ**» صحة الوعد والوعيد وامتناع الخلف، وإنما لم يعلموا؛ لأنهم لم يستدلوا «**يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ**» يعني: يعلمون منافع الدنيا ومضارها وعمرانها متى يزرعون، ومتى يحصدون، وكيف يجمعون، وكيف يبنون، وكيف يعيشون، وهم جهال بالآخرة، فعمروا دنياهم وخربوا آخرتهم، عن ابن عباس. وقيل: «**يَعْلَمُونَ**» يعني: الكفار، يعلمون ظاهر الحياة الدنيا، فينكرون صحة هذا الوعد في غلبة الروم وفي النبوة وما يتصل به، عن أبي علي. وقيل: يعلمون الدنيا، وينكرون الآخرة.

۞ الأحكام

تدل الآيات على معجزة لرسول الله ﷺ حيث أخبر عن الغيب فوجد مخبره كما أخبر، وقيل: فيه خبران من أخبار الغيب: ماض، ومستقبل، فالماضي غلبة فارس حين أخذت بيت المقدس، فأخبرهم في وقت كونه قبل ورود الخبر على العرب، والمستقبل ما أخبر بأن الروم تغلب فارسًا في بضع سنين، فكان كما أخبر، عن أبي علي، وأبي مسلم.

---

(١) بهم: لهم، ن.

وتدل على أن المؤمنين فرحوا بنصر الله، وقد بَيَّنَا ذلك، وأنه لا يحمل على نصرة الروم، ويجوز مثل ذلك؛ لما فيه من قهر أعداء الله.

ويدل قوله: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ﴾ أنه لا يخلف وعده ووعيده.

ويدل قوله: ﴿وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ أن المعارف مكتسبة؛ إذ لو كانت ضرورية لكان علمهم بأحوال الآخرة كعلمهم بأحوال الدنيا.

قوله تعالى:

﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ
وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ
عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا
عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ
يَظۡلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا
يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾

۞ القراءة

قرأ أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب: «**عاقبةُ**» بالرفع على أنه اسم (كان)، وخبره: ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾، تقديره: عاقبة المفسدين النار، والباقون بالنصب على أنه خبر (كان)، واسمه: ﴿أَن كَذَّبُواْ﴾، تقديره: ثم التكذيب كان عاقبة أمرهم، وروي عن عاصم الرفع والنصب.

۞ اللغة

أَثَرْتُ الأرض: قلبتها للزراعة، ومنه: ﴿لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [البقرة: ٧١]، وأثرت الصيد: نفرتها.

والسوءى: الخلة التي تسوء صاحبها عند إدراكها، والإساءة: ضد الإحسان،

أساء يُسِيءُ إساءة فهو مُسِيءٌ، وأصل الباب من «ساءه يسوءه»: إذا حرفه، ومنه: الإساءة، والسُّوءَى.

۞ الإعراب

﴿فَيَنظُرُوا﴾ نصب؛ لأنه جواب قوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا﴾.

﴿أَشَدَّ﴾ نصب؛ لأنه خبر (كان)، واسمه في قوله: «**كانوا**».

﴿قُوَّةً﴾ نصب على التمييز.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ استفهام، والمراد به التقريع، أي: هلا تفكروا إن كان لهم عقل وتمييز.

۞ المعنى

ثم حث على التفكر في أحوال الأمم وما أوتوا من الدنيا، وما آل إليه أمرهم، فقال سبحانه: «**أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا**» أي: هلا تدبروا «**فِي أَنفُسِهِمْ**» بما فيه من آيات الله الدالة «ما على توحيده، وقيل: «**في**» بمعنى [(مع)]؛ أي: مع أنفسهم بأن يرجع إلى نفسه، ويتفكر في أحواله، وتنقله من حال إلى حال ليعلم أن له مدبرًا صانعًا «**مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ**»؛ لأنه إذا تفكر في نفسه وفي العالم علم أن له صانعًا حكيمًا لا بد في فعله من غرض، وأنه لا يجوز أن يفعل القبيح؛ لعلمه بقبحه وغناه عنه؛ فيعلم أنه خلق الأشياء بالحق. وقيل: خلق للحق، أي: خَلْقٌ يُعَدُّ دلالة على صانعه، وللتعريض للثواب وفعل الطاعات «**وَأَجَلٍ مُسَمًّى**» أي: لوقت معلوم إذا انتهت إليه فَنِيَتْ[(١)]، وهو وقت القيامة، وقيل: خَلَقَها في أوقات قَدَّرَها وسماها اقتضت المصلحة خَلْقَها فيها، ولم يخلقها عبثًا، عن أبي علي.

ومتى قيل: كيف يعلم بالتفكر في النفس أنه لم يخلق شيئًا إلا بالحق؟ وكيف يعلم الآخرة؟

(١) فنيت: قلبت، ن. وما أثبتناه من تفسير البغوي: ٦/ ٢٦٢، تفسير الخازن: ٥، ١٣٥.

قلنا: إذا علم أنه محدث وأن له مدبرًا وخالقًا قديمًا قادرًا عالمًا سميعًا بصيرًا، وأنه لا يفعل القبيح، ولا يفعل إلا الحكمة، علم أنه لم يخلقه عبثًا، وإنما خلقه لغرض وهو التعريض للثواب، وذلك لا يتم إلا بالتكليف، وأنه لا بد من جزاء، فإذا لم يوجد في الدنيا فلا بد من دار أخرى يجازَى فيها، وأنه إذا قدر على الابتداء يقدر على الإعادة، وإذا كان حكيمًا فلا بد أن يجازَى كلاً بما فعل، ويعلم أن الجماد لا ينتفع بنفسه، فيعلم أنه خلقه لنفع الحيوان، فيعلم ذلك.

«وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ» أي: بلقاء جزائه والبعث، فجعل لقاء القيامة لقاء له تعظيمًا لها وتفخيمًا لشأنها، ولا يحمل على الرؤية؛ لأن الاحتجاج في البعث الذي أنكروه «أَوَلَمْ[1] يَسِيرُوا» يعني: هؤلاء الذين تقدم ذكرهم «فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا» إلى آثار من تقدم من الأمم، فيعلموا أحوالهم[2] من شدة قوتهم وكثرة أموالهم [ومع ذلك] هلكوا، فلا يغتر هؤلاء بالدنيا إذا علموا أن عاقبتهم[3] الفناء «كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» أهلكوا مع شدتهم وحظهم من الدنيا كعاد وثمود وغيرهم «كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ» قيل: حرثوها وقلبوها لعمارتها، عن مجاهد. «وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا» قيل: حفروا الأنهار، وغرسوا الأشجار، وشيدوا البنيان، ثم تركوها، وصاروا إلى الهلاك «وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ» فلما كذبوا أهلكهم الله «فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ» بهلاكهم وعذابهم؛ لأنهم استحقوها بسوء أفعالهم «وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» بما أتوا من العصيان «ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا» بما عملوا أي: عملوا السوء كذبوا رسله «السُّوءَى» قيل: العذاب، عن أبي علي، وأبي مسلم. وقيل: الخلة التي تسوؤهم وهي النار، عن ابن عباس، وقتادة. وقيل: «السوءى» اسم جهنم، كما أن الحسنى اسم الجنة. وقيل: السوءى: اسم وقائع الله في الأمم. وقيل: السوءى: فعلهم، أي: كان عاقبتهم في إساءتهم أن حملتهم[4] تلك الإساءة على «أَنْ كَذَّبُوا: بِآيَاتِ اللَّهِ» ورسله واستهزؤوا بهم، ومعنى

(١) أولم: أفلم، ن. والصواب ما أثبتناه من المصحف.
(٢) أحوالهم: أحواله، ن.
(٣) عاقبتهم: عاقبته، ن.
(٤) حملتهم: حملتم، ن.

«أَنْ كَذَّبُوا»؛ لِأَنْ كذبوا، عن أبي علي. وقيل: حملتهم تلك الإساءة أن كذبوا بآيات الله واستهزؤوا بها.

۞ الأحكام

تدل الآيات أن التفكر في النفس والخلق يؤدي إلى العلم والحق، وأن القوم ذهبوا عنه.

وتدل أن المعارف مكتسبة.

ويدل قوله: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ على بطلان مذهب الجبر؛ لأن إثبات [أن] جميع ما خلق حق لا يمكن إلا على مذهب العدل والتوحيد، وأما على مذهب القوم فجميع الكفر والضلال والباطل خلقه وإرادته، فكيف يصح ذلك؟

وتدل على سوء عاقبة من يعمل السوء.

وتدل أن أفعال العباد حادثة من جهتهم؛ لذلك أمر بالتفكر، وأضاف إليهم الكفر، وذمهم عليه، وأمرهم بالسير والتفكر في آثار من تقدم، وكذلك أضاف الإثارة إلى من تقدم، وكذلك العمارة، وبين أنهم ظلموا أنفسهم، وأن الله لم يظلمهم، ولو خلقهم للنار وخلق فيهم الكفر، وأُتُوا في جميع أفعالهم من جهته لكان هو ظَلَمَهُمْ، فيبطل قولهم في المخلوق والاستطاعة، فكذلك التكذيب والاستهزاء الذي أوعدهم عليهما.

قوله تعالى:

﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾
وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ
يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ
يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ
مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾

۞ القراءة

قرأ أبو عمرو وعاصم في بعض الروايات: «يُرْجَعُون» بالياء كناية عن الخلق، الباقون بالتاء على الخطاب، واتفقوا على ضمها غير يعقوب الحضرمي فإنه يفتحها في جميع القرآن.

قراءة العامة: ﴿يُبْلِسُ﴾ بكسر اللام، وعن السلمي بفتحها، والأول أظهر وأصح، فلا تجوز القراءة إلا به؛ لأنه المستفيض.

۞ اللغة

البَدْءُ: أول الفعل، بدأ يبدأ، وابتدأ ابتداء، والابتداء: نقيض الانتهاء، والبَدْءُ نقيض العود.

والإعادة: فعل الشيء ثانية، وإذا قيل: عاد الكلام فهو على التقدير، إلا أنه تَوَسُّعٌ فيه، حقيقةٌ في الأجسام وما يبقى من الأعراض، ويكون مقدورًا للقديم سبحانه وتعالى؛ لأن الأصوات لا تجوز عليها الإعادة، والإعادة والرجعة والنشأة الثانية نظائر، أعاد يُعِيدُ إعادة، والله تعالى المختص بالقدرة على الإعادة بعد الإفناء.

ومتى قيل: كم شرائط الإعادة؟

قلنا: ثلاثة:

أحدها: أن يكون الشيء مما يبقى.

وثانيها: ألا يكون متولدًا.

وثالثها: أن يكون من مقدور القديم سبحانه، عن القاضي.

وقيل: ثلاثة أشياء: أن يكون مقدورًا للقديم، [سبحانه خاصة: وما يصح عليه البقاء يصح عليه الإعادة، ولا يصح الإعادة على ما لا يقدر على جنسه غيره تعالى][(١)] ومما يبقى يكون جنسه مقدرًا للقدر، عن أبي علي.

(١) ما أثبتناه من مجمع البيان، الطبرسي، ج ٦/ ص٩.

وقيل: ثلاثة أشياء: أن يكون مقدورًا للقديم، ومما يبقى، وألا يكون متولدًا من سببه لا يبقى.

ومتى قيل: فما الذي يجب إعادته عقلاً وسمعًا؟

قلنا: أما في العقل: يجب إعادة المُثَاب ومن له عوض لم يوفر عليه في الدنيا، فأما المعاقب فهو حق لله تعالى فيجوز ألا يعيده، إلا أن السمع وَرَدَ بإعادة كل حي مكلف وغير مكلف.

ومتى قيل: ما الذي يجب أن يعيد من الحي؟

قلنا: فيه خلاف، فقيل: الأجزاء التي يبين بها حيّ من حيّ، عن القاضي. وقيل: الأجزاء والتأليف، عن أبي هاشم. وقيل: الأجزاء والحياة، عن أبي عبد الله. وقيل: جميع المكلف، عن أبي القاسم.

والإبلاس: اليأس من الخير، قال الشاعر:

يَا صَاحِ هَلْ تَعْرِفُ رَبْعًا مُكْرَسًا ... قَالَ نَعَمْ أَعْرِفُهُ وَأَبْلَسَا[1]

والحَبر بفتح الحاء وكسرها: العالِمُ، وجمعه: أحبار، والحِبْرُ بكسر الحاء: الذي يكتب به، والحبر: الجَمال، والحُبُورُ: السرور، وهو الحَبْرَةُ، والجمع: حبر. قال العجاج:

ولا يخليه بها جمال

أي: أثر، يقال: حبر الرجل: إذا كان بِجِلْدِهِ قروح فبرأت وبقيت لها آثار وسمي السرور حبورًا؛ لما يظهر من أثره في الوجه، وسمي الجمال حبرًا لأنه يسر بآثار. والمحبّر: المحسّن والمزيّن، وكان يقال لطفيل الغنوي المحبر؛ لأنه كان يحبر الشعر ويزيّنه[2]، وسمي ما يُكْتَبُ به حِبر؛ لأنه يحسِّن الخط، وقيل: سمي لتأثيره.

والروضة: جمعها: رياض، وخصه بالذكر؛ لأنه عند العرب أحسن شيء منظرًا وأطيب ريحًا هو الرياض.

---

(١) البيت قائله العجاج بن رؤبة انظر: تاج العروس (بلس)، واللسان (بلس).

(٢) ويزيّنه: أي يرنقه، وما أثبتناه من مقاييس اللغة لابن فارس: ٢/١٢٧.

والإحضار: مصدر أحضره إحضارًا، وهو إيجاد ما به يكون الشيء حاضرًا، ثم قد يكون بإيجاد ذاته، وقد يكون بإيجاد معنى به يحضر كالجوهر.

المعنى

لما تقدم الوعد بالإعادة عقبه بذكر الإعادة وقدرته عليه، فقال سبحانه: «**اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ**» أي: يخلقهم ابتداء ثم يعيدهم يوم القيامة بعد إفنائهم «**ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**» إلى حكمه وقضائه، وقيل: بين أنه بدأ بالنعمة بالخلق والحياة والشهوة والتكليف والتمكين والرزق وسائر النعم، وأنه ختم بالنعمة بالجنة وما فيها من الثواب الدائم بضروب النعم، فكل من هلك فمن جهته أُتِيَ لا من جهة ربه «**وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ**» قيل: يقوم الناس للساعة، وقيل: إذا كان وقت القيامة كما يقال: قامت السوق إذا حضر أهلها، عن أبي مسلم. «**يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ**» أي: ييأسون من رحمة الله تعالى ونعمه التي أفاضها على المؤمنين «**وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ**» الذين عبدوهم في الدنيا «**شُفَعَاءُ**» أي: من يشفع لهم، لينجيهم من العذاب، وقيل: يبلس: يُكبَتُ، عن مجاهد. وقيل: يفتضح، عن مجاهد أيضًا. وقيل: ييأس، عن مقاتل، وقتادة، والكلبي. وقيل: المُبْلِس: الذي ينزل به السوء والبلاء، عن ابن زيد. وقيل: الذي تنقطع حجته وكلامه، عن الفراء. وقيل: يندمون، عن أبي عبيدة. ولا مانع من حمل الآية على الجميع فتحمل عليها «**وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ**» يعني: بشركائهم الذين عبدوهم[1]، وأضافها إليهم استخفافًا بما اعتقدوه فيه أنهم شركاؤهم، وقيل: لأنهم جعلوا له شركاء في مالهم، وقيل: لأنهم زعموا أنها تشفع لهم، فلما عرفوا ما كانوا فيه من الضلال بعبادتهم كفروا بالشرك أي: جحدوا وأنكروا كون الأوثان آلهة، وأقروا بأن الله لا شريك له، عن أبي علي، وأبي مسلم. وقيل: (كانوا) كناية عن الأوثان، أي: الأوثان أنكروا أن يكون هؤلاء عبدوهم لأنهم لم يعلموا عبادتهم، والأول أوجه؛ لأنه نسق الكلام. «**وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ**» يعني: أهل الجمع يجتمعون، ثم يتفرقون فيصيرون فرقتين، فيفرق بين المؤمن الذي من أهل الجنة ومن هو من أهل

(١) عبدوهم: عبدوها، ن.

العقاب «**فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ**» قيل: يكرمون، عن ابن عباس. وقيل: ينعمون، عن قتادة، ومجاهد. وقيل: يسرّون لما بلغوا كمال المراد، عن أبي عبيدة. ومنه قيل: كل حبرة تتبعها عبرة، وقيل: يتلذذون بالسماع والجنة، عن يحيى بن أبي كثير. و[قال] الأوزاعي: لا أحد أحسن صوتًا من إسرافيل، فإذا أخذ في السماع قطع عليهم ما هم فيه، [و] عن أبي هريرة في الجنة شجرة أصلها ذهب، وأغصانها فضة، وثمرها اللؤلؤ والزبرجد[1] والياقوت، يبعث الله ريحًا فيحتك بعضها ببعض فما سمع أحد شيئًا أحسن منه. «**وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ فَأُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ**» أي: محضر في جهنم للعذاب، عن أبي علي. وقيل: كلما أخرجوا منها أعيدوا فيها أبدًا، عن أبي مسلم.

۞ الأحكام

يدل قوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ على صحة قولنا في الفناء والإعادة؛ لأن الإعادة إنما تصح إذا صح الفناء.

ومتى قيل: كيف يفنى الخلق؟

قلنا: يخلق ضدا له يقال له: الفناء، فتبقى الأجسام بما فيها من الأعراض، عن أبي علي، وأبي هاشم، وأصحابهما. وقيل: بل يعدم الأجسام، عن أبي الحسين الخياط. وقيل: بل يخلق فيها كونًا لا يبقى، ولا يخلق عقيبه كونا آخر، فينتفي. وقيل: لا تفنى الأجسام؛ وإنما يعيدها بأن يجمعها ويحييها، عن الجاحظ. وقيل: يقول: افْنَ، فيفنى، وهذا ركيك من القول.

ويدل قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ[2] تُرْجَعُونَ﴾ على إثبات المعاد.

ويدل قوله: ﴿يُبْلِسُ﴾ أن الكفار ييأسون من رحمة الله، ويعرفون قبيح ما كانوا عليه، ويعترفون بالحق.

---

(١) الزبرجد: الزبرجرد، ن.

(٢) إليه: وإليه، ن.

وتدل على وعد المؤمنين ووعيد الكافرين.

ويدل قوله: ﴿وَلِقَآيِ[1] ٱلْآخِرَةِ﴾ أن المراد باللقاء في المواضع التي أطلقها لقاء الثواب والقيامة كما قيد هاهنا.

وتدل على أن الإيمان والعمل الصالح والكفر والعمل فِعْلُ العبد، ليس بخلق الله تعالى.

قوله تعالى:

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾

القراءة

قرأ حمزة والكسائي: «وكذلك **تَخْرُجون**» بفتح التاء وضم الراء على أن الخروج مضاف إليهم، وقرأ الباقون بضم التاء وفتح الراء على ما لم يسم فاعله.

اللغة

التسبيح: التنزيه والبراءة من السوء، وسبحان الله: تنزيه[2] له عما لا يليق به من صفات النقص، والصفات على ضروب ثلاثة، وكذلك الأسماء: منها ما يتضمن تعظيمًا ومدحًا، ومنها ما يتضمن تهجينًا ونقصًا، ومنها ما لا يتضمن شيئًا من ذلك.

فالأول: على ضربين؛ منها ما يرجع إلى صفات ذاته كقولنا: قادر، عالم، حي، سميع، بصير، غني، ومنها ما يرجع إلى أفعاله كرازق، وخالق، وغافر، ومنعم، ومتفضل.

والثاني: على ضربين أيضًا، وكلها منفية[3] عن الله تعالى؛ فمنها قولنا: عاجز، وجاهل، ومنها قولنا: مسيء، وظالم ونحوه، تعالى الله عن ذلك.

(١) ولقاء: بلقاء، ن.

(٢) تنزيه: تنزيها، ن.

(٣) منفية: منفي، ن.

وثالثها: كقولنا: مُحَرِّكٌ ومسكن ونحوه.

والإمساء: الدخول في وقت المساء، والإمساء: مجيء الظلام.

والإصباح: الدخول في وقت الصباح، والصباح: ضوء النهار، يقال: أصبح وأمسى، وقد يُذْكرُ ولا يراد هذا المعنى، يقال: أصبح يفعل كذا؛ أي: يفعله.

والإظهار: الدخول في وقت الظهيرة.

والنشر: ضد الطيّ، نَشَرَت الريح نشرًا: إذا جرت، ونَشَرْتُ الشيء: فرقته منتشرًا أي: متفرقة من كل جانب، وأنشر الله الموتى فنشروا، أي: أحياهم بعد موتهم، ومنه: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٧] أي: ينتشر الناس لحاجاتهم.

۞ الإعراب

(سبحان) قيل: نصب على المصدر، وقيل: على الإغراء، أي: عليكم تسبيح الله تعالى.

نصب (عشيًا) بمحذوف دل عليه الكلام، وتقديره: سبحوه عشيًا، فهو نصب على الظرف أي: في ذلك الوقت.

و﴿حِينَ تُمۡسُونَ﴾ أي: في المساء، وهو ظرف أيضًا.

۞ المعنى

ولما تقدم ذكر ما اتخذوه من الآلهة، وأنها لا تغني عنهم شيئًا؛ أمر تعالى بعبادته؛ لأنه المالك للنفع والضر، وإليه المصير، ثم عقبه بذكر دلائل التوحيد. وقيل: لما ذكر فوز المؤمن عقبه بالأمر بالعبادة، كأنه قيل: إن أردتم ذلك فاعبدوه وسبحوه، فقال سبحانه: «فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ» هذا خبر والمراد: الأمر، أي: سبحوه، قيل: نزهوه عن أن تصفوه بما لا يليق به من الصفات والأسماء والأفعال، وخص هذه الأوقات لما فيه من الدلائل الموجبة لتغيير الأحوال وتبديل الضياء والظلام وأحوال الشمس والقمر، عن أبي مسلم. وقيل: المراد به الصلوات[1]

(١) الصلوات: الصلاة، ن.

الخمس، أي: صلوا حين تمسون وهو صلاة المغرب والعشاء الآخرة «وَحِينَ تُصْبِحُونَ» صلاة الصبح، «وَعَشِيًّا» صلاة العصر «وَحِينَ تُظْهِرُونَ» صلاة الظهر، عن ابن عباس، ومجاهد، وأبي علي. وهو الأحسن؛ لأنه خص هذه الأوقات بالذكر. وقيل: في الآية تقديم وتأخير، [والتقدير:] فسبحان الله حين تظهرون وعشيًّا وحين تمسون وتصبحون «وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ» يعني: هو المستحق لحمد أهلها؛ لأنه المنعم عليهم «يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ» قيل: النطفة من الإنسان والإنسان من النطفة، عن ابن عباس، وعبد الله. وقيل: المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن، عن قتادة. «وَيُحْيِي الأَرْضَ» بالنبات والثمار وأنواع النعم «بَعْدَ مَوْتِهَا» أي: كانت يابسة لا نبت عليها، وإنما أطلق اسم الحياة والموت توسعًا «وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ» أي: من قبوركم أحياء «وَمِنْ آيَاتِهِ» حججه «أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ» أي: بخلقه أباكم من تراب، عن قتادة؛ لأنه خلق أولاده منه وخلقه من تراب «ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ» أي: صيركم بشرًا من ذريته تتفرقون في الأرض، وتتصرفون على ظهرها سائر التصرفات.

۞ الأحكام

تدل الآية على وجوب تنزيه الله تعالى، وفي الصلاة تنزيهه؛ فلذلك حمل عليه.

وتدل على عظيم قدرته ونعمته في خلق الأشياء؛ لذلك عدها.

وتدل على صحة الإعادة؛ لأن مَنْ قَدَرَ على إنشاء الخلق قدر على إعادته.

وقيل: في الآيات دلالة من ثلاثة أوجه:

تدل على صانع حكيم قادر على ما يشاء.

وتدل على وجوب الشكر له؛ لما له من النعم السابغة على عباده.

وتدل على الإعادة.

ويدل قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾ على صحة القياس والحجاج.

وتدل على أن التسبيح فِعْلُ العبد؛ لذلك أمر به.

قوله تعالى:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً
وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ
وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ
يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ
دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾

القراءة

قرأ حفص عن عاصم: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ بكسر اللام، يعني: العلماء، والباقون بفتح اللام بمعنى [الخَلْقِ]، واحدها: عَالَمٌ.

اللغة

النفس والذات من النظائر.

والسكون: الطمأنينة، وأصله السكون الذي هو خلاف الحركة، والحركة والسكون من جنس الأكوان.

والمودة والمحبة من النظائر، وتستعمل بمعنى الإرادة وبمعنى الشهوة.

والنوم: سهو يعتري الإنسان مع فتور في الأعضاء، وليس بمعنى برأسه، وقال بعضهم: إنه معنى.

والابتغاء: الطلب.

والقنوت: الطاعة.

۞ الإعراب

في قوله: ﴿يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ أقوال:

أولها: حذف (أن) تقديره: ومن آياته أن يريكم، كقول طرفة:

أَلاَ أَيُّهَا الزَّاجِري أَحْضُرَ الْوَغَى ... وَأَنْ أَشْهَدَ اللَّذَّاتِ هَلْ أَنْتَ مُخْلِدِي[1]

أراد: أن أحْضُرَ[2] الوغى.

الثاني: حذف (أنه) لدلالة (من) عليها، كقول الشاعر:

فَمَا الدَّهْرُ إِلاَّ تَارَتَانِ فَمِنْهُمَا ... أَمُوتُ وَأُخْرَى أَبْتَغِي الْعَيْشَ أَكْدَحُ[3]

أي: فتارة أموت.

الثالث: ويريكم البرق من آياته على التقديم والتأخير من غير حذف.

الرابع: ومن آياته آيات يريكم فيها البرق.

ونصب ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ على تقدير: للخوف، فلما حذف اللام نصب الفعل.

۞ المعنى

ثم ذكر من دلائل وحدانيته وسوابغ نعمته ما يدل على صانع يجب شكره، فقال سبحانه: «وَمِنْ آيَاتِهِ» أي: من حججه «أَنْ خَلَقَ [لَكُمْ]» أيها الرجال «مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا» قيل: من شكل أنفسكم وجنسكم، عن أبي مسلم. وقيل: من نطف الرجال، عن أبي علي. وقيل: أراد حواء خلقت[4] من ضلع آدم، عن قتادة. وإنما منّ بأن جعل الزوج من جنسنا؛ لأن الشكل إلى الشكل أَمْيَلُ «لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا» لتطمئنوا إليها وتألفوها

(١) البيت ورد في معلقة طرفة بن العبد.

(٢) أن أحضر: حَضر، ن.

(٣) البيت قائله العجير بن عبد الله السلولي، انظر: اللسان وتاج العروس، مادة (كدح).

(٤) خلقت: خلق، ن.

«**وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً**» قيل: بين المرأة وزوجها. وقيل: بين الخلق، ويرحم الوالد الولد، والولد الوالد، والأخ الأخ من غير سبب من جهته. وقيل: هو التواد والتواصل المأمور به ليتعاونوا على فعل الطاعة «**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**» فيها «**وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ**» قيل: اختلاف الألسن هو اختلاف النغمات، وذلك لا يختلف إلا باختلاف التركيب؛ ولذلك تختلف أصوات الطيور والسباع والدواب والإنسان. وقيل: اختلاف اللغات، فهو إما أن يكون توقيفًا، فهو الذي ابتدأها، أو مواضعة فهو الذي يَسَّرَها «**وَأَلْوَانِكُمْ**» صوركم وهيئاتكم، فأبيض وأسود وأحمر، ولا يشبه أحد أحدًا، وهم ولد آدم، وما ذكر ذلك إلا لاختلاف تركيب لا يقف عليه أحد سواه تعالى «**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ**» المكلفين؛ لأن ذلك مما يشاهده كل أحد، وعلى قراءة حفص خص العلماء؛ لأنهم ينظرون في الأدلة فيعرفون المدلول «**وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ**» أي: طلبكم من نعمه «**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ**» الحجج «**وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ**» وهو نار تحدث في السحاب، وقد مضى ما قيل فيه «**خَوْفًا وَطَمَعًا**» قيل: خوفًا من الخَلْبِ فلا تمطر وطمعًا في المطر، عن أبي مسلم. وقيل: خوفًا من المطر في السفر(١)، وطمعًا في الحضر، أي: يخاف المسافر ويطمع المقيم. وقيل: يخاف الصاعقة ويرجو المطر. «**وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ**» بالنبات «**بَعْدَ مَوْتِهَا**» أي: يَبْسِها «**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**» قيل: يعلمون بأن يستدلوا، وخصهم لأنهم ينتفعون به. وقيل: تفضلاً؛ لأنهم المكلفون «**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ**» أي: وقوفها من غير عمد ولا علاقة، «**بِأَمْرِهِ**»، قيل: بفعله الإمساك فيها(٢) «**ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأَرْضِ**» قيل: من القبر، عن ابن عباس. وقيل: هو منادي القيامة يحييهم الله تعالى ثم يناديهم. وقيل: معناه: أخرجكم، فهو بمنزلة الدعاء «**إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ**» من الأرض أحياء «**وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**» ملكًا وخلقًا «**كُلٌّ لَهُ**

(١) السفر: السفن، ن.

(٢) فيها: فيه، ن.

﴿قَانِتُونَ﴾ قيل: مطيعون في تصريفه، لا يمتنع عليه شيء فيما يريد بهم من حياة أو موت، فناء أو بقاء، إيجاد أو إعادة، صحة أو مرض، بعث أو نشور، عن ابن عباس. وقيل: قانتون يقرون بربوبيته طوعًا أو كرهًا، وقيل: القنوت الدوام، والمؤمنون دائمون على طاعته، والكافرون [وغيرهم من الفساق دائمون] على أمر [واحد في الذلة لله عز وجل] فقد جمعهم أمر واحد دائمون عليه، وهو الذلة[١] [لله عز وجل] إلا أن منهم بخلقته[٢] [وفعله] ومنهم بفعله[٣]، وقيل: قانتون دائمون في عرصة القيامة.

۞ الأحكام

تدل جميع الأشياء المذكورة على صانع مدبر قادر عالم.

وتدل على بطلان مذهب أصحاب الضرورة؛ إذ لو كان كما قالوا لم يكن للأمر بالتفكر معنى.

وتدل أنه أراد من المكلف التفكر في آياته، خلاف ما تقوله المجبرة.

ومتى قيل: كيف تدل هذه الأشياء؟ وبِكَمْ وجه تدل؟

قلنا: أما خلق البشر: فهو أنه خلق من النطفة بشرًا سويًا عالمًا قادرًا متكلمًا، ثم ينقل الأحوال، ثم الحواس، فيبصر بشحم، ويتكلم بلحم، ويشم بخرم، ويعلم بلحم، ويسمع بعظم، ثم ما فيه من العروق، والأعصاب، والعظام، والعضلات، والدماء، والأعضاء، والشعور، والجلد والأصل واحد، ثم تصويره في الرحم، ثم أعضاؤه الباطنة من الحلق، والمعدة، والكبد، والطحال، والأمعاء، والقلب، ثم النماء في حال، والنقصان في حال، إلى غير ذلك من الدلائل الدالة على حدثه وصانعٍ دبره وخلقه.

---

(١) الذلة: الدلالة، ن.

(٢) بخلقته: يخلقه، ن.

(٣) بفعله: من يفعله، ن. وما أثبتناه من التبيان للطوسي: ٨/ ٢٣٥.

فأما خلق الزوجة: فلِمَا خلق في الرحم من الذكر والأنثى، ثم الألفة التي بين الزوجين.

فأما السماء: فَخَلْقُها، ورفعها، وتزيينها، وإمساكها، ثم الأفلاك الدائرة، والنجوم السائرة فيها، والمنازل لها، وكل ذلك تقدير العزيز العليم.

فأما الأرض: فَخَلْقُها، وبسطها، وسكونها، وجبالها، ومياهها، وأشجارها، وما فيها من ضروب النعم.

فأما اختلاف الألسن: فاختلاف نغماتها وأصواتها وألفاظها وهمساتها، وصورها وهيأتها، حتى لا يشتبه اثنان مع كثرة الخلق، فلا يلتبس اثنان، فدبرها بهذا التدبير لمصلحة عباده.

فأما النوم: ففي خَلْقِهِ، وما فيه من مصلحة جميع الحيوانات، ولما فيه من الراحة والدعة، وما في وقته المعد له والانتباه بعده.

وأما النهار: للضياء، وخلق أسباب التصرف.

وأما البرق والسحاب: فخلقه ورفعه، والماء الذي يخرج منه مع البرق المتلألئ خلاله، وهما متضادان دلالة على صانع مدبر.

وفي إخراج النبات مع اختلاف ألوانها وهيئاتها وأثمارها وطعومها وروائحها ومنافعها ومضارها، وكذلك في سكون السماء والأرض، وكونهما قرارًا للخلق من الملائكة والجن والإنس ومتصرفاتهم، مع ما يتصل به من المنافع من البحار والأطعمة والأغذية.

وتدل أن الله يحييهم، ثم يناديهم؛ لأن دعوة الأموات لا تصح.

قوله تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

القراءة

قراءة العامة: ﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾، وعن ابن مسعود: «يُبْدِئ» اعتبارًا بقوله: ﴿يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج: ١٣] والمعنى واحد.

اللغة

الهَيِّنُ والهَيْنُ بالتخفيف والتشديد: السهل، وأصله الواو، ويقال: هان هونًا، أي: سهل، والوَهَنُ: الرفق واللين، وفلان هَيْنٌ ولَيْنٌ وهَيِّنٌ لَيِّنٌ، وقيل: الذمّ بالتَّشديد، والمدح بالتخفيف، وقيل: بل معناهما واحد، والأصل التشديد ثم يخفف.

والحَنَفُ: قيل: الميل، وقيل: الاستقامة، فسمي الأحنف تفاؤلاً.

والفَطْرُ: أصله الشق، ومنه: فَطَرَ نَابُ البعير، والله فاطر كل شيء، كأنه أظهرها بالشق عنها وهو إحداثها.

والفِطْرَةُ: الدين، سمي فِطْرَةً قال أبو علي: لأنه فطر لهم، كما يسمى المبيع بيعًا.

الإعراب

﴿حَنِيفًاۚ﴾ نصب بـ(أقم).

﴿فِطۡرَتَ﴾ نصب على المصدر، أي: فَطَرَ فِطْرَةَ، وقيل: على الإغراء، أي: عليكم فِطْرَةَ الله فاتبعوه.

المعنى

ثم عاد الكلام إلى دلائل الوحدانية، فقال سبحانه: «وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ» أي: يخلقهم ابتداء من غير شيء، ثم يعيدهم بعد الإفناء «وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ» قيل: هين عليه، أي: سَهْلُ يسير، عن ابن عباس، والحسن، والربيع بن خيثم. يقال: رجل أميل وأصوب، قال الشاعر:

إِنَّ الَّـذي سَـمَـكَ الـسَّـمَـاءَ بَـنَـى لَـنَـا   بَـيْـتًـا دَعَـائِـمُـهُ أَعَـزُّ وَأَطْـوَلُ[1]

أي: عزيز طويل، قال الأخفش: ولا يجوز أن يحمل على (أَفْعَلَ)؛ لأن ابتداء الخلق ليس أهون عليه من إعادته، وقد زيف أبو علي هذا القول من حرب [﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ[2]] وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ ينصرونهم لينجوهم][3] من عذاب الله تعالى «فَأَقِمْ وَجْهَكَ» قيل: دُمْ على الاستقامة في الدين. وقيل: أطع الله في أمره. وقيل: الإخلاص، وقيل: اتبع من الدين ما تدلك عليه فطرة الخلق وهو الدين القيم، واجتنب ما لا يدل عليه العقل «حَنِيفًا» أي: مستقيمًا مائلاً إلى الحق ثابتًا عليه،

---

(١) البيت قائله الفرزدق، انظر: ديوان الفرزدق، تحقيق: علي فاعور، وتاج العروس، اللسان (عزز)، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٩.

(٢) الآيات التي بين المعكوفين تفسيرها ساقط.

(٣) لينجوهم: لينجيهم، ن.

تاركًا للباطل «فِطْرَةَ اللَّهِ» قيل: دين الله وهو الإسلام، عن مجاهد، وأبي علي. «الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا» قيل: لها ولأجلها خلق الخلق، وقيل: فيه إضمار أي: اتبع فطرة الله التي خلق الناس لأجلها، وقيل: «فِطْرَة الله» أي: اتبع مِنْ الدين ما دلك عليه فطرة الله، وهو ابتداء خلقه للأشياء؛ لأنه خلقهم وركبهم وصورهم على وجه دل أن لها صانعًا قادرًا عالمًا حيًا سميعًا بصيرًا واحدًا لا يشبه شيئًا، عدلاً لا يظلم ولا يجور، عن أبي مسلم. «لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ» قيل: لدين الله، عن سعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وإبراهيم، وابن زيد. ومعناه: لا ينبغي أن يبدل دينهم، فهو نهي. قيل: هو الخصاء، عن ابن عباس، وعكرمة. وقيل: معناه: لا تبديل لخلق الله الناس للدين القيم وهو الإسلام الذي فطر الناس له، عن أبي علي. وقيل: لا تبديل فيما دل عليه، يعني: أنه فطر على وجه يدل على صانع مدبر حكيم، لا يمكن أن يجعل خلقًا لغير الله حتى يبطل وجه الاستدلال، عن أبي مسلم. يعني: ما دلت عليه الفطرة لا يمكن فيه التبديل «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ» أنه خلقهم لعبادته، وقيل: لا يعلمون أن الدين القيم الإسلام.

۞ الأحكام

يدل قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ على الفناء والإعادة على ما نقوله.

ويدل قوله: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا﴾ على صحة الحجاج في الدين، وعلى صحة القياس.

ويدل قوله: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم﴾ أن الظلم واتباع الهوى فعلهم، ليس بخلق الله تعالى، فيبطل قولهم في المخلوق.

ويدل على قبح اتباع الهوى، وأن الواجب اتباع الأدلة.

ومتى قيل: كيف يتبع الهوى؟

قلنا: يتبع هوى نفسه لرئاسة يحوزها أو مال أو جاه، وقد يتبع هوى غيره تقليدًا كالعوام.

وتدل أن العمل بغير علم يقبح.

وتدل على قبح التقليد.

وتدل أن المعارف مكتسبة؛ لذلك وصف أكثرهم بأنهم لا يعلمون.

ويدل قوله: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ أن الواجب التمسك بالدين الذي لأجله خلق الخلق، وهو الإسلام، ويبطل قول المجبرة: إنه خلق بعض الخلق لذلك.

وتدل على أن هذه الفطرة لا تختلف بالأوقات؛ فلذلك قال: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾؛ فلهذا نقول: إن المراد به التوحيد والعدل، دون الشرائع التي يقع فيها التبديل والتغيير.

قوله تعالى:

﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾

۞ القراءة

قرأ حمزة والكسائي: «**فارقوا دينهم**» أي: تركوا دينهم، وقرأ الباقون: ﴿فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾ أي: جعلوا ذلك [**أديانا مختلفة**][1].

والقراءة الظاهرة: ﴿فَتَمَتَّعُوا۟﴾، وفي مصحف ابن مسعود: «**وليتمتعوا**».

۞ اللغة

الإنابة: أصله القطع، ومعناه: الانقطاع إلى الله تعالى بالطاعة، وقيل: أصله ناب ينوب: إذا رجع مرة بعد مرة، فتكون الإنابة التوبة التي فعلوها مرة بعد مرة.

---

(١) ما بين المعكوفين ساقط في ن. وما أثبتناه من البحر المديد: ٥/٧، الكشاف: ٥/ ٢٥١.

والتفريق: ضد الجمع، والافتراق والاجتماع من جنس الألوان.

والشيع: الفِرَق، فكل فرقة شيعة على حدة، سموا بذلك؛ لأن بعضهم يُشَيِّعُ بعضًا، أي: يتابعه، والشيعة: مَنْ تَبِعَ أمير المؤمنين.

والحزب: الجماعة، وجمعه: أحزاب، تَحَزَّبَ القوم: صاروا أحزابًا وفرقًا.

الإعراب

﴿مُنِيبِينَ﴾ نصب على الحال، يعني: منيبين في حالة إقامة الوجه للدين.

ومتى قيل: إذا كان الخطاب للنبي ﷺ فَلِمَ صرف إلى كل المكلفين؟

قلنا: الخطاب للجميع وإن كان على لفظ واحد؛ لأن كل مكلف داخل في الآخر، كأنه قيل: أقم أيها السامع.

وقيل: فيه حذف، أي: أقم أنت وأمتك.

وقيل: لأنهم مذكورون في قوله: ﴿ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾، عن أبي مسلم.

المعنى

ثم أمر تعالى بالإخلاص بعد إقامة الدلائل على بطلان الشرك، فقال تعالى: «**مُنِيبِينَ إِلَيْهِ**» أي: راجعين إليه بالتوبة مقبلين عليه بالطاعة «**وَاتَّقُوهُ**» أي: اتقوا عذابه باتقاء معاصيه «**وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ**» أديموها في أوقاتها «**وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، مِنَ الَّذِينَ فَارَقُوا دِينَهُمْ**» يعني: خالفوا دين الحق وتركوه و«**فَرَّقُوا**» أي: كل واحد دان بدين آخر على ما يهواه، فهم جعلوها أديانًا، والحق واحد «**وَكَانُوا شِيَعًا**» أي: فرقًا، لكل واحد مذهب ودين وإن جمعهم تَرْكُ الحق، قيل: هم اليهود والنصارى، عن قتادة. وقيل: جميع الكفار، وقيل: هم أهل البدع، روي مرفوعًا، رواه عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ وقد سألته[1] عائشة ـ: «لكل صاحب ذنب توبة إلا صاحب البدع والأهواء ليست لهم توبة، أنا منهم بريء وهم مني براء».

---

(١) سألته: سألت، ن.

ومتى قيل: لِمَ أضاف الدين إليهم؟

قلنا: لأنهم أمروا به، وأوجب عليهم اعتقاده.

«كُلُّ حِزْبٍ» أي: جماعة وفرقة «بِمَا لَدَيْهِمْ» بما عندهم بما يعتقدونه من المذهب والدين «فَرِحُونَ» قيل: يتعجبون يظنون أنهم على الحق، وقيل: مسرورون به من [اعتقادهم] العلم[1] بصحته «وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ» أي: أصابتهم، قيل: هم أهل مكة، وقيل: سائر الكفار «ضُرٌّ» مرض أو فقر، عن الحسن. وقيل: هو ما يصيبهم في أنفسهم وأقاربهم وأموالهم «دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ» أي: منقطعين إليه «ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً» قيل: استجاب دعاءهم ورَحِمَهُمْ، وقيل: أعطاهم نعمه لا بدعائهم، والذوق تَوَسُّعٌ، والمراد: إذا أعطاهم، وقيل: الرحمة الخصب والنعم «إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ. لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ» بإضافة النعم إلى غيره فهم بين كافر أو شاك «فَتَمَتَّعُوا» بهذه الدنيا «فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ» عاقبة أمرهم إذا بعثوا للجزاء «أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا» قيل: برهانًا يتسلطون به على ما ذهبوا إليه، وقيل: رسولاً. وقيل: حجة وعذرًا، عن ابن عباس، والضحاك. وقيل: كتابًا، عن قتادة، والربيع. «فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ» أي: يتكلم بحجة وعذر لهم في شركهم، وهذا استفهام والمراد الإنكار، يعني: فعلوا ذلك من غير حجة وبرهان.

۞ الأحكام

يدل قوله: ﴿مُنِيبِينَ﴾ إلى آخره على وجوب التمسك بالإنابة، وأن الجنة تنال بفعل الطاعات واجتناب الشرك.

ويدل قوله: ﴿ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ﴾ على قبح ما هم فيه من الدين، وتفرقهم عن الحق.

وتدل أن كل فعل من غير برهان فهو باطل؛ لذلك قال: ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾.

وتدل أن تفريق الدين والشرك فِعْلُهُمْ، ليس بخلق الله تعالى، فيصح قولنا في المخلوق.

(١) العلم، علم، ن.

قوله تعالى:

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾

۞ القراءة

قرأ ابن كثير: «أَتَيتُمْ» مقصورة الألف غير ممدودة، وقرأ الباقون: ﴿ءَاتَيْتُم﴾ ممدودة بالألف بمعنى أعطيتم.

قرأ أبو جعفر ونافع ويعقوب: «لِتُربوْا» بالتاء وضمها وسكون الواو، وهو قراءة ابن عباس والحسن، واختيار أبي حاتم على الخطاب وعلى أن الفعل لهم أي: لتربوا أنتم، وقرأ الباقون: ﴿لِّيَرْبُوَاْ﴾ بالياء وفتحها ونصب الواو وجعل الفعل مضافًا إلى الرِّبا، واختاره أبو عبيد لقوله: ﴿فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾.

۞ اللغة

الإذاقة: إدراك الشيء في ابتدائه كإدراك الطعام، وأصل الذوق: المَذُوق، والذائق: المدرِك، والقديم سبحانه يدرك جميع المدركات؛ ولكنه لا يلتذ ولا يتألم.

والقنوط: اليأس، قَنَطَ يَقْنِطُ، نحو: ضَرَبَ يَضْرِب، وقَنِطَ يَقْنَطُ، نحو: حَمِدَ يَحْمَدُ.

والربا في اللغة: الزيادة، وهو في الشرع اسم لعقد فاسد، وإن لم يكن فيه زيادة كبيع الذهب بالذهب نَسَاء.

وضِعْفُ الشيء: مِثْلُهُ، والمُضْعِفُ ذو الأضعاف، كما أن المُوسِرَ ذو اليسار.

النزول

قيل: نزل قوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا﴾ في ثقيف كانوا يربون.

المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى من ذميم أفعالهم، فقال سبحانه: «**وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا**» يعني: يسرون إذا أوتوا النعم «**وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ**» قيل: عقوبة، عن أبي علي. وسماها سيئة توسعًا؛ لأنها جزاء السيئة، وقيل: شدة من شدائد الدنيا، وسميت سيئة؛ لأنها تسوء صاحبها «**بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ**» أي: جزاء ما فعلوا، وإنما ذكر اليد لوجهين:

أحدهما: تأكيد الإضافة كما يقال: هذا ما جنت يداك.

والثاني: على التغليب؛ لأن أكثر الأعمال وأظهرها باليد.

«**إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ**» ييأسون من رحمة الله، ولا يرجعون إليه، يعني: عند النعم بطروا ولم يشكروا، وعند الشدة قنطوا ولم يصبروا، وذلك عادة الجهال بالله تعالى، وأما عند العلماء إذا علموا أنه يفعل جميع ذلك مصلحة للعبد، فإنه يشكر النعمة، ويصبر عند الشدة، ويعد كل ذلك مصلحة. وقيل: معناه: إذا أتاهم العذاب قنطوا من عذر وحجة يتعلقون بها. «**أَوَلَمْ يَرَوْا**» أي: أولم يعلموا «**أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ**» أي: يوسع ويضيق بحسب المصلحة. فلا ينبغي أن نقنط عند الشدة «**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**» وخصهم؛ لأنهم المنتفعون بالآيات «**فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ**» قيل: هو خطابٌ للنبي ﷺ أي: أعط قرابتك حقهم وهو صلة الرحم، وقيل: هو نصيبهم من الفيء. وقيل: بل الخطاب له ولغيره؛ لذلك قال: «**ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ**»، ثم القربى هذا يحتمل أقرباء النبي، وما أوجب لهم من الحق، ويحتمل أقرباء المتصدق. واختلفوا في الحق المذكور في الآيات، قيل: ذلك الحق هو الفيء لأقرباء النبي ﷺ وغيرهم. وقيل: هو الواجبات من الحقوق. وقيل: هو الزكوات والعشور، وذو القرابة يكون مقدمًا على غيرهم، وإنما حمل على الواجبات:

لأن التبرعات لا يقال: إنها حق على المعطي «وَالْمِسْكِينَ» هو الفقير الذي لا شيء له، عن أبي حنيفة وأصحابه وجماعة من أهل اللغة. وقيل: هو الفقير له بُلْغَةٌ، عن الشافعي. «وَابْنَ السَّبِيلِ» هو المسافر المنقطع عن ماله، سمي ابن السبيل لقطعه السبيل، وقيل: أراد أضياف الغرباء، والأول الوجه؛ لأن الضيافة ليست بحق. «ذَلِكَ خَيْرٌ» يعني: فعل ما أمر به خير «لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ» أي ابتغاء مرضاته وثوابه «وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» الفائزون بالبقاء الدائم والثواب المقيم. «وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ» في الربا المذكور في الآية قولان:

أحدهما: أنه رِبًا حلال، وهو قول جماعة من المفسرين.

والثاني: أنه أراد الربا المحظور، وهو قول جماعة.

فمن ذهب إلى القول الأول اختلفوا، فقيل: هو الرجل يُعْطِي العطية ليُعْطَى أكثر منها، فهذا ربا حلال، ليس فيه وزر، ولا أجر أيضًا؛ لأنه لم يرد به وجه الله، عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وطاووس، وقتادة، والضحاك. وقيل: هو الرجل يجعل للرجل شيئًا من ربح ماله ليخدمه ويسافر معه، وإنما يعطيه التماس عونه، ولم يرد وجه الله، عن الشعبي. وقيل: المعنى فيه التزهيد في الدنيا، والترغيب في الآخرة.

وفي إعطاء الزكاة وإعطاء المال على وجوه:

منها: ما يستحق عليها الأجر.

ومنها: ما لا يستحق عليه الأجر.

فالأول: كالصدقة، والصلة، ورد الوديعة، والبر، والنذور، والقروض.

والثاني: كالهبات لا لله، وقضاء الديون ونحو ذلك.

فأما من ذهب إلى القول الثاني وحمل الربا على الربا المحظور فهو قول الحسن وأبي علي، وهو الْأَوْجَهُ؛ لأن الربا في عُرْفِ الشرع هو المحظور. ثم اختلفوا، فقيل: تُرْبُون ليزيد مالكم، والله تعالى لا يبارك فيه؛ بل يمحقه ويستحق عليه العقاب. وقيل:

(فِي)[1] بمعنى الباء أو بمعنى (مِنْ)، [أي]: لتربوا مالكم بمال الناس أو من مالهم، وحروف الصفات[2] تتعاقب.

«فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ» على القول الأول أنه مباح، معناه: لا أجر عليه عند الله؛ لأنه لم يُفْعَلْ له، وعلى القول الثاني أنه الربا المحظور معناه: أنه تعالى لا يبارك فيه ليزيد، وقيل: لا يربو ماله؛ لأن ما أخذه حرام يجب رده، وليس بمال له، فالمتوهم أنه ماله وزيادة في ماله مُخْطِئٌ، وقيل: لا يربو عند الله بالتضعيف والخلف. «وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ» أي: أعطيتم من الزكاة على ما فرض الله تعالى وشرعه «تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ» أي: طلب ثوابه ومرضاته «فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ» قيل: يضاعف لهم الثواب على ذلك.

ومتى قيل: لم قال: «الْمُضْعِفُونَ» بكسر العين ولم يقل بفتحها؟

قلنا: لأن المراد ذو أضعاف، كقولهم: مُوسِرٌ: ذو يسار، وقيل: لأنهم استحقوا ذلك بطاعاتهم، فكأنهم ضعفوا ذلك بإخراج المال إلى الفقراء، قال الحسن: ونظير هذه الآية: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، ولا خير في العطية إلا أن تكون لوجه الله. وقيل: إن الآية من تلوين الخطاب، يبدأ بالخطاب، ثم يثني بالخبر، ثم يرجع إلى الخطاب، وهذا يُعَدُّ من فصيح الكلام.

ثم عاد إلى دليل الوحدانية، فقال سبحانه: «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ» أحدثكم ابتداء مقتدرًا كما أراد «ثُمَّ رَزَقَكُمْ» أي: أعطاكم أنواع النعم «ثُمَّ يُمِيتُكُمْ» لقطع التكليف «ثُمَّ يُحْيِيكُمْ» بعد الموت للجزاء «هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ» أي: ممن تدعون أنهم شركاء «مَنْ يَفْعَلُ مِن ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ» أي: يقدر على مثل ذلك «سُبْحَانَهُ» تنزيه[3] له من الشريك ومن كل سوء «وَتَعَالَى» جده «عَمَّا يُشْرِكُونَ».

(١) في، الفاء، ن.
(٢) يعني حروف الجر.
(٣) تنزيه، نزاه، ن.

❁ الأحكام

يدل أول الآيات على قبح ما كانوا عليه من البطر عند النعمة والقنوط عند الشدة، وتحذيرًا من سلوك طريقتهم، وأن الواجب عند النعمة الشكر وعند الشدة الصبر، وذلك إشارة إلى وجوب القول بالتوحيد والعدل؛ لأن مَنْ عَرَفَ أنه تعالى حكيم لا يفعل إلا ما هو صلاح وخير، وأنه يدبرهم بحسب مصالحهم، وأنه يشكر عند النعمة، ويصبر عند الشدة لِمَا علم أن جميع ذلك مصلحة، فأما عند المجبرة إذا جوزوا على الله تعالى فعل القبائح، فعند النعمة لا يأمن أن يكون استدراجًا إلى الكفر والنار، وعند المحنة لا لمصلحة وعوض، فلا عند النعمة يجب الشكر، ولا عند الشدة يجب الصبر، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ﴾ يدل على ذلك؛ لأنه يبسط ويضيق بحسب المصلحة، فيجب الشكر والصبر.

وتدل على أن القنوط يقبح؛ لأن مع سعة رحمة الله كيف يصح القنوط؟ ومع فتح باب التوبة، ولأنه إذا قال: كَلَّفَهُ، ولا طريق له إلى النجاة فقد أضاف القبيح إلى الله سبحانه.

ويدل قوله: «**فآت**» أن في المال حقًّا واجبًا، والأقرب أنه الزكوات والعشور؛ لأن الحق إذا أطلق فإنما يفهم الحقوق الواجبة.

وتدل على أن إعطاء الزكوات إنما يكون طاعة إذا أريد به وجه الله.

وتدل على أنه يضاعف عليه الثواب.

وتدل أن الربا وإن زاد في المال ظاهرًا ففي الحقيقة غير زائد؛ وذلك للوجهين اللذين ذكرناهما، والزكاة وإن نقصت ففي الحقيقة زيادة.

ويدل آخر الآيات أنه تعالى المنعم بأصول النعم التي بها يستحق العبادة من الخلق والحياة والشهوة والتكليف والإعادة، وإنما ذكر الحياة في الدارين؛ لأن النعم لا تتم إلا بها.

وتدل على أن الشرك والربا فعل العبد؛ لذلك استحق العقوبة عليها.

قوله تعالى:
﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١) قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ (٤٢) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (٤٣) مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ (٤٥)﴾

القراءة

قراءة العامة: ﴿لِيُذِيقَهُم﴾ بالياء، ترجع الكناية إلى اسم الله تعالى، وقد تقدم ذكره، وعن السلمي: «**لنذيقهم**» بالنون، وهو اختيار أبي حاتم.

اللغة

الظهور: خروج الشيء إلى حيث يقع عليه الإحساس، ثم هو على ثلاثة أضرب: ظهور للحس بإخراجه من «كِن»، وظهور بإخراجه من العدم، وظهور بالدليل.

المَهْدُ: معروف، ومهدت الأمر: هَيَّأْتُ.

والبحر: خلاف البَرّ، وأصله من السعة.

والبَرُّ: الأرض القفر، وأصله من البِرِّ؛ لأنه يبرّ[1] بصلاح المقام فيه، [ولأنه يبر بصلاحه في الغذاء].

والصَّدع: الشق، وصدعته فانصدع، والصَّدْع: النبات؛ لأنه يصدع الأرض، وتصدع القوم: تفرقوا، ومن ذلك: يَجْعَلُ المُصَدِّقُ الغنم صَدْعَيْنِ أي: فِرْقَيْنِ، قال الشاعر:

وَكُنَّا كَنَدْمَانَيْ جَذِيمَةَ حِقْبَةً ... مِنَ الدَّهْرِ حَتَّى قِيلَ لَنْ يَتَصَدَّعا[2]

أي: لن يتفرقا.

---

(١) يبرّ: بيْ، ن.

(٢) البيت لمتمم بن نويرة اليربوعي من قصيدة يرثي بها أخاه مالكًا ـ انظر: لسان العرب وتاج العروس، مادة: «صدع».

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى ما ظهر بسبب عصيانهم، وعقبه بالأمر والنهي والوعد والوعيد والموعظة، فقال سبحانه: «ظَهَرَ الْفَسَادُ» قيل: الفساد المعاصي بدليل قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، والمراد ظهر عقوبة الفساد، عن الحسن. وقيل: الفساد قلة المطر، ونقص الغلات، وذهاب البركة. وقيل: الفساد قتل قابيل هابيل «فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ» ما حكى الله تعالى في سورة (الكهف) من قصة الملك الجائر الذي كان يأخذ كل سفينة غصبًا، عن ابن عباس، ومجاهد. «فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ» قيل: في العلماء والعوام، فالبحر: العلماء، والبرّ: العوام، فيظهر الفساد في العلماء بإظهارهم البدع أو اشتغالهم بالدنيا أو لغفلتهم أو لطلبهم الرئاسة، فيتعدى ذلك إلى فساد العامة. وقيل: أجدب البر وانقطعت مياهه. وقيل: كان هذا قبل البعثة أظلمت الأرض بالكفر والبدع، فلما بُعِثَ محمد صلى الله عليه رجع راجعون إلى الحق. والأوجه هو الأول ظهرت المعاصي في البر والبحر، قيل: البر: البادية، والبحر: القرى التي على الأنهار العظيمة، عن قتادة. وقيل: البَر: الأمصار، والبحر هو المعروف، عن عطية قال: إذا قَلَّ المطر قَلَّ الغوص، قال ابن عباس: إذا مطرت السماء فتحت الأصداف فاها، فما وقع فيها فهو لؤلؤة مِلْحاً كان أو عذبًا. وقال مجاهد: والله ما بحركم هذا، ولكن كل قرية على ماء جار فهي بحر. وقال عكرمة: العرب تسمي القرى بحرًا. وقال الحسن: البحر: القرى على ساحل البحر. «بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ» قيل: بما عملوا من الكفر والفسق، وقيل: بسوء فعلهم، وبشؤم معاصيهم. وقيل: أراد به الفسق دون الكفر؛ لذلك أضافه إلى الأيدي «لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا» قيل: عقوبة ببعض ما عملوا «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» عن أفعالهم القبيحة، فحذف الجزاء لدلالة الكلام عليه، وقيل: ليذيقهم المصائب والمحن لطفًا لهم؛ ليرجعوا عن المعاصي بأن يتفكروا في أنفسهم فإذا لم يمكنه دفع هذه المشاق فَلأَنْ لاَ يمكنه دفع عذاب النار أولى، فإذا تفكر في هذا رجع[1] إلى الله وتاب عن معاصيه، . وقيل: هو لطف وعقوبة «قُلْ» يا محمد لهم: «سِيرُوا فِي الأَرْضِ» ليس هو بأمر، وإنما هو مبالغة في العظة وإقامة للحجة. وعن

(١) رجع: يرجع، ن.

ابن عباس: من قرأ القرآن وعلمه سار في الأرض، يعني: أن فيه أخبار الأمم. «**فَانظُرُوا كَيفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ**» من الملوك الفانية والأمم الماضية كيف أهلكهم الله، وقد صار مجالسهم مقابرهم، وقصورهم قبورهم، فلم يبق لهم أثر.

ثم بَيَّنَ أنه إنما فعل ذلك لأجل فعلهم، فقال سبحانه: «**كَانَ**(١) **أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ. فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ**» أي: استقم للدين القيم «**مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ**» يعني يوم القيامة، فيفوت استدراكُ ما فرط، إنه «**لاَ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ**» يعني: ذلك اليوم لا مرد لأحد، وقيل: إنه تعالى أخبر أنه لا يرده، ولا يقدر غيره عليه فيكونَ له مرد، وقيل: (له) كناية عن العبد، أي: لا مرد للعبد إلى حالة التكليف بعد قيام الساعة، وبعدما اضطر إلى المعرفة. وقيل: «**لاَ مَرَدَّ لَهُ**» أي: لذلك اليوم ولأنه يؤدي إلى ترك الجزاء الذي لأجله يحسن التكليف «**يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ**» أي: يتفرقون: فريق في الجنة وفريق في السعير، عن قتادة وغيره. «**مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ**» أي: جزاء كفره «**وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ**» أي: يفرشون ويسوون المضاجع في القبر والقيامة، وهذا توسع، والمراد أن من صلح عمله فالله يجزيه الجزاء الحسن بسبب عمله، فكأنه مَهَدَ لنفسه «**لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ**» قيل: من عطائه؛ لأنه وعد الثواب الكثير على العمل القليل، وقيل: «**من فَضْلِه**»: من عطائه، عن أبي مسلم. وقيل: بسبب فضله؛ لأنه خَلَقَهُ وكلفه وهداه ومكنه، وأزاح علته حتى استحق الثواب. وقيل: يعطيهم الثواب المستحق، ويزيدهم من فضله «**إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ**» أي: لا يريد كرامتهم خلاف المؤمن، عن أبي علي. وقيل: إنه إنما يعطي جزاء ما فعلوا؛ لأنه لا يحب كافرَ نِعَمِهِ، بل يحب من شكر نعمه، عن أبي مسلم.

❁ الأحكام

يدل قوله: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ﴾ أن الفساد يظهر بكسب الناس، ولو كان خلقًا لله تعالى ابتداء لما كان بسبب فعلهم، والصحيح في معنى الآية: أن الفساد كثر في الأرض من أعمال العباد، والمراد بالفساد: المعاصي، والظلم، وترك الإنصاف والأمر بالمعروف، وارتكاب المنكرات؛ ولذلك قال: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾ أي: جزاء ذلك.

---

(١) كان: وإن كان، ن.

وتدل أن بعض الجزاء قد يعجل في الدنيا.

ومتى قيل: ما تلك العقوبة؟

قلنا: ما نالهم من المحن والشدائد كالقحط والغلاء والأمراض، ولأن المتعالم أن الظلم إذا كثر انقطعت أسباب الخيرات، ويخلي الله تعالى بين عباده.

ومتى قيل: أيكون ذلك عقوبة أو محنة؟

فجوابنا: كلاهما جائز، وقد بَيَّنَّا ما قيل فيه، وقد قيل: بالعدل ينبت الله الزرع، ويَدُرُّ الضرع، وبالظلم يكون القحط، وضيق الرزق، وإمساك المطر.

ويدل قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أنه أراد من الجميع الرجوع.

ويدل قوله: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ أن الغالب فيمن مضى الشرك، وأنه لا معتبر بالكثرة، وإنما المعتبر بالأدلة.

ويدل قوله: ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾ أن طريق الجنة غير طريق أهل النار؛ لذلك يتفرقون إذا صدروا عن الموقف.

ويدل قوله: ﴿مَن كَفَرَ﴾ أن الكفر فعلهم.

ويدل قوله: ﴿لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ أنه لا يحب الكفر، فيدل أنه لا يريده، ولا يخلقه، فيبطل قولهم في المخلوق.

قوله تعالى:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن
فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ
الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ
فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۖ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ
عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾
فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾

۞ القراءة

قرأ أبو جعفر وابن عامر: «كِسْفًا» ساكنة السين على الواحد، الباقون بفتحها على الجمع، وهو جمع كِسْفَةٍ، وهي القطعة، ومثاله: كِسْرَةٌ وكِسَرٌ، ومن قرأ بسكون السين مخففة أكساف وكسوف.

قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي: «آثار رحمة الله» على الجمع بالألف، وهو برواية حفص عن عاصم، الباقون: «أَثرِ» بغير ألف على الواحد.

وظاهر القراءة: «[خِلالِهِ]» بالألف، وعن ابن عباس: «خَلَلِهِ» بغير ألف، ولعله تفسير لا قراءة.

۞ اللغة

الريح: حركة الجو، وجمعه: رياح، وهي مختلفة، فالقَبُولُ والصَّبَا تأتي من جهة المشرق، والدَّبُور من جهة المغرب، والشمال من جهة الشمال، والجنوب ما تأتي من جهة القبلة، والنكباء ريح بين ريحين من هذه الأربعة، وقال ﷺ: «نصرت بالصَّبَا، وأهلكتْ عاد بالدبور»، والله تعالى المختص بالقدرة على جميع ذلك، وإرسال الرياح إيجاد الحركات في أجزاء الجو.

والنقمة: العقاب، والانتقام: أن يجازى بما يفعل.

والإثارة: الإرسال، أثار يثير إثارة، وأثار الترابَ: بحثه بقوائمه. وعن ابن مسعود: (أَثِيرُوا القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين)، أراد البحث عنه.

والمُبْلِسُ: الآيس من الفَرَجَ.

۞ الإعراب

﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ نصب، أي: في حال البشارة.

نصب ﴿حَقًّا﴾ على تقدير: وكان نصر المؤمنين حقًّا علينا.

ويقال: على أي شيء عطف بالواو في قوله: ﴿وَلِيُذِيقَكُم﴾ ؟

قلنا: على المعنى، بتقدير: من يرسل الرياح للبشارة ولإذاقة الرحمة، ﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ﴾، ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾، فأرسل الرياح لهذه الأمور.

وقيل: الواو معجمة وهي محذوفة، يعني: يرسل الرياح ليذيقكم.

ويقال: ما معنى: ﴿مِن قَبْلِ﴾ الأول، و(من قبل) الثاني؟

قلنا: فيه قولان: قيل: للتأكيد، وقيل: الأول من قبل الإنزال، والثاني من قبل الإرسال، وقيل: الأول من قبل المطر، والثاني من قبل الزرع فلم يزرعه.

﴿فَيَبْسُطُهُۥ﴾ رد الكناية إلى لفظ السحاب؛ فلذلك ذكره وإن كان السحاب جمعًا.

المعنى

«**وَمِنْ آيَاتِهِ**» أي: من حججه الدالة على توحيده وصفاته مع ما فيه من سبوغ نعمه «**أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ**» ولا يقدر عليه أحد إلا هو «**مُبَشِّرَاتٍ**» أي: تبشر بالمطر فهو كالناطق بالبشارة لما فيه من دلالة الحالة التي أجرى الله تعالى بها العادة «**وَلِيُذِيقَكُمْ**» أي: يعطيكم «**مِنْ رَحْمَتِهِ**» أي: نعمته التي سببها المطر «**وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ**» في البحر بالريح، ولولاه لتعذر ذلك «**بِأَمْرِهِ**» قيل: بإذنه، وهو ما يرسل من الرياح، وقيل: بإجرائه «**وَلِتَبْتَغُوا**» لتطلبوا «**مِنْ فَضْلِهِ**» قيل: بركوب البحر، وقيل: بالأمطار بما تزرعون «**وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**» أي: ولتشكروا هذه النعم، وهو استدعاء إلى الشكر بألطف الوجوه «**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ**» يا محمد «**رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ**» على صحة ما جاؤوا به، والبينة: الحجة. «**فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا**» أي: عاقبناهم وأهلكناهم لسوء أفعالهم بعذاب الاستئصال، وفيه بشارة للنبي ﷺ أنه ينتقم له من أعدائه كما انتقم لهم، و«**الَّذِينَ أَجْرَمُوا**» أي: عصوا وأتوا بالجرائم، وهي الذنوب «**وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا**[1] **نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ**» أي: واجب علينا نصر المؤمنين فيمن ينصرك، قيل: هذا خاصة للنبي ﷺ، وقيل: بل لكل مظلوم ينتقم له من ظالمه، وقيل: تقديره: كان نصر المؤمنين حقًّا علينا، وإنما ذكر على ما ذكر لرؤوس الآي.

(١) وكان حقاً علينا: وكان علينا حقا، ن.

ثم فسر إرسال الرياح التي أجملها في الآية، فقال سبحانه: «**اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ**» يعني: هو القادر على إرسالها «**فَتُثِيرُ سَحَابًا**» أي: تهيج سحابًا وتجمعه «**فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ**» قيل: يقلبه ظهرًا وبطنًا كيف يشاء، وقيل: طائعًا بين المشرق والمغرب فيجريها إلى أي بلد شاء «**وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا**» أي: قِطَعًا متفرقة، عن قتادة. وقيل: قطعًا يغطي بها ضوء الشمس، ومنه الكسوف، عن أبي مسلم. وقيل: إنها متراكم يَرْكَبُ بعضها بعضًا حتى يغلظ، عن أبي علي. «**فَتَرَى الْوَدْقَ**» أي: القطر، عن مجاهد. «**يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ**» من وسطه، قيل: «السحاب غربال المطر» في خبر مرفوع، «**فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ**» أي: بالودق وهو المطر «**إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ**» أي: يفرحون به «**وَإِن كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ**» المطر. وقيل: من قبل إظلال السحاب عليهم «**لَمُبْلِسِينَ**» أي: آيسين من نزول المطر، وقيل: قانطين، عن قتادة.

ثم نبّه وأمر بالتدبر في هذه الآيات، فقال سبحانه: «**فَانظُرْ إِلَى أَثَرِ رَحْمَةِ اللَّهِ**» يعني: المطر، و«آثار» ما أظهر من النبات والأشجار.

ومتى قيل: إذا كان الأثر لله تعالى فَلِمَ أضاف إلى الرحمة؟

قلنا: لأنه أجرى العادة أنه يظهرها عقيبه.

«**كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا**» أي: يحييها بالنبات والثمار بعد يبسها وجدوبتها، فجعل اليبس والجدوبة بمنزلة الموت، وظهور النبات بمنزلة الحياة توسعًا «**إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ**» يعني: من كسا الأشجار والنَّوْرَ الثمار، وكسا الأرض بأنواع النبات والأزهار قادرٌ على أن يحيي الموتى «**وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**» من البعث وغيره.

الأحكام

تدل الآيات على ما في الرياح من المنافع وما فيها من الدلالة على أنه قادر عالم، وكذلك في السحاب وأنواع الدلائل خَلْق الرياح وهبوبها واجتماع السحاب بها، وإنزال القطر عنها، وكذلك جريان الفلك يدل على مدبر حكيم؛ إذ جعل الماء في الرقة بحيث تجري فيه السفن.

ويدل قوله: ﴿فَٱنتَقَمْنَا﴾ الآية، أنه ينصر المؤمن، وأن ذلك واجب في حكمته، وفيه حث على الصبر وتسلية.

ويدل قوله: ﴿فَٱنظُرْ﴾ على صحة الحجاج والقياس وصحة البعث.

ومتى قيل: كيف يدل؟

قلنا: من قدر على إعادة الأرض والأشجار التي خلقها بعد الجدوبة يقدر على إيجاد الخلق؛ لأنه تعالى يعيد حال الأشجار بأعراض وأجزاء الخلق، كذلك يحيي الموتى في إعادة الأجزاء والحياة.

ومتى قيل: وما الدليل على صحة إعادة الأجسام؟

قلنا: لأنه مما يصح عليه البقاء، فلا فرق بين بقائه أوقاتًا متوالية وبين أن يفنيه ثم يعيده؛ لأنه بعد الفناء يصح أن يكون مقدورًا، والله تعالى قادر لذاته فلا تخصيص في مقدوره، فلا يصح كونه مقدورًا إلا له، فلهذين الوجهين صحت الإعادة على الأجسام.

قوله تعالى:

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾

۞ القراءة

قرأ عاصم وحمزة: (الضَّعْف) بفتح الضاد، والباقون بضمها، وهو اختيار أبي عبيد؛ لأنها لغة النبي ﷺ. الفتح والضم، وخالف حفص عاصمًا في هذا الحرف، فقرأه بضم الضاد، قال حفص: ما خالفت عاصمًا إلا في هذا الحرف لما روى عطية

العوفي قال: قرأت على ابن عمر: «من ضعف» بفتح الضاد في الثلاثة، فقرأها ابن عمر بالضم، ثم قال: قرأت على رسول الله ﷺ كما قَرَأْتَ عَلَيَّ، فَأَخُذْهَا عَلَيَّ كما أخذتُها عليكَ.

وقرأ عاصم الجحدري الأولى والثانية بالضم والثالثة: «ضَعفًا» بالفتح جمعًا بين اللغتين، قال الفراء: الضم لغة قريش، والفتح لغة تميم.

۞ اللغة

الاصفرار: لون معلوم بين البياض والحمرة، وهو في النبات قد يحصل للجفاف، فيتحول إليه عن الاخضرار.

والإدبار: الذهاب إلى جهة الخلف، ونقيضه: الإقبال: الذهاب إلى جهة القُدَّام.

وظل يفعل كذا، أي: دام فاعلاً له.

۞ الإعراب

جواب ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا﴾ قوله: ﴿لَّظَلُّوا۟﴾.

والهاء في قوله: ﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ أي: رأوا السحاب مصفرًّا على لفظة (السحاب)؛ لأنه إذا كان كذلك كان غير ممطر، وقيل: رأوا الزرع مصفرًّا، فهو كناية عن غير مذكور؛ لما في الكلام من الدلالة عليه، وقيل: رأوا الريح.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى حال الكفار عند النعمة والشدة وضلالهم في الدين، فقال تعالى: «**وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا**» يعني: إذا مطروا واستبشروا لم يشكروا، وإذا رأوا ريحًا مصفرًا وهو العاصف الذي يحمل(١) التراب، عن أبي علي. وقيل: رأوا سحابًا مصفرًّا لا مطر فيه. وقيل: ريحًا باردة أفسدت ما أنبت الغيث وتجرفها «**فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا**» يابسًا بعد خضرته ونضارته، عن الحسن، وأبي مسلم. «**لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ**» أي:

(١) يحمل: يحصل؛ ن.

داموا على كفرهم ولم يرضوا بقضاء الله فيه كما لم يشكروا نعمه، قيل: من جهل صانعه ومدبره ولم يعلم أنه حكيم لا يفعل إلا الأصلح، فيجب الشكر عند النعمة والصبر عند الشدة.

ثم ضرب لهم مثلاً، فقال سبحانه: «**فَإِنَّكَ**[١] **لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى**» فيه تسلية للنبي ﷺ وتمهيد لعذره، يعني: أنك كما تعجز عن إسماع الموتى تعجز عن إسماع هؤلاء الذين يعرضون عن الاستماع؛ لأنهم بمنزلة الموتى «**وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ**» أي: لا يمكنك إسماع الصم كذلك هؤلاء؛ لأنهم بمنزلة الصم «**إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ**» عن الحق غير طالبين له، يعني إذا دُعُوا إلى الحق أعرضوا.

ومتى قيل: أليس كان النبي ﷺ يسمعهم؟

قلنا: بلى، إلا أنهم لم يقبلوا ولم ينتفعوا به، فهم بمنزلة الصم والموتى.

«**وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلاَلَتِهِمْ**» يعني: لا يبصر العمي حتى يهتدوا[٢] كذلك هؤلاء وإن كان لهم بَصَرٌ «**إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا**» يعني: ينتفع بإبلاغك من يسمع ويتدبر ولم يعاند ولم يتصامم «**فَهُمْ مُسْلِمُونَ**» أي: منقادون لله ويتدبرون ويعلمون، عن أبي علي. وقيل: ينقادون للأدلة.

ثم عاد إلى ذكر الأدلة، فقال سبحانه: «**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ**» أي: أوجدكم من نطفة، وقيل: حال الصغر «**ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً**» أي: شبابًا؛ لأن القوة تتم في حال الشباب «**ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً**» وهو حال الكبر والهرم «**يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ**» بأحوالهم «[**الْقَدِيرُ**]»: القادر على تصريفهم كيف شاء، وينقلهم من حال إلى حال.

ثم بين حال بعثهم، فقال سبحانه: «**وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ**» أي: يقيم الله الساعة وهي القيامة «**يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ**» أي: يحلفون إظهارًا للذلة والصغر «**مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ**» قيل: في القبور، عن الكلبي، ومقاتل. وقال أبو علي: ما لبثوا بعد انقطاع عذاب القبر، وقيل: في الدنيا.

---

(١) فإنك: إنك، ن.

(٢) يهتدوا: يهتدي، ن.

ومتى قيل: كيف حلفوا كاذبين؟

قلنا: فيه خلاف، فأما شيخانا: أبو علي وأبو هاشم ومَنْ تبعهما فقالوا: إنهم حلفوا على الظن، ولم يعلموا لُبْثَهُمْ في القبور، كأنهم قالوا: في ظننا أنا ما لبثنا إلا قليلاً. وقيل: استقلوا الدنيا لما عاينوا من أمر الآخرة، كأنهم قالوا: ما الدنيا في الآخرة إلا ساعة فتأسفوا حيث اشتغلوا في مدة قليلة بما أوردهم بذلك العقوبة العظيمة. وقيل: يجوز أن يَكْذِبُوا لما ينالهم من الحيرة، عن أبي بكر الأخشيد. والوجه الأول.

«كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ» قيل: كانوا يكذبون في الدنيا حيث أخبروا عَمَّا لم يعلموا هاهنا كما فعلوا في الدنيا، وقيل: معناه: يصرفون، أي: صَرَفَهُمْ جهلهم عن الحق في الدارين.

الأحكام

يدل أول الآيات على أن الواجب أن مَنْ أصابه شدة من جهته تعالى أن يرضى بقضائه، ويعتقد حُسْنَهُ خلاف ما يقوله هؤلاء.

ويدل قوله: ﴿فَإِنَّكَ[1] لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أن المعارف مكتسبة.

وتدل على مدبر حكيم؛ حيث نقله في الأحوال بحسب ما يرى من المصلحة.

واستدل بعضهم بالآية على نفي عذاب القبر، قال أبو علي: وليس بشيء؛ لأنهم أرادوا لبثهم بعد انقطاع العذاب على ما بَيَّنَّا.

(١) فإنك: إنّك، ن.

قوله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾

القراءة

قرأ عاصم وحمزة والكسائي: ﴿لَّا يَنفَعُ﴾ بالياء للعُذْرِ، وقرأ الباقون بالتاء لقوله تعالى: ﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾، فالأول على المعنى، والثاني على اللفظ.

اللغة

اللَّبْثُ والمُكْثُ من النظائر، واللبث يتضمن المكان، والبقاء لا يتضمنه، لذلك يقال: الله تعالى باقٍ، ولا يقال: لاَبِثٌ.

والمعذرة: إظهار ما يسقط اللائمة، وهو العذر أيضًا.

والعَتْبُ: المؤاخذة، وأعتبني فلان: عاد إليَّ راجعًا عن الإساءة، واستعتب بمعنى أعتب، واستعتب: طلب العتبى. قال الخليل: المعاتبة: مخاطبة الإذلال، ومنه أكره المؤاخذة، يقال: عتب عليه: إذا وجد عليه، وإذا فاوضه بما عتب عليه، يقال: عاتبه: إذا رجع إلى مسرته، فقد أعتب، والاسم: العتبى، وهو الرجوع إلى ما يُرْضِي العاتب.

والاستخفاف: طلب الخفة، واستخف قومه: حملهم على الخفة، واستخفه الطرب وأخفه: أزال حلمه.

الإعراب

نصب (الإيمان) قيل: عطفًا على العلم، وقيل: بنزع الخافض على تقدير: مع الإيمان، فلما حذف (مع) نصب (الإيمان)، وقيل: في كتاب الله، أي: بكتابه، وقيل: مكتوب فيه.

المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى جواب قولهم: لم يلبثوا، فقال سبحانه: «**وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ**» أُعْطُوا ذلك «**وَالإِيمَانَ**» تهجينًا لهم «**لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ**» قيل: في حكم الله وما كتبه عليه، وقيل: في اللوح المحفوظ، وقيل: على ما أخبر الله في كتابه، عن أبي علي. وقيل: لبثتم إلى يوم البعث الذي وعدتم في كتاب الله، أي: في الأجل الذي سماه وأوجبه، والكتاب والإيجاب واحد، عن أبي مسلم. وقيل: فيه تقديم وتأخير، وتقديره: وقال الذين أوتوا العلم بكتاب الله والإيمان: لقد لبثتم إلى يوم البعث، وقيل: ظنوا أن العذاب يتأخر عنهم إذا اعترفوا بمدة قليلة، فبين لهم العلماء أن العذاب لا يتأخر عنهم.

ومتى قيل: لِم ضمَّ الإيمان إلى العلم؟

قلنا: لأن من العلماء من يكون فاسقًا، فلا يستحق المدح، والله تعالى ذكرهم على سبيل المدح.

«**إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ**» قيل: يوم يخرج الناس من القبور إلى المحشر، وقيل: لبثتم إلى يوم البعث، وقال الحسن: لقد وفاكم آجالكم إلى يوم الحشر «**وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ**» أن البعث حق «**فَيَوْمَئِذٍ لاَ يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ**»؛ لأن جهلهم لا يكون عذرًا، وقد مُكِّنُوا من العلم فلم يتفكروا ولم يعلموا، فكان التفريط من جهتهم «**وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ**» أي: لا يسترجعون، ومعناه: لا يراد منهم الرجوع، وقيل: بأن يردوا إلى الدنيا ليتوبوا، فتقبل توبتهم. وقيل: بأن تقبل معاذيرهم «**وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ**» يعني: أنه بالغ في البيان وتصريف الأدلة وضرب الأمثال والوعد والوعيد فلم ينقادوا، وإنما أُتُوا من جهتهم، لا من جهة ربهم

«وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ» يا محمد «بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ» يعني: عادتهم الإصرار، ولو جئتهم بما سألوا من الآيات لنسبوه إلى البطلان، ولم يؤمنوا.

ومتى قيل: لم لا يكون في عدم الآية المطلوبة حجة كما في الرسول؟

قلنا: [لأن] الحجة قائمة وغيرها [من الحجج] يقوم مقامها بخلاف الرسول؛ لأن الآيات بعد بيان المعجزات لطف، فإنما يفعل بحسب المصلحة والعلوم.

«كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ» قيل: الطبع سمة يجعلها الله تعالى على قلوب الكافرين، عن أبي علي. وقيل: استمرارهم على كفرهم طَبْعٌ، يعني: حكم بذلك عليهم، عن أبي مسلم. «فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ» قيل: في نصرك وإظهار دينك. وقيل: وعده في إنزال العذاب بهم حق، قيل: أراد عذاب الدنيا من القتل والأسر، وقيل: عذاب الآخرة، وفيه تثبيت لقلبه ﷺ ليستمر على دعاء القوم «وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ» أي: لا يحملنك هؤلاء على الخفة والعجلة لشدة الغضب عليهم لكفرهم مع كثرة الآيات، فتفعل خلاف ما أمرت من الصبر والرفق، عن أبي علي. وقيل: لا يستخف هؤلاء إياك بألا تتحمل المشقة، وقيل: لا يجدونك خفيفًا في أمرك، وقيل: لا يستخفنك هؤلاء لِتَرْكَنَ إليهم، عن أبي مسلم. ونظيره: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ الآية [الإسراء: ٧٣]، وقيل: لا تفعل فعلاً يُخِفُّ وزنك «الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ» بكون ما أخبر الله به، فهم ضُلَّالٌ شاكُّون.

۞ الأحكام

يدل أول الآيات على عظيم منزلة العلماء.

وتدل على مدح من يوقن بالبعث، وذم من لم يعلمه.

وتدل أن يوم القيامة لا ينفع الظالمَ عذرٌ، وأنه يعذَّبُ، فيبطل قول المرجئة.

ويدل قوله: ﴿وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ على أن المعارف مكتسبة.

وتدل على وجوب الصبر في الدين، وإن ناله الأذى.

وتدل على أن فعل العباد من الظلم فعلهم؛ لذلك استحقوا العقاب، فيبطل قول المجبرة.

سُورَةُ لُقمَان

سورة (لقمان) مكية على ما نقل عن المفسرين، وعن الحسن إلى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وهي أربع وثلاثون آية.

وعن أبي بن كعب، عن النبي صلى الله عليه وآله: «من قرأ سورة (لقمان) كان له لقمان رفيقًا يوم القيامة».

ولما ختم السورة بذكر الآيات الدالة على صحة أَمْرِهِ فتح هذه السورة بذكر الآيات التي هي القرآن.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ
ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا
هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ
فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ
ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ
تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا
فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ
ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿١١﴾﴾

القراءة

قرأ حمزة: «هدى ورحمةٌ» بالرفع، قيل: على الابتداء، وقيل: على خبر ابتداء محذوف، على تقدير: هو هدى ورحمة. وقرأ الباقون بالنصب على الحال والقطع.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب: «لِيَضِلَّ» بفتح الياء من: ضَلَّ يَضِلُّ، والباقون بضم الياء من: أَضَلَّهُ يُضِلُّهُ.

وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ويعقوب: «ويتخذها» بنصب الذال عطفًا على قوله: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ وهو اختيار أبي عبيد، قال: لقربه من المنصوب، وقرأ الآخرون بالرفع نسقًا على قوله: «يشتري».

قرأ نافع: «كأن في أُذْنَيْهِ» بسكون الذال كل القرآن، والباقون بضم الذال وهو الأشهر.

اللغة

الحكم: أصله المنع، ومنه: حَكَمَةُ الدابة، يقال: أَحْكَمْتُ الدابة وحَكَمْتُها، وحكمت السفينة، وأحكمتُهُ: أخذت على يده، ومنه: الحِكْمَةُ؛ لأنها تمنع من الجهل، ومنه الحكيم العالم، وقيل: المحكم لأفعاله، قال الشاعر:

أَبَنِي حَنِيفَةَ أَحْكِمُوا سُفَهَاءَكُمْ[1]

والمحسن: فاعل الإحسان، والإحسان: النفع الذي يستحق به المدح.

والفَلَاحُ: الفوز بالخير، وكل من أصاب خيرًا فهو مُفْلِحٌ، وأصل الباب: الشق، ومنه: الفلَّاح؛ لأنه يشق الأرض، سُمِّي به؛ لأن بقاء الناس به.

واللهو واللعب نظيران، وكل ما يلهيك عن الحق، أي: يصرفك فهو لَهْوٌ.

والهُزْءُ والسخرية من النظائر.

(١) البيت قائله جرير وتكملته:
أبني حنيفة أحكموا سفهاءكم إني أخاف عليكم أن أغضبا.
انظر: ديوان جرير، دار صادر، بيروت.

والهوان: الذل، والعقاب إذلال، والامتحان ليس بإذلال.

والوَقْرُ: ثقل في الأذن بالفتح، والوِقْرُ بالكسر: الحمل، سُمِّيَ بذلك لثقله.

والعَمَدُ: جمع عماد، وليس من كلام العرب، فِعَال[1] بكسر الفاء يجمع على فَعَلٍ إلاّ عماد وعَمَدٌ، وإهَابٌ وأَهَبٌ، ويقال: عِمَاد وأعمدة وعُمُدٌ، وهي التي تُرْفَعُ بها البيوت.

والرواسي: الثوابت من الجبال، واحدها: راسية، يقال: رسا يرسو: إذا ثبت.

والمَيْدُ: الاضطراب، ماد يَمِيدُ ميدًا فهو مائد.

۞ الإعراب

﴿الٓمٓ﴾ قيل: محله رفع لأنه ابتداء، وقيل: خبر الابتداء بتقدير: هذه ألف ولام.

﴿تَمِيدَ بِكُمْ﴾ تقديره: ألا تميد بكم.

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ نصب على المصدر وفيه معنى الحال.

(حقًا) نصب على التمييز.

۞ النزول

قيل: نزل قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ في النضر بن الحارث بن عبد الدار بن قصي، خرج إلى فارس واشترى كتبًا فيها أخبار الأعاجم وحديث رستم، ورجع وحَدَّثَ بها قريشًا، وقال: إن محمد يحدثكم بحديث عاد وثمود، وأنا أحدثكم بحديث رستم وأسفنديار.

وقيل: نزل فيه وكان يشتري الأخبار المضحكة ويرويها، وكانوا يضحكون، وقتل النضر يوم بدر، وكان في الأسارى.

وقيل: بل كان يروي أخبار الأكاسرة، فيستمعون إليه، ويتركون استماع القرآن، عن مقاتل، والكلبي.

وقيل: بل نزل في رجل من قريش اشترى جارية مغنية.

---

(١) فعال: يقال، ن.

المعنى

﴿الٓمٓ﴾ قد بَيَّنَّا ما قيل فيه، وأن الحسن وأبا علي قالا: إنه اسم للسورة، وأن أبا مسلم ذكر أنها إشارة إلى أن القرآن من هذه الحروف، وأنتم تتكلمون بها، ثم عجزتم عنها؛ لتعلموا أنه معجز، وأن أبا بكر الزبيري أشار إلى أنه إشارة إلى حدث القرآن من حيث أُلِّفَ من هذه الحروف، وأن جماعة قالوا: هي مفاتح اسم الله، ويروونه[1] عن ابن عباس، وأن أبا علي قطرب ذكر أنهم قالوا: لا تسمعوا لهذا القرآن، فذكر في أوله ما لم يكن عندهم، ثم يأتي الكلام من بعد ليستمعوا «**تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ**»: يعني [آيات] الكتاب الذي وَعَدْتُ إنزالها إليك في التوراة، وقيل: في اللوح المحفوظ، وقيل: هذه السورة هي آيات الكتاب، والكتاب: القرآن، وهذا أوجه الأقوال «**الْحَكِيمِ**» قيل: المُحْكَم ليس فيه ما ينقصه، وقيل: حكيم، لأنه بَيَّنَ الحق من الباطل كما بينه الحكيم بنطقه، وقيل: ذو الحكمة البالغة، وقيل: مِنْ مُحْكِمٍ أحكم فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وقيل: أحكم نظمه وتأليفه ومعناه، حتى صار معجزًا فكان محكمًا لا يقدر أحد على مثله «**هُدًى**» أي: دلالة وبيانًا فيما يحتاج إليه من العقليات والسمعيات «**وَرَحْمَةً**» أي: نعمة؛ لأن من آمن به وعمل بما فيه نال الثواب الدائم «**لِلْمُحْسِنِينَ**» الذين يحسنون العمل، وخصهم بالذكر؛ لأنهم ينتفعون به، وإلا فهو هدى للجميع.

ثم وصف المحسنين فقال سبحانه: «**الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ**» يديمونها بأركانها في أوقاتها «**وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ**» أي: يعطون حقوق أموالهم الواجبة للفقراء «**وَهُم بِالآخِرَةِ**» أي: بالدار الآخرة، أي: بالبعث والنشور والجزاء «[**هُمْ**] **يُوقِنُونَ**» لا يَشُكُّون فيه «**أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِن رَبِّهِمْ**» على دين مستقيم يهديهم إلى الجنة «**وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**» الظافرون بالبغية.

ثم وصف من حاله بخلاف حال المؤمن، فقال سبحانه: «**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ**» قيل: هو شراء المغنيات، عن مجاهد. وتقديره: يشتري ذا لهو وذات

---

(١) يروونه: يرووه: ن.

لهو، ويروى في خبر مرفوع: أنها مُحَرَّمَةٌ، وقيل: استبدل حديث الباطل بحديث الحق وهو كل لهو ولعب، عن قتادة. وقيل: لهو الحديث الغناء، عن ابن عباس، وابن مسعود، ومجاهد، والضحاك، ومكحول. وقيل: لَهْوُ الحديث: كل حديث يُلْهِي عن سبيل الله وطاعته إلى ما نهى عنه، فيستميل قلوب العامة كما يفعله علماء زماننا. وقيل: هو الطبل، عن ابن جريج. وقيل: هو الشرك، عن الحسن، والضحاك. وقيل: هو الترهات والبَسَابِسُ، عن عطاء. وقيل: هو الحكايات المضحكة، والأحاديث الكاذبة، وقيل: هو الهُزْءُ والسخرية بالقرآن واللغو فيه، عن أبي مسلم. «لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» قيل: ليضل الناس عن الدين، ويمنعهم عن قراءة القرآن. وقيل: هو قراءة القرآن، وذكر الله، عن ابن عباس. «بِغَيْرِ عِلْمٍ» أي: بغير حجة يعلم بها صحتها «وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا» الهاء كناية عن جميع ما تقدم من ذكر الصلاة والزكاة والقرآن والآخرة والجزاء، اتخاذهم: هو[1] استهزاؤهم به، كقولهم: أهو نبي؟ وما معنى الصلاة؟ وقيل: هو في دفع الحق بالباطل «أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ» يعني: مُذِلٌّ، وهو عذاب جهنم «وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا» يعني: حججنا، وقيل: هو القرآن «وَلَّى مُسْتَكْبِرًا» تكبُّرًا عن قبوله، يوهم العامة أنه يعلم، ولا طائل تحته مخافة ذهاب سوقه. «كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا» أي: لم يقبلها بمنزلة من لم يسمعها «كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا» صممًا وثقلاً يمنعه من سماعه «فَبَشِّرْهُ» أي: أخبره «بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» مُوجِع «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ. خَالِدِينَ فِيهَا» أي: مؤبدين فيها لا يموتون ولا يخرجون ولا ينقطع نعيمهم «وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا» أي: ذلك وعد وعده الله تعالى لا خلف فيه «وَهُوَ الْعَزِيزُ» القادر لا يمتنع عليه شيء «الْحَكِيمُ» في أفعاله يجازي كل أحد بما يستحقه.

ثم بَيَّنَ دلالة توحيده، فقال سبحانه: «خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا» قيل: ترونها بغير عمد، يعني: لا عمد لها، وهو يُسْكِنُها مع عظمها. وقيل: بغير عمد مرئية «وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ» جبالاً ثوابت «أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ» أي: كيلا تضطرب وتتحرك يمينًا وشمالاً، فتمنعكم عن التصرف والسكون «وَبَثَّ» أي: فَرَّقَ «فِيهَا» أي: في الأرض «مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ» ما يدب على الأرض من أنواع الحيوان «وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

(١) هو: هي، ن.

فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ» أي: حسن النبتة طيب الثمرة. «هَذَا» يعني: ما تقدم ذكره «خَلْقُ اللَّهِ» أي: هو الذي أوجده وأحدثه «فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ» يعني: لمن اعتقدتم كونها آلهة «بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» أي: بيّن واضح في ادعائهم الأصنام آلهة، وقيل: في عذاب وهلاك ظاهر مع كونهم مستحقين لعذاب الله. وقيل: ما دعاهم إلى عبادتها أنها تخلق شيئًا؛ لكن ضلالهم للجهل بحالها.

۞ الأحكام

يدل قوله: ﴿هُدًى﴾ أن القرآن حجة يجب التدبر فيها.

ويدل أن المعارف مكتسبة، لولاه لما صح وصف الآيات والكتاب بأنه هدى.

وتدل على حدثه؛ لأن القديم لا يكون دلالة.

وتدل الآيات أن المفلح هو المحسن الذي يضم إلى إحسانه القيام بالعبادات، خلاف قول المرجئة.

ويدل قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ على تحريم لَهْوِ الحديث، وقد بينا ما قيل فيه، قال القاضي: والأقرب ما حمله عليه أبو علي، وهو كل ما يتلهى به أهل الباطل، ولأن الغناء لا يطلق عليه اسم الحديث، وكذلك الأصنام والطبل، ولأن الغناء لا يقال: إنه ضلال عن الدين، وإن كان فسقًا.

ويدل قوله: ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾ على قبح الإقدام على شيء بغير علم.

ويدل قوله: ﴿وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا﴾ على قبح التكبر، ووجوب الانقياد، والخضوع في الدين.

وتدل على أن العمل الصالح فعلهم، فيبطل قول المجبرة في المخلوق.

ويدل قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أنه أوجدها ويمسكها حالاً بعد حال، وأنه تعالى هو المستحق للعبادة لكونه إلهًا خالقًا لكل شيء.

ومتى قيل: لِمَ أجمل الله تعالى الأدلة، ولم يفصلها؟

قلنا: لنوع من المصلحة، ولأنه أقرب إلى أفهام العوام، ولأنه كلف العلماء تفاصيله وحل الشبه فيها، فبيّن الأنبياء بعضها، ونبه على بَعْضٍ فَفَصَّلَها العلماء.

قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾

القراءة

قرأ ابن كثير في رواية البزي: «**يا بنيْ لا تشرك**» بسكون الياء «**يا بُنَيِّ إنها**» بكسر الياء، «**يا بُنَيَّ أقم**» بفتح الياء، وروي القراءتين عنه «**يا بُنَيِّ إنها**» بكسر الياء، و«**يا بُنَيْ أقم**»، و«**يا بُنَيْ لا تشرك**» بسكون الياء، وروى ابن فليح عنه: «**يا بُنَيِّ أقم**»، و«**يا بُنَيِّ لا تشرك**»، و«**يا بُنَيِّ إنها**» مكسورة الياء. وعن ابن كثير في [مثل] ذلك آثار[1] جمة، والمعتمد ما ذكرنا.

قرأ أبو جعفر عن عاصم: «**يا بنيَّ**» بفتح الياء جميع القرآن، الباقون بكسر الياء جميع القرآن، أما السكون: فلأنه الأصل كما لو وقف، وأما الفتح: فعلى حذف الإضافة لاجتماع ثلاث ياءات، وأما الكسر: فلاقترابها من الإضافة.

وقراءة القُرَّاء: (**فصاله**) بالألف، وعن يعقوب: (**فَصْلُهُ**) بغير ألف.

اللغة

الوهن: الضعف، ومنه: ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ [آل عمران: ١٣٩، النساء: ١٠٤]، قال الفراء: وهنه الله وأوهنه.

(١) آثار: وآثار، ن.

والفصال: الفطام، وأصله: القطع، فصلت بين الشيئين: قطعت، فكأنه قُطِعَ عن ثدي أمه.

والإنابة: الرجوع، أناب ينيب: إذا رجع.

الإعراب

يقال: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ﴾ عطف على ماذا؟

قلنا: على ما فسر من جملة الحكمة، كأنه قيل: آتيناه الحكمة إذ أمرناه بالشكر، وإذ قال لقمان لابنه واعظًا له.

﴿وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ محله نصب على الحال، عن أبي مسلم.

النزول

قيل: نزل قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا﴾ في سعد بن أبي وقاص، حلفت أمه لا تأكل طعامًا حتى تموت، أو يدع دينه، فلما رأته بعد ثلاث لا يرجع عن الإسلام أَكَلَتْ.

المعنى

لما تقدم ذكر من اتخذ لَهْوَ الحديث أتبعه بذكر من أوتي العلم والدين، وذكر قصة لقمان، فقال سبحانه: «**وَلَقَدْ آتَيْنَا**» أعطينا «**لُقْمَانَ**» قيل: كان حكيمًا، ولم يكن نبيًّا، عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وأكثر المفسرين. وقيل: كان نبيًّا، عن عكرمة. وقيل: كان في بني إسرائيل، عن الواقدي. وقيل: عاش ألفي وخمسمائة سنة قاضيًا لألف وثمانمائة نبي. وقيل: كان في زمن داود. وقيل: كان خياطًا، عن سعيد بن المسيب. وقيل: كان نجارًا، وقيل: كان راعيًا، وقيل: كان عبدًا أسود، عن مجاهد، وسعيد بن المسيب. وقيل: اشتراه صاحبه بمائة وخمسة وخمسين درهمًا فبلغ العقل به مبلغ الأنبياء، وقيل له: كنت راعيًا فما الذي بلغت به هذه المنزلة؟ قال: صِدْقُ الحديث؛ وترك ما لا يعنيني. وقيل: هو من ولد آزر، عن ابن إسحاق. وقيل: هو ابن أخت أيوب، عن وهب. وقيل: ابن خالة أيوب، عن مقاتل. «**الْحِكْمَةَ**» قيل: العلم والعمل والإصابة، ولا بد من حمله على العلوم المكتسبة؛ لأن علوم العقل يشترك

المكلفون فيها. وقيل: الحكمة: النبوة. «**أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ**» على نعمه «**وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ**» أي: بفعله لأنه يستحق مزيد النعمة والثواب، وقيل: لأن الزيادة الحاصلة بالشكر تكون له «**وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ**» عن شكر الشاكرين وعن كل شيء، لا تجوز عليه الحاجة «**حَمِيدٌ**» أي: محمود يجب الحمد له، فمن أثابه فبفضله ومن عاقبه فبعدله «**وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَابُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**» معناه: لا تشرك مع الله في عبادته غيره ولا تصفه بالشريك، وقيل: معناه: لا تشرك، ثم أقسم بأن الشرك لظلم عظيم، وقيل: أصل الظلم: النقصان ومنع الواجب، فمن كفر فقد منع ما وجب له عليه من معرفة التوحيد والعدل فكان ظالمًا، وقيل: ظلم نفسه بأن أَوْبَقَهَا. «**وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ**» لما تقدم الأمر بشكر النعمة نبّه على وجوب الشكر لكل منعم، فبدأ بالوالدين، ومعنى «**وَصَّينا**» أي: أمرنا بطاعة الوالدين وشكرهما، وإنما قرن شكرهما بشكره؛ لأنه الخالق المنشئ، وهو المسبب والمربي.

ثم بيّن زيادة نعمة الأم، فقال سبحانه: «**حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ**» أي: ضعفًا على ضعف، عن الضحاك. وقيل: شدة بعد شدة، عن ابن عباس. وقيل: جهدًا على جهد، عن قتادة. وقيل: مشقة على مشقة، عن مجاهد. وقيل: ضعف الولد وضعف الأم. وقيل: بل نطفة الأب ونطفة الأم، وهما ضعيفان، عن أبي مسلم. «**وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ**» أي: فطامه بانقضاء عامين «**أَنِ اشْكُرْ لِي**» على نعمي «**وَلِوَالِدَيْكَ**» على نعمهما، فنعمته أن خلقه وصوره وأحياه وركبه ورزقه، وأمه حملته ووضعته وأرضعته.

ثم أكد وجوب شكره لكثرة نعمه، فقال سبحانه: «**إِلَيَّ الْمَصِيرُ**» أي: إلى حكمي المرجع فنجازيك، وفيه ترغيب وترهيب، وعن سفيان بن عيينة: من صلى الخمس فقد شكر الله، ومن دعا للوالدين عقيب الصلوات الخمس فقد شكر الوالدين.

ثم استثنى من طاعتهما ما يخالف طاعة الله، فقال سبحانه: «**وَإِنْ جَاهَدَاكَ**» يعني: أمراك وأجهداك، فيحملانك على الكفر «**عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ**» إشارة إلى بطلانه؛ لأن ما يكون حقًّا يعلم صحته بالدليل، أراد: إن دعواك إلى باطل «**فَلَا**

تُطِعْهُمَا» في ذلك «**وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا**» يعني: إذا كانا كافرين فلا تترك برهما وأحسن عشرتهما في أبواب الدنيا وإن وجبت مخالفتهما في الدين، فأما في أبواب الدين فاتبع «**سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ**» أي: اسلك طريق العلماء المنيبين إليه، وقيل: طريقة محمد ﷺ وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ، وأناب: رجع «**ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ**» أي: إلى حكمي «**فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**» قيل: أخبركم بأعمالكم، وقيل: أجازيكم.

۞ الأحكام

تدل الآيات على أنه تعالى خص لقمان بالحكمة، ولا يجوز حمله على العقل والعلوم الضرورية؛ لأن العقلاء فيها سواء، فيحمل على العلوم المكتسبة، ولكن لَمَّا وصله الله بتسهيله وألطافه جاز إضافته إليه، والمراد بالحكمة ما فسره.

وتدل على أن شكر النعمة واجب.

وتدل على أن أعظم الذنوب الشرك.

وتدل على أن الإنسان كما يكون ظالمًا لغيره بالإساءة إليه يكون ظالمًا لنفسه بالعصيان.

وتدل على وجوب بر الوالدين مع مخالفة الدين؛ ولهذا أوجب الفقهاء نفقتهما وإن كانا مخالفين في الدين بخلاف سائر الأقارب.

وتدل على أن الشكر يجب لمكان النعمة.

وتدل على أن الكفر لا يحبط الشكر، وقد قال أبو هاشم: كفر الكافر لا يبطل شكر نعمه على غيره كما يبطل ثوابه، وقال أبو علي: يبطل شكره أيضًا.

واستدل بعض العلماء بالآية على أن الأب لا يُقْتَلُ بالابن، ولا يُقْطَعُ بسرقة ماله، ولا يُحْبَسُ بدعواه، قال القاضي: والظاهر لا يقتضيه؛ لأنها حقوق واجبة، فكما لا يترك الإيمان بها كذلك هذه الحقوق، ولكن يرجع إلى دليل آخر.

ويدل قوله: ﴿سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ على صحة الإجماع، وأنه بمنزلة قوله: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١١٥].

قوله تعالى:

﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ﴿١٨﴾ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴿١٩﴾ أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴿٢٠﴾﴾

القراءة

قرأ نافع: «**مثقالُ حبة**» بالرفع على أنه اسم (كان)، وقيل: لا خبر له، وقيل: (كان) لا يعمل، تقديره: إن تقع مثقال حبة، وقرأ الباقون: «**مثقالَ**» بالفتح على أنه خبر (كان).

قرأ ابن كثير وعاصم وابن عامر: ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ﴾ بغير ألف، من التصعير، وهو إمالة الخد عن النظير تكبرًا، وقرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي: «**تُصَاعِرْ**» بالألف وهو قراءة النخعي وأبي جعفر والأعمش، أي: لا تُعْرِضْ، والأصل: الصَّعَرُ، داء يكون في عنق الإبل، ثم يقال للمتكبر: فيه صَعَرٌ، وتصعير الخد يكنى به عن الكبر، وهو الإعراض والميل، قال الشاعر:

وَكُنَّا إِذَا الْجَبَّارُ صَعَّرَ خَدَّهُ ... أَقَمْنَا لَهُ مِنْ دَرْئِهِ فَتَقَوَّمَا[1]

قرأ أبو جعفر ونافع وأبو عمرو وحفص عن عاصم: ﴿نِعَمَهُۥ﴾ على الجمع والإضافة، والباقون: «**نعمة**» منونة على الواحد، وأراد الجنس، كقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [النحل: ١٨].

---

(١) البيت قائله المتلمس جرير بن عبد المسيح. وفي رواية:

وكنا إذا الجبار صعَّر خدَّهُ ... أقمنا له من ميله فتقوما

۞ اللغة

المثقال: الزِّنَةُ، وهو مقدار يساوي غيره في الوزن، وأصله من الثقل، ومثقال ذرة، أي: زنته وثقله، قال الشاعر:

وَكُـلاً نُـوافِـيـهِ الـجَـزَاءَ بِـمِـثْـقَـالِ[1]

أي: بوزن.

والعزم: العقد على الأمر، وتوطين النفس على فعله.

والفخر: ذكر المناقب، فَخَرَ يَفْخَرُ فخرًا، وفاخره مفاخرة، وتفاخر تفاخرًا.

والاختيال: مشية البطر.

وغض بصره: إذا نقص النظر، وغض صوته: إذا نقص جهارته، وأصله: النقص، يقال: غَضَضْتُ الشيء فَتَغَضْغَضَ، أي: نقصته فانتقص.

۞ الإعراب

ومتى قيل: الهاء في قوله: «إِنَّهَا» ترجع إلى ماذا؟

قلنا: فيه قولان:

الأول: أنها عماد الضمير على شريطة التفسير.

الثاني: أنها كناية عن الخطيئة أو الفعلة، أي: تقتضي الجزاء، والضمير في «تَكُ[2]» يرجع إلى الخطيئة أو السيئة.

۞ النزول

قيل: نزل قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ﴾ في النضر بن الحارث حين زعم أن الملائكة بنات الله.

---

(١) البيت ورد في اللسان وتاج العروس مادة (ثقل): وكُلًّا يُوافيهِ الجزاءَ بمثقالِ

(٢) تك: تلك، ن.

۞ المعنى

عاد الكلام إلى قصة لقمان، فقال سبحانه: «**يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ**» يعني: إن كانت الخطيئة أو السيئة «**مِثْقَالَ حَبَّةٍ**[1]» **أي: قدر حبة** «**مِنْ خَرْدَلٍ**» وزنة حبة خردل، وقيل: مثقال حبة من خردل من خير أو شر، عن قتادة. وقيل: مثقال حبة من حسنة «**يَأْتِ بِهَا اللَّهُ**» أي: يجازي عليها؛ لأنه يعدّ[2] عمله، عن أبي علي. «**فَتَكُنْ**» تلك الحبة «**فِي صَخْرَةٍ**» قيل: في جبل، عن قتادة. وقيل: هي صخرة تحت الأرض، وهي التي يكتب عليها أعمال الفجار، عن ابن عباس. وقيل: الصخرة التي عليها الأرض، عن السدي. وقيل: ذكر الصخرة على وجه المثل؛ لأن الحبة فيها أخفى وأبعد من الاستخراج، أي: لو كانت فيها من خفائها كانت محفوظة عند الله يجازي عليها، وفيه تحذير عن المعصية ﴿أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ قيل: باستخراجها «**خَبِيرٌ**» بمستقرها، أي: عليم، عن قتادة. وقيل: اللطيف: العالم بالأمور الخفية، والخبير: العالم بالأشياء كلها. وروي أن ابن لقمان لما سمع هذا الوعظ من أبيه انشقت مرارته من الخوف ومات. «**يَا بُنَيَّ**» صَغَّرَ في هذه المواضع اسمه للترحم والشفقة «**أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ**» أي: بالطاعات «**وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ**» أي: المعاصي؛ لأنها ينكرها العقل، والطاعة يعرف العقلاء حسنها «**وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ**» قيل: دُمْ على هذه الخصال، واصبر على ما نالك من الناس فيها وفي الله تعالى، وقيل: على جميع الشدائد من الأمراض وغيرها، عن أبي علي. «**إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ**» قيل: من الأمور الواجبة التي أمر الله بها، وقيل: حزم الأمور، عن ابن عباس. يعني: الأخذ بطريقة الاحتياط فيما يأتي ويَذَرُ. وقيل: حل الأمور، عن مقاتل. وأصله من العقد الصحيح على فعل الحسن «**وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ**» قيل: لا تتكبر فتحقر الناس وتُعْرِض عنهم بوجهك إذا كلموك، عن ابن عباس. ومعناه: لا تبغض نفسك إليهم إذا أمرتهم بالمعروف ونهيت عن المنكر؛ لأن من ينتصب لذلك ثم يتكبر ينفر الناس عن نفسه، وإذا جمع حسن الأخلاق قبلوا منه. وقيل: هو الذي إذا سلم عليه

(١) حبّة: ذرة، ن.

(٢) عليها لأنه يعد: عليه أنه يعتد، ن.

أحد لوى عنقه تكبرًا، عن عكرمة. وقيل: هو الذي يكون بينكم وبينه شيء، فإذا لقيتَهُ أعرضتَ عنه، عن مجاهد. وقيل: لا تحقر الفقير، وليكن الفقير والغني عندك سواء، عن قتادة، والربيع. وقيل: لا تعبس في وجوه الناس، عن المؤرخ. «**وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا**» أي: بطرًا ونشاطًا وخيلاء «**إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ**» أي: متكبر «**فَخُورٍ**» على الناس يستطيل عليهم بذكر مناقبه «**وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ**» قيل: تواضع ولا تتكبر، وليكن مشيك قصدًا لا ثقيلاً ولا سريعًا، فهو مشي بين المشيتين، لا مشي الشيطان ولا مشي المتكبرين، وقيل: أسرع في مشيك أنفى للكبر عن نفسك، وقيل: لا تمش من غير قصد فإنه عيبة «**وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ**» أي: لا تجهد كل الجهد ولكن على وجه التواضع «**إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ**» قيل: أقبحها، عن مجاهد، وقتادة، والضحاك. يقال: وجه منكر، أي: قبيح، وقيل: أشد، عن عكرمة. وقيل: أثقل عن السمع، قال ابن زيد: لو كان رفع الصوت خيرًا لما فعله الحمير «**لَصَوْتُ الْحَمِيرِ**» قيل: صوت الحمير منكر منه؛ لأن الإنسان ينفر منه، وقيل: لأنه ينهق بلا فائدة، وقيل: لأن أوله زفير وآخره شهيق، وقيل: إن أنكر الأصوات لصوت الحمير من الإنسان؛ لا من الحمير؛ لأن رفع الصوت على ذلك الوجه لا يكون إلا للانتهار والاستخفاف بمَنْ دونه، وقيل: أراد بالحمير الحمير، وهم الجهال من الناس شبههم، عن زيد بن علي. وهذا أحسن ما قيل فيه لأن أصوات الجهال في المنكرات وفيما لا فائدة فيه يقبح.

ثم ذكر تعالى أدلته ونعمه، فقال سبحانه: «**أَلَمْ تَرَوْا**» ألم تعلموا «**أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ**» أي: لمنافعكم ومصالحكم ﴿مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الشمس والقمر والنجوم والسحاب والأمطار «**وَمَا فِي الأَرْضِ**» من الحيوان والنبات وغير ذلك مما تنتفعون به، وإنما علقها بالعلم؛ لأن الإنسان ما لم يعلم أن هذه الأشياء محدثة ولها مُحْدِثٌ لا يجوز عليه النفع والضر لم يعلم أنه أحدثها لمنافع العباد «**وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ**» أي: وَسَّعَ «**نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً**» النعمة التي هي النفع الحسن إذا قصد المنعم الإحسان، وقيل: الظاهرة: الدِّينُ، والباطنة: ما غاب عن العباد وعَلِمَهُ الله، عن ابن عباس. وقيل: الظاهرة: تسوية الخلق والرزق والإسلام، والباطنة: ما ستر من الذنوب، عن مقاتل. وقيل: الظاهرة: حسن الصورة وامتداد القامة وتسوية الأعضاء، والباطنة: المعرفة، عن الضحاك. وقيل: الظاهرة: نِعَمُ الجوارح، والباطنة: نِعَمُ القلب، عن الربيع.

وقيل: الظاهرة: نِعَمُ الدنيا، والباطنة: نعم الآخرة. وقيل: الظاهرة: تخفيف الشرائع، والباطنة: الشفاعة، عن عطاء. وقيل: الظاهرة: محمد بَعَثَهُ إليهم بالنبوة، والباطنة: المعرفة، عن القرظي. وقيل: الظاهرة: ظهور الإسلام والنصر على الأعداء، والباطنة[1]: الإمداد بالملائكة، عن مجاهد. وقيل: «الظاهرة: الإسلام وما حسن من خَلْقِك، وفضل عليك من الرزق، وأما الباطن: ستر عن سوء عملك»، رواه ابن عباس عن النبي صلى الله عليه. وقيل: الظاهرة: الرزق من حيث يحتسب، والباطن: الرزق من حيث لا يحتسب. وقيل: الظاهرة: المدخل للغذاء، والباطن: المخرج للأذى. وقيل: الظاهرة: ما أعطى من النعمة، والباطنة: ما طوى ودفع من أنواع البلاء. وقيل: الظاهرة: تلاوة القرآن، والباطن: معرفته. وقيل: الظاهرة: نعمه بعدما خرجت من بطن أمك، والباطنة: نعمه عليك وأنت في بطن أمك، وقيل: الظاهرة: أنواع العطايا، والباطنة: غفران الخطايا. وقيل: الظاهرة: ما بين الناس، والباطنة: ما يعلمه تعالى من المصالح. ولا تنافي بين جميع ذلك كلها فيحمل عليها. «**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ**» يماري ويخاصم المؤمن «**فِي اللَّهِ**» قيل: في دينه، وقيل: يدعي الإلهية، أو يدعي الشرك، أو يدعي ما لا يليق به من الصفات كالتشبيه والجبر «**بِغَيْرِ عِلْمٍ**» أي: بغير حُجَّةٍ موجبة لِلْعلم[2] «**وَلاَ هُدًى**» دلالة «**وَلاَ كِتَابٍ**» أنزله الله تعالى في ذلك «**مُنِيرٍ**» أي: واضح مبين مضيء؛ لأن ما فيه من الدلالة يهتدى به، فسماه منيرًا توسعًا، عن أبي علي.

۞ الأحكام

يدل قوله: ﴿إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ أن الأعمال محفوظة للجزاء، قال الحسن: نبه به على أنه إذا كان عالمًا بمواضع هذه الحبة مع صغرها، وبحفظها عن الآفات، فكذلك يحفظ الأعمال ويجازي عليها.

---

(١) والباطنة: والباطن، ن. وما أثبتناه من مجمع البيان في تفسير القرآن م٥/ج٢١/ ٦١.

(٢) للعلم: العلم، ن.

ويدل قوله: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على ما ينال فيه من الأذى.

ويدل قوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ﴾ على قبح التكبر وحسن التواضع.

ويدل قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ﴾ على قبح الجدال بالباطل الذي لا حجة فيه.

ويدل قوله: ﴿كُلَّ مُخْتَالٍ﴾ على قبح المفاخرة بالمال والجاه وأن الواجب سلوك طريقة التواضع، ومِنْ أحسن ما قيل فيه: قول علي بن أبي طالب عليه السلام: (مَنْ أبصر إليها أعمته[1]، ومن أبصر بها بصرته)؛ مِنْ فَصْلٍ يصف فيه الدنيا.

ويدل قوله: ﴿وَٱقْصِدْ﴾ على النهي عن التكبر والخيلاء، وقيل: القصد في المشي عادة الصالحين.

ويدل قوله: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ﴾ أنَّ[2]: نعم الدين والدنيا منه.

قوله تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾

۞ القراءة

قراءة العامة: ﴿يُسْلِمْ﴾ بالتخفيف من أَسْلَمَ يُسْلِمُ، ونظيره: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢]، وقرأ السلمي: «يُسَلِّمْ» من: سَلَّمَ يُسَلِّمُ.

---

(١) أعمته/ اعتبر، ن. وما أثبتناه من نهج البلاغة: ١/١٠٦.

(٢) أن: أي، ن.

۞ اللغة

الاتباع والاقتداء والاحتذاء نظائر، وهو طلب موافقة قول الشارع في قوله وفعله.

والسعير والوقود واللهب نظائر، وأصله سَعَّرْتُ النار: أججتها وسَعَرْتُهَا.

والعُرْوَةُ الوثقى: العهد الوثيق، قال الأزهري: أصله من عُرْوَةِ الكلأ، وهو ما له أصل ثابت في الأرض من النسج والأرطي[1] وغيرهما من الأشجار، وإذا كانت السنة قليلة المطر والبقول رعتها الماشية وعاشت بها. والعُرْوَةُ من النبات ضُرِبَ مثلاً لكل ما يُعْتَصَمُ به، ويُلْجَأُ إليه. وقيل: هو من العروة للكوز يتمسك بها عند الشرب، وقيل: العروة من النبات يبقى له خضرة في الشتاء تتعلف بها الإبل حتى تدرك الربيع، يقال لها: عروة وعُلْقَةٌ، وقال الفراء: العروة من الشجر: ما لا يسقط ورقه في الشتاء مثل: الأراك ونحوه. والوثيق: الأحكام التي تمنع سبب الانتقاض، يقال: أوثقت البناء والأمر وغيرهما أي: أحكمته.

۞ الإعراب

﴿أَوَلَوْ﴾ استفهام والمراد التقرير، يعني: وإنَّ الشيطان، عن الأخفش. قال أبو عبيدة: (لو) هاهنا محذوف: تقديره: أَوَكَان الشيطان.

«وَلَئِنْ» يجاب عنه بالنفي مرة وبالإثبات أخرى، وقد جاء ذلك جميعًا في قوله: ﴿وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ﴾ [الحشر: ١٢] وإنما أدخل اللام في قوله: «وَلَئِنْ»؛ لأنه دخل في خبره لام التاكيد وهو قوله: «لَيَقُولُنَّ» فأدخل في ابتدائه للتأكيد.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى أن ما اعتقدوا تقليدٌ لا عن حجة، فقال سبحانه: «**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ**» على محمد، وهو القرآن، وشرائع الإسلام «**قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ**» فيه نفي واستدراك كأنه قيل: لا نتبع ذلك؛ بل نتبع «**مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا**» فقال تعالى: «**أَوَلَوْ**

---

(١) هكذا في ن. وفي تفسير مجمع البيان؛ للطبرسي: ٢/ ١٤٣، التّبيان في تفسير القرآن، للطوسي: ٢/ ٣١٢: والقيصوم.

كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ» يعني: **فيما يتبعون آباءهم من الشرك فإن الشيطان يدعوهم «إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ»** يعني إلى موجباته، وهي الكفر والمعاصي، فيتبعونه فيستحقون العذاب عذاب السعير، وهو نار جهنم.

ولما ذمَّ المُقَلِّدَةَ أتبعه بذكر مَن اتبع الدليل، فقال سبحانه: «**وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ**» أي: يخلص دينه لله ويفوض أمره إليه، وإسلام الوجه هو الانقياد له في أوامره ونواهيه، وذلك يتضمن العلم والعمل، وقيل: معناه: من يدخل في هذين الدارين «**وَهُوَ مُحْسِنٌ**» يفعل الإحسان، وهو الطاعات «**فَقَدِ اسْتَمْسَكَ**» أي: اعتصم «**بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى**» بالطرف الأوثق[1] والعقد المحكم، أي: أخذ بالحزم، وهذا مَثَلٌ لمن احتاط في أمر الدين، وقيل: هو قول «لا إله إلا الله»، عن ابن عباس. وقيل: هو طاعة الله فيما أمر ونهى، وهو أوجه «**وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**» أي: مرجعها ومصيرها إلى حكمه «**وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ**» قيل: لا يحزنك قولهم فوباله عليهم «**إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ**» إلى حُكْمِنَا مصيرهم، فنعذبهم بجرمهم، وقيل: فنجازيهم و«**نُنَبِّئُهُم**» إشارة إلى المناقشة في الحساب؛ لأنهم يحاسبون على كبائر الذنوب وصغائرها، ويتضمن السؤال عن العلم والعمل وعن الفعل والترك «**إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**» بما تشتمل عليه القلوب من خير وشر، وذلك في الاعتقادات والإرادات والظنون والتفكر وغير ذلك «**نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً**» أي: نعمرهم ونمهلهم ونعطيهم من ملاذ الدنيا ونعيمها ما يتمتعون به مدة قليلة «**ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ**» قيل: نلجئهم، وقيل: نضطرهم: نقربهم، والاضطرار: «افتعال» من الضرر الذي هو القرب، عن أبي مسلم. «**إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ**» قيل: شديد، وقيل: مضاعف؛ لأن الشيء إذا ضوعف غلظ، كقوله: ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النحل:٨٨]، «**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ**» يعني: كفار مكة «**مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ**» خلقها «**قُلْ**» يا محمد أو أيها السامع: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ**» على نعمه بذلك «**بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**» نعمه، ولو نظروا لعلموا، وقيل: ليشكروا الله على دين يقر لك خصمك بصحته لوضوح دلالته، عن أبي علي. وقيل: الحمد لله شكرًا له؛ **لأنك تُقِرُّ** به عن علم، وهم يقرون لا عن علم.

---

(١) الأوثق: الأثق، ن.

۞ الأحكام

تدل الآيات على فساد التقليد، وعلى صحة الحجاج في الدين؛ لأنه تعالى بيَّنَ أن اتِّباع الآباء بمنزلة اتِّباع الشيطان، وهذا الذي يقوله المتكلمون لو كان التقليد صحيحًا لم يكن تَقْلِيدُ وَاحِدٍ أولى من تقليد آخر.

وتدل على أن المتمسك بالإسلام هو المتمسك بالحق الذي دل عليه الدليل.

ويدل قوله: ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ أن مجرد الإسلام لا يكفي، فيبطل قول المرجئة.

ويدل قوله: ﴿نُمَتِّعُهُمۡ﴾ على أنه لا ينبغي أن يغتر بالدنيا، والواجب الاستعداد للآخرة.

ويدل قوله: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أن المعارف مكتسبة.

وتدل الآيات من وجوه أن أفعال العباد فعلهم، فيصح قولنا في المخلوق، فمنها قوله: ﴿ٱتَّبِعُواْ﴾ ﴿بَلۡ نَتَّبِعُ﴾، ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ﴾، ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ﴾، ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ﴾، ﴿وَمَن كَفَرَ﴾، ﴿بِمَا عَمِلُوٓاْۚ﴾، ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾، وكل ذلك يدل على ما قلنا.

قوله تعالى:

﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٢٦ وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ
أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٧
مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ٢٨ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ
فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَأَنَّ
ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٩ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ
ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٣٠﴾

۞ القراءة

قرأ أبو عمرو ويعقوب: «والبَحْرَ» بفتح الراء عطفًا على محل (ما)، و(ما) في محل النصب تقديره: ولو أن البحر يمده، وقرأ الباقون بالرفع، وفيه وجهان: أولهما:

أنه ابتداء، وثانيهما: معطوفًا على محل (أن)، و(أن) في محل الرفع؛ لأن (لو) يرفع[1] ما يليه تقول: لو زيدٌ قائمٌ.

وقرأ أبو جعفر ونافع وابن كثير وابن عامر وأبو بكر عن عاصم: «**وأن ما تَدْعُونَ**» بالتاء على الخطاب، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب وحفص عن عاصم بالياء على الكناية عمن تقدم ذكرهم.

۞ اللغة

الغني: نقيض المحتاج.

والحميد: المستحق للحمد، ونقيضه: الذميم، وقيل: حميد بمعنى محمود أي: هو أهل الحمد.

المد: مدّ الشيء، ومد البحر: جري غيره إليه حالاً بعد حال، ومنه: المد والجزر، ومَدَّ النَّهْرُ، ومَدَّهُ نهر آخر يَمُدُّهُ مدًّا.

والأجل: الوقت.

والإيلاج: إدخال الشيء في الشيء.

۞ الإعراب

﴿كَنَفْسٍ﴾ أي: خَلْقِ نَفْسٍ، فأقام المضاف إليه مقام المحذوف.

۞ النزول

قيل: نزل قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الآية، جوابًا لليهود لما قالوا: هذا الكلام الذي يتلوه محمد سينفد وينقطع، فتربصوا به، فرد الله تعالى عليهم، ونزلت الآية.

وقيل: بل قالت اليهود: أوتينا التوراة وفيها كل حكمة، فنزلت الآية، عن ابن عباس.

---

(١) يرفع: رفع، ن.

وقيل: سألوا رسول الله ﷺ عن الروح، فنزلت[1] ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، فقالوا: أوتينا التوراة على كثرتها، فنزلت[2] هذه الآية.

وقيل: نزلت الآية بالمدينة، عن عطاء. وقيل: بل بمكة، واليهود أمروا مشركي قريش أن يسألوا رسول الله عن ذلك.

المعنى

ثم أكد تعالى ما تقدم من خلقه السموات والأرض، فقال سبحانه: «**لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**» ملكًا وخلقًا «**إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ**» عن كل شيء «**الْحَمِيدُ**» المستحق الحمد لأجل نعمه على عباده «**وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ**» يعني: لو صار جميع أشجار العالم أقلامًا «**وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ**» مدادًا «**مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ**» تقديره: والبحر مدادٌ يمد هذه الأقلام سبعة أبحر، وقيل: لو كان جميع بحور الدنيا مدادًا، وخلق سبعة أبحر أخر وكتب به «**كَلِمَاتُ اللَّهِ**» قيل: كلامه، وقيل: أراد أسماء ما يقدر عليه ويعلمه، وقيل: خلق الله، أي: لو كتبوا ما خلق الله من الجواهر والأعراض لنفدت البحار، وما نفد خلقه، فمثله يجب أن يُعْبَدَ، عن أبي مسلم. وقيل: مقدوراته من الكلام فإنه لا يتناهى في كل وقت، وقيل: معلوماته ومقدوراته التي تستفاد بالكلمات، عن الحسن. وقيل: أراد بالكلمات الحكمة؛ لأنها نزلت في شأن اليهود حين قالوا: أوتينا الحكمة لما أوتينا التوراة، وقيل: ما نفدت فوائد كتاب الله «**إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**» أي: قادر على جميع ذلك يفعل من ذلك ما يليق بحكمته «**مَا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ**» يعني: الكثير والقليل والابتداء والإعادة في مقدوره سواء، لا يصعب عليه شيء من ذلك، قال أبو مسلم: أراد أن جميع هذا الخلق مع كثرته ينفد البحر ولا ينفد هو في قدرته كنفس واحد في قدرته وخلقه «**إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ**» لأقوالهم «**بَصِيرٌ**» بضمائرهم. وقيل: عليم بأفعالهم يجازيهم بها «**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ**» يعني ينقص من أحدهما ويزيد في الآخر، عن قتادة. وقيل: يدخل الليل في النهار حتى لا يبقى نهار، ويدخل النهار في الليل حتى لا يبقى ليل،

(١) فنزلت: فنزل؛ ن.

(٢) فنزلت: فنزل؛ ن.

وأراد به إدخال أحدهما على الآخر، وإيجاد الضياء والظلام متعاقبًا «**وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ**» بأن أجراهما لمنافع خلقه «**كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى**» قيل: هو يوم القيامة، عن الحسن. وقيل: إلى مدة معلومة «**وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**» أي: عليم بأعمالكم وشكركم لهذه النعم «**ذَلِكَ**» يعني: ما تقدم ذكره يشهد «**بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ**» إلهًا، وهو الأصنام «**الْبَاطِلُ**» قيل: كونه قادرًا على جميع الأشياء عالمًا بها يوجب كونه إلهًا دون هذه الأصنام، وقيل: لما صحت هذه الأفعال منه وتعذرت على غيره دل أنه الإله، وقيل: ذلك لتعلموا أن الله حق «**وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ**» قيل: القادر القاهر، نحو قوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤]، وقيل: جل عن السيئة وفِعْلِ القبيح، «**الْكَبِيرُ**» العظيم في صفاته.

۞ الأحكام

تدل الآية على خلق الكلام، وعلى كونه مقدورًا لله، فيصح أن يزيد فيه، وأنه يقدر منه على ما لا غاية له.

وتدل على البعث.

وتدل على أنه تعالى دبر أمر الليل والنهار، والشمس والقمر، على ما دبر لمنافع خلقه.

وتدل على أن أفعال العباد حادثة من جهتهم لقوله: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ و﴿يَدْعُونَ﴾.

قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾

۞ القراءة

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب: «ويُنْزِلُ الغيث» بالتخفيف، وكذلك في «حم عسق»، وقرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر وعاصم: ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ بالتشديد فيهما. قراءة العامة: ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ بفتح الغين، وعن سماك بن حرب بضمها، بمعنى «لا تغروا».

۞ اللغة

الجريان: استمرار الشيء في ذهابه كاستمرار الماء، والفُلْكُ تجري في الماء، والعلة تجري؛ لأنها تستمر في أحكامها.

والموج: أصله الاضطراب والحركة، يقال: ماج يَمُوجُ.

والظُّلَلُ: جمع ظُلَّةٍ، وهو ما أظلك، وكل شيء أظلك، فهو ظُلَّةٌ.

والمقتصد: من القصد، وسواء هو والقاسط، وهو الوسط، ومنه في صفته ﷺ: (كان أبيض مقتصدًا)؛ يعني: ليس بجسيم ولا قصير، وقيل: هو المَقَصَّد[1] من الرجال [بمعنى القصد] وهو[2] الرَّبَعةِ، والمقتصد: «مُفْتَعِلٌ»، وقد يجيء «مُفْتَعِلٌ» بمعنى الفاعل كالمكتسب والكاسب.

والخَتْرُ: الغدر، وأصله الفساد، وسمي الغدر خترًا لفساده، يقال: ختره الشرابُ[3]: إذا أفسد نفسه، قال الأزهري: الخَتْرُ أقبح الغدر، يقال: رجل صاحب حِيَلٍ وَخَتْرٍ أي: غدر، وقال عمرو بن معدي كرب:

وإنك لو رأيتَ أبا عُمَيْرٍ[4] ... مَلأْتَ يَدَيْكَ مِنْ غَدْرٍ وَخَتْرِ

(١) المقَصَّد: القصد، ن.

(٢) وهو: نحو، ن.

(٣) الشراب: التراب.، ن. والصواب ما أثبتناه من لسان العرب ٤/ ٢٢٩، القاموس المحيط ١/ ٤٨٩، تاج العروس ١/ ٢٧٤٦.

(٤) أبا عمير: أبا عوير، ما أثبتناه من تفسير الطبري ١٠/ ٢٢٤، وتفسير القرطبي ١٤/ ٧٣، وروح المعاني ٢١/ ١٠٦. انظر شعر عمرو بن معدي كرب الزبيدي، تحقيق مطاع الطرابيشي، مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٨٥، ط٢، ص ١٢٣ وورد البيت برواية أخرى:

وكنت إذا رأيت أبا عمير ... ترى الحولاء من خبث وغدرِ

يقال: جَزَيْتُ عنك أَجْزِي، إذا أغنيت عنك، وفيه لغة أخرى: يجزئ عنك بالهمز من أَجْزَأْتُ، (ولا تَجْزِي نفس) أي: لا تقضي، ومنه: «ولا تَجْزِي عَنْ أَحَدٍ بَعْدَكَ» ويقال: جزى عني بغير همز، ومنه: جزاه الله خيرًا أي: قضاه، فإذا كان بمعنى الكفاية قلب جَزَى غير مهموز واجْزِهِ.

۞ الإعراب

يقال: لِمَ قال: ﴿بِأَيِّ أَرْضٍ﴾ والأرض مؤنثة؟

قلنا: فيه قولان:

أولهما: قيل: لأنه ليس فيها علامة التأنيث ولا تأنيثه حقيقة، فجاز أن يُذَكَّرَ.

وثانيهما: أراد بالأرض المكان. وقرأ أُبَيٌّ: «بأية أرض».

والضمير في قوله: ﴿غَشِيَهُم﴾ يرجع إلى أهل السفينة.

۞ النزول

قيل: [نزلت في رجل اسمه](١) الحارث بن عمرو من [أهل] البادية، سأل(٢) رسول الله صلى الله عليه عن علم الساعة ووقتها، وقال: إن أرضنا أجدبت، فمتى ينزل الغيث؟ وتركت امرأتي حبلى فما تلد؟، وقد علمت أني وُلِدْتُ فبأي أرض أموت؟ فأنزل(٣) الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾.

۞ المعنى

ثم أكد ما تقدم من نعمه وأدلة وحدانيته، فقال سبحانه: «**أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ**» أي: برحمته «**لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ**» من حججه، والآية والنعمة في ذلك خلق الماء بحيث تجري فيه السفن، وخلق الخشب على وجه يجري، ولا يرسب، وأجرى الريح على وجه يُجري السفن «**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ**» على أمر الله «**شَكُورٍ**» على نعمه.

---

(١) ما بين المعكوفين في ن: حل. وما أثبتناه من تفسير مقاتل: ٣/ ٦٣.

(٢) سأل: وسأل، ن.

(٣) فأنزل: قال، ن.

ومتى قيل: كيف يتصل ذلك بأمر السفينة؟

فجوابنا: لأن الحال فيه بين سلامة يجب شكرها أو هلاك يجب الصبر عليه[1]، وقيل: أراد به المؤمن؛ لأن الصبر والشكر من خصالهم يشكرون النعمة، ويصبرون على البلية.

«**وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ**» في ارتفاعه وتغطية ما فيه، وقيل: كالظلل كالجبال، عن مقاتل. وقيل: كالسحاب، عن الكلبي. «**دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**» أي: دعوه لينجيهم من أهوالها متضرعين مخلصين لعلمهم بأن غير الله لا يقدر على نجاتهم، «**فَلَمَّا نَجَّاهُمْ**» أي: أجاب دعاءهم ونجاهم من تلك المخافة «**فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ**» قيل: مؤمن، عن الحسن. وقيل: على طريقة مستقيمة وصلاح من الآخرة، عن ابن زيد. وقيل: مُوفٍ لعهده في البحر، عن ابن عباس. وقيل: مقتصد في القول مضمر للكفر، عن مجاهد. وقيل: مقتصد للقول من الكفار؛ لأن بعضهم أشد قولاً في الافتراء، عن الكلبي. وقيل: في الكلام حذف دل عليه قوله: «**وَمَا يَجْحَدُ**» كأنه قيل، فمنهم مقتصد ومنهم جائر أي: عادل عن الحق «**وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ**» غَدَّار، عن الحسن، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وابن زيد. «**كَفُورٍ**» جحود. وقيل: المقتصد: الكافر؛ لأنه يرجع إلى ما كان عليه، والاقتصاد: الرجوع إلى القصد الذي كان عليه، عن أبي مسلم. «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ**» أي: اتقوا عذابه باتقاء معاصيه «**وَاخْشَوْا يَوْمًا**» أي: يوم القيامة «**لاَ يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ**» أي: لا يكفي عنه «**وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا**» يعني: لا يغني أحد عن أحد وإن قربت قرابته وعظمت شفقته «**إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ**» بالقيامة والجزاء «**حَقٌّ**» لا خلف فيه «**فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا**» أي: لا تغتروا بطول السلامة وكثرة النعمة، فإنها تزول عن قريب «**وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ**» قيل: الشيطان، عن مجاهد، وقتادة، والضحاك. وقيل: هو تمنيك المغفرة مع عمل المعصية، عن سعيد بن جبير. وقيل: الغرور: اسم لكل مَنْ يَغُرُّ مِنْ الإنس والجن، وكل ما يغرِّر وَمن[2] عادة الإنسان أن يغتر به فهو غرور، عن أبي مسلم. وقيل: الغرور ما يدعو إلى المعصية ويغره عما وعد من العذاب، عن أبي علي. فالملوك تغر

---

(١) عليه: عليها، ن.

(٢) يغور ومن: يغور من، ن.

بأحوالهم، وعلماء السوء بمعالجتهم وإلقاء الشبه، ولا أحد أشد غرورًا وأعظم منهم «**إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ**» أي: هو المختص بعلم القيامة متى يكون، فليحذر المكلف حلوله بغتة «**وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ**» أي: هو يعلم متى ينزل الغيث وهو المطر، أو متى الصلاح في إنزاله «**وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ**» ذكر أو أنثى، واحد أم أكثر، ناقص أو كامل «**وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا**»، لأنه لا يعلم بقاءه غدًا فكيف يعلم تصرفه «**وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ**» في أية بلد، وقيل: في أية خطوة «**إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**» عالم بجميع الأشياء فهو المستحق للإلهية.

الأحكام

يدل ذكر السفينة والبحر على صانع حكيم.

وتدل على عظيم منزلة الصبر والشكر؛ لأن بناء الدين على هاتين، وقد قوبل هاتان الصفتان بقوله: ﴿خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾، فالأول من صفات المؤمنين، والثاني من صفات الكفار.

ويدل قوله: ﴿دَعَوُا﴾ على صحة الحجاج في الدين.

ويدل أنه يدعوه الكافر فيجيب فيما يتعلق بمصالحهم في الدنيا، وكان أبو علي يقول: ألبتة لا يجوز أن يجيب؛ لما فيه من التعظيم، وجوزه أبو هاشم لطفًا ومصلحة.

ويدل قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ الآية، على أنه خطاب للجميع.

وتدل على عظم حال القيامة، وكان الحسن يقول: إذا سمعت بقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فأرع سمعك فأنت تراد.

وتدل على أن الواجب لا نغتر بأحوال الدنيا.

وتدل على أن الخمسة التي عدها الله لا يقدر عليها(١) غيره، والمراد تفاصيل ذلك، فأما جُمْلَةً فيعلمه غيره.

(١) عليها: عليه، ن.

سُورَةُ السَّجْدَة

سورة (السجدة) مكية فيما نقل، وهي ثلاثون آية في الكوفي، وتسع وعشرون في البصري، وختم السورة التي قبلها بدلائل الربوبية، وافتتح هذه السورة التي تليها بها.

وعن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ: «من قرأ (آلم تنزيل) أعطي من الأجر كمن أحيا ليلة القدر».

وروى ليث عن ابن الزبير عن جابر: أن النبي ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ (الم تنزيل السجدة) و(تبارك الذي بيده الملك)، قال ليث: فذكرت ذلك لطاووس فقال: فضلتا[1] على كل سورة في القرآن، ومن قرأهما كتب له ستون حسنة، ورفع له ستون درجة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ
ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى
خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن
وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ
مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾﴾

---

(١) فضلتا: فضلته، ن والصواب ما أثبتناه من: (مجمع البيان في تفسير القرآن، للطبرسي). المجلد٥/ الجزء ٢١، ص٧١.

اللغة

التنزيل: ترتيب الشيء، وهو مصدر نَزَّلَ تنزيلاً، وأصله: النزول، ومنه: النازلة الشديدة تنزل بالإنسان.

والرَّيْبُ: الشك.

والنذير والمُنْذِرُ: المُخَوِّفُ، وأصل الإنذار: الإعلام بموضع المخافة.

والتَّدْبير: النظر في إدبار الأمور.

[عَرَجَ] يَعْرُجُ فيه، فإذا أراد أنه أعرج قلت: عَرِجَ يَعْرَجُ.

والغيب: قيل: خفاء الشيء عن الإدراك، وقيل: هو ما لا يعلم ضرورة، وما لا دليل عليه، وهو الصحيح، عن القاضي. وأصله: ما غاب عن الحواس، وحَدُّهُ ما ذكرنا.

والشهادة: ما ظهر للإدراك.

والعزيز: القادر على منع غيره، ولا يقدر أحد على منعه، وأصله: المنع، ومنه: مَنْ عَزَّ بَزَّ، أي: من غلب لا يمنعه أسيره[1] من أخذ سلبه. وعَزَوْت فلانًا على أمره: غلبته عليه. والعَزَازُ: الأرض الصلبة؛ لامتناعها بصلابتها[2]، وعَزَّهُ يَعُزُّهُ: غلبه، ومنه: إذا عَزّ أخوك فَهُنْ؛ أي: إذا غلبك ولم تقاومه فَلِنْ له.

الإعراب

الميم في قوله: ﴿أَمْ﴾ قيل: صلة، وتقديره: أتقولون؟ فهو استفهام، والمراد به التوبيخ، وقيل: هو بمعنى الواو تقديره: وتقولون، وقيل: فيه إضمار، وتقديره: فهل يؤمنون به أم يقولون افتراه؟

ويقال: لِمَ جاز أن يعطف بـ ﴿أَمْ﴾ من غير أن يكون قبلها استفهام؟

قلنا: لأنها جاءت بمعنى (بل) والألف، تقديره: بل يقولون، أيقولون؟ وقيل: فيه تقدير استفهام.

رفع «تَنزِيلُ» على الابتداء.

---

(١) من غلب لا يمنعه أسيره من: من غالب يمنعُه أسره، ن.

(٢) بصلابتها: بصلابته، ن.

المعنى

﴿الٓمٓ﴾ قد بَيَّنَّا في مواضع معنى الحروف في أوائل السور، وأن أحسن ما قيل فيه قول أبي علي والحسن: إنه اسم للسورة، وقول أبي مسلم: إنه إشارة إلى إعجاز القرآن من حيث أُلّف من هذه الحروف، ويتكلمون بها، وعجزوا عن مثلها. وقول من قال: إنها مفاتيح أسمائه «**تَنزِيلُ الْكِتَابِ**» يعني: نزله الله، فهو تنزيله يجب اتباعه والعمل بما فيه «**لاَ رَيْبَ فِيهِ**» قيل: لعجزهم عن مثله زال الشك أنه كلام رب العزة، وقيل: لا شك فيه أنه الحق من جهتك وإن شك فيه الكفار، كأنه لا يعتد بهم، وكأنه ليس بموضع الشك «**مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ**» أي: من جهته وكلامه بحيث يدلك على العمل به «**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ**» يعني: أيقولون: إن محمدًا افترى هذا القرآن من قِبَلِ نفسه «**بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ**» أي: ليس كما يقولون؛ بل هو حق، وهو كلام الله تعالى.

ثم بَيَّنَ الغرض في إنزاله فقال سبحانه: «**لِتُنذِرَ قَوْمًا**» أي: تخوفهم بالعقاب إن عصوا «**مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ**» قيل: هم أهل الفَتْرَةِ بين عيسى ومحمد لم يأتهم نذير قبل محمد، عن ابن عباس، ومقاتل. وقيل: هم أمة محمد لم يأتهم نذير قبلك، وقيل: أراد قريشًا، ولم يأتهم من قبل محمد، وإن كان في قبائل العرب أنبياء كخالد بن سنان العبسي أو غيره ممن كان الطير الأبابيل معجزة له «**لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ**» أي: أرسلك إليهم ليهتدوا.

ثم ذكر دلائل وحدانيته، فقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ يعني: في تقدير ستة أيام «**ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ**» استولى وقدر على إيجاده، ودخل (**ثم**) كما دخل (**ثم**) في قوله: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ﴾ [يونس: ٤٦]، و(**حتى**) في قوله: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾ [محمد: ٣١]، وقيل: العرش: السماء، والعرب تسمي كل سقف عرشًا، وقيل: هو العرش المعروف، وقيل: العرش: المُلْكُ، ومعنى الآية: أنه قادر على ما يشاء من العرش والسماء والأرض وما بينهما يتصرف فيهما كيف شاء، ينفذ فيها تدابيره من غير اعتراض خلاف ما يقوله المجوس، وقيل: العرش هو العرش المعروف، و(**على**) بمعنى قصد إلى؛ يعني: قصد إلى العرش فسواه وخلقه كقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩]، وهذا أحسن ما قيل فيه «**مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ**» سواه

«**مِن وَلِيٍّ**» قيل: من مالك، وقيل: من ناصر، وقيل: مَنْ يلي أمركم «**ولا شفيع**» أي: من يدعو لكم النصرة من غيره، كأنه قيل: لا ناصر لهم ينصرهم بنفسه أو يلتمس ذلك من غيره «**أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ**» أي: أفلا تتفكرون في ذلك، فهو عظة بليغة لكم «**يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ**» قيل: يدبر أمر ألف سنة في السماء والأرض، وارتقاؤه ألف سنة، وينزل به الملائكة، ثم ينتهي إليه عند انتهاء الأمر، ويصير الأمر إليه كما بدأ منه، وذلك نحو الدول والملك والممالك نحو: تغالبت[1] وهو دوام دولته فلبث ألف سنة إلا خمسين عامًا، فبقي الأمر فيهم يتوارثون، فإذا بلغ ألف سنة ارتجع منهم فيظهر عند انقضاء المدة كأن الأمر كما دبر، والمدة: مدة التدبير، والمراد باليوم الزمان، فسماه يومًا، وإن كان مدة كثيرة، كما قال الشاعر:

يَـوْمَـانِ: يَـوْمُ مَـقَـامَـاتٍ وَأَنْـدِيَـةٍ[2]

وإنما أراد الزمان، وتقدير الآية: «**يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ**» أي: ينزل الملك بالوحي من السماء إلى الأرض، ثم يصعد الملك إليه بالأمر في يوم واحد من أيام الدنيا في قدر سير ألف سنة، خمسمائة لنزوله وخمسمائة لصعوده؛ لأن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام لو سار أحد من بني آدم، فيقطعه الملك بهذا القدر، وهذا معنى قول ابن عباس، والحسن، والضحاك، ومجاهد، وقتادة، وأبي علي، وجماعة. قال الحسن: لو أمر الله أن ينفذوا بأسرع منه لفعلوا. وقيل: إن ما قاله أبو مسلم لا يصح؛ لأنه تعالى يدبر الأمر حالاً بعد حال، وقال: «**يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ**» مدة أيام الدنيا، ثم يرجع الأمر والتدبير إليه بعد انقضاء الدنيا «**فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ**» وهو يوم القيامة، فالمدة المذكورة مدة يوم القيامة إلى أن يستقر الخلق في الدارين، وأما قوله: ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] فإنه أراد على الكافر، فإن المقامات في القيامة تختلف، ومعنى «**يَعْرُجُ إِلَيْهِ**»: إلى الموضع الذي أمر

(١) تغالبت: تقابلت، هكذا في ن بدون نقاط.

(٢) البيت قائله سلامة بن جندل وتكملته:

يـومـان يـوم مـقـامـاتٍ وأنـديـة ويـوم سـيـر عـلـى الأعـداء تـأويـب

انظر: لسان العرب، مادة (أوب).

الله الملك بالرجوع إليه، كقوله: ﴿ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [الصافات: ٩٩] يعني إلى الموضع الذي أمرني ربي، يعني: أرض الشام، وكذلك قوله: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠] إلى المدينة، ولم يكن الله سبحانه بالشام ولا بالمدينة.

ومتى قيل: أليس قد قال في موضع آخر: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]؟

قلنا: هذا النزول لفصل القضاء، والعروج إلى سدرة المنتهى وموضع الثواب، وقيل: في الأول ينزل من السماء الدنيا ويعرج إلى موضع التدبير منه في يوم، فيكون الصعود والنزول ألف سنة، ومن السماء السابعة ينزل ويعرج في يوم مقداره خمسين ألف سنة. وقيل: خمسين ألف سنة لمدة القيامة، وألف سنة للنزول والعروج. وقيل: ألف سنة للتدبير وخمسين ألف سنة لمدة القيامة «**ذَٰلِكَ**» يعني: الذي يدبر الأمر وينفذ أمره «**عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ**» أي: ما يُشَاهَدُ وما لا يُشَاهَدُ، وهو «**الْعَزِيزُ**» أي: القادر لا يمتنع عليه مقدور «**الرَّحِيمُ**» بعباده.

۞ الأحكام

تدل الآيات على حدث القرآن؛ لأن القديم لا يصح عليه الإنزال.

وتدل أنه من قبله تعالى؛ لذلك أضافه إلى نفسه.

وتدل على أن النبي ﷺ بُعِثَ وقد تقدمه فترة لم يكن فيها نظير، فتدل على جواز خلو المكلفين من حجة خلاف ما تقوله الإمامية وأبو علي.

ومتى قيل: فحديث الفيل والغمامة معجزة لمن؟

قلنا: لنبي كان في ذلك الزمان، عن مشايخنا البصرية. وقيل: إرهاصًا لنبوة محمد ـ صلى الله عليه ـ، عن البغدادية.

ويدل قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ(١) يَهْتَدُونَ﴾ أن القرآن أنزل للاهتداء، خلاف ما يقوله المجبرة أنه أنزله ليكفر به بعضهم.

---

(١) لعلهم: لعلكم، ن؛ والصحيح ما أثبتناه من نص الآية.

ويدل قوله: ﴿مَا لَكُم﴾ الآية أن من دخل النار فلا شفيع له، فيبطل قول المجبرة.

ومتى قيل: كيف يصح أن يكون هو الشفيع حتى قال: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾؟

قلنا: من رحمته تجويز أن يفعل ما يقوم به الشفيع، وقيل: يأمر الملائكة بالشفاعة، فكأنه من جهته؛ فلذلك أضافه إليه.

قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾

القراءة

قرأ أبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب: «كل شيء خَلْقَهُ» فقد حسنه وأحسن صورته، قال الأخفش: هو على البدل، تقديره: أحسن خلق كل شيء، كما تقول: رأيت بني فلان ناسًا منهم؛ أي: رأيت ناسًا منهم. وقرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائي: «خلَقَه» بفتح اللام، وهو قراءة سعيد بن المسيب، يعني: أحسن فَخَلَقَ كل شيء.

فأما قوله ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا﴾ ﴿أَءِنَّا﴾، قد بَيَّنَّا مذهبهم، وأن منهم من لم يجمع بين استفهامين، ثم اختلفوا: منهم من يستفهم الأول دون الثاني، ومنهم من يستفهم الثاني، واختلفوا فمنهم يستفهم بمَدَّة طويلة، ومنهم من يستفهم بهمزة، ومنهم من يستفهم بمَدَّة غير طويلة، ومنهم من يجمع بين الاستفهامين، ثم يختلفون في الهمزة والمَدَّة، على ما ذكرنا.

قراءة العامة: ﴿ضَلَلْنَا﴾ بفتح اللام، وعن ابن محيصن بكسرها وهي لغة، وقراءة العامة: ﴿ضَلَلْنَا﴾ معجمة، وقرأ الأعمش بالصاد غير معجمة [صَلَلْنا] أي: أَنْتَنَّا، وروي غيره عن علي، يقال: صَلَّ اللحمُ وأَصَلَّ: إذا أَنْتَنَ.

اللغة

السلالة: الصفوة التي تنسل من غيرها، قال أبو مسلم: وهو الشيء القليل يعصر من غيره، كالصبابة[1] ونحوها.

والمَهِين: الحقير، رجل مهين بَيِّنُ المهانة، وهو «فَعِيلٌ»، وأصله من المِهْنَةِ، وهي الخدمة.

و«ضللنا» بفتح اللام وكسرها لغتان، وكل شيء غلب على غيره حتى يغيب فيه فقد ضل، وحقيقته: الذهاب، يقال: ضللت بعيري: إذا ذهب عنك، ثم يقال للهالك: ضل، أي: هلك.

الإعراب

يقال: بِمَ انتصب: «خَلْقَهُ»؟

قلنا: على البدل من (كل) كما قال الشاعر:

كَأَنَّ هِنْدًا ثَنَايَاهَا وَبَهْجَتَهَا   يَوْمَ الْتَقَيْنَا عَلَى أَدْحَالِ دَبَّابِ[2]

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ﴾ قيل: أراد الجنس، وقيل: هو مصدر سمع يسمع، كأنه قيل: جعلكم سامعين، فلذلك لم يجمع. و(البصر) اسم فجمعه.

المعنى

ثم أكد ما تقدم من دلائل وحدانيته، وعلامات ربوبيته، فقال سبحانه: «الَّذِي

---

(١) كالصبابة: وكالصبابة، ن.

(٢) البيت قائله الراعي النميري، وفي رواية أخرى:

كأن هندًا ثناياها وبهجتها   لمَّا التقينا على أدحالِ دبَّابِ

انظر: ديوان الراعي النميري، تحقيق راينهرت فايبرت، ص ١٢، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، بيروت، ١٩٨٠.

«أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ» قيل: أحكمه وأتقنه، عن ابن عباس. وقيل: كل شيء حسّنه، عن قتادة. وقيل: عَلِمَ كيف يخلق كل شيء مِنْ قَبْل خَلْقِهِ، عن مقاتل. من قولهم: فلان يحسن كذا، أي: يعلم. وقيل: الذي خلق كل ما خلق حسنًا **«وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ»** يعني: آدم **«مِن طِينٍ»** كان ترابًا ثم صار طينًا ثم صلصالاً ثم حيوانًا **«ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ»** يعني: نسل آدم وهم أولاده **«مِن سُلَالَةٍ»** قيل: سل من الطين، وقيل: هو من نطفة سميت سلالة؛ لأنها تسل من الإنسان أو تخرج منه، ومنه السلالة، وقيل: هو صفو الماء، عن ابن عباس. **«مِن مَّاءٍ مَهِينٍ»** قيل: ضعيف، عن قتادة. وقيل: حقير مهان، أشار إلى أنه إذا كان من شيء حقير لا قيمة له، وإنما يصير له قيمة بالعلم والعمل **«ثُمَّ سَوَّاهُ»** أي: جعله جسدًا سويًا **«وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُوحِهِ»** قيل: الروح محل الحياة، وقيل: هو الشرط في بقاء الحياة. وقال أبو مسلم: هو الجوهر والعرض الذي معها يحيا الإنسان، وعند عدمه يموت. والصحيح أن الروح جسم؛ لذلك يصح فيه النفخ، وهو النفس الذي يحصل في مخارق الإنسان، فإذا كان في الهواء سمي ريحًا، ثم اختلف مشايخنا، فمنهم من قال: الحياة لا تبقى إلا معه، وإنما تحتاج الحياة إليه لجنسه، وهو قول أبي علي وأبي هاشم. وقيل: لا تحتاج إليه لجنسه، ولكن للعادة كالطعام والماء، عن القاضي، وهو الصحيح. ونَزْعُ الروح: إخراج تلك الأجزاء، ويحتمل أن يكون النزع إخراج محل الحياة، وسمي روحًا، فأما الحياة فهي عرض يحل كل جزء بها يحيا، وتجعل الجملة كالشيء الواحد، وتحتاج إلى يبوسة ورطوبة.

فإن قيل: لم أضاف الروح إلى نفسه؟

فجوابنا: لأنه خلقه واختص بالقدرة عليه، وقيل: لأنه من الأشياء السببية، وأضافه إلى نفسه تفخيمًا لشأنه كالمساجد والعرش ونحوهما.

«وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ» أي: خلق هذه الحواس لتدرك المدركات وتسمع بالسمع وترى بالبصر وتعلم بالقلب **«قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ»** أي: مع هذه النعم قَلَّ شكركم يا بني آدم، وقيل: قليل من عباده من يقوم بشكر نعمه **«وَقَالُوا»** يعني: منكري البعث **«أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ»** أي: غبنا وصرنا ترابًا، وقيل: هلكنا، عن قتادة، ومجاهد. **«أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ»** يعني: نحيا بعد أن نموت، ومعناه: إذا ضللنا في

التراب بحيث لا نتميز من التراب كيف نبعث؟ فهو استفهام، والمراد الإنكار، ولم يعلموا أن الله تعالى عالم بتلك الأجزاء وتفاصيلها قادر على جمعها والأعراض التي بها يصير حيًّا سويًّا، فيحلها في تلك الأجزاء فيعود حيًا كما قال الله تعالى. «**بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ**» يعني: لم يقولوا ذلك لحجة وشبهة؛ بل لكفرهم بلقاء ما وعد الله من ثوابه وعقابه، وقيل: بأنهم كفروا بهذا القول، عن أبي علي. فذكر لقاءه، والمراد: لقاء جزائه، كقوله: ﴿ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [الصافات: ٩٩] يعني: إلى حيث أمرني ربي «**قُلْ**» يا محمد لهم: «**يَتَوَفَّاكُمْ**» قيل: يقبض أرواحكم؛ لأن التوفي هو قبض الشيء بتمامه، وقيل: يقبض محل أرواحكم، وقيل: يقبض واحدًا بعد واحد حتى لا يبقى واحد «**مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ**» أي: بقبض أرواحكم، فأما الموت فلا يقدر عليه غير الله تعالى «**ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ**» أي: إلى حكمه وجزائه تصيرون، يعني: بعد الموت.

۞ الأحكام

يدل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ أن الكفر والكذب ليس من خلقه، خلاف قول المجبرة.

وتدل الآية على أنه خلق آدم من طين، وأجرى العادة بخلق نسله من ماء، وهو النطفة، ووصفه بالسلالة؛ لأنه يسيل من أصلاب الرجال، ثم بَيَّنَ كيف نقل من حال إلى حال حتى صيره بشرًا سويًّا، وكل ذلك يدل على كمال قدرته وتمام نعمته.

وتدل أن القائم بالحق قليل، فيبطل قول من يغتر في تقليدهم للأكثر.

وتدل أن ملك الموت يقبض الأرواح، وقد روي أن ملائكة الرحمة يقبضون أرواح المؤمنين، وملائكة العذاب يقبضون أرواح الكافرين. واختلفوا، فقيل: ملك الموت واحد، وجعلت الدنيا بين يديه مثل جَام يأخذ منها ما شاء، إذا قضى عليه الموت من غير عناء، عن ابن عباس. قال مجاهد: جعلت الأرض له مثل طَسْتٍ يتناول ما شاء. وقال ابن عباس: خطوة ملك الموت ما بين المشرق [والمغرب][1]،

(١) ما بين المعكوفين زيادة من: تفسير البغوي ١/ ٣٠٢، والدر المنثور ٦/ ٥٤٢.

وقيل: بل له أعوان كثير من ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، عن قتادة، ومقاتل، والكلبي. وعلى هذا أراد بملك[1] الموت الجنس، يدل عليه قوله: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١]، وقوله: ﴿تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [النحل: ٢٨].

ومتى قيل: كيف الجمع بين هذه الآيات وبين قوله: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]؟

قلنا: الله يخلق الموت ولا يقدر عليه أحد سواه، وملك الموت يقبض الأرواح، أو يأمر به أعوانه، وهذا هو الأوجه.

وقيل: الله تعالى هو المتوفي وأمر الملائكة بالقبض، والأول أوجه، وعلى هذا أنه يقبض الروح والحياة تحتاج إليه، فتبطل.

قوله تعالى:

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ ۖ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾

اللغة

النَّكْسُ: قلب الشيء على رأسه، نكسه ينكسه، والنُّكْسُ في المرض بضم النون، والنِّكْسُ بكسر النون: السهم الذي ينكسر، فيجعل أعلاه أسفله.

والخُرُورُ: السقوط، خَرَّ: سقط.

---

(١) بملك: ملك، ن.

والاستكبار والاستنكاف من النظائر.

۞ الإعراب

جواب (لو) محذوف، تقديره: ولو ترى لرأيت أمرًا عظيمًا، وقيل: لرأيت ما تعتبر به غاية الاعتبار، وقيل: حذف جواب (لو)؛ لأنه أبلغ في التهويل؛ لأن القدر يذهب فيه كل مذهب، وقيل: جوابه في معنى الكلام.

۞ المعنى

لما تقدم الحكاية عنهم في إنكار البعث بَيَّنَ حالهم عند البعث واعترافهم، فقال سبحانه: «**وَلَوْ تَرَى**» أيها الإنسان «**إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ**» أي: طَأطَؤُوا رؤوسهم، لا يرفعونها، قيل: من الغم والحسرة، عن أبي علي. وقيل: من الحياء والخزي «**عِنْدَ رَبِّهِمْ**» أي: يوم القيامة؛ لأنه تعالى لما جعلهم كالراجعين إليه يوم القيامة بالإعادة والنشور جعلهم كأنهم عنده من حيث يتصرفون في حكمه وأمره «**رَبَّنَا**» فيه حذف؛ أي: ويقولون: ربنا «**أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا**» قيل: أبصرنا صدق وعدك وما كنا نكذب به، وسمعنا منك تصديق رسلك، وقيل: أبصرنا الرسل، وسمعنا الحق، وقيل: كنا بمنزلة العُمْيِ الصم، فالآن أبصرنا وسمعنا، وقيل: أبصرنا وسمعنا ما لم نكن نبصره، ونسمعه في الدنيا، فلم ينفعهم ذلك يومئذ، وقيل: معناه: أبصرنا رسولك في الدنيا، وسمعنا شريعتك، فليس لنا حجة ولا عذر «**فَارْجِعْنَا**» أي: لا عذر لنا إلاَّ[1] أن نسأل الرجعة، «**فَارْجِعْنَا**» أي: دار الدنيا والتكليف «**نَعْمَلْ صَالِحًا**» أي: نتلافى ما فرطنا من الأعمال الصالحة «**إِنَّا مُوقِنُونَ**» أي: اتضح الحق وحصل اليقين وما كنا فيه في شك، وقيل: إنا موقنون أن لك الحجة البالغة «**وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا**» قيل: لو شئنا لآتيناهم الهدى جبرًا وإلجاءً، إلا أن فيه إبطال التكليف وفساد التدبير، فاختار أن يخيرهم ويخلي بينهم وبين أفعالهم، ليدخل المؤمن الجنة وتمتلئ النار من المستحقين للعذاب، عن أبي علي. وقيل: لو شئنا لأجبناهم إلى ما سألوا ولآتيناهم طريق التكليف، كما آتيناهم في الدنيا، أو رددناهم إلى الدنيا كما سألوا؛

---

(١) إلاَّ: إلى، ن.

لكن حكمه ألاَّ يُرَدَّ أحد إلى دار الدنيا وإلى التكليف بعد البعث، عن الحسن، وأبي علي. والأول إخبار عن قدرته ورأفته، وكذلك الثاني. وقيل: لو شاء أن يدخلهم الجنة قدر عليه، ولكن سبق الوعيد أن المؤمن يدخل الجنة والكافر يدخل النار. ومعنى «**هُدَاهَا**» ما هو خير لها، وهو الجنة، فهو إخبار عن قدرته، عن أبي مسلم. «**وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي**» قيل: سبق، وقيل: وجب الوعد والوعيد، وقيل: هو قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥]، «**لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ**» قيل: أراد من كثرة أهلها، وقيل: لم يرد الكثرة؛ لأنهم ولو قلوا لامتلأت جهنم من أجسامهم.

ومتى قيل: لو علم أنهم يؤمنون لو ردوا أكان يجب ردهم؟

قلنا: لا يجب؛ لأنه ابتداء تكليف، ولأنه تعالى علم أنه لا لطف لهم؛ لذلك قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا﴾ [الأنعام: ٢٨].

«**مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**» أي: أهل النار من هذين الجنسين، ثم يقال لهم: «**فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ**» قيل: إعراض نسيان وغفلة كالواثق بأنه لا يكون، وقيل: «**نَسِيتُمْ**» أي: تركتم العمل بها فصار كالمنسي لكم، فإنما حقيقة النسيان هو فعل الله تعالى، [و]هو إذهاب العلم الضروري بما جرت العادة بالعلم بها «**لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا**» يوم القيامة، وقيل: أراد عذاب يوم القيامة «**إِنَّا نَسِينَاكُمْ**» قيل: جازيناكم النسيان، فسمى الجزاء عليه باسمه، وقيل: تركتم عبادة الله فتركنا رحمتكم عند الجزاء فلم نرحمكم، وقيل: تركناكم في النار كالمنسي لا يلحقكم غوث «**وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**» من الكفر والمعاصي.

ثم عقب بذكر المؤمنين فقال سبحانه: «**إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا**» أي: القرآن وسائر الحجج «**الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا**» أي: وُعِظُوا بها، والتذكر مرة يقع بتلاوة القرآن، وتارة بالتنبيه على الأدلة «**خَرُّوا سُجَّدًا**» قيل: سقطوا ساجدين، وقيل: خضعوا لله «**وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ**» قيل: نزهوه عما يقوله الكافرون مما وصفوه من حمده وثنائه، وقيل: عظموه وحمدوه؛ لما وفقهم من ذلك «**وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ**» عن عبادته[1].

---

(١) عبادته: عباده، ن.

۞ الأحكام

الآية تدل على سؤال الرجعة، وأنهم لا يجابون إليها.

وتدل أن النجاة والفوز يحصل بالأعمال الصالحة لذلك سألوا الرجعة ليعملوا الصالحات، فيبطل قول المرجئة، ويبطل قول من يقول: الثواب تَفَضُّلٌ.

وتدل على أن أفعالهم حادثة من جهتهم، وما خلق الله تعالى كفرهم، وإلا لم يكن لسؤال الرجعة معنى، فيبطل قول المجبرة في المخلوق والاستطاعة.

ويدل قوله: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ أن الخلف في وعيده لا يجوز، بخلاف قول جماعة من المرجئة.

وتدل على أن أهل النار من الجن والإنس.

وتدل على أنه ليس في الملائكة من يستحق العذاب.

قوله تعالى:

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾

۞ القراءة

قرأ حمزة ويعقوب: «أُخْفِيْ» بسكون الياء على معنى: أنا أخفي، واحتجا بقراءة ابن مسعود (نخفي) بالنون، وقرأ الباقون: «أُخْفِيَ» بفتح الياء على ما لم يسم فاعله، وعن محمد بن كعب: «أَخْفَى» بفتح الألف على إضافة الفعل إلى الله تعالى.

قراءة العامة: ﴿قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ على توحيد (قرة)، وعن أبي هريرة: (قُرَّاتِ أعين).

۞ اللغة

التجافي: التنحي عن الشيء إلى جهة الارتفاع، والتجافي والنبو والتباعد من النظائر، جفا عنه يجفو: إذا تباعد، وجفا السرج عن ظهر الفرس، وأجفيته أنا، ومنه: الجفاء بين الناس، ممدود: هو التباعد، خلاف البِرّ والتقارب، وأجفأت القدر زَبَدَها: أَلْقَتْهُ، وفي الحديث: «كان يجافي عضديه» أي: يباعد.

والمضاجع: موضع الاضطجاع، وهو إلقاء النفس في جنب.

وقرة أعين: قيل: يرى ما تقر به العين، يقال: أقر الله عينك: أَنَامَهَا، يقال: قر يَقَرُّ: إذا سكن. والقُرُّ: البرد، وللسرور يقال: دمعة باردة، ولِلْهَمِّ: دمعة حارة؛ ولذلك يقال للمدعو له: أقر الله عينه، وللمدعو عليه: أسخن الله عينه.

۞ الإعراب

(ما) في قوله: «مَا أُخْفِيَ» قيل: بمعنى (الذي)، وقيل: بمعنى (أَيّ)، تقديره: أي نعيم أخفي لهم، وأراد بالقرة: الحسن؛ فلذلك لم تجمع.

ويقال: لِمَ قال: ﴿لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ والمؤمن والفاسق اثنان؟

قلنا: أراد الجنس، ولم يرد مؤمنًا بعينه، ولا فاسقًا بعينه، و(مَنْ) اسم مبهم يجوز أن يعبر عنه بالواحد والجمع؛ فلذلك قال: «فَاسِقًا» ثم قال: ﴿لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾، وقيل: للتفخيم.

ويقال: لِمَ قال: ﴿بِهِۦ﴾ والنار مؤنثة؟

قلنا: قيل: النار تذكر وتؤنث؛ لأنه ليس في لفظه علامة التأنيث، وقيل: الكناية ترجع إلى العذاب، عن أبي مسلم.

﴿نُزُلًا﴾ نصب على الحال.

۞ النزول

عن مالك بن دينار، سألت أنس بن مالك عن قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ فقال: كان أناس من أصحاب رسول الله ﷺ يصلون من صلاة المغرب إلى صلاة

العشاء الآخرة، فأنزل الله سبحانه وتعالى فيهم: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ الآية، كنا نصلي المغرب، فلا نرجع إلى رحالنا حتى نصلي العشاء.

وعن أنس أنها نزلت في الذين لا ينامون قبل العشاء الآخرة.

وقيل: نزلت في صلاة الليل، عن معاذ مرفوعًا.

وقيل: نزل قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ في علي بن أبي طالب والوليد بن عقبة بن أبي معيط، جرى بينهما كلام، فقال لعلي: اسكت فإنك صبي، وأنا والله أبسط منك لسانًا وأحدُّ سنانًا، فقال له علي: اسكت؛ فإنك فاسق، فنزلت الآية.

المعنى

ثم وصف تعالى المؤمنين وما أعد لهم، فقال سبحانه: «**تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ**» أي: ترتفع وتتباعد جنوبهم «**عَنِ الْمَضَاجِعِ**» أي: يقومون للصلاة ولا ينامون. و«**يَدْعُونَ رَبَّهُمْ**» قيل: كانوا يصلون بين المغرب والعشاء، عن أنس، وقتادة. وقيل: هو صلاة الليل، عن أبي العالية، والحسن، ومجاهد، وابن زيد، وروي ذلك مرفوعًا. وقيل: يذكرون الله بالدعاء والتعظيم، عن الضحاك، وروي عنه: لئن أصلي العشاء والفجر في جماعة [. . .]. وقيل: يصلون صلاة العتمة، ولا ينامون عنها، عن عطاء. وقيل: يشتغلون بالدعاء عقيب الصلاة «**خَوْفًا وَطَمَعًا**» قيل: خوفًا من عذاب الله، وطمعًا في رحمة الله، عن جماعة أهل العلم. «**وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ**» أعطيناهم «**يُنفِقُونَ**» في طاعة الله.

ثم ذكر جزاءه، فقال سبحانه: «**فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ**» يعني: أُعِدَّ لهم وهم لا يعلمون.

ومتى قيل: ما فائدة الإخفاء؟

فجوابنا: لوجوه:

أحدها: أن الشيء إذا عظم خطره وجل موقعه لا تستدرك صفاته على كنهه إلا بشرح طويل، ومع ذلك يكون إبهامه أبلغ.

وثانيها: أن الإبهام أعظم في النفوس، تقول: عندي لك ما لا يخطر ببالك، فيكون هذا لأجل مزية تذكر شيئًا شيئًا.

وثالثها: أن الثواب لا يتناهى، فلا يمكن استدراك علمه بالتفصيل.

ورابعها: أنه جعله في مقابلة صلاة الليل، وهي خفية، فكذلك ما بإزائه.

«**مِن قُرَّةِ أَعْيُنٍ**» يعني: ما تقر به العيون لحسنه وبهائه، وأضافه إلى الأعين، لا إلى عينه، إشارة إلى أنها غاية في الحسن تقر به كل عين «**جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**» من الطاعات «**أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا**» استفهام، والمراد التقرير؛ يعني: إذا كان مؤمنًا استحق ما تقدم «**كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا**» يستحق النار «**لَا يَسْتَوُونَ**».

ثم بَيَّنَ حال الفريقين، فقال: «**أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى**» اسم لجنة مخصوصة، وقيل: اسم للجنان كلها، والمراد بالمأوى الدوام؛ لأنه يأوي إليها أهلها أبدًا «**نُزُلًا**» أي: عطاء، عن الحسن، يعني: عطاء ينزلونه، وقيل: ما ينزل للضيف، يعني: أنهم في حكم الأضياف في الجنة «**بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**» أي: استحقوه جزاء أعمالهم «**وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا**» أخرجوا عن طاعة الله «**فَمَأْوَاهُمُ**» مرجعهم ومصيرهم «**النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا**» كلما كادوا يخرجون؛ لأنها ترفعهم بلهبها ضُرِبوا بمقامع حتى يهووا فيها، عن الحسن. وقيل: الإرادة توسع ومجاز، والمراد كادوا يخرجون؛ لأنهم آيسون عن الخروج، فلا يحسن منهم إرادته، وقيل: يحسن وإن علموا أنه لا يكون، وكلما أرادوا أن يخرجوا وقصدوا مُنِعُوا من ذلك، والعلم بأن الشيء لا يكون لا يمنع حسن إرادته، ولأن خروجهم لو أخرجوا حَسَنٌ، لذلك أرادوه[1]، وهذا قول أبي هاشم ومن تبعه. «**وَقِيلَ لَهُمْ**» استخفافًا وتوبيخًا: «**ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ**».

۞ الأحكام

تدل أول الآيات على عظم موقع صلاة الليل والترغيب فيها، وهو الأشبه بالآية، وعن معاذ أن النبي صلى الله عليه وآله قرأ هذه الآية ثم قال: «هو قيام العبد من الليل»، ولا خلاف أنها سنة.

---

(١) لذلك أرادوه: ذلك إرادة، ن.

ويدل قوله: ﴿خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ أن العبادات الشرعية يجب أداؤها على هذا الوجه.

ويدل قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ أن الرزق لا يكون إلا حلالاً.

ويدل قوله: ﴿جَزَآءَۢ﴾ على أن الجزاء يستحق على الأعمال، خلاف قول المجبرة.

ويدل قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا﴾ أن المؤمن لا يكون فاسقًا، والفاسق لا يكون مؤمنًا، ولا يستويان في الدنيا والآخرة، فيصحح قولنا في المنزلة بين المنزلتين، ويبطل قول المرجئة.

ويدل أن المؤمن له الجنة والفاسق له النار، فيصحح قولنا في الوعيد.

ومتى قيل: الآية في الكفار؛ لأنه قال في آخر الآية: ﴿تُكَذِّبُونَ﴾؟

قلنا: خصوص آخر الآية لا يوجب تخصيص أولها، ولأنهم كذبوا بالخلود.

ويدل قوله: ﴿وَقِيلَ﴾ أن هناك حُرَّاسًا وَخَزَنَةً.

قوله تعالى:

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ
مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى
ٱلۡكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآئِهِۦۖ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ
أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ
يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾

القراءة

قرأ حمزة ويعقوب والكسائي: «**لِمَا صبروا**» بكسر اللام وتخفيف الميم، أي: بصبرهم، وقرأ الباقون بفتح اللام وتشديد الميم، أي: حين صبروا.

اللغة

الأدنى والأقرب من النظائر، يقال في الإغراء: هذا دُونَكَ، وهذا دون ذلك، أي: أقرب منه، وفي الحقير: هو دون، ولا يشتق منه فِعْلٌ، قال القتيبي: دان يَدُونُ دَوْنًا: إذا ضعف.

والمِرْيَةُ: الشك مع تهمة، امترى وتمارى، والتماري: المجادلة على مذهب الشك.

الإعراب

«مُنتَقِمُونَ» رفع لأنه خبر، تقديره: إنا منتقمون من المجرمين.

النظم

يقال: كيف يتصل ذكر موسى بما قبله؟

قلنا: أراد كما آتيناك الكتاب فكذبوك آتينا موسى فكذبوه، ففيه تسلية له ووعيد لهم.

المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى أن لهم عذابًا قبل عذاب الآخرة، فقال سبحانه: «**وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى**» أي: الأقرب، قيل: مصائب الدنيا ومِحَنُها، عن ابن عباس، وأبي بن كعب، وأبي العالية، والحسن، وإبراهيم، والضحاك. وقيل: القتل يوم بدر، عن عبد الله. وقيل: الحدود، رواه عكرمة عن ابن عباس. وقيل: الجوع سبع سنين بمكة حتى أكلوا الجيفة والكلاب، عن مقاتل. وقيل: هو عذاب القبر، عن مجاهد. وقيل: في وقت اليأس.

ومتى قيل: على هذين التأويلين كيف يصح قوله: «**لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**»؟

قلنا: معناه أوعدهم به وأخبرهم لعلهم يرجعون، وقيل: هو القتل، وظهور الإسلام على رغمهم.

«دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ» أي: عذاب الآخرة «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» عن كفرهم بالتوبة، عن عبد الله، وأبي العالية، وقتادة. «وَمَنْ أَظْلَمُ» أي: لا أحد أشد ظلمًا «مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا» عن النظر فيها والتدبر لها والعمل بما فيها، ووصفه بأنه ظالم؛ لأنه يفوت على نفسه الثواب واستوجب عقابًا دائمًا «إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ» بإحلال العذاب بهم «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ» قيل: ليلة الإسراء بك، عن ابن عباس. وقيل: في الجنة، وقيل: مِنْ تَلَقِّي الكتاب، عن السدي. فتلقاه بالقبول والرضا، وليس المراد باللقاء الرؤية ولكن قبوله [واتباعه]. وقيل: فلا تك في مرية من لقاء موسى الكتاب، عن الزجاج. وقيل: فلا تك [في] شك [من لقاء][1] الأذى كما لقي موسى، عن الحسن. كأنه قيل: فلا تك في شك من أن تلقى من الأذى مثل ما لقي «وَجَعَلْنَاهُ هُدًى» قيل: جعلنا موسى هدى، عن قتادة. وقيل: الكتاب هدى، عن الحسن. «لِبَنِي إِسْرَائِيلَ. وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً» قيل: رؤساء في الخير يقتدى بهم، عن قتادة. وقيل: هم الأنبياء، وقيل: هم العلماء «يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا» أي: يدعون الناس إلى الحق بأمر الله تعالى «لَمَّا صَبَرُوا» حين صبروا، قيل: على وجه الجزاء، يعني: قيل لهم: إن صبرتم جعلناكم أئمة، فلما صبروا جُعِلُوا أئمة، عن الزجاج. «وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» أي: يقضي ويحكم «فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» قيل: من أمر دينهم، وقيل: من أعمالهم.

۞ الأحكام

يدل قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أنه أراد من الجميع الرجوع، خلاف قول المجبرة.

ويدل قوله: ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ[2]﴾ على وجوب النظر في الآيات.

وتدل الآيات على أن النبي ﷺ لقي موسى، ثم متى وأين وكيف؟ ليس في الظاهر.

ويدل قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى﴾ أنه خص في التوراة قومًا، وأنه منسوخ.

---

(١) من لقاء: من أن لقاء، ن؛ وما أثبتناه من التبيان في تفسير القرآن، للطوسي: ٨/ ٢٩٥، تفسير مجمع البيان، للطبرسي: ٨/ ٩٧.

(٢) ثم أعرض: فأعرض، ن.

ويدل قوله: ﴿يَفْصِلُ﴾ على أنه يحكم في كل واحد بما يستحق، ويفصل بينهم فيما نال بعضهم من بعض بالأعواض على ما نقوله.

قوله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

القراءة

قرأ يعقوب في رواية زيد: «نَهْدِ» بالنون، وكذلك في (الأعراف) و(طه)، الباقون بالياء.

قراءة العامة: ﴿مُّنتَظِرُونَ﴾ بكسر الظاء، وعن محمد بن السميقع [بفتحها][1]، قال الفراء: ولا يصح ذلك إلا بإضمار على تقدير: منتظرون بهم، قال أبو حاتم: الصحيح كسر الظاء.

اللغة

الهدى: أصله الدلالة التي يعلم بها الرشد من الغي، هدى يَهْدِي، هداه في الدين يهديه هُدًى، وفي الطريق هداية، واهتدى: قَبِلَ الهدى.

والسَّوْقُ: الحث على السير.

والجُرُزُ: الأرض اليابسة لا نبات بها لانقطاع الأمطار عنها، وأصله من قولهم: سيف جرّاز، أي: قطاع لا يبقي شيئًا إلا قطعه، وناقة جُرَازٌ، تأكل [كل] شيء؛ لأنه

(١) ما بين المعكوفين بياض في ن وكتب فوقها: أظنه بفتحها. كما أثبتناه.

كأنه لا يأتي على شيء إلا قطعه، ورجل جَرُوزٌ: أكول، وفيه ثلاث لغات: جُرُزٌ وجُرْزٌ وجَرْزٌ، وجَرِزَتْ الأرض: أُكل[1] نباتها.

۞ الإعراب

يقال: أين [معمول]: ﴿يَهْدِ﴾ ؟

قلنا: مضمر، دل عليه الكلام، تقديره: أولم يهد لهم إهلاكها، ودل عليه: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾؛ وذلك أن (كم) لا يعمل فيها [ما] قبلها إلا حروف الإضافة؛ لأنها على تقدير الاستفهام.

﴿قُلْ يَوْمَ﴾ نصب على الظرف، أي: يكون ذلك في يوم.

۞ النزول

عن قتادة قال: قال أصحاب رسول الله للكفار: إن لنا يومًا ننتقم فيه ونستريح، ويحكم الله بيننا وبينكم، فقالوا: استهزاءً: متى يكون هذا الفتح؟ فنزلت الآية.

وقيل: نزلت في يوم بدر؛ لأن المسلمين قالوا: إن الله ناصرنا، ويظهرنا عليكم.

۞ المعنى

ثم وعظهم تعالى بما تقدم في الأمم، فقال سبحانه: «**أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ**» أي: أولم يدلهم على طريق الرشد «**كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ**» وهم يرون آثارهم «**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ**» عبرة وعظة «**أَفَلَا يَسْمَعُونَ**» وعظ الله، وقيل: أفلا يقبلون عظته، كقوله: سمع الله لمن حمده، عن أبي علي. وقيل: أفلا يتدبرون فيما يسمعون، وتقدير الكلام: أولم يدل إهلاكنا أولئك هؤلاء على سبيل نجاتهم، فيتركوا ما صنع أولئك، فلا يحل بهؤلاء ما حل بهم.

ثم نبه على صحة البعث، فقال سبحانه: «**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ**» قيل: بالسيول، عن ابن عباس. وقيل: بالسحاب «**إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ**» اليابسة، لا نبات عليها، وأكثر المفسرين على أنها عامة في الأرض. وعن ابن عباس: هي أرض اليمن.

---

(١) أُكل: كل، ن.

«فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ [مِنْهُ]» من ذلك الزرع «أَنْعَامُهُمْ» كالإبل والبقر والغنم «وَأَنفُسُهُمْ» أي: يأكلون، وهو ما يصلح لطيبه لطعام الآدميين وعلف الدواب «أَفَلَا يُبْصِرُونَ» وهذا توبيخ على ترك النظر والتدبر «وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ» لما سمعوا المسلمين استفتحوا الله عليهم قالوا: متى هذا الفتح؟! أي: هذا الحكم بيننا في الثواب والعقاب «إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»، «قُلْ» يا محمد: «يَوْمَ الْفَتْحِ» قيل: يوم بدر، عن السدي. وقيل: يوم فتح مكة، عن الكلبي. وقيل: يوم القيامة، عن مجاهد، وجماعة، وهو أوجه. «لاَ يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ»؛ لأنهم يضطرون إلى ذلك ولا ينفع «وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ» أي: لا يؤخرون في العذاب «فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ» قيل: لا تقابلهم بالأذى، وادعهم بالجميل، وقيل: «أَعْرَضْ عَنهُمْ» إعراض استخفاف «وَانْتَظِرْ» ما ينزل بهم «إِنَّهُمْ مُنتَظِرُونَ» قيل: الموت الذي يؤدي إلى ذلك، عن أبي علي. وقيل: سيأتيهم ذلك، كأنهم ينتظرونه[1]، وقيل: انتظر ما أعد الله لك من الكرامة، وهم ينتظرون العذاب يوم القيامة؛ لأنهم علموا كونه يقينًا فيكون خاصًا في المعاندين، وقيل: انتظر هلاكهم، فإنهم ينتظرون هلاكك.

۞ الأحكام

تدل الآية على وجوب التدبر والمنع من التقليد.

وتدل على أن بعد الموت لا ينفع الإيمان؛ إذ لو قبل لما بقي أحد من أهل النار.

(١) ينتظرونه: ينتظرونها، ن.

سورة الأحزاب

سورة (الأحزاب)، وهي مدنية فيما نقل عن المفسرين، وهي ثلاث وسبعون آية.

وعن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة (الأحزاب) وعَلَّمها أهله أو ما ملكت يمينه أعطي الأمان من عذاب القبر».

ولما ختم السورة التي قبلها بذكر الكتاب ومن كفر به افتتح هذه السورة بأمره باتباع الكتاب والإعراض عن الكفار.

۞ فصل

روى جماعة من نقلة الحديث عن أُبيّ بن كعب أن سورة (الأحزاب) تقارب سورة (البقرة) وكان فيها: (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة)، ورووا عن عمر قريبًا منه، ورووا عن عائشة أنها كانت تُقْرَأُ في زمن الرسول مائتي آية، فلما كتب عثمان المصاحف لم يقدر إلا على ما هي الآن.

ولما رووا هذا القدر وجدت الرافضة لنفسها مجالاً، فرووا في هذه السورة ما يتجاوز هذا الحد، ذكروا أن فيها نَصًّا على تكفير عثمان وغيره من الصحابة، وحذفوه منها، وإنما تطرقوا إلى ذلك بما رواهُ[1] أصحاب الحديث، ولا يجوز في مثل هذه الروايات إلا القول بأنها من دسيس الملحدة الذين غرضهم هدم الإسلام، وإبطال التمسك بالقرآن؛ إذ هو الأصل في الإسلام بإلقاء الشك في قلوب المستضعفين، ولو جاز ما قالوا لجاز أن يكون فيها آيات ناسخة لكثير مما يتمسك به من الشرائع،

---

(١) رواه: روته، ن.

فيقتضي الشك في الشرع كما اقتضى الشك في القرآن، ولجاز لليهود أن تقول: قد عورض القرآن فكتموه، فيقتضي الشك في النبوات، وكيف يجوز أن يُسْقِطَ أحد شيئًا من كتاب الله لغرض له مع وفور المسلمين واشتهار القرآن وكثرة الحفاظ له؟ وكيف يعترض عليه بمثل هذه الأخبار، وهي آحاد غير صحيحة، ولأنه تعالى تولى حفظه، فقال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، فكيف يجوز أن يقال مع هذا إنه غُيّر وبدّل وزيد ونقص؟

وبعد، فلو رام في زماننا هذا أحد [أن] يغير آية لأتاه النكير من كل جهة، فكيف يجوز مثل ذلك في زمن الصحابة، والإسلام غض، والزمان زمان فضل ودين؟ ولأن تلك الآيات إما أن يحتاج إليها فكان الله يحفظها، وإلا لم يكن مزيحًا للعلة، أو لا يحتاج إليها فكان إنزاله عبثًا، ولأن نقل القرآن متواتر، وحفاظه جماعة، لا يجوز عليهم التواطؤ فكيف ينكتم شيء منه؟ ولو جاز فيه ذلك لجاز في معارضة القرآن ونبي آخر لمثل ذلك، وفي هذا هدم الإسلام، وربما يسهل الخلاف في مثله ابتداء، ثم يؤدي إلى أمر عظيم مثل هذه، ولو جاز في آيات القرآن مثل ذلك جاز في كثير من أركان الشرع.

ومتى قيل: حفاظ القرآن كانوا خمسة، وهم الذين ترجع إليهم الأسانيد؟

قلنا: غلط، فالحفاظ(١) كانت في عددهم كثرة؛ ولكن هؤلاء انتصبوا للقراءة عليهم، ونحن نعلم أن حفاظ القرآن في بلاد الإسلام كثيرة، وإن كان في كل بلد واحدٌ ترجع الأسانيد إليه.

ومتى قيل: أليس روي أن عثمان جَمَعَهُ؟

قلنا: معاذ الله، فقد كان مجموعًا في زمن الرسول ﷺ يُقْرَأ كما هو عليه، وإنما نقله عثمان إلى المصاحف، وجمع الناس على الظاهر منها، لما رأى اختلاف الناس في القراءات، فخاف وقع الفتنة، أليس من الظاهر أن رسول الله ﷺ قرأ على أبيّ، وأبيّ قرأ على رسول الله ـ صلى الله عليه ـ .

وذكر الهادي عليه السلام في (الأحكام) أنه وجد مصحف علي عند عجوز من آل الحسن فكان على ما في أيدي الناس.

(١) فالحفاظ: بالحفاظ، ت، ن.

ومتى قيل: إنما أسقطوه لِداعٍ لهم، ولم يكن في غير إمامة عليّ داعٍ؟

قلنا: وإن أسقطه عثمان أليس كان يقر علي بأن الدواعي في الأمور تختلف، فلئن كتموا نص عليّ حسدًا جاز أن يكتموا أحكامًا وشرائع لدواعٍ أُخَرَ، فيقال: نسخ الحج فكتموه؛ لئلا تنقطع الرحلة عنهم، ويقال: زيدت الصلاةُ فكتموها، ويقال: نسخت الزكاة فكتموها؛ ليتوصلوا إلى أخذ الأموال.

ثم يقال لهم: هلا أظهر علي ما كتموه في أيامه؛ إذ لم يكن في الإسلام أمر أهم من ذلك، وهلا سرًّا.

وبعد، فإذا لم يعلموا ذلك كيف قال: كتموا كذا؟ وكل ذلك يدل على سخف قائله، وأنه لا يرجع إلى دين، وأنه يتستر بالإسلام، ويعتقد[١] غير الإسلام، ونسأل الله التوفيق.

ومتى قيل: فلو صح حديث أُبيّ وعمر، هل له تأويل؟

قلنا: القدر الذي روي عن عمر وأبيّ آية كان فيما يتلى الشيخ والشيخة، وهذا يحتمل أنه نسخ تلاوته، فأما من يقول: كانت تتلى مائتي آية، فكتمها عثمان، أو كان فيه نص علي فكتموه؛ فلا قول فيه إلا أنه من دسيس الملحدة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١)
وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ
وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (٣) مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي
تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ
وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤) ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ
فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ
قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥)﴾

---

(١) ويعتقد: واعتقد، ت، ن.

القراءة

قرأ أبو عمرو: «**بما يعملون خبير**» بالياء كناية عمن تقدم ذكرهم، وقرأ الباقون بالتاء على الخطاب.

قوله: ﴿ٱلَّٰٓـِٔي﴾ فيه ثلاث قراءات:

قرأ أبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وورش عن نافع: «**اللاَّي**» بغير همز ولا مد، وفي (المجادلة) و(الطلاق) مثله.

وقرأ نافع ويعقوب: «**اللاَّءِ**» ممدودة مهموزة وليس بعد الهمزة ياء، مروي عن ابن كثير مثله.

وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي ممدودة مهموزة مشبعة بعد الهمزة ياء حيث كان، واختاره أبو عبيدة، وكلها لغات صحيحة.

قوله: ﴿تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ﴾ فيه أربع قراءات:

قرأ عاصم والحسن: «**تُظاهرون**» بضم التاء وتخفيف الظاء والألف، وزيفه أبو عمرو، وقال: لأن المظاهرة من المعاونة، وليس يصح؛ لأنها قراءة ظاهرة مسندة إلى علي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود وجماعة من الصحابة والتابعين، وقرئ بها ظاهرًا ولَمْ ينكره أحد. ويقال: ظَاهَرَ من امرأته يُظَاهِرُ.

وقرأ حمزة والكسائي وأبو عبيد وخلف: «**تَظَاهرون**» بفتح التاء وتخفيف الظاء والألف.

وقرأ ابن عامر بفتح التاء وتشديد الظاء والهاء، وكلها لغات صحيحة، يقال: ظاهر من امرأته ويظاهر وتَظَهَّرَ. إذا قال لها: أَنْتِ عَلَيَّ كظهرِ أُمي.

اللغة

النفاق: إظهار الإسلام وإبطان الكفر، وهو مأخوذ من النّافِقَاء: موضع يُرَقِّقُهُ اليربوع من جحره فإن أُتِيَ من قِبَلِ البابين[1] مَعًا ضَرَبَ برأسه النافقاء، وخرج منه، والنفاق اسم ذم في الشرع.

(١) البابين: الباب، ت، ن.

والظهار: اسم مشتق من الظهر، ورجل مُظَهَّرٌ: شديد الظهر، وَظِهيرٌ: يشتكي ظَهْرَهُ، والظهر: خلاف البطن، وأصل الباب: الظهور، ومنه الظهور: الغلبة.

الإعراب

موضع (ما) في قوله: ﴿مَّا تَعَمَّدَتْ﴾ جر، تقديره: ولكن فيما تعمدت.

﴿أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ محله نصب، تقديره: ما جعل أزواجكم أمهاتكم، فهو المفعول الثاني.

«أَيُّ» رفع؛ لأنه نداء مفرد.

و﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ صلة لـ(أي)؛ لأنه به يتم.

﴿أَدْعِيَآءَكُمْ﴾ جمع دَعِيٍّ، فَعِيل وأفعلاء.

النزول

قيل: نزل قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ الآية في أبي سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل وأبي الأعور السلمي قدموا المدينة، ونزلوا على عبد الله بن أبي بعد قتال أُحُدٍ بأمان من رسول الله ﷺ يكلموه، فقاموا وقام معهم عبد الله بن أبي وعبد الله بن أبي سرحة وطعمة بن أبيرق، فدخلوا على رسول الله ﷺ، وعنده عمر بن الخطاب، فقالوا: يا محمد، ارفض ذكر آلهتنا، وقل: إن لها شفاعة لِمَنْ عبدها لِنَدَعَكَ وربك، فشق ذلك عليه، فقال عمر: ائذن لي في قتلهم، فقال ﷺ: «إني أعطيتهم الأمان»، فقال عمر: اخرجوا في لعنة الله وغضبه، فأمر النبي بإخراجهم من المدينة، فنزلت فيهم.

وقيل: قدم على رسول الله ﷺ وفد من ثقيف، فطلبوا منه أن يمتعهم باللات والعزى سنة؛ لتعلم قريش منزلتنا منك، فنزلت الآية.

فأما قوله: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾:

قيل: نزلت في أبي معمر الفهري، وكان رجلاً لبيبًا حافظًا لما يسمع، فقال قريش: له قلبان، وكان يقول: لي قلبان أَعْقِلُ بكل واحد منهما أفضل من عقل

محمد، فلما كان يوم بدر وانهزم المشركون، وفيهم أبو معمر قال: ما بال الناس بين مقتول ومهزوم؟ فقيل: ما بال نعلك في يدك؟ فقال: ظننت أنها في رجلي، فَعُرِفَ أنه ليس له قلبان.

وقيل: كان رجل من قريش يدعى ذا[1] القلبين من دهائه، عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة.

وقيل: كان المنافقون يقولون: لمحمد قلبان، فأكذبهم الله تعالى، عن ابن عباس. وقيل: كان يقول: لي نفس تأمرني، ونفس تنهاني، فأنزل الله تعالى فيه هذه الآية.

فأما قوله: ﴿ٱلَّٰٓـِٔي﴾ نزلت في قصة أوس بن الصامت وامرأته خولة بنت ثعلبة لما ظاهر منها، وسنذكر ذلك في سورة (المجادلة).

فأما قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾: قيل: نزل في زيد بن حارثة، وكان عبدًا للنبي ﷺ، فأعتقه فتبناه قبل الوحي، وآخى بينه وبين حمزة في الإسلام، فلما تزوج النبي صلى الله عليه بزينب بنت جحش، وكانت قبل ذلك عند زيد قالت اليهود والمنافقون: تزوج محمد بامرأة ابنه وهو ينهى عنه، فأنزل الله تعالى هذه الآية فيه، عن مجاهد، وقتادة، وابن زيد.

وقيل: يقولون: للكاهن[2] ذو قلبين، ويحرمون النساء بالظهار، ويسمون الأدعياء أبناء، ففي ذلك نزلت هذه الآيات.

النظم

ومتى قيل: كيف يتصل بعض هذه الآيات ببعض؟

قلنا: أمر الله نبيه والمؤمنين بتقوى الله باتباع أوامره وشرائعه، وألا يطيعوا الكافرين والمنافقين فيما يلتمسونه منه، ويدينون به، وألا يهمه كثرتهم، ويتوكل على

(١) ذا: ذو؛ ن.
(٢) للكاهن: كهنة؛ ن.

الله، وكان مما يدينون به أن للكهنة قلبين وتحريم النساء بالظهار والتبنّي فنهى عنه، وأمر باتباع الشرع.

۞ المعنى

«يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ» قيل: خطاب للرسول ـ صلى الله عليه ـ، والمراد جميع المكلفين «اتَّقِ اللَّهَ» قيل: معناه: دُمْ على التقوى في مستقبل عمرك، كما يقال للآكل: كُلْ، وقيل: معناه: زِدْ تَقْوَى، وقيل: اتق الله في اتباع المشركين وإجابتهم إلى ما التمسوه، وقيل: اتق الله ولا تطع الكافرين، فليس لأحد عقلان[1] يطيع الله بأحدهما، ويطيع الكفار بالآخر، وقيل: إن بعض المسلمين هموا بقتل أولئك الذين قدموا بأمان، فقال: اتق الله في نقض العهد «وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ» قيل: هو عام، وهو أوجه، وقيل: يعني: أهل مكة أبا سفيان وأصحابه «وَالْمُنَافِقِينَ» قيل: عبد الله بن أبي وعبد الله بن سعد وطعيمة بن أبيرق، وقيل: هو عام، وإنما ذكر المنافقين؛ لأنهم في الظاهر يقرون بالإسلام «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا» بأحوالهم وبما راموا منك «حَكِيمًا» فيما يوجبه عليك من أمرهم والنهي عن اتباعهم، وقيل: لإنذارهم فلا فائدة فيه؛ لأنه عليم بأنهم لا يؤمنون، حكيم في الأمر بأن يُغْلَظَ عليهم «وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ» من القرآن والشرائع فَبَلِّغْهُ واعمل به «إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا» أي: عليمًا فيجازي كل أحد بعمله «وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً» قائمًا بتدبير عباده «مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ» قيل: هو رد على من اعتقد جوازه، وقيل: أراد عقلين وسماه قلبًا؛ لأنه محله، وقيل: ما جعل الإيمان والكفر في قلب واحد، يعني: لا يجتمع الكفر والإيمان، وذكر القلب؛ لأن الاعتقادات تحله، فمن أراد أن يخلص لله ويؤمن بالأصنام لا يقدر عليه، فإن ذلك في قلبين لا في قلب واحد إما الإيمان وإما[2] الكفر، عن أبي مسلم. وقيل: ما جعل الله لرجل قلبين يعلم بأحدهما، خلاف ما يعلمه بالآخر، ويريد بأحدهما خلاف ما يريده بالآخر، مبينًا أن حال الكل سواء فيما يجوز عليهم، وقيل: هو مثل ضربه الله للمظاهر وللمدعي ابن غَيْرِهِ يقول: كما لا يكون

(١) عقلان: عقلين، ت، ن.
(٢) وإما: أو؛ ن.

لرجل قلبان[1] لا تكون امرأة الرجل أُمَّهُ، ولا يكون ابنُ غيره ابنَه، عن الزهري، ومقاتل. «وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ» يعني: لا تصير الزوجة بقول الرجل: (أنت عليّ كظهر أمي) أمًّا، ولا تُحَرَّمُ كتحريم الأم، وكان ذلك طلاقًا في الجاهلية، فبَيَّنَ تعالى أنه لا تصير كأمه، ولكن يكون معصية، وفيه الكفارة «وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ» يعني: من تدعونه ولدًا، وهو ثابت النسب من غيركم لا يصير ولدًا لكم «ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ» يعني: أنه شيء تقولون بألسنتكم، لا حقيقة لها، قيل: أراد في التَّبَنِّي، وقيل: فيه وفي الظهار والقَلْبَيْنِ. «وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ» يدل على طريق الحقَ «ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ» أي: انسبوهم إلى آبائهم الذين ولدوا على فرشهم «هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ» أعدل في القول؛ لأن انتسابه إلى المدعي كذب، وقيل: المراد به الأحكام المتعلقة بالنسب كالمواريث والجزية والعقد «فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ»؛ لأن المؤمنين إخوة. وقيل: أراد به التقريب والموالاة الجارية بين المسلمين. «وَمَوَالِيكُمْ» أصدقاؤكم، وقيل: مواليكم في وجوب النصرة، وقيل: معتقوكم ومحرروكم[2] إذا أعتقتموهم، وقيل: بنو الأعمام «وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ[3] فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ» يعني: إذا نسبتم أحدًا إلى أحد ظنًّا منكم أنه أبوه فلا حرج، عن قتادة. «وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ» فنسبتموه إلى غيركم مع علمكم بخلافه، وقيل: الحرج على من استلحق نسبًا عامدًا، فإذا كان خطأ فلا حرج، عن ابن الأنباري. «وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا» لما سلف إذا تاب «رَحِيمًا» بقبول توبتهم، وإيجاب الثواب.

۞ الأحكام

يدل أول الآيات على النهي عن طاعة الكفار.

ومتى قيل: فلو أمره بطاعة؟

قلنا: يفعله لأنه طاعة لا لاتباعه، وإن النهي مطلق.

ومتى قيل: إذا كان الخطاب عامًّا فلم خص النبي ﷺ؟

---

(١) قلبان: قلبين، ت، ن.

(٢) معتقوكم ومحرروركم: معتقكم ومحررتكم، ت، ن. ولعل الصواب ما أثبتناه.

(٣) وليس عليكم جناح: ولاجناح عليكم، ن.

قلنا: إذا أمره به مع عِظَم شأنه فغيره أولى، وقيل: بفضل حاجته إلى اللطف، وتثبيت القلب من حيث نصب نذيرًا وهاديًا، فلولا لطفه لجاز عليه بعض الميل.

ويدل قوله: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ﴾ على وجوب اتباع القرآن، وإنما يصح اتباعه علمًا وعملاً إذا فهمه، فدل[1] أن القرآن يصح أن يُعلم بنفسه، خلاف ما تقوله الحشوية والباطنية وبعض الإمامية.

ويدل قوله: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلۡبَيۡنِ﴾ أنه ليس لأحد قلبان، وقد بَيَّنَّا ما قيل فيه، وقد زيف أبو مسلم ما روي من حديث جميل، والسبب الذي ذكرنا، واختلفوا هل جاز أن يكون لأحد قلبان[2]، فمنهم من منع منه، قال: لأنه يؤدي إلى أن ينفصل إنسان من إنسانه في جواز اختلاف حاله في الإرادة والاعتقاد، فيصح أن يريد بأحد قلبيه ويكره بالآخر فيصير كشخصين، ومنهم من جوز ذلك كما يجوز أن يكون له قلب كثير الأجزاء، ونقول[3]: لا يجوز أن يريد بأحدهما شيئًا ويكره بالآخر، كما لا يجوز مثله في جزأين من القلب، وكذلك الاعتقادات؛ لأن الإرادة والكراهة والعلم والجهل تتضاد على الحي لا على المحل، فلا وجه للقول الأول إلا أنه[4] بالسمع عَلِمْنا ذلك.

ومتى قيل: كيف تصح الشبهة في ذلك حتى تبقى؟

قلنا: لأن القلب غير مشاهد للحي، فجاز دخول الشبهة فيه.

ويدل قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ﴾ أنها لا تصير كالأم، فالبنوة لا تثبت بالتبني، وأنه لا يجوز الانتساب إلى غير الأب، وقد وردت السنة بتغليظ الأمر فيه، فقال ـ صلى الله عليه وآله ـ: «لعن الله من انتمى إلى غير أبيه»، وروي: «من انتمى إلى غير أبيه متعمدًا حرم عليه الجنة»، واختلفوا بِمَ يثبت النسب، فقيل: بالفراش نفسه، عن أبي حنيفة، وأصحابه. وقيل: بالفراش والتمكن من الوطء، عن الشافعي. ولو تزوج امرأة ولم يتمكن من وطئها لمسافة بينهما أو نحوه فجاءت بولد لستة أشهر ثبت النسب

---

(١) فدلَّ: دل، ت، ن.

(٢) قلبان: قلبين، ت، ن.

(٣) ونقول: ويقول، ت، ن.

(٤) أنه: أن؛ ن.

عند أبي حنيفة، وعنده لا يثبت، فأما إذا أقر مجهول النسب بأنه ابنه فيثبت؛ لأنه يحمل على أنه صادق، وأنه ولد على فراشه؛ ولذلك لا يثبت في معروف النسب ومن هو أكبر سنًّا منه، وكان أهل الجاهلية ينزلون التبني بمنزلة الولادة، فورد الشرع بخلاف ذلك.

ويدل قوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ﴾ الآية، أن النسب قد يعلم وقد يجهل، وأن جهالته لا تخرج المؤمن من الأخوة في الدين؛ لأنها تجب بالتمسك بالإيمان.

ويدل قوله: ﴿فِيمَآ أَخْطَأْتُم﴾ أن أمر النسب لم يُبْنَ على اليقين؛ لذلك دخل فيه الخطأ والعمد.

ومتى قيل: فوجب أن تكون الأنساب على الظنون مبنية؟

قلنا: قيل: الفراش معلوم، والنسبة تتعلق به، وقيل: بل تتعلق بالظن إلا ما علم بخبر صادق أو علم بدليل أو ضرورة، كما علمنا نسب رسول الله ﷺ إلى عدنان، وعلمنا نسب كثير من أصحابه ضرورة.

قوله تعالى:

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى
كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ
ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ
وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ
لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ
أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾﴾

۞ القراءة

قراءة العامة وما عليه المصاحف: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾، وعن أبي بن كعب أنه قرأ: (وهو أب لهم) ولا تجوز القراءة به، ولعله فسره به.

واختلف القراء في قوله: ﴿ٱلظُّنُونَا۠﴾ و﴿ٱلسَّبِيلَا۠﴾ و﴿ٱلرَّسُولَا۠﴾، فقرأ بالألف في الوصل والوقف أبو جعفر ونافع وابن عامر وأبو بكر عن عاصم وأبو عمرو في رواية العباس، والكسائي، فأثبتوه قالوا: لأن ألفاتها ثابتة في مصحف عثمان ومصاحف البلدان.

وقرأ أبو عمرو وحمزة ويعقوب بغير ألف في الوصل والوقف على الأصل.

وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم والكسائي بالألف في الوقف وبغير ألف في الوصل، قالوا: لأن العرب تفعل ذلك [في][1] قوافي أشعارهم، فتلحق الألف في موضع الفتح عند الوقف، ولا تفعل في الحشو فحسن ههنا؛ لأنها رؤوس الآي، فأدخلت الألف لتشاكل المقاطع.

۞ اللغة

الأَوْلَى: الأحق، تقول: أنا أَوْلَى بهذا منك، أي: أحق.

وأولو الأرحام: أولو القرابات، والرحم: علاقة القرابة.

والزيغ: الميل، زاغ عن الطريق، أي: عدل وجار.

۞ الإعراب

﴿إِذۡ جَآءُوكُم﴾ قيل: العامل فيه محذوف، تقديره: اذكروا إذ جاؤوكم، وقيل: ما قبله بتقدير: وكان الله عالمًا بهم إذ جاؤوكم.

«أَسْفَلَ» لا ينصرف؛ لأنه (أَفْعَلُ).

(١) ما بين المعكوفين زيادة من تفسير القرطبي ١٤/ ١٢٩، وتفسير الطبري ١٠/ ٢٦٥

وألحقت الألف بـ﴿ٱلظُّنُونَا۠﴾ على عادة العرب في كلامهم، قال شاعرهم:

أَقِلِّي اللَّوْمَ عَاذِلَ وَالعِتَابَا وَقُولِي إِن أَصَبتُ لَقَدْ أَصَابَا[1]

ونظائره تكثر.

۞ النزول

قيل: خرج رسول الله ﷺ إلى بعض مغازيه، فأمر رجلاً من أصحابه بالخروج، فقال: حتى أستأذن أبويّ، فأنزل الله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ قال ﷺ: «أنا أولى بكل مؤمن ومؤمنة من نفسه، فأيما مؤمن مات وترك دَيْنًا فعليّ، وإن ترك مالاً فلورثته»، عن الحسن. وروي: «أو ترك ضيعة فعليّ» يعني: أولادًا صغارًا.

وقيل: آخَى رسول الله ﷺ بين الناس، فكان يؤاخي بين الرجلين، فإذا مات أحدهما ورثه الآخر حتى نزلت الآية، عن الكلبي.

وقيل: نزل قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الآيات، في قصة الأحزاب، عن جماعة المفسرين.

۞ النظم

يقال: كيف يتصل قوله: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بما قبله؟

قلنا: قيل: لما بين أن التبني عليه لا يجوز بيّن أنه مع ذلك أولى بهم من أنفسهم من حيث يلزمهم الانقياد له؛ لكونه رسولاً وهاديًا.

ويقال: كيف تتصل آية المواريث به؟

قلنا: كان يجوز أن يظن أنه أولى في الميراث، فبيّن أنها لذوي الأرحام نفيًا لذلك الظن.

(١) البيت قائله جرير؛ انظر: تاج العروس (ردف)، ديوان جرير، ص ٥٨، دار صادر.

۞ المعنى

ثم عاد الكلام إلى تأكيد رسالته بما أخذ في الميثاق، ثم عقبه ببيان معجزاته يوم الأحزاب، وذكر ما أنعم عليه وعلى المسلمين بنصره.

«**النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ**» أي: أحق بهم، قيل: في الحكم والقضاء؛ لأنه أحكم في الإنسان مما لا يحكم به في نفسه لوجوب طاعته؛ لأن طاعته مقرونة بطاعة الله، فيجوز حكمه عليه كما يجوز حكم المولى على عبده، عن ابن زيد. وقيل: في الدعوة إذا دعاهم إلى شيء ودعتهم أنفسهم إلى خلافه، فطاعته أولى، عن ابن عباس، وعطاء، ومقاتل. وقيل: في إمضاء الأحكام وإقامة الحدود لما فيه من مصالح الخلق، وقيل: في الحمل على الجهاد، وقيل: أولى منهم أن يعظموه ويطيعوه؛ لما وجب من حقه، ويُصَلُّوا عليه، ويتبعوه قولاً وفعلاً؛ لما عظمه الله وخصه بالرسالة، ولم يُرِدْ أولى بِمَالِهِمْ وما يتعلق بمنافع الدنيا «**مِنْ أَنْفُسِهِمْ**» قيل: أولى من بعضهم ببعض كما قال: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ [النور: ٦١]، وقيل: طاعته أولى من طاعة أنفسهم؛ لأنه يدعوهم إلى ما فيه نجاتهم، وأنفسهم تدعوهم إلى ما فيه هلاكهم، وقيل: أولى بأن يبذلوا أنفسهم دون نفسه في القتال. «**وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ**» أي: كأمهاتهم، كقوله: ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [آل عمران: ١٣٣] أي: كالسماوات، وقيل: أراد في وجوب تعظيمهن، ورعاية حرمتهن، وقيل: في تحريم التزوج بهن «**وَأُولُو الْأَرْحَامِ**» أي: ذوو[1] القرابات «**بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ**» في المواريث من الأباعد والخلفاء من المسلمين وهم ثلاثة: أصحاب السهام، والعصبات، [وذوو] الأرحام «**فِي كِتَابِ اللَّهِ**» قيل: في القرآن، وقيل: فيما فرض الله وأوجبه، كقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣] أي: فرض وأوجب، وأراد بيان الإرث بالنسب مع الإيمان «**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ**» الذين ليس لهم رحم «**إِلاَّ أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ**» قيل: لذوي قرابتكم من المشركين بأن توصوا لهم معروفًا، عن محمد بن الحنفية، وقتادة، وعطاء، وعكرمة. وقيل: في «**أَوْلِيَائِكُم**» أي: من المسلمين المهاجرين أن توصوا لهم، عن ابن زيد، ومقاتل، وقد قالوا: إن الأول لا يصح؛ لأنه تعالى نهى عن ذلك بقوله:

(١) ذوو: ذو، ت، ن.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١]، وقيل: يصح في أهل الذمة لقوله: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿أَن تَبَرُّوهُمۡ﴾ [الممتحنة: ٨] .«مَعْرُوفًا» قيل: توصوا لهم معروفًا، وقيل: معروفًا من الوصية والعقد والنصرة، عن مجاهد. «كَانَ ذَٰلِكَ» أي: ما بَيَّنَ في الآية «فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا» أي: مكتوبًا في الكتاب، قيل: في اللوح المحفوظ، وقيل: في القرآن، وقيل: في التوراة، عن ابن عباس، والقرظي. وقيل: فرضًا مُثْبَتًا كأنه قيل: فيما كتب الله على العباد، والفرض والكتاب مبين عن الوجوب، وقيل: في الكتب المتقدمة «وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ» قيل: على أداء ما حملوا من أمر الرسالة والعمل به، وقيل: بشارة بعضهم ببعض بمن[1] بعده كما بشر عيسى بمحمد صلى الله عليهما، وتصديق بعضهم بعضًا «وَمِنْكَ» يا محمد، وإنما قدمه لفضله وشرفه، وليس يصح ما روي أنه خُلِقَ قبل الأنبياء؛ لأنه يؤدي إلى التناسخ، ولأنه ابن عبد الله بن عبد المطلب، وقد بشر به الأنبياء، وإنما قدم اسمه لفضله، ولأن الواو يوجب الجمع لا الترتيب «وَمِن نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ» وخص هؤلاء بالذكر؛ لأن لهم الأمم «وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا» قيل: هو العهد، عن ابن عباس. وقيل: هو اليمين بالله على الوفاء بما حملوا وأمروا والقيام بما حملوا من أعباء الرسالة ودعاء الخلق وتبليغ الشرائع والصبر على الأذى. وقيل: الميثاق: هو الأدلة المركبة في العقول والمبين بالشرائع.

ومتى قيل: إذا كان الأنبياء معصومين؛ فما معنى الميثاق؟

قلنا: لطف لهم في ثباتهم على ما أمروا به، وقيل: إنما صاروا معصومين بالأمر والنهي والألطاف.

ثم بَيَّنَ الفائدة فيه، فقال سبحانه: «لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ» قيل: يسأل الرسل ما الذي أجاب [به أممكم][2]، عن مجاهد. والسؤال وإن خوطب به الأنبياء فيقع على الأمم توبيخًا لهم، وقيل: يسأل الصادقين ليزيدهم سرورًا بإظهاره، ويسأل الكاذبين توبيخًا وليظهر حزنهم، وقيل: ليسأل الصادقين في توحيد الله وعدله والنبوات والشرائع «عَن صِدْقِهِمْ»، عما كانوا يقولونه فيه تعالى، فيقال لهم: هل ظلم الله أحدًا؟

---

(١) بمن: من؛ ت، ن.

(٢) به أممكم: أمتكم، ن، وما أثبتناه من تفسير التبيان: ٢٩٨/٨. وتفسير مجمع البيان، للطبرسي: ١/٧٨.

هل يجازي كل أحد بفعله؟ هل عذب بغير ذنب؟ ونحو ذلك، فيقولون: نعم، عدل في حكمه، وجازى كل أحد بفعله، وقيل: في قبورهم **«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ»** يعني: يوم الأحزاب من قريش وغطفان واليهود، وذلك حين حصروا[(١)] المسلمين أيام الخندق، وقيل: تحزب عليه قبائل العرب **«فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا»** تقلع[(٢)] خيامهم وترميهم بالحجارة لا يصيب المؤمن شيء من ذلك، فانهزموا بغير قتال **«وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا»** قيل: الملائكة، عن يزيد بن رومان. وقيل: لم تقاتل الملائكة يومئذ، ولكن كانوا يشجعون المؤمنين ويجبنون الكافرين **«وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا»** أي: عليمًا بأعمالهم **«إِذْ جَاؤُوكُمْ»** أي: الجنود **«مِن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ»** قيل: من فوقكم عتبة بن بدر في أهل نجد، **«وَمِنْ أَسْفَلَ»** أبو سفيان في قريش وواجهتهم قريظة، عن مجاهد. وقيل: أراد كثرة الجنود جاؤوا من أعلى المدينة ومن أسفلها من سائر الجوانب. وقيل: جاءت الأعراب من أسفل المدينة، وقريظة من أعلاها، ونقضوا العهد، وكان الخوف منهم على الذراري أكثر **«وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ»** مالت الأعين، قيل: عدلت عن مقرها، وقيل: شخصت، عن مجاهد. وقيل: تحيّرت فلم تر شيئًا على الصحة من الدهش، وكل ذلك تَوَسُّعٌ **«وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ»** أي: زالت عن أماكنها من الرعب، وقيل: كادت النفوس تخرج من الرعب، فكنى عن النفس بالقلب، قيل: قلب الخائف لشدة الاضطراب يرتفع.

ومتى قيل: مَنْ هؤلاء الموصوفون بذلك؟

قلنا: قيل: ضعفة المسلمين، فأما النبي وأهل البصيرة وجُلُّ الصحابة فواثقون بنصر الله تعالى، وقيل: يجوز أن يلحق المؤمنين أجمع شغل قلب لكثرة العدو وقلة العدد.

«وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا» قيل: ظنونًا كاذبة، وقيل: هو قولهم: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾، عن الحسن. وقيل: ظنونًا مختلفة: ظن الكافرين أنه يستأصل ويغلب، وظن المؤمنين أنه سينصر. وقيل: أراد المنافقين وضعفة المسلمين، فأما من له بصيرة فلا يظن بالله إلا الخير. وقيل: اختلاط ظنونهم لجبنهم وخوفهم، فمنهم من ظن أن

(١) حصروا: حرضوا، ت، ن.

(٢) تقلع: قلع، ت، ن.

الكفار تغلبهم، وبعضهم ظن أنهم يستولون على المدينة، وظن بعضهم أن الجاهلية تعود، وظن بعضهم أن ما وعد الله ورسوله من نصر المؤمنين بخلافه، وأقسام الظنون كثيرة خصوصًا من الجبناء، فأما المؤمنون فكانوا واثقين بنصر الله وعلى قوة قلب وبصيرة، حتى بلغ من قوة قلوبهم أن سعد بن معاذ وسعد بن عبادة قالا للنبي صلى الله عليه لَمَّا هَمَّ بمصالحة القوم ـ أبي سفيان وأصحابه على نصف ثمار المدينة ـ: إن كان هذا وَحْيٌ فامضه، وإلا فليس لهم عندنا إلا السيف. . في قصة طويلة، ونقضوا الصلح وقالوا: كنا أهل شرك وهم لا يطمعون في ذلك إلا شِرًى أو قِرًى فكيف وقد أعزنا الله بك؟

الأحكام

يدل قوله: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على نفوذ حكمه عليهم، ووجوب انقيادهم له.

وتدل أن حرمة أزواجه كحرمة أمهاتهم، ووجوب تعظيمهن.

وتدل على تحريم نكاحهن على الأمة، ولا يقال: إنهن أمهاتهم على الحقيقة؛ لأن لذلك وضع الحجاب، وأباح التزوج ببناتهن.

فأما قول الباطنية: إن المراد بالزوج عليّ [يُطلّقُ من شاء منهن بعد موته، وأنه طلق عائشة يوم الجمل، لأنه كان][1] الإمام[2]، فبعيد. لأن الظاهر لا يليق بذلك، ولا يحتمله.

ويدل قوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾ على أن الإرث يستحق بالرحم، وأنه نسخ ما كان بالهجرة.

ويدل على توريث ذوي الأرحام على ما قاله أمير المؤمنين وابن مسعود، خلاف ما يقوله زيد، ولا يقال: إنه يدل [على] أن الإمامة في الولادة؛ لأن الإمامة لا تُسْتَحَقُّ إرثًا.

ويدل قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ﴾ على صحة الوصية.

(١) ما بين المعكوفين مطموس الكلمات غير واضحة في، ت، ن.

(٢) الإمام: إمام؛ ن، ت.

وتدل الآية على أخذ الميثاق من الرسل في البلاغ، وأنهم لم يكتموا شيئًا.

ويدل قوله: ﴿لِّيَسْـَٔلَ﴾ على أن كل واحد مسؤول.

ومتى قيل: ما الفائدة في تظاهر هذه الشهادات؟

قلنا: ليعلم كل أحد أنه تعالى عَدْلٌ لا يظلم، وأن هؤلاء أُتُوا من قَبِلِ أنفسهم لا من قِبَلِ خالقهم.

ويدل قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ على نعمة المسلمين يوم الأحزاب من إرسال الريح والإمداد بالملائكة وقهر الكفار.

وتدل على معجزة حيث تهب الريح على فريق دون فريق مع مقاربة المكان، ومن حيث ترميهم بالحجارة، ومن حيث شدته وبرودته بحيث لم تَجْرِ العادة به، وكذلك إمداد الملائكة، وكذلك هزيمة القوم من غير قتال مع كثرتهم.

وتدل على كثرة الأعداء وظنون المنافقين حتى جاء أمر الله.

۞ حديث الأحزاب

قيل: إن نفرًا من اليهود منهم حيي بن أخطب [أرادوا أن] يحزبوا الأحزاب على رسول الله، فخرجوا إلى مكة فدعوا قريشًا إلى حربه، وذكروا [رسول الله] هذراً[(١)]، ثم خرجوا إلى غطفان وقالوا: نكون يدًا واحدة حتى نستأصله.

وقيل: إن قريشًا قالوا لهم: أنتم أهل كتاب، أفديننا[(٢)] خير أم دين محمد؟ قالوا: دينكم، فنزلت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥٠]، فخرجت قريش وقائدهم أبو سفيان، وخرجت غطفان وقائدهم عيينة بن حصن، ونقض اليهود العهد، ودعاهم حيي بن أخطب إلى قتاله، وعاهد كعب بن أسد إن لم نُصِبْ محمدًا أن [يدخل][(٣)]

(١) هذراً: هدراً، ت، ن.
(٢) أفديننا: فديننا؛ ن، ت.
(٣) يدخل: تدخل، ت، ن.

معه في حصنه، واجتمعوا على رسول الله ﷺ، وخندق على المدينة، وخرج في ثلاثة آلاف، ونزل القوم وبين الفريقين الخندق، واشتد الخوف، وظنوا الظنونا، ونجم النفاق، وقالوا: إن محمدًا وعدنا كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يقدر أن يذهب إلى الغائط ما كان وعده إلا غرورًا، فأقاموا بضعًا وعشرين ليلة، ولم تكن حرب إلا الرمي بالنُّشَّابِ والحجارة، فلما اشتد على الناس هَمَّ رسول الله ﷺ بالمصالحة، فنهاه عن ذلك سعد بن عبادة على ما قدمنا، وخرج عمرو بن عبد وُدّ وطلب البراز، فقتله علي، ورمي سعد بن معاذ بسهم قطع منه الأكحل، وبقي حتى تم حديث قريظة ثم مات، وجاء نُعيم[1] بن مسعود إلى رسول الله ﷺ وقد أسلم سرًا لا يعلم بذلك قومه، وقال: مرني بأمرك، فقال: «إنما أنت رجل واحد فادفع عنا إن استطعت، فإنما الحرب خدعة»، فذهب وأوقع خلافًا بين القوم، قال لليهود: إن أبا سفيان على عزم الرجوع ويخلي بينكم وبين محمد، وأنتم لا تطيقونه، فإذا سألوكم المحاربة فخذوا منهم رهينة، وجاء إلى أبي سفيان وقال: إن اليهود نادمون وبعثوا إلى محمد يسألونه العهد، ووعدوه أن يسألوا منك رهينة، ويدفعوه إليه، واختلفت آراء الفريقين، فلما كان ليلة السبت من شوال عشية خمس بعث أبو سفيان إلى اليهود ليناجز المسلمين فأبوا، وقالوا: غدًا يوم السبت لا نحارب وبعد ذلك إلا برهينة من أشرافكم، فأبى أبو سفيان ذلك، واختلفت كلمتهم، وبعث الله ريحًا باردة فانصرفوا راجعين.

وعن حذيفة: أرسلني إليه لآتيه بالخبر، وقال: «اللهم احفظه»، فدخلت غمار القوم، وإذا الريح تلقي آنيتهم وأبو سفيان يصطلي، ويقول: يا معشر قريش ليأخذ كل رجل منكم بيد[2] صاحبه فلينظر من هو، فأخذت بيد جليسي وقلت: من أنت؟ فقال: أنا فلان، فقال أبو سفيان: يا معشر قريش، ما أصبحتم بدار مقام، بعد الزاد وهلك الكراع، وخالفت اليهود، ونصيبنا من هذا الريح ما ترون فارتحلوا فإني مرتحل، وقام إلى جَمَلِهِ وأطلق عقاله، وسمعت غطفان فشمروا راجعين، وهزم الله الأحزاب، ورجعت إلى رسول الله ﷺ، فضحك حتى بدت نواجذه في سواد الليل، ورجع إلى المدينة، وأنزل الله في ذلك آيات من سورة (الأحزاب).

(١) نعيم: نعمان؛ ن، ت.
(٢) بيد: بنير، ت، ن.

قوله تعالى:

﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾﴾

القراءة

قراءة العامة: ﴿زِلْزَالًا﴾ بكسر الزاي، وعن عاصم الجحدري بفتح الزاي، وهما مصدران.

وقرأ حفص عن عاصم: ﴿لَا مُقَامَ﴾ بضم الميم، وهو قراءة السلمي أي: لا إقامة لكم، وقرأ الباقون بالفتح أي: لا مكان لهم يقيمون فيه.

قراءة العامة: ﴿عَوْرَةٌ﴾ بسكون الواو، وعن أبي رجاء العطاردي بكسر الواو، يعني: قصيرة الجدران فيها خلل وفرجة، يقال: دار فلان عورته: إذا لم تكن حصينة.

وقرأ أبو جعفر ونافع وابن كثير: ﴿لَأَتَوْهَا﴾ مقصورة أي لجاؤوها وفعلوها، والباقون بالمد من الإيتاء أي: أعطوها.

اللغة

(هنا) للقريب، و(هناك) للبعيد، و(هنالك) للمتوسط بينهما، وسبيله سبيل ذا وذاك وذلك.

والابتلاء والاختبار والامتحان نظائر، وأصله: إظهار ما في الضمير من خير أو شر، ومنه النعمة: إظهار الخير عليه، والبلاء: النقمة إظهار الشر عليه.

والزلزال: الاضطراب العظيم، والزلزلة: اضطراب الأرض، وقيل: إنه

مضاعف، يقال: زل، وزلزل غيره، وزلزلته زلزالاً أي: حركته وأزعجته، والزلزال عند العرب: الأمور الشديدة وتحرك الناس، وأصله زَلَّ، يقال: زَلَلْتُ في الطين زليلاً، وزل في الدين زللاً، وأزللته إزلالاً وزَلَّة: إذا اتخذت عنده يدًا، ومنه الحديث: «مَنْ أُزِلَّتْ إليه نعمة فليشكرها».

والغرور: إيهام المحبوب بالمكروه، غَرَّهُ يَغُرُّهُ فهو غارٌّ، والغَرور: الشيطان.

والمقام: يكون موضع الإقامة، ويكون مصدرًا، يقال: أقام بالملك إقامة ومقامًا بفتح الميم وضمها، ومنه: ﴿دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾ [فاطر: ٣٥] أي: دار الإقامة، وسميت القيامة لقيام الخلق من قبورهم، فأما بضم الميم فمعناه: الإقامة فقط.

والعورة: كل شيء يتخوف منه في ثغر وحرب، ومكان مُعْوِرٌ: يُخاف[١] منه القطع، والعُوارُ: الجبان، وجمعه: عواوير، ودار مُعْوِرَةٌ، وذات عورة، وأعور فهو معور [وبيوت عورة] إذا لم تكن حريزة، وكل مكان ليس بممنوع ولا مستور فهو عورة.

والقُطْر: الناحية[٢]، والأقطار: الجوانب، يقال: طعنه فَقَطَّرَهُ أي: ألقاه على أحد شِقيُّه وقطراه: جانباه.

۞ الإعراب

رفع «الْمُؤْمِنُونَ» لأنه اسم ما لم يسم فاعله.

و«زِلْزَالاً» نصب على المصدر. «شَدِيدًا» نعت له.

و«غُرُورًا» نصب بـ«وَعَدَنَا»، تقديره: وعدنا غرورًا، و«قبل»: مبني على الضم إلا عند الإضافة، فإذا أضفته فَتَحْتَ وكسرت.

۞ النزول

قيل: نزل قوله: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ في معتب بن قيس وأصحابه، لما ظهر في الخندق صخرة فضربها رسول الله ﷺ فقلع ثلثها، فقال: «أعطيت مفاتيح اليمن»، ثم

(١) مُعور يخاف: معورة خاف، ن.

(٢) الناحية: الباحة، ت، ن.

ضرب فقلع ثلثًا آخر فقال: «أعطيت مفاتيح الروم»، ثم ضرب فقلع الباقي فقال: «أعطيت مفاتيح فارس»، فقال المنافقون: ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورًا، ولو كان كما يقول ما بلغنا هذا المبلغ من الخوف والضيق، ولما احتاج إلى الخندق.

فأما قوله: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ﴾ نزلت في اليهود، فقالوا لعبد الله بن أبي وأصحابه من المنافقين: من الذي يحملكم على قتل أنفسكم، ارجعوا إلى المدينة.

وأما قوله: ﴿وَلَقَدْ كَانُواْ عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ﴾ قيل: نزلت في بني حارثة عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار، عن ابن عباس، ويزيد بن رومان.

وقيل: هَمُّوا أن يقاتلوا مع بني سلمة، فلما نزل فيهم ما نزل عاهدوا الله ألا يعودوا لمثله، فذكرهم الله ما أعطوه.

وقيل: هم قوم لم يشهدوا بدرًا وما أعطى الله أهل بدر من الكرامة، فعاهدوا الله إن شهدوا قتالاً ليقاتلن، عن قتادة.

وقيل: هم سبعون رجلاً بايعوا رسول الله ﷺ ليلة العقبة، وقالوا: اشترط لربك ولنفسك ما شئت، فقال: «لربي أن تعبدوه فلا تشركوا به شيئًا، ولنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأولادكم وأموالكم»، قالوا: فما لنا إذًا؟ قال: «النصر في الدنيا والجنة في الآخرة»، قالوا: قد فعلنا، وعاهدوه على ذلك، عن مقاتل، والكلبي.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى أحوال المنافقين عند الامتحان بتلك الشدائد، فقال سبحانه: «**هُنَالِكَ**» أي: عند تلك الشدائد والمخاوف «**ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ**» أي: امتحنوا بالتخلية ليظهر المؤمن المخلص من المنافق، وقيل: امتحنوا بما خوفهم الشيطان من غلبة العدو «**وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا**» أي: حركوا بالخوف حركة شديدة فصبروا، ووثقوا بالله، وقيل: حركهم الأعداء من كل جهة، وقيل: اضطربوا، فمنهم من اضطرب خوفًا على نفسه من القتل، ومنهم من اضطرب عليه دينه، عن أبي علي. «**وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ**» قيل: معتب بن قيس وأصحابه، عن يزيد بن رومان. «**وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ**» شَكٌّ وضعف اعتقاد «**مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا**» أي: أخبر بما لا حقيقة

له، ولم يعلموا لجهلهم أن النصر في دار التكليف قد يكون عقيب الصبر والامتحان؛ لضرب من المصلحة، فكان فتنة هؤلاء على المؤمن أعظم من فتنة الكفار؛ لخبثهم وتخويفهم وإيقاع الأراجيف الكاذبة «وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ» قيل: طائفة منهم من المنافقين، وقيل: هم اليهود، عن ابن عباس. وقيل: هم من بني سَلَمة[1]، عن مقاتل. و«يَثْرِبَ»: المدينة ونواحيها وأقطارها، وقيل: «يثرب». أرض والمدينة في ناحية منها «لاَ مُقَامَ لَكُمْ» أي: ليس هذا موضع إقامة، وقيل: لا إقامة لكم هاهنا «فَارْجِعُوا» إلى منازلكم بالمدينة، وأرادوا الهرب من عسكر رسول الله ﷺ «وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ» أي: في الرجوع إلى منازلهم وهم بنو حارثة اعتلوا بعلل كاذبة، وقالوا: «إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ» قيل: مكشوفة ليس بحصينة، عن ابن عباس، ومجاهد. وقيل: ليست في وسط البيوت، وقيل: خالية من الرجال ليس فيها أحد، ونخشى عليها العدو والسراق. وقيل: عورة ساقطة حيطانها، فرد الله عليهم ذلك وقال: «وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ» أي: ليس كما يقولون؛ بل هي حصينة «إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا» أي: تعللوا بهذه العلل ليفروا «وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ» أي: لو دخلت البيوت عليهم؛ يعني: هؤلاء الجيوش الذين يريدون قتالهم المدينة وظفروا بهم «مِنْ أَقْطَارِهَا» قيل: نواحي المدينة، وقيل: من نواحي بيوتهم «ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ» قيل: الشرك «لآتَوْهَا» أي: لأعطوها ولأشركوا «وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيرًا» قيل: ما تلبثوا على الإسلام إلا ساعة، ثم ارتدوا ورجعوا عنه، وقيل: ما احتبسوا عن الإجابة إلى الكفر إلا قليلاً، ولأسرعوا للإجابة طيبة بها أنفسهم، هذا قول أكثر المفسرين. وقيل: ما أقاموا بالمدينة بعد إعطاء الكفر إلا قليلاً حتى يهلكوا، عن الحسن، والفراء. «وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ» قيل: هم قوم من المسلمين حلفوا يوم الأحزاب لا يفرون، عن أبي علي. وقيل: ليلة العقبة، عن مقاتل. وقيل: هم المنافقون وضعفة المسلمين حلفوا لا يولون الأدبار، ويجوز أن يكونوا ضمنوا، فلما رأوا الشدة ضعفوا، وقيل: هم قوم لم يشهدوا بدرًا، عن قتادة. «لاَ يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ» أي: لا ينهزمون ولا يرجعون عن مقاتلة العدو، وقيل: لا يرتدون ولا يرجعون عن الإسلام، عن أبي مسلم. وأضاف العهد إليه لوقوعه مع

(١) سلمة: سالمة؛ ت، ن.

النبي ﷺ تفخيمًا «وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً» أي: يسأل عن الوفاء به، وإنما جاء بلفظ الماضي تأكيدًا، يعني من حق العهد المطالبة به، كقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥]، وقيل: الصيغة تصلح للحال أيضًا.

۞ الأحكام

يدل قوله: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ الآية، على ضعف قلوبهم وكفرهم.

ومتى قيل: إذا اعترفوا بالله ورسوله كيف يقولون هذا؟! وكيف كفروا؟

قلنا: يحتمل أنهم قالوا ذلك على لفظ المؤمنين ليكون أسلم لهم، ويحتمل أنهم قالوا هذا، ولو عرفوا الله حق معرفته لما أضافوا الغرر إلى وعده.

وتدل على أن الغرور ليس من خَلْقِهِ لذلك أنكر إضافتهم ذلك إليه.

ويدل قوله: ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ﴾ أن التعلل بالعلل الكاذبة في ترك الجهاد والطاعات كبيرة.

ويدل قوله: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ على إيمان من تقدم منهم وعلى عظيم موقع العهد والوفاء به، فإن من التزم شيئًا يلزمه الوفاء به.

قوله تعالى:

﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾

۞ القراءة

قرأ يعقوب: «**يَسَّاءَلون عن أنبائكم**» بتشديد السين وممدودة مهموزة، وهو قراءة الحسن، وعاصم الجحدري، أي: يتساءلون، يعني: يسأل بعضهم بعضًا، الباقون ساكنة السين غير ممدودة.

۞ اللغة

الفرار: الذهاب عن الشيء خوفًا، ونظيره: الهرب.

والعصمة: المنع، وأصله: المنع، ومنه: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧]، وأعتصم بكذا أي أتمسك به وأمتنع.

والعوق: الصرف، عاقتني عنه عوائق، وعوائق الدهر: الشواغل، والمعوِّق: المُثَبِّط، والتعويق: التثبيط، ورجل عُوَقٌ وعُوَقَةٌ: يعوق الناس عن الخير، والعَوْقُ: الرجل لا خير فيه.

والبأس: الحرب، ومنه قيل للفقير: بائس، بئس ييأس بأسًا: إذا اشتد.

والشح: البخل مع حرص، شَحَّ شُحًّا بفتح الشين وضمها، ورجل شحيح وشَحَاحٌ، وزَنْدٌ شَحاحٌ: لا يوري.

هلم: تعال واقْرَبْ، ومنهم من لا يثنيه ولا يجمعه ولا يؤنثه، ومنهم من يفعل ذلك.

والسَّلْقُ: أصله الصوت، وسَلَقَ: صَاحَ، ومنه: خطيب مِسْلَقٌ ومِصْلَقٌ، أي: فصيح، وسلقته بالكلام: أسمعته بالمكروه، ومنه: «ليس منا من سَلَقَ أو حَلَقَ» أي: رفع صوته عند المصيبة، وقيل: هو أن تصك وجهها، ومعنى حلق، أي: حلق رأسه وشعره عند المصيبة.

والجُذَاذُ: جمع جَذِيذٍ، ونقيضه: الكليل.

والأحزاب: الجماعات، واحدها: حزب، والحزب: القوم تجمعوا من مواضع.

وبدا: نزل البادية [أو] صار فيه جفاء الأعراب، والبداوة: الخروج إلى البادية، وفتح الباء وكسرها لغتان.

۞ الإعراب

«أَشِحَّةً» نصب على الحال والقطع من قوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

﴿يَوَدُّواْ﴾ جواب المجازاة لولا ذلك لقال: يودون.

۞ النزول

قيل: كان ناس من المنافقين يقولون لإخوانهم: ما محمد وأصحابه إلا أَكْلَةٌ لأبي سفيان وأصحابه، دعوا هذا الرجل فإنه هالك، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾، عن قتادة.

وقيل: نزلت في المنافقين فإن اليهود أرسلت إليهم، قالوا: ما الذي غلبكم على قَتْلِ أنفسكم بيد أبي سفيان ومن معه، فإنهم إذا قدروا عليكم لم يَسْتَبْقُوا[(١)] منكم أحدًا، وأنتم[(٢)] إخواننا وجيراننا فسلموا إلينا، فقال عبد الله بن أبي للمؤمنين: ما ترتشدون بهذا إن قدروا علينا قُتِلْنا، انطلقوا إلى إخواننا من اليهود، عن مقاتل.

وقيل: انطلق رجل من عند رسول الله ﷺ فوجد أخاه بين يديه شواء ورغيف ونبيذ، فقال: أنت هاهنا في الشواء والنبيذ ورسول الله ﷺ بين الرماح والسيوف، فقال: هلم إلى هذا، فوالذي يُحْلَفُ به لا يستقبلها[(٣)] محمد أبدًا، فقال: كذبت، لأخبرن بذلك رسول الله، فجاء وقد نزل جبريل بالآية.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى أن الفرار لا ينفع، حثًّا على الجهاد، فقال سبحانه: «**قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لاَ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً**» أشار إلى أن الشهادة خير من الحياة مع الذل قليلاً في الدنيا ثم الموت، وقيل: لا يمتعون إلى آجالهم إلا أيامًا قلائل، ويقال: الدنيا كلها قليل «**قُلْ**» يا محمد لهم: «**مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ**» أي: يمنعكم «**مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا**» عقوبة «**أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً**» نصرًا وعزًّا، قيل:

---

(١) في ن: يسترقوا. والصواب ما أثبتناه من تفسير البغوي ١/ ٣٣٤.

(٢) وأنتم: وإنهم، ت، ن.

(٣) يستقبلها: أستقبلها، ت، ن.

أخذًا عاجلاً أو تأخيرًا وإمهالاً، يعني: تنقضون العهد وتتركون الجهاد خوفًا ولا تخافون عقوبة الله، وهو القادر على النصر والعقوبة فيجب امتثال أمره، فأشار إلى أن الواجب تفويض الأمر «وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ [دُونِ] اللَّهِ وَلِيًّا» يلي أمورهم «وَلاَ نَصِيرًا» ينصرهم فينجيهم من عذاب الله «قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ» المثبطين الناس عن رسول الله صلى الله عليه، المباعدين عن الجهاد معه، الآمرين بمفارقته «وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ» يعني: اليهود قالوا لإخوانهم من المنافقين، وقيل: القائلون هم المنافقون لإخوانهم من ضعفة المسلمين «هَلُمَّ إِلَيْنَا» أي: تعالوا ولا تحاربوا، ودعوا محمدًا لا تشهدوا معه الحرب؛ فإنا نخاف عليكم الهلاك «وَلاَ يَأْتُونَ الْبَأْسَ» أي: لا يشهدون الحرب «إِلاَّ قَلِيلاً» يعني: قليلاً من المنافقين يخرجون رياء وسمعة، يعني: لا يحضرون بأنفسهم، ويمنعون غيرهم «أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ» بالمواساة بأنفسهم وأموالهم كما يفعله المؤمنون؛[بل] يُحَابُون بمال غيرهم، يعني: الغنيمة، فإن المنافقين كانوا يكرهون أن ينال المؤمنون خيرًا وفضلاً، فكانوا يجهدون في صرف ذلك، وقيل: كانوا يحضرون الوقعة للغنيمة كي لا يختص بها المؤمنون «فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ» من العدو «رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ» في رؤوسهم من الخوف والجبن، فوصفهم بصفة البخل والجبن «كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ» أي: كدوران عين من يغشى عليه من الموت «فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ» قيل: جادلوكم، عن الحسن. وقيل: بسطوا عليكم لسانًا كالسيف في مدح أنفسهم وذم غيرهم، يقولون: نحن فعلنا كذا، وضربنا بالسيف كذا، ولم يفعلوا شيئًا من ذلك. وقيل: خاصموكم طلبًا للقسمة، وبسطوا ألسنتهم وقت القسمة، ويقولون: أعطونا، أعطونا، فإنا قد شهدنا معكم القتال، عن قتادة. وقيل: أطلقوا ألسنتهم بالمعاذير الكاذبة «أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ» قيل: بخلاً بالخير، وقيل: يبخلون أن يتكلمون بكلام فيه خير، عن أبي علي. كأنهم عند الحرب أجبن القوم، وعند الغنيمة أبخل القوم «أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا» كما آمن غيرهم، وإلا لما فعلوا ذلك «فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ» اعتقدوه طاعة أحبطها لكفرهم، وقيل: كفرهم الباطن أحبط إيمانهم الظاهر، عن أبي علي. «وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا» أي: عليه هينًا لهوانهم عليه «يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا» أي: ظن المنافقون أن جماعات قريش وغطفان

وغيرهم من اليهود والذين اجتمعوا على رسول الله اجتمعوا، ولم يذهبوا ولم ينصرفوا، عن قتادة. وقد انصرفوا وانهزموا، وإنما ظنوا ذلك لشدة جبنهم وقلة إيمانهم، وقيل: لفرط حبهم قَهْرَ المسلمين ظنوهم آمنين لابثين في مكانهم، وقد انهزموا بالريح والملائكة «**وَإِنْ يَأْتِ الأَحْزَابُ**» أي: يرجعوا مرة ثانية «**يَوَدُّوا**» يحبوا «**لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ**» أي: كانوا بالبادية مع الأعراب ولم يشهدوا هذا المقام، قيل: للجبن، وقيل: لكراهة الجهاد، وقيل: كراهة أن يروا[1] غلبة المؤمنين لفرط بغضهم، وقيل: تمنوا البعد منكم بحيث لا تشاهدونهم ولا [تعرفون] شيئًا من أخبارهم لنفاقهم «**يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ**» أي: أخباركم، قيل: يسأل بعضهم بعضًا، عن أبي مسلم. وقيل: يسألون غيرهم يقولون: إلى ماذا صار الأمر بينهم؟ «**وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ**» يعني: المنافقين [لو] كانوا معكم وقت القتال عند رجوع الأحزاب «**مَا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً**» قيل: قتالاً قليلاً رياء وسمعة من غير حقيقة، عن أبي علي. ولو كان لله ما كان قليلاً، وقيل: إلا قليلاً منهم يراؤون بأنهم معكم وقصدهم الغنيمة.

۞ الأحكام

يدل قوله: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ﴾ أنه لا شيء يغني من الموت والقتل، وإذا علم الله تعالى أنه يموت أو يقتل في وقت، فيكون كذلك، وفيه حثٌّ على الجهاد، قال القاضي: ثم يحتمل أن يكون هذا في هذا الحرب خاصة، ويحتمل أن يكون عامًّا في الجهاد، ويحتمل أن يكون في هؤلاء المنافقين، ولا يحتمل أن يكون عامًّا.

ويدل قوله: ﴿أَشِحَّةً﴾ على أن البخل مذموم، وهو الامتناع من أداء الواجبات.

ويدل قوله: ﴿فَأَحْبَطَ﴾ على ثبوت التحابط بين الأعمال، وإنما أضافه إلى نفسه؛ لأنه المسبب والمعاقب.

وتدل على أن الفرار والتعويق والشح والقتال فِعْلُ العبد؛ لذلك علق به المدح والذم.

وتدل على قبح التعويق عن الطاعات.

---

(١) يروا: تزول، ت، ن.

قوله تعالى:

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَٰهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾

۞ القراءة

قرأ عاصم: ﴿أُسْوَةٌ﴾ بضم الهمزة في جميع القرآن، والباقون بكسرها، قال أبو عبيد: لا نعرف بينهما فرقا[1]، قيل: أراد الجمع بين اللغتين.

قراءة العامة: ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ صفة للمؤمنين وهم فرقتان. وعن ابن مسعود: **(ومنهم من بدل تبديلا)** جعل ثلاث فرق، ولا تجوز القراءة به؛ لأنه خلاف الظاهر من الفعل.

۞ اللغة

الأسوة: القدوة، تأسى به: اتبع فعله، والتأسية: التعزية؛ لأنه يقول: أصابه ما أصابك فتَأَسَّ [به].

والرجاء: توقع الخير، ونظيره: الأمل والطمع.

والنَّحْبُ: النَّذْرُ، والنَّحْبُ: الموت، وتناحب القوم: تواعدوا للقتال إلى وقت، وفي الحديث: «إن طلحة ممن قضى نحبه» أي: ألزم نفسه أن يصدق في الجهاد، فوفَّى به، والنَّحْبُ: الخطر العظيم، والنَّحْبُ: النفس، ومنه: النحيب: النَّفَسُ الشديد عند البكاء.

(١) فرقا: فرق، ت، ن.

۞ الإعراب

﴿تَبۡدِيلٗا﴾ نصب على المصدر.

[أو يتوب] وقد يكون للتخيير كقولهم: جالس الحسن أو ابن سيرين، وقد يكون للشك، وقد يكون بمعنى الواو أدخل في قوله: ﴿أَوۡ يَتُوبَ﴾ ؛ لأنه علم أن منهم من يتوب فقيد الكلام، ونصب ﴿يَتُوبَ﴾ على معنى: ليتوب.

۞ النزول

قيل: نزل قوله: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ﴾ في حمزة وسبعين نفر معه صبروا حتى قتلوا، وكانوا عاهدوا الله لا يولون الأدبار، فوفوا به.

وقيل: نزل في أنس بن النضر غاب عن بدر فشق عليه، فعاهد الله لئن شهد قتالاً ليفعلن، فلما كان يوم أحد قاتل، فقتل وبه بضع وثلاثون جراحة، عن أنس بن مالك.

وقيل: نزل في طلحة لما ثبت مع رسول الله ﷺ يوم أحد حتى أصيبت يده، عن عائشة.

وعن جابر أن رسول الله ﷺ قال: «من سره أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله».

۞ المعنى

ثم حث على الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله وعلى الجهاد، فقال سبحانه: «**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**» أي: قدوة حسنة، والقدوة الحسنة أن يقتدوا به في الصبر على الجهاد والشكر عند النعمة، والثبات في الدين، وأن يستنوا بسنته، ويعملوا بشرائعه «**لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ**» أي: يرجو ثوابه وجزاءه، وقيل: يخاف عقابه «**وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا**» أي: من عادتهم ذكر الله والتأسي بالنبي، وقيل: ذكر الله: التعظيم بذكر صفاته وأسمائه الحسنى وإخلاص الطاعة له في السراء والضراء «**وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ**» مع كثرتهم واجتماع كلمتهم على حرب المسلمين لم يزدهم إلا الثبات والتسليم والتوكل، فقال سبحانه: «**قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ**

«وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ» قيل: وَعَدَهُمْ عند لقاء المشركين الظفر بهم وظهور دينهم، وقيل: الذي وعدهم: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وقيل: كان رسول الله ﷺ يخبرهم بمجيء الأحزاب، وأنه يظفر بهم، ويملك فارس والروم ويظهر دينه، فلما جاءت الأحزاب قالوا: صدق الله ورسوله هذا ما وعد، وزادهم ذلك بصيرة في الدين وثباتًا في الحرب لما رأوا من معجزات رسول الله ﷺ بهذا الخبر، عن أبي علي. وقيل: هذا ما وعد الله هو قوله: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ﴾ [الفتح: ١٦]، عن أبي مسلم. وليس بصحيح؛ لأن هذه الآية نزلت بعد الخندق بزمان. **«وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا»** بالله ورسوله **«وَتَسْلِيمًا»** للنفس وثباتًا في الحرب **«مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ»** يعني: وفوا بما عاهدوا، وقيل: نذرهم إذا لقوا العدو لا يولون الأدبار، وقيل: عهدهم ليلة العقبة **«فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ»** قيل: قضى عهده ونذره، عن مجاهد. يعني: صبروا على الجهاد حتى قتلوا، وقيل: **«قَضَى نَحْبَه»** أي: مات على ما عاهد، عن الحسن. بذل جهده في الوفاء بعهده.

ومتى قيل: كيف يدخل قتل الكفار إياهم في العهد مع قبحه؟

قلنا: القتل لا يدخل في العهد، وإنما يدخل الثبات في الحرب والصبر على الشدائد.

«وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ» قيل: ينتظر ما أصاب إخوانهم من الشهادة وثوابها؛ لصبرهم في القتال، ولا ينتظر القتل، لأنه قبيح، وقيل: ينتظر حربًا آخر؛ لأن قومًا من أصحاب الثبات تخلفوا عن بدر فعاهدوا الله إن لقوا حربًا لا يولون الأدبار، ولما كان حرب أُحُدٍ جاهدوا حتى استشهدوا، وقيل: منهم من ينتظر الأجل المكتوب أو الشهادة.

ومتى قيل: لم خص بعض المؤمنين بهذه الصفة؟

قلنا: لأن منهم من رخص له في التخلف، ومنهم من لم يبلغ هذا المبلغ، ومنهم من لم يكن له عهد.

ومتى قيل: كيف المراد بقوله: **«يَنْتَظِرُ»** ولم يَفِ بالعهد؟

قلنا: لم يتمكن من الوفاء بالعهد، فهو ينتظر التمكن، وكلاهما مدح؛ ولذلك مدحهم بقوله: «وَمَا بَدَّلُوا [تَبْدِيلاً]» يعني: في عهدهم، وقيل: هو يرجع إلى جميعهم أي: استمروا على الوفاء ولم يتغيروا «لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ» جعل صدقهم علة في استحقاق الثواب.

ومتى قيل: لم كان التصديق من بعضهم؟

فجوابنا: من قضى نحبه صَدَقَ؛ لتمسكه بالعهد لا لغرض سوى طلب مرضاة الله، فاستحقوا الثواب، ومن عزم على الوفاء استحق الثواب.

ومتى قيل: لم حذف ذكر الجزاء؟

قلنا: لأنه معلوم وهو الدرجة العظيمة والمنزلة في الجنة. ولما قوبل بقوله: «وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ» إن شاء، وقيل: أراد أنه قادر على تعذيبهم إن شاء، وألا يعذبهم إن شاء، وقيل: يعذبهم إن شاء بعذاب عاجل أو يتوبوا.

ومتى قيل: هل يقع تخيير في تعذيب المنافقين؟

قلنا: منهم من يقول تعذيبهم واجب ولا يجوز العفو عقلاً، عن بشر بن المعتمر، وأبي القاسم وأصحابهما. وقيل: يجوز العفو عقلاً، وورد السمع بأنه يعذبهم ولا يعفو، فيجوز تعليقه بالمشيئة.

ومعنى الكلام: ويعذبهم إلا من يتوب قبل موته فإن توبته مقبولة، وقيل: «يَتُوبُ عَلَيْهِمْ». يرجع من ذمه إلى مدحه ويحكم له بالثواب.

ومتى قيل: أليس المجبرة تقول: معناه ليعذب المنافقين إن شاء بألا يخلق فيهم الإيمان والتوبة، أو يتوب بأن يخلق فيهم التوبة؟

فجوابنا: أن هذا غير صحيح لفظًا ومعنى، أما اللفظ: فليس في الآية إلا أنه يريد أن يعذبهم أو يتوب عليهم، وليس من الخلق فيهم شيء. وأما المعنى: فبنوا على قولهم في خلق الأفعال، ولو كان كلا الأمرين من خَلْقِهِ لما حسن الأمر والنهي والمدح والذم، فأما التوفيق واللطف فيفعله تعالى بكل مكلف إلا من يعلم أنه لا لطف له.

«إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا» لمن تاب «رَحِيمًا» بالمؤمنين.

ثم عاد إلى نعمه تعالى، فقال: «وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا» يعني: الأحزاب، قريشًا وغطفان ومن معهم من قبائل العرب «بِغَيْظِهِمْ» أي: بحسرة لم يشف غيظهم، فرجعوا بالغيظ الذي جاؤوا به «لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا» أي: لم يصيبوا ظفرًا ولا غنيمة، وإنما سماه خيرًا على زعمهم واعتقادهم، وإلا فمال المسلمين والظفر عليهم لا يكون خيرًا للكفار؛ بل يؤدي إلى عقاب الأبد، وقيل: الخير يكون من صفة الواقع، فما لم يقع فإنما يقال: إنه خير مقدرًا «وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ» بالريح والملائكة، وإلقاء الرعب في قلوبهم، واختلاف الكلمة، وهو المسبب لذلك بما ذكرنا لذلك أضاف إلى نفسه الرد «وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا» قادرًا على ما يشاء «عَزِيزًا» لا يمتنع عليه شيء، وقيل: قادر على هلاكهم يجزي بالانتقام منهم.

الأحكام

تدل أول الآيات على وجوب التأسي برسول الله ﷺ، ثم منهم من حمله على ما يتصل بالجهاد، وهو قول أبي علي وجماعة من المفسرين. فأما الفقهاء فحملوه على التأسي به في جميع أفعاله، ثم اختلفوا، فمنهم من جعله دلالة إيجاب التأسي، ومنهم من جعله دلالة الجواز دون الإيجاب، وقد اختلف العلماء في أقواله صلى الله عليه، فمنهم من قال على الوجوب، وتوقف بعضهم، وعندنا ننظر في أفعاله فنفعل على الوجه الذي فعله فيكون مناسبًا؛ إذ يستحيل أن يفعله ندبًا ونفعله نحن واجبًا.

ويدل قوله: ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ﴾ أن من أعظم خصال المؤمنين كثرة ذكر الله، وقال الحسن: المراد بهذا الذكر ما يتطوع به المؤمن من دون الواجبات لذلك وصفه بالكثرة، وقال أبو علي: جعله صفة للمؤمنين ليتميزوا من المنافقين الذين لا يذكرون الله إلا قليلاً.

ويدل قوله: ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ على أن الإيمان يزيد وينقص.

ويدل قوله: ﴿صَدَقُوا۟﴾ على عظيم منزلة الوفاء بالعهد في النذر وأن تبديله مذموم.

ويدل آخر الآيات على نعمته برد الكفار بغير قتال.

قوله تعالى:

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾

۞ اللغة

المظاهرة: المعاونة، والظهير: المُعِينُ، وأصله من الظهر.

والصَّياصِي: الحصون التي يمتنع بها، واحدها: صِيصَية، وكل ما امتنع فهو صَيصَيةٌ، ومنه قيل لقرون الظباء والبقر: صَيَاصِي، ومنه الحديث في ذكر فتنة: «**كأنها صياصي [بقَرٍ]**»(١) ثم شبه الفتنة بها لشدتها.

والقذف: الإلقاء، قَذَفَهُ: رماه.

۞ الإعراب

﴿فَرِيقًا﴾ نصب بـ ﴿تَقْتُلُونَ﴾ ، تقديره: تقتلون فريقًا وتأسرون فريقًا.

﴿وَأَرْضًا﴾ نصب بـ(**أورثكم**) كأنه قيل: أورثكم أرضًا.

۞ النزول

نزلت الآية في بني قريظة من اليهود، وكانوا عاهدوا النبي ﷺ، ثم نقضوا العهد، وأعانوا أبا سفيان والأحزاب، فلما هزم الله الأحزاب، ورجع رسول الله ﷺ المدينة نزل جبريل بالأمر بالخروج إلى بني قريظة، فأمر مناديًا فنادى: لا يصلين أحد العصر إلا ببني قريظة، فخرجوا أرسالاً، فمنهم من صلى العصر بعد العَتَمَةِ، ومنهم

(١) المعجم الكبير للطبراني: ١٥/٢٤٨، ٢٤٩، برقم (١٧١٣٦، ١٧١٣٨).

من صلى قبل ذلك، وحاصرهم، ثم حكّموا سعد بن معاذ، فنزلوا على حكمه على أن تقتل الرجال، وتسبى الذراري والنسوان، وتقسم الأموال، وتكون الأرض للمهاجرين دون الأنصار، فقيل له في ذلك، فقال: لكم دار وليس للمهاجرين دار، فقال ﷺ: «لقد حكم فيهم بحكم الله تعالى».

وروي أن جبريل نزل معتجرًا بعمامة على بغلة ورسول الله ﷺ يغسل رأسه، فقال: قد وضعت السلاح؟ قال: «نعم»، قال: ما وضعت الملائكة أسلحتهم منذ أربعين ليلة، وما رجعت إلى الآن عن طلب القوم، وإن الله تعالى يأمرك المسير إلى قريظة، وإني عامد إليهم، فقدم رسول الله ﷺ عليًّا، فلما دنا من الحصن سمع مقالة قبيحة، فرجع وأخبر بذلك رسول الله ﷺ، فقال: «إذا رأوني لم يقولوا شيئًا»، فلما دنا من حصونهم ناداهم: «يا إخوان القردة هل أخزاكم الله»؟ وحاصرهم خمسًا وعشرين ليلة، وفيهم حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف(١)، فنزلوا(٢) وأسلم بعضهم، وقُتِلَ مَنْ لم يسلم.

وروي أنهم لما حكّموا سعد بن معاذ وكانوا حلفاء الأوس، وقبل ذلك حاصر بني قينقاع وهم حلفاء الخزرج وتكلم فيهم عبد الله بن أبيّ فوهبهم له، فقيل لسعد: أحسن في مواليك، فقال: قد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم، وكانت به جراحة أصابته يوم الخندق في أكحله، فلما حكم فيهم بقتل الرجال وسبي الذراري انفجر ومات، وقسم رسول الله ﷺ أموال بني قريظة، وكان ذلك في ذي القعدة سنة خمس من الهجرة.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى حال اليهود الذين نقضوا العهد، فقال سبحانه: «**وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ**» أي: عاونوهم «**مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**» يعني: من اليهود، واتفق أهل التفسير أنهم بنو قريظة، وقال الحسن: هم بنو النضير «**مِنْ صَيَاصِيهِمْ**» أي: من حصونهم «**وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ**» أي: الخوف، قال ﷺ: «إنه تعالى بعث جبريل إلى بني

---

(١) في ن: كعب بن أسد. وما أثبتناه من هامشها.

(٢) فنزلوا: تولوا، ت، ن. وما أثبتناه من هامشها، ش، ن.

قريظة يزلزل بهم حصونهم، ويقذف الرعب في قلوبهم»، «**فَرِيقًا تَقْتُلُونَ**» وهم الرجال «**وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا**» النساء والذراريّ «**وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ**» أي: أعطاكم أرضهم «**وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ**» يعني: أموال بني قريظة «**وَأَرْضًا لَمْ تَطَؤُوهَا**» أي: أعطاكم أرضًا، أي: سيعطيكم، قيل: هو خيبر، عن ابن زيد، ومقاتل، ويزيد بن رومان. وقيل: أرض مكة، عن قتادة. وقيل: فارس والروم، عن الحسن. وقيل: كل أرض تفتح إلى يوم القيامة، عن عكرمة. وقيل: هو ما أفاء الله على رسوله مما لم يُوجِفْ عليه بِخَيْلٍ ولا ركاب، عن أبي مسلم. «**وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا**» أي: كما قدر على هذا فهو قادر على كل شيء، وقيل: (كان) صلة، وقيل: إشارة إلى أن كونه قادرًا من الصفات الأزلية.

۞ الأحكام

تدل الآية على نعمه تعالى بقهر الأعداء، وإظهار الدين وما آتاهم من الغنائم، وإنما أضاف النزول إليه؛ لأنه سبب لنزولهم أو حكم به.

وتدل على التحذير من معاونة المبطلين وأعداء الدين.

ويدل قوله: ﴿كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ أن المعدوم يسمى شيئًا.

وتدل على أن مظاهرتهم فعلهم؛ ولذلك استحقوا العقاب.

قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾

۞ القراءة

قراءة العامة: ﴿يَأْتِ مِنكُنَّ﴾ بالياء، وعن يعقوب وعاصم الجحدري بالتاء، فالأول لأنه جَمْعٌ والفعل مقدم عليه، والثاني: لتأنيث النساء.

[وقرأ ابن كثير «مبيَّنةٍ»، وقرأ نافع وأبو عمرو بكسرها].

وقرأ ابن كثير وابن عامر: «**نُضَعِّفْ**» بالنون وكسر العين مشددًا من غير ألف، «**العذاب**» بالنصب، وقرأ أبو جعفر وابن عامر ويعقوب: «**يُضَعَّفْ**» بالياء وتشديد العين وفتحها، «**العذابُ**» بالرفع، قال أبو عمرو: وإنما قرأت هذه وحدها بالتشديد لقوله: ﴿ضِعْفَيْنِ﴾، وقرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائي: «**يُضاعَفْ**» بالألف ورفع الياء من العذاب، وهما لغتان، ضَاعَفْتُ وضَعَّفْتُ، نحو: بَاعَدْتُ وبَعَّدْتُ، قال أبو عمرو وأبو عبيد: ضَعَّفْتُهُ: جعلته مثله، وضاعفته: جعلته أمثالاً.

۞ اللغة

الضِّعْفُ: مثل الشيء، وضاعفته: زدت عليه مثله، ومنه: الضعف: نقصان القوة لذهاب أحد ضعفها.

والمتاع: كل ما ينتفع به الإنسان، يقال: أمتعني الله بك، أي: نفعني، ومتاع الحياة الدنيا ومنافعها.

۞ النزول

قيل: كان أزواج النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ سألنه شيئًا من عرض الدنيا، وآذينه بزيادة النفقة، فهجرهن شهرًا، فأنزل الله تعالى هذه الآيات، وكان تحته تسع نسوة، خمس قرشيات: عائشة بنت أبي بكر، وحفصة بنت عمر، وأم حبيبة اسمها رملة بنت أبي سفيان، وسودة بنت زمعة، وأم سلمة بنت أبي أمية. وأربع من سائر القبائل: صفية بنت حيي خيبرية، وميمونة بنت الحارث من بني المصطلق، وزينب بنت جحش من بني غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة[1] وجويرية بنت الحارث من بني المصطلق، فلما نزلت آية التخيير بدأ بعائشة، وقرأ عليها القرآن، فاختارت الله ورسوله، قال الحسن وقتادة: لما اخترن الله ورسوله شكرهن[2] الله على ذلك، وقال: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾.

---

(١) من بني غنم بن دوران بن أسد بن خزيمة: من بني أسد بن خزيمة بن غنم بن دودان، ت، ن.

(٢) شكرهن: شكرن، ت، ن؛ والصحيح ما أثبتناه من تفسير الطبري ١٠/٢٨٨، وتفسير البغوي ١/ ٣٤٥، القرطبي ١٤/ ١١٣.

وعن عائشة: لما خيّرني فاخترت الله ورسوله فعل جميع أزواج النبي ﷺ مثل ذلك.

وروي أن نساء النبي ﷺ قلن: ما بالنا لا نجد قوت يوم، ونساء قيصر وكسرى على الديباج، فنزلت الآية.

وقيل: إن عائشة سألت شراء قميص بأربعة دراهم وأَلَحَّتْ عليه، فنزلت الآية. وقيل: أرادت شيئًا لم يكن عند رسول الله ﷺ.

ومتى قيل: أليس روي أنه جمعهن، وتلا عليهن الآية؟

قلنا: يجوز أن يكون خاطبها أولاً في الخلوة، ثم جمعهن، وتلا عليهن، وإنما بدأ بعائشة؛ لأنه كان بها أوثق، وغلب على ظنه أنها لا تختار إلا الله ورسوله.

وعن عائشة: أن النبي ﷺ قال لها: «لا تعجلي واستأمري أبا[1] بكر»، فعلمت أن أبويّ لا يأمراني[2] بفراقه، فاخترت الله ورسوله.

المعنى

لما تقدم ذكر نساء النبي ﷺ وأنهن أمهات المؤمنين بيّن حالهن، فقال سبحانه: «**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ**» امتحانًا واختبارًا «**إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا وَزِينَتَهَا**» يعني: سعة العيش وزينة الدنيا من الحلي ونحوه «**فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ**» أعطيكن متعة الطلاق، وقيل: أمتعكن بتوفير المهر «**وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً**» أي: طلاقًا جميلاً على وفق الشرع من غير خصومة، وقيل: خيّرهن بين الدنيا والآخرة، وليس بتخيير طلاق، عن الحسن. وقيل: هو تخيير طلاق، وقيل: كان كل من تختار الدنيا طلقها «**وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**» أي: طاعة الله وطاعة رسوله، والصبر على ضيق العيش في الدنيا «**فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا**» قيل[3]: فيه حذف تقديره: إن كنتن تردن الله ورسوله وكنتن محسنات فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرًا عظيمًا.

---

(١) أبا: أبو، ت، ن.

(٢) لا يأمراني؛ لا يأمرانني: ن.

(٣) قيل: وقيل، ت، ن.

ومتى قيل: ما الذي أراد بزينة الدنيا: الحلال أو الحرام؟

قلنا: لا يجوز أن يردن الحرام؛ لأنه لا يخص به نساء النبي ﷺ؛ بل يجب على جميع المكلفين اجتنابه، ولأن الحرام بعد المعارف لا يجوز الانتفاع به أيضًا، ولأن الحرام لا تخيير فيه؛ بل يجب التجنب، فلا بد أن يكون المراد الحلال من الزينة، إلا أنه علم كونها مفسدة لهن فَخَيَّرَهُنَّ، وقيل: كان من تكليفهن الصبر على الضيق، ولو فارقهن لكان يباح لهن الزينة كسائر النساء.

«فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا» أي: ثوابًا جزيلاً «يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ» أي: بمعصية ظاهرة «يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ» في الآخرة «ضِعْفَيْنِ» يعني مثلي ما يكون على غيرهن، وإنما كان كذلك؛ لأن نعم الله عليهن أكثر لمكان النبي ﷺ بينهن، ولنزول الوحي في بيوتهن، ولأنه يخصهن بالوعظ وذكرهن في القرآن، وإذا كانت النعم عليهن أعظم كانت المعصية أفحش، فتكون العقوبة أعظم؛ ولذلك كان عقوبات الحر في الحدود على الضعف من عقوبات الإماء والعبيد، وقيل: إنما عظم عقابهن ومعاصيهن؛ لأن فيه إلحاق عار برسول الله ﷺ، وكن ساكني بيوت النبوة «ويعاينَّ»[1] نزول الملائكة، ويشاهدن الوحي والمعجزات، فصار هتكهن للحرمة أعظم فعظمت العقوبة، وقيل: لأن فيه تنفيرًا عن رسول الله ﷺ «وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا» يعني: سهلاً، نبّه بذلك أن مكانهن من الرسول لا يمنع العذاب.

۞ الأحكام

تدل الآية أنه ﷺ خيّر أزواجه، واختار أبو علي قول الحسن أنه ليس بتخيير طلاق، ولكنْ تخييرٌ وعِدَة بالطلاق، وعن عائشة أنه خيّر نساءه فاخترنه، فَلَمْ[2] يجعل ذلك طلاقًا.

ومتى قيل: هل يجب في غيره - صلى الله عليه - أن يخير امرأته عند ضيق النفقة؟

---

(١) ويعاين: ومعادن، ت، ن.

(٢) فلم: لم؛ ت، ن.

قلنا: لا يجب، فإن رآه أصلح وفعل جاز وهو أولى، ويحتمل أنه خص بهذا التخيير، واختلف العلماء في حكم التخيير، فقال عمر وابن مسعود: إذا خَيَّرَ الرجل امرأته، فاختارت زوجها فلا شيء، وإن اختارت نفسها فواحدة، وهو مذهب أبي حنيفة وأصحابه. وقال زيد: إن اختارت زوجها فواحدة، وإن اختارت نفسها فثلاث، وهو مذهب مالك. وقال الشافعي: إن نوى الطلاق كان طلاقًا، وإلا فلا.

ويدل قوله: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ﴾ على أمور:

منها: ثبوت الوعيد في أهل الصلاة.

ومنها: أن المُسْتَحَقَّ يُفْعَلُ لا محالة؛ لأن قوله: ﴿يُضَٰعَفۡ﴾ لا يليق إلا بالواقع.

ومنها: أن المعصية قد تعظم لوقوعها ممن له منزلة على ما قررنا.

وتدل على أنه ﷺ لا يشفع لأهل الكبائر؛ لأنه إذا لم يشفع لأزواجه فغيرهن أولى.

وتدل على أن الفاحشة فعلهنّ؛ لذلك استحققن الوعيد.

قوله تعالى:

﴿۞وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٣٥﴾﴾

---

(١) فعلهنّ: فعلهم، ت، ن.

القراءة

قرأ حمزة والكسائي: «وَمَنْ يقْنُتْ مِنكُنّ لله وَرَسُولِه وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُؤْتِهَا» بالياء كلها، وقرأ يعقوب: «مَن يَأْتِ مِنكُنَّ» و«يقْنُتْ» و«يَعْمَلْ» بالياء في هذه الثلاثة، «نُؤْتِهَا» بالنون. وقرأ ابن عامر: «يأت»، و«يقنت» بالياء فيهما، «وتعمل» بالتاء، «نؤتها» بالنون، فأما من قرأ بالياء قال الفراء: لأن مَنْ(1) يقوم مقام الاسم يعبر به عن الواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٤٢]، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٤٣]، وهذا لأنه اسم مبهم. و«نؤتها» بالنون للإضافة، وبالياء كناية عن اسم الله تعالى.

قرأ أبو جعفر ونافع وعاصم: «وَقَرْنَ» بفتح القاف، الباقون بكسرها، أما الفتح فمعناه: فاقررن، أي: الْزَمْنَ، من قولك: قَرِرْتُ في المكان أَقَرُّ قرارًا، وقَرَرْتُ أَقِرُّ لغتان، فحذفت الراء الأولى التي هي عين الفعل لالتقاء المثلين(2)، ونقلت حركتها إلى القاف فانفتحت نحو: ظَلِلْتُ وظَلْتُ، وأما كسر القاف فهو أمر من الوقار، كقولك من الوعد: عِدْ، ومن الوصل: صِلْ، أي: كُنّ أهل وقار، أي هدوء وسكون من قولهم: وقَرَ يَقِرُ، وقاراً(3)، إذا اطمأن.

اللغة

القنوت: المداومة على العمل، ومنه الطاعة؛ لأنها مداومة على العمل لله، ومنه القنوت في الوتر؛ لأنه مداومة على الدعاء المعروف، ومنه السكوت؛ لأنه مداومة عليه.

والأجر والجزاء والثواب نظائر.

والخضوع: الانقياد، والخضوع: السكون، يقال: خَضَعْتُهُ فخضع، لازم ومُتَعَدٍّ، والخضوع في القول: اللين فيه.

والتبرج: إظهار المرأة محاسنها، وقيل: هو ظهورها، فأصل الباب: الظهور،

---

(1) من: مراده، ت، ن.

(2) المثلين: الساكنين، ت، ن.

(3) وقاراً: وقوراً، ت، ن.

ومنه: البروج في السماء، والبَرَجُ: تباعد ما بين الحاجبين؛ لظهوره، والبروج: القصور؛ لظهورها، والبَرَجُ في العين قيل: سعتها، وقيل: شدة بياض في شدة سواد.

۞ الإعراب

ويقال: لم قال: ﴿كَأَحَدٍ﴾ ولم يقل: كواحدة[1]؟

قلنا: قال الفراء: الأحد عام يصلح للواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث، فغلب التذكير على عادة العرب.

و﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ نصب على المدح، وقيل: على النداء.

﴿فَيَطْمَعَ﴾ نصب؛ لأنه جواب النهي بالفاء وهو قوله: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ﴾.

وحذف فروجهن من قوله: ﴿وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾؛ لأنه معلوم استغناء.

۞ النزول

نزل قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ في النبي ﷺ وعليّ وفاطمة والحسن والحسين، عن أبي سعيد الخدري، وأم سلمة، وعائشة، وواثلة بن الأسقع، وروي ذلك مرفوعًا.

وقيل: نزل في أزواج النبي ﷺ خاصة، عن ابن عباس، وعكرمة، ومقاتل. ولما كان فيهم النبي ذكر بلفظ التذكير، يدل عليه: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ﴾.

وقيل: نزل فيهم جميعًا.

وقيل: نزل في بني هاشم.

وأما قوله: «إِنَّ الْمُسْلِمِينَ. . .» الآية، قيل: إن أزواج النبي صلى الله عليه قلن: يا رسول الله، ذكر الله تعالى في القرآن الرجال دون النساء، فنزلت الآية.

وقيل: إن عائشة وأم سلمة وأنيسة بنت كعب قلن: ما بال ربنا ذكر الرجال ولم يذكر النساء، فنزلت الآية، عن مقاتل.

---

(١) كواحدة: كواحد، ت، ن.

وقيل: إن أسماء بنت عميس قالت ذلك، فنزلت الآية، عن مقاتل.

۞ المعنى

لما تقدم الوعيد عقب بالوعد على عادته تعالى في الجمع بين الوعد والوعيد ترغيبًا وترهيبًا، فقال سبحانه: «**وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ**» أي: من تطع الله ورسوله، عن قتادة. وقيل: كل قنوت في القول فهو طاعة، وقيل: من داوم على طاعة الله وحسن صحبة الرسول، عن أبي علي. «**وَتَعْمَلْ صَالِحًا**» أي: عملاً صالحًا «**نُؤْتِهَا**» نعطها «**أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ**» قيل: مِثْلَيْ ثواب غيرهن، قيل: دفعتين: دفعة في الدنيا ودفعة في الآخرة.

ومتى قيل: هب أن معصيتهن عظمت لعظم نعم الله تعالى عليهن لمكان الرسول والوحي، فَلِمَ عظم طاعتهن حتى أوجب لهن من الثواب أكثر، حتى استحققن ضعفين؟

قلنا: فيه أقوال: قيل: لأن المشقة عليهن أعظم من حيث صبرن على القلة وحسن عشرة الرسول مع ضيق ذات اليد.

«**وَأَعْتَدْنَا**» هيأنا «**لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا**» أي: عطاء جزيلاً كريمًا، قيل: في الجنة، وقيل: في الدنيا بعد النبي صلى الله عليه لما توالت الفتوح «**يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ**» في الفضل والشرف، ليس على أحد من النساء في حفظه حرمة رسول الله ﷺ. ما عليكن في رعاية حرمة رسول الله صلى الله عليه «**إِنِ اتَّقَيْتُنَّ**» أطعتن الله «**فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ**» أي: لا تَلِنَّ بالقول للرجال «**فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ**» قيل: شهوة الزنا، عن عكرمة. وقيل: نفاق، عن قتادة. وقيل: من كان مائلاً إلى المعاصي «**وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفًا**» أي: صحيحًا جميلاً يقطع الطمع «**وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ**» بفتح القاف: اسْكُنَّ، وبكسرها: كنّ أهل وقار «**وَلاَ تَبَرَّجْنَ**» أي: لا تظهرن، وقيل: التبرج: التبختر والتكبر، عن مجاهد، وقتادة. وقيل: هو إظهار الزينة والمحاسن للرجال، وقيل: مشي المرأة بين الأجانب من التبرج «**تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ**» أي: ظهور الجاهلية «**الأُولَى**» قيل: هي ما قبل الإسلام، عن قتادة. وقيل: ما بين عيسى ومحمد، عن الشعبي. وقيل: بين داود وسليمان، عن أبي العالية. وقيل: هو الزمان الذي ولد فيه إبراهيم

وكانوا أهل شرك، وكانت المرأة تزين نفسها وتعرض على الرجال وكان زمن نمرود، عن الكلبي. وقيل: ما بين آدم ونوح ثمانمائة سنة، عن الحكم. وقيل: ما بين نوح وإدريس كان ألف سنة، عن ابن عباس. وقيل: ما كان عليه نساء العرب في الجاهلية من البروز وترك الحجاب، وأما الثانية فحال من عمل في الإسلام بعمل أولئك **«وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ»** إقام الصلاة: أداؤها في أوقاتها بشرائطها **«وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ»** فيما أمركم به ونهاكم عنه **«إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ»** قيل: إنما يذهب بأمره ونهيه فيأمر بمكارم الأخلاق ومعالي الأمور، وينهى عن سفاسفها، فيزيل عنهن كل خصلة دنيئة، ويطهركم حتى لا تقذفوا بشيء، وقيل: يريد أن يذهب عنكم بألطافه كل فاحشة، واختلفوا في **«الرِّجْسَ»** قيل: هو الإثم الذي نهى الله عنه النساء، عن مقاتل. وقيل: الشرك، عن مجاهد. وقيل: الشيطان، عن ابن زيد. وقيل: السوء، عن قتادة. وقيل: كل قبيح في الشرع رجس، وقيل: عقوبة المعاصي؛ لأن الرجس العذاب **«أَهْلَ الْبَيْتِ»** يعني: أهل بيت محمد ﷺ مَنْ تضمه بيته وهم أزواجه وبناته، وقيل: هو النبي وعلي وفاطمة والحسن والحسين، وقيل: كل من حرم عليه الصدقة من بني هاشم، وقيل: هم أزواج النبي ﷺ، والصحيح أن الجميع مراد[1] خصوصًا الأزواج؛ لأن ما قبل الكلام وما بعده في شأنهن.

ومتى قيل: أليس الله تعالى أراد إذهاب الرجس عن كل أحد، فلم خصهم بالذكر؟

قلنا: فيه وجوه:

أحدها: أنه كما يؤمنهم عن الفواحش يؤمنهم عن كثير من المباحات المنفرة صيانة للرسول.

وثانيها: أن في تطهيرهم منقبة للرسول فخصهم بالذكر.

وقيل: لأنه أمرهم به وأراد ذلك منهم وهم فعلوه دون غيرهم.

وقيل: لأن أهل بيت كلهم كذلك لم يوجد إلا أهل بيت الرسول.

ومتى قيل: إذا كانت الآية في الأزواج، فما تأويل ما روي أنه قال في أصحاب الكساء: «هؤلاء أهل بيتي»؟

---

(١) الجميع مُراد: الجمع المراد؛ ن، ت.

قلنا: الأخبار مختلفة فيه، فالرجوع إلى ظاهر القرآن أولى، على أنه لا يمتنع أن يكون الجميع مراده.

ومتى قيل: إن بعض أزواجه حدثت منها[1] المعاصي بعده؟

قلنا: إنه أراد التطهير لنفي التنفير، وذلك مختص بحال حياته.

ومتى قيل: نحن نرى في أهل بيته من هو مرتكب الكبائر؟

قلنا: قيل: أراد الخمسة: محمدًا[2] صلى الله عليه، وعليا[3]، وفاطمة، والحسن، والحسين، وجميعهم معصومون. وقيل: أراد أن جميعهم لا يعدلون عن الحق، وإجماعهم حجة لا آحادهم.

«**وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**» من أدناس الجاهلية، قيل: بالأمن، وقيل: باللطف «**وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى**» يقرأ «**فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ**» يعني: القرآن «**وَالْحِكْمَةِ**» يعني: السنة، عن قتادة. وقيل: أحكام القرآن وتوابعه، عن مقاتل. وقيل: اذكرن ما يتلى بالعمل لا بالتلاوة «**إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا**» أي: عالمًا، وقيل: بلطف أموره «**خَبِيرًا**» عالمًا بالأشياء.

ثم ذكر جميع النساء، فقال سبحانه: «**إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ**» الذين دخلوا في السلم من الرجال والنساء، وقيل: الذين دخلوا في الإسلام «**وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**».

ومتى قيل: أليس عندكم الإيمان والإسلام واحد؟ فلم جمع بينهما؟

قلنا: لاختلاف اللفظ والاشتقاق واختلاف فائدتهما في اللغة، والإسلام: الاستسلام والانقياد، والإيمان: التصديق.

«**وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ**» يعني: المطيعين من الرجال والنساء الدائمين عليها، وقيل: أراد بالإسلام الانقياد، وبالإيمان فعل الواجبات، وبالقنوت النوافل «**وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ**» يعني: المخلصين «**وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ**» يعني: في

(١) منها: منه، ت، ن.
(٢) محمد: محمدا؛ ت، ن
(٣) علي: عليًا؛ ن، ت.

تحمل المشقة في الدين حتى يؤدي الواجبات وينتهي عن القبائح ورفض الشهوات «**وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ**» يعني: المتمسكين بطريقة التواضع «**وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ**» قيل: أراد صدقة الفرض، وقيل: الفرض والنفل «**وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ**» عما لا يحل «**وَالْحَافِظَاتِ**» فروجهن «**وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ**» قيل: أراد الذكر باللسان، وقيل: بالقلب، وقيل: كلها تفاصيل خصال الإيمان فخصها بالذكر ترغيبًا «**أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً**» لذنوبهم في الآخرة «**وَأَجْرًا عَظِيمًا**» أي: ثوابًا وجزاء في الجنة.

۞ الأحكام

يدل أول الآيات أن ثواب أزواج النبي على طاعتهم على الضِّعْفِ من غيرهم، وذلك لما بينا من الوجهين:

أحدهما: الاقتداء بهن وكثرة الصلاح بسيرهن.

والثاني: لما يرجع إلى الرسول وتنزيهه.

وتدل على وجوب لزوم البيوت على النساء، وذلك عام في المعنى وإن ورد في أزواج النبي ﷺ.

ويدل قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ﴾ الآية، على تنزيه أهل بيته، وقد بينا ما قيل فيه، والزيدية تستدل بذلك على أن إجماع أهل البيت حجة، وربما يشير إليه أبو علي.

ويدل قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ إلى آخره، على صحة قولنا في الوعيد؛ لأنه على الوعد بكمال هذه الصفات، فيبطل قول المرجئة.

وتدل على أن هذه الخصال فعلهم، فيبطل قول المجبرة في المخلوق.

وتدل على وجوب الخشوع في العبادات.

ويدل قوله: ﴿وَٱذْكُرْنَ﴾ على عظم نعمه بالقرآن على أهل بيته خاصة، وعلى جميع المكلفين عامة.

قوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَـٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾

۞ القراءة

قرأ حمزة والكسائي: «**يَكُونَ لهم الخيرة**» بالياء للحائل بين التأنيث والفعل، وروي نحوه عن ابن عباس، الباقون بالتاء لتأنيث لفظ (**الخيرة**) بفتح الياء، وعن ابن السميقع بسكونها، وهما لغتان.

وقرأ عاصم: (خَاتَم) بفتح التاء، وهو قراءة الحسن، على الاسم، أي: آخر النبيين، كقوله: خَاتَمُهُ مَدٌّ، أي: آخره، وقرأ الباقون بكسر التاء على الفعل، أي: ختم النبيين للنبوة.

۞ اللغة

القضاء: الحكم، وأصله: إحكام الشيء وإمضاؤه والفراغ منه على التمام، يقال: قضى القاضي أي: فصل. ثم القضاء يستعمل على وجوه ثلاثة: بمعنى الخَلْق كقوله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ﴾ [فصلت: ١٢]، وبمعنى الإيجاب كقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، وبمعنى الإعلام كقوله: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [الإسراء: ٤].

والخيرة: التخير، عن الزجاج، ونظيره: الاختيار، اختيار شيء على شيء.

والوطر: الإرْبُ المشتهى، وكل حاجة وَطَرٌ، يقال: قضى وطره.

والقدر: تقدير[1] الشيء بالنظر فيه، والقدر المقدور: الأمر الجاري على مقدارِ ما أريد مِنْ غير زيادة ولا نقصان.

الإعراب

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ قيل: نصب على الإغراء، أي: عليكم سنة الله، أو اتبعوا سنة الله، وقيل: بمحذوف، أي: سن سنة الله، وقيل: بنزع الخافضة، أي: كَسُنَّةِ الله، وقيل: نصب على المصدر.

ويقال: ما محل: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ﴾ ؟

قلنا: فيه ثلاثة أوجه: الرفع، والنصب، والكسر.

فأما الرفع فلوجهين: أحدهما: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ﴾ قيل: رفع بالابتداء وخبره محذوف، أي: الذين يصلحون للرسالة أَجَلُّ مِنْ أن يخلّ بعدها بقبول عرض.

وأما النصب فعلى التفسير من ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ أي: أعني الذين.

وأما الكسر بدلاً من قولهم: سنة الله في الذين، تقديره: سنة الله في الذين يبلغون رسالة ربهم.

﴿رَّسُولَ﴾ نصب [على تقدير]: كان هو رسول، ورفع على[2] تقدير: هو رسول الله.

(خَاتَمَ) عطف على ﴿رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾.

النزول

أما قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ قيل: نزل في زينب بنت جحش خطبها رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة فأبت هي وأخوها عبد الله بن جحش، وهي بنت آمنة

(١) تقدير: تقدر، ت، ن.

(٢) على: فعلى، ت، ن.

بنت عبد المطلب، وكان زيدٌ اشتراه رسول الله ﷺ في الجاهلية فأعتقه، فنزلت الآية إلى قوله: ﴿ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ فرضيت، فتزوجت[1] منه، عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة.

وقيل: زينب هي الموهوبة نفسها من النبي. وقيل: بل الموهوبة غيرها.

وروي عن زينب: خطبني عدة من قريش فبعثت أختي حمنة بنت جحش إلى رسول الله أستشير، فأشار بزيد، فَغَضِبَتْ وقالت: تُزَوِّجُ ابنة عمتك مولاك؟ ثم أعلمتني[2]، فَغَضِبْتُ أشد من غضبها، فنزلت الآية، فأرسلت إلى رسول الله ﷺ وقالت: زَوِّجْنِي مَنْ شئت، فزوجني من زيد.

وقيل: بل نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط،وكانت وهبت نفسها لرسول الله ﷺ، فزوجها من زيد بن حارثة فأبت هي وأخوها، فنزلت الآية، عن ابن زيد.

وأما قوله: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ الآيات، فنزلت في زيد بن حارثة وامرأته زينب بنت جحش مكثت عنده أيامًا ثم أراد فراقها، فقال رسول الله ﷺ: «اتق الله وأمسك زوجتك»، فأبى وقال: تؤذيني بلسانها، فطلقها، فخطبها رسول الله ﷺ وبعث إليها زيدًا فتزوج بها، ولما تزوج بها قال الناس: تزوج محمد بامرأة ابنه، وهو ينهى عنه، فنزلت: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾.

۞ المعنى

لما تقدم ذكر نساء النبي ﷺ عقبه بذكر زيد وامرأته وتزوجه بها، وأنه كان بأمره ﷺ نفيًا لكل عيب عن أهل بيته، فقال سبحانه: «**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ**» قيل: لزينب وأختها، وقيل: هو عام، وهو الصحيح؛ لأن المراعى عموم اللفظ لا خصوص السبب «**إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا**» قيل: أوجب وأمر، وقيل: حكم به «**أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ [مِنْ أَمْرِهِمْ]**» أي: أن يختاروا غير ذلك ويتركوا[3] ما أمر إلى ما لم يأمر، واختلفوا، فقيل: إنها نزلت في زينب وأخت كانت لها أن تزوج ولم يكن لها ترك

(١) فتزوجت: فتزوجته، ت، ن.
(٢) ثم أعلمتني: بما علمتني، ت، ن.
(٣) ويتركوا: ويترك، ت، ن.

التزويج؛ لأن الله تعالى قضى ذلك، وقيل: إنه أباح لها أن تتزوج بزيد وليس بإيجاب، والصحيح أنه أراد كل شيء أمر الله به أو حكم به، فليس لأحد مخالفته «**وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِينًا**» أي: ذهب عن الرشد ذهابًا بعيدًا «**وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ**» قيل: هما نعمتان: أنعم الله عليه بالهداية، والنبي أنعم عليه بالعتق، يعني: زيد بن حارثة، وقيل: هما نعمة واحدة الإسلام والعتق، فالعتق وقع من الرسول بأمر الله، والإسلام بأمر الله ودعوة الرسول «**أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ**» يعني: زينب، والكلام يقتضي مشاجرة جرت بينهما حتى وعظه الرسول وأمره بالإمساك، وقيل: هو إباحة وإرشاد وليس بإيجاب «**وَاتَّقِ اللَّهَ**» في مضارتها.

ومتى قيل: أليس كان يجب أن يفارقها؟ فكيف أمره بالإمساك؟

قلنا: معاذ الله أن يقول خلاف ما في قلبه، فإن ذلك لا يجوز عليه، وإنما قال ما أحب، وما كان في قلبه وهو إمساكها بإحسان.

ومتى قيل: أليس كان يحبها ويريد التزويج بها، وأنه جاء إلى باب زيد فوقع بصره عليها فهويها، في حديث طويل ترويه الحشوية؟

قلنا: شيء من ذلك لا يجوز على رسول الله، والله تعالى يعصم رسوله عن كل منفر وكل كبيرة، وكيف يصح ما قالوا، وكانت زينب أيِّما وزوَّجها محمد من زيد، وفيها نزلت: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨] ولم يرغب فيها، فكيف رغب بعد أن صارت ذات زوج؟ وكيف يجوز أن ينظر في دار إنسان وفي الشرع أن ذلك كبيرة؟ وليس ذلك إلا من دسيس الملحدة.

«**وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ**» أي: يظهره «**وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ**» أي: تخافه، اختلفوا في المخاطب بهذه الآية قيل: النبي ﷺ، وقيل: زيد، فأما من قال بالأول اختلفوا، فقيل: أخفى في نفسه إن طلقها زيد تزوج بها؛ لأنها ابنة عمته؛ فأحب ضمها إلى عنده بعد فراق زيد لئلا تصيبها ضَيْعَةٌ كما يفعل الرجل بأقاربه، عن أبي علي خشي إظهار ذلك خشية قالة الناس، فقيل: إن تركت إظهاره خشية الناس فترك إظهاره خشية الله أولى؛ لأنه فعل ذلك بأمر الله تعالى، وقيل: كان الله تعالى أخبره بأنه يزوجها منه، فلما أراد زيد طلاقها قال: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾، وقد أعلمتك أنها ستكون من أزواجك، عن علي بن الحسين، وزيد بن علي. وهذا

التأويل مطابق لتأويل الآية؛ لأنه عوتب على قوله: «أَمْسِكْ» مع علمه أنه ستكون زوجة له خشية الناس. وقيل: كان زيد مولى وكانت شريفة، فزوجها منه رسول الله صلى الله عليه، ثم لم يعاشرها وتجنبها [خشية] عار [وأراد] أن يزيدها شرفًا لأنه كان سبب التزويج فعزم أن يتزوجها إن فارقها. وقيل: كان العرب ينزلون الأدعياء منزلة الأبناء في الأحكام فأراد أن يبطل ذلك، ويقول: حكم الأدعياء كأي واحد[1]، وكان يخفي في نفسه تزويجها لهذا الغرض كيلا يقول الناس: إنه تزوج بامرأة ابنه وأنه يرغب في النساء، وليس ذلك بمنكر ولو كان منكرًا لكان الله أحق أن يخشاه فيه، وكيف يخشاه فيه وذلك من سنة الأنبياء؟، عن أبي مسلم. وقيل: تخفي في نفسك من محبتها، وتخشى لائمة الناس، عن ابن عباس. يعني: محبة تزويج إن فارقها زيد، وقيل: تخشى: تستحييهم، عن ابن عباس، والحسن.

ومتى قيل: إذا كان الله أخبره بأنه يزوج زينب منه فلماذا أخفى ذلك؟

قلنا: لأنه لو أظهر ذلك فكان زيد يطلقها لأجله لا لسوء عشرتها، وكان ذلك يورث وحشة بينهما، وقيل: قال له: أمسكها وفي قلبه أنها لو كانت عنده ما أمسكها، فكان الذي يخفيه هذا، وما تقدم أحسن. وعن عائشة: لو كتم النبي ﷺ شيئًا مما أوحي إليه لكتم هذه الآية: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾.

فأما من قال: المخاطب بذلك زيد، فمعناه: إذ تقول يا محمد لزيد: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾، ﴿وَتُخْفِي﴾ يا زيد ﴿فِي نَفْسِكَ﴾ من طلاقها ﴿مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ عليك؛ لأنك تطلقها، وتخشى الناس في ظهور طلاقها لمكانها من النبي وأهل بيته «وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ» فتمسكها بمعروف أو تسرحها بإحسان.

«فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا» أي: أمضى حاجته من نكاحها فطلقها وانقضت عدتها، وليس في قلبه ميل إليها ولا وحشة ولا غيره، ومعنى القضاء: الفراغ من الشيء على التمام، وكانت زينب[2] تقول للنبي ﷺ: إني لأدل عليك بثلاث[3]: ما

---

(١) كأي واحد: بواحدة، ن.

(٢) وكانت زينب: وكان زيد، ت، ن؛ ما أثبتناه من مجمع البيان في تفسير القرآن م٥/ ٢٢/ ١٤٧.

(٣) بثلاث: بقلب؛ بدون نقاط، ت، ن؛ والصواب ما أثبتناه من مجمع البيان في تفسير القرآن م٥/ ٢٢/ ١٤٧. وتفسير الطبرسي ٢/ ٣٠.

من نسائك واحدة تقول: جدّ [ي وجدّك][1] تزوجتك واحد، وأنكحني الله في السماء، وكان السفير جبريل[2] «زَوَّجْنَاكَهَا» أي: أَذِنَّا لك في تزويجها «لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ» إثم وضيق «فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ» الذين تبنونهم «إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا» بالنكاح وطلقوهن «وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً» قيل: في تزويج زينب من رسول الله كائنًا لا محالة، وقيل: إذا أراد شيئًا فعله، والأمر والإرادة سواء في المعنى، عن أبي مسلم. وقيل: كان أمر الله واجبًا فعله «مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ» أي: إثم وضيق «فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ» أي: أمره وأباح له من تزويج زينب وإن كانت امرأة من تبناه؛ لأنه تعالى أبطل حكم الجاهلية في الأدعياء، وقيل: فرض وأوجب، فوجب على النبي التزويج بها لزوال هذا الحكم الذي هو التبني «سُنَّةَ اللَّهِ» أي: طريقته وشريعته «فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ» أي: مضوا قبل، أراد سنته في الأنبياء أنه كلفهم الإبلاغ والصبر على الشدائد، وتكفل بأمرهم بإزالة شغل قلوبهم، وبين لهم الحظر والإباحة، كذلك أمر النساء، وقيل: أراد سنة الله في المطلقات، وقيل: سنة الله في زوال الحرج عمن فعل فعلاً بأمر الله، وأشار إلى أن استباحة ما أباح الله سنة الأنبياء، وقيل: سنة الأنبياء، وقيل: سنة الله في تحليل نكاح نساء الأدعياء، وقيل: النكاح من سنة الأنبياء، وقيل: كثرة الأزواج كما فعل داود وسليمان فلا عتب عليه، وقيل: سنته في التوسعة عليه كسننه في الأنبياء قبل، وقيل: كان لداود مائة امرأة، ولسليمان ثلاثمائة امرأة وسبعمائة سرية «وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا» أي: أمرًا جاريًا على وجه الحكمة والعدل والصواب.

ثم وصف الأنبياء، فقال تعالى: «الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللَّهِ» إلى أممهم «وَيَخْشَوْنَهُ» أي: يخافون عقابه في كتمان شيء «وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ» لما قال: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾؛ لأن صفة الأنبياء أن يخشوه ولا يخشوا[3] أحدًا. «وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا» أي: محاسبًا، وهذا وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين.

---

(١) ما بين المعكوفين بياض في ن.

(٢) في مجمع البيان في تفسير القرآن ٥م٢٢/١٤٧: إني لأدل عليك بثلاث ما من نسائك امرأة تدلّ بهن، جدي وجدك واحد، وإني أنكحنيك الله في السماء، وإن السفير لي جبريل (عليه السلام).

(٣) أن يخشوه ولا يخشوا: أن يخشونه ولا يخشون، ن.

ثم بين أن زيدًا ليس بابن له، فقال سبحانه: «**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ**» قيل: رجال ذلك الوقت، ولم يكن أحد من أبنائه رجلاً، وقيل: أراد بـ« **رِجَالكم**»: زيدًا، وهو أبو القاسم والطيب والطاهر وإبراهيم، عن قتادة. وقال: الحسن والحسين لم يكونا رجالاً في ذلك الوقت الذي نفي فيه كونه أبًا، وإلا فقد صح أنه كان يقول: «إن ابني هذا سيد»، وكذلك يقول للحسين عليه السلام.

ثم بَيَّنَ أنه يلزم تعظيمه واتباعه لا للنسب لكن للنبوة، فقال سبحانه: «**وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ**» فلا نبي بعده «**وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا**» قيل: من مصالح الخلق، وقيل: بمن يصلح للرسالة.

الأحكام

يدل أول الآيات على وجوب اتباع أوامر الله تعالى وأوامر رسوله، وزوال الاختيار.

ومتى قيل: أفهذا يدل على أن الأمر على الوجوب، فيستدل به؟ ومن قال: إنه على الندب قال أيضًا: يفهم منه الإلزام.

وتدل على أن النكاح ينعقد مع عدم الكفاءة، فلا يستدل به على أن الكفاءة غير معتبرة، فقد صح بالتواتر اعتبارها.

فأما قوله: ﴿وَإِذْ تَقُولُ﴾ الآية، فتدل على أشياء:

منها: أن الإنسان قد يكون منعمًا على غيره.

ومنها: تحليل امرأة من تبناه، وأكد ذلك بتزويج زينب.

ومنها: تنزيه الرسول عن أن يخفي شيئًا لا يبديه كيلا يقع التنفير، فنبه على عصمته من المنفرات.

ومنها: أن التزويج بها كان لأجل إظهار حكم الله لا لهوى ولا ميل وأنه كان بأمر الله.

ومتى قيل: إن كان النبي أخفاها وَعْدَ الله بتزويجها أو عزم هو على تزويجها إن طلقها وذلك حسن، فلم عوتب؟

قلنا: أمره لزيد بإمساكها وشدد فيه وهو بخلاف ما في نفسه، فوقاه عن ذلك؛ لئلا يظن به التعمية، ولا تعلق له بالدين وأداء الرسالة من هذا الوجه يدل على أنه نزهه من كل منفر.

وتدل على جواز تعليق الأحكام بالعلل؛ لذلك قال: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾.

ويدل قوله: ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ على أن ذلك التزويج مضاف إلى الله تعالى، ثم اختلفوا، فقيل: لأنه بأمره، وقيل: بإباحته، وقيل: بإيجابه ليزول حكم الجاهلية.

ويدل قوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ على حدث القرآن؛ لأن فيه أوامره. ويدل على حدث الإرادة؛ لأن ذلك يصير أمرًا بإرادته.

ويدل قوله: ﴿إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ على المنع من الخطبة على خطبة أخيه، ولا خلاف أن في حال العدة لا يجوز أن يخطب، وبعد انقضائه إذا خطب واحد يكره لغيره الخطبة. ومنهم من قال: لا يجوز.

ويدل قوله: ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أن التقية على الأنبياء لا تجوز؛ لأن فيه تفويتَ المصالح، خلاف قول الإمامية.

ويدل قوله: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أنه لا نبي بعده، وقد علم ذلك من دينه ضرورة، فما يرويه اليهود عن موسى عليه السلام أن شريعته لا تنسخ إما أن تكون روايته باطلة وإما[1] محرفة. فأما نزول عيسى فعندنا بالإنزال للرسالة، وإنما ينزل عند زوال التكليف وهو من أشراط الساعة.

وفي الآية دلالات جمة: أن أفعال العباد حادثة من جهتهم، ليس بخلق الله، فيبطل قول المجبرة.

(١) وإما: أو؛ ت، ن.

قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾

اللغة

التسبيح: التنزيه، تقول: سبحان من كذا، أي: ما أبعده، وفي صفاته تعالى: السّبُّوح بفتح السين وضمها، أي: المنزه عما لا يليق به.

والصلاة في الأصل: الدعاء، ونقل في الشرع إلى أفعال وأركان مخصوصة، والصلاة من الله: الرحمة، ومن الملائكة: الدعاء.

والتحية: السلام والثناء الحسن، والتحية: الملك، والتحية: البقاء، والتحيات الجميع.

والنور: الضياء، وهو جسم فيه لون مخصوص، والمنير: ما ينور عنده، إما لأن النور من جهته، أو لأنه سبب فيه.

﴿ذِكْرًا﴾ نصب على المصدر، و﴿كَثِيرًا﴾ نَعْتٌ له.

و﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ نصب على الظرف.

﴿رَحِيمًا﴾ خبر (كان) والاسم مضمر، أي: كان الله رحيمًا.

النزول

عن أنس: لما نزل قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ﴾ قال أبو بكر: يا رسول الله ما خصك الله بشرف إلا وأشركنا فيه، فأنزل الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾.

وعن جابر: لما نزلت: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾ [الفتح: ١] الآيات، قالت الصحابة: هنيئًا لك يا رسول الله هذه المعارف، فما لنا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾.

النظم

يقال: بما يتصل قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ؟

قلنا: قيل: بقوله: ﴿وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ فمنّ عليهم به، فأمرهم أن يشكروه. وقيل: به وبما تقدم من النعم من أول السورة.

ويقال: كيف يتصل قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾ بما قبله؟

قلنا: تقديره: الغني عنكم يذكركم، وأنتم المحتاجون إليه فاذكروه، وقيل: عَدَّ نعمه، ومن ذلك صلاته عليهم، ثم ذكر نعمًا أخرى بالرسول وغيره.

المعنى

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا» قيل: هو باللسان بذكر أسمائه الحسنى وصفاته العلا، وقيل: بالقلب. وعن ابن عباس: لم يفرض الله على عباده فريضة إلا جعل لها حدًّا غير الذكر، فإنه لم يجعل له حدًّا، وأمرهم بذكره في الأحوال كلها. واختلفوا في الذكر الكثير، قيل: هو اعتقاد التوحيد والعدل وأنه واجب في جميع الأحوال لا يجوز تركه بحال إلا حال النسيان والنوم. وقيل: هو ذكر الله باللسان في عموم الأحوال والأمكنة والأزمنة في السر والعلانية. وقيل: الذكر الكثير: ألاّ تنساه، عن مجاهد. وقيل: هو أن تكون على طاعته أبدًا لا تعصيه. وقيل: اذكروه بالرغبة إليه والرهبة منه والاعتصام به. **«وَسَبِّحُوهُ»** أي: نزهوه **«بُكْرَةً وَأَصِيلاً»** صباحًا ومساء، قيل: صلوا بكرة وعشيًا، يعني: الصبح والعصر، عن قتادة. وقيل: نزهوه عما لا يليق به، عن أبي مسلم. وقيل: أراد بالذكر الكثير: الذكر في الصلاة بكرة وعشيًا، عن أبي علي قال: لأن الصلاة هي المختص بالأوقات والذكر وأنه يجب عليه، وسميت

الصلاة تسبيحًا: لأن فيها التسبيح والتنزيه، قال القاضي: والأولى أنه أراد به التسبيح الذي هو التنزيه: لأنه ظاهر الكلام، ويجب في جميع الأحوال «**هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ**» قيل: صلاته إيجاب الرحمة، وصلاة الملائكة الدعاء والاستغفار، وقيل: أوجب خمسة أشياء لمن أقام الصلاة: الرحمة منه، والاستغفار من الملائكة، وكونه رحيمًا عليه، وتحية السلام، والأجر الكثير في الآخرة. وقيل: الصلاة على أربعة أوجه: من الله: الرحمة، ومن الملائكة: الاستغفار، ومن النبي: الشفاعة، ومن المؤمنين: التحية. وقيل: «**يُصَلِّي**»: ينادي، عن الأخفش. وقيل: يثني «**عَلَيْكُمْ**» ويشيع لكم الذكر الجميل، و«**مَلَائِكَتُه**» بالدعاء والاستغفار «**لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**» قيل: من الجهل الذي هو كالظلمة في الضلال منه إلى العلم الذي هو كالنور في أنه يهتدى به، وقيل: من الضلال إلى الهدى، عن ابن زيد. يعني بألطافه وهدايته وأمره، وقيل: من ظلمة النار إلى نور الجنة «**وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا**» يعني: بالرحمة، وهو الثواب والجنة «**تَحِيَّتُهُمْ**» يعني: تحية المؤمنين «**يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ**» يعني يلقون جزاءه، فذكر لقاءه وأراد: لقاء جزائه، وليس من الرؤية في شيء، كما قال: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ [التوبة: ٧٧]، [وقال النبي ﷺ][(١)]: «من حلف على يمين كاذبة لقي الله وهو عليه غضبان»، وقيل: يلقون ملك الموت كناية عن غير مذكور، عن البراء بن عازب، قال: يوم يلقون ملك الموت لا يقبض روح مؤمن إلا سلم عليه، وقيل: هو الملك الذي يأتيه عند خروجه من قبره. واختلفوا في وقت هذه التحية، قيل: يوم يرون الملائكة عند اليأس، وقيل: إذا خرجوا من قبورهم، وقيل: إذا دخلوا الجنة، وقيل: يوم القيامة «**سَلَامٌ**» قيل: يقولون سلام عليكم من جميع الآفات، والمراد أنه يبشره بالسلامة «**وَأَعَدَّ لَهُمْ**» أي: هَيَّأَ وادَّخر «**أَجْرًا كَرِيمًا**» جزاء حسنًا وهو الجنة «**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا**» على الخلق بالقبول والرد «**وَمُبَشِّرًا**» للقابلين عنه بالثواب «**وَنَذِيرًا**» مخوفًا لمن يرده بالعقاب «**وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ**» إلى توحيده وطاعته «**بِإِذْنِهِ**» قيل:

---

(١) مطموس في ت وفي هامش ن، ما بين المعكوفين في ن كتب فوقها: أظنه.

بعلمه، وقيل: بأمره «وَسِرَاجًا مُنِيرًا» يعني: يهتدى به في الدين كما يهتدى بالسراج، وقيل: أراد بالسراج الشمس، وقيل: لأن منافع الدين تتصل به وتتم، كما أن منافع الدنيا بالشمس «وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيرًا» أي: نعمًا عظيمة «وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ» قيل: أهل مكة فيما دعوه إليه من المداهنة «وَالْمُنَافِقِينَ» من أهل المدينة وإن تلقوك بالأذى «وَدَعْ أَذَاهُمْ» أي: أعرض عن أذاهم فإني أكفيك أمرهم إذا توكلت عليّ، وقيل: أخر أذاهم إلى هذا الوقت، وقيل: اصبر ولا تكافهم على الأذى، وقيل: نسختها آية القتال «وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ» بنصرك عليهم «وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً» أي: قَيِّمًا بأمور من يتوكل عليه.

۞ الأحكام

تدل الآيات على مذهب العدل من وجوه:

منها: أمره بالذكر.

ومنها: صفات النبي ﷺ؛ لأنه كان شاهدًا وداعيًا ونذيرًا لمن عصاه، وبشيرًا لمن أطاعه، وكل ذلك لا يتم إلا وللعبد فعل، وكذلك قوله: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾.

ويدل قوله: ﴿لِيُخْرِجَكُم﴾ يعني بلطفه، فيدل على أن اللطف والهداية في الدين من جهته تعالى.

ويدل قوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ على أنه يخص به المؤمنين دون الفساق، فيبطل قول المرجئة.

ويدل قوله: ﴿وَبَشِّرِ﴾ أن البشارة للمؤمنين دون الفساق.

ويدل: ﴿وَلَا تُطِعِ﴾ الآية، على مكارم الأخلاق في المحافظة على الدين.

قوله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَـٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٠﴾﴾

القراءة

روى ابن أبي برة عن ابن كثير: «**تَعْتَدُونَها**» خفيفة الدال، الباقون بتشديدها.

قراءة العامة: ﴿ٱلَّـٰتِيٓ﴾ بغير واو صفة للنساء، وعن ابن مسعود: «**واللاتي**» عطف عليهن.

قراءة العامة: ﴿إِن وَهَبَتۡ﴾ بكسر الألف على المستقبل، وعن الحسن بفتحها على الماضي.

اللغة

النكاح: اسم يعبر به عن العقد والوطء، قال تعالى: ﴿جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠] أراد العقد، وقال ﷺ: «ملعون من نكح يده» والمراد: الوطء، إلا وضع بمحل النكاح، وهو صريح فيه ولا يفتقر إلى نية، ولا دلالة حاله وما يقع به يكون رجعيًا.

والمسّ: حقيقة في المماسة، والله تعالى كنى به عن الجماع، وقد كنى الله عن الجماع بألفاظ: الوطء، والملامسة، والإفضاء، والغشيان، والمباشرة، والمماسة.

والمتعة: ما يتمتع به، أي: ينتفع، وهو في الشرع ما يبذل للمطلقة دون المهر؛ ولذلك سميت الدنيا متاعًا؛ لأنه يقصر عن الآخرة.

والتسريح في اللغة: الإرسال، وفي الشرع: كناية عن الطلاق، وقيل: بل هو صريح.

والهبة: عقد تبرع في الشرع، صحته بالتسليم.

خالصة: مصدر خلص يخلص خلوصًا.

الإعراب

﴿خَالِصَةً﴾ نصب على المصدر، أي: خلصنا ذلك خالصة.

﴿وَٱمْرَأَةً﴾ عطف على قوله: ﴿أَزْوَاجَكَ[1]﴾ تقديره: وأحللنا لك امرأة.

و﴿تَمَسُّوهُنَّ﴾ تفعلوا، وتماسوهن تفاعلوا، وهو أن تكون بين اثنين.

النزول

قيل: لما وهبت الموهبة نفسها للنبي ﷺ، قالت عائشة: ما بال النساء يبذلن أنفسهن بلا مهر، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فقالت عائشة: ما أرى الله إلا[2] يسارع في هواكَ! فقال صلى الله عليه: «فإنك إن أطعت الله سارع في هواكِ».

المعنى

لما تقدم في السورة أحكام النساء عاد القول إلى مثل ذلك، فقال سبحانه: «**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ**» أي: تزوجتموهن «**ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ**» قيل: تجامعوهن، وقيل: حصل بينكم مسيس وهو عبارة عن الخلوة الصحيحة «**فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا**» أي: تحصونها بالأقراء والأشهر «**فَمَتِّعُوهُنَّ**» أي: أعطوهن ما يستمتع به، قيل: إن كان سمى مهرًا فلها النصف، وإن لم يُسَمِّ فالمتعة، وهو السراح الجميل، عن ابن عباس. وقيل: المتعة غير المهر، وإنما سميت بقوله: ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، عن قتادة، وسعيد بن المسيب. وقيل:

(١) أزواجك: أزواجكم، ن.

(٢) ما أرى الله إلا: ما بال النساء كن، ت، ن، وما أثبتناه من هامش ن.

هو أمر ندب بالمتعة مستحبة ونصف المهر واجب «**وَسَرِّحُوهُنَّ**» أي: خلوا سبيلهن «**سَرَاحًا جَمِيلاً**» بالمعروف وهو أن يعطيها ما وجب لها، وقيل: طلقوهن طلاقًا جميلاً أي: للسُّنَّةِ من غير ظلم عليهن، عن أبي علي. وقيل: من غير مطالبة بالعدة والمضارة، عن أبي مسلم. «**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ**» والإيتاء قد يكون بالالتزام «**وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ**» أي: أحللنا ما ملكت يمينك وهو على وجهين: التسري وأن[1] يعتقهن ويتزوجهن، فهذه ثلاثة أوجه: الأول: كحفصة وعائشة وسائر أزواجه، والثاني: كمارية، والثالث: كصفية بنت حيي وجويرية بنت الحارث أعتقهما وتزوج بهما، وقيل: يدخل فيه المؤمنة والكتابية. وقيل: يجوز أن يتسرى بالكتابية ولا يجوز أن يتزوج، وقيل: لا يجوز نكاحها ولا وطؤها بملك اليمين، وإنما يجوز الوجهان في المؤمنة «**وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ**» وهم أولاد عبد المطلب «**وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ**» أولادهم من بني زهرة، وليس الإباحة مقصورة عليهم؛ بل هو عام في جميع المؤمنين «**اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ**» فشرط في الإباحة الهجرة فلا تحل مع عدم الهجرة لتباين الدارين «**وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ**» اختلفوا في هذه المرأة الموهوبة نفسها من النبي ﷺ هل كانت عنده أم لا؟ فقيل: لم تكن عنده امرأة وهبت نفسها، عن ابن عباس بخلاف، ومجاهد. وقيل: زوجها رجل من الأنصار، عن سهل بن سعد. وقيل: بل كانت عنده موهوبة، عن جماعة من المفسرين. ثم اختلفوا مَنْ هي؟ فقيل: ميمونة بنت الحارث، عن قتادة. وقيل: زينب بنت خزيمة أمّ المساكين امرأة من الأنصار، عن الشعبي. وقيل: أمّ شريك بنت جابر من بني أسد، عن علي بن الحسين، والضحاك، ومقاتل. وقيل: خولة بنت حكيم، عن عروة بن الزبير. وقيل: زينب بنت جحش «**إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنكِحَهَا**» يتزوجها «**خَالِصَةً لَكَ**» قيل: النكاح بغير مهر، وقيل: بلفظ الهبة، والأول أوجه إذ لا [مشاحّة] في الألفاظ، وقيل: بلا ولي وشاهدي عدل إباحة الموهوبة «**خَالِصَةً لَكَ مِنْ**

(١) أو أن: وأن، ت، ن.

دُونِ الْمُؤْمِنِينَ» أي: لا يجوز لهم ذلك «قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ» على المؤمنين «فِي أَزْوَاجِهِمْ» قيل: أراد العدد، فإذا تزوج أربعًا لا يتجاوزها، عن مجاهد. وقيل: هو أن لا نكاح إلا بولي وشاهدي عدل، عن قتادة. وقيل: المهر والعدد، عن أبي علي. «وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ» يعني: الإماء «لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ» ضيق وإثم، يعني: بَيَّنَّا تحليل النكاح والإماء ليرتفع الحرج، وقيل: هو ما أباح من نكاح أربع وما يشاء من السراري، عن أبي مسلم. وقيل: هو يرجع إلى قوله: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾، «لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ»، وقيل: يتصل بما قبله أي: علمنا ما أبحنا للمؤمنين وبما خصصناك به ليروح الحرج عنك، فلا يظن ظان أن شيئًا من ذلك كان سهوًا وغفلة «وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا» لذنوب التائبين «رَحِيمًا» بعباده يبين لهم التحليل والتحريم.

۞ الأحكام

في هذه الآيات أحكام شرعية:

أما قوله: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ﴾ الآية، فيدل على أشياء:

منها: أن المطلقة قبل المسيس لا عدة عليها، وأنها تحل للأزواج؛ لأن المانع بعد الطلاق العدة.

ومنها: أن المطلقة بعد المسيس عليها العدة؛ إذ لو لم يلزم لم يكن لهذا الشرط فائدة.

ومنها: أن التخصيص للنبي بالذكر لا يدل على نفي ما عداه؛ لأنه تعالى ذكر المؤمنة ثم الكتابية مثلها.

ومنها: أن الطلاق إلى الزوج؛ لذلك أضاف إليه من غير اعتبار من جهتها.

وتدل على أن العدة حق له وإن كان مشوبًا بحق الله تعالى، فحق الله أنه تَعَبَّدَهَا به، وحق الزوج صيانة مائه وحفظ النسب، وإذا كانت محبوسة بحقه يجب عليه النفقة والسكنى، واستدل أصحاب الشافعي بالآية أن الخلوة لا توجب العدة، وليس بصحيح؛ لأن ظاهر الآية أنه إذا خلا بها ومسها ولم يجامعها تجب العدة، وعندهم لا تجب.

فأما قوله تعالى: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ﴾ يدل على وجوب المتعة في المطلقة قبل المسيس، ولا خلاف أن المطلقة قبل المسيس والفرض تجب لها المتعة، واختلفوا في غيرها، فعند أبي حنيفة لا تجب، والمطلقة بعد المسيس الفرض يجب لها مهر المثل، وبعد الفرض والمسيس لها المهر، وبعد الفرض قبل المسيس يجب نصف المفروض، وعند الشافعي يجب لكل مطلقة، والذي يدل على صحة مذهب أبي حنيفة آية سورة البقرة.

واستدلت الشافعية[1] بقوله: ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ﴾ أن هذه اللفظة صريح في الطلاق، وعند أبي (حنيفة) كناية، والظاهر يقتضي الأمر بالتسريح الجميل، وذلك يكون بالفعل لا بالقول، ولأن القرآن ورد بالصريح والكناية.

واستدلوا أيضًا بالآية على أن عقد الطلاق قبل النكاح لا يصح على ما يقوله أبو حنيفة، حيث رتب الطلاق على النكاح، وهذا لا يصح؛ لأن الظاهر أن من ينكح ويطلق قبل المسيس حكمه كذا، ولا يدل على خلافه فهو موقوف على الدلالة، على أنا لا نثبت طلاقًا قبل النكاح، وإنما نثبت العقد، ثم يقع الطلاق عقيب النكاح، ولأن العاقد للطلاق لا يسمى مطلِّقًا، ولأنا نقول: المعلق للطلاق بالشرط كالموقع عليه الشرط.

فأما قوله: ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ﴾ يدل على أنه مباح له النساء من غير اعتبار عدد، وقيل: إنه اختص بقوله: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾، وقيل: لم يحرم، وسنبين ذلك.

ومتى قيل: الإفراط في النكاح يؤدي إلى الضر؟

قلنا: لا، وإنما تكون المصلحة في ذلك وإن لم نعلم نحن تفاصيل المصلحة، فإن المصلحة لنا في أربع، وله المجاوزة.

ومتى قيل: فأي وجه قِبَلَ ذلك؟

---

(١) الشافعية: الشفعوية؛ ن.

قلنا: ليس علينا بيان وجوه المصالح؛ لأن الله تعالى هو الذي يعلم تفاصيل ذلك. وقيل: المصلحة فيه كي يكثر دخولهن في الإسلام من غير حشمة. وقيل: ليقع العلم بخبرهن. وقيل: ليكن معلمات للنساء في الدين، وقيل: ليس أحد يبني[1] للشر من النساء، وليست حالة أدعى لهن إلى ذلك من حاله مخالفة المضرات.

فأمر[2] بتزوج النساء ليعلم أن أمره وحي وإلهي، وليس من جهته، ولو كان من جهته لأفشين ذلك؛ لأن كل محتال يختار الخلوة والإفراد لما يحتاله، ولا يظهر خصوصًا للنساء كما فعل زردشت وغيره.

ويدل قوله: ﴿ٱلَّتِي هَاجَرْنَ﴾ أن الهجرة كانت شرطًا في الإباحة، وقيل: إنما هو للحث على الهجرة، وقيل: كانت شرطًا في الجواب، ثم وردت الإباحة من بعد. وعن أم هانئ: خطبني رسول الله ﷺ فاعتذرت، ثم نزلت الآية، فلم أحل له؛ لأني لم أهاجر معه.

ويدل قوله: ﴿إِن وَهَبَتْ﴾ أن النكاح بلفظ الهبة جائز، واختلفوا في نكاح النبي ﷺ بلفظ الهبة، فقال أبو حنيفة: ينعقد، ولـ الشافعي وجهان، فأما نكاح غيره فعند أبي حنيفة يجوز، وعند الشافعي لا يجوز، وعلى هذا الخلاف لفظ التمليك، ولفظ البيع.

ومتى قيل: إن قوله: ﴿أَحْلَلْنَا لَكَ﴾ منسوخ بقوله: ﴿لَّا يَحِلُّ﴾ ؟

قلنا: غلط؛ لأنه لا تنافي بين الآيتين، ولأنه يتصل به والقصة واحدة، فكيف يصح دعوى النسخ؟

وتدل على أن استباحة المباحات لا تؤثر في الزهد، وأن ترك المباحات ليس من الزهد، وإنما يتعلق بترك الحرام والمعاصي.

---

(١) الكلمة غير واضحة. وربما كان معنى الجملة: ليس أحد [أميل] للشر من النساء.

(٢) فأمر: فأمى؛ ن، ت.

قوله تعالى:

﴿۞ تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ وَلَا يَحۡزَنَّ وَيَرۡضَيۡنَ بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٍ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾

القراءة

قرأ نافع وأبو جعفر وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم: «تُرْجِي» بغير همز، الباقون بالهمز، والمعنى واحد، يقال: أَرْجَيْتُ الأمر وأرجأته: إذا أخرته، والإرجاء: التأخير، وهو تبعيد وقت الشيء عن وقت غيره، ومنه: الإرجاء؛ لأنه تأخير الحكم في وعيد الفساق إلى أن يظهر، وعلى هذا الخلاف في سورة التوبة: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ﴾ [التوبة: ١٠٦]. وروى الأعشى عن أبي بكر عن عاصم الفرق بين الموضعين فهمز مرجؤون ولم يهمز: ترجي(١)، وسائر الروايات عن أبي بكر الهمز في الموضعين.

(١) ترجي: كلهن، ت، ن.

قرأ أبو عمرو ويعقوب: «**لا تحل لك النساء**» بالتاء، الباقون بالياء، وإذا تقدم الفعل على الجمع جاز فيه التذكير والتأنيث.

۞ اللغة

الإيواء: ضم غيره، آويت الإنسان آويه إيواء، وأوى فهو يَأْوِي أَوياً: إذا انضم إلى ما عداه.

والابتغاء: الطلب.

والعزل: التنحي عن الشيء، تقول: هو عن هذا الأمر بمعزل، واعتزلت البيت وتعزلته، قال الأحوص:

يَـا بَـيْـتَ عَـاتِـكَـةَ الـذي[1] أَتَـعَـزَّلُ

والمِعْزَالُ: الذي يعتزل أهل الميسر، ومنه: ﴿وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ [هود: ٤٢] أي: في جانب من دين أبيه.

والرقيب: الحفيظ.

الإِنَى مقصور بكسر الهمزة: إدراك الشيء وبلوغ وقته ونضجه، فإذا فتحت مددت آناء، وآناء الليل والنهار: أوقاتهما، واحدها: إِنًى، وقيل: فيه لغتان: إِنًى بكسر الهمزة نحو: مِعًى وأمعاء، وإِنْي مثل: نِحْيٍ وأنحاء، وأَنْي مثل: قَرْءٍ وأقراء.

والأنس: نقيض الوحشة.

۞ الإعراب

﴿كُلُّهُنَّ﴾ بالرفع على تأكيد الضمير في (يَرْضَيْنَ) لا يجوز غير ذلك.

﴿غَيْرَ نَظِرِينَ﴾ نصب على الحال، وعند البصريين: جرّ (غير) صفة للطعام؛ لأن

---

(١) الذي: التي، ن، البيت قائله الأحوص الأنصاري وتكملته:

يـا بـيـت عـاتـكـة الـذي أتـعـزل   حـذر الـعـدى وبـه الـفـؤاد مـوكّـلُ

وفي رواية الصحاح: وبك الفؤاد موكلُ

انظر: الصحاح لسان (عزل)؛ تاج العروس (عزل).

الصفة إذا جرَّت على غير من هو له لم يصح الضمير، وقال الزجاج: لو جر (غير) لقيل: إلى طعام غير ناظرين إناه أنتم، لا يجوز غير ذلك.

﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ جر عطفًا على قوله: ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ﴾ وغير مستأنسين.

۞ النزول

أما قوله: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ﴾ الآية:

قيل: طلبت بعض أمهات المؤمنين زيادة النفقة، فهجر رسول الله ﷺ إياهن شهرًا، فنزلت آية التخيير، وأمره بأن يخلي سبيل من اختارت الدنيا، ويمسك مَنْ تختار الله ورسوله على أن يهجر من يشاء ويضم إليه من يشاء، ويقسم لمن يشاء، ولا يقسم لمن يشاء، ويفضل في النفقة والقسمة من يشاء ليكون الأمر إليه، فرضين بذلك واخترنه على هذا الشرط، فكان رسول الله ﷺ مع هذا الشرط يسوي بينهن إلا سودة أراد طلاقها فرضيت بترك القسم، وجعلت نصيبها لعائشة، عن ابن زيد. ففيها[1] نزلت هذه الآية.

وقيل: لما نزلت آية التخيير أشفقن أن يطلقن، فقلن: يا نبي الله اجعل لنا من مالك ونفسك ما شئت ودعنا على حالنا، فنزلت الآية، عن أبي رزين.

وقيل: إن عائشة عيرت الموهوبة نفسها، فنزلت هذه الآية، عن عروة عن عائشة.

فأما قوله: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ﴾.

قيل: كان التبدل في الجاهلية أن يقول الرجل: بادلني امرأتك وأبادلك امرأتي، تنزل لي عن[2] امرأتك، وأنزل لك عن امرأتي، فأنزل الله تعالى هذه الآية، عن أبي هريرة.

وقيل: بل أراد أن يطلقها ويتزوج غيرها.

فأما قوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ﴾:

قيل: نزلت في وليمة زينب بنت جحش لما بنى بها رسول الله ﷺ، فلما أطعم

---

(١) ففيهما: ففيه، ت، ن.

(٢) عن: أن؛ ت، ن.

الناس خرجوا وبقي[1] ثلاثة نفر يتحدثون فأطالوا المكث، واستحيا أن يأمرهم بالخروج، فخرج إلى حُجَرِ نسائه وعاد، ثم خرجوا، فنزلت الآية، عن أنس وجماعة المفسرين.

وقيل: كان هذا في بيت أم سلمة دخلت عليها جماعة وأكلوا، وأطالوا الجلوس والحديث، فتأذى منهم رسول الله ﷺ، واستحيا أن يأمرهم بالخروج، فنزلت الآية، عن قتادة، ومقاتل.

وقيل: نزلت في ناس كانوا يدخلون على رسول الله ﷺ قبل الطعام، ويجلسون حتى يدرك، فتأذى بهم، فنزلت الآية.

وقيل: كان الفقراء ينتظرون فضل طعامه فيدخلون بغير إذن.

فأما آية الحجاب فروت عائشة أن عمر قال للنبي ﷺ: أحجب نساءك، فنزلت آية الحجاب.

ويروى أن عمر مر بالمسجد وفيه نساء، فقال لهن: احتجبن، فنزلت آية الحجاب، وروي غير هذا، فروي أن النبي ﷺ كان يطعم ومعه بعض أصحابه فأصابت يد رجل يد بعض نسائه فكره ذلك، فنزلت آية الحجاب، عن مجاهد.

وأما قوله: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ﴾، قيل: نزلت في رجل قال: لئن قبض رسول الله لأنكحن عائشة.

وأما قوله: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ﴾ قال ابن عباس: لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب: ونحن أيضًا نكلمهم من وراء حجاب؟ فأنزل الله تعالى ﴿لَّا جُنَاحَ﴾، وهذا محمول على أنه أنزل معه؛ لأن تأخير البيان لا يجوز، فلما تلا الأولى قالوا ذلك، فتلا الثانية.

المعنى

ثم ذكر تعالى من أحكام النساء وشرائعهن، فقال: «**تُرْجِي**» أي: تؤخر «**مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ**[2]» أي: من أزواجه «**وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ**» أي: تضم إليك من تشاء، واختلفوا في معناه، قيل: لك أن تقدم من تشاء للإيواء إليك من نسائك، وهو الدعاء إلى

(١) وبقي: وبقيت، ت، ن.

(٢) من تشاء منهن: منهن من تشاء، ن.

الفراش، وتؤخر من تشاء منهن، فلك أن تعزل من تشاء عن القَسْم فلا تدخلها في القسم، وتدخل من تشاء، وكان النبي ﷺ يقسم بين أزواجه، فأحل الله له ترك ذلك، عن قتادة. وقيل: «تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ» أي: من نسائك من أمتك تذكر المرأة للتزويج، ثم ترجئها، فلا تتزوجها إن شئت، وتتزوجها إن شئت، عن الحسن. وقيل: لما نزلت آية التخيير وخيرهن على شرط من اختارته[1] فالأمر إليه، وترجي من تشاء وتقسم لمن تشاء فرضين به، وكذلك في النفقة إن شاء سوى وإن شاء فَضَّلَ يفعل ما يشاء فرضين بذلك، عن ابن زيد. وروي أن النبي ﷺ كان يسوي بعد ذلك ويقول: «الله عدل يحب العدل، فأنا أعدل في القسم فيما أملك وربي أعلم بما في قلبي»، وقيل: له أن يعزل من يشاء من غير طلاق، ويرد المعزولة إذا شاء من غير تجديد عقد إذا دعته نفسه، عن مجاهد، وأبي علي، وأبي مسلم. وقيل: يطلق من يشاء ويمسك من يشاء، عن ابن عباس. وقيل: تقبل من تشاء من الموهوبات أنفسهن منك وتترك من تشاء منهن فلا تقبلها «وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ» يعني: طلبت إصابتها ممن كنت عزلت عنها من نسائك فأصبتها بعد العزل «فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ» أي: لا حرج ولا ضيق، فأباح له ترك القسم فيهن حتى يؤخر من يشاء عن وقت نوبتها، ويطأ من يشاء في غير وقت نوبتها، وله أن يعزل واحدة وله أن يرد المعزولة، فضله الله تعالى بذلك على جميع الخلق «ذَلِكَ» يعني ما تقدم «أَدْنَى» أقرب «أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ» أي: أطيب لنفوسهن وأقل لحزنهن «وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ» من التسوية أو التفضيل، فقيل: إذا علمن أن لك الرخصة من الله وبأمره طابت أنفسهن، وقرت أعينهن، ورضين به ولا يحزن، عن قتادة. وقرة العين عبارة عن السرور، وقيل: ذلك التأخير من غير طلاق أقرب[2] إلى أن تقر أعينهن؛ لأنهن إذا لم يخفن الطلاق قرت أعينهن بما يجري من التقديم والتأخير ويرضين بجميع ما فعله النبي ﷺ من التسوية والتفضيل، عن ابن عباس. وقيل: ذلك أدنى إذا عرفن أنك إذا عزلت واحدة كان لك أن تؤويها بعد ذلك، ولا تقطع عنها بواحدة، فهي أدنى وأقرب إلى سرورهن وقرة أعينهن، عن أبي علي.

(١) اختارته: اختاره، ن.

(٢) أقرب: وأقرب، ن.

وقيل: إذا لم يكن لواحدة نصيب معلوم في القسم وكن في حكم الزوجية سواء لا تفاضل بينهن؛ كان ذلك أقرب إلى أن تقر أعينهن. وقيل: إذا علمن أن ميله إلى بعضهن أكثر ثم يعزل ويترك المعزولة مع ميله إلى غيرها قرت أعينهن إذا علمت أن حالها كحال غيرها معه، وقيل: نزول الرخصة للنبي ﷺ أقرب إلى أن يرضين بكل ما يعاملهن «**وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ**» قيل: معناه في قلب الرسول وفي قلوبهن من العدل والإنصاف والرضا بالحكم وبأمر الله من الجانبين. وقيل: الله أعلم بما في قلوب الرجال من الميل إلى النساء، فجعل إليه الإرجاء والإيواء. «**وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ**» من مصالح عباده «**عَلِيمًا**» فيتجاوز عنهم فلا يعجل العقوبة فهو حليم «**لاَ يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ**» أي: من بعد التسع اللاتي كن عنده واخترنه، عن ابن عباس، والحسن، وقتادة، وأبي علي. لما اخترن الله ورسوله جازاهن[1] بذلك أن يقتصر عليهن، ولا يستبدل بهن كما قَصَرْنَ أنفسهن عليه؛ لأنهن تركن زينة الدنيا لأجله فوجب أن يدع هو ما يعجبه لأجلهن، وقيل: لا، بل حرم عليه ما عدا اللواتي ذكرن بالتحليل في قوله: ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ﴾ الآية، عن أبي بن كعب، وعكرمة، والضحاك. وقيل: لا تحل النساء من غير المسلمات كاليهوديات والنصرانيات، فحرم عليه ذلك؛ لأنه لا ينبغي أن يكن أمهات المؤمنين، عن مجاهد، وسعيد بن جبير. وقيل: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ﴾ يعني: الإماء بالنكاح، عن أبي رزين. «**وَلاَ أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ**» قيل: بالتسع اللائي اخترنه، عن ابن عباس، والحسن، وأبي علي. وقيل: لا أن تبدل بالمسلمات غيرهن من اليهود والنصارى، عن مجاهد. وقيل: ولا أن تبدل ما لم يحل بما أحل لك مما تقدم تحليله. وقيل: ولا أن تبدل بهن من أزواجك اللاتي هن في حبايلك بأن تطلقهن وتنكح غيرهن، عن الضحاك. فحرم عليه طلاقهن لإنكاح غيرهن، واختلفوا فيما حرم، فقيل: مما فات حتى أحل له النساء، عن عائشة. وقيل: على هذا التحريم مضى رسول الله ﷺ. وقيل: كانت العرب تتبادل بأزواجها فنهى الله عن ذلك، عن ابن زيد. «**وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ**» وقيل: من غير التسع، وقيل: من غير

(١) جزاهن: جازاهن؛ ن.

ما أحل لك، وقيل: من غير المسلمات، وقيل: من الإماء بأن تتزوجها «**إِلاَّ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ**» قيل: من السبايا والمماليك وإن كن غير مسلمات، فأباح التسري من غير شرط عدد ولا إسلام «**وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا**» أي: حافظًا، عن الحسن. «**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ**» بغير إذن «**إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ**» فيباح دخوله عند الإذن «**إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ**» يعني: إذا دعيتم إلى طعام نضج وأدرك فادخلوا، ولا تدخلوا قبل نضجه منتظرين نضجه «**وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا**» تفرقوا من منزله «**وَلاَ مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ**» أي: لا تطلبوا الأنس بالحديث؛ لأنه مع ضيق البيت يكون تضييقًا عليه وعلى أزواجه.

ومتى قيل: أي حديث هذا؟

قلنا: الحديث مباح فيما يعنيهم(١)؛ لأنه لو قبح لنهوا عنه ولو وجب فاحتيج إليه لوجب الاستماع، ولو ندب إليه لما جاز النهي عنه.

«**إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ**» أي: من إخراجكم من منزله، وقيل: منعوا من الكلام لأجل طول الجلوس «**وَاللَّهُ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ**» أي: لا يترك الحق أن يبينه لكم، وقيل: الحق ليس مما يُسْتَحْيا منه، قيل: هذا أدب أدّب الله به، وقيل: بأن الحال ربما لا تفي بتجديد الطعام لضيق اليد، ويستحي منكم، ويثقل عليه انتظارهم للطعام، لما أمر الله تعالى نبيه أن يصبر مع المؤمنين ويحسن معاشرتهم أدبهم بحسن الإذن لئلا يثقلوا على قلبه.

ومتى قيل: أليس كان على خلق عظيم؟

قلنا: لهذا لم يواجههم بمكروه واحتمال ما لا فائدة فيه ليس من الخلق في شيء فلا مطعن للملحدة عليه.

«**وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا**» أي: شيئًا ينتفع به «**فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ**» أي: من خلف ستر «**ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ**» من التهمة والريبة ووسوسة الشيطان «**وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ**» أي: مَنْ عَظَّمَ الله قدره واجتباه لرسالته فليس لأحد أن يؤذيه، فحرم أذاهم.

---

(١) يعنيهم: لا يعنيهم، ت، ن.

ثم حرم نكاح نسائه؛ لأن ذلك مما يؤذيه أيضًا، فقال سبحانه: «**وَلاَ أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا**» أي: إثما عظيمًا؛ لأن من لم يعتقد ذلك كَفَرَ، ومن فعل مع هذا البيان مستخفًا بالنبي كفر «**إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا**» يعني: يعلم ما يضمر كل أحد و«كَانَ» إشارة إلى أنه عالم لم يزل بجميع الأشياء.

ثم استثنى الأقارب، فقال سبحانه: «**لاَ جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلاَ أَبْنَائِهِنَّ وَلاَ إِخْوَانِهِنَّ وَلاَ أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلاَ أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ**» أي: لا حرج في ترك الحجاب بين النساء وبين هؤلاء، عن قتادة. وقيل: في أن يضعن الجلباب، عن مجاهد.

ومتى قيل: لِمَ لَمْ يذكر العم والخال؟

قلنا: لأجل أولادهم، عن عكرمة، والشعبي. وقيل: لأن العم كالأب والخال كالأم، وقيل: لأن في الآية تنبيهًا عليهما، وهو المنع عن النكاح.

«**وَلاَ نِسَائِهِنَّ**» قيل: نساء دينهن، وقيل: جميع النساء الحرائر والإماء، وقيل: نساء قراباتهن وجيرانهن.

«**وَلاَ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ**» قيل: من العبيد والإماء الذين يقومون بخدمتهن، عن أبي علي. وقيل: من النساء خاصة، وقيل: الذكور والإناث في حال الصغر «**وَاتَّقِينَ اللَّهَ**» قيل: خطاب لأزواجه أن يتقين خلاف ما أمر فيما تقدم، وقيل: عام في جميع النساء وجميع المحرمات «**إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا**» أي: يشهد جميع أفعالكم فلا يخفى عليه شيء، وقيل: يشهد بها يوم القيامة.

۞ الأحكام

يدل قوله: ﴿تُرْجِى﴾ و﴿تُئْوِىٓ﴾ على اختيار له في التقديم والتأخير، وقد بَيَّنَّا ما قيل، والأقرب أن الإرجاء في أنه أراد رفع الحرج في القسم وأن له أن يعزل من يشاء؛ لأن قوله: ﴿مِنْهُنَّ﴾ كناية عن نسائه لأنه جرى ذكرهن، والإرجاء في الإيواء والعزل أقرب من النكاح أو الطلاق، وروي أن من أرجى منهن خمس: سودة، وصفية، وجويرية، وميمونة، وأم حبيبة، فكان يقسم لهن كما بينا، وكان ممن آوى أربعًا: عائشة، وحفصة، وأم سلمة، وزينب، كان يقسم بينهن على السواء.

وقيل: قوله: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ﴾ أنه لا يحل بعد التسع إلا في الكتابية والإماء، ثم هل بقي التحريم، بيَّنَّا ما قيل فيه.

وتدل أن له التسري معهن من غير اعتبار عدد.

ويدل قوله: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ﴾ أن الاستئذان شرط، وهذا اللفظ وإن كان للنبي ﷺ فَأُمَّتُهُ بمنزلته، وتتضمن الآية مرادات النفس في الدخول والأكل واللبث والحديث في مجالس الأئمة والكبراء ما لا مزيد عليه.

وتدل على وجوب الحجابة بين الرجال والنساء.

ويدل قوله: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ على تحريم نكاح نسائه من بعده، ولم يفصل بين زوجة وزوجة دخل بها أو لم يدخل فهي محرم.

وما روي أنه تزوج بنت الأشعث، ومات ولم يدخل بها، فتزوجها عكرمة؛ غير صحيح؛ لأن المشهور أنه لما توفي خلف التسع فقط، ويروى أنه قيل لأبي بكر فشق عليه، فقال عمر: إنها ليست من نسائه، فتذكر[1] أبو بكر، فهذا يدل على أنه لم يتزوج بها، ولعله خطبها، ولم يعقد.

وما روي عن الزهري أنه ﷺ طلق عالية بنت ظبيان، فتزوجت بزوج، إن صح حمل على أنه كان قبل التحريم.

وتدل على عظم ذنب من تزوج بهن، ولعله يبلغ حد الكفر؛ لما فيه من الاستخفاف بالرسول؛ ولذلك قرنه بما هو كفر لا محالة.

وتدل الآية على إباحة نظر ذوي المحارم إلى المرأة على ما بيَّنَّا.

وتدل أن الإيذاء والإيواء فعل العبد.

(١) إنها ليست من نسائه، فتذكر: إنه ليس من نسائه فنكر، ت، ن.

قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ
يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا
يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٩﴾ ۞لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ
وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٦٠﴾﴾

القراءة

قراءة العامة: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ﴾ بالنصب عطفًا على اسم الله تعالى، وعن ابن عباس بالرفع وعطفًا على محل قوله: ﴿ٱللَّهَ﴾ قبل دخول (إن) عليه، ونظيره قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ [المائدة: ٦٩]، و﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ بالرفع والنصب.

اللغة

الصلاة: اسم للدعاء، وفي الشرع: عبارة عن أفعال مخصوصة وأذكار، ثم تختلف فهي[١] من الله الرحمة والثناء، ومن الملائكة الدعاء والاستغفار، ومن النبي الشفاعة، ومن الأمة طلب التعليم بالدعاء.

والتسليم: الدعاء بالسلامة.

والإيذاء: ما يتأذى به الإنسان فيما ناله من مكروه، آذاه يؤذيه إيذاءً.

واللعن: الإبعاد من الخير.

والهوان: الذل، وسمي العذاب مهينًا؛ لأنه تعالى يهين به الكفار.

والجلباب: خمار المرأة الذي[٢] يغطي رأسها ووجهها، والجمع: جلابيب.

(١) تختلف فهي: يختلف فهو، ت، ن.

(٢) الذي: التي، ن.

والإرجاف: إشاعة الباطل، وأصلُ الرجف: الاضطرابُ، ومنه: ﴿تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ [النازعات: ٦]، يقال: رجفت الأرض، والبحر رجَاف لاضطرابه، وأرجف الناس بالشيء: إذا خاضوا واضطربوا فيه.

والإغراء: التحريض على الشيء، أغراه يُغْرِيهِ إغراءً.

۞ الإعراب

قيل: ﴿يُصَلُّونَ﴾ فيه إضمار عن اسم الله وملائكته، وقيل: بل هو إضمار عن الملائكة دون اسم الله، وإن كان الله يصلي عليه؛ لأنه لا يجوز أن يجمع بينه وبين غيره؛ بل يفرد بالذكر للتعظيم، عن أبي علي. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قيل بين يديه: من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما[1] فقد غوى، فنهاه رسول الله ﷺ فقال: «قل: ومن يعص الله ورسوله».

۞ النزول

قيل: نزل قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في علي بن أبي طالب، كان ناس من المنافقين يؤذونه، عن مقاتل.

وقيل: بل نزل في شأن عائشة ومن رماها بالإفك[2].

وقيل: نزلت في الزناة الذين يمشون في طرق المدينة يبتغون النساء إذا برزن ليلاً، وكانوا يطلبون الإماء، عن الضحاك، والسدي، والكلبي.

وقيل: بل هو عام في كل من رمى مسلمًا بغير ما فيه، عن مجاهد.

وقيل: نزل قوله: ﴿يُؤْذُونَ ٱللَّهَ﴾ في تزويج صفية بنت حيي.

وقيل: المنافقين كانوا يتعرضون للنساء المؤمنات؛ لأنهن لم يتميزن عن الكافرات، فأمر الله تعالى بالستر بالجلابيب.

---

(١) يعصهما: يعصيهما؛ ت، ن.

(٢) بالإفك: بالغر؛ ت، ن.

۞ المعنى

ثم أمر تعالى بترك إيذاء النبي ﷺ والمؤمنين تعظيمًا له وتفخيمًا لشأنه عطفًا على ما تقدم من الأمر بإعظامه، فقال سبحانه: «**إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ**» قيل: يثنون عليه بأحسن الثناء ويعظمونه بالوصف الجميل، وقيل: الله يوجب الرحمة والتعظيم، والملائكة يدعون له بذلك، وقيل: يُبَرِّكُون، عن ابن عباس. «**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ**» ادعوا الله بالتعظيم «**وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**» حيوا تحية الإسلام. وقيل لرسول الله ﷺ: كيف الصلاة عليك يا نبي الله؟ فقال: «قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم»، عن ابن عباس. وعن ابن مسعود: إذا صليتم على النبي فأحسنوا الصلاة، فلعل ذلك يعرض عليه، قيل: له عَلِّمْنَا ذلك، فقال: قولوا: اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين وإمام المتقين وخاتم النبيين محمد عبدك ورسولك، إمام الخير ورسول الرحمة، اللهم ابعثه مقامًا محمودًا يغبطه به الأولون والآخرون، اللهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد. «**إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ**» قيل: يؤذون أولياءه، فأضافه إلى نفسه تفخيمًا، عن أبي علي. وليس بالأوجه؛ لأنه ذكر المؤمنين بعدها، وقيل: أضاف الأذى إلى نفسه تعظيمًا لأذى الرسول ﷺ، عن أبي مسلم. وقيل: يؤذونه بمعصيتهم ومخالفتهم، عن قتادة. والمعنى أنهم يَحِلُّون مَحِلَّ مَنْ يؤذي؛ لكثرة مخالفتهم وإن كان الأذى لا يجوز عليه، ولكن لما كره فعلهم حل محل الإيذاء، ولو جاز عليه الإيذاء لكان يؤذيه، فإذا وصفه المشبهة والمجبرة وغيرهم بما لا يليق عليه من عبده من قول أو فعل فهو يؤذيه، فإذا وصفه وخالفوا أمره وردوا رسوله كان كأنهم آذوه تشبيهًا وتمثيلاً، وهذا الوجه أحسن؛ ما قيل فيه، وقيل: هم المصورون الذين يصنعون التصاوير، عن عكرمة؛ وليس بالأوجه. وقيل: هم اليهود والنصارى والمشركون وصفوا الله بما لا يليق به، عن ابن عباس؛ وهو الأوجه، ويدخل فيه كل كافر ومبتدع. وقيل: يلحدون في أسمائه وصفاته، وهذا يقرب مما تقدم. «**وَرَسُولَهُ**» قيل: حين شُجَّ وجهه، وكسرت رباعيته، وقيل له: ساحر، وشاعر، ومعلم، ومجنون، عن ابن عباس. وقيل: نزلت في الذين

طعنوا عليه لما تزوج صفية، عن ابن عباس. وقيل: [بترك سنته][1] ومخالفة شريعته، وهو الوجه. «**لَعَنَهُمُ اللَّهُ**» أي: أبعدهم عن رحمته «**فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا**» يذلهم وهو نار جهنم «**وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا**» أي: من غير أن عملوا ما يوجب أذاهم «**فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا**» أي: كذبًا «**وَإِثْمًا مُبِينًا**» أي: ظاهرًا، والإثم: المعصية، وقيل: عقوبة المعصية، والمراد بالبهتان: جزاء البهتان وهو الكذب على غيره ويواجهه به «**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ**» وكان لرسول الله ﷺ تسعة أزواج: عائشة، وحفصة، وأم سلمة، وزينب، وصفية، وميمونة، وأمّ حبيبة اسمها رملة، وسودة، وجويرية، مات عنهن، وكان له أربع بنات: فاطمة، وزينب، ورقية، وأم كلثوم، زَوَّجَ زينب من أبي العاص بن الربيع، ورقية وأم كلثوم من عثمان واحدة بعد أخرى، وزوَّج فاطمة من علي، وكان خطبها جماعة فأبى «**وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ**» أي: يقربن «**عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ**» أي: يستترن به، قيل: الجلباب: خمار المرأة؛ وهي المِقْنَعَةُ تغطي جيبها ورأسها، عن ابن عباس، ومجاهد. وقيل: الجلباب الملحفة تدنيها على وجهها، عن الحسن. وقيل: هو الثياب: القميص والخمار وما تستر به المرأة، عن أبي مسلم، وأبي علي. وقيل: الجلباب: ما تستتر به المرأة من دون الخمار والثياب. فأمر الله تعالى نساء المؤمنين في البيوت بالحجاب وخارج البيوت بالجلباب ليتميزن عن[2] غيرهن «**ذَلِكَ أَدْنَى**» أقرب «**أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ**» قيل: يعرفن بالحرية فلا يؤذين، بخلاف الإماء. وقيل: يعرفن بالستر والصلاح، عن أبي علي. وقيل: يعرفن بأنهن من المؤمنات دون النساء الكافرات والمنافقات، عن أبي مسلم. أن يعرفن فلا يؤذيها فاسق أو منافق، [«**وَكَانَ اللَّهُ**»] إخبار عن عادته في الرحمة والمغفرة «**غَفُورًا**» للعاصي «**رَحِيمًا**» لمن أطاعه «**لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ**» أي: يمتنع «**الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ**» قيل: فُجُورٌ، وقيل: شك، عن أبي مسلم. وقيل: ضعف وقلة يقين، عن أبي علي. قيل: لما يرى من أحوال رسول الله ﷺ وظهور أمره «**وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ**» أي: يخبرون بالكذب والباطل، قيل:

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة ساقط في ت، ن. وما أثبتناه من هامش، ن.

(٢) عن: من، ن.

كان ناس إذا خرجت سرية أرجفوا بأنهم قُتِلوا وهزموا، ويقولون: أتاكم العدو، ونحو ذلك، وقيل: كانوا يحبون أن يفشوا الأخبار والفاحشة في الذين آمنوا؛ إذ في الكلام حذف، أي: ينتهوا عن أذى المؤمنين والإرجاف بما يشغل قلوبهم «**لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ**» قيل: لنسلطنك عليهم، عن ابن عباس. وقيل: لنأمرن بقتلهم وإجلائهم عن المدينة، وقيل: جعل الإغراء بهم بقوله: ﴿جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ [التوبة: ٧٣]، وقيل: لم يحصل الإغراء؛ لأنهم انتهوا، فالأول قول أبي مسلم، والثاني قول أبي علي، قال: ولو حصل الإغراء لقتلوا وشردوا وأخرجوا «**ثُمَّ لاَ يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا**» أي: في المدينة «**إِلاَّ قَلِيلاً**» حتى يُقْتَلُوا أو يخرجوا.

۞ الأحكام

تدل الآية الأولى على عظم محل النبي ﷺ، وتدل على وجوب الصلاة عليه، واختلفوا، فقيل: تجب في العمر مرة، ذكره الطحاوي. وقيل: بل تجب في كل صلاة، وهو قول (الشافعي)، وقيل: تجب في كل موضع ذُكِرَ، عن أبي مسلم. وقيل: لا تجب ويكفي الاعتراف بنبوته واعتقاد تعظيمه، ويندب إلى الصلاة عليه، فظاهر الآية يدل على الوجوب، وليس في الآية موضع الوجوب، فلا دليل للشافعية[1] فيها في وجوب الصلاة في التشهد.

ومتى قيل: ماذا نفعله[2] بالصلاة عليه؟

قلنا: نعتقد تعظيمه ونسأل الله له التعظيم في مقابلة عِظَمِ حقه بالهداية.

ومتى قيل: فما يحصل له بدعاء المؤمنين؟ وما يحصل لهم؟

قلنا: يحصل له زيادة نعمة وتعظيم، ويظهر تعظيم المؤمنين بإجابة دعائهم، وهذا كما نقول في شفاعة المؤمنين.

ومتى قيل: هل تجب الصلاة على آله؟

(١) للشافعية: الشفعوية؛ ن.

(٢) نفعله: يفضله، ن.

قلنا: ليس في الظاهر ما يدل عليه، وإن وجب بالسنة أو الإجماع إن حصل، ويقصد المؤمنين منهم دون الفساق.

ثم اختلفوا في الآل، قيل: مَنْ تبعه وقَبِلَ شريعته وعمل بها، وقيل: بل أقرباؤه المختصون به.

وتدل على عظم المعاصي، وأنه بمنزلة إيذاء الله، وعلى عظم إيذاء الرسول، والأقرب أن المراد بالإيذاء في الله تعالى هو وصفه بما لا يليق به نحو مقالات الكفار والمبتدعة.

وتدل على تحريم أذى المؤمنين، فيدخل فيه كل ما يؤذيه من غيبة وبهتان، وشتم وضرب، وظلم وشهادة زور.

وتدل على أن ذمهم بما اكتسبوه يحل وقد وردت السنة: «لا غيبة لفاسق، واذكروا الفاسق بما فيه».

ويدل قوله: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ﴾ على وجوب الستر.

وتدل على أنه لا يخلق الفاحشة، ولا يريدها؛ لأنه أمر بالستر ليكون أبعد عن الفاحشة، فكيف يخلقها ويريدها؟

وتدل على أن الأذى فعل العبد، ليس بخلق الله تعالى.

قوله تعالى:

﴿مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾

۞ القراءة

قرأ الحسن وابن عامر ويعقوب: «سَادَاتِنَا» بالألف على الجمع وكسر التاء، الباقون: «سَادَتَنَا» بغير ألف وفتح التاء على واحدة.

قرأ عاصم: ﴿كَبِيرًا﴾ بالباء، والباقون: «كثيرا» بالثاء من الكثرة.

قراءة العامة: ﴿تُقَلَّبُ﴾ بضم التاء وفتح اللام على الفعل المجهول. وروي عن أبي جعفر «تَقَلَّبُ» بفتح التاء واللام على معنى تتقلب، وقرأ عيسى بن عمر: «نُقَلِّبُ» بالنون مضمومة، «وُجُوهَهُمْ» نصبًا.

۞ اللغة

ثقفوا ووجدوا وصودفوا نظائر، ثَقِفْتُهُ أَثْقَفُهُ ثَقْفًا.

والسُّنَّةُ: الطريقة.

والتغيير والتبديل من النظائر.

والتقليب: تصريف الشيء في الجهات.

۞ الإعراب

﴿مَّلْعُونِينَ﴾ نصب على الحال، تقديره: لا يجاورونك إلا في حال اللعنة، عن الأخفش. وقيل: على الذم على تقدير: اذكرهم ملعونين، وقيل: نصب على الصفة (قليل)، كأنه قيل قليلاً ملعونين.

و﴿أَيْنَمَا﴾ نصب بـ ﴿ثُقِفُوٓاْ﴾.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ نصب على المصدر، تقديره: سَنَّ سنة، وقيل: تقديره: عليكم سنة الله على الإغراء.

وذكر ﴿قَرِيبًا﴾ وإن كان صفة للساعة، قيل: لأنه الوقت، وقيل: راعى المعنى دون اللفظ، وهو الوقت، وقيل: لأن تأنيثها ليس بحقيقي؛ إذ ليس من جنسها ذكر.

۞ المعنى

ثم عقب ذكر المنافقين بوعيدهم، فقال سبحانه: «مَلْعُونِينَ» أي: مطرودين على وجه

الإهانة «أَيْنَمَا ثُقِفُوا» وجدوا وظفر بهم «أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً» يعني: يكثر فيهم القتل، قال قتادة: أراد المنافقون إظهار ما في قلوبهم فأوعدهم الله بهذه الآية فكتموه. «سُنَّةَ اللَّهِ» طريقته وعادته «فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ» قيل: سنته في هؤلاء المنافقين كَسُنَّتِهِ في الكفار الذين كانوا في الأمم، عن أبي علي، وأبي مسلم. وقيل: سنة الله في الأمر بالستر، والمنع من الفواحش وإرادتها «وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً» أي: ما جعله سنة لا يغيره أحد، وقيل: نُقِرُّ بِهِ ولا يجوز عليه الخُلْفُ، وإنما سماها سُنَّةً؛ لأنه دام فعله كذلك، وقيل: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ﴾ أي: تصنع بهم كما تصنع بالمظهرين للكفر، وهو سنة الله، عن الحسن.

ومتى قيل: كيف يغري بهم؟

قلنا: يظهر ما أضمروه، فيصيرون حربًا بقتلهم وسبيهم.

«يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ» أي: القيامة ووقتها، وقيل: عن الساعة التي يخرج المؤمنون عن قبورهم [فيها]، عن أبي مسلم. وقيل: عن الساعة التي يموتون فيها ويفنى الخلق، عن أبي علي. «قُلْ» يا محمد: «إِنَّمَا عِلْمُهَا» أي: علم الساعة متى تكون «عِندَ اللَّهِ» أي: هو العالم به «وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا» قيل: لست تدري، وقيل: مَنْ يعرفك[1] إذا لم نعرفك، ثم خوف بقربها ليستعدوا لها «إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ» أي: بَعَّدَهُمْ من رحمته وأوجب لهم عقوبته، وقيل: أبعدهم من كل خير في الدنيا والآخرة فلا يُذْكرون في الدنيا بخير ولا ينالون في الآخرة خيرًا «وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا» أي: نارًا مسعرة، أي: موقدة «خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لاَ يَجِدُونَ وَلِيًّا» لهم يقوم بأمرهم فيما ينفعهم «وَلاَ نَصِيرًا» عونًا ينجيهم من عذاب ربهم «يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ» قيل: الملائكة تقلبها، وقيل: هم يقلبون وجوههم لغاية التضرع، وقيل: الله تعالى يقلب وجوههم، وكيف تقلب؟ قيل: تقلب في النار، وقيل: من البياض إلى السواد وغاية التشويه، وقيل: تقلب وجوههم إلى ظهورهم «يَقُولُونَ» على وجه الاعتذار والندم «يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا» وقيل: يصيرون إلى حال لا يمكنهم تقليب وجوههم فتقلب «وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا» يعني: قادة الكفر وأئمة الضلال «فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا» فاتبعناهم في ذلك.

---

(١) يعرفك: عرفك، ن.

ومتى قيل: فمن السادة والكبراء المضلون؟

قلنا: قيل: علماء السوء؛ لأنهم يعلمون العوام، وقيل: الرؤساء؛ لأنهم يطيعونهم فيضلون[1] باتباعهم وبما يكون للرهبة.

«وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا» لما كانت مواصلتهم في المعصية أو تزيينهم القطيعة والملاعنة.

الأحكام

يدل قوله: ﴿وَلَن تَجِدَ﴾ الآية، أن وعده ووعيده لا يجري فيها الخُلْفُ.

وتدل الآية أن وقت القيامة لا يعلمه غير الله تعالى، ولا بد من حمله على وقته؛ لأن كل من يقر بالصانع يعلم كونه، فالسؤال وقع عن وقته.

وتدل على أن أهل الضلال يتبرأ بعضهم من بعض، والمتبوع ممن اتبع، والتابع من المتبوع، وكذلك الرؤساء، وكل ذلك يدل على فساد التقليد وأن الواجب النظر.

وتدل على أن أهل النار لا تصح منهم توبة، ولا ينفعهم ندم؛ إذ لو صح لفعلوا مع هذا التمييز.

وتدل على أن عذاب الداعي إلى الضلال ضِعْفًا عذاب الضُّلَّال.

وتدل على أن الضلال فعلهم، وكذلك الإضلال، فيبطل قولهم في المخلوق.

قوله تعالى:
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ
وَجِيهٗا ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ
لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ﴿٧٢﴾
لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ
وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمَۢا ﴿٧٣﴾﴾

---

(١) يطيعونهم فيضلون: يطمعون ويقطع يضلون، ن.

۞ اللغة

الأذى: ما يؤذي غيره من فعل أو قول يكرهه، آذى يؤذي إيذاءً، والأذى: موج البحر؛ لأنه يتأذى به.

والبراءة: أن يَبْرَأَ من الشيء فلا يبقى عليه عهده، ومنه: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ [التوبة: ١] أي: هذه الآية، وبَرِئْتُ من المرض: خرجت منه، وأبرأته من الدين: برئ منه، وجمع بريء: بُرَآء على «فُعَلَاء»، ويجوز بَرَاء على «فَعَال»، ويجوز بِرَاء بكسر الباء مثل: طريف وطِراف، وخفيف وخِفاف.

والوجيه: الذي له جاه.

والسديد: البريء من خلل الفساد، والقول السديد: لا يشوبه كذب ولغو، ورجل سديد: بريء من كل عيب.

والأمانة: عقد يجب الوفاء به.

۞ الإعراب

﴿وَيَتُوبَ﴾ نصب على تقدير: لكي يتوب.

۞ المعنى

لما تقدم النهي عن إيذاء الرسول عقبه بذكر من آذى موسى ﵇ تسلية له، وعقب ذلك بالأمر بالقول السديد وأنه من صفات المؤمنين، فقال سبحانه: «**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى**» قيل: آذوه بعيب أضافوه إليه كذبًا، وروي في ذلك أنه كان شديد التستر، وكان بنو إسرائيل يَقِيلُونَ عُرَاةً فقالوا: ما يتستر هذا التستر إلا من عيب برص أو نحوه. «**فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا**» بأن أنزل براءته. وقيل: أشاعوا أن هارون قتله موسى فأحيا الله هارون حتى أخبرهم أن موسى لم يقتله، عن علي ﵇، وهو اختيار أبي علي. وقيل: استأجر قارون مومسة لتقذف موسى بنفسها على رؤوس الملأ فعصمه الله تعالى، فأقرت المرأة بكذبها وهلك قارون، عن أبي العالية. وقيل: آذوه من حيث نسبوه إلى السحر والجنون والكذب بعدما رأوا

الآيات كعادة الكفار مع الأنبياء، عن أبي مسلم. فأما ما ترويه الحشوية أنهم رموه بأنه آدَرُ، فوضع ثوبه على حجر ليغتسل، فَفَرَّ[١] الحجر حتى[٢] رآه بنو إسرائيل، فليس بصحيح؛ لأن فيه هتك الستر، وكشف العورة، وما يؤدي إلى التنفير، «**فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا**» أي: طهره وأظهر براءته «**وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا**» أي: عظيم القدر رفيع المنزلة «**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ**» أي: اتقوا ما نهاكم عنه، وقيل: اتقوا عذابه «**وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا**» أي: قصدًا حقًا، قيل: صوابًا، عن ابن عباس. وقيل: عدلاً، عن قتادة. وقيل: مستقيمًا، عن المؤرخ. وقيل: هو قول لا إله إلا الله، عن عكرمة. وقيل: قولوا في شأن زينب وزيد سديدًا، ولا تنسبوا إلى رسول الله ما لا يحمل ولا يليق به، عن مقاتل. وهذا يتصل بالنهي عن الإيذاء، وقيل: هو القول بالتوحيد والعدل والنبوات والشرائع، ولا قول أعدل وأحسن ثناء على الله تعالى من ذلك، ولا قول أقبح من الجبر والتشبيه «**يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ**» قيل: يقبلها منكم[٣] ويثيبكم عليها، وقيل: يجعلها صالحًا بأن يلطف لكم حتى تصلحوا الأعمال «**وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا**» أي: نال بُغْيَتَهُ وظفر بالحظ العظيم. «**إِنَّا عَرَضْنَا . . .**» الآية، معنى العرض في العبادات أنه بَيَّنَ الحسن والقبح، وكلف بالفعل والترك، فليس معنى العرض التخيير، واختلفوا في الأمانة، قيل: الطاعة لله، عن ابن عباس. وقيل: الفرائض وحدود الدين، عن مجاهد. وقيل: ما أمروا به ونهوا عنه، عن أبي العالية. وقيل: هو ما يخفى من الشرائع كالصوم والاغتسال ونحوه، عن ابن زيد. وجميع ذلك يتقارب. وقيل: هي أمانات الناس والوفاء بالعقود والعهود، عن ابن عباس، والضحاك. وقيل: ائتمان[٤] آدم ابنه قابيل على أهله، وقتله هابيل، عن السدي. وليس بشيء؛ لأن الآية عامة فلا معنى للتخصيص من غير دليل. وقيل: الأمانة القرآن؛ لأنه تعالى قال: ﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ﴾ [المائدة: ٤٤]، وسميت الأمانات عبادة؛ لأن العبد اؤتمن عليها بالتمكين منها ومن تركها. واختلفوا في معنى الآية، فقيل: «**إِنَّا**

(١) ففرَّ: فقد، ن.
(٢) حتَّى: حين، ن.
(٣) منكم: عنكم، ن.
(٤) في ن: اتيان، بدون نقاط. وما أثبتناه من مجمع البيان م٥/ ٢٢/ ١٧٣.

عَرَضْنَا الأَمَانَةَ» أي: العبادات والتكاليف لما في أدائها من الثواب وفي تضييعها من العقاب «**عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**» أي: أهل السموات والأرض «**وَالْجِبَالِ**» كقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] أي: أهل القرية، فأهل السماء: الملائكة، وأهل الأرض والجبال: الملائكة والإنس والجن «**فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا**» أي: امتنعوا عن أن يخونوا فيها، والمراد: يحملن تضييع الأمانة «**وَأَشْفَقْنَ [مِنْهَا]**» من ذلك «**وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ**» بالتضييع فتركها وخانها، عن أبي علي. وقال الأزهري: يقال: حمل الأمانة أي: خانها، وحَمْلُها: خيانتها، وكل من أثم في شيء فقد حمل الإثم فيه، وقيل: حملها أي: حمل المأثم فيها، كقوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣] أي: خطاياهم، وقيل: معنى (**عرضنا**): قابلنا ووازنا، فإن عرض الشيء على الشيء ومعارضته سواء، والمعارضة والموازنة والمقابلة سواء، والأمانة: جميع ما عهد الله إلى عباده من أمره ونهيه، وما بعث به الرسل وأنزل فيه الكتب وأخذ عليه الميثاق، فأخبر أن هذه الأمانة مع جلالة مرتبتها وعظم شأنها إذا قيست بالسموات والأرض والجبال [و] وزنت بها وعرضت عليها كانت هذه الأمانة أثقل وأرجح، ومعنى «**فَأَبَيْنَ**» ضَعُفْنَ، يقال: أبى أن يحمل أي: ضعف عن حمله «**وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا**»؛ لأن الشفقة ضعف، ولذلك يعبر به عن الخوف، فهذه الأمانة التي من صفتها أنها أعظم من السموات والأرض تقلدها الإنسان ثم لم يحفظها؛ بل خان فيها لجهله بموقع الثواب والعقاب، ومن عادته الظلم على نفسه، عن أبي مسلم. وقيل: هذا على التقدير والتمثيل أي: لو كانت السموات والأرض والجبال مع عظمها حية قادرة عالمة، ثم عرضت عليها هذه الأمانة بما فيها من الوعد والوعيد عَرْضَ تخيير خافت حملها؛ لما فيه من الوعيد، وحملها الإنسان ولم يَخَفْ الوعيد لجهله وظلمه، ونظيره: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، وأخرجه مخرج الواقع؛ لأنه أبلغ في التقرير، وعلى هذا يحمل ما روي عن ابن عباس أنها عرضت على السموات والأرض فأبت وأشفقت من حملها، فأما العرض على السموات والأرض فلا يصح؛ لأنها جماد، وقيل: إنه تعظيم الأمانة لا خطاب للجماد كقولهم: سألت الرَّبْعَ، وخاطبت الديار، وقالت الأطلال، ويقال: أتى فلان بكذب لا تحمله الجبال، فأما الحمل: فلا يصح أن يقال: إنه القبول؛ لأن القبول واجب، ومَنْ لا

يقبل يكفر، فيدل أن المراد به المخالفة «**إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً**» عادته الظلم وصفته الجهل «**لِيُعَذِّبَ اللَّهُ**» اختلفوا في هذه اللام، فقيل: لام (كي) أي: كلفهم ليقع العقاب موقعه والثواب موقعه، وقيل: لام العاقبة أي: عاقبة هؤلاء أن يعذبهم، وعاقبة أولئك أن يثيبهم ويغفر لهم، وقيل: ظلومًا لنفسه ولها «**الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ**» في الأمانة «**وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ**» بتضييع الأمانة وترك التوحيد «**وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**» بالأمانة، قال الحسن: المنافق والمشرك خانا الأمانة، ونحوه عن قتادة. وأما المؤمن والمؤمنة فأديا الأمانة، واستوجبا الرحمة «**وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا**» لمن تاب «**رَحِيمًا**» بالمؤمنين.

۞ الأحكام

تدل الآية على المنع من أذى الأنبياء، ولا شبهة أن ذلك كُفْرٌ.

وتدل على المنع من جواز ما لا يحل والحث على القول السديد.

وتدل على أن الفوز يُنال بطاعة الله، واتباع رسوله.

وتدل على أن الملائكة لم تعص وأن العصيان عادة الإنس والجن.

وفي هذه الآية الإشكال في مواضع:

أولها: العرض على السموات، وقد بينا أن المراد بالعرض على أهلها أو التمثيل، فأما العرض على الجماد فمحال.

وثانيها: أن العرض يقتضي التخيير، وقد بينا أنه بيان الحال والتكليف، فأما التخيير فلا؛ لأنه تعالى إذا رأى أنه مصلحة يلزم العبد ولا يجبره.

وثالثها: قوله: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ فمنهم من حمله على القبول وهذا لا يجوز؛ لأن رَدَّ أَمْرِ الله كُفْرٌ فلا يمدح عليه، وقد بَيَّنَّا أن المراد خانوا فيها إذ حملوا وزرها، وقد قال بعضهم: إنه عرض تخيير، وأنهم سألوا التخفيف خوفًا من الوعيد، وما قدمناه أولى؛ لأن المصالح لا تقف على اختيارهم.

وتدل على أن الأذى والقول السديد والأعمال، والذنوب وحمل الأمانة، والنفاق والشرك والإيمان فعلهم، ليس بخلق الله؛ ليصح الأمر والنهي، والوعد والوعيد.

سورة سبأ

سورة (سبأ) مكية فيما نقله المفسرون، وهي خمسون وأربع آيات.

وعن أبي بن كعب، أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ سورة (سبأ) لم يبق نبي ولا رسول إلا كان له يوم القيامة رفيقًا ومصافحًا»(١).

ولما ختم سورة (الأحزاب) بأنه كَلَّفَ؛ ليجزي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته عدلاً منه ورحمة، افتتح هذه السورة بالحمد له على عدله في ذلك، وقدرته عليه(٢)، ونبّه على ذلك بأن له ما في السموات والأرض.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾

---

(١) البيضاوي ٧/ ١٤٠.

(٢) عليه: عليها، ن.

۞ القراءة

قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر: «عالمُ» بالرفع على «وربّ» فاعل على الاستئناف؛ لأنه حالَ بين قوله: ﴿وَرَبِّي﴾ وبين «عالمُ» كلامٌ. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم ويعقوب: (عالم) بالجر ردًا على قوله: ﴿رَبِّي﴾ ، وهو اختيار أبي عبيد. وقرأ حمزة والكسائي: (علاَّم) بالجر والألف بعد اللام على وزن: فَعَّال، وهي قراءة ابن مسعود وأصحابه ويحيى بن وثاب والأعمش، قال الفراء: وكذلك رأيته في مصحف عبد الله.

وقرأ الكسائي وحده: «يعزِب» بكسر الزاي، الباقون بضمها، وهما لغتان عَزَبَ يعزِب ويعزُب.

قرأ ابن كثير وحفص عن عاصم ويعقوب: ﴿أَلِيمٌ﴾ بالرفع نعتًا للعذاب، الباقون بالكسر نعتًا للرجز.

۞ اللغة

الحمد لله: وصف بالجميل، ونقيضه: الذم، ثم ينقسم فمنه ما هو أعلى، ومنه ما هو أدنى، فالأعلى: ما يقع على وجه العبادة، ولا يجوز ذلك إلا لله، والأدنى: ما يقع لا على وجه العبادة، والحمد يُستَحَقُّ بشيئين: أحدهما: بصفات حسنة، وثانيهما: بإحسان وإنعام.

والإيلاج: إدخال الشيء في الشيء.

والعروج: الصعود.

وعزب عنه: بَعُدَ، ورجل عَزَبٌ: من العُزْبَةِ، بعيد من النساء، ويقال: إبل عَزِيب للذي يذهب في المرعى بعيدًا لا يأتي إلى المنزل إلا بالليل، والمال الغائب عازب، وفي الحديث: «من قرأ القرآن في أربعين ليلة فقد عَزَّبَ»[1] أي: بعد عهده بما ابتدأ منه، وأساء في تلاوته.

(١) الفائق ٢/ ٤٢٦، وغريب الحديث لابن قتيبة ٣/ ٧٦٠.

۞ الإعراب

﴿ٱلْحَمْدُ﴾ رفع على الابتداء، ثم قال: (بلى) ولم يقل: (نعم)؛ لأن كل موضع يقع فيه النفي فإن جوابه: بلى، تقول: ألا[1] تذهب؟ فتجاب بلى، وتقول: أتذهب[2]؟ فتجاب نعم؛ لأن هذا استفهام، ليس بنفي.

۞ النظم

يقال: كيف يتصل قوله: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ بإنكارهم الساعة؟

قلنا: من يعلم أفعال العباد وما استحقوه من الجزاء وكلفهم ومكنهم، لا بد أن يجازي في دار الجزاء، وقيل: هو يعلم وقت الساعة، وقيل: يعود إلى قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ اعتراض بين الكلامين بما ذكر، ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ يعني: إنكارهم ذلك ورد عليهم.

۞ المعنى

«**الْحَمْدُ لِلَّهِ**» أي: قولوا: الحمد لله، وهو وصفه بأسمائه الحسنى وصفاته العلا، وشكره على نعمه في الدين والدنيا «**الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ[مَا فِي] الأَرْضِ**» ملكًا وخلقًا «**وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ**» قيل: هو المحمود على أفعاله، المستحق للحمد في الدارين؛ لكونه منعمًا، فهما وقتان يحمده أهل الدنيا تعبدًا وأهل الآخرة تلذذًا؛ لأنها السبب بدار التكليف، وقيل: إنه المستحق للحمد في الدنيا بما أنعم، فَمَنْ حمده نال الثواب، ومن لم يحمده نال العقاب، ثم في الآخرة الجميع مضطرون إلى حمده، والاعتراف بربوبيته، عن أبي مسلم. وقيل: الحمد إضافة النعم إلى المنعم مع التعظيم له، وهذا يحصل في الدارين لله تعالى.

ومتى قيل: كيف يحمد في الآخرة؟

قلنا: أهل الجنة على نعمه وفضله، وأهل النار على عدله، وإنما خص الآخرة بالذكر؛ لأن نعمه فيها أعظم لدوامها وخلوصها من الشوائب.

---

(١) ألا: لا، ن.

(٢) أتذهب: تذهب، ن.

«وَهُوَ الْحَكِيمُ» في أفعاله لا يفعل إلا الحسن، العليم بمصالح الخلق وبجميع الأشياء «يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ» أي: يغيب فيها من المياه والأمطار والحبوب والأموات، «وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا» من النبات والأشجار والمعادن وأصناف الحيوانات والحشرات، لا يعلمها إلا هو «وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ» من الأمطار وقدرها «وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا» أي: يصعد من الملائكة وأعمال العبادات والبخارات والرياح، ثم مع قدرته وملكه رحيم بعباده، يتفضل عليهم بنعمه، ويثيبهم على طاعته، غفور لذنوبهم إذا تابوا. وقيل: هو رحيم ينعم عليهم، فإذا حمدوه زادهم نعمة، غفور لمن لم يحمده، ثم تاب. وقيل: رحيم بهم يمهلهم، وينعم عليهم مع علمه بهم، ويغفر لهم جميع ذنوبهم إذا تابوا «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَأْتِينَا السَّاعَةُ» أي: لا تكون القيامة والبعث «قُلْ» يا محمد: «بَلَى» تأتيهم الساعة «وَرَبِّي» أخبر به وأكده باليمين، ثم عاد إلى تمجيده، فقال سبحانه: «عَالِمِ الْغَيْبِ» يعني: يعلم كل ما يغيب، لا تخفى عليه خافية؛ لأنه عالم لذاته، فلا يختص بمعلوم دون معلوم «لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ» أي: لا يغيب عن علمه «مِثْقَالُ ذَرَّةٍ» أي: مقدار ذرة، وهذا مَثَلٌ، وإلا فهو عالم بما هو أقل من ذرة، وهي النملة «فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَلاَ أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ» قيل: إلا هو محفوظ عنده، فعبّر عن العلم والحفظ بالكتاب؛ لأنه مما يحفظ به، وقيل: «في كتاب» أي: في اللوح المحفوظ «لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» أي: ليكافئ من آمن وعمل صالحًا بما يستحقه من الثواب على أعماله «أُوْلَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ» أي: هنيء لا يكدره شيء، قيل: هو الجنة، عن قتادة. «وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا» أي: وليجزي الذين سعوا في حججنا أي: عملوا في إبطالها وهو الكتاب وسائر المعجزات وسعيهم ردها بالتكذيب، وقيل: سعيهم دعاؤهم إلى الكفر ومنع الناس عن قبول الإسلام «مُعَاجِزِينَ» قيل: مسابقين، أي: يحسبون أنهم يعجزوننا ويفوتوننا، وقيل: معاجزين نبينا، وقيل: مجاهدين، عن ابن زيد. «أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ» أي: من شر العذاب، عن قتادة. وقيل: هي الأمور الكريهة التي تقارب العقاب، وقيل: نوع من العذاب.

۞ الأحكام

تدل الآية الأولى على تعليم الحمد لله بما هو أهله، وأنه المستحق لذلك لنعمه عليهم.

ويدل قوله: ﴿يَعۡلَمُ﴾ أنه عالم لذاته يعلم كل معلوم؛ إذ لو كان عالمًا بِعلم لكانت معلوماته متناهية.

ويدل قوله: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي﴾ على تأكيد أمر القيامة.

ومتى قيل: أيكفي في جوابهم القَسَمُ؟

قلنا: إذا أبان الحجة فأعرضوا استحقوا الوعيد، فهذا قسم يتضمن الوعيد.

ويدل قوله: ﴿لِّيَجۡزِيَ﴾ أن الثواب والعقاب جزاء على الأعمال.

وتدل أن الأعمال فعل العبد، فيبطل قول المجبرة في المخلوق والجزاء.

قوله تعالى:

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ
ٱلۡحَمِيدِ ۝٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي
خَلۡقٖ جَدِيدٍ ۝٧ أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ
وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ ۝٨ أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِن نَّشَأۡ
نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبۡدٖ
مُّنِيبٖ ۝٩﴾

۞ القراءة

قرأ الأعمش وحمزة والكسائي: «**إن يَشأْ يَخسِفْ**» و«**يُسْقِطْ**» كلها بالياء كناية عن اسم الله تعالى، واختاره أبو عبيد؛ لأنه تقدم ذكر اسم الله. الباقون [بالنون] أضافها إلى نفسه.

۞ اللغة

الهداية: الدلالة، والهادي إلى الحق: الدال عليه والمُظْهِرُ لطريقه.

والنبأ: الخبر، والإنباء: الإخبار.

والتمزيق: التقطيع، مَزَّق تمزيقًا فهو مُمَزِّقٌ، والشيء مُمَزَّقٌ.

والجِنّة: الجنون، وأصله من الستر؛ لأنه يستر العقل.

والخسف: الذهاب في الأرض.

والكِسَف: القِطَع.

۞ الإعراب

﴿وَيَرَى﴾ موضعه يحتمل النصب عطفًا على «ليجزي»، ويحتمل الرفع على الاستئناف.

وجواب ﴿إِذَا﴾ في قوله: ﴿إِنَّكُمْ﴾ تقديره: إذا مزقتم تَجَدَّدَ خَلْقُكُمْ.

﴿ٱلْحَقَّ﴾ نصب؛ لأنه المفعول الثاني، والمفعول الأول: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ تقديره: ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك الحَقَّ.

﴿أَفْتَرَىٰ﴾ قيل: دخل الاستفهام على ألف الوصل فنصب الألف في ﴿أَفْتَرَىٰ﴾ قيل: أسقط ألف الاستفهام لدلالة الكلام عليه، وقيل: ذلك لا يقبل[1]؛ لأن ألف الاستفهام لا يحذف إلا عند الضرورة، والقراءة بقطع الألف، ولو لم يقطع لكان خبرًا بعده استفهام.

فأما (هو) في قوله: ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ يسميه الكوفيون عمادًا، وأنشد الكسائي:

لَيْتَ الشَّبَابَ هُوَ الرَّجِيعُ عَلَى الْفَتَى ... وَالشَّيْبُ كَانَ هُوَ الْبَدَاءُ الأَوَّلُ[2]

قال الكسائي: الأول: عماد، والثاني: اسم. وقيل: إنه تأكيد لمَّا طال الكلام.

﴿إِنَّكُمْ﴾ كسرت الهمزة: لأن تقديره: تقولون[3]: إنكم.

---

(١) يقبل: يضم، ن.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٨٢.

(٣) تقولون: تقولن، ن.

﴿كِسَفًا﴾ تقرأ ساكنة السين وبفتحها، فالأول: واحد، والثاني: على الجمع.

المعنى

ثم عقب بذكر المؤمنين واعترافهم بِمَا جَحَدَهُ مَنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ، فقال سبحانه: «وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ» أي: أُعطوا، وإعطاء العلم بوجهين: أحدهما: بوضعه في نفسه، والثاني: بالتسبيب إليه بالتمكين واللطف ووضع الأدلة، فجميع العلوم تضاف إلى الله تعالى على هذه الوجوه.

واختلفوا مَنْ هؤلاء؟ فقيل: أصحاب محمد، عن قتادة. وقيل: مَنْ آمن مِنْ علماء أهل الكتاب كعبد الله بن سلام، وقيل: كل من أوتي العلم إلى يوم القيامة، وقيل: هم علماء أهل التوحيد والعدل؛ لأنهم يعلمون في الحقيقة أن ما أنزل عليه حق، ومعجزة لوجوه:

منها: أنهم لا يجوزون فعل القبيح عليه، وإظهار المعجز على يدي كذاب لا يجوز لقبحه، فكل من ظهر ذلك عليه يعلمون أنه الحق.

ومنها: أنهم لا يجوزون ظهور المعجز على غير نبي.

ومنها: أن عندهم أنه تعالى لا يُضِلُّ عن الدين، فلا بد أن ما أنزل يكون حقًا، وعند مخالفيهم أن جميع ذلك جائز عليه، فمن أين أن ما أنزل حق، ولعله أنزل ليضل، أو أظهره على كذاب[1].

«الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» يعني: القرآن «هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي» ويعلمون أنه حق ويعلمون أنه يهدي «إِلَى صِرَاطِ» أي: طريق «الْعَزِيزِ» القادر و«الْحَمِيدِ» المحمود، والصراط قيل: هو دينه الحق وهو الإسلام، وقيل: إلى ثوابه وجنته.

ثم عاد الكلام إلى الحكاية إلى الكفار، فقال سبحانه: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا» القادة للأتباع معجبين منه «هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ» يعنون محمدًا صلى الله عليه «يُنَبِّئُكُمْ» يخبركم «إِذَا مُزِّقْتُمْ» أي: بليتم وتفرق أجزاؤكم وتقطعت أوصالكم وصرتم ترابًا «كُلَّ مُمَزَّقٍ» تفريقًا عظيمًا «إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ» أي: تعودون أحياء كما كنتم، والجديد: المستأنف المعاد «أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا» قيل: هو من كلام المتبوعين أيضًا قالوا

(١) كذاب: كتب، ت، ن. وما أثبتناه من هامش، ن.

معجبين، ثم بينوا أنهم افتروا، وقيل: بل هو من كلام الأتباع جوابًا لهم «**أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا**» هو استفهام، يعني: أهو كاذب فيما يقول أم هو مجنون لا يدري ما [يقول]؟ فرد الله تعالى عليهم، وقال: ليس بمُفْتَرٍ ولا بمجنون «**بَلِ**» هؤلاء الكفار «**الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ**» أي: بالبعث «**فِي الْعَذَابِ**» أي: سيصيرون إلى العذاب، وقيل: في سبب العذاب «**وَالضَّلاَلِ الْبَعِيدِ**» قيل: الضلال: الجهل، قيل: في ضلال بعيد عن الحق، وقيل: في ضلال عن طريق الجنة والثواب، وقيل: في ضلال عن التخلص «**أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ**» أي: أَلَمْ[(١)] يروا أن السماء محيطة بهم «**وَالأَرْضِ**» تقلهم حيث كانوا، فلا يقدرون على الخروج منها، وقيل: بالسماء والأرض أنعم عليهم أفلا يتدبرون؟ وقيل: أشار إلى من خسف به أو أهلك بسبب من السماء «**إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ**» أي: نذهبهم فيها «**أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا**» أي: قطعًا «**مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً**» حجة على قدرته وعزته «**لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ**» راجع إلى ربه بالتوبة مقبل على طاعته تائب من ذنوبه، وخصه بالذكر؛ لأنه ينتفع به، وإنما ذكر دليل القدرة عند إنكارهم البعث لأنهم[(٢)] أوردوا الشبه في قدرته على البعث.

۞ الأحكام

تدل الآية على عظم محل العلم والعلماء، ولا شبهة أنهم علماء أهل العدل؛ لأنهم وصفوه بما يستحقه، ونزهوه عما لا يليق به، ولم يشبهوه، ولا أثبتوا معه قديمًا، ولا أضافوا إليه فاحشة.

وتدل على أن العالم بالتوحيد يجب أن يعلم النبوات والشرائع؛ ليعلم أن ما أنزل حق.

وتدل على قدرته على الإعادة.

وتدل على صحة الحجاج.

---

(١) ألم: لم، ن.
(٢) لأنهم: أنهم، ن.

قوله تعالى:

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾

۞ القراءة

قرأ يعقوب الحضرمي وعبيد بن عمير: (الطَّيْرُ) بالرفع، وقراءة العامة بالنصب. أما الرفع: فنسقًا على الجبال، تقديره: يا جبالُ، ويا أيها الطيرُ. وأما النصب: ففيه وجوه:

قيل: بِفِعْلٍ مضمر تقديره: وسخرنا له الطير، كقول الشاعر:

عَـلَـفْـتُـهَـا تِـبْـنًـا ومَـاءً بَـارِدًا[1]

أي: وسقيتها ماء باردًا، فأضمر الفعل.

وقيل: إنه عطف على موضع المنادى كقول الشاعر:

أَلاَ يَـا عَـمْـرُو وَالـضَّـحَّـاكَ سَـيْـرًا ... فَـقَـدْ جَـاوَزْتُـمَـا خَـمَـرَ الـطَّـرِيـقِ[2]

نصب الضحاك عطفًا على موضع المنادى. وتقديره: أنادي الجبال والطير، قال علي بن عيسى: والأول أجود؛ لأن الحمل على لفظ المنادَى أشكل.

---

(١) اللسان (زجج) وتكملة البيت:

عـلـفـتـهـا تـبـنـا ومـاءً بـاردًا ... حـتـى شـتـت هـمـالـة عـيـنـاهـا.

(٢) العين (خمر)، واللسان (خمر) وفي رواية: ألا يا زيد والضحاك سيرا.

وقيل: نصب بنزع الخافضة أي: مع الطير.

وقيل: هو عطف على الفعل، تقديره: آتيناه فضلاً الجبال تؤوب معه والطير.

وقيل: تقديره: قلنا: يا جبال أوبي معه، وعنينا الطير بمثل هذا القول، عن أبي علي.

وقيل: نصب؛ لأنه مأمور، وعطف على الجبال لا على معنى التذليل بالتأويب معه، تقديره: أمرنا الجبال والطير؛ لأن قوله: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي﴾، وأمر الجبال، ومعناهما واحد، ذكر هذا الوجه الأخير أبو مسلم.

وقرأ أبو بكر عن عاصم: «**ولسليمان الريح**» بالرفع على خبر حذف الصفة، والباقون بالنصب [بفعل][1] محذوف، تقديره: وسخرنا الريح.

وقرأ أبو جعفر ونافع وأبو عمرو: «**منسَاتَهُ**» بغير همز، وروي نحوه عن ابن كثير، وقرأ ابن كثير بهمزة ساكنة، الباقون بهمزة مفتوحة، وكلها لغات صحيحة، وأصله الهمز؛ لأنه من: أَنْسَأْتُ، فترك همزه كالبرية من بَرِئْت.

قرأ يعقوب: «**تُبُيِّنت الجِنّ**» بضم التاء والباء وكسر الياء، والباقون بفتح الثلاثة، وما روي عن ابن عباس: (**تبينت الإنس أن لو كان الجن يعلمون الغيب**) يجوز على أنه فسره.

۞ اللغة

الأَوْبُ: الرجوع، آب يؤوب أوبًا: إذا رجع، وأَوَّبَ تأويبًا، والتأويب السير.

والسابغ: التام من اللباس والدروع، وأصله: التمام، ثوب سابغ: تام، ومنه: إسباغ الوضوء.

والسرد: متابعة حلق الدرع شيئًا بعد شيء حتى يتناسب، وأصل السرد: الإرسال، ومنه: سَرَدَ الحديث أي تابَعَه[2] ولم يقف فيه، ويقال لحلق الدرع: سَرْدٌ، وللدروع: سُرُدٌ، قال الشاعر:

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة في هامش ن.

(٢) تابعه: تتابعه، ن، ت.

وَعَلَيْهِمَا مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا   دَاوُدُ أو صَنَعُ السَّوَابِغِ تُبَّعُ(١)

ودرع مسرودة: مسمورة الحلق.

والزيغ: العدول عن جهة الصواب، زاغ زيغًا، وأزاغه إزاغة.

ويقال: أَلَنْتُ الشيء فأنا أُلِينُهُ إِلانَةً، ولَيَّنْتُ تليينًا.

ومعنى المحراب أشرف المجالس، عن أبي عبيدة، ومنه: ﴿تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ﴾ [ص:٢١] ومنه يقال: للقصر(٢): محراب، ومنه: محراب المسجد لشرفه.

والتماثيل: واحدها تمثال، وهي صور الأشياء، وأصله: القيام، كأنه نصب قائمًا، ومنه: مَثَلَ الرجل مثولاً إذا انتصب قائمًا، ومنه الحديث: «مَنْ سَرَّهُ أن يَمْثُلَ له الناس فليتبوأ مقعده من النار» أي: يقومون له.

والجَفان: جمع جَفْنَةٍ، وهي ما يؤكل فيه.

والجَوابِ: الحياض، واحدها جابية؛ لأنه يجتمع فيه الماء، وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب يثبتون الياء، وهو الأصل، والباقون يحذفونها للتخفيف.

والراسيات: جمع راسية، وهي الثابتة، ومنه: رست السفينة.

والمِنْسَأَةُ: العصا؛ لأنه يطرد بها(٣) ويساق، من نَسَأْتُه(٤) بالهمز، أي: سُقْتُهُ، ونسأت الشيء: طردته.

۞ الإعراب

﴿ٱعْمَلُوٓاْ﴾ خطاب جمع وإن تقدم ذكر داود؛ لأن الخطاب في آل(٥) داود؛ لأن النعمة عليه نعمة عليهم بما دعاهم إليه وبين لهم، و«صَالِحًا» نعت لمحذوف أي: عملاً صالحًا.

---

(١) الصحاح (صنع)، واللسان (صنع).
(٢) للقصر: القصر، ن، ت.
(٣) بها: به، ت، ن.
(٤) نسأته: نسأت، ن، ت.
(٥) آل: ابن، ت، ن.

و ﴿شُكۡرٗاۚ﴾ نصب بـ ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ﴾ ، وقيل: تقديره: اعملوا الشكر، وقيل: تقديره: اشكروا الله شكرًا.

و ﴿ءَالَ﴾ نصب بالنداء المضاف، و ﴿دَاوُۥدَ﴾ مضاف إليه إلا أنه لا ينصرف.

﴿أَن لَّوۡ﴾ محله قيل: رفع تقديره: فلما ظهر خَرَّ ظهر[1] أن لو [كانوا]، وقيل: نصب، أي: علمت الجن أن لو.

«مَحَارِيبَ» مفاعيل فلا ينصرف، وكذلك (تماثيل).

المعنى

لما تقدم ذكر المؤمنين الأوابين اتصل به حديث داود وسليمان، فقال سبحانه: «**وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً**» أي: أعطيناه فضلاً، والمراد: أنا فضلناه على غيره بما أعطيناه من النبوة والكتاب وفصل الخطاب والمعجزات، ثم فصل ما أعطاه، فقال تعالى: «**يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ**» قيل: معناه: سخرنا الجبال له وسهلناها، فلا يستصعب عليه ما يريده منها من قطع وغيره، وهذا هو الأوجه؛ لأنه ليس بحي مخاطب إلا أن يقال بجعله حيًّا عاقلاً، فحينئذ يخرج من كونه جبلاً، ويجوز أن يقال: يبقى جبلاً، ويبني فيه بنية الحياة، فيقرب مع تعسف فيه. وقيل: قلنا: يا جبال، وهذا يحمل على ما قلناه. وقيل: «**أَوِّبِي**» سبحي معه إذا سبح، عن ابن عباس، والحسن، وقتادة، ومجاهد، والسلمي، والضحاك، وأبي عبيدة. أي: ارجعي معه بالتسبيح، قال أبو ميسرة: هو بلسان الحبشة. وهذا لا يصح؛ لأن القرآن عربي، وكيف يقال ذلك وله في كلام العرب أصل، واشتقاق، وتصرف؟ يقال: تَأَوَّبَ يَتَأَوَّبُ تَأَوُّبًا، وأصله: الأَوْبُ والإياب. وقيل: «**أَوِّبِي مَعَهُ**» أي: سيري معه حيث شاء، عن أبي علي. والتأويب: السير بالنهار، وقيل: ارجعي إلى مراد داود فيما يريده من حفر أو استنباط أو إخراج معدن أو جعل طريق. وقيل: نوحي معه، عن وهب. وقيل: كان إذا قرأ الزبور بصوت حزين سبحت الجبال والطير تعظيمًا لقراءته أو زيادة في تحسين النغمة. وقيل: كان إذا سبح تجاوبه بالتسبيح.

---

(١) خرّ ظهر: ظهر خير، ت ن.

ومتى قيل: هل يصح ذلك؟

قلنا: يجوز على وجهين:

أحدهما: أن يخلق فيه تعالى معجزة لداود، فأضاف إليه؛ لأنه محله توسعًا.

والثاني: أن يجعل بعضها حَيًّا فتسبح.

فأما الطير فيجوز أن يجعل له من التمييز كالصبيان المراهقين فتقرأ.

«**وَالطَّيْرَ**» أي: سخرنا له الطير، وكان يسير معه، فيحتمل أنه زاد في فطنته، فكان يعرف أمره ونهيه كالصبي المراهق، وأمره بالسير يحتمل أن الملك سيره، ويحتمل أن الله تعالى خلق ذلك فيها معجزة له «**وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ**» فصار في يده كالشمع يعمل منه الدروع، عن أكثر المفسرين. وقيل: أعطاه من القدرة مقدار ما صار الحديد في يده كالشمع لا أنه تغير عن حاله، عن أبي علي. قال أبو علي: ويجوز أن يكون لسخونة يده يلين الحديد «**أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ**» أي: دروعًا تامات، وهذا يحتمل الأمر والإباحة والإذن.

ومتى قيل: لماذا ألان الحديد له؟

قلنا: قيل: معجزة له، وعلى الوجهين اللذين ذكرنا المعجزة ثابتة، وقيل: أحب أن يأكل من كسب يده، فألان الله له الحديد، وعلمه صنعة الدروع، فكان أول من اتخذها، فكان يبيعها ويأكل منها ويطعم عياله ويتصدق، وقيل: يبيع الواحد بأربعة آلاف درهم.

«**وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ**» قيل: قدّر في نظم الحِلَقِ، والسرد: حلق الدروع، عن ابن عباس، وابن زيد. ومتى لم يكن مقدرًا يكون واسعًا، فلا يمنع السهم من النفوذ، وقيل: السرد: المسامير التي في حلق الدروع، عن قتادة. وقيل: السابغات الدروع، «**وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ**» والسرد: الإرسال، أي: قدر في سرد السابغات، والمعنى فلتستعملها على قدر، عن أبي مسلم. وقيل: اعمل المسمار على قدر الحلقة كيلا يذوب، فيعلق أو يغلظ، فينكسر، وقيل: الأول أصح؛ لأن الحديد كان في يده كالشمع، فلم تحتج الحلقة إلى المسمار. «**وَاعْمَلُوا صَالِحًا**» أي: قلنا لهم: اعملوا

الصالحات، وهي الطاعات شكرًا على عظيم نعمه «إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» فأجازيكم به «وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ» أي: وسخرنا لسليمان الريح «غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ» أي: سيرها في غدوها إلى انتصاف النهار مسيرة شهر للناس، ومسيرها في انتصاف النهار إلى الليل مسيرة شهر، فكان مسيرها في يوم واحد مسيرة شهرين للناس، عن قتادة. وقيل: كانت تغدو فتقيل بإِصْطَخْرَ، وتروح منها فتكون بكَابُلَ، عن الحسن. قال الحسن: لما جرى حديث الصافنات الجياد أعطاه الله الريح خيرًا منها، وقيل: كان له مركب من خشب فيه بيوت يركبها، ومعه جنوده، فيسيرها الريح الرخاء، فلا يدري القوم إلا وقد أظلهم، ومعه الجيوش، عن ابن زيد. وقيل: كان يحمله الريح ويظله الطير، فيغزو الغزو، وروي أنه غزا من العراق فقال[1] بمرو، وصلى العصر بمدينة بلخ، ثم سار إلى بلاد الترك، وجاوزهم إلى الصين، ثم إلى أرض القدهان، ثم رجع إلى فارس إلى طريق كرمان، وعاد إلى الشام، وبها كان مسكنه، فكان كل يوم يسير سير شهرين، وروي أنه دَفَنَ بخراسان سيوفًا فلقيها واستخرجها[2] مجاشع بن مسعود في زمن عمر، عن الحسن. «وَأَسَلْنَا» أي: أذبنا حتى سال «لَهُ» لسليمان «عَيْنَ الْقِطْرِ» قيل: عين النحاس، فسالت، صيره الله مائعًا ينبع من عين تسيل، والقِطْر: النحاس، عن ابن عباس، وقتادة. وقيل: عين الحديد، وقيل: عين الرصاص، حكى الوجهين أبو علي. وأصل الباب من القطر وهو قطر الماء، فيحتمل كل ما يقطر، وأكثر المفسرين وأهل اللغة أنه النحاس، وقيل: كان ذلك باليمن سالت ثلاثة أيام. «وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ» أي: ومن الجن من سخرنا حتى عملوا له بأمر الله، قيل: كان التسخير بأمر الله والنهي والإذن هو الأمر، وقيل: بالقهر.

ومتى قيل: هم لطاف ضعاف، فكيف فعلوا تلك الأفاعيل العظيمة؟

قلنا: كثف أجسامهم وأعطاهم القدرة معجزة له، وقيل: زاد في قُدَرِهم مع لطافة أجسامهم؛ إلا أن هذا إنما يصح على مذهب من يقول بزيادة القدرة، ولا تحتاج إلى زيادة البنية.

---

(١) من القيلولة.

(٢) فلقيها واستخرجها: فلقيه استخرجها، ن.

ومتى قيل: أولئك بقوا أم تفانوا وماتوا؟

قلنا: فيه خلاف، قيل: ردهم إلى بنيتهم الأولى وبقاهم، وقيل: بل أماتهم؛ لأن في ردهم مفسدة لغيرهم من الجن؛ حيث توهموا أنهم بسحرهم يغيرون صورهم كما يعتقده جهال الحشو حتى قالوا: الشيطان صور نفسه بصورة سليمان، وقعد على كرسيه، وأخذ ملكه، ووطئ نساءه.

«وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا» أي: يعدل عما أمرناه في طاعة سليمان ـ وكانوا مكلفين ـ إلى العصيان **«نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ»** قيل: عذاب النار في الآخرة، عن أكثر المفسرين. وقيل: كان كل من عصى منهم سليمان تنزل من السماء نارًا فتحرقه، فالمراد به [نار] الدنيا، وقيل: وَكَّلَ بهم ملكًا بيده سوط من نار، فمن زاغ عن أمر سليمان ضربه ضربة أحرقته، وهذا كَرَمْيِهِمْ بالشهب عند استراق السمع **«يَعْمَلُونَ لَهُ»** أي: لسليمان **«مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ»** قيل: البيوت الشريفة، وقيل: قصور ومساجد يعبد فيها، عن قتادة، وأبي علي. قال: وكان مما عملوه بيت المقدس، وذلك أن الله سلط على بني إسرائيل الطاعون، فهلك خلق كثير في يوم واحد، فارتفع داود صعيدًا وخر ساجدًا، فشفعه الله فيهم، ورفع عنهم ذلك، وأمرهم أن يبنوا في ذلك الموضع مسجدًا، فأخذوا في بنائه وأساسه، فكان داود وصلحاء بني إسرائيل ينقلون الحجارة حتى بنوا قامة، ولداود يومئذ تسع وعشرون سنة، فأوحى الله إليه أن تمام بنائه على يدي ابنه سليمان، وعاش داود مائة وأربعين سنة، وتوفي، واستخلف سليمان، وأعطاه الله النبوة، فأحب إتمام بيت المقدس، فجمع الجن، وقسم عليهم الأعمال حتى بنوا المدينة، ثم بنى المسجد وجعل يوم فراغه يوم عيد، وكان للهرة موضع، فبقي إلى أن خربه بخت نصر لما غزا بني إسرائيل **«وَتَمَاثِيلَ»** قيل: صورًا من نحاس وصفر وزجاج ورخام، ثم اختلفوا، فحمله بعضهم على صور الحيوانات، وبعضهم على صور الشجر وغيره دون الحيوانات، وكلاهما جائز؛ لأن تحريمه يُعْلَمُ شرعًا، وقيل: كانوا يعملون صور الأنبياء والملائكة في المساجد، وكانوا متعبدين به، عن ابن عباس.

ومتى قيل: أليس يكره ذلك؟

قلنا: عقلاً لا، والشرائع تختلف في ذلك، وكان عيسى يصور كهيئة الطير،

وروي أنهم صوروا له تحت كرسيه أسدين، وفوق كرسيه نَسْرَيْنِ، فإذا أراد الصعود يبسط الأسدان ذراعيهما، وإذا علا الكرسي بسط النسران جناحهما، فكان ذلك معجزة له، حكاه أبو علي. وحكي أنه لما حاول بخت نصر صعود الكرسي ضرب الأسد ساقه وخر مغشيًا عليه، وما صعد بعده أحد.

«وَجِفَانٍ» هي[1] القصاع الكبار التي يؤكل فيها «كَالْجَوَابِ» قيل: كالحياض، عن ابن عباس وغيره. شبهه بهما لعظمها، قال الحسن: كحياض الإبل، وقيل: كان يجمع على كل جفنة ألف رجل يأكلون بين يديه «وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ» قيل: ثابتات لا تُحْمَلُ عن أماكنها، وكان باليمن، وقيل: كانت عظيمة كالجبال يحملونها مع أنفسهم، وكان سليمان يطعم جنده «اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا» أي: اشكروه على هذه النعم، وقيل: اعملوا بطاعته شكرًا له، عن مجاهد. «وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ» قيل: الشكر: تقوى الله والعمل بطاعته، وقيل: المؤمن الذي يشكر الله قليل، وقيل: لمشقة الشكر يَقِلُّ الشاكرون «فَلَمَّا قَضَيْنَا» أوجبنا «عَلَيْهِ» على سليمان «الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ» أي: ما دل الجن «[عَلَى مَوْتِهِ]» على موت سليمان، أي: يعلموه، وقيل: قضينا: أتممناه[2]، وقضاء الشيء: إتمامه والفراغ منه، عن أبي مسلم. «إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ» يعني: الأرضة «تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ» أي: عصاه، وروي أن سليمان كان يبني المسجد ببيت المقدس، وربما يدخله سنة يلبث فيه أو أكثر أو أقل، ويدخل عليه طعامه ويتعبد فيه، فلما كان في المدة التي مات لم يكن يصبح يومًا إلا وتنبت شجرة يسألها سليمان فتخبره عن اسمها ونفعها وضرها، فنبت يومًا نبت فقال: ما اسمك؟ قال: الخرنوب، قال: لأي شيء؟ قال: للخراب، فعلم أنه سيموت، فقال: اللهم عَمِّ على الجن موتي؛ ليعلم الإنس أنهم لا يعلمون علم الغيب، وكان بقي من بنائه سنة، وقال لأهله: لا تخبروا الجن بموتي حتى تفرغوا من بنائه، ودخل محرابه، وقام متكئًا على عصاه فمات، وبقي قائمًا سنة حتى تم البناء، ثم سلط الله الأرضة على منسأته فخر، فعرفت الجن موته، وكانوا يحسبونه حيًّا؛ لكثرة ما شاهدوا من طول قيامه قبل ذلك.

---

(١) هي: هو، ن.

(٢) اتممناه: امتناه، ن.

وقيل: إنما أماته قائمًا، وبقاه كذلك لفوائد:

منها: إتمام البناء.

ومنها: ليعلم الإنس أن الجن لا تعلم الغيب، ومن يدعي منهم الغيب فهو كاذب.

ومنها: أن من حضر أَجَلُهُ لا يتأخر، ولم يتأخر لسليمان مع جلالته.

وروي أنه أطلعه الله على موته فاغتسل وتحنط وتكفن، والجن يعملون، «**فَلَمَّا خَرَّ**» أي: سقط سليمان «**تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ**» أي: ظهر لهم، قيل: تبينت الجن للإنس أن الجن لا يعلمون الغيب إذ «**لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ**» أي: في تلك الأعمال الشاقة، فلمشقته سماه عذابًا، وإلا فتلك الأعمال كانت عبادة ومحنة لهم أمروا بها، وقيل: كان عمر سليمان ثلاثًا وخمسين سنة، وملك أربعين سنة، وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وابتدأ بالبناء لأربع سنين مضين من ملكه.

۞ الأحكام

تدل قصة داود عليه السلام على معجزات له: تسخير الجبال، والطير، والحديد، وتليين الحديد يكون إما بتغيير حال الحديد، وعليه أكثر المفسرين، أو بزيادة قوة، واختار القاضي الوجه الأول، ورابعها: عمل الدروع، وقيل: أول من عمله هو، عن الحسن.

وتدل قصة سليمان على معجزات: تسخير الريح وتسييرها، وإسالة القطر، وتسخير الجن، وما أعطاهم من القوة حتى عملوا تلك الأفاعيل.

ويدل قوله: ﴿وَمَن يَزِغْ﴾ أنهم عملوا كل ذلك تعبدًا.

ويدل قوله: ﴿وَتَمَاثِيلَ﴾ أن التصوير كان مباحًا في شريعتهم، وإن كان منهيًا في شريعتنا، فلا مانع من حمله على ظاهره.

ويدل قوله: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ على وجوب شكر النعمة وشكر طاعة المنعم وتعظيمه، وروي أن داود قال لسليمان - عليه السلام -: إن الله تعالى أمرنا بالشكر فاكفني قيام النهار أَكْفِكَ قيام الليل.

ويدل قوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ أن المؤمن الشاكر يَقِلُّ في كل عصر.

وتدل الآية أن الجن لا تعلم الغيب، فيبطل قول جهال الحشو، وكان الحسن يقول: إن أولئك كانوا كفارًا؛ إذ لو كانوا مؤمنين ما اشتد حرصهم على التخلص.

ويدل موت سليمان وبقاؤه كذلك مدة على معجزة عظيمة، وكان يطيل القيام، ولا يكلمونه أبدًا لهيبته، فظنوا هذه المدة كذلك.

وتدل أن الجن لم تسخر لأحد بعد سليمان.

ومتى قيل: هل يقدر الجن بعده على مثل هذه الأعمال؟

قلنا: لو عادوا إلى ما كانوا لقدروا، وإنما صاروا كذلك معجزة لسليمان.

ومتى قيل: فمن يزعم أن الجن تعلم الغيب أو تقدر على تلك الأعمال العظيمة أو تغيير الصور هل يكفر؟

قلنا: نعم؛ لأنه يسد على نفسه طريق معرفة النبوات.

قوله تعالى:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾

القراءة

قرأ «لِسَبَأَ» مفتوحةَ الهمزةِ غيرَ محركٍ أبو عمرو، وروي نحوُه عن ابن كثير، وروي عنه أيضًا (سَبَا) بغير همز مثل: (سعى)، وروي عنه بهمزة ساكنة، الباقون بالجر والتنوين، وكلاهما جائز، فمن أجراه جعله اسم رجل معروف، ومن ترك إجراءه فعلى أنه اسم، قبيلة[1]؛ نحو قولهم: هذه تميم، وهو اختيار أبي عبيد لقوله: «**مساكنهم**».

(١) أنه اسم قبيلة: أنهم اسم قبل، ن.

قرأ حمزة وحفص عن عاصم: ﴿مَسْكَنِهِمْ﴾ بغير ألف ساكنة السين مفتوحة الكاف على الواحد، وهو قراءة إبراهيم النخعي، وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش والكسائي: «مَسْكِنِهم» بغير ألف، [والباقون: «مساكينهم»] على الجمع.

قرأ أبو عمرو ويعقوب: «أُكُلِ خَمْطٍ» مضافًا غير منون، والباقون «أكلٍ» منونة، وقرأ ابن كثير ونافع: «أكْل» ساكنة الكاف في جميع القرآن، الباقون بضمها.

قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم: «نُجازِي» بالنون مضافًا إلى الله تعالى، ﴿ٱلْكَفُورَ﴾ بالنصب، واختاره أبو عبيد لقوله: ﴿جَزَيْنَٰهُم﴾ ولم يقل: جوزوا، الباقون: «يُجازَى» بالياء وفتح الزاي على ما لم يُسَمَّ فاعله، «الكفور» بالرفع، والكسائي يدغم لام (هل) في نون (نُجازِي) بالياء، والباقون لا يدغمون.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «ربَّنا» بفتح الباء على وجه الدعاء، «بَعِّدْ» بغير ألف، وفتح الباء وتشديد العين وكسرها على وجه الدعاء من البُعْد، وروي نحوه عن ابن عامر. وقرأ يعقوب: «ربُّنا» بضم الباء، «بَاعَدَ» بالألف وفتح الباء والعين والدال مخففة على الخبر، وهو قراءة محمد بن الحنفية، واختيار أبي حاتم، استبعدوا أسفارهم، ولم يسألوا أن يباعد بين أسفارهم، وروي عن يعقوب: «بَعَّدَ» بفتح الباء والعين والدال من غير ألف ويشدد العين في معنى (بَاعَدَ)، وذكره يعقوب عن يحيى بن يعمر، وروي عن ابن عباس الوجهين اللذين ذكرناهما عن يعقوب. وقرأ الباقون: «ربَّنا» بالنصب على الدعاء، «بَاعِدْ» بالألف.

اللغة

العَرِمُ: المُسَنَّاةُ التي تحبس الماء، واحدها: عَرِمَةٌ، أخذ من عَرَامَة الماء، وهو ذهابه كل مذهب، وقيل: العرُم: الشدة، والعَرَامَة: الشدة والقوة.

والخَمْط: كل نبت قد أخذ طعمًا [مراً لمرارة] حتى لا يمكن أكله، ومنه: تخمط البحر.

الإعراب

﴿بَلْدَةٌ﴾ قيل: رفع، لأنه خبر ابتداء محذوف، أي: هذه بلدة، وقيل: تم الكلام عند قوله: ﴿وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ﴾ ثم ابتدأ: ﴿بَلْدَةٌ﴾ ، وقيل: تقديره: بلدتكم بلدة.

﴿ذَٰلِكَ﴾ منصوب بالجزاء، تقديره: جزيناهم ذلك.

المعنى

ثم ذكر ما أنعم على سبأ وما كفروا بنعمه، وما آل إليه حالهم، فقال سبحانه: «لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ» قيل: أرض باليمن، عن الحسن. وقيل: بلدة باليمن، وقيل: حي باليمن، وقيل: أبو عرب اليمن، وقد سمي به القبيلة، وروي مرفوعًا أنه كان رجلاً من العرب، وله عشرة من الولد فَتَيَامَنَ منهم ستة وتشاءم أربعة، فأما الذين تيامنوا: فكندة، والأشعريون، والأزد، ومذحج، وأنمار، وحِمير، فقال رجل: مَنْ أنمار؟ فقال: الذين منهم خثعم وبجيلة، وأما الذين تشاءموا: فعاملة، وجذام، ولخم، وغسان. «فِي مَسَاكِنِهِمْ» أي: في مواضع سكناهم وهو بلدهم «آيَةٌ» أي: حجة على وحدانيته وقدرته وعلامة على سبوغ نعمه، ثم فسر الآية، فقال سبحانه: «جَنَّتَانِ» بستانان «عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ» من أتاها، وقيل: عن يمين البلد وشماله، وقيل: كان من كثرة النعم تخرج المرأة على رأسها المكتل فترجع وقد امتلأ المكتل، ما تناولت[1] شيئًا بيدها لكثرة ما يتساقط «كُلُوا» أي: قلنا: كلوا، وهو إباحة. وقيل: قال لهم نبيهم: كلوا واشربوا، وقيل: كان ثلاث عشرة قرية، في كل قرية نبي يدعوهم إلى الله، ويقولون لهم: كلوا مما رزقكم الله، واشكروه يزدكم نعمة، واستغفروه يغفر لكم، قالوا: ما نعرف لله علينا نعمة، فقولوا لربكم: إن كان ذلك منه أن يحبس عنا إن استطاع، عن وهب. «بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ» أي: هذه بلدة طيبة هواها وماؤها وثمارها ونعيمها، وقيل: ليست بسبخة، قال ابن زيد: لم يكن يرى في بلدتهم بعوضة ولا ذباب ولا برغوث ولا حية ولا عقرب، وإذا دخل الركب عليهم، وفي ثيابهم قمل تموت «وَرَبٌّ غَفُورٌ» أي: إن آمنتم غفر لكم «فَأَعْرَضُوا» عن الرسول وأَمْرِ الله وكفروا نعمه «فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ» السيل: الماء الجاري الكثير الذي لا يضبط لعظمه وكثرته، واختلفوا في العرم، قيل: هو المسناة، وهو سد لهم كان يحبس الماء، ويسقي جنتهم وزرعهم، وكانت بَنَتْهُ بلقيس، عن ابن عباس، ووهب، وأبي علي.

(١) تناولت: تناول، ن.

فلما أراد الله هلاكهم وقعت الفأرة في السد، فأفسدته، وفاض الماء عليهم فأغرقهم، عن وهب. وقيل: العِرَم: المطر الشديد، وقيل: هو اسم وادٍ، وقيل: هو اسم للجُرَذِ الذي نقب السدَّ، وقيل: العِرَم: صفة السيل، يعني: سيلاً شديدًا، فأضاف الشيء إلى صفته، والعرب تفعل ذلك كثيرًا، قال تعالى: ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ [فاطر: ٤٣]، عن أبي مسلم. وقيل: العَرِمُ: سد كان يمنع السيل عنهم «**وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ**» أراد تبديل ما في الجنتين وصفتهما الثانية ليست بجنة، ولكن سماه جنة توسعًا «**ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ**» قيل: كل شجر له ثمرة فهو خمط، عن الزجاج. و«**أُكُلٍ**» أي: ثمر، وقيل: الخمط: كل شجر ذي شوك، عن أبي عبيدة. وقيل: الخمط: الأراك، عن ابن عباس، والحسن، وقتادة، والضحاك. وُأكُلُهُ: ثمره، وقيل: شجرة العِضَاةِ «**وَأَثْلٍ**» قيل: هو الطَّرْفاء، عن ابن عباس. وقيل: يشبه الطَّرْفاء إلا أنه أعظم منه. وقيل: الأثل: الخشب، عن الحسن. وقيل: ضرب من الخشب، عن قتادة. وقيل: شجر لا ثمر له يؤكل، عن أبي مسلم. وقيل: هو السمر «**وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ**» قيل: هو شجر النبق من أشجار الوادي لا ينتفع بها، قال قتادة: كان شجرهم خير شجر فصيره الله شر شجر؛ لسوء أعمالهم، وقال الكلبي: كانوا يستظلون الشجر، ويأكلون الثمر، ولا يجيبون الرسل، فبدلهم الله «**ذَلِكَ**» قيل(١): ذلك ما فعله بهم جزاء لهم بما كفروا، «**وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ**» قيل: نعاقب، ومعناه: هل نعاقب بمثل هذا العقاب إلا الكفار، يعني: تعجيل العقاب أو عذاب الاستئصال، عن الحسن، وأبي علي؛ لأنه تعالى يجازي كل أحد، فلا بد من حمله على تأويل، وقيل: يجازي بإزالة النعمة، وقيل: المجازاة: من التجازي، وهو التقاضي، والمتجازي: المتقاضي، أي: لما كفروا النعمة اقتضوا ما أعطوا، أي: ارتجع منهم، وهل يقتضي ما أعطى ويرتجع إلا الكافر، عن أبي مسلم. «**وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا**» قيل: هو الشام، عن مجاهد، وقتادة. وقيل: بيت المقدس، عن ابن عباس. «**قُرًى ظَاهِرَةً**» أي: متواصلة، عن قتادة. وذلك أنه تظهر الثانية من الأولى لقربها منها، وقال الحسن: كان أحدهم يغدو فَيَقِيلُ في قرية، ويروح فيأوي في قرية أخرى، وقيل: كان بين اليمن

---

(١) قيل: قيل الله، ن.

والشام قرى متصلة، وقيل: قرى بين المدينة والشام، عن ابن عباس. وقيل: هو السَّرَوات، عن مجاهد. وقيل: هي قرى صنعاء، عن وهب. «**وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ**» أي: جعلنا السير بين قراهم والقرى التي باركنا فيها سيرًا مقدرًا من منزل إلى منزل، وقرية إلى قرية، فلا ينزلون إلا في قرى، ولا يغدون إلا في قرى لراحة المسافر، أشار تعالى إلى تكامل نعمه عليهم في السفر، كما هي في الحضر «**سِيرُوا**» أي: قلنا لهم: سيروا، وهي إباحة وليس بِأَمْرٍ «**فِيهَا**» أي: في القرى «**لَيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ**» يعني: أيّ وقت شئتم من ليل أو نهار، «**آمِنِينَ**» لا تخافون جوعًا ولا عطشًا ولا ظلمًا من أحد، ولا تحتاجون إلى زاد. فبطروا وبغوا وقالوا: لو كان حتى ثمارنا أبعد مما هي لكان أجدر أن نشتهيه، وقيل: أرادوا التبعد ليخرجوا في الزينة والعدة، وقيل: قالوا تكذيبًا لنعمه تعالى «**فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا**» والأسفار جمع سَفَر، أي: اجعل بيننا وبين الشام فلوات لنركب الرواحل ونتزود الزاد، ففعل بهم ذلك «**وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ**» بالكفر والعصيان، وقيل: ظالمين لأنفسهم باخسين حظها بما سألوا وما فوتوا من النعم «**فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ**» قيل: عبرة وعظة لمن يقف على حالهم وزجرًا عن مثل أفعالهم، وقيل: أهلكناهم وبقيت أخبارهم يتحدث بها الناس، فأما أعيانهم أجسام لا تصير حديثًا؛ لأن الحديث عرض، وقيل: جعلناهم بحيث يضرب بهم المثل فيقال: (تفرقوا أيدي سبأ)، قال كُثَيِّر:

أَيَادِيْ سَبًا يَا عَزَّ مَا كُنْتُ بَعْدَكُم ... فَلَمْ يَحْلُ بِالْعَيْنَيْنِ بَعْدَكِ مَنْظَرُ[1]

وقال آخر:

مِنْ صَادِرٍ أو واردٍ أَيْدِي سَبَا[2]

«**وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ**» أي: فرقناهم كل تفريق، قيل: أهلكناهم بعذاب الاستئصال، فتمزقت أجسادهم، وقيل: استأصل نعيمهم حتى ألجأهم إلى التفريق في العالم، فتشتتوا أعظم التشتت، قال الشعبي: أما غسان فلحقوا بالشام، وأما أوس

(١) اللسان (سبأ).
(٢) اللسان (سبأ).

وخزرج فلحقوا بيثرب، وأما خزاعة فلحقوا بتهامة، وأما الأزد فلحقوا بعمان، والأول أقرب؛ لأنه أضاف التمزيق إلى نفسه، والثاني محتمل؛ لأنه سبب التمزيق فأضافه إليه وإن كان فعلهم. وعن ابن عباس والحسن أنهم هلكوا بالجوع والعطش. «**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ**» أي: فيما تقدم «**لَآيَاتٍ**» لعبر «**لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ**» قيل: هو المؤمن إذا أعطي شكر، وإذا مُنِعَ صبر، قيل: يشكر الله بطاعة الله، ويصبر على المعاصي خلاف مَنْ [إذا] استغنى بطر، وإذا افتقر جزع وحزن، وإنما خصه؛ لأنه ينتفع به.

ومن قال: أهلكوا، اختلفوا بأي شيء أهلكوا؟ قيل: زاد الماء فغرقوا به، وقيل: وقعت الجرذ في السد، فنقبوا وخرج الماء، وجفت جنانهم وخربت، عن أبي علي.

۞ الأحكام

تدل الآيات على وجوب شكر النعمة، ومن قابلها بالكفران يستحق العقوبة.

وتدل أن العقوبة جزاء، ولا حجة للخوارج في الآية؛ لأنه تعالى يجازي كل أحد بما يستحقه.

وتدل على أن تعريف الطرق منه تعالى.

وتدل أنهم استحقوا العقاب بظلمهم، وأن الظلم فِعْلُهم.

وتدل على مدح الصبر والشكر، وأنه فعل العبد؛ لأن من كثر شكره لنعمه أطاعه، ومن كثر صبره على أداء الواجبات والاجتناب عن المحرمات عظمت رتبته.

قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾

القراءة

قرأ عاصم وحمزة والكسائي وأبو عبيد: ﴿صَدَّقَ﴾ بالتشديد، وهو قراءة ابن عباس، أي: ظن فيهم ظنًّا حين قال: لأغوينهم، فصدق ظنه، وحققه بفعله؛ إذ دعاهم فاتبعوه، الباقون: «صَدَقَ» بالتخفيف؛ أي: صدق عليهم في ظنه بهم، وروي عن يعقوب الحضرمي: «صَدَّقَ» مشددة، «إِبْلِيسَ» بالنصب، «ظَنُّهُ» بالرفع أي: صدق عليهم ظن إبليس، فأضاف التصديق إلى الظن.

وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي: «أُذِنَ له» بضم الألف على ما لم يسم فاعله، واخْتُلِفَ عن عاصم، والباقون: ﴿أَذِنَ﴾ بفتح الهمزة، يعني: أَذِنَ الله له.

قرأ ابن عامر ويعقوب: «إذا فَزَّعَ» بفتح الفاء والزاي، الباقون بضم الفاء وكسر الزاي.

اللغة

السلطان: القوة يتسلط بها على الفعل، ثم يكون بالحجة، ويكون بالقوة.

والظهور: الغلبة، والظهير: المعين.

والفزع: الرعب، وهذا مَفْزَعُ القوم إذا فزعوا إليه فيما دهاهم، والفزع: الإغاثة، ومنه قوله ﷺ: «إنكم لتكثرون عند الفزع وَتقِلُّونَ عند الطمع»، وفزعت إليه وأفزعني، أي: لجأت إليه فأعانني، ويقال: أفزعته، أي: رعبته، وأفزعته: أرعبته، قال الفراء: والمُفَزَّعُ يكون شجاعًا ويكون جبانًا، فعلى الأول: يكشف الإفزاع، وعلى الثاني: يفزع من كل شيء، ونظيره: مُغَلَّبٌ أي: غالب، ومغلَّب: مغلوب.

الإعراب

﴿إِبْلِيسُ﴾ رفع لأنه صدق ظنه.

و ﴿فَرِيقًا﴾ نصب على الاستثناء.

۞ المعنى

ثم ذكر تعالى الكفار واحتج عليهم، فقال سبحانه: «**وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ**» لا فرق بين قولهم: صَدَّقَ ظنه؛ لأنهم اتبعوه، وبين قولهم: صدقوا ظنه بأن اتبعوه، فإبليس ظن فيهم ظنًّا فقال: لأغوينهم، ولم يقل عن علم، بل عن ظن، فلما دعاهم فأجابوه صدق ظنه فيهم عليهم، قيل: أهل سبأ، وقيل: على الناس كلهم إلا من أطاع الله، عن مجاهد. «**فَاتَّبَعُوهُ**» فيما دعاهم إليه «**إِلاَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**» علموا قبح متابعته فلم يتبعوه واتبعوا أمر الله تعالى.

ثم بَيَّنَ أنهم في [عدم] اتباعهم الحق أُتُوا من جهتهم، فقال تعالى: «**وَمَا كَانَ لَهُ**» لإبليس «**عَلَيْهِمْ**» على العصاة «**مِنْ سُلْطَانٍ**» قيل: حجة، وقيل: قوة وتسلط سيف، ولكن دعاهم إلى ما وافق هواهم فأجابوه «**إِلاَّ لِنَعْلَمَ**» يعني لكن التخلية بينكم وبينه كانت لهذا الغرض، وهو قوله: «**إِلاَّ لِنَعْلَمَ**» قيل: لنظهر المعلوم من يتبعه ومن لا يتبعه، وقيل: لنعلمه موجودًا كائنًا كما علمناه من قبل أنه سيوجد، وقيل: معناه ليعلم أوليائي فأضاف إلى نفسه تعظيمًا كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٥٧] قيل: العلم بمعنى الرؤية أي: لنرى المؤمن ونميزه ممن ليس بمؤمن، وقيل: إلا لِنُعَامِلَ معاملة مَنْ كأنه لا يعلم، وإنما يعمل ليعلم، وقيل: لنميز، عن أبي علي. «**مَنْ يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ**»، ويرد دعوة إبليس «**مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا**» من الآخرة «**فِي شَكٍّ**».

ومتى قيل: قوله: «**إِلاَّ لِنَعْلَمَ**» استثناء من قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾، فيجب أن يكون له سلطان في المستثنى؟

قلنا: ليس باستثناء حقيقي؛ لأن التسليط هو تخلية مع إرادة، وههنا تخلية لا إرادة معها، وتقديره: ما كان له عليهم حجة وقوة؛ ولكن خلينا بينه وبينهم؛ ليظهر المعلوم منهم.

ومتى قيل: فهلا مَنَعَ إبليس من الوسوسة؟

قلنا: في التخلية زيادة التكليف، ولعل فيه مصلحة لا نعرفها، وقيل: لا يَفْسُدُ بوسوسته أحد؛ لذلك لم يمنعه، عن أبي علي. وقيل: يجوز أن يفسد بوسوسته إلا أنه كُلِّفَ ألا يتبعه، ويكون لطفًا للمؤمنين.

«وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ» قيل: حافظ يحفظ عليهم ليجازيهم على أفعالهم «قُلِ» يا محمد لهؤلاء المشركين: «ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ» يعني: زعمتم أنها آلهة من دون الله، وهي الأوثان، فادعوهم إذا نزل بكم العذاب، وليس هذا بأمرٍ؛ وإنما هو توبيخ؛ ليعلموا أن تلك الأوثان لا تنفعهم، ولا تضرهم، فقال سبحانه: «لاَ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ» أي: لا يقدرون على مثقال ذرة، قيل: من أرزاق العباد، وقيل: من خير وشر ونفع وضر، وقيل: لما نزل من السماء وما نبت من الأرض، عن ابن عباس. وقيل: لا يملكون من أعيان السموات والأرض قدر ذرة؛ لأنه تعالى يتفرد بخلقها والقدرة عليها، والمراد بالذرة المبالغة في النفي على عادة العرب، وإلا فهو لا يملك أقل من ذلك أيضًا «وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ» أي: الأوثان في السموات والأرض شركة، ومثل هذا كيف يكون إلهًا؟

ومتى قيل: إذا نفى ملك ذرة فلم قال: «وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ»؟

قلنا: نفى ملك ذرة على وجه الانفراد، ثم نفى الشركة والإعانة وانقطع ملكهم أصلاً.

ثم بَيَّنَ أنه لا شفاعة لهم أيضًا إزالة لقولهم، فقال سبحانه: «وَلاَ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ» أي: عند الله تكذيبًا لهم في قولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، «إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ» فاستثنى من[1] عِنده: الملائكة والنبيين؛ حيث أذن لهم في الشفاعة فلا تنفع شفاعة أحد إلا من أذن له بالشفاعة، وهذا نفي لشفاعتهم، وقوله: «لَهُ» قيل: يرجع إلى الشافع، وقيل: إلى المشفوع «حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ» يعني: كشف الخوف من قلوبهم «قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ» اختلفوا في المضمرين في قوله: «قُلُوبِهِمْ» وفي قوله: «قَالُوا مَاذَا قَالَ»، و«قَالُوا الْحَقَّ»، قيل: هم المشركون الذين تقدم ذكرهم، والمعنى: حتى إذا كشف الفزع، فيخرج عن قلوبهم الفزع وقت النزع ليستمعوا كلام الملائكة، فتقول الملائكة لهم: ماذا قال ربكم؟ قال هؤلاء المشركون مجيبين لهم: قال الحق، والحالة حالة النزع، و«قُلُوبهم» تعود إلى الكفار، و(قَالُوا) إلى الملائكة و(قال) الآخر إلى الكفار، وفيه إضمار؛ أي: قالوا: قال الحق، عن ابن عباس، وقتادة، وابن زيد. والفزع: ما ينالهم من فزع الموت. وقيل: هذا يكون بعد الخروج من القبور، يعني: إذا كشف الفزع من قلوب

(١) من: ممن، ن.

المشركين قالت الملائكة: ماذا قال ربكم في الدنيا؟ قالوا: الحق، عن الحسن. وفي كلا الوجهين اعترافهم لا ينفع لهم. والفزع الذي كشف عن قلوبهم: قيل: توهمهم أن الساعة قد قامت، وقيل: إذا سمعوا النفخة ضعفوا، فإذا فزع كشف ذلك الفزع قالوا، ومنهم من قال: المضمرون الملائكة، لأن قوله: ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ ترجع الكناية إليهم، واختلف هؤلاء في معنى الآية، فقيل: إذا أوحى الله إلى بعض ملائكته يلحقهم غشي[1] عند سماع الوحي، ويصعقون، ويخرون سجدًا للآية العظيمة، فإذا فزع عن قلوبهم سأل بعضهم بعضًا، فيعلمون أن الأمر في غيرهم، عن ابن مسعود، ومسروق، وأبي علي. وقيل: سمعوا الوحي ويجدون للموت صلصلة عظيمة، فيظنون قيام الساعة أو نزول أمر عظيم، فيفزعون، فإذا كشف سأل بعضهم بعضًا، وقيل: يقولون لجبريل: ماذا قال ربكم؟ فيقول: قال الحق، وقيل: هذا إنما يكون إذا صعدوا بأعمال العباد؛ لأنهم يكتبون أعمالهم، ثم يصعدون، ولهم زَجَلٌ وصوت عظيم، فتحسب الملائكة أنها الساعة، فيخرون سجدًا، ويصعقون، فإذا علموا أنه ليس كذلك قالوا: ماذا قال الحق؟ عن الضحاك. وقيل: لما بعث النبي ﷺ أوحى الله إلى جبريل بصوت عظيم سمعه الملائكة، فصعقوا أو ظنوه الساعة، فإذا كشف عنهم ربك الفزع سألوا جبريل، فقال: إن محمدًا بعث، عن الكلبي. قال: وعندهم أن محمدًا من أشراط الساعة، فإذا بعث فزعوا لا يشكون أنها الساعة، وكان بين عيسى ومحمد ﷺ فترة عظيمة لم تبعث فيه الرسل، وقيل: أهل السموات إذا سمعوا الأمر والنهي خروا سجدًا خوفًا، فأول من يرفع رأسه جبريل، فيأمره الله تعالى بما يسأله أهل السموات، فيخبرهم فيقول: قال الحق، والأول أقرب. ومنهم من قال: الفزع الدعاء، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ﴾ أي: لو تراهم إذا دعوا كيف يجيبون، والداعي فزوع، والمجيب فزع، فيحمل الجواب والابتداء على لفظ واحد، قال الشاعر يخاطب جاريته بإلجام فرسه ليجيب صارخًا:

وَقُلْتُ لِكَأْسٍ أَلْجِمِيهَا فَإِنَّمَا   حَلَلْتُ[2] الْكَثِيبَ مِنْ زَرُودٍ لِأَفْزَعَا[3]

---

(١) يلحقهم غشي: تلحقهم غشية، ن.

(٢) حللت: حللنا، ن. وما أثبتناه من اللسان: ٨/ ٢٥١.

(٣) البيت قائله: هبيرة بن عبد مناف المعروف بـ «الكلبحة اليربوعي» وفي رواية لعجز البيت: نَزَلنا الكَثيبَ مِن زَرودَ لِنَفزَعا. انظر لسان العرب (فزع)، تاج العروس (فزع).

أي: لأجيب الداعي، وقال:

إذا فَزِعوا[١] مَدّوا إلى اللَّيلِ صارِخًا كَمَوجِ الأَتِيِّ[٢] المُزبِدِ المُتَراكِبِ

ومعنى الآية: إذا دعوا وأجابوا، وخص القلوب بذلك؛ لأن الإنسان يعقل بقلبه، والكناية عن المشركين، عن أبي مسلم. وهذا تعسف شديد.

«وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ» قيل: القادر السيد المطاع، وقيل: العلي في صفاته، الكبير في قدرته.

ومتى قيل: كيف اتصل وصف الملائكة لما وصف بما قبله وما بعده؟

قلنا: بَيَّنَ أنه إذا كانت الملائكة صفتهم هكذا، فكيف[٣] يملكون الضر والنفع؟! وإذا كان ذلك حالهم مع منزلتهم فكيف حال الأصنام؟!

«قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ» أي: من السماء بالمطر ومن الأرض بالنبات، فإذا اعترفوا بعجز ما ادعوه من الشركاء عن ذلك علم بأن فاعل ذلك هو الله؛ لأنه القادر على ما يشاء، فإذا ثبتت الحجة بهذا عليهم فـ «قُلِ» على وجه الإنصاف في الحجاج «[اللَّهُ وَ]إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» أي: ظاهر أن أحدنا ضال والآخر مهتدٍ، فإذا ظهر أنا على الحق ثبت أن الضال مَنْ خَالَفَ، كقول أحدهم لصاحبه: أحدنا كاذب، والمعنى: ليس أمرنا واحدًا، فكذبهم بأحسن مما لو صرح بالتكذيب، وقيل: إنما قال ذلك مبالغة في الحجة والمداراة والتلطف في الاستدعاء، وقيل: جمع بين الخبرين[٤] وفوض التمييز إلى العقول كأنه قال: أنا على هدى وأنتم على ضلال، كقول الشاعر:

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا لَدَى وَكْرِهَا العُنَّابُ وَالْحَشَفُ الْبَالِي[٥]

---

(١) إذا فزعوا: ذهبوا، ن. البيت قائله: قيس بن الخطيم، ص ٨٤.

(٢) الأتي: اللاتي، ن.

(٣) فكيف: وكيف، ن.

(٤) الخبرين: الجنون، ن. بدون نقاط. والصحيح ما أثبتناه من مجمع البيان في تفسير القرآن م٥/ج٢٢/٢٠٦.

(٥) البيت قائله: أمرؤ القيس: انظر لسان العرب (أدب)، ديوان امرئ القيس، ص ١٤٥، دار صادر، بيروت.

فجمع بين القلوب الرطبة واليابسة، وجمع بين العناب والحشف البالي، والرطب شبه بالعناب، واليابس بالحشف البالي ليبسها وضمورها.

وقيل: كان هذا في ابتداء الإسلام؛ حيث أمره أن يجادل بالتي هي أحسن، ثم نسخ بآية القتال، وقيل: قاله استهزاء بهم من غير شك، كقول الشاعر:

يَقُولُ الْقَائِلُونَ بَنُو قُشَيْرٍ   طَوَالَ الدَّهْرِ لاَ تَنْسَى عَلِيًّا
فَإِنْ يَكُ حُبُّهُم رُشْدًا أُصِبْهُ   وَلَسْتُ بِمُخْطِئٍ إِنْ كَانَ غَيًّا[1]

ولم يرد الشك، وقيل: (أو) بمعنى الواو، والمعنى: إنا لعلى هدى، وإنكم لفي ضلال مبين «**قُلْ**» يا محمد إذا لم ينقادوا للحجة: «**لاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلاَ نُسْأَلُ**» نحن «**عَمَّا**» كنتم «**تَعْمَلُونَ**» فهي[2] المجازاة أي: لا تؤاخذون بعملنا، ولا نؤاخذ بعملكم.

الأحكام

تدل الآية أن إبليس غير عالم بقبول مَنْ يدعوه؛ ولكن يظن ظنًّا، فصدقوا ظنه باتباعه.

وتدل على أن الشفاعة للملائكة بإذن الله، وأنهم يشفعون للمؤمنين على ما نقوله.

وتدل على أن الرزق من الله.

ويدل قوله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ﴾ على أن للمحق أن يقول ذلك من غير شك، وروي أن أمير المؤمنين (كرّم الله وجهه) احتج به يوم النهر على الخوارج في إنكارهم التحكيم.

(١) البيت قائله: أبو الأسود الدؤلي، وفي رواية يقول:
يقول الأرذلون بنو قشير   طوال الدهر لا تنسى عليا
فإن يك حبهم رشدًا أصبه   وفيهم أسوة إن كان غيًّا
انظر ديوان أبة الأسود الدؤلي، صنعه أبي سعيد الحسن السكري، تحقيق محمد حسن آل ياسين، دار مكتبة الهلال، بيروت، ص ١٥٣ ـ ١٥٤.

(٢) فهي: فهذا، ن.

وتدل الآية الأخيرة أن أحدًا لا يؤاخذ بذنب غيره وأن الذنب فعل العبد.

قوله تعالى:
﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

اللغة

الجمع: ضم الشيء إلى الشيء في معنى ما، جمع الجواهر: ضم أحدها إلى الآخر في الجهة، وجمع الفرع والأصل: ضم أحدهما إلى الآخر في الحكم، والله يجمع بين أهل الحق والباطل يوم البعث، ثم يفصل بينهم.

والفتح: كشف صحة المعنى بما يظهر، والفتح: الحُكْمُ، ومنه الفتاح: الحاكم.

والإلحاق: إيجاب أن الثاني في حكم الأول في أمر خاص يلحقه، أدركه وألحقه به.

والكافة: الإحاطة، أخذ من كُفَّة الشيء، وهو حرفه، فإذا انتهى إليه كف عن الزيادة، وكافة لا تُثَنَّى ولا تجمع، وأصل الكف: المنع، ومنه: كف اليد؛ لأنه يكف بها عن سائر البدن، ورجل مكفوف: ممنوع البصر، وكففته فكف، ومعنى قوله ﷺ: «يتكففون الناس» أي: يسألونهم بأكفهم.

والميعاد: أصله من الوعد وهي من «عاد»؛ ولذلك يجمع مواعيد، قلبت الواو ياء لانكسار ما قبله.

الإعراب

﴿أَلْحَقْتُم﴾ تقديره: ألحقتموهم به، فحذف الهاء والميم لدلالة (الذي).

﴿كَافَّةً﴾ نصب؛ لأنه صفة للرسول، وقيل: نصب على التفسير، ويحتمل أن يكون صفة للرسول وللمرسل إليهم، كلاهما جائزان.

۞ المعنى

ثم أمره تعالى أن يحاكمهم إلى الله لإعراضهم عن الحجة زجرًا ووعيدًا، فقال سبحانه: «قُلْ» يا محمد «يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا» يوم القيامة «ثُمَّ يَفْتَحُ» أي: يحكم «بَيْنَنَا [بِالْحَقِّ]» فيقضي للمحق بالثواب وللمبطل بالعقاب «وَهُوَ الْفَتَّاحُ» القاضي؛ لأنه يفتح وجه الحكم «الْعَلِيمُ» بأعمال خلقه فيحكم[1] بينهم ويجازيهم بحسبه، وعن بعضهم: الموت يُعُّمنا والقبر يضمنا، والقيامة مجمعنا، والرب يقضي بيننا وهو الذي لا يخفى عليه شيء «قُلْ» يا محمد محتجًّا عليهم: «أَرُونِيَ» أعلموني، ولم يرد الرؤية بالبصر؛ لأنهم كانوا يرون الأصنام، وقيل: أروني ما خلق هؤلاء الشركاء «الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ» أي: بالله «شُرَكَاءَ» أي: أشركتموه معه فأروني بأيّ شيء استحق ذلك أم في شيء يثبت الشركة؟ وقيل: أروني ما يستدل به على كونها آلهة كما أريتكم[2] من دلالة التوحيد والعدل، فيعجزون عن ذلك، فإذا عجزوا فقل أنت: «كَلَّا» ليس كما تزعمون «بَلْ هُوَ اللَّهُ» [الذي] لا شريك له ولا ندًّا، يستحق العبادة وحده، وقيل: «كلا» أي: لا حجة لهم فيما يزعمون فالله «الْعَزِيزُ» القادر على ما يشاء «الْحَكِيمُ» فلا يفعل إلا الحكمة، ومن كان هذا صفته لا يجوز عليه الشرك.

ثم بَيَّنَ النبوات، فقال سبحانه: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ» يا محمد «إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ» قيل: جامعًا لهم بالإنذار والدعوة، وقيل: عامة للناس كلهم العرب والعجم وسائر الأمم، عن أبي علي وجماعة. وقيل: كافة، أي: لتكف الناس عما هم عليه من الكفر والمعاصي، أي: تمنعهم بالأمر والنهي والوعيد والإنذار، والكافّ: المانع، والهاء للمبالغة كقولهم: علاّمة ونسّابة [وداهية]، عن أبي مسلم. «بَشِيرًا» لمن اتبعه بالجنة «وَنَذِيرًا» مُخَوِّفًا لمن خالفه بالنار «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» رسالتك بإعراضهم عن التفكر في معجزتك، وقيل: لا يعلمون ما لهم في اتباعك من الثواب والنعم، وما عليهم في مخالفتك من العذاب الأليم.

ثم بيّن استعجالهم بالعذاب تكذيبًا، فقال سبحانه: «وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ»

---

(١) فيحكم: فيحكمه، ن، ت.

(٢) أريتكم: أن يتكلم، ن، ت.

قيل: القيامة، وقيل: العذاب «إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ» في ذلك، وذكر بلفظ الجمع؛ لأنهم ضموا المؤمنين إليه لمتابعتهم إياه وموافقتهم له «قُلْ» يا محمد: «لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ» أي: ميقات يوم وهو يوم القيامة، وعيدًا بالبعث والجزاء وأُخِّرُوا إليه للمصلحة، عن أبي علي. وقيل: هو يوم وفاتهم وقبض أرواحهم، عن أبي مسلم. «لاَ تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلاَ تَسْتَقْدِمُونَ» قيل: لا يتأخر وقت القيامة ولا يتقدم؛ لأنه يعلم وقت الصلاح، عن أبي علي. وقيل: لا تموتون قبله ولا تبقون بعده، عن أبي مسلم.

الأحكام

تدل الآية أنه تعالى يجمع بين الناس يوم البعث للإنصاف والجزاء.

وتدل أنه ﷺ مبعوث إلى الكافة.

وتدل أنه المبلغ للوعد والشرائع؛ لذلك قال: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾.

وتدل أنه لا نبي بعده، وكل ذلك معلوم من دينه ضرورة.

قوله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ۝٣١ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ۝٣٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٣٣ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٣٤ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٣٥ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٣٦﴾

اللغة

الاستضعاف: طلب الضعف فيما يعامل به صاحبه، وكُلُّ مَنْ عامله غيره بما

يقتضي ضعفه عنده فقد استضعفه، وكان هؤلاء الرؤساء يأمرون الأتباع بعبادة الأوثان لضعفهم عن معرفة الصواب.

والاستكبار: طلب الكبر بغير حق، ونظيره: التكبر والتجبر.

وصَدَّ: أَعْرَضَ، وصَدَّ: مَنَعَ، لازم ومُتَعَدٍّ.

والأغلال: جمع غُلٍّ، وهي الجوامع تجمع اليد إلى العنق.

والمُتْرَفُ: المنعم البَطِرُ بالنعمة.

الإعراب

يقال: أين جواب (لو)؟

قلنا: محذوف، تقديره: لو ترى وجوههم لرأيت معتبرًا أو عجيبًا من أحوالهم.

ويقال: لِمَ أضاف المكر إلى الليل والنهار؟

قلنا: لوقوعه فيهما، تقديره: بل مكرهم في الليل والنهار، كقولهم: لَيْلُكَ قائم ونهارك صائم، قال الشاعر:

لَقَدْ [لُمْتِنَا يَا][1] أُمَّ غَيْلَانَ بِالسّرى ... وَنِمْتِ وَمَا لَيْلُ المَطِيِّ بِنَائِمِ[2]

وقيل: هو مضاف إليهما توسعًا، أي: لطول السلامة لهما في الليل والنهار اغتروا، فكأنهما غرُّوا.

النزول

قيل: إن قريشًا بعثوا إلى رؤساء اليهود فسألوهم عن النبي ﷺ، فأنكرت اليهود نبوته، وقالوا: لن نؤمن بهذا القرآن، فنزلت الآيات.

وقيل: نزلت في مشركي قريش.

---

(١) لمتنا يا: مطموس في ن، ت.

(٢) البيت لجرير:

لَقَد لُمتِنا يا أُمَّ غَيلانَ في السُرى ... وَنِمتِ وَما لَيلُ المَطِيِّ بِنائِمِ

انظر: ديوان جرير، ص ٤٥٤، دار صادر.

وقيل: إن النبي ﷺ قاول يهودًا بالمدينة، واحتج عليهم بما وجدوه في كتابهم من صفته، فقالوا هذا القول لفرط الحسد.

المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى مقالهم وحالهم يوم القيامة، فقال سبحانه: «**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا**» قيل: اليهود، وقيل: مشركو العرب «**لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ**» أي: لا نصدق أنه من الله، وأنه حق «**وَلاَ بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ**» قيل: من الكتب المنزلة قبله، عن قتادة. وقيل: الذي بين يديه من الآخرة، يعني: يجحدون الآخرة والقرآن وما دل عليه من البعث والجزاء «**وَلَوْ تَرَى**» يا محمد «**إِذِ الظَّالِمُونَ**» قيل: ظلموا أنفسهم بالكفر، وقيل: ظلموا الرسول بالتكذيب «**مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ**» أي: محبوسون للحساب، ومعنى «**عِنْدَ رَبِّهِمْ**» أي: في الموضع الذي يحكم بينهم، ولم يُرِدْ المكان؛ لأنه تعالى منزه عن المكان «**يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ**» يعني: يتلاومون ويرد كل واحد القول على صاحبه، ويُوَرِّكُ الذنب عليه لفرط التحير وشدة العذاب «**يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا**» قيل: السوقة والأتباع «**لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا**» الرؤساء والمتبوعين من علماء السوء والقادة «**لَوْلاَ أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ**» أي: لولا مكانكم ودعاؤكم إيانا لكنا مؤمنين، قيل: دعوهم إلى الكفر فقبلوا تقليدًا وكفروا بقولهم، وقيل: بل منعوهم من الإيمان بالقهر «**قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا**» المتبوعين مجيبين «**لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا**» للأتباع «**أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ**» الألف ألف استفهام، والمراد الإنكار، أي: أنحن منعناكم «**عَنِ الْهُدَى**» وهو الإسلام «**بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ**» على لسان رسول الله صلى الله عليه «**بَلْ كُنتُمْ مُجْرِمِينَ**» يعني: أن الذنب لكم في كفركم، ودعوتُنا لم تُزِل[1] اختياركم، ولم نحملكم على الكفر قهرًا «**وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا [لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا] بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ**» قيل: مكركم في الليل والنهار، عن الحسن، وابن زيد. وقيل: لطول السلامة في الليل والنهار مكروا اغترارًا، وقيل: مكرهم: احتيالهم طول أيامهم في الصد عن سبيل الله، وقيل: مكر الأيام اغترار منهم بما يُرى على أبواب السلاطين من الجاه والمال والاغترار بآمال[2] كثيرة وأنواع، وإنما يتركها

(١) ودعوتنا لم تزل: وتدعو أنا لم نزل، ن، ت.

(٢) بآمال: بالام، ن، ت.

مَنْ ينظر إليها بعين الاعتبار، وتفكر في أمر الآخرة، واتبع أمر ربه، وترك زينة الدنيا.

ثم بَيَّنَ ما دعوهم إليه، فقال سبحانه: «**إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا**» أشباهًا «**وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ**»، في (أسروا) قولان: أحدهما: أخفوا، والثاني: أظهروا، وهو من الأضداد، فمن قال: أخفوا، اختلفوا، فقيل: أخفوا الندامة في أنفسهم خوف الفضيحة، وقيل: الرؤساء أخفوا الندامة عن الأتباع، وقيل: أخفوا؛ لأنهم علموا أنه لا فائدة في إظهاره. ومن قال: أظهروا، اختلفوا، قيل: أظهر الأتباع الندامة على اتِّبَاعِهِم، وأظهر المتبوعون الندامة على دعائهم، وقيل: لما علموا أنهم مأخوذون به أظهروا الندامة، هذا على إضلاله، وذلك على ضلاله، وقيل: أقبل بعضهم على بعض يلومه ويظهر ندمه.

ومتى قيل: إذا كان في الآخرة لا يكذبون فكيف قالوا: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ ؟

قلنا: عند أبي هاشم وأصحابه أنه صدق لجواز أنه لولا دعاؤهم لآمنوا، كما نقول في وسوسة الشيطان، فأما عند أبي علي أنهم لو علم الله أن دعاءهم مفسدة لمنعهم، فعلى هذا قيل: في الآية إضمار لولا طاعتنا إياكم، وتقربنا إليكم فيما أمرتمونا به لكنا مؤمنين، وهذا صِدْقٌ؛ لأنهم تقربوا بكفرهم إلى رؤسائهم، عن أبي علي. وقيل: أخبروا عن ظنهم وذلك صِدْقٌ؛ لأنهم قالوا فيما يظن، عن علي بن عيسى.

«**لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ**» أي: عاينوه «**وَجَعَلْنَا الأَغْلاَلَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا**» يعني: تغل أيديهم إلى أعناقهم، وذلك نوع عذاب «**هَلْ يُجْزَوْنَ**» بما فعل بهم «**إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**» من الكفر والضلال «**وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ**» أي: من مُخَوِّف «**إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا**» رؤساؤها وأغنياؤها الذين بطروا «**إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ**» وفي هذا تصديق للمستضعفين، وأن الرؤساء كفروا أولاً، وترفعوا عن اتباع الرسل، ثم تبعهم العوام، وأن الأنبياء كانوا ممتحنين بالأغنياء.

ثم بَيَّنَ أنهم رأوا لأنفسهم فضلاً حيث اختصوا بنعم الدنيا، فقال: «**وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا**» ولو لم يرض بما نحن عليه من الدين ما أعطانا ذلك «**وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ**» كما تقولون من البعث، وقيل: لا يعذبنا أو لو ردنا إلى الآخرة لأعطانا مثل ما أعطانا في الدنيا من النعم «**قُلْ**» يا محمد مجيبًا: «**إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ**» أي: يوسع على من يشاء ويضيق على من يشاء بحسب المصلحة «**وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ**»

ذلك لا أنه يوسع لفضله أو يضيق لهونه، وروي عن النبي ﷺ: «اللهم من عصى أمري فأكثر ماله وولده، واجعل رزق آل محمد الكفاف»، وقيل: كانوا يفاخرون بالمال والولد، كما يفعل بعضهم مع بعض.

الأحكام

تدل الآية على ما يجري يوم القيامة بين الأتباع والمتبوعين من التوبيخ، وما يجري من الندامة منعًا من التقليد، وحثًّا على النظر؛ ليعرف الحق ويعتقده.

ويدل قوله: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ﴾ على صحة قول أبي هاشم على ما بيَّنَّا.

وتدل على أن الإضلال ليس بِفِعْلِ الله ولا خلقه ولا إرادته؛ لأنه لو كان كذلك لكان الفريقان بريئين من الكفر، ولقالوا: الله أَضَلَّنَا.

وتدل أنه لا يؤاخذ أحدًا إلا بجزاء ما فعل.

ويدل قوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ على بطلان قول من يزعم أن المعارف ضرورة.

قوله تعالى:

﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾

القراءة

قرأ يعقوب الحضرمي: «جَزَاءً» بالنصب والتنوين، «الضِّعْفُ» بالرفع على التقديم والتأخير، (أولئك لهم جزاء الضعف)، قراءة العامة بالرفع غير منون، ﴿ٱلضِّعْفِ﴾

بالكسر مضافًا إليه، وإنما أضاف الجر إليه لأنه عرف الضعف بالألف واللام، والتعريف يكون للمعهود، والضعف هو قوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] وهو المعهود، فأضاف إليه، وقرئ بضم ألف «جَزَاءٌ» ونصب «الضِّعْفَ» على تقدير: أولئك يجازون الضعف، فيكون الضعف المفعول الثاني من الفعل الذي لم يسم فاعله كقوله: أعطي زيد درهمًا، ويجوز في (جزاء) أربعة أوجه: الرفع، والنصب، والتنوين، وترك التنوين، وفي (الضعف) ثلاثة أوجه: الحركات الثلاث، إلا أن القراءة ما ذكرنا.

قرأ حمزة: «الغُرْفَةِ» على واحدة، وهو قراءة الأعمش، الباقون: «الغُرُفَاتِ» على الجمع اعتبارًا بقوله: ﴿مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ [العنكبوت: ٥٨].

قرأ ابن كثير وأبو عمرو: «مُعَجِّزِين» بلا ألف وتشديد الجيم، الباقون بالألف، وقد بيّنّا في سورة (الحج).

قرأ حفص عن عاصم ويعقوب: ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ بالياء كناية عن اسم الله تعالى، وتقدم ذكره في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى﴾، ولأنه ذكر في قوله: ﴿يَبْسُطُ﴾، ﴿وَيَقْدِرُ﴾ و﴿يُخْلِفُ﴾، الباقون على الإضافة إليه بالنون؛ لأنه أفخم.

۞ اللغة

التقريب: من القُرْب، قَرَّبَ تقريبًا، وقَرَبَهُ مُتَعَدٍّ، وقَرُبَ يَقْرُبُ لازم، الأول: نحو صَدَقَهُ، والثاني: نحو كَرُمَ، والقربة: ما يتقرب به إلى الله تعالى.

والزلفى: القربى، وهو مصدر، ومنه: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٦٤] أي: قربنا، وأزلفت الرجل: أدنيته، والزُّلْفَى والزُّلْفَةُ: الدرجة والمنزلة، ومزدلفة سميت بذلك لاقتراب الناس إلى مِنًى.

والبَسْط: خلاف القبض، وبَسُط الرزق: إسباغه والزيادة فيه.

والقدر: استواء الشيء بغيره من غير زيادة ولا نقصان.

الإعراب

(مَنْ) في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون محله نصبًا على الاستثناء المنقطع من الكاف في (تقربكم)[1] والهاء من (فيه) تقريب، وقيل: هو مستثنى من الكاف والميم في ﴿تُقَرِّبُكُمْ﴾ محلها نصب، كذلك المستثنى منه.

الثاني: يكون محله رفعًا، تقديره: لَكِن المؤمنون لهم جزاء الضعف على معنى الجملة من الابتداء والخبر.

ويقال: لِمَ قال: ﴿بِالَّتِي﴾ وقد تقدم ذكر شيئين؟

قلنا: قيل: للاختصار، والعرب تذكر اسمين، ثم تعبر عن فعل أحدهما لدلالة المذكور على المحذوف.

المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى تفاخرهم بالدنيا، ورد[2] عليهم، فقال سبحانه: «**وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى**» أي: لا تقربكم من ثواب الله ورضاه كثرة أموالكم وأولادكم قربة، والزلفى: القربى، عن مجاهد. «**إِلاَّ**» بمعنى لكن الذي يَقْرُبُ من ثوابه «**مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا**» تقديره: يقربكم الإيمان والعمل الصالح، وقيل: ما يقربكم إلا أن تؤمنوا وتعملوا صالحًا، و«**آمَنَ**» صدق الله ورسوله، «**وَعَمِلَ صَالِحًا**» أي: **عمل** بطاعة ربه، وقيل: أنفق ماله في سبيل الخير «**فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ**» أي: جزاء الإضعاف، كقوله: ﴿فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾ [الأنعام: ١٦٠]، ومعنى الكلام: من آمن وعمل صالحًا فله في الآخرة ثوابه ويضاعف على ذلك، وقيل: «**جَزَاءُ الضِّعْف**»: أنه يعطيهم جزاءهم وقتًا بعد وقت، فيعطيهم في كل وقت مثل الذي أعطى قبله، وهو معنى

---

(١) من الكاف في تقربكم: والها من فيه تقريب، ن، أنظر، البحر المديد ٤/ ٥٠.

(٢) ورد: يرد، ن.

التضعيف في الجزاء؛ لأنه يديمه أبدًا، عن أبي علي. وقيل: «**جَزَاءُ الضِّعْفِ**» الذي أعلمناكم مقداره وهو عشرة أمثالها، وقيل: «**جَزَاءُ الضِّعْفِ**»: أي: المثل، أي: أعطيناهم في الآخرة مثل ما كان لهم في الدنيا من النعيم بعملهم، عن أبي مسلم. وقيل: إنما استثنى المؤمنين من الأغنياء بأن لهم جزاء الضعف بما عليهم من المشقة من وجهين:

أحدهما: أن غناهم يدعوهم إلى الإسراف والفساد، فتلحقهم مشقة في الامتناع.

والثاني: يدعوهم الشرع إلى الإنفاق في المعروف، فتلحقهم باتباعه مشقة.

«**وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ**» قيل: في القصور آمنون من زوالها ومن كل ما يُخاف «**وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ**» يعملون «**فِي آيَاتِنَا**» حججنا، قيل: يسعون في رد الآيات، وقيل: يسعون في منع الناس عن الإيمان «**مُعَاجِزِينَ**» قيل: مقدرين أنهم يفوتون الله، وقيل: معاجزين للأنبياء والمؤمنين، عن أبي علي. «**أُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ**» أي: يحضرون للتعذيب، وقيل: أراد الأتباع والمتبوعين «**قُلْ**» يا محمد: «**إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ [لَهُ]**» يضيق بحسب المصلحة.

ومتى قيل: لِمَ كرَّر هذه الآية؟

قلنا: لأن الأول توبيخ للكافرين وهم المخاطبون به، والثاني عظة للمؤمنين، كأنه قال: ليس ما أعطيت الكفار لفضيلة لهم، بل يزيدهم عقوبة، وخاطب المؤمنين بأن أموالهم تقربهم؛ لأنهم ينفقونها في سبيل الله، وقيل: الأول: أنه يبسط الرزق ويقدر من غير أن يعلم أكثر الناس المصلحة فيه، والثاني: أنه يبسط ويقدر وأن من ينفق يخلفه عليه، فالأول جواب للكفار، والثاني الترغيب في الإنفاق.

«**وَمَا أَنفَقْتُم مِنْ شَيْءٍ**» أي: أخرجتم من أموالكم في وجوه البر «**فَهُوَ يُخْلِفُهُ**» أي: يعطي خلفه في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا زيادة النعيم، وفي الآخرة ثواب الجنة، واختلفوا، فحمله بعضهم على النفقة في أعمال البر والمباحات، وما كان من غير إسراف ولا تقتير فهو يخلفه، ومنهم من حمله على أعمال البر، وهو اختيار أبي علي. «**وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ**»؛ لأنه يعطي المنافع عباده لا يدفع به ضررًا عن نفسه، ولا يجر نفعًا إلى نفسه؛ لاستحالة المنافع والمضار عليه «**وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا**» الكفار الذين

تقدم ذكرهم «ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ» الكفار «إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ» في الدنيا، قيل: كان قوم يعبدون الجن لظن أنها الملائكة، وقيل: كانوا يعبدون الملائكة، وهذا سؤال توبيخ للكفار وليظهر براءة الملائكة، كقوله لعيسى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] الآية، «قَالُوا» يعني: الملائكة «سُبْحَانَكَ» أي: تنزيهًا لك عن الشريك، وقيل: ما أعظم قولهم في ذلك «أَنْتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ» لأنا عبيد لك، وقيل: أنت ولينا؛ أي: نتولى تعظيمك وعبادتك، فكيف ندعو غيرك، وقيل: أنت المتولي للقيام بأمورنا «بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ» قيل: عادتهم قبول قولهم في عبادة غير الله، وقيل: بل كانوا يعبدون الجن على ظن أنها الملائكة، وقيل: معناه: أن ذلك كان عبادة للشيطان؛ لأنهم بدعائه فعلوا ذلك «أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ» يعني: أكثر الغواة يطيعون الشياطين في معصية الله ويصدقونهم فيما يدعونهم إليه، فجعل طاعتهم إيمانًا بهم توسعًا «فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ» أي: يجازيهم الله فلا يملك أحد منهم لصاحبه «نَفْعًا وَلَا ضَرًّا» وقيل: نفعًا: شفاعة، وضرًّا: عذابًا «وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا» بكفرهم، إما أنفسهم بالإهلاك أو رسوله بالتكذيب «ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ» في الدنيا توبيخًا لهم.

الأحكام

تدل الآية على أن المال والولد لا يقرب الإنسان إلى الله تعالى، وذلك من أقوى الحجاج؛ لأن المال والولد لما كان فعله تعالى لا يستحقون عليهما ثوابًا.

وتدل أن الثواب يستحق بالأعمال والعمل والصالح.

وتدل أنه تعالى تكفل للمنفق المال في البر بالخلف، ولا يبعد أن النفقة في المباح بمثابته.

وتدل على توبيخ الكفار يوم القيامة بعبادة غير الله وخسرهم وجزائهم.

وتدل أن أحدًا لا يملك لأحد شيئًا.

وتدل على أن عبادة غير الله فِعْلُهُمْ، فيصحُّ(١) قولنا في المخلوق.

(١) فيصح: فيصحح؛ ن، ت.

قوله تعالى:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾

۞ القراءة

قرأ يعقوب وحده: «تفكروا» بدغم التاء في التاء مشددة، وكذلك قوله: ﴿تَتَمَارَىٰ﴾ [النجم: ٥٥] في (النجم)، والباقون بالإظهار.

۞ اللغة

المفترى والمختلق والمفتعل والمُتَخَرَّص من النظائر.

والمعشار: العشر، وأصل الباب: العَشَرَةُ، وهي عدد معروف.

والنكير: الإنكار، يقال: نَكِرْتُ الشيء، وأَنْكَرْتُهُ.

والموعظة: الدعاء إلى الخير والتحذير من خلافه.

يقال: معشار ومرباع، ولا يقال في غيرهما كذلك، لا يقال: مخماس ومسداس.

ومثنى: معدول عن اثنين. وفرادى: جمع فرد.

۞ الإعراب

﴿أَن تَقُومُوا۟﴾ محله كسر بدلاً من (واحدة).

و ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ محلهما نصب على الحال، وهو بَيِّنٌ.

و(ما) في قوله: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم﴾ نفي وجحد، فعلى هذا يكون الفعل الأول تامًا عند قوله: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾، ثم ابتدأ فقال: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ أي: ليس به جنون، ويحتمل أن يكون استفهامًا ويرتبط بالعمل الأول تقديره: وتتفكروا هل بصاحبكم من جنة أم لا؟.

النزول

قيل: لما نزل قوله: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] يعني: تودون قرابتي لأجلي، أو تودوني لأجل قرابتي منكم، فقالوا: هل رأيتم أعجب من هذا، إنه يشتم آلهتنا، ويرى قتلنا، ويطمع منا أن نحبه، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ أي: لا أبتغي بذلك أجرًا، وإنما أبتغي ثواب الله ورضاه.

المعنى

ثم عاد إلى ذكر الكفار، فقال سبحانه: «**وَإِذَا تُتْلَى**» تقرأ «**عَلَيْهِمْ**» على هؤلاء الكفار «**آيَاتُنَا**» قيل: سائر الحجج، وقيل: القرآن «**قَالُوا مَا هَذَا**» أي: محمد «**إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ**» يمنعكم «**عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ**» لما أعجزتهم الحجة فزعوا إلى تقليد الآباء «**وَقَالُوا مَا هَذَا**» يعني: القرآن الذي تتلوه «**إِلاَّ إِفْكٌ مُفْتَرًى**» قيل: الإفك الكذب، ومفترى تأكيد له، أي: كذب مكذوب، كقولهم: قول مقول، وقيل: الإفك: الكذب، والمفترى: الذي قد افتراه غير من يدعيه «**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ**» أي: مُمَوَّهٌ «**وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا**» قيل: ليس معهم كتاب ولا حجة في صحة ما رموك به، عن أبي مسلم. وقيل: ما أعطيناهم كتبًا تشهد بصحة دعواهم حتى يدرسوا ذلك الكتاب، ويحتجوا به، و«**يَدْرُسُونَهَا**» يقرؤونها «**وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ**» يا محمد «**مِن نَّذِيرٍ**» مبين يخوفهم، يعني: لم يأتهم رسول بصحة ما ادعوه من الشرك، فهم لا يرجعون في ذلك إلا إلى الجهل وتقليد الآباء، وقيل: معناه: إن سلفهم انقرضوا على الجهل من غير أن يمسكوا بكتاب، فلأي وجه يتبعونهم هؤلاء؟! «**وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ**» يعني: الأمم كذبت الرسل، فليس تكذيب هؤلاء ببدع، بل سلكوا سبيل من مضى، وفيه تسلية للنبي ﷺ «**وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا**

آتَيْنَاهُمْ» يعني: لم يبلغ الكفرة الذين بُعِثَ إليهم محمد عشر ما أوتي الأمم قبلهم من القوة والعدة، عن ابن عباس، وقتادة. يعني: فَهُمْ مع ذلك اقتدوا بكفرهم وتكذيبهم الرسل «فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ» على أولئك، أي: انظر في آثارهم كيف كان إنكاري عليهم بالهلاك نحو عاد وثمود؟! عن أبي مسلم. وقيل: فانظر كيف يكون نكيري على هؤلاء مع ضعفهم وقصور درجتهم حيث ينزل بكفار هذه الأمم ما نزل بالأمم الماضية «قُلْ» يا محمد: «إِنَّمَا أَعِظُكُمْ» آمركم وأوصيكم مقرونًا بالزجر والوعيد والوعد «بِوَاحِدَةٍ» أي: بخصلة واحدة، قيل: بكلمة التوحيد، ويقال للكلام وإن كثر: كلمة، كما يقال: كلمة الأعشى، وقيل: فسر الواحدة بما بعده فقال: «أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ» أي: بطاعته وطلب مرضاته، مسترشدين مناصحين لأنفسهم لا للهوى، وقيل: بطاعة الله، عن مجاهد. «مَثْنَى» أي: اثنين اثنين متناصرين يستعين برأي صاحبه على أمره «وَفُرَادَى» واحدًا واحدًا متفكرين حتى يوفى النظر حقه «ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا» في أحوال النبي وأقواله وأفعاله وما ظهر عليه من المعجزات «مَا بِصَاحِبِكُم مِّنْ جِنَّةٍ» قيل: فتعلموا حينئذ أنه ليس به جنون، وقيل: هل به جنون أم لا؟ «إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ» يعني: مُخَوِّفٌ للكفار «بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ [شَدِيدٍ]» أي: أمام عذاب، قيل: عذاب الآخرة أعدها الله لكم وهو مخوف به «قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ» على أداء الرسالة وبيان الشريعة وما قدمته من النصيحة «مِنْ أَجْرٍ» أي: جُعل «فَهُوَ لَكُمْ» أي: لو سألتكم ذلك كان(١) لكم، لا مطمع لي فيكم غير القبول «إِنْ أَجْرِيَ» ثوابي «إِلاَّ عَلَى اللَّهِ» فيما حملته «وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ» أي: شاهد، وفي شهيد مبالغة.

۞ الأحكام

تدل الآية على ذم التقليد، وأن ذلك كان عادة الكفار وأهل البدع.

وتدل على صحة الحجاج في الدين والتحاكم إلى ما في العقول، وأن طريق معرفة الحق التفكر في الأدلة.

---

(١) كان: +، هامش، ن.

وتدل أن للنظر أثرًا في معرفة الحق؛ لأنه يتجلى له الشبه، وتتضح الأدلة، لذلك قال: ﴿مَثْنَىٰ﴾.

وتدل على أن التفكر والقيام والتكذيب فعلهم.

قوله تعالى:

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾

القراءة

قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي: «التَّنَاؤُشُ» بالمد والهمز، والباقون بغير همز ولا مد، واختلف عن أبي بكر فروي عنه كلا الوجهين، فمن همزه فهو من النَّئِيشِ، وهو حركة في إبطاء، يقال: جاء نَئِيشًا، أي: مبطئًا، ومن لم يهمز فهو من النوش، وهو التناول، وقيل: من همز فهو منه أيضًا، قال الشاعر:

وَهْيَ تَنُوشُ الحَوْضَ نَوْشًا مِنْ عَلاَ[1]

وتناوش القوم: دنا بعضهم من بعض، ولم يلتحم بينهم، يقال:

نَـوْشًـا بِـهِ تَـقَـطَّـعُ أَجْـوَازَ الْـفَـلاَ[2]

وقيل: نُشْتُ الشيء، وتناوشته: إذا نلته، فعلى هذا القراءتان ترجعان[3] إلى أصل واحد.

---

(١) اللسان (علا).

(٢) اللسان (علا) وهو الشطر الثاني من البيت السابق.

(٣) ترجعان: يرجعان؛ ن، ت.

والبأس: الأخذ والبطش، ورجل بئيس[1]: ذو بطش.

(علام الغيوب) قرئ بالرفع والنصب، فالنصب على تقدير: إن ربي علام الغيوب، وقيل: بمحذوف تقديره: إن ربي يقذف بالحق، أي: علام الغيوب، فأما الرفع قيل: على البدل من الضمير في **(يقذف)**، وقيل: على تقدير: هو علام الغيوب، وقيل: هو خبر (إنّ)، و(إنّ) تنصب الاسم وترفع الخبر.

(يقذفون) قراءة العامة فتح الياء لإضافة القذف إليهم، وقرئ بضم الياء على ما لم يُسَمَّ فاعله.

اللغة

القذف: إلقاء الشيء عن عظيم شأن، ومنه: القذف: الرمي بالقبيح، والقذف والرمي والرجم واحد.

والفزع والخوف والرعب نظائر، وهو توقّع المكروه.

والمكان: ما يتمكن عليه غيره، مأخوذ من التمكن.

والقرب والبعد من النقيض، ويرجعان إلى الأكوان.

والحيلولة: المنع بين الشيئين.

وأشياع: جمع الجمع، يقال: شِيعَةٌ وشِيَعٌ وأشياع.

الإعراب

يقال: أين خبر: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ ؟

قلنا: محذوف، تقديره: لو رأيت لرأيت ما يعتبر به زجرًا عظيمًا، ونحو ذلك، وقيل: في تقدير الكلام أنه على التقديم والتأخير، ونظمه: ولو ترى إذ أخذوا من مكان قريب فزعوا فلا فوت؛ لأن الفزع يكون من الأخذ، فعطف المتقدم على المتأخر.

---

(١) بئيس: بؤس؛ ن.

المعنى

ثم أمر بمحاجة القوم وإنذارهم، فقال سبحانه: «قُلْ» يا محمد: «إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ» أي: يرمي بالوحي بأن ينزله من السماء إلى الأنبياء «عَلَّامُ الْغُيُوبِ» مبالغة في كونه عالمًا، ولأنه عالم لذاته، ومعلوماته لا تتناهى، ويعلم كل شيء، ولا يحتاج في كونه كذلك إلى شيء «قُلْ» يا محمد بعد إقامة الحجة عليهم: «جَاءَ الْحَقُّ» وهو القرآن والإسلام، وقيل: السيف «وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ» قيل: ذهب الباطل، فلم يبق له مع الحق ثبات ولا ظهور لزوال شبههم وظهور حجته، فلا يبدئ بها ولا يعيد، وهذا على عادة العرب يقولون للمقهور العاجز من الجواب: ما تُمِرُّ وما تُحْلَى، وما تبدئ وما تعيد، ويقولون للشيء إذا تلاشى فلا يُرْجَى عوده، قال الشاعر:

أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ عَبِيدُ ... فَالْيَوْمَ لاَ يُبْدِي ولا يُعِيدُ[1]

كأنه قيل: لا يقوم دينهم في بدو ولا عود في معنى قول أبي مسلم، وتقدير الكلام: يقول الجن تعلم الغيب وقد جاء الحق فلا ثبات للباطل ولا قوام، وهو دين المشركين، ونظير ذلك قوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٨]، وقيل: معناه: إن أكثرتم اللجاج ونصرتم الباطل لم ينفعكم؛ لأنه جاء الحق وزهق الباطل فيما يبدئ وما يعيد، قيل: الباطل: إبليس، أي: لم يخلق شيئًا ولا يعيده؛ بل الإله المبدئ للأشياء المعيد لها بعد الإفناء، عن قتادة. وقيل: الباطل كل معبود دون الله، يعني: لا يخلق شيئًا ابتداء ولا يعيد، وقيل: كل معبود دون الله لا يبدي لحزبه خيرًا في الدنيا ولا يعيد بخير في الآخرة، عن الحسن، و[روي عن] ابن مسعود [أنه][2] قال: دخل رسول الله ﷺ مكة وحول البيت ثلاثمائة وستون صنمًا، فجعل يطعنها بعود معه، ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد». «قُلْ» يا محمد لهم إذا نسبوك إلى الضلال وترك دين الآباء: «إِن ضَلَلْتُ» كما تزعمون «فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي» أي: أوخذ بذلك دونكم «وَإِنِ اهْتَدَيْتُ» فبفعل ربي حيث أوحى إليّ، فله المنة دون الخلق «إِنَّهُ سَمِيعٌ» لأقوالنا «قَرِيبٌ» منا لا يخفى عليه المحق

(١) أساس البلاغة (بدا)، وتاج العروس (قرض).

(٢) البخاري، رقم: ٢٣٤٦.

والمبطل، وقيل: سميع الدعاء قريب الإجابة، ولم يرد قريب المكان؛ لأن ذلك يستحيل عليه «وَلَوْ تَرَى» يا محمد «إِذْ فَزِعُوا» خافوا عذاب الدنيا «فَلَا فَوْتَ» أي: لا نجاة «وَأُخِذُوا» بعذاب الدنيا «مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ»، عن ابن عباس. وقيل: أخذوا يوم بدر، عن الضحاك، وزيد بن أسلم. وقيل: من تحت أقدامهم، عن الكلبي. وقد روي مرفوعًا «أن السفياني[1] يخرج ويبعث جيشًا فيخرج جيش الكوفة فيقتلهم [ثم يسير] إلى المدينة ثم خسف[2] الله بهم الأرض»[3] «وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ» من تحت أقدامهم، وقيل: الفزع: إجابة الداعي، يعني: لو ترى إذ أجابوا داعي الله عند قبض الملائكة أرواحهم، فلا يقدرون أن يفوتوه، عن أبي مسلم. وقيل: فزعوا من أهوال القيامة [حين] دعوا من قبورهم فأجابوا وعاينوا أهوالها، وساء ما يكرهون فلا يمكنهم الفوت، عن الحسن، وقتادة. «فَلَا فَوْتَ» قيل: لا مهرب، عن الضحاك. وقيل: لا يفوتون، وأخذوا من أقرب ما يكونون؛ لأنهم حيث كانوا لا يبعدون من الله؛ لأنه تعالى ليس في مكان. وقيل: «مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ» من بطن الأرض يحشرون إلى وجوهها من غير منع، عن الحسن. «وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ» يعني: حين عاينوا العذاب قالوا: آمنا به، قيل: هو يوم القيامة، وقيل: عند الموت ورؤية البأس، وقيل: عند الخسف في حديث السفياني و«به» قيل: بالله، وقيل: بالرسول، وقيل: بالقرآن «وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ» أي: تناول التوبة «مِن مَكَانٍ بَعِيدٍ» أي: من الآخرة، وهم غير مكلفين، يعني: كيف ينتفعون بإيمانهم في هذا الوقت وهو القيامة؟! وإنما ينتفع به في الدنيا. وقيل: كيف لهم أن يتناولوا ما كان قريبًا منهم مبذولاً لهم، فلم يتناولوه؟ فكيف يتناولون حين يعذب، وهو من السير البطيء بل يحركه، وقيل: معناه: كيف ينتفعون بتوبتهم «وَقَدْ كَفَرُوا [بِهِ] مِنْ قَبْلُ» في الدنيا، ولم يرد بُعْدَ المكان؛ وإنما أراد بُعْدَ انتفاعهم به وبُعْدَهُم عن الصواب، وقد كفروا بالله أو بالرسول أو بالقرآن من قبل في الدنيا «وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ» أما من فتح ياء (**يقذفون**)

---

(١) في ن: الشعباني. بدون نقاط. وما أثبتناه من هامشها ظ.

(٢) في ن: كسف. وما أثبتناه من هامشها ظ.

(٣) المستدرك رقم ٨٥٨٦ «. . . ويبعث السفياني جيشًا وعِدّتُهم سبعون ألفًا فيصيبون من أهل الكوفة قتلاً وصلبًا وسبيًا فبيناهم كذلك إذ أقبلت رايات من قبل خراسان وتطوي المنازل طيًا حثيثا ومعهم نفر من أصحاب القائم ثم يخرج رجل من موالي أهل الكوفة فى ضعفاء فيقتله أمير جيش السفياني بين الحيرة والكوفة ويبعث السفياني بعثًا إلى المدينة فينفر المهديُّ منها إلى مكة...» انظر المجلس، بحار الأنور.

اختلفوا، قيل: يرمون محمدًا بالظنون من غير يقين، ذلك قولهم: هو ساحر، هو شاعر، عن مجاهد. وقيل: ردوا قوله بما لا حقيقة له من تمويههم به، وقيل: هو قولهم: لا جنة ولا نار ولا بعث، عن قتادة. يعني: يقولون ذلك ظنًا لا يقينًا، فأما من ضم الباء فمعناه: أن هؤلاء كانت علماؤهم وقراؤهم (**يقذفون**) أي: يرمونهم بشبهات وترهات، ويوردون عليهم ما يظلمونهم بها، كما يفعله أهل البدع في زماننا هذا، وقذف الغيب من مكان بعيد عبارة عن الكلام الذي يقوله الجاهل جزافًا من غير تحقيق. وقيل: كانوا يرجمون بالظنون الكاذبة ما لم تقم به حجة، فذلك رميهم بالغيب، عن الزجاج. «**وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ**» أي: منعوا عن مشتهياتهم، قيل: بالموت الذي حل بهم كما حل بأمثالهم، عن أبي مسلم. وقيل: منعوا من كل مشتهى، فيخلق الله تعالى فيهم النفار، فلا يدركون شيئًا إلا ويتألمون به. وقيل: حيل بينهم وبين نعيم الجنة، عن أبي علي. وقيل: مشتهياتهم التوبة والإيمان أو الرد إلى الدنيا وقد منعوا منه. وقيل: رفع العذاب عنهم «**كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم [مِنْ قَبْلُ]**» أهل دينهم وموافقيهم من الأمم الماضية حتى لم تقبل منهم توبة وقت اليأس ورؤية العذاب. وقيل: يعذبهم بأنواع العذاب كما فعل بأمثالهم من الكفار. [و] قيل: ينزل عليهم عذاب الدنيا بالقتل والسيف كما فعل بأولئك.

ثم بَيَّنَ لأيِّ شيء فعل ذلك بهم، فقال سبحانه: «**إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ**» أي: لم يكونوا في دينهم على شيء؛ بل كانوا شاكين، وهكذا كُلُّ كفر وبدعة.

۞ الأحكام

يدل قوله: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ أن الباطل لا ثبات له مع الحق.

ويدل قوله: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ﴾ أن الضلال ليس من فعل الله تعالى، ولا خلقه وإرادته؛ لأنه لو كان كذلك لكان إضافته إليه أولى، فأما إضافة الهدى إليه فمن حيث كان بهدايته وتوفيقه وألطافه وآلائه وأمره، وذلك يدل على صحة مذهب العدل وبطلان الجبر.

ويدل قوله: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ أن التوبة في ذلك الوقت لا تنفع؛ لأنه لا تكليف، وأكد ذلك بقوله: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾، وكل ذلك حث على التوبة قبل الفوت.

سُورَةُ فَاطِر

سورة (الملائكة) مكية فيما نقل، وهي خمس وأربعون آية.

وعن أبي بن كعب أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ سورة (الملائكة) دعته يوم القيامة ثمانية أبواب من الجنة: أن ادخل من أي باب[1] شئت».

ولما ختم السورة المتقدمة بالرد على المشركين الذين عبدوا غير الله، افتتح هذه السورة بذكر التوحيد ودلائل الوحدانية، وأن الملائكة وغيرهم كلها مخلوقة له فكيف كانوا آلهة وشركاء؟!.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي
الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا
يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ
خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣) وَإِن يُكَذِّبُوكَ
فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ
الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥)﴾

---

(١) من أيّ باب: أي أبواب، ن. وما أثبتناه من الكشاف: ٥/ ٤٢٠.

۞ القراءة

قرأ أبو جعفر وحمزة والكسائي: «هل من خَالِقٍ غَيْرِ الله» بكسر الراء من (غير)، وقرأ الباقون بالضم، وعن بعضهم بالفتح.

أما الرفع لوجهين:

أحدهما: على التقديم، وتقديره: هل غير الله من خالق.

الثاني: أنه عطف على محل (خالق)، وهو محل الرفع؛ لأن (هل) يرفع ما بعده.

فأما الخفض فلعطفه[1] على لفظ (خالق).

وأما النصب فعلى تقدير: هل من خالق إلا[2] الله.

قراءة العامة: «الغَرُورُ» بفتح الغين، يعني: الشيطان، وعن ابن السماك بضمها، يعني: كل شيء يَغُرُّ، وقيل: الغُرور بالضم: ما يَغُرُّ ظاهرُهُ وفي باطنه مكروه.

۞ اللغة

الفَطْرُ: أصله الشق، وفَطْرُ السماوات: خَلْقُها، وقيل: الفَطْرُ: ابتداء الشيء، ومنه: فَطَر نابُ البعير، عن أبي مسلم.

۞ الإعراب

﴿مَّا يَفۡتَحِ﴾ شرط فهو جزم، فإذا حرك حرك إلى الكسر، ويجوز في الضم على معنى: الذي يفتح.

﴿فَاطِرِ﴾ كسر على معنى: الحمد لِفاطِرِ وجاعل.

﴿أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ﴾ هو نعت للرسل.

﴿مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾ لا ينصرف في معرفة ولا نكرة؛ لأنه معدول من اثنين اثنين، وثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة.

---

(١) فلعطفه: لعطفه؛ ن.

(٢) إلا: غير، ن؛ ويقصد به النصب على الاستثناء، والخبر إما (يرزقكم] وإما محذوف و(يرزقكم) استئناف. البحر المحيط ٩/ ٤.

وقوله: ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾ يقال: لم ذُكِّر، وأنَّث قوله: ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ ؟

قلنا: أما ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ كناية عن الرحمة، وأما «له» اختلفوا، قيل: يرجع إلى العذاب وإلى تغير الرحمة [وهو] غير حقيقي؛ لأنه ليس من جنسها ذكر، فجاز فيه التذكير والتأنيث، وقيل: «له» أي: لما يمسك؛ لأن (ما) بمنزلة (الذي)، و(الذي) يذكَّر.

۞ المعنى

«الْحَمْدُ لِلَّهِ» أي: قولوا: الثناء الحسن وشكر النعم كلها لله الذي تحق له العبادة الذي هو «فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ» أي: خالقها، فأمر بحمده وشكره على نعمه في الدنيا.

ثم عقب بنعم الدين، فقال سبحانه: «جَاعِلِ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً» إلى الأنبياء لتعرفهم مصالح الخلق، وتهديهم إلى رشدهم، وقيل: جعل بعضهم إلى بعض أو إلى الأنبياء، وهو اختيار القاضي. وقيل: أعدهم لذلك وإن لم يرسلهم، أي: لطف لهم حتى صلحوا للإرسال.

ولما كانوا سكان السماء، والإرسال لا يتم إلا بالنزول والصعود، ويتمكن فيها بالجناح خصهم به، فقال سبحانه: «أُولِي أَجْنِحَةٍ» أي: خلق لهم الأجنحة ليطيروا بها، ثم فَصَّلَ الأجنحة فقال: «مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ» قيل: منهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة أجنحة، ومنهم من له أربعة أجنحة، عن قتادة. وقيل: المراد به التنبيه على كثرة الأجنحة، والزيادة عليها يجوز، عن عمرو بن عبيد.

ومتى قيل: كيف تصح الزيادة على جناحين؟

قلنا: تصح ويكون أقوى على الطيران كما أن السمك له أجنحة كثيرة.

«يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ» قيل: في خلقه الأجنحة، وقيل: في جنس المخلوقات، وقيل: هو الصوت الطيب الحسن [للملائكة] لهم أجنحة، ويحتمل أن يكون الجناح للرسل إلى الأنبياء، وغيرهم لا يكون لهم جَنَاح، ولهذا [ينزلون] في الغمام يوم القيامة، وذلك مما يعلم بالسمع أو بمشاهدة، والله أعلم بتفاصيله «إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» يزيد وينقص، ويوحد ويثني.

ولما تقدم ذكر النعم بَيَّنَ أنه المنعم، فقال سبحانه: «**مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ**» أي: ما يعطيهم من نعمة، وقيل: هو المطر الذي هو سبب الرزق، وقيل: العافية، والأوجه أنه عام في كل نعمة «**فَلَا مُمْسِكَ لَهَا**» أي: لا يقدر أحد على أن يمنعها منه «**وَمَا يُمْسِكْ**» عنهم من الرزق، وقيل: من العذاب «**فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ**» القادر «**الْحَكِيمُ**» فيما يعطي ويمسك.

ومتى قيل: هلا حملتم الرحمة على النبوة؟

قلنا: نحملها(١) على نِعَمِ الدين والدنيا، فتدخل فيه النبوة وغيرها.

ثم أمر بشكر نعمه، فقال سبحانه: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**» خطاب للمكلفين «**اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ**» وذكر النعمة هو الشكر وتعظيم المنعم، والمراد بالنعم: جميع النعم؛ لأنه خلقهم أحياء لنفعهم، وخلق جميع الأشياء لهم، وقيل: أراد اذكروا نعم الله التي خصكم بها من بين الحيوانات كاستواء القامة، وحسن الصورة، وتعديل الجوارح، والعقل، والفهم، والنطق، وتسخير الحيوانات، والهداية وغيرها من النعم الظاهرة والباطنة.

ومتى قيل: فأي فعله تعالى نعمة؟

قلنا: كلها نعمة وإحسان؛ لأنه يفعل العرض، ولا يجوز عليه النفع والضر، فيفعله لنفع الغير، ولا نعمة إلا وهي دالة على المنعم؛ لأنها أجسام وأعراض لا يقدر عليها غيره تعالى، وتدل على أنه تعالى موجود، قادر، عالم، حي، منعم، حكيم.

ثم بَيَّنَ أنه المتفرد بهذه النعم، فتحق له العبادة دون غيره، فقال سبحانه: «**هَلْ مِنْ خَالِقٍ**»؟ هذا استفهام، والمراد: تحقيق النفي، أي: لا خالق غيره يرزقكم، وقيل: هو استدعاء إلى التفكر، أي: تفكروا: هل أحد يقدر على خلق هذه النعم غيره كإنزال المطر، وإخراج النبات، وخلق الأجسام والأعراض؟ فإذا تفكرتم علمتم أنه الإله وحده «**لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ**» لا تحق الإلهية والعبادة إلا له.

(١) نحملها: تحمله، ن.

ومتى قيل: أليس وصف عيسى بأنه يَخْلُقُ؟

قلنا: فيه وجهان:

أحدهما: لا أحد يطلق عليه صفة خالق مطلقًا إلا هو.

وثانيهما: لا خالق يرزق ويخلق الرزق غيره.

«**فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ**» قيل: كيف تكذبون، وتزعمون أن لله شريكًا؟!، وقيل: أنّى يعدل بكم عن هذه الأدلة التي أقمتها لكم على التوحيد مع وضوحها؟ وقيل: أنّى تصرفون عن الحق؟، وقيل: من أين تكذبون؟.

ومتى قيل: أليس الواحد منا يرزق عياله، والسلطان يرزق جنده، وورد الشرع فقال سبحانه: ﴿ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٣]؟

قلنا: لا يرزق من السماء والأرض غيره، ولا يقدر على الرزق غيره، ولولا خلقه لما قدر أحد عليه، وغيره يتصرف في خلقه، ثم يتصرف بأمره ولطفه.

«**وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ**» يا محمد «**فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ**» تسلية للنبي ﷺ «**وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ**» يعني: أمور الخلق فيجازيهم بما يستحقونه «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ**» يعني: بالساعة والثواب والعقاب في سائر ما أخبر به ووعد وأوعد «**فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا**» أي: لا تغتروا بالدنيا حتى تهلكوا أنفسكم بسببها، فأراد بالحياة الدنيا ملاذها وزينتها؛ لأن الاشتغال به يمنع عن طلب الآخرة «**وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ**» قيل: الشيطان بوسواسه والأماني الباطلة، وقيل: كل ما يستدرج العبد للمعاصي فهو غرور، وقيل: الغرور: أن يعمل المعاصي ويتمنى العفو، عن سعيد بن جبير.

۞ الأحكام

تدل الآيات على أن الحمد كله لله، وأن النعم منه، وتتضمن تعليم الحمد.

وتدل على أن الملائكة رسله تعالى إلى أنبيائه.

وتدل على أنه لا خالق على الإطلاق، ولا رازق غيره.

وتدل على أن الغرور ليس بخلق الله تعالى؛ إذ لو كان خلقه لكان هو الذي غره، فكان يجب التحرز منه.

قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ٧ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٨ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ٩ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ١٠﴾

القراءة

قرأ أبو جعفر: «فَلَا تُذْهِبْ» بضم التاء وكسر الهاء، «نَفْسَكَ» بالنصب من «أَذْهَبَ يُذْهِبُ»، الباقون بنصب التاء وفتح الهاء، «نَفْسُكَ» بالرفع من ذهب يَذْهَب.

قراءة العامة: ﴿ٱلۡكَلِمُ﴾، وعن السلمي: «الكلام».

اللغة

الحزب: الجماعة، وجمعه: الأحزاب، وتَحَزَّبَ القوم: تجمعوا من مواضع شتى.

والحسرة: شدة الحزن على ما فات من الأمر، وأصل الباب: الانقطاع، ومنه: بعير حسر، وحَسَرَتْ الناقة: انقطع سيرها كلالاً، ومنه: ﴿وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ﴾ [الأنبياء:١٩] أي: لا ينقطعون عن العبادة، وحسر واستحسر: إذا أعيا، والإعياء: شدة الندم حتى تحسر النادم كما تحسر الذي تقوم دابته في السفر البعيد.

والنشور: الحياة بعد الموت.

والبَوْرُ: الهلاك، ويقال: بار يَبُورُ هلك، ورجل بُورٌ وقوم بور، ودار البوار: أي دار الهلاك، وأرض بائرة: معطّلة، كأنها هلكت.

الإعراب

يقال»: أين جواب: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ﴾ ؟

قلنا: فيه قولان:

الأول: محذوف، تقديره: كمن علم الحسن والقبح ولم يزين له سوء عمله. وقيل: تقديره: كمن زين له صالح عمله فآمن.

وقيل: جوابه في قوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ﴾ تقديره: أفمن زين له سوء عمله ذهبت نفسك عليه حسرة. وقيل: فيه تقديم وتأخير، تقديره: أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنًا، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء.

ومتى قيل: الضمير في قوله ﴿يَرْفَعُهُۥ﴾ إلى من يعود؟

قلنا: فيه أقوال:

الأول: الهاء كناية عن الكلمة، والرفع من صفة العمل، تقديره: العمل الصالح يرفع الكلم الطيب، يعني: لا يقبل الكلم الطيب ـ وهو القول ـ إلا بالعمل الصالح، وهو اختيار نحاة البصرة.

الثاني: على القلب من الأول، فالهاء كناية عن العمل، والرفع من صفة الكلم، تقديره: الكلم الطيب يرفع العمل الصالح، يعني: العمل الصالح لا ينفع إلا أن يكون صادرًا عن التوحيد، وهو اختيار نحاة الكوفة.

والثالث: أن تكون الهاء كناية عن الكلم أو العمل، والرفع من صفة الله تعالى.

۞ المعنى

لما حذر من الشيطان بيّن عداوته وأن حزبه من أصحاب النار تحذيرًا من اتباعه، فقال سبحانه: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا**» أي: عادوه، ولا تتبعوه بأن تعملوا بإرادته ووسوسته، فليس المراد أن تلعن ظاهرًا، وتتبع تفعل المعاصي؛ فإن هذا ليس بعداوة «**إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ**» أشياعه وأولياءه إلى المعاصي «**لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ**» ليصيروا إلى النار، واللام لام العاقبة، أي: يصيرون في العاقبة إلى النار «**الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ**» باتباعه ومخالفة أمر الله تعالى، والعذاب الشديد هو عذاب النار، نعوذ بالله منه «**وَالَّذِينَ آمَنُوا**» بالله ورسوله وعادوا الشيطان «**وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**» أي: الطاعات «**لَهُم مَّغْفِرَةٌ**» يغفر الله ذنوبهم «**وَأَجْرٌ كَبِيرٌ**» ثواب عظيم «**أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا**» يعني: موّه عليه فرأى سوء عمله حسنًا.

ومتى قيل: مَنْ زين له؟

قيل: نفسه والشيطان وأقرانه، أما نفسه فَتَمِيلُهُ إلى الشهوات والشبهات واتباع المألوف والإعراض عن النظر، وأما الشيطان فبإغوائه ووسوسته يزين اللذات، وأما أقرانه فالدعاء إلى اللذات والشبهات.

وقيل: المُزَيِّنُ علماء السوء، زينوا الباطل بالشبه.

وقيل: بل الرؤساء والمتبوعون، ولا يقال: الله زَيَّنَهُ؛ لأنه تعالى ذمهم على ذلك التزيين، ولو كان هو زَيَّنَهُ لَمَا ذمه، ولأنه قال: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧].

«**فَرَآهُ حَسَنًا**» يصوره حسنًا كعادة الجهال «**فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ**» قيل: يحكم بالضلال والهداية، وقيل: يضل عن طريق ثوابه وجنته من يشاء، ويهدي إليه من يشاء، هو القادر على ذلك وحده «**فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ**» أي: لا يغمك حالهم إذا كفروا، واستحقوا العذاب، كقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، «**إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ**» فيجازيهم بذلك.

ثم عاد إلى ذكر أدلة التوحيد، فقال سبحانه: «**وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ**[1] **الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ**» السحاب «**إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ**» لا نبات فيه «**فَأَحْيَيْنَا بِهِ**» أي: بالمطر «**الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا**» أي: أحييناها بالنبات والأزهار بعد أن كانت كالميت يابسة «**كَذَلِكَ النُّشُورُ**» أي: إحياء الموتى من قبورهم.

ومتى قيل: قد قلتم: إن النبات لا يكون بالمطر، وخالفتم أبا القاسم، فما تأويل الآية؟

قلنا: نقول: هو سبب بالعادة غير موجب، فالله تعالى خالق النبات، إلا أنه تعالى أجرى العادة أنه لا يخلق إلا بعد إرسال الماء، كالولد عند الذكر والأنثى، وكالشبع عند الأكل، والإسهال عند الدواء، والموت عند السم.

«**مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا**» قيل: من كان يريد العزة في الدنيا بعبادة الأصنام فليعلم أنه لا ينالها؛ لأن العزة لله، فيعز مَنْ تمسك بطاعته «**إِلَيْهِ**» يعني: إلى حيث لا يملك الحكم فيه إلا هو، كما يقال: ارتفع أمرهم إلى القاضي «**يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ**» الصعود في الكلام توسع ومجاز؛ لأنه عرض ولا يصح إضافة الفعل إليه، واختلفوا في معناه، قيل: يصعد محله والعمل مكتوب فيه، يحمله من يصعد وهما الملكان. وقيل: يصعد الملك والكلام محفوظ لهم. وقيل: الصعود عبارة عن القبول، والرفع عبارة عن تعظيم الله تعالى، عن أبي مسلم. واختلفوا في الكلم الطيب، قيل: كل كلام طيب موقعه ويحسن، ويدخل فيه أدلة التوحيد، والعدل، والنبوات، والشرائع، وقراءة الكتب، والدعوات، وتلاوة القرآن، والتسبيحات، والدعاء إلى الله، والأمر بالمعروف وغير ذلك، وهو الأوجه. وقيل: هو قوله: لا إله إلا الله[2]. وقيل: هو قوله: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، روي مرفوعًا، وهذا وإن كان مرادًا فلا يمنع غيره من كونه مرادًا.

«**وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**» فيه خلاف وأقوال:

---

(١) أرسل: يرسل، ن.

(٢) المستدرك للحاكم رقم ٣٥٨٩.

أولها: أن العمل رافع والكلم مرفوع، ثم اختلف هؤلاء في معنى الآية، قيل: الكلم الطيب لا يكون مقبولاً إلا بالعمل الصالح.

وثانيها: يرفع ما يقال إذا انضم إليه الأعمال الصالحة، والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب ويصيره مقبولاً، وهو قول الحسن، وأبي علي. قال الحسن وقتادة: الكلم الطيب ذكر الله، والعمل الصالح أداء فرائضه، فمن ذكر الله ولم يؤد فرائضه رُدَّ عليه، وليس الإيمان بالتمني، فمن قال حسنًا وعمل غَيْرَ صالح رد الله عليه قوله، ومن قال حسنًا وعمل صالحًا رُفِعَ العمل، ثم تلا الحسُن الآية، وبيّن صحة هذا التأويل قوله ﷺ: «لا يقبل الله قولاً بلا عمل، ولا يقبل قولاً وعملاً إلا بنيّة»، وقيل: العمل الصالح يجعل الكلم رفيعًا وأقدر قيمة، وقيل: العمل الصالح: الإخلاص المرفوع، يعني: الأعمال الصالحة لا تقبل إلا بعد التوحيد والإيمان.

وثالثها: أن الرافع هو الله تعالى، يعني أنه يرفع العمل، أي: يقبله.

ورابعها: قال أبو مسلم: الصعود والرفعة واحد، وهو القبول، فالله تعالى يقبل الكلم الطيب، ويقبل العمل الصالح.

«وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ» أي: يدبرون في عمل المعاصي، وقيل: يعملون الشرك، عن مقاتل. وقيل: الذين مكروا برسول الله في دار الندوة. وقيل: يعملون السيئات في الدنيا، عن الكلبي. وقيل: هم أصحاب الربا، عن ابن عباس، ومجاهد، وشهر بن حوشب. وقيل: هم الذين يضمرون الغوائل لأولياء الله تعالى. والوجه الأول؛ لأنه يشتمل على جميع ما ذكرنا. **«لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ»** في الآخرة وهو النار **«وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ»** يعني: تدابيرهم **«هُوَ يَبُورُ»** أي: يبطل ويفسد.

۞ الأحكام

يدل أول الآيات على وجوب معاداة الشيطان ومخالفته، وإنما يكون كذلك بترك المعاصي لا بالقول، وعن بعضهم: نحن أعداء إبليس في العلانية أحباؤه(١) في السر.

---

(١) أحباؤه: حبيبه، ت، ن.

ويدل قوله: ﴿فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ على أن المعارف مكتسبة.

ويدل قوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ﴾ أن استحقاق الثواب يتعلق بالأمرين، بخلاف قول المرجئة.

ويدل قوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ﴾ على تأديب من الله لعباده بترك التحسر على الكفار.

ويدل قوله: ﴿النُّشُورُ﴾ على صحة الإعادة، وأنزلنا بمنزلة الإحياء.

وتدل أن النفع يحصل بالقول متى ضامه العمل، خلاف قول المرجئة.

ولا تعلق للمشبهة بقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ﴾ ؛ لأنا قد بيّنّا ما قيل فيه.

قوله تعالى:

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا
بِعِلْمِهِۦ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١١) وَمَا
يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا
طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ (١٢) يُولِجُ الَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي الَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ
كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ
مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ
وَيَوْمَ الْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤)﴾

القراءة

قراءة العامة: ﴿يُنقَصُ﴾ بضم الياء وفتح القاف على ما لم يسم فاعله، وقرأ الحسن وابن سيرين ويعقوب بفتح الياء وضم القاف، أي: الله يَنْقُصُ من عمره.

قراءة العامة: ﴿عُمُرِهِۦٓ﴾ بضم الميم، وقرأ الأعرج بالتخفيف، وهما لغتان، عمْر وعمُر.

قراءة العامة: ﴿سَآئِغٌ﴾، وقرأ عيسى: «سَيِّغٌ» نحو: سيّد وميّت، وهما لغتان.

قرأ قتيبة عن الكسائي: «والذين يدعون» بالياء على الغائب، والباقون بالتاء على الخطاب.

❁ اللغة

التراب والصعيد من النظائر، إلا أن التراب اسم لجنسها، والصعيد: تراب يصعد على وجه الأرض.

والنطفة: الماء القليل والماء الكثير، وهو من الأضداد، والنطفة: الماء الذي خلق منه الولد.

والعُمْر والعُمُر: البقاء، وأصله: طول المدة، وقولهم: لَعَمْرُ الله، أي: ببقائه، ومعناه: الله الباقي.

والفُرات: الماء العذب، وكل ماء عذب فهو فرات، وكل ماء ملح فهو بحر، وقد أبحر إبحارًا وعذب عذوبة.

وساغ الشراب في الحلق سَوْغًا، وأَسَغْتُهُ، وسوغت فلانًا ما أصاب.

والمَخْرُ: الشق، مخرت السفينة: إذا جرت فشقت الماء، ومخر السابح: إذا شق الماء بيديه، ومخر الماءُ الأرض: شقها للزراعة، ومخرها بالماء: إذا حبس الماء فيها حتى تصير أَرِيضَةً أي: خليقة بجودة الزرع.

والقِطْمِيرُ: لفافة النواة، يضرب مثلاً للشيء القليل، وقيل: الحبة في بطن النواة، عن صاحب المجمل.

❁ المعنى

ثم بَيَّنَ سبحانه دلائل أخر معطوفًا على ما تقدم تدل على أنه قادرٌ، عالمٌ، فقال تعالى: «وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِن تُرَابٍ» يعني: خلق آدم وهو أبوكم من تراب بأن أحال التراب لحمًا ودمًا بأعراض خلق فيها حتى صور صورة عجيبة «ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ» أي: خلق البشر من ماء الرجل والمرأة «ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا» أي: ذكرًا وأنثى، وقيل: ضروبًا وأصنافًا «وَمَا تَحْمِلُ مِن أُنثَى وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ» يعني: هو عالم بحمله ومقدار حمله

وكيفيته ووضعه «وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ» أي: لا يملك حياة أحد «وَلاَ يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ» ذلك المعمر تتصرم أيامه، عن أبي مالك[1]. وقيل: لا يحيا أحد مدة طويلة ولا مدة قصيرة إلا بعلمه، عن أبي مسلم. وقيل: «مَا يُعَمَّر مِن مُّعَمَّر وَلاَ يُنقَصَ»: هو ما يعلمه الله أن فلانًا لو أطاع بقي إلى وقت كذا، وإن عصى ينقص عمره ولم يبق، فالنقصان على ثلاثة أوجه: إما أن يكون نعمة المنعم، أو يكون له بتصرم الأيام، أو يكون بشرط، وقيل: لا ينقص من عمره ساعة أو بعض[2] ساعة، [لكن لا على معنى لا ينقص من عمره وساعةً بعد كونه زائداً] حتى ينقص «إِلاَّ فِي كِتَابٍ» قيل: معلوم لله محفوظ كتب الله ذلك لا يتقدم، ولا يتأخر، وقيل: كتبه الله في اللوح المحفوظ اعتبارًا لهم ومصلحة، ولملك الموت لمعرفة الآجال، وللحفظة ليعرفوا حين يزول التكليف. وعن سعيد بن جبير: يكتب في أول الكتاب عمره كذا سنة، ثم يكتب أسفل من ذلك: ذهب يوم، ذهب يومان، ذهب ثلاثة أيام «إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ» قيل: زيادة العمر ونقصانه، وقيل: إثباته في الكتاب، وقيل: جميع ما تقدم من الخلق من التراب والنطفة وغير ذلك «وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ» طيب بارد «سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ» قيل: شديد الملوحة، عن ابن عباس. وقيل: هو المر، عن الضحاك. أخذ من تأجج النار كأنه يحرق من شدة المرارة والملوحة، وقيل: الذي فيه مرارة، ولا يمتنع أن يريد الكل، وقيل: هذا مَثَلٌ، يعني: كما لا يستوي البحران كذلك عبادة الله وعبادة غيره.

ثم بَيَّنَ أنهما مع التفاوت يستويان في أن كل واحد منتفع به، فقال سبحانه: «وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ» أي: من العذب والأجاج «لَحْمًا طَرِيًّا» وهو السمك «وَتَسْتَخْرِجُونَ» منه «حِلْيَةً» قيل: من المالح وهو اللؤلؤ، وقيل: من العذب، وقيل: فيه عيون عذبة منها يخرج اللؤلؤ «تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ» جوارٍ تشق الماء شقًّا [«لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ] لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» أي: لتشكروا «يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ» وهو إدخال أحدهما في الآخر، قيل: بالزيادة والنقصان، وقيل: بإذهاب أحدهما

(١) أبي مالك: أبي ملك، ن.
(٢) أو بعض: بعد، ن.

بالآخر وتعاقبهما «**وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ**» يجريهما كما يريد «**كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى**» قيل: لوقت معلوم، قيل: إلى أن تظهر أشراط الساعة، وقيل: إلى انقطاع حركاتها بالفناء، وقيل: أن ينتهيا إلى أقصى مكانهما في المشارق والمغارب، كل ذلك لمنافع العباد «**ذَلِكُمُ اللَّهُ**» مدبر هذه الأمور هو الله «**رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ**» في الدنيا والآخرة.

ثم بَيَّنَ أنه المختص بالقدرة عليهما، فقال سبحانه: «**وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ**» أي: تدعونه إلهًا وهو الأصنام «**مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ**» أي: لا يقدرون من ذلك على قليل ولا كثير، والقطمير: قشر النواة، عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. «**إِنْ تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ**»؛ لأنه ليس بحي، والإدراك من مقتضى كونه حيًّا «**وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ**» قيل: هذا على وجه التقدير، أي: لو أحياهم وأسمعهم ما أجابوهم، ولما قدروا على معونتهم «**وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ**» قيل: يحيي الله الأصنام يوم القيامة فتتبرأ من المشركين ويوبخونهم على عبادتهم إياهم، عن أبي علي، وأبي مسلم. وقيل: المراد به الملائكة وكل معبود حي، وقيل: هذا على وجه التقدير، أي: لو أحياهم لفعلوا ذلك «**وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ**» يعني: لا يخبرك أحد مثل عالم لذاته وهو القديم سبحانه. [و] قيل: لا ينبئك بالصدق إلا الله؛ لأنه عالم بكل شيء، وقيل: لا ينبئك بخواتيم الأمور إلا العالم بها.

۞ الأحكام

تدل الآيات على أنه قادر عالم، وعلى عظيم نعمه على عباده بأنواع النعم، وأنه يعلم تفاصيل الأشياء، وذلك يوجب كونه عالمًا لذاته.

وتدل على أنه تعالى كتب الأعمال والآجال.

ويدل قوله: ﴿لِتَبْتَغُوا۟﴾ على إباحة التجارة.

ويدل قوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ على أنه أراد الشكر من عباده، وأن الشكر فعلهم.

وتدل الآية على قبح عبادة غير الله، وهو الخالق المالك للنفع والضر.

قوله تعالى:

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ
وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ
مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم
بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى
ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى
ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا
نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ
فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ
أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾

۞ القراءة

قراءة العامة: ﴿بِمُسْمِعٍ﴾ بالجر والتنوين، ﴿مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ (مَنْ) محله نصب، وقرأ أشهب العقيلي بلا تنوين على الإضافة، و(مَنْ) محله جر.

۞ اللغة

الجديد: القريب العهد بانقطاع العمل عنه، وأصله من القطع، يقال: جَدَّهُ يَجُدُّهُ جَدًّا: إذا قطعه، ومنه الجدّ أب الأب لانقطاعه عن الولادة.

والوزر: الحمل الثقيل المثقل للظهر، وجمعه: أوزار، ومنه: ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾ [الأنعام: ٣١]. والآثام: الأوزار لثقلها عليه، ومنه: أوزار الحرب لثقلها على أهلها، يقال: وَزَرَ يَزِرُ وَزْرًا، المصدر بفتح الواو والاسم بكسرها.

والظل: المستور عن موقع الشمس، ومنه: الظُلّة، والظَّل: مفعل إذا فعله نهارًا.

والحَرُورُ: السموم، وهو الريح الحارة، قال الفراء: السموم لا تكون إلا بالنهار، والحرور تكون بالليل والنهار.

والاستواء: خلاف الاعوجاج.

والسمع: مصدر سمع سمعًا، وهو إدراك المسموع، والسمع: الأُذُنُ؛ لأنه يسمع به، والإسماع: إيجاب المسموع بحيث يدركه، أسمع يُسْمِعُ إسماعًا فهو مُسْمِعٌ.

والزُّبُرُ: الكتب، الواحد: زبور، وقيل: الزبر: الكتابةُ الثابتةُ كالنقش في الحجر، وقيل: هو كل كتاب أحكمه، يقال: زَبَرْتُ الكتاب: أَحْكَمْتُهُ.

۞ الإعراب

يقال: ما معنى (لا) في قوله: ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ﴾ ؟

قلنا: فيه قولان: قيل: زائدة مؤكدة، وقيل: إنها نافية لاشتهار كل واحد من المذكور على التفصيل.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ رفع؛ لأن المعنى ليست تَزِرُ، فهذا خبر في اللفظ، نَهْيٌ في المعنى.

﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ أي: لو كان المذكور ذا قربى.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى أنه مع دعائهم إلى عبادته غني عنهم، وإنما يأمرهم لنفعهم، فقال سبحانه: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ**» أي: المحتاجون إليه، وحاجتهم إليه في خلقهم وحياتهم وتنفسهم وصحتهم وخلق الرزق لهم وغير ذلك من نعم الدين والدنيا وأنواع دفع البلايا، ففي كل لحظة له على عباده نعم لمنافع ودفع بلايا «**وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ**» لا يحتاج إلى شيء «**الْحَمِيدُ**» المحمود بما أنعم، المستحق عليه الحمد «**إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ**» أي: لا يتعذر عليه إن يشأ يهلككم «**وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ**» أي: يخلق خلقًا جديدًا «**وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ**» أي: متعذر ثقيل «**وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى**» أي: لا تحمل حاملة حمل أخرى، يعني: لا يؤاخَذُ أحدٌ بذنب أحد «**وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ**» أي: حاملة حملاً ثقيلاً «**إِلَى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى**» أي: ذا قرابة، والمعنى: لو استغاث مُثْقَلٌ بالآثام غَيَره مِنْ أقاربه مستغيثًا به لا يجيبه أحد، ولا

يحمل[1] غيره شيئًا من آثامه، ولو كان أقرب الناس إليه، وإنما خص المثقلة؛ لأنهن أضعف، والقلوب لهن أرق، والناس إلى معونتهن أميل، فإذا كان مع هذا لا يجيبه أحد إلى تخفيف عقاب فكيف غيره؟! وإنما لا يحمل لوجهين: أحدهما: غِلَظ حال الآثام، وثانيهما: ما فيه من مخافة العذاب، فكل أحد يؤخذ بذنبه «**إِنَّمَا تُنْذِرُ**» أي: تُخَوِّفُ، يعني بهذا «**الَّذِينَ يَخْشَوْنَ**» يخافون «**رَبَّهُمْ**» إنما خصهم لقبولهم وانتفاعهم به وإلا فهو منذر للجميع، ومعنى يخشون: يخافون «**بِالْغَيْبِ**» قيل: في خلواتهم وغيبتهم عن الخلق وسرائرهم، وقيل: في تصديقهم بالآخرة وأهوالها؛ لأنها غائبة عنهم، وقيل: يخافونه من غير أن يشاهدوه، فكأنه غائب عنهم «**وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ**» أي: أداموها «**وَمَنْ تَزَكَّى**» قيل: تَطَهَّرَ من الآثام، وقيل: صلح وعمل خيرًا «**فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ**»؛ لأن جزاءه يصل إليه. «**وَإِلَى اللَّهِ**» إلى موضع حكمه «**الْمَصِيرُ**» أي: المرجع للجزاء.

ثم ضرب مثلاً بَيَّنَ أنهما لا يستويان في الجزاء، فقال سبحانه: «**وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ**» قيل: الأعمى عن الدين والبصير به، وقيل: المؤمن والكافر «**وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ**» قيل: هو النور والظلمة بعينهما، وقيل: ظلمات الكفر ونور الإيمان. وقيل: هو مَثَلٌ، أي: كما تفضلون النور وتهتدون به بخلاف الظلمة، كذلك المؤمن والكافر. وقيل: معناه: كما لا تستوي عندكم هذه الأحوال، كذلك لا تستوي عبادة الله مع عبادة غيره، عن أبي علي. «**وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الْحَرُورُ**» قيل: الجنة والنار، وقيل: هو مَثَلٌ؛ أي: لا يستوي عندهم المقام في ظل ظليل بارد مع المقام في الحرور، وهو استيقاد الحر ولفحه، كذلك لا يستوي الحق والباطل «**وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلاَ الأَمْوَاتُ**» قيل: هو مَثَلٌ، وأراد الحي والميت، وقيل: أراد المؤمن والكافر «**إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ**» من عباده مواعظه، فيتعظ بها وهو من له لطف في ذلك ولا يقدر أحد على تلك الألطاف غيره تعالى. وقيل: يسمع من يشاء من عباده جبرًا وقهرًا، ولكن لا يفعل ذلك؛ لأن التكليف يزول معه، ومعناه: لا تقدر على إكراههم على القبول منك، والاستماع يقع بمعنى الاستجابة، ومنه: سمع الله دعاءك، أي:

(١) يحمل: يحمله، ن.

أجاب، عن أبي مسلم. «**وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَن فِي الْقُبُورِ**» وهم الأموات، شبههم بالأموات من حيث لا ينتفعون بما يسمعون ويبصرون «**إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ**» أي: لست إلا مخوفًا ومبلغًا ليس عليك غير ذلك، فليس عليك من ترك قبولهم شيء «**إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا**» للمؤمنين «**وَنَذِيرًا**» للكافرين «**وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ**» من الأمم الماضية «**إِلاَّ خلاَ فِيهَا نَذِيرٌ**» فلست ببدع في النبوة، وقيل: وإن من أمة أهلكناها إلا مضى فيهم نذير أنذرهم ثم أهلكناهم، وقيل: نذير منهم، وقيل: نذير من غيرهم وهو رسول إليهم، كما أرسل نبينا وهو من العرب إلى العرب والعجم والروم والجن، وقيل: من أمة إلا خصهم بنبيّ غيرك؛ فإنك بعثت إلى الكافة [إلى] يوم القيامة «**وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ**» أي: لا يغمك تكذيبهم إياك «**فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**» من الأمم أنبياءهم التي حلت فيهم «**جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ**» بالحجج «**وَبِالزُّبُرِ**[(١)]» بالكتب «**وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ**» الواضح البين، وجمع بين الزبر والكتاب، قيل: لاختلاف اللفظين واختلاف فائدتهما، فالزبور المحكم، والكتاب: المكتوب، وقيل: بل تأكيدًا، وقيل: الكتاب المنير: هو التوراة، أفردها بالذكر لفضلها، عن أبي مسلم. «**ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا**» بالعقاب والهلاك «**فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ**» إنكاري عليهم وإنزال العذاب بهم، والمراد الاستفهام؛ ولكنه[(٢)] تقرير لشدة العقاب، وتسلية للنبي ﷺ؛ ليتوقع فيهم مثل ذلك إن لم يؤمنوا.

❁ الأحكام

تدل الآية على أنه تعالى غني، وأن غيره من الأحياء يحتاج إليه في أمور دينه ودنياه، فلا يستغني طرفة عين عن لطفه حثًا على الانقطاع إليه، وأشار إلى أنه مع غناه يدعو العبيد إلى طاعته فكيف لا يجيبوا مع حاجتهم[(٣)]؟ وأشار إلى أنه مع غناه عن عبادتهم يشكرهم على ذلك، فكيف لا يشكرون نعمه مع حاجتهم؟!

ويدل قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ﴾ أن العبد لا يؤاخذ إلا بذنبه، فيبطل قول المجبرة في أطفال المشركين، وفي تعذيبهم بغير ذنب، وتعذيبهم بحمل ذنب غيرهم عليهم.

---

(١) وبالزبر: والزبر، ن.

(٢) ولكنه: ولكن، ن.

(٣) لا يجيبوا مع حاجتهم: لا يجيب مع حاجته، ن.

وتدل على أن أحدًا لا يُخَفِّفُ عن أحد وإن كان قريبًا منه، تفخيمًا لشأن ذلك اليوم.

وتدل أنه لا ينفع الإيمان من غير أداء الصلاة، فيبطل قول المرجئة.

ويدل قوله: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾ أن الثواب والعقاب جزاء الأعمال، فيبطل قول المجبرة.

وتدل على أن ذلك فعلهم، فيبطل قولهم في المخلوق.

ويدل قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي﴾ الآية على مَثَلٍ وتهديد، فشبه الكافر وحاله بحال الأعمى الذي لا يهتدي في الظلمة ومن في الحرور لأضطراب(١) حاله، والميت الذي لا ينتفع به، وشبه المؤمن بالبصير الذي يهتدي، والنور، والظل الذي يسكن فيه، والحي الذي ينتفع بكل شيء.

ويدل آخر الآيات أن كل أمة جاءهم نذير، ونحن نُجَوِّزُ ذلك سمعًا فلا حجة للإمامية فيه.

قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾

القراءة

قراءة العامة: ﴿ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ بالرفع، يعني: أنهم يخافون عقاب الله فيطيعونه. وعن

(١) لاضطراب: لاضطرار، ت، ن.

عمر بن عبد العزيز: «**يخشى الله**» رفعًا «**العلماء**» نصبًا، وروي نحوه عن أبي حنيفة، على أن معنى (**يخشى**) يعلم، وقيل: يختار، ولا تجوز القراءة به؛ لأنه خلاف المستفيض، ويحمل على أنهما قالا: لو قرئ به لكان يصح في المعنى.

۞ اللغة

الجُدَدُ: الطرائق، الواحد: جُدَّةٌ، نحو: مُدَّة ومُدَدٍ، فأما جمع جديد فجُدُدٌ بضم الدال [نحو]: سرير وسُرُر.

والغِرْبِيبُ: الذي لونه كلون الغراب في السواد؛ فلذلك حسن أن يقال: سُودٌ، قال الفراء: وفيه تقديم وتأخير تقديره: سود غرابيب، الواحد: غِرْبِيبٌ، وهو الشديد السواد.

والبور: الهلاك والكساد، يقال: بار بورًا: إذا كسد، وبار الطعام: كسد، وبارت السوق: إذا كسدت، قال الشاعر:

يَـا رَسُـولَ الـمَـلِـيـكِ إِنَّ لِـسَـانِـي ... رَاتِـقٌ مَـا فَـتَـقْـتُ إِذْ أَنَـا بُـورُ[1]

۞ الإعراب

«**مختلفًا**» نصب على الحال، وقوله: ﴿مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ﴾ ذكر الكناية لأجل (مِنْ)، عن المؤرج.

﴿جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ﴾ رفع مختلف؛ لأنه ابتداء.

﴿يَرۡجُونَ﴾ جواب لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ﴾، عن الفراء. وقيل: جوابه في قوله: ﴿لِيُوَفِّيَهُمۡ[2]﴾، وقيل: في قوله: ﴿غَفُورٞ شَكُورٞ﴾ تقديره: مَنْ قبِلَ هذه الأشياء على هذا الرجاء يتحقق ظنهم[3] لأنه غفور شكور، وقيل: ذكر الكناية في

---

(١) البيت قائله: عبد الله بن الزبعري السهمي، وفي رواية: يا رسول لإله إن لساني، انظر: لسان العرب (بور)، تاج العروس (بور).

(٢) ليوفيهم: يوفيهم، ن.

(٣) ظنهم: ظيرنهم، ن.

(ألوانه)؛ لأن تقديره: فيما خلقنا مختلف ألوانه من الناس والدواب والأنعام، كاختلاف ما تقدم.

النزول

قيل: نزل قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ في أبي بكر الصديق، قال عطاء الخراساني: ظهر من أبي بكر خوف حتى عرف به، فكلمه النبي ﷺ في ذلك، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

المعنى

ثم عاد الكلام إلى دلائل توحيده، فقال سبحانه: «**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً**» وهو المطر «**فَأَخْرَجْنَا بِهِ**» أي: بالماء بجريان العادة به لا أنه موجب، وذكر مرة بالكناية ومرة بالنون وبالإضافة للتصرف في الكلام «**ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا**[1] **أَلْوَانُهَا**» وذلك من أدل الدلالة على توحيده، فإن الأرض والماء والهواء والشمس واحد، ثم تختلف الروائح[2] والألوان والهيئات والمنافع والمضار، فيدل على مدبر حكيم، ثم خَلْقُ ذلك على نسق واحد يدل على أنه عالم بجميع الأشياء «**وَمِنَ الْجِبَالِ**» التي خلقها «**جُدَدٌ بِيضٌ**» طرائق بيض «**وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ [أَلْوَانُهَا]**» ألوان الجبال «**وَغَرَابِيبُ سُودٌ**» أي: بعضها سود كالغراب، وذكر الغرابيب تأكيدًا، وذلك يدل على صانع مختار تختلف الألوان بحسب اختياره «**وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ**» من الإبل والبقر والغنم «**مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ**» بيض وسود وحمر وصفر وغير ذلك من ألوانها «**كَذَلِكَ**» أي: جعلناه مختلفًا كما جعلنا الجبال والثمار مختلفًا، وذلك يدل على صانع مدبر حكيم، مَنْ عَرَفَهُ لا يعبد غيره «**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**»؛ لأن مَنْ عَلِمَهُ بصفاته وعلم وعده ووعيده يخاف ارتكاب معاصيه فيتبع أوامره، وقيل: العلماء: العقلاء، والأول أوجه؛ لأنه ليس كل عاقل يخافه ويعلمه.

(١) مختلفاً: مختلف، ن.

(٢) الروائح: الأرايح، ن.

ومتى قيل: قد نرى عالمًا به لا يخافه ويرتكب المعاصي؟

قلنا: لا بد أن يخافه وإن[1] آثر المعاصي بعاجل شهوته.

«**إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ**» أي: قادر على ما يشاء «**غَفُورٌ**» يغفر ذنوب عباده عند التوبة.

ثم وصف العلماء، فقال سبحانه: «**إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ**» أي: يعرفونه، قيل: هو القرآن، عن أبي علي. وقيل: التوراة، عن أبي مسلم. والأول أوجه، و(**الذين**) قيل: هم المسلمون، وقيل: هم مؤمنو أهل الكتاب، عن أبي مسلم. «**وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ**» أي: أدوها في أوقاتها بصفاتها وشرائطها «**وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ**» في سبيل الخير «**سِرًّا وَعَلَانِيَةً**» قيل: السر: التطوع، والعلانية: الفرض، وقيل: فعلوا في السر والعلانية لإخلاصهم وبعدهم عن الرياء، بخلاف المنافقين، عن أبي مسلم. «**يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ**» أي: لا تهلك، وقيل: لا تكسد؛ لأنه يستحق الجزاء لا محالة بخلاف التجار في الدنيا؛ لأن تجارتهم ربما تهلك وربما تكسد، فأراد أن تجارتهم مربحة لا محالة، «**لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ**» أي: يتم عليهم جزاء أعمالهم «**وَيَزِيدَهُمْ**» على ذلك «**مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ**» لمن استغفره «**شَكُورٌ**» لمن عمل بطاعته، قيل: الشكور الذي يعطي على الإحسان جزاءه كمعاملة الشاكر، قال أبو علي: ووصف الله تعالى بأنه شكور مجاز، ومعناه: المجازاة على الطاعة، وقيل: شكور؛ لأنه يقبل اليسير، ويثيب عليه بالكثير.

۞ الأحكام

تدل الآيات على أدلة على صانع مدبر قادر عالم حي سميع بصير مخالف للأجسام والأعراض.

وتدل أن الخشية إنما تحصل بعد العلم بالله تعالى، وذلك ظاهر، وكل من كان أَعْرَفَ كان أخوف.

وتدل أن الثواب يُنالُ بمجموع ما ذكر، بخلاف قول المرجئة.

---

(١) وإن: أن، ن.

وتدل أن ذلك فعلهم، خلاف قول المجبرة.

وتدل أنه يوفر جزاءهم، وأن ذلك جزاء أعمالهم.

وتدل أنه يغفر مرة بعد مرة؛ لأن[1] (غفور) يُنْبِئُ على ذلك.

قوله تعالى:

﴿وَالَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٣٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ﴿٣٥﴾﴾

القراءة

قرأ أبو عمرو: «**يُدْخَلُونها**» بضم الياء وفتح الخاء على ما لم يسم فاعله من الإدخال؛ لأنه أفخم، وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الخاء من الدخول، أضاف الدخول إليهم.

قرأ أبو جعفر ونافع وعاصم: ﴿وَلُؤۡلُؤٗاۖ﴾ بالنصب هاهنا، وفي سورة (الحج) عطفًا على محل ﴿أَسَاوِرَ﴾ على تقدير: ويحلون لؤلؤًا. وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وحمزة والكسائي بالجر في السورتين عطفًا على قوله: ﴿مِن ذَهَبٖ﴾ أي: ومن لؤلؤ، وقرأ يعقوب هاهنا بالجر وفي (الحج) بالنصب.

قراءة العامة: ﴿لُغُوبٞ﴾ بضم اللام، وهو الكلال والإعياء، وعن السلمي بفتحها، وهو مصدر كالوَلُوع والقَبُول.

---

(١) لأن: لأنه، ن.

۞ اللغة

الوحي: إلقاء المعنى إلى النفس في خفية، ومنه سمي الإلهام وحيًا، وَوَحَى وأوحى بمعنى، قال العجاج:

وَحَى لَهَا القَرَارَ فَاسْتَقَرَّتِ(١)

والميراث: انتقال الشيء من واحد إلى آخر، وَرِثَ يَرِثُ إرثًا، وأصله: يَوْرِثُ، فحذفت الواو لوقوعها بين ياء وكسرة، وأصل (أرِثَ): (وَرِثَ) قلبت الواو ألفًا لمكان الكسرة، وكذلك الميراث الأصل فيه الواو.

والاصطفاء: الاختيار [بإخراج] الصفوة.

والمقتَصِدُ: الوسط بين الشيئين، وقيل: هو التابع لغيره من القصد.

والْحُزن والْحَزن لغتان، كالزُّبْد والزَّبَدِ.

والْمُقام بضم الميم: الإقامة، وبفتحها: موضع الإقامة، وأصل الباب: القيام، قام مُقَامَةً ومَقَامًا ومُقامًا.

والنَّصَب: التعب(٢)، وفيه لغتان :فتح النون والصاد، وضم النون وسكون الصاد، نَصِبَ نَصَبًا ونُصْبًا، نحو: الرُّشْدِ والرَّشَدِ.

واللُّغُوب: الإعياء، وفتح اللام وضمها لغتان.

۞ الإعراب

﴿مُصَدِّقًا﴾ قيل: نصب على الحال، وقيل: على القطع؛ لأنه نعت الكتاب، كأنه قيل: هو الحق المصدق، فلما قطع عنه الألف واللام نصب.

---

(١) البيت قائله العجاج:

وحى لها القرار فاستقرت   وشدها بالراسيات الثبت

انظر: الصحاح (وحى)؛ لسان العرب (وحي).

(٢) التعب: والتعب، ن.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى إنزاله الكتاب، وبين أحوال الناس فيه، فقال سبحانه: «**وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ**» يا محمد «**مِنَ الْكِتَابِ**» وهو القرآن «**هُوَ الْحَقُّ**» أي: يدل على الحق ويبينه «**مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ**» قيل: صَدَّقَ الكتب بأن جاء كما بَيَّنَ فيها، وقيل: صدقه بأن شهد بأنه صدق «**إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ**» أي: عالم بمصالحهم فيأمرهم بها، عالم بأعمالهم، فيجازيهم عليها.

ومتى قيل: في تصديقه الكتب اتفاق الشرائع؟

قلنا: ولِمَ؛ لأن اختلاف الشرائع لا يوجب التناقض، كما أن اختلاف حال المسافر والمقيم، والطاهر والحائض، لا يوجب تناقض الشرائع.

«**ثُمَّ**»: قيل: (ثم) مردود على ما تقدم من الكتب في قوله، [تقديره]: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أورثنا بني إسرائيل الكتاب، وهو التوراة، عن أبي مسلم. وقيل: هو بمعنى الواو، وقيل: أعطينا الكتب أولئك «**أَوْرَثْنَا**» أعطينا، عن مجاهد. وقيل: اخترنا القرآن عن الأمم لأمة محمد ﷺ «**الْكِتَابَ**» قيل: القرآن، وقيل: التوراة وسائر الكتب، أعطاه الله الأنبياء، عن أبي علي. «**الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا**» اخترنا «**مِنْ عِبَادِنَا**» قيل: هم الأنبياء اختارهم الله لرسالته وكتبه، عن أبي علي. وقيل: هم بنو(١) إسرائيل الداخلون في قوله: ﴿ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]، عن أبي مسلم. قال: والأنبياء يعطون ابتداء الكتب، ولا يرثون بل تورث عنهم. وقيل: هم جميع أمة محمد صلى الله عليه، وقيل: هم علماء هذه الأمة، كما روي: «العلماء ورثة الأنبياء»(٢)، واختلفوا بأي شيء اصطفاهم، فمنهم من قال: اصطفاهم لطاعتهم، ومنهم من قال: اصطفاهم بالكتاب، ويجوز ذلك وإن كان ظالمًا بترك العمل به، ويجوز أن يكون مصطفى في ذلك الوقت ثم يتغير من بعد، ومن حملهم على الأنبياء

(١) بنو: بني، ن.

(٢) ابن حبان رقم ٨٨، والترمذي رقم ٢٦٨٢.

قال: اصطفاهم بالرسالة «فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ» اختلفوا أن الكناية تعود إلى العباد، «فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ» مستحق للنار، وقيل: بل بالقسمة يدخل في اصطفينا؛ يعني: مَنْ اصطفيناه على ثلاثة أقسام، عن جماعة من المفسرين، وهو قول أبي مسلم، ثم اختلفوا في الأقسام الثلاثة على قولين:

أولهما: قول من قال: إن الثلاثة ناجية.

وثانيهما: قول من يقول: بعضها ناجية، وبعضها هالكة، وقد أكثروا فيه، ونشير إلى جمله:

فأما من قال: بعضها ناجية، وبعضها هالكة، اختلفوا، فقيل: الظالم: من يستحق النار، المُصِرُّ على الذنب من الكفار والفساق، والمقتصد: المؤمن، المستحق للجنة، والسابق: هم الذين سبقوا مع الأنبياء، ونظير هذه الآية قوله في (الواقعة): ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ [الواقعة: ٧]، عن أبي علي. وتقدير الكلام عنده: فمن العباد ظالم، ومؤمن، وسابق، فعلى هذا فرقتان ناجيتان، وفرقة هالكة، وروي نحوه عن ابن عباس، والحسن، وقتادة. وقيل: أراد بـ(اصْطَفَيْنَا) بني إسرائيل «فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ»، وهم الكفار الذين حرفوا الكتاب «وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ» قصد سبيل أولئك الكافرين الأولين واتبع آثارهم، والمقتصد: هو المقتصد سبيل الكفار، أي: التابع المقتدي، والسابق: هو المؤمن المستحق للجنة، ولهذا ذكر أحكام فريقين لا غير، فوعد الكافر النار، والمؤمن الجنة، عن أبي مسلم وزيّف قول أبي علي، فعلى هذا فرقتان هالكتان، وفرقة ناجية. وقيل: الظالم: المنافق، والمقتصد: التابع بإحسان، والسابق: من سبق إلى الإيمان مع الرسول، عن الحسن. فرقتان بإحسان، وفرقة هالكة، وهو الأوجه. وقيل: السابق: العالم، والمقتصد: المتعلم، والظالم: الجاهل. وقيل: الظالم: طالب الدنيا، والمقتصد: طالب العقبى، والسابق: طالب المولى.

ومتى قيل: كيف يكون المصطفى ظالمًا؟

قلنا: من قال: القسمة وقعت في العباد لا سؤال عليه. ومن قال: ترجع إلى

المصطفى وحمل الظلم على الصغائر فلا[1] سؤال عليه، فأما من حمل الظلم على الكفر يقال: الاصطفاء إنما هو بالتكليف أو بتبليغ دينه وعلم كتابه، فيظلم نفسه ويتبع هواه، ويجوز أنه اصطفاه ثم تَغَيَّرَ.

ومتى قيل: هذه القسمة في العلماء أو في غيرهم؟

قلنا: في العلماء لوجهين:

أحدهما: أنهم ورثوا الكتاب.

والثاني: أن يكون ذا رشاد، والجاهل لا يوصف به، وإنما عليه اتباع العلماء.

وقيل: الظالم: الذي يذكر ربه بلسانه دون قلبه، والمقتصد الذي يذكره بقلبه، والسابق: الذي لا ينسى ربه.

فأما من قال: جميعها ناجية، اختلفوا، فروي عن أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال في الآية: «أما السابق: فيدخل الجنة بغير حساب، وأما المقتصد: فيحاسب حسابًا يسيرًا، فأما الظالم لنفسه: فيحبس، ثم يدخل الجنة، فهم الذين قالوا: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ﴾[2].

وعن عائشة: السابق: من مضى على عهد رسول الله، والمقتصد: من اتبع أثره من أصحابه، والظالم لنفسه: فمثلي ومثلكم.

وعن[3] ابن عباس: السابق: المؤمن، والمقتصد: المرائي، والظالم لنفسه: الكافر لنعمه غير الجاحد له؛ لأنه حكم للثلاثة بدخول الجنة.

وعن عائشة: السابق: الذي أسلم قبل الهجرة، والمقتصد: الذي أسلم بعد الهجرة، والظالم: نحن.

وعن أسامة: أن النبي ﷺ تلا هذه الآية، ثم قال: «كلهم في الجنة»[4].

---

(١) فلا: لا؛ ن.
(٢) المستدرك، رقم ٣٥٩٣، بلفظ متقارب.
(٣) وعن: عن، ن، ت.
(٤) الترمذي عن أبي سعيد الخدري رقم ٣٢٢٥، وأحمد كذلك رقم ١١٧٦٢، والمعجم الأوسط عن عائشة رقم ٦٠٩٤.

وعن عمر وعثمان: أن الجميع ناجية.

وعن عثمان: سابقنا: أهل الجهاد، ومقتصدنا: أهل مصرنا(١)، وظالمنا: أهل بدونا(٢).

وعن ابن الحنفية: فمنهم ظالم لنفسه مغفور له، ومقتصدنا في الجنان، وسابقنا في الدرجات العلا.

وقيل: ظالم لنفسه بالصغائر، ومقتصد في الطاعات في الدرجة الوسطى، وسابق بالخيرات في الدرجة العليا، عن جعفر بن حرب.

وقيل: هم ثلاثة: السابقون في الدين اعترفوا بذنوبهم، وآخرون مرجون.

«بِإِذْنِ اللَّهِ» أي: بأمره، وقيل: بنعمه **«ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ»** قيل: الاصطفاء، وقيل: السبق إلى الخيرات، وقيل: إيتاء الكتاب **«جَنَّاتُ عَدْنٍ»** قد بَيَّنَّا مَنْ أوجب له الجنة، فقيل: السابق فقط، وقيل: السابق والمقتصد، وقيل: الجميع. والجنات البساتين التي في الأشجار، والعدن: الإقامة، يعني: أنها لا زوال لها. **«[يَدْخُلُونَهَا] يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ»** جمع سوار، وهو ما يحلى به **«وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ»** قيل: الديباج، وقيل: هو للرجال والنساء؛ لأن الحظر يزول بزوال التكليف، وقيل: بل للنساء، فأما اللباس للجميع، والأول أوجه. **«وَقَالُوا»** أي: إذا دخلوا الجنة قالوا، وعبر عن المستقبل بالماضي لصحة كونه **«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ»** قيل: حزن النار، عن ابن عباس. وإنما كان ذلك في الدنيا، فأما في الآخرة فلا ينال المؤمن حزن. وقيل: حزن الذنوب وخوف رد الطاعات، عن عكرمة. لما رأوا الذنوب غفرت، والحسنات قبلت قالوا: الحمد لله. وقيل: حزن الموت والحشر

(١) هكذا في ت، ن. وفي تفسير ابن كثير ٣/ ٧٣١، وفتح القدير ٤/ ٤٩٨، وزاد المسير ٦/ ٤٩٠: ومقتصدنا أهل حضرنا.

(٢) في ت، ن: الدرى. والصواب ما أثبتناه من تفسير ابن كثير ٣/ ٧٣١، وفتح القدير ٤/ ٤٩٨، وزاد المسير ٦/ ٤٩٠، والدر المنثور ٧/ ٢٥.

وأهوالها. وقيل: حزن الدنيا والمعاش والمصائب والأوجاع، عن أبي علي. وقيل: حزن إبليس ووسوسته. وقيل: الحزن الذي كنا نحزن في الدنيا من هول القيامة، عن الكلبي. وقيل: حزن الخير والفقر. وقيل: أراد جميع الأحزان؛ لأن جميعها تزول عن أهل الجنة، فلا معنى للتخصيص «**إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ**» قيل: الغفور الذي تجاوز عن الكثير، والشكور أنه قَبِلَ مِنَّا اليسير، عن أبي مسلم. قيل: غفور لمن يستحق المغفرة، شكور يعطي المحسن جزيل الثواب، عن أبي علي. «**الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ**» أي: الإقامة، أي: يقيمون فيها دائمًا فلا يرتحلون «**مِنْ فَضْلِهِ**» من نعمه علينا، وقيل: بلطفه وهدايته ورحمته وصلنا إليها «**لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ**» قيل: تعب، وقيل: وجع، عن قتادة. «**وَلاَ [يَمَسُّنَا فِيهَا] لُغُوبٌ**» أي: إعياء وكلال، إشارة إلى خلوص نعيمهم من الشوائب. وقيل: «**نَصَبٌ**»: تعب العبادة ومشاق التكليف، وقيل: يعني طلب الرزق.

ومتى قيل: لِمَ قدَّم الظالم وأخَّر السابق؟

قلنا: الواو للجمع، لا للترتيب، ولأن التقديم في الذكر لا يدل على فضل، ولأنه أهم؛ كي يتدارك.

۞ الأحكام

يدل قوله: ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ على حدث الكتاب، وكذلك قوله: ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ لَمَّا كان متأخرًا عن[1] غيره لم يكن قديمًا.

ويدل قوله: ﴿أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أنه لا نبي إلا ومعه كتاب، وإن خفي علينا، والصحيح: أن المراد بالمصطفى الأنبياء، وأن القسم يرجع إلى العباد على ما حكيناه عن أبي علي، وهو اختيار القاضي.

وتدل الآية على أن نعيم أهل الجنة خالصة من الشوائب.

وتدل أنها من فضله تعالى إما ابتداء، وإما بأسباب من جهته كالتكليف والهداية وإزاحة العلة.

---

(١) عن: من؛ ن، ت.

وتدل على أن السبق والظلم فِعْلُ العبد.

قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٣٧) إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٣٨) هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ۖ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا (٣٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا (٤٠)﴾

۞ القراءة

قرأ أبو عمرو: «يُجْزَى» بالياء وضمها وفتح الزاي، «كُلُّ» بالرفع على ما لم يسم فاعله لتقديم قوله: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾، ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم﴾، الباقون بالنون وفتحها وكسر الزاي، ﴿كُلَّ﴾ بالنصب مضافًا إليه تعالى.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وحفص عن عاصم: «على بينة» بغير ألف على واحدة، الباقون: «بينات» بالألف على الجمع، واختاره أبو عبيد، قال: لأني رأيتها في بعض المصاحف بالألف.

۞ اللغة

القضاء والحُكْمُ نظيران، والقضاء: إتمام الشيء والفراغ منه على التمام، وقضى فلان، أي: مات، كأنه قضى بموته، أي: حَكَمَ.

والاصطراخ: الصياح بالاستغاثة، وهو «افتعال» من الصراخ، قلبت التاء طاء من

أجل الصاد الساكنة قبلها؛ لتعديل الحروف لحرف وسط بين الحرفين يوافق الصاد بالاستعلاء ويوافق التاء بالمخرج.

والمَقْتُ: البغض، مَقَتُّهُ مَقْتًا فهو مقيت وممقوت.

والخسار: الهلاك، ومنه الخسران، وخَسِرْتُ الشيء وأَخْسَرْتُهُ: نقصته.

۞ الإعراب

«جَهَنَّمَ» لا ينصرف، ومحله جر؛ لأنه مضاف إليه.

«نَعْمَلْ» جزم؛ لأنه جواب الشرط ﴿يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ﴾ نصب على جواب الجحود؛ لأن قوله: ﴿لَا يُقْضَىٰ﴾ جحد.

۞ المعنى

لما تقدم ذكر ما أعد للمؤمنين عقبه بذكر ما أعد للكافرين؛ لأن القيامة أتت عليهما، فقال سبحانه: «**وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ**» يعذبون فيها «**لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا**» أي: لا يحكم عليهم بالموت فيموتوا ويستريحوا «**وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا**» بأن يَقِلَّ العذاب.

ومتى قيل: كيف يصح هذا مع قوله: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]؟

قلنا: التخفيف يحصل بتسهيل الآلام، وغير واقع ذلك، وإن كانت النار تارة تسعر، وتارة تخبو.

«**كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ**» أي: بمثل هذا العذاب العظيم نجزي كل كافر «**وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ [فِيهَا]**» أي: يستغيثون فينوحون بصوت عالٍ؛ لِمَا نالهم من شدة العذاب ويقولون «**رَبَّنَا أَخْرِجْنَا**» من النار «**نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ**» قيل: هذا في الدنيا، فيقول الله تعالى مجيبًا: «**أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ**» أي: ألسنا أبقيناكم وعمرناكم مدة طويلة يتمكن الغافل فيها أن يتذكر ويتلافى، واختلفوا في هذه المدة، قيل: أربعون سنة، عن ابن عباس، ومسروق. وقيل: ستون، عن ابن عباس،

وروي مرفوعًا. وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ: «أكثر أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين»(١)، وعنه ﷺ: «معترك منايا أمتي ما بين الستين إلى السبعين»(٢) «**وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ**» أي: أتاكم المخوف، وقيل: النذير: هو النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ، عن ابن زيد، وأبي علي، وجماعة؛ وهو الأولى؛ لأنه الحقيقة. وقيل: النذير: القرآن، عن زيد بن علي (عليه السلام). وقيل: هو الشيب، عن عكرمة، وسفيان بن عيينة، ووكيع. أشار تعالى إلى أنه أزاح العلة، وأنهم أُتوا في العذاب من جهتهم، والمراد بالتذكر: التدبر في أمر دينه وعواقب حاله «**فَذُوقُوا**» أي: لما لم تتفكروا فذوقوا العذاب «**فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ**» أي: ناصر ينجيهم من العذاب «**إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**» أي: اتقوا معاصيه فإنه عالم بجميع ذلك، ولما في الصدور، فيجازيكم به، وقيل: عليم بأنهم لو ردوا لعادوا إلى الكفر، عن أبي مسلم. «**هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ**» يا أمة محمد «**خَلائِفَ فِي الأَرْضِ**» قيل: أمة بعد أمة وقرنًا بعد قرن، عن قتادة. وقيل: جعلكم خلائف القرون الماضية بأن أحدثكم بعدهم، وأورثكم ما كان لهم، وأنعم عليكم لتشكروه «**فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ**» أي: يعود وباله وضرره عليه «**وَلاَ يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتًا**» قيل: غضبًا، وقيل: عذابًا «**وَلاَ يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَارًا**» قيل: هلاكًا، وقيل: خسرانًا «**قُلْ**» يا محمد أو أيها المؤمن لهؤلاء الكفار: «**أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ**» قيل: الذين أشركتموهم في أموالكم وجعلتم لهم قسطًا منها وهي الأوثان، عن أبي علي. وقيل: الذين أشركتموهم في العبادة «**الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ**» ما حجتهم فيه «**أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ**» حتى يستحق على ذلك الشرك في الإلهية، وقيل: خلقوا في الأرض من شيء «**أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ**» في خلقها وما فيها، أشار إلى [أن] خالق الأجسام يستحق العبادة والإلهية «**أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا**» أي: أعطيناهم كتابًا يدل على صحة ما هم عليه «**فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ**» أي: حجة «**مِنْهُ**»، يعني: لا دليل له عقلاً ولا سمعًا، وإنما اعتقدوه تقليدًا «**بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلاَّ غُرُورًا**» يعني: أن ذلك فيهم غرور، لا عن حجة؛ لكن بعضهم يغر

(١) الترمذي رقم ٣٥٥٠.

(٢) شعب الإيمان رقم ١٠٢٥٣.

بعضًا، كعلماء السوء وأهل البدع وكالمتبوعين فيما قالوا للأتباع، كقولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨]، و﴿مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [ص: ٧]، ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾ [الزخرف: ٢٢]، وسائر الشبه والتمويهات، فينبغي للعاقل ألا يغتر بها.

۞ الأحكام

تدل الآيات أن التلافي يقع في الدنيا، وأنه يتعذر في الآخرة؛ لذلك قال: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ﴾.

وتدل أنه يقال ذلك في الآخرة توبيخًا.

وتدل أن للعبد اختيارًا وفعلاً ليصح سؤالهم، وكون العمر حجة.

ويدل قوله: ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ أن لا شفاعة لأهل الكبائر.

ويدل قوله: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ﴾ على صحة الحجاج في الدين.

وتدل أن كل قول عَرِيَ عن دليل عقلي أو شرعي فالواجب القضاء بفساده.

قوله تعالى:

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ﴿٤٤﴾ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا ﴿٤٥﴾﴾

القراءة

قرأ حمزة والأعمش: «السيئْ» بسكون الهمزة كراهة لتوالي الحركات، الباقون بكسرها، قال الزجاج: وسكون الهمزة لَحْنٌ عند النحويين، لا يجوز القراءة به.

اللغة

الإمساك: تسكين بمنع الزوال، أمسكه إمساكًا، والأرض ساكنة بإسكانه تعالى من غير عَمَدٍ لا يقدر عليه غيره. وقيل: يمسكها بأن يخلق فيها سكونًا حالاً بعد حال يمنعها[1] من الهُوِيِّ. وقيل: يخلق فيها اعتمادين سفلاً وعلوًا، ويمسك السماوات كذلك.

والسموات غير الأفلاك الجارية، وهي فوق الأفلاك، عن أبي علي.

والنُّفور: التباعد عن الشيء، نَفَرَ يَنْفِرُ فهو نَافِر ونُفُورٌ، نحو: شاهد وشهود.

والحَيْقُ: مصدر حاق به الأمر يَحِيقُ: إذا لزمه، ووجب عليه، وقال الأزهري: الحيق: ما يشتمل على الإنسان من مكروه فعله.

والسُّنَّةُ: الطريقة إذا تكررت منه.

الإعراب

«استكبارًا» نصب، قيل: بدلاً من النفور، عن الأخفش، وقيل: على المصدر أي: استكبروا استكبارًا، وقيل: بنزع الخافضة.

والهاء في قوله: ﴿عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ كناية عن غير مذكور، وهو الأرض، وقيل: بل كناية عن مذكور، وقد تقدم ذكر الأرض في قوله: ﴿لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، عن أبي مسلم.

النزول

قيل: نزل قوله: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ الآية، في مشركي قريش لما بلغهم أن اليهود

(١) يمنعها: يمنعه، ن.

والنصارى كذبوا الرسل، قالوا: لعن الله اليهود والنصارى كذبوا رسلهم، إن أتانا رسول لنكونن أهدى منهم، فلما بعث محمد رسول الله كذبوه.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى أنه المستحق للعبادة والإلهية؛ لأنه خالق الأشياء، فقال سبحانه: «**إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولاَ**» أي: يمسكهما سكونًا دائمًا كيلا تزولا، ولا يقدر عليه أحد، وقيل: ذكر هذا إعظامًا لشركهم، أي: يمسك السماوات والأرض مع شركهم وسوء قولهم؛ لأنه حليم لا يعاجل بالعقوبة «**وَلَئِنْ زَالَتَا**» أي: لو قدرنا زوالهما لا يمسكهما أحد غيره، قال ابن مسعود: السماوات لا تدور، ولو كانت تدور لكانت قد زالت، فيؤيد قول أبي علي: إنها غير الأفلاك السائرة «**إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا**» لا يعاجل بالعقوبة، وقيل: يبقي من يستحق العقاب «**غَفُورًا**» إذا تابوا غفر لهم «**وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ**» أي: حلفوا به «**جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ**» أي: مجتهدون فيما حلفوا «**لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ**» مُخَوِّفٌ، وهو النبي «**لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ**» قيل: اليهود والنصارى «**فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ**» وهو النبي ﷺ «**مَا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُورًا**» بعدًا عنه ونفارًا «**اسْتِكْبَارًا فِي الأَرْضِ**» قيل: نفورًا تكبرًا وأنفة من قبول الحق، وأن يكونوا تبعًا لغيرهم، وقيل: استكبارًا أي: عزمًا على المكر السيئ بالنبي والمؤمنين «**وَمَكْرَ السَّيِّئِ**» قيل: هو كفرهم وعبادتهم غير الله، وقيل: هو اجتماعهم على مكر النبي وقتله، عن الكلبي.

ومتى قيل: كيف قال: «**مَا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُورًا**»؟

قلنا: عند دعوته ازدادوا نفورًا، وأضاف إليه كقوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦].

ومتى قيل: كيف أضاف المكر إلى السيئ وهما واحد؟

قلنا: أضاف الموصوف إلى الصفة كقوله: انظروا إلى عظم نعم الله.

«**وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ**» قيل: لا يحل وَبَالُ المكر إلا بأهله، أي: عقوبته ووزره لا ينال غير أهله، عن أبي علي. وقيل: دبروا قتله، فَقُتِلوا يوم بدر، ودبر بعضهم أن يثبتوه في القيد فأُثْبتوا يوم بدر «**فَهَلْ يَنْظُرُونَ**» أي: ينتظرون «**إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ**» أي: طريقتهم، قيل: إن معناه: أن سنته أن يحيق المكر السيئ بأهله فلا يغير

سنته، وقيل: سنته إنزال العقوبة على العصاة «فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً».

ومتى قيل: كان يجب أن ينزل بمشركي العرب مثل ما نزل بالأمم؟

قلنا: ذاك سنته إن لم يتوبوا، وهم تابوا. وقيل: سنته: العقوبة إما عاجلاً أو آجلاً، وذلك لا يتغير. وقيل: أراد نزول ما يغير حالهم من العز والمنعة، وقد وقع يوم بدر بالقتل والأسر ويوم الفتح بالقهر. وقيل: سنته: الإمهال للتلافي للتوبة، وقيل: سنته: إمهال بعضهم، واستئصال بعضهم على حسب مصالحهم والمعلوم منهم.

ومتى قيل: كيف ينتظرون مع الإنكار؟

قلنا: ينتظر بهم فكأنهم ينتظرون، وقيل: بقاؤهم مع الإصرار كأنه انتظار.

«وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً» ذكر بلفظين تأكيدًا.

«أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» ممن كفروا فأهلكهم الله «وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً» فلم تعصمهم قوتهم «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ» أي: لا يفوته شيء، ثم بيّن أن التعجيز [يكون] بِجَهْلِ موضعه، أو لأنه لا يقدر على أخذنا، وهو تعالى عالم بجميع المعلومات قدير على ما يشاء فيأخذه، «وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا» من المعاصي «مَا تَرَكَ [عَلَى ظَهْرِهَا» أي]: على ظهر الأرض «مِنْ دَابَّةٍ» قيل: مما يدب من سائر الحيوانات، عن أبي علي؛ لأنه إذا هلك الناس عقوبة هلك الحيوانات محنة. وقيل: إذا هلك المكلفون لا بد أن تهلك الحيوانات؛ إذ لا أحد ينتفع بها[1]. وقيل: أراد الجن والإنس. وقيل: أراد المكلفين من الإنس، عن أبي مسلم. وقيل: الدابة اسم لمستحق العقاب من الكفار سماهم بذلك إهانة واستخفافًا. وعن أبي هريرة أنه سمع رجلاً يأمر

(١) بها: بهم، ن، ت.

[آخر] بمعروف، وينهى عن منكر، فقال له ذلك المأمور: عليك نفسك؛ فالظالم لا يضر إلا نفسه، فقال أبو هريرة: كذبت؛ إن الحُبَارَى لتموت في وَكْرِها بظلم الظالم. وقيل: يحبس الله المطر، فتهلك الدواب.

ومتى قيل: كيف لمْ يُبْقِ أحدًا لو أخذوا بالذنوب؟

قلنا: لعلم الله تعالى بأن واحدًا منهم لم يخل من ذنب.

«**وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى**» وقت معلوم، قيل: القيامة، وقيل: وقت القيامة «**فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ**» أي: وقتهم المضروب لهم فعل بهم ما استحقوه، فحذف لدلالة الكلام عليه «**فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا**» أي: عليمًا بآجالهم وأعمالهم وما يستحقون عليها.

۞ الأحكام

تدل الآية أنه تعالى الممسك للعالم، وقد بَيَّنَّا كيفية الإمساك، وكيف يدل على مدبر.

ويدل قوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ على وجوب التدبر.

وتدل أنه لا يعجل بالعقوبة، ويمهل للمصلحة.

وتدل أن الذنب فعلهم.

سورة يس

سورة (يس) ثمانون وثلاث آيات في الكوفي، واثنان في غيره، وهي مكية فيما نُقِلَ.

ويقال: لِمَ عُدَّ (يس) آية، ولم يعد (طس)؟

قلنا: لأن (طس) أشبه هابيلاً وحروفه صحاح، وخرج (يس) عن الشبه بأن أوله حرفُ علة وليس له مثل في الأسماء المفردة فأشبه الجملة، والكلام التام شاكل ما بعده من رؤوس الآي.

ولما تقدم في آخر السورة التي قبلها أنهم أقسموا لئن جاءهم نذير افتتح هذه السورة بأن النذير قد جاءهم فلم يؤمنوا.

فضل السورة

روى قتادة عن أنس عن النبي ﷺ: «لكل شيء قلب وقلب القرآن (يس)، من قرأ (يس) كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات»(١).

وعن أبي بكر الصديق، أن النبي ﷺ قال: «(يس) تدعى [في التوراة](٢) المُعِمَّةَ»، قيل: يا رسول الله، وما المعمة؟ قال: «تعم صاحبها خير الدنيا وخير الآخرة، وتُدْعَى: الدافعة، تدفع عنه كل سوء، والقاضية، تقضي له كل حاجة. ومن قرأها عدلت له عشرين حَجَّةً، ومن سمعها عدلت له ألف دينار في سبيل الله»(٣).

---

(١) الترمذي رقم ٢٨٨٧.

(٢) ما بين المعكوفين زيادة من مجمع البيان في تفسير القرآن م٥/ ج٢٢/ ٤.

(٣) شعب الإيمان رقم ٢٤٦٥.

وعن عائشة أن النبي ﷺ قال: «إن في القرآن سورة تشفع لقارئها وتغفر لمستمعها؛ ألا وهي سورة (يس)».

وعن أبي بن كعب: أن النبي ﷺ قال: «من قرأ (يس) يريد به وجه الله تعالى غفر الله له، وأعطي من الأجر كأنما قرأ القرآن اثنتي عشرة[1] مرة، وأيما مريض قرئ عنده (يس) نزل عليه بعدد كل حرف عشرة أملاك يقومون بين يديه صفوفًا، فيصُلّون ويشفعون له، ويشهدون قبضه وغسله، ويتبعون جنازته، ويصلون عليه، ويشهدون دفنه، وأيما مريض قرأ سورة (يس) في سكرات الموت لم يقبض ملك الموت روحه حتى يجيء رضوان خازن الجنة بِشَرْبَةٍ من الجنة فيشربها وهو على فراشه، فيموت وهو ريان، ويبعث وهو ريان، ويحاسب وهو ريان، ولا يحتاج إلى حوض من حياض الأنبياء حتى يدخل الجنة وهو ريان».

وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة (يس) في ليلة أصبح مغفورًا له»[2].

وعن أنس، عن النبي ﷺ: «من دخل المقابر فقرأ سورة (يس) خفف عنهم يومئذ، وكان له بعدد من فيها حسنات»[3].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾

(١) اثنتي عشرة: اثني عشر؛ ن، ت.

(٢) ابن حيان رقم ٢٥٧٤.

(٣) أخرجه الثعلبي في تفسيره ٣/ ٢/ ١٦١.

❁ القراءة

قرأ حمزة والكسائي وعاصم في بعض الروايات: ﴿يسٓ﴾ بكسر الياء على الإمالة، إلا أن حمزة أقل إمالة. وقرأ أبو جعفر بين الكسر والفتح، وهو اختيار أبي حاتم وأبي عبيد، والباقون بفتح الياء. وقرأ أبو جعفر وحمزة وأبو عمرو بإظهار النون من ﴿يسٓ﴾ عند الواو، وكذلك في (نون والقلم). وقرأ ابن عامر والكسائي بإخفاء النون فيهما، وعن ابن كثير ونافع وعاصم روايتان الإخفاء والإظهار، وقرأ عيسى بن عمر بفتح النون وشبهها بـ (أن) و(كيف)، وقرأ ابن أبي إسحاق بكسر النون شبهها بأمسِ وحذامِ، وقرأ هارون الأعور بضم النون شبهها بـ (مُنْذُ) و(حَيْثُ)، ولا تجوز القراءة إلا بما ظهر نقله واستفاض.

وقرأ عاصم في رواية حفص والكسائي وابن عامر: «تَنْزِيلَ» بنصب اللام على المصدر، يعني: نزل تنزيل، وقيل: على تقدير أعني تنزيل، الباقون بضمها، يعني: هو تنزيل، أو ذلك تنزيل.

والقراءة الظاهرة: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾ بالغين معجمة، وعن عكرمة بالعين غير معجمة، وروي نحوه عن ابن عباس، من العَشَا الذي هو العمى، ولا تجوز القراءة به.

❁ اللغة

الحُكم: أصله المنع، وسمي العِلْمُ حِكْمَةً؛ لأنه يمنع من الجهل.

والغفلة: ذهاب المعنى عن النفس، ونظيره: السهو، ونقيضه: الذِّكر.

والأذقان: جمع ذقن، وهو مجمع اللحيين.

والمُقْمَحُ[١]: الذي يغض بصره بعد رفع رأسه، وقيل: لِلْكانُونَيْنِ: شَهْرَا القِمَاحِ؛ لأن الإبل إذا وردت الماء رفعت رؤوسها من شدة البرد وامتنعت[٢] من الماء، يقال: بعير قامح، وإبل قماح، وقد قمحت وأقمحتها، ومنه: ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾، قال الشاعر يصف سفينة ركب فيها:

---

(١) والمقمح: القمح، ن، ت.

(٢) وامتنعت: وامتنع، ن، ت.

وَنَـحْـنُ عَـلَـى جَـوانِـبِـهـا قُـعُـودٌ نَـغُـضُّ الـطَّـرْفَ كَـالْإِبِـلِ الـقِـمَـاحِ[1]

والسُّدُ بالفتح: يكون فعل الإنسان، وبالضم يكون خلقه، ويقال: سد عليهم الطريق والأمر، ومنه: السِّدَادُ في العيش، وهو ما يسد به فاقته.

۞ الإعراب

﴿يسٓ﴾ قيل: رفع بتقدير: هو يس. وقيل: جر بتقدير: وَرَبِّ يس؛ لأنه قسم.

﴿عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ يجوز فيه وجهان: الرفع على أنه خبر، تقديره: إنك على صراط مستقيم، [والنصب][2] على أنه حال للإرسال، كأنه قيل: أرسلوا مستقيمًا طريقتهم.

﴿تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ﴾ رفع على الابتداء.

۞ النزول

قيل: نزل قوله: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ﴾ الآية في سراقة بن مالك بن جعشم، تبع النبي ﷺ وقت الهجرة باستدعاء كفار مكة، فدعا عليه، فساخت فرسه، فسأله أن يطلقه على أن ينصرف عنه ولا يحاربه ولا يكثر سواد أعدائه، ففعل.

وقيل: نزل في أبي جهل وأصحابه، كان حلف إن رأى محمدًا يصلي يرضخ رأسه، فرآه يصلي فأتاه بحجر يدمغه فلزق بيده فعاد إلى أصحابه، فقام رجل من بني مخزوم وقال: أنا أقتله بهذا الحجر، فأعمى الله بصره ورجع، ففيهم نزلت الآيات.

۞ المعنى

﴿يسٓ﴾ اختلفوا فيه على قولين: منهم من قال: ليس له معنى في نفسه، ومنهم من قال: له معنى.

---

(١) تاج العروس (قمح).

(٢) ما بين المعكوفين من هامش ن.

فمن قال: لا معنى له في نفسه اختلفوا، قيل: اسم للسورة، عن الحسن، وقتادة، وأبي علي. وقيل: إشارة إلى أن القرآن مؤلف من هذه الحروف، وأنتم تتكلمون بها، وعجزتم عن مثلها، فاعلموا أنه معجزة وكلام الله تعالى، عن أبي مسلم. وقيل: إشارة إلى أن القرآن مؤلف من هذه الحروف؛ ليعلم أنه محدث، عن أبي بكر الزبيري.

وأما من قال: له معنى، اختلفوا، فقيل: معناه: يا إنسان بلغة طَيِّءٍ، عن ابن عباس. قال عطاء: هو بالسريانية، وليس بصحيح؛ لأن القرآن كله عربي إلا أن يريدوا توافق اللغتين أو أن العرب أخذته وعرَّبَتْهُ، وقيل: معناه: يا رجل، عن أبي العالية. وقيل: معناه: يا محمد، عن سعيد بن جبير. وقيل: «إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ» ولذلك يقال لآل محمد: آل يس، قال السيد الحميري:

يَا نَفْسُ لاَ تَمْحَضِي بِالْوُدِّ جَاهِدَةً   عَلَى الْمَوَدَّةِ إِلاَّ آل يَاسِينَا[1]

وكل ذلك لا دليل عليه، فالأصح أحد القولين الأولين، إما قول أبي علي وإما[2] قول أبي مسلم.

«وَالْقُرْآنِ» الواو للقسم، أقسم به تنبيهًا على تفخيم شأنه وعظم حاله؛ من حيث إنه كلام الله تعالى، معجز لرسوله، دال على الأحكام، وقيل: القسم برب القرآن «الْحَكِيمِ» قيل: المُحْكَم، وقيل: المظهر للحكمة للناظرين «إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ» هذا جواب القسم، أَقْسَمَ أنه نبي من الأنبياء جوابًا لقول الكفار ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ [الرعد: ٤٣].

ثم بيّن طريقته، فقال سبحانه: «عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» أي: طريق في الدين مستقيم، سمى الدين طريقا؛ لأنه طرائق الجنة والنجاة.

ثم وصف القرآن، فقال سبحانه وتعالى: «تَنزِيلَ» أي: هذا القرآن تنزيل «الْعَزِيزِ» أي: القادر «الرَّحِيمِ» بعباده لذلك بعثه.

---

(١) البيت قائله: إسماعيل بن محمد بن يزيد المعروف بإبن مفزع الحميري، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

(٢) وإما: أو؛ ن، ت.

ثم بيّن الغرض في بعثته وإنزال القرآن، فقال سبحانه: «**لِتُنذِرَ قَوْمًا**» أي: لتخوف وتعلم بموضع المخافة «**قَوْمًا مَا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ**» قيل: فيه وجهان:

أولهما: بمعنى (الذي)، تقديره: كالذي أنذر آباؤهم، عن عكرمة.

وثانيهما: أنه (ما) النفي، أي: ما أنذر آباؤهم في حال الفَتْرَةِ، عن قتادة؛ لأن قريشًا لم يأتهم نبيّ قبل نبيّنا ﷺ.

وقيل: لم يأتهم من ينذرهم بالكتاب حيث ما أنذر، وهذا على قول من جوز كون نبي في العرب قبله كخالد بن سنان وقس بن ساعدة وغيرهما، وقيل: لم يأتهم نذير من أنفسهم وقومهم وإن جاءهم من غيرهم، عن الحسن.

ومتى قيل: لِمَ قدم الإنذار دون البشارة؟

قلنا: لأن الإنذار يتضمن التخويف في ترك التمسك بالقرآن، والترغيب بالتمسك به، فيتضمن البشارة والإنذار، ولأن القوم كانوا على ضلالة، فكان التخويف أَلْيَقَ بحالهم؛ ليزولوا عن حالهم، ثم يبشروا بالجنة.

«**فَهُمْ غَافِلُونَ**» عن الإيمان والرشد «**لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ**» أي: وجب الوعيد على أكثرهم لعلمه تعالى أنهم لا يؤمنون ويموتون على كفرهم «**فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ**»، وقيل: إنه تعالى أخبر ملائكته أنهم لا يؤمنون، نحو قوله: «**إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ**» رفعوا رؤوسهم وشخصوا بأبصارهم، عن مجاهد. يعني: المغلول لا يستطيع أن يجمع عنقه ويده، واختلفوا في معنى الآية، فقيل: المراد بالأغلال حقيقتها، وأنه يكون مغلولاً يوم القيامة، والجَعْلُ: الحكم، تقديره: حكمنا لهم بالأغلال في أعناقهم يوم القيامة لسوء أفعالهم.

ثم وصف الأغلال بالشدة وبلوغها الذقن، وأنها تتضمن اليد والعنق، واكتفى بذكر العنق عن اليد؛ لأن الأغلال[١] تتضمنها، ووصفهم بأنهم لا يمكنهم أن ينكسوا

(١) الأغلال: الغلال، ن.

رؤوسهم كل ذلك عذابًا لهم، وقيل: المراد به المَثَلُ، لا حقيقة الغُلِّ، والمعنى: أن هؤلاء الذين أخبر الله عنهم أنهم لا يؤمنون وخبره في ذلك، وهو بمنزلة من في عنقه غلٌّ يمنعه من الإيمان، وهو مقمح به إلى رقبته، وإنما يقال هذا في الغل يبلغ الفم، فشبههم بمن في عنقه غل يمنعه التصرف، كذلك هم؛ لأنه عَلِمَ أنهم لا يؤمنون، فلما شبههم به من هذا الوجه أجرى عليهم هذه الصفات توسعًا، كما يقال: فلان حمار، شبه به لقلة فهمه، وقد جاء مثله في كلام العرب، قال: الأفوه الأزدي:

كَيْفَ الرَّشَادُ وَقَدْ صِرْنَا إِلَى نَفَرٍ ... لَهُمْ عَنِ الرُّشْدِ أَغْلَالٌ وَأَقْيَادُ[1]

وليس ثَمَّ قَيْدٌ ولا غُلّ، وإنما أراد التشبيه، وهذا قول أبي علي. وقيل: أراد أن القرآن لثقله عليهم أغلال في أعناقهم يمنعهم عن الخضوع لاستماعه، وتقديره: لأنهم لما استكبروا عنه وأنفوا من اتباعه وكان المستكبر عن الشيء رافعًا رأسه لاويًا عنقه شامخًا بأنفه لا ينظر إلى الأرض صار كالمغلول في عنقه، وإنما أضاف ذلك إلى نفسه؛ لأنه كان عند دعوته إياهم وتلاوة القرآن عليهم، فجاز أن يضاف إليه، كقوله[2] ﴿فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي﴾ [المؤمنون: ١١٠] لما كان ذلك عند سخريتهم أضافها إليهم، وجملة المعنى: أن استثقالهم القرآن واستكبارهم صار أغلالاً في أعناقهم أقمحتهم أي: رفعت رؤوسهم، عن أبي مسلم. وقيل: أضاف ذلك إلى نفسه؛ لأنه عند نفورهم خذلهم، وقيل: جعلنا في أعناقهم أغلالاً؛ أي: ظلمات وضلالات كانوا فيها، عن عكرمة. ومعناه: حكمنا عليهم بها «**وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا**» قيل: سدًا عن الحق، عن قتادة، ومجاهد. أي: على جهة الذم حكمنا بأنهم على غير حق وبينهم وبين الحق سد، لا أنه منعهم عن الحق. وقيل: أراد التشبيه، أي: كأن بين أيديهم سَدًّا[3] يمنعهم عن الإيمان، عن أبي علي. وقيل: ذلك عبارة عن خذلان الله إياهم لما كفروا، فكأنه قيل: تركناهم مخذولين، فصار ذلك بين أيديهم سدًّا ومن خلفهم سدًّا، عن أبي مسلم. وقيل: بل هو على حقيقته في

(١) فتح القدير ٤/ ٥١٢.
(٢) كقوله: كقولهم، ن، ت.
(٣) سدا: سد؛ ن، ت.

القيامة، وهو عبارة عن ضيق المكان في النار، لا يجدون متقدمًا ولا متأخرًا سد عليهم جوانبهم. «فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ» في النار، وقيل: معناه: أنهم وإن انصرفوا عن الإيمان والقرآن ألزمتهم ذلك حتى لا يتخلصوا منه بوجه كالمغلول والمسدود عليه طريقه. وقيل: هو تشبيه، أي: كأن على أبصارهم غشاوة. «وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ» أي: لا ينتفعوا بإنذارهم، يموتون على الكفر، ولكن إنذارهم حجة عليهم.

۞ الأحكام

تدل الآية على حدث القرآن من حيث وصفه بأنه منزل.

وتدل على جواز خلو الزمان من نبي وإمام؛ حيث وصف بأن آباءهم لم يأتهم نذير، فيبطل قول الإمامية.

وتدل على أن الحق يكون مع الأقل، فيبطل احتجاج الحشوية بالكثرة.

وتدل على ذم القوم، وأنهم كالمغلول والمسدود عليه.

وتدل على أن الإيمان فعلهم، فيبطل قول المجبرة في المخلوق.

قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾
إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾
وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا
بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ
أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ
ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾

۞ القراءة

قرأ أبو بكر عن عاصم: «فَعَزَزْنَا» بالتخفيف، أي: غلبناهم، من قولهم: مَنْ عَزَّ

بَزَّ، ومنه: إذا عزّ أخوك فَهُنْ. الباقون بالتشديد، أي: قوينا، يقال: أعززته: جعلته عزيزًا، وعزّزته: قويته.

اللغة

الإحصاء: العدّ، أحصى يحصي، أي: عَدَّ.

والإمام: من يؤتم به، وأصله: القصد، أمّ يؤم أمًّا، وسمي الكتاب إمامًا؛ لأنه يؤتم به.

الإعراب

«أَصْحَابَ» نصب بدلاً من قوله: ﴿مَّثَلًا﴾، وقيل: نصب على التفسير، كأنه قيل: [قل]: مثلاً، ثم فسر المَثَلَ.

النزول

نزل قوله: ﴿وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾ في بني عذرة، كانت منازلهم بعيدة من المسجد، فشق عليهم حضور الصلوات، فنزلت الآية فيهم، وآثارهم خطاهم إلى المسجد. وقيل: هو عام.

المعنى

ثم بيّن حال من ينتفع بإنذاره، فقال سبحانه: «**إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ**» أي: القرآن، يعني: أنك وإن جئت منذرًا للجميع، فإنما ينتفع بإنذارك من يتبع القرآن ويقبله «**وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ**» قيل: حال غيبتهم عن الناس خلاف المنافقين. وقيل: خبر ما غاب عنه من أمر الآخرة «**فَبَشِّرْهُ**» يعني: هؤلاء «**بِمَغْفِرَةٍ**» من الله «**وَأَجْرٍ كَرِيمٍ**» أي: ثواب خالص من الشوائب.

ثم بيّن متى يكون ذلك، فقال سبحانه: «**إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى**» للجزاء يوم القيامة «**وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا**» أي: الأعمال، عن مجاهد. وقيل: ما قدموا من أعمال ليس لها أثر «**وَآثَارَهُمْ**» ما له أثر، عن أبي علي. «**وَآثَارَهُمْ**» قيل: أعمالهم التي صارت سُنَّةً بعدهم،

حسنًا كان أو قبيحًا. وقيل: ما خلفوه من الأموال، عن أبي مسلم. «**وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ**» قيل: علمناه، وقيل: عددناه «**فِي إِمَامٍ مُبِينٍ**» أي: كتاب مبين، وهو اللوح المحفوظ، كتاب الله للملائكة، قيل: سمي إمامًا؛ لأنه يقتدى به، وقيل: لأنه أول الكتب وسابقها.

ثم ضرب مثلاً فقال سبحانه: «**وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ**» قيل: أخبر خبر القرية التي أهلكهم الله تعالى بتكذيبهم الرسل، وقيل: مَثِّلْ لهم مثلاً يزيدهم بصيرة، قيل: القرية أنطاكية «**إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ**» قيل: هم رسل عيسى وهم الحواريون، عن وهب، وكعب. وقيل: هم رسل الله بعثهم إلى قرية، وهو الوجه. «**إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ**» أي: رسولين «**فَكَذَّبُوهُمَا**» وقيل: هما من رسل الله، وهو الوجه. وقيل: من رسل عيسى «**فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ**» أي: قوينا وشددنا، عن مجاهد، وابن زيد. وقيل: الثالث: شمعون الصفا، وقيل: غيره، وهو الصحيح. وقيل: بعثوا إلى آل ياسين، وفيهم حبيب النجار، فآمن بهم. ومن قال: إنهم رسل عيسى، قال: إنما أضافه إلى نفسه؛ لأن عيسى أرسلهم بأمره، ولكن الحقيقة ما ذكرناه أوّلاً «**فَقَالُوا**» أي: الرسل لقومهم «**إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ**» وقال القوم مجيبين: «**مَا**[1] **أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا**» فلا تصلحون للرسالة كما لا نصلح نحن «**وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ**» أي: ما أنتم إلا كذبة «**قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ**» قيل: لما قامت الحجة بظهور المعجزة ولم يقبلوها قالوا ذلك، وقيل: لما لم يكن في القرية من يشهد لهم اكتفوا بشهادة الله، وقيل: هو وعيد لهم «**وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ**» أي: بلاغ الرسالة المبينة للحق.

۞ الأحكام

تدل الآيات على أن أعمال العباد مكتوبة، وفيه تحذير ولطف.

وتدل أن بَعْثَةُ جماعة في وقت واحد جائز.

ومتى قيل: معجزتهم تتغاير أم لا؟

(١) ما: إن، ن.

قلنا: يجوز أن يكون واحدًا إذا كانوا معًا، فكذلك يجوز أن تكون شريعتهم واحدة، وأما إذا جاء بعضهم بعد بعض فلا بد من معجز آخر، وشريعة متجددة.

وتدل على جواز تقوية الرسل برسول آخر.

وتدل على أن القوم أنكروا الرسول من البشر، ولم يعلموا أن الرسالة تتبع المصلحة.

وتدل على أن التكذيب فِعْلُهُمْ، ليس بخلق الله، وكذلك اتباع الذكر، فيبطل قول المجبرة في المخلوق.

قوله تعالى:

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ
أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ١٩ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ
ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٢١ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ
تُرۡجَعُونَ ٢٢ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا
يُنقِذُونِ ٢٣ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٤ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ٢٥ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ
قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧ ۞وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ
بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ٢٨ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ٢٩
يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٠﴾

۞ القراءة

قرأ أبو عمرو وقالون عن نافع: «آئن ذُكِّرْتُمْ» بهمزة واحدة ممدودة مثل: (آئِذًا وآئِنَّا)، وقرأ أبو جعفر وحده بهمزة واحدة مفتوحة مطولة، «ذُكِرْتُمْ» خفيفة، وقرأ ابن كثير ونافع ويعقوب بهمزة واحدة مكسورة غير ممدودة، وقرأ ابن عامر وحمزة وعاصم والكسائي بهمزتين، وكلهم يشدّدون ﴿ذُكِّرۡتُمۚ﴾ غير أبي جعفر.

وقرأ أبو جعفر: «صَيْحَةٌ» بالرفع، وكذلك ما بعده، جعل الكون بمعنى الوقوع، الباقون بنصبها على أنها خبر (كان).

ظاهر القراءة: «يَا حَسْرَةً» بالفتح والتنوين، وعن عكرمة بجزم الهاء.

وقرأ نافع: ﴿يُنقِذُونِ﴾ بإثبات الياء على الأصل، الباقون بحذفها للتخفيف ودلالة الكسر عليه في الوصل والوقف.

اللغة

التطيّر: التشاؤم؛ ولذلك قيل: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ﴾ أي: الشؤم كله معكم؛ لإقامتكم على الكفر، وأصله: زجر الطير الذي كانت العرب تفعله.

والرجم: الرمي بالحجارة، رجم يرجم رجمًا، ورَجَّمَ بالغيب ترجيمًا.

الإعراب

جواب: ﴿أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ﴾ تطيرتم.

﴿ءَأَتَّخِذُ﴾ ألف الاستفهام، والمراد الإنكار.

المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى ما جرى بين الرسل وبين قومهم، فقال سبحانه: «**قَالُوا**» يعني: الكفار لرسلهم «**إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ**» أي: تشاءمنا، قيل: حبس عنهم المطر، فقالوا[(١)]: هذا بِشَرِّكُمْ، عن مقاتل. وقيل: أرادوا: خفنا أن يصيبنا بسببكم مكروه؛ لأنهم كانوا يعتقدون أنهم متى خالفوا الأصنام أصابتهم مصائب في أموالهم وأنفسهم، وقيل: أرادوا عذاب الاستئصال خافوا ذلك لما سمعوا من أخبار الأمم «**لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا**» أي: لئن لم تَدَعُوا هذا الذي دعوتمونا إليه «**لَنَرْجُمَنَّكُمْ**» قيل: نرميكم بالحجارة حتى نقتلكم، عن قتادة. وقيل: لنقتلنكم «**وَلَيَمَسَّنَّكُمْ**» أي: يصيبنكم «**مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ**» وجيع، قيل: قَتْلٌ أو حرق أو ما أشبه ذلك «**قَالُوا**» يعني: الرسل لقومهم «**طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ**» أي: شؤمكم معكم، وهو الكفر الموجب للعذاب، فأما الدعاء إلى التوحيد وعبادة الله ففيه البركات ولا شؤم فيه. وقيل: حظكم من الخير والشر، عن ابن عباس، والضحاك. وقيل: أعمالكم، عن قتادة. وقيل: أمركم، عن الحسن. «**أَئِنْ**

(١) فقالوا: فقال، ن.

ذُكِّرْتُمْ» أي: وعظتم، وقيل: معناه: إنكم إن تدبرتم عرفتم صحة ما ذكرنا لكم «بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ» أي: مجاوزون الحد في الكفر والعصيان «وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ» أي: من أسفلها «رَجُلٌ يَسْعَى» قيل: كان اسمه حبيب النجار، عن ابن عباس وجماعة من المفسرين. وقيل: كان رجلاً مستقيمًا، وكان مؤمنًا صَدَّقَ بالرسل، وكان يجمع كسبه، فإذا أمسى أطعم نصفه وتصدق بنصفه، فلما بلغه أن قومه كذبوا الرسل وهموا بقتلهم[١] جاءهم واعظًا، عن وهب. وقيل: كان في غار يعبد الله، فلما بلغه خبر الرسل أتاهم وأظهر دينه «قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ» فيما أمروكم به «اتَّبِعُوا مَن لاَ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا» قيل: سأل الرسل: هل تسألون أجرًا؟ قالوا: لا، فقال ذلك، عن قتادة. «وَهُمْ مُهْتَدُونَ. وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي» قيل: قالوا له: فأنت مخالف لديننا متابع لهؤلاء فقال «وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» إلى حكمه وجزائه «ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً» يعني: كيف أترك عبادة الفاطر وأتبع عبادة الحجر؟

ثم بيّن القبح فقال: «إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لاَ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا [وَلاَ يُنقِذُونِ]» يعني: لا يمكنهم[٢] إنجائي بأنفسهم[٣] ولا بشفاعتهم «إِنِّي إِذًا» أي: لو فعلت ذلك لكنت في «ضَلاَلٍ مُبِينٍ» أي: بَيِّنٌ واضح لمن تأمله، فقالوا: لن نؤمن إذًا، قال: «إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ» أي: خالقكم ورازقكم «فَاسْمَعُونِ» قيل: خطاب للرسل، أي: اسمعوا لتشهدوا لي، وقيل: اسمعوا لتعلموا تمييزي من بين أهل هذه القرية، وقيل: بل خطاب لقومه؛ أي: اسمعوا قولي واقبلوا نصيحتي، فلما قال هذا قيل: وثبوا عليه فقتلوه، واختلفوا، فقيل: وطئوه بأرجلهم حتى مات، عن ابن مسعود. وقيل: رجموه حتى مات، عن قتادة. وقيل: قلبوه من سور المدينة، عن الحسن. وقيل: كانوا يرمونه، وهو يقول: اللهم اهْدِ قومي، حتى قتلوه، عن السدي. وقيل: قبره بأنطاكية. «قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ» قيل: لما مات وصار إلى رحمة الله أحياه الله، وقيل له: ادخل الجنة، قيل: جنة الخلد، وقيل: جنة من جنان السماء، وقيل: أراد البشارة عند الموت وأن الملائكة بشروه بها، عن أبي مسلم. والصحيح: أنه في وقت أُحْيِيَ

(١) وهموا بقتلهم: وقتلهم، ن، ت.
(٢) يمكنهم: يمكني، ن، ت.
(٣) بأنفسهم: بنفسهم؛ ت، ن.

وأُدْخِلَ الجنة للظاهر، وهو قول أبي علي. «**قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ. بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ**» من المعظمين في الجنة «**وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ. إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً**» قيل: كان إهلاكهم بأسرهم من صيحة واحدة حتى هلكوا عن آخرهم «**فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ**» أي: هالكون، يعني: كان أمرهم أهون من أن يحتاج فيه إلى إنزال جند من السماء؛ بل أهلكوا بصيحة، وقيل: لما قتلوا حبيب النجار غضب الله عليهم، فبعث جبريل فصاح بهم صيحة ماتوا عن آخرهم «**فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ**» ميتون هالكون «**يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ**» قيل: إن الله تعالى يقول: يا حسرة وكآبة عليهم حين لم يؤمنوا. وقيل: فمعناه: حلوا محل من يُتَحَسَّرُ عليه، وقيل: معناه: يا حسرة على العباد على أنفسهم، عن قتادة، ومجاهد. قال أبو العالية: لما عاينوا العذاب قالوا: يا حسرة على العباد، يعني: على [مكذبي] الرسل حيث لم يؤمنوا بهم، فتمنوا الإيمان حيث لم ينفعهم «**مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ**» قيل: هذا من كلام الرجل المؤمن، وقيل: إنما تقع هذه الحسرة عند النزع، وقيل: في القيامة، وقيل: كانت هؤلاء الرسل في أيام ملوك الطوائف، وقيل: العرب تخرج ما تريد تعظيمها من الخطب على لفظ النداء يقولون: يا ويح زيد، ويا ويل عمرو، والغرض التنبيه على عظيم الخطب، قال تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ﴾ [الزمر: ٥٦] كأنه قال: يا حسرة، أجيبي؛ فهذا وقتك.

۞ الأحكام

يدل قوله تعالى: ﴿إِنَّا تَطَيَّرۡنَا﴾ أن القوم خالطهم أمر؛ إما العذاب وإما[١] مصيبة في الدنيا؛ لذلك قالوا ذلك.

ويدل قوله: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ﴾ على تفخيم شأن ذلك الرجل وعظم محل الأمر بالمعروف، وروي عن النبي ﷺ: «سباق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين: صاحب (يس)، ومؤمن آل فرعون، وعلي بن أبي طالب، فهم الصديقون»[٢].

(١) وإما: أو؛ ن.

(٢) القرطبي ١٥/ ٢٢.

ويدل قوله: ﴿ءَأَتَّخِذُ﴾ أن القوم كانوا مشركين.

وتدل على صحة الحجاج في الدين.

ويدل قوله: ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ على أن للعبد فعلاً.

ويدل قوله: ﴿ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾ أنه تعالى أحياه وأدخله الجنة، فيجوز أن تكون له هذه المنزلة خاصة، ويجوز أن تكون لكل شهيد ومؤمن.

وتدل على صحة ما نقوله في عذاب القبر وسؤاله، عن أبي علي.

وتدل على أن النبي[1] إذا كان بين قوم كان أعظم قومًا.

ومتى قيل: ما فائدة هذا التمني؟

قلنا: فيه وجهان:

أحدهما: أنه استكمال سروره بوقوف قومه على حاله؟

وقيل: لطفًا لقومه إن أسلموا ينالوا تلك الدرجة.

ويدل قوله: ﴿يَٰحَسۡرَةً﴾ أنهم قادرون على الإيمان، وأن الإيمان فعلهم، لولا ذلك لما صح تحسرهم.

ويدل استئصالهم[2] أن الرسل كانوا رسل الله؛ لأن عادة الله أنه لا يهلك إلا بعد إرسال الرسل.

قوله تعالى:

﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلّٞ لَّمَّا جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾

---

(١) النبي: النعم، ت، ن.

(٢) استئصالهم: استعالهم، ت؛ ن وما أثبتناه من هامش ن.

القراءة

قرأ عاصم وحمزة وابن عامر: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ﴾ بالتشديد، الباقون بالتخفيف، فمن شدد جعل (إنْ) بمعنى الجحد، و(لما) بمعنى (إلا)، تقديره: وما كل إلا جميع، كقولك: سَأَلْتُكَ لَمَّا فَعَلْتَ، أي إلا فعلت، ومن خفف جعل (إن) للتحقيق مخففة، و(لما) صلة، تقديره: وكلٌّ جميعٌ لدينا محضرون.

قرأ حمزة والكسائي: «مِنْ ثُمُرِهِ» بضم الثاء والميم، وقرأ الأعمش بضم الثاء وسكون الميم، الباقون بفتح الثاء والميم، وكلها لغات صحيحة.

قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم: «وما عَمِلَتْ» بلا هاء، الباقون: «عملته» بالهاء.

اللغة

القَرن بفتح القاف[1]: أهل كل عصر؛ لاقترانهم في الوجود، وبكسر القاف: المقاوم في الحرب، وقرن الشاة سمي لمقارنته الآخر.

والفجر: الشق، وأصله: مفارقة أحد الجانبين الآخر، ومنه: تفجير الأنهار: تشقيقها، وسمي الفجر فجرًا؛ لانشقاق الظلمة بالضياء.

الإعراب

موضع ﴿كَمْ﴾ نصب بـ ﴿أَهْلَكْنَا﴾ تقديره: القرون أهلكنا أي: كثيراً[2].

﴿ثَمَرِهِۦ﴾ الهاء كناية عن الماء، وقيل: من ثمر ما ذكرنا.

ويقال: ما الفرق بين (لما) إذا خفف وإذا شدّد؟

قلنا: إذا خفف فهو صلة مؤكدة، وإذا شدّد فهو بمعنى (إلا) على ما بيَّنَّا.

ويقال: (ما) في قوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ﴾ ما معناه؟

---

(١) القاف: الكاف؛ ن.

(٢) أي كثيراً: إذ كثر، ن. وما أثبتناه من الكشاف ٣/ ٣٦؛ والسقي ٢/ ٣٨.

قلنا: يجوز فيه ثلاثة أوجه: الجحد، وبمعنى (الذي)، وأن يكون مصدرًا.

۞ المعنى

عاد الكلام إلى أدلة التوحيد والبعث، فقال سبحانه: «**أَلَمْ يَرَوْا**» ألم يعلموا، قيل: أهل مكة، وقيل: الذين استهزؤوا بالرسل، وقد تقدم ذكرهم، عن أبي علي. «**كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ**» (كم) هاهنا للتكثير، أي: كم قرنًا أهلكناهم، قيل: هم عاد وثمود وقرون بين ذلك كثير، عن قتادة. «**أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ**» أي: يلحق الباقي بالماضي ولا يرجع الماضي، وليعلموا أن ذلك لغرض، وهو المجازاة، وأن سبيل هؤلاء سبيل أولئك «**وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ**» للجزاء والحساب في الموضع الذي الحكم فيه له «**وَآيَةٌ**» أي: حجة في التوحيد وصحة البعث «**لَهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ**» التي لا نبات فيها «**أَحْيَيْنَاهَا**» بالنبات، وذكر الموت والحياة فيها توسع «**وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا**» من الأرض «**حَبًّا**»، وهو ما يؤكل من الحبوب التي بها قوام العالم «**فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ**» أي: من الحب «**وَجَعَلْنَا فِيهَا**» في الأرض «**جَنَّاتٍ**» بساتين «**مِن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا**» أي: شققنا في الأرض «**مِنَ الْعُيُونِ**» أي: الماء الخارج من العيون «**لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ**» قيل: معناه: أخرجنا الماء من العيون بقدر حاجتهم ليتم معاشهم ويأكلوا. وقيل: إنما جعلنا ذلك ليمكنهم التوصل إلى هذه النعم والفواكه «**وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ**» قيل: معناه: الله خالقها ومبدعها، لا عمل لهم فيها، عن الضحاك، ومقاتل، وأبي مسلم. فـ**(ما)** بمعنى الجحد، فينبغي أن يشكروا الله تعالى. وقيل: معناه: فليأكلوا من ثمره ومن عمل أيديهم الذي أصله ما خلق الله كالغراس والزرع والحرث ونحوه، عن ابن عباس. و**(ما)** بمعنى المصدر، وأراد بالعمل المعمول؛ لأن العمل لا يؤكل. وقيل: الذي عملته أيديهم كالخبز وأنواع الحلاوى والطيب من الأغذية، عن أبي مسلم. «**أَفَلاَ يَشْكُرُونَ**» هذه النعم.

۞ الأحكام

يدل ما ذكر في الآيات على مدبر حكيم، وعلى صحة البعث؛ لأنه ثبت أنه لا يقدر عليه أحد منا، فلا بد من صانع.

ويدل قوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ﴾ أن للعبد عملا[1].

وتدل أن هذه الأطعمة وإن كان للعبد فيها صنع فالأصل أنها من نعم الله؛ فلذلك وجب الشكر له، وفيه إشارة عجيبة؛ لأن الزرع[2] إذا زرع وتحقق عجزه عن الإنبات فهو أعلم بحالها، فنعلم أن له صانعًا.

ومتى قيل: قوله: ﴿لِيَأْكُلُوا﴾ يدل على أنه أراد الأكل؟

قلنا: قد يطلق ذلك إذا أراد الحكيم بالفعل وجه الانتفاع وإن لم يرد نفس الأكل، كما يقال فيمن أعد طعامًا للناس: إنه صنعه ليأكلوه، وإن لم يرد أكلهم في الحال.

وتدل على وجوب الشكر له، ولمَّا لمْ يصح الشكر مع الشرك وجب عليهم تركه.

قوله تعالى:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾

القراءة

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب: «والقَمَرُ» بالرفع. وقرأ أبو جعفر وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي بالنصب، أما النصب اختاره أبو عبيد للفعل المتقدم عليه والمتأخر عنه، أما المتقدم فقوله: ﴿نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾، والمتأخر قوله: ﴿قَدَّرْنَٰهُ﴾، وأما الرفع فاختاره أبو حاتم، ثم قال: لأنك تبعد الفعل عنه، فترفعه بالابتداء.

---

(١) عملا: عمل، ن.

(٢) الزَّرْع: الزراع، ن.

قراءة العامة: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾، وعن ابن عباس وابن مسعود: «**تجري لاَ مُسْتَقَرَّ لها**» أي: لا قرار، فهي جارية أبدًا.

۞ اللغة

السلخ: إخراج الشيء من لباسه، وكذلك إخراج الحيوان من جلده، يقال: سَلَخَ يَسْلَخُ سَلْخًا فهو سالخ، والسلخ: أن يخرج منها خروج الشيء مما لابسه.

والمستقر: موضع القرار، ويقال: أظلم الليل: صار مظلمًا، وأظلم القوم: دخلوا في الظلام، كما يقال: أَنْجَدَ، وأَتْهَمَ[1].

والفلك عند العرب: كل شيء مستدير.

والسَّبْحُ: السعي والسير.

۞ الإعراب

يقال: لم جمع: ﴿يَسۡبَحُونَ﴾ على جمع الآدميين، وهي الشمس والقمر؟

قلنا: لما نسب الفعل إليهما، وهي السباحة مجازًا؛ ذكر الجمع بلفظ مَنْ يعقل.

﴿مَنَازِلَ﴾ نصب بـ(قدرنا).

۞ المعنى

ثم ذكر أدلة أُخَرَ عطفًا على ما تقدم، فقال سبحانه: «**سُبْحَانَ**» أي: تنزيهًا له عن الشريك وبراءةً عن السوء «**الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ [كُلَّهَا]**» قيل: الأصناف والأشكال من الأشياء «**مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ**» من الحبوب والفواكه وغيرها «**وَمِن أَنفُسِهِمْ**» من الأولاد الذكور والإناث «**وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ**» يعني: أشياء من الحيوانات خلقها لا يعلمونها.

ومتى قيل: فأي نعمة فيما لا يعلم؟

قلنا: قد تكون نعمة ولطفًا لغيرنا، ويجوز أن يكون الخبر عنه لطفًا لنا، وقد نعثر أحيانًا على حيوانات ونبات لم نكن شاهدناها، فتزيدنا بصيرة وعلمًا.

---

(١) إذا دخل نجدًا أو تهامة.

«**وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ**» أي: نُخْرِجُ وننزع منه النهار، فيبقى الليل «**فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ**» داخلون في الظلام «**وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا**» يعني: إلى مستقر لها، فيه عدة أقوال: قيل: لانتهاء أمرها عند انقضاء الدنيا، فلا تزال تجري حتى تنقضي الدنيا فتقف، عن جماعة. قال أبو مسلم: ومعنى هذا ومعنى لا مستقر لها واحد، يعني: لا قرار إلى انقضاء الدنيا. وقيل: إلى وقت واحد لها لا تعدوه، عن قتادة. وقيل: إلى أبعد منازلها في الغروب والمستقر منازلها، سميت بذلك؛ لأنها بنيت لها لِتَنْزِلَها، كما بنيت البيوت لنستقر فيها. وقال ابن عباس: لا تبلغ مستقرها حتى ترجع إلى منازلها «**ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ**» القادر على ما يشاء، العالم بجميع الأشياء «**وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ**» قيل: ثمانية وعشرين منزلاً، ينزل القمر كل ليلة منزلاً، فإذا صار إلى آخر منازله «**عَادَ كَالْعُرْجُونِ**» يعني: العذق الذي فيه الشماريخ «**الْقَدِيمِ**» المتقادم، وإذا تقادم عهده حتى يبس قُوِّسَ، فشبه القمر به «**لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ**» أي: لا تدركه؛ بل يتعاقبان ويستويان «**وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ [يَسْبَحُونَ]**» يعني: الشمس والقمر والنجوم في فلك يجريان، وأضاف الجري إليها توسعًا. وقيل: لا الشمس تدرك القمر في حركتها، وقيل: لا يدرك أحدهما ضوء الآخر. وقيل: الفلك جسم مستدير عليه الكواكب، وقيل: بل هو موضع سير الكواكب.

الأحكام

الآيات تدل على صانع مدبر، وأجرى كل واحد على ما تقتضيه الحكمة، وعلى ما فيها منافع عباده، ولما جعل تعالى النجوم تسير بنفسها علمنا أن الفلك اسم لمجرى الكواكب.

وتدل على أن الضياء طارئ، والأصل الظلام، والليل والنهار إنما يصير كذلك بحركات الشمس والقمر وإتمام معرفة الأوقات والمصالح والمنافع [من] باب الابتداء(١) وإن كانا متعاقبين(٢).

---

(١) وكان: +، ن، ت.

(٢) متعاقبين: متعاقبان؛ ن، ت.

قوله تعالى:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ (٤٣) إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ (٤٤) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥) وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤٦) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ (٤٧)﴾

القراءة

قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر ويعقوب: «ذُرِّيَّاتِهِمْ» على الجمع، الباقون: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ بغير ألف وبالتشديد على الواحد.

اللغة

الحمل: منع الشيء عن الذهاب سفلاً فهو محمول، وبالفتح لما اتصل، وبالكسر لما انفصل.

والفُلْكُ: السفن؛ لأنه يدور في الماء، ومنه: الفلك يدور بالنجوم، والفَلْكَةُ تدور بالمغزل، وفَلَّكَ ثَدْيُ المرأة: استدار.

والمشحون: الموقر.

والصَّرِيخُ: الصارخ بالاستغاثة، وقيل: الصريخ: المغيث عند الاستغاثة بالصراخ، والصريخ يكون لمعنيين ضدين، المغيث والمستغيث، والاستصراخ: الإغاثة والاستغاثة.

والإعراض: الذهاب عن الشيء بالتوجه إلى غيره في جهة العرض.

الإعراب

يقال: ما جواب (إذا) في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟﴾؟

قلنا: محذوف، تقديره: إذا قيل لهم أنفقوا أعرضوا، وقيل: الابتداء الثاني، وجوابه جواب الأول، وتقديره: إذا قيل لهم أنفقوا قالوا: كذا.

﴿إِلَّا رَحْمَةً﴾ نصب ﴿رَحْمَةً﴾ على الاستثناء، ﴿وَمَتَٰعًا﴾ عطف عليه.

۞ النزول

قيل: نزل قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ﴾ في مشركي مكة لما سألهم فقراء أصحاب رسول الله ﷺ أبوا أن يعطوهم، وقالوا: لو شاء الله لأطعمكم، لا نطعمكم حتى ترجعوا إلى ديننا.

۞ المعنى

ثم ذكر دلالة أخرى، فقال سبحانه: «**وَآيَةٌ لَهُمْ**» أي: حجة لمن تفكر «**أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ**[1]» الصبيان والنساء، وخصهم بالذكر لضعفهم، وقيل: «**ذُرِّيَّتُهم**» هم الصبيان الصغار «**فِي الْفُلْكِ**» قيل: سفينة نوح، عن الضحاك، وقتادة، وجماعة من المفسرين، وهو قول الفراء، وزيفه أبو مسلم وقال: لا مجال له في الظاهر لقوله: «**ذُرِّيَّتَهُمْ**»، وقيل: هي السفن الجارية في البحار، عن أبي علي، وأبي مسلم. وعلى القول الأول يعني حملنا الآباء في السفينة والذرية في الأصلاب. «**الْمَشْحُونِ**» الموقر، عن ابن عباس؛ «**وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ**» قيل: مثل سفينة نوح بعده، عن ابن عباس. وهي السفن كلها. وقيل: مثل السفينة من الدواب كالإبل والبقر والحمر، عن أبي علي. وقيل: الإبل سفن البر، عن مجاهد. وقيل: السفن الصغار، فأما أبو مسلم فيقول: الأول والثاني في السفن يرجع إلى قوله: «**نُغْرِقْهُمْ**» إلى الجميع. وإن حملنا الثاني على الدواب رجع «**نُغْرِقْهُمْ**» إلى الأول «**فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ**» أي: لا مغيث لهم «**وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ**» أي: لا ينجون من ذلك، أشار إلى نعمه عليهم مع كفرهم في البر والبحر «**إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا**» أي: أبقيناهم نعمة منا عليهم وإمتاعًا إلى مدة. وقيل: إلى

(١) ذريتهم: ذرياتهم، ن.

أن يرحمهم بألطافه ويمتعهم إلى وقت ليؤمنوا، وقيل: معناه: إلا رحمة منا وإمتاعًا «**إِلَى حِينٍ**» إلى مدة، عن الزجاج. «**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ**» للمشركين «**اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ**» فيه عدة أقوال: قيل: اتقوا ما بين أيديكم من عذاب الله ووقائعه كما حل قبلكم بالأمم، واتقوا ما خلفكم من أمر الساعة وعذاب الآخرة، عن قتادة، ومقاتل، وابن الأنباري. وقيل: «**مَا خَلْفَكُم**»: ما مضى من الذنوب، و«**مَا بَيْنَ أَيْدِيكُم**»: ما يأتي من الذنوب، عن مجاهد، وأبي مسلم. وقيل: «**مَا بَيْنَ أَيْدِيكُم**» من أمر الآخرة فاعملوا لها، «**وَمَا خَلْفَكُمْ**» من الدنيا، فلا تغتروا بها، عن ابن عباس. وقيل: «**مَا بَيْنَ أَيْدِيكُم**» ما مضى من آجالكم، «**وَمَا خَلْفَكُم**»، ما بقي منه، عن الحسن. وقيل: اتقوا ما أنتم عليه من الكفر وما نحن عليه في المستقبل من الجزاء، كأنه قيل: اتقوا ما قدمتم من الكفر فتوبوا، واتقوا ما أعد لكم من جزاء الكفر فانتهوا، عن أبي مسلم. وقيل: ما تقدم من أفعالكم وما تأخر من جزائه في الآخرة. وقيل: ما بين أيديكم من آيات الله حديث قبلكم، وما خلفكم من آيات الله حديث بعد خلقكم آمنوا بالجميع، عن أبي علي. وقيل: الأوجه لنا أن المراد به عذاب الدنيا وعذاب الآخرة باتقاء المعاصي، وبالندم على ما سلف «**لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**» أي: لكي ترحموا، قيل: معناه: لترحموا فتنجوا، وقيل: افعلوا ذلك متعرضين للرحمة «**وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ**» حجة في التوحيد والعدل، وقيل: من معجزة في النبوات «**مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ**» يعني: إذا قيل لهم: آمنوا بهذه الآية أعرضوا عن الداعي والتفكر في الآيات «**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا**» في سبيل الله «**مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ**» أي: أعطاكم من نعمه «**قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ [أَطْعَمَهُ]**» وهذا لا يخلو إما أن قالوه استهزاءً، أو شكًا في قدرة الله تعالى، أو ردًّا لما أوجب الله عليهم، وجميع ذلك كُفْرٌ «**إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ**» أي: بَيِّن في اتباع محمد ومخالفتكم ديننا، عن مقاتل. فعلى هذا هو من قول المشركين. وقيل: هو من قول الله لهؤلاء الكفار الذين قالوا: «**أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ**». وقيل: هو من قول أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ لهم.

ومتى قيل: من يطعم الفقراء؟

قلنا: هو الله تعالى إلا أنه على يد الأغنياء؛ حيث أعطاهم وأمرهم ولطف لهم حتى أعطوا.

ومتى قيل: ما الفائدة فيه؟

قلنا: لطف للفريقين، ومكرمة للغني، وما يحصل لهم من العوض والثواب على الصبر.

الأحكام

تدل الآية على قدرته تعالى ونعمته حيث جعل الماء بحيث تجري فيه السفن، والريح بحيث يجريها، وكل ذلك مما ينفرد هو بالقدرة عليه.

ويدل قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أنه أراد رحمة الجميع.

وتدل أن رحمته تنال بالتقوى.

ويدل قوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم﴾ الآية، على وجوب النظر، وقبح التقليد.

ويدل قوله: ﴿أَنفِقُوا۟﴾ الآية، على أشياء:

منها: أن مطلق الإنفاق يفيد الصدقة؛ ولذلك حكى عن الكفار بعده ما قالوا.

ومنها: أن الإطعام مِنْ قِبَلِهِ تعالى، وإن كان على يد غيره، فظنوا أن إطعامه يكون ابتداء.

ومنها: أن المصلحة قد تكون في وصول الطعام إليهم بأمره، لا على وجه الابتداء؛ لذلك ذمهم.

وتدل على أن الإعراض فعلهم.

قوله تعالى:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٤٨) مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠) وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ (٥١) قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣) فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤) إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨) وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ (٥٩) ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١)﴾

۞ القراءة

اختلفوا في قوله: ﴿يَخِصِّمُونَ﴾، فقرأ ابن كثير وورش عن نافع ومحمد بن حبيب عن الأعشى عن أبي بكر وعاصم وهشام عن ابن عامر، وزيد عن يعقوب: «**يَخَصِّمُونَ**» بفتح الياء والخاء وتشديد الصاد، وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم، أي: يخاصم بعضهم بعضًا، لما أدغموا نقلوا حركة التاء إلى الخاء لأن أصله: (يختصمون).

قرأ أبو عمرو بفتح الخاء إلا أنه شمه الفتح ويخلصه ولا يشبعه، بل يخصه.

وقرأ أبو جعفر وورش عن نافع(١) بفتح الياء وسكون الخاء وتشديد الصاد: أي: يغلب بعضهم بعضًا بالخصام، وهو قراءة أبي بن كعب.

وقرأ عاصم وابن عامر والكسائي بفتح الياء وكسر الخاء وتشديد الصاد، أي: وهم يخصمون عند أنفسهم في دفع النشأة الثانية.

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: «**في شُغْلٍ**» ساكنة الغين، الباقون بضمها، وهما لغتان، نحو: ينجِيه وينجّيه.

---

(١) وورش عن نافع: ونافع عن ورش، ت، ن.

قرأ أبو جعفر: «**فكهين**» بغير ألف كل القرآن، وافقه حفص في سورة (المطففين) فقط، الباقون: «**فاكهين**» و«**فاكهون**» بالألف كل القرآن، وهما لغتان نحو: الحاذر والحَذِر، والفَارِد والفَرَد، وقال الكسائي: الفاكهُ: [ذو] الفاكهة، نحو: تامرٍ، ولابِنٍ.

قرأ حمزة والكسائي: «**في ظُلَلٍ**[1]» بضم الظاء [وهي جمع ظلّة، وقرأ جمهور القراء. «وفي ظلال بكسر الظاء»][2]. وبالألف على جمع ظِلٍّ.

قراءة العامة: «**سَلَامٌ**» بالرفع، قيل: على الاستئناف، وقد تم الكلام عند قوله: ﴿يَدَّعُونَ﴾، وقيل: لأنه بدل من قوله: ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾، ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ ابتداء وخبر. وقرأ إبراهيم النخعي بالنصب على المصدر، أو على القطع.

۞ اللغة

ينظر وينتظر بمعنى، وهو من باب ما يكون «فَعَلَ وافْتَعَلَ» بمعنى.

والصُّورُ: أصله: الميل، صَارَهُ يَصُورُهُ صَوْرًا: إذا أماله، ومنه: الصورة؛ لأنها تميل إلى مثلها[3] بالمشاكلة.

والجدث: القبر، والجمع: أجداث، لغة أهل العالية، وأهل السافلة يقولون: جدف بالفاء.

والنُسُولُ: الإسراع في الخروج، قال الشاعر:

بَـرَدَ الـلَّـيْـلُ عَـلَـيْـهِ فَـنَـسَـلْ[4]

[والأرائك: جمع أريكة][5]، كقولك: سفينة وسُفُنٌ وسفائن، وهي جلسة الملوك، ومتكأ: «مفتعل» من: «توكأت» إلا أن الواو بدلت تاء.

---

(١) ظُلَل: ظل، ن.

(٢) ما بين المعكوفين زيادة من: الحرس الوجيز: ٥/ ٣١.

(٣) لأنها تميل إلى مثلها: لأنه تميل بمثلها، ن، ت. وما أثبتناه من التبيان في تفسير القرآن، للطوسي: ٨/ ٤٥١.

(٤) البيت قائله لبيد بن ربيعة وصدر البيت:

عـسـلان الـذئـب أمـسـى قـاربـا ... بـرد الـلـيـل عـلـيـه فـنـسـل

انظر: اللسان (عسل).

(٥) ما بين المعكوفين بياض في ن. وما أثبتناه من هامشها.

والامتياز: انفصال[1] الشيء عما كان ملتبسًا به، ومنه: مَيَّزَهُ تمييزًا، وتميّز تميّزًا، وامتاز امتيازًا.

الإعراب

موضع (ما) في قوله: ﴿إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قيل: نصب لوجهين:

أحدهما: مفعول ما لم يُسَمَّ فاعله.

والثاني: بنزع حرف الصفة، أي: إلا لِمَا.

و﴿قَوْلًا﴾ نصب على المصدر؛ أي: قال لهم قولاً، وفيه معنى الجزاء.

النظم

يقال: كيف يتصل قوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾ بما قبله وما بعده من الآيات؟

قلنا: لما ذكر أدلة التوحيد ودعاهم إلى عبادته وعدّ عليهم سوء أفعالهم وحذرهم من عذابه، ثم قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا﴾ عذاب الله وآمنوا بالآيات التي تقدم ذكرها، أصروا على الكفر، وإذا قيل: أنفقوا في سبيل الله بَخِلُوا، وإذا وعدوا بالقيامة قالوا تكذيبًا: متى يكون وكيف؟، وكيف يكون حال المؤمن والكافر؟

المعنى

«**وَيَقُولُونَ**» يعني: الكفار «**مَتَى هَذَا الْوَعْدُ**» أي: القيامة «**إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ**» في أنا نبعث، قال تعالى: «**مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ**» قيل: الصيحة الأولى، وهي النفخة في الدنيا عند قيام الساعة تأتيهم بغتة، والرجل يسقي إبله وآخر يبيع سلعته، وفي حديث مرفوع: «هي نفخات: نفخة الفزع، ونفخة الصعق، ونفخة القيام لرب العالمين».

ومتى قيل: كيف ينتظرون مع التكذيب؟

قلنا: لما تضمن قولهم: «**مَتَى هَذَا الْوَعْدُ**» التوقع والانتظار جاز أن يوصفوا

(١) انفصال: لقالوا، ن، ت.

بذلك. وقيل: الجاهل والشاك لا تسكن نفسه إلى البغي، بل يجوز ولذلك صح أن يوصف بذلك. وقيل: بأن ما يكون لا محالة يصح أن يوصف بأنه يَنْتَظِرُ، كما يوصف النائم والساهي [بأنه] ينتظر الموت.

«**تَأْخُذُهُمْ**» قيل: وصف الصيحة بالأخذ، وهي عِوَضٌ توسعًا، وحيث أصابتهم وأهلكتهم، عن أبي علي. «**وَهُمْ يَخِصِّمُونَ**» يعني: تأتيهم فجأة وهم في أحوال الدنيا يخاصم بعضهم بعضًا «**فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً**» أي: لا يقدرون على أن يوصي بعضهم بعضًا «**وَلَآ إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ**» أي: لو أرادوا الرجوع إلى أهلهم لم يمكنهم، واختلفوا في هذه الصيحة، قيل: هي صيحة الموت ونفخة إسرافيل عند قيام الساعة، فيموت الخلق أجمع. وقيل: بل هو عذاب يختصون به. وقيل: إنه تعالى أراد أَخْذَ المشركين، عن الحسن. «**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ**» يعني: من القبور «**إِلَى رَبِّهِمْ**» إلى الموضع الذي يحكم فيه تعالى، لا حكم هناك لغيره «**يَنسِلُونَ**» يخرجون سراعًا، ونفخة الصور هي نفخة البعث، وبين النفختين قيل: أربعون سنة، وقيل: ما شاء الله، وقيل: نفخ الروح في الصور، فلما رأوا أهوال القيامة ويوم البعث «**قَالُوا يَا وَيْلَنَا**» يعني: الويل علينا في هذا اليوم «**مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا**» أي: أقامنا وأنبهنا عن منامنا. وقيل: إنما يقولون هذا؛ لأنه تعالى رفع عنهم العذاب قدر ما بين النفختين فيرقدون. وقيل: مِنْ قبورنا، وصفوا القبور بالمرقد؛ لأنه لما أحياهم كانوا كالمنتبهين عن الرقدة. وقيل: وصف القبور بالمرقد؛ لأنهم استقروا فيها. وقيل: لأنهم لما عاينوا عذاب جهنم وأهوال القيامة عدوا ما كان في قبورهم بالإضافة إليها رقادًا، والقبر مَرْقَدًا.

ومتى قيل: هلا قلتم: إنه يدل على نفي عذاب القبر؟

قلنا: عذاب القبر لا يدوم، بل ينقطع. وقيل: هي في جنب عذاب النار كالرقدة على ما بَيَّنَّا.

«**هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ**» من البعث والجزاء «**وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ**» في ذلك، قيل: هذا من قول المؤمنين جوابًا للكافرين لما قالوا: «**مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا**»، عن مجاهد،

وقتادة. وقيل: هو من قول الكافرين، عن أبي علي، وابن زيد، وأبي مسلم؛ أقروا حين لم ينفعهم الإقرار. وقيل: بل هو قول الملائكة جوابًا لهم.

ومتى قيل: هل يشتبه عليهم أنهم معادون حتى يجابوا بذلك؟

قلنا: إنهم اعتقدوا أن لا بعث، فلما بعثوا تمنوا أن لا إعادة فقالوا[١]: «**يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا**» لَيْتَهُ لم يفعل فأجيبوا[٢]. وقيل: هو من قولهم اعترافًا.

ومتى قيل: لمن قالوا ذلك؟

قلنا: يجوز أنهم قالوا بعضهم لبعض تحسرًا، ويجوز أن يقوله في نفسه على سبيل النياحة.

«**إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً**» قيل: نفخة، وسميت صيحة؛ لأنها صوت مسموع على غير نظم وتأليف، وإنما قال: «**وَاحِدَةً**»؛ لأن الصوت إذا امتد يقال: واحدة، وإن عظمت، وإن كانت ذات أجزاء كثيرة «**فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ**» أي: في موضع الجزاء والحساب، أشار بأنهم يموتون بصيحة ويحيون بصيحة، ويحضرون يوم القيامة من غير امتناع «**فَالْيَوْمَ**» يعني: يوم القيامة، والألف واللام للعهد «**لاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا**» أي: لا يُبْخَسُ أحد حقه، ولا يُنْقَصُ محسن من جزاء إحسانه، ولا يُزَادُ مسيء على ما يستحقه «**وَلاَ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**» أي: يجزى كل أحد بعمله.

ثم فسّر ذلك ببيان حال الفريقين، فقال سبحانه: «**إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ**» قيل: هو كناية عن افتضاض الأبكار، عن ابن مسعود، وابن عباس. وعن أبي سعيد الخدري عن النبي ـ صلى الله عليه ـ قال: «إن أهل الجنة كلما جامعوا نساءهم عادوا أبكارًا»[٣]. وقيل: «في شُغْل» عن أهل النار وما هم فيه، لا يهمهم أمرهم ولا يذكرونهم وإن كانوا أقارب، عن الكلبي. وقيل: «في شُغْل» في حديث الدنيا، وقيل: في السماع، عن وكيع. وقيل: «في شُغْل» بتناول كل لذة من المنزل والفرش والخدم والجواري والغلمان والفواكه وغير ذلك كالملوك في الأعياد «**فَاكِهُونَ**»

(١) فقالوا: لقالوا، ن.

(٢) فأجيبوا: وأجيب، ن.

(٣) الدر المنثور ٧/ ٦٥.

قيل: فرحون، عن ابن عباس. وقيل: عجبون، عن مجاهد، والضحاك. وقيل: هو كناية عن الأحاديث الطيبة وهو فاعلون من الفاكهة، عن أبي مسلم. وقيل: ذوو فاكهة «**هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ**» قيل: نساؤهم في الدنيا لتصح الإضافة. وقيل: بل أزواجهم في الآخرة من المسلمات، وقيل: من الحور العين «**فِي ظِلَالٍ**» جمع ظل «**عَلَى الأَرَائِكِ**» قيل: الحِجَال على السرر، وقيل: هي السرر؛ يعني: هم على سرر، وتظلهم قبابٌ فوقهم، وقيل: في ظلال الأشجار على فُرُشٍ حسان، وقيل: كل ما اتكئ عليه فهو أريكة، والجمع: أرائك، عن الأزهري. «**مُتَّكِئُونَ**» يعني: جلستهم جلسة الملوك، خلاف أهل النار «**لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ**» قيل: يسألون، عن ابن عباس. وقيل: يتمنون، عن مقاتل. وقيل: كل من يدعي شيئًا فهو له بحكم الله؛ لأنهم لا يَدَّعُونَ باطلاً، وقيل: إذا دعوا شيئًا من نعيم الجنة أتاهم، و«**يَدَّعُون**»: يفتعلون من الدعاء «**سَلَامٌ**» قيل: يتصل بما قبله، يعني: «مَا يَدَّعُونَ»، وهو السلامة لهم والأمن من ربهم، وفيه حذف، أي: ولهم سلامة، وقيل: بل هو استئناف ومعناه: الله يسلم عليهم من غير واسطة، وقيل: يسلم عليهم على ألسنة الملائكة «**قَوْلاً مِن رَّبٍّ رَحِيمٍ**».

ثم بَيَّنَ حال أهل النار، فقال سبحانه: «**وَامْتَازُوا**» أي: يقال للمجرمين: امتازوا، قيل: تفرقوا، عن ابن عباس. وقيل: تميزوا عن المؤمنين، عن أبي العالية. وقيل: اعتزلوا من كل خير، عن قتادة. وقيل: كونوا[1] على حدة، عن السدي. وقيل: لكل كافر بيت في النار يدخله ويردم بابه، لا يَرى ولا يُرى، عن الضحاك. وقيل: انفردوا عن المؤمنين، فداركم غير دارهم، وجزاؤكم غير جزائهم «**الْيَوْمَ**» يعني: يوم القيامة «**أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ**»، ثم خصهم بالتوبيخ فقال: «**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ**» يعني: ألم آمركم على ألسنة الرسل وفي الكتب المنزلة، عن أبي علي. وقيل: عهده قوله: «**وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ**». وقيل: أراد قوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [الأعراف: ٢٧] ونظائر ذلك، عن أبي مسلم «**أَنْ لاَ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ**» أي: لا تطيعوه في معاصي الله «**إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ**» أي: بَيِّنٌ عدواته يدعوكم إلى ما فيه هلاككم «**وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ**» أي: طريق مُسْتَوٍ يؤديكم إلى الجنة.

(١) كونوا: كانوا، ن. وما أثبتناه من الكشف والبيان؛ للثعلبي: ١١/ ٢٩٠.

۞ الأحكام

يدل قوله: ﴿مَا يَنظُرُونَ﴾ أن أمر الساعة قريب، والواجب انتظارها في كل وقت، وفيه حث على التوبة، وتحذير من فوت التلافي.

وتدل الآيات على عظيم قدرته تعالى في البعث والإعادة.

وتدل على اعتراف كل جاحد يومئذ، ولكن لا ينفع.

وتدل على عظيم نعم أهل الجنة وعقاب أهل النار.

وتدل على عداوة الشيطان، ووجوب مخالفته.

وتدل على بطلان الجبر من وجوه:

أولها: قوله: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ وأيُّ ظلم أعظم من أن يخلق فيه الكفُر ولا يعطيه قدرة الإيمان، ويمنعه منه ثم يعذبه؟! تعالى الله عن قولهم.

ومنها: على أنه لا يُعَذَّبُ الأطفال، ولا يُحْمَلُ ذنب أحد على أحد.

وثانيها: قوله: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ دل أن لهم عملاً، وأن العقاب جزاؤهم على الأعمال.

وثالثها: قوله: ﴿لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ أنه لا يخلق عبادة الشيطان.

ورابعها: قوله: ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾ وكل ذلك تحذير، ولو كان جميع الأفعال خلقه لم يكن للتحذير معنى.

وخامسها: أنه جعل الشيطان عدوًّا حيث دعا إلى الضلال، وعند المجبرة الله خلق الضلال فيهم، والقدرة الموجبة للضلال، وأراد الضلال، ومنعه من الإيمان والهدى، ولم يعط القدرة عليه، وكذلك خلق الدعاء إلى الضلال في الشيطان، فعلى هذا العداوة من جهته أشد، ولأنه أضاف الإضلال إلى الشيطان، وعندهم هو يضل، ولأنه وصف نفسه بالرحمة، ومن فعل هذا بعبده لا يوصف بالرحمة.

قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًاۖ أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾

القراءة

قرأ أبو جعفر ونافع وعاصم: ﴿جِبِلًّا﴾ بكسر الجيم والباء وتشديد اللام، وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم اعتبارًا بقوله: ﴿وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٤]. وقرأ ابن عامر وأبو عمرو: «جُبْلاً» بضم الجيم وسكون الباء وتخفيف اللام. وقرأ يعقوب: «جُبُلاً» بضم الجيم والباء وتشديد اللام، نحو قراءة الحسن وعبيد بن عمير وعيسى بن عمر وابن أبي إسحاق. وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي: «جُبُلاً» بضم الجيم والباء وتخفيف اللام، وكلها لغات صحيحة. وروي عن علي (عليه السلام): «جيلاً» بالياء وكسر الجيم خفيفة، والجيل: الأمة.

اللغة

الضلال: أصله الهلاك، فأما مِن الله إما الحكم بالضلال أو الذهاب من طريق الجنة والنجاة.

والجِبِلُ والجُبُلُّ والجُبْلُ والجُبُلُ لغات، وهو الجمع ذوو العدد الكثير من الناس، وقيل: أصله الجمع الذين[1] خلقوا على خليقة، أي: طُبِعُوا، وأصله: الطبع، ومنه: جبلت التراب بالماء: صيرته طينًا يصح أن يطبع فيه، ومنه: الجَبَلُ؛ لأنه مطبوع على الثبات، وقال أبو مسلم: أصله: الغلظة والشدة، ومنه: جَبَلَ الله فلانًا على كذا.

وأصل الصلَا: اللزوم، ومنه المُصَلِي الذي يجيء في أثر السابق للزومه أثره، والصَّلاة للزوم الدعاء فيها.

(١) الذين: الذي، ن.

المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى وجه عداوة الشيطان، فقال سبحانه: «**وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ**» أي: دعا إلى الضلال. وقيل: حمل على الضلال لعداوته، أي: مع ما قدمت إليكم من العهود والتحذير أضل منكم جماعة «**جِبِلًّا كَثِيرًا**» قيل: خلقًا كثيرًا وجماعة عدة «**أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ**» أي: هلا استعملتم عقولكم بأن تركتم اتباعه مع عداوته ودعائه إلى الضلال؟ فهو استفهام، والمراد التقرير، يعني: أنتم عقلاء، فلم تعقلون هكذا؟! وقيل: أمَا كنتم عقلاء إذ أتاكم عهدي، فتعرفوا صحة ذلك؟ عن أبي علي. وقيل: أفلم تتفكروا وتفعلوا ما أمرتم به من طاعة الله تعالى ومخالفة الشيطان؟ عن أبي مسلم. ثم يقال لهم: «**هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ**» أي: ظهر لكم صحة ما وعدكم «**اصْلَوْهَا**» قيل: الزموا العذاب فيها، وقيل: اصلوا صلاها، أي: وقودها، عن أبي مسلم. وقيل: ادخلوا العذاب، عن أبي علي. والإصلال الأول «**الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ**» أي: جزاء على كفركم «**الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ**» قيل: نمنعهم من الكلام، فلا يتكلمون، قال قتادة: جرت بينهم خصومات وكلام، فكان هذا آخرها، وقيل: إنه يكون سمة وعلامة لهم، عن أبي علي. «**وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ**» بما عملوا «**وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**[1]» أي: ستنطق الأعضاء التي كانت لا تنطق في الدنيا تشهد عليهم، ويختم على أفواههم التي عرف منها المنطق، وقيل: تقديره: نختم على أفواههم لتكلمنا أيديهم.

الأحكام

تدل الآية أن الإضلال ليس من الله تعالى، ولا قبول الضلال؛ لذلك نسبه إلى الشيطان؛ ولذلك وبخ الكل بذلك، ولو كان خَلْقَهُ لما صح توبيخهم.

وتدل على أن الجوارح تشهد، وذلك يحتمل وجهين: إما بخلق الكلام فيها، أو آلة الكلام ليتكلموا، وجوز أبو علي الوجهين، واختار القاضي الأول، قال: وإنما نسب إليها؛ لأنه ظهر منها، واختار علي بن عيسى الثاني، وروي عن النبي ﷺ: «أول من يتكلم من الآدمي فخذه وكفه»[2].

---

(١) بما كانوا يكسبون: بما كسبوا، ن.

(٢) مسند أحمد رقم ٢٠٠٣٨.

قوله تعالى:

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾

القراءة

قرأ أبو بكر عن عاصم: «مَكَاناتِهِمْ» بالألف على الجمع كل القرآن، الباقون: «مَكانَتِهِمْ» بغير ألف على واحدة كل القرآن.

قرأ عاصم وحمزة: ﴿نُنَكِّسْهُ﴾ بضم النون الأولى وفتح الثانية وكسر الكاف وتشديدها، وعن الأعمش مثله. وقرأ الباقون بفتح النون الأولى وسكون الثانية وضم الكاف خفيفة.

قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر ويعقوب: «لِتُنْذِرَ» بالتاء على الخطاب للرسول، وفي (الأحقاف): ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [الأحقاف: ١٢] بالتاء كذلك، وقرأ ابن كثير هاهنا بالياء وثَمَّ بالتاء. وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي بالياء في السورتين كناية عن القرآن هاهنا، وعن الكتاب في (الأحقاف)، وقيل: كناية هنا عن النبي ﷺ.

اللغة

الطمس: محو الشيء حتى يذهب أثره، يقال: طمس الأثر، ومنه: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ [المرسلات: ٨]، وهو مطموس البصر: إذا ذهب أثر العينين.

والاستباق: طلب السبق، والسبق: التقدم على غيره.

والمسخ: تشويه الخلق، وتقليبه من صورة إلى صورة.

والنَّكس: قلبك الشيء على رأسه، نَكَسَهُ يَنْكُسُهُ، والوِلادُ منكوس أي: أن تخرج

رجلاه قبل رأسه، والنُّكْسُ في المرض بضم النون، وبكسرها[1]: السهم [يُنَكَّس] فُوقُهُ فيجعل أعلاه أسفله.

المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى أنه يمهلهم رحمة منه مع قدرته عليهم، فقال سبحانه: «**وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا**» محونا «**عَلَى أَعْيُنِهِمْ**» فأعميناهم، قيل: أعميناهم عن الهدى، عن ابن عباس. وقيل: تركناهم عميًا يترددون، عن الحسن، وقتادة، وأبي علي. وقيل: لما عموا عن الحق لو شئنا أعميناهم إلا أنه يمهلهم، وقيل: لو نشاء قبل الجزاء في دار الآخرة أن نطمس أعينهم فكيف كانوا يبصرون؟ عن أبي مسلم. «**فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ**» أي: طلبوا الطريق إلى مقاصدهم فلم يهتدوا، وقيل: طلبوا طريق الحق، وقد عموا عنه فكيف يبصرون؟ عن ابن عباس. «**فَأَنَّى يُبْصِرُونَ**» أي: كيف يبصرون لو فعلت ذلك بهم، وقيل: لو طلبوا السبق إلى طريق النجاة ولا نصير لهم، فكيف يبصرونه «**وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ**» أي: لو نشاء لعذبناهم بنوع آخر من العذاب قدرنا عليه بأن أقعدناهم في منازلهم ممسوخين[2] قردة وخنازير، وقيل: نغير صورتهم عما خلقناهم عليه. وقيل: نجعلهم مواتًا حجارة، عن أبي علي. والمكان والمكانة واحد، عن أبي عبيدة. وقيل: لو نشاء لجمعناهم مقعدين على أرجلهم، عن الحسن، وقتادة. ولو فعل ذلك لبقوا على مكانتهم «**فَمَا اسْتَطَاعُوا**» أي: ما قدروا «**مُضِيًّا وَلاَ يَرْجِعُونَ**» أي: تقدمًا وتأخرًا، فالمضي: التقدم، والرجوع: التأخر، عرفهم قدرته عليهم، وحذرهم سطوته، وحثهم على التلافي والتوبة. وقيل: لا يستطيعون الرجوع إلى ما كانوا عليه، وقيل: مجيئًا وذهابًا «**وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ [فِي الْخَلْقِ]**» أي: نطيل عمره ونُصَيِّرُهُ[3] إلى حال الهرم وأرذل العمر التي تُشبه حال الصبي في ضعف القوة وعزوب العلم، عن قتادة. وقيل: نصيره بعد القوة إلى الضعف، وبعد الزيادة إلى النقصان، وبعد الطراوة

(١) وبكسرها: وكسرها، ن.
(٢) ممسوخين: ممسوخا، ن.
(٣) ونصيره: نصيره، ن.

إلى لبِلَى، فكأنه نكس حاله، عن أبي علي. «أَفَلَا يَعْقِلُونَ» ذلك، ويتدبرون في أن من قدر على ذلك قدر على الإعادة.

ثم عاد إلى الاحتجاج للرسول[1] والرد على من نسبه إلى أنه شاعر، وقد تقدم ذكره في السورة، فقال تعالى: «وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ» أي: لم يُعْطَ العلم بإنشاء الشعر؛ لأن إنشاء الشعر يحتاج إلى آلة زائدة على معرفة اللغة منع الله ذلك نبيه؛ لما فيه من الشبهة والتنفير، وقيل: لأن الشعراء يقولون ما لا يفعلون «وَمَا يَنبَغِي لَهُ» أي: وما يقوله من عند نفسه، وقيل: لا يحفظ ولا ينشئ ولا يتمثل[2] به «إِنْ هُوَ» قيل: القرآن المنزل «إِلاَّ ذِكْرٌ» أي: سبب للتدبر والمعرفة لمعالم الدين، وقيل: القرآن شرف النبي والعرب، نزل بلغتهم، ودلهم على سبيل نجاتهم، وقيل: القرآن والذكر بمعنى، جمع بينهما لاختلاف اللفظ والمعنى بالقرآن؛ لأنه جمع وقرن بعضه ببعض، و«ذِكْرٌ» لأن فيه ذكر الله تعالى وذكر الثواب والعقاب والأحكام، عن أبي علي. وقيل: «إن هو» محمد ﷺ إلا شرف ورحمة للعالمين، وذكر لهم يذكرهم ومعه قرآن منزل «مُبِينٌ» بين واضح «لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا» أي: أنزلناه لينذر من كان مستمعًا مسترشدًا يقبل الموعظة، وخصهم لانتفاعهم به، وشبّه المؤمن بالحي والجاهل بالميت، ونحو ذلك قوله:

لَقَدْ أَسْمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا ... وَلَكِنْ لاَ حَيَاةَ لِمَنْ تُنَادِي[3]

«وَيَحِقَّ الْقَوْلُ» أي: يجب الوعيد والعذاب «عَلَى الْكَافِرِينَ».

الأحكام

تدل الآية على أنه تعالى قادر على أخذهم بأنواع العذاب، وأنه أمهلهم رحمة ليتوبوا ويستدركوا.

وتدل على أن النبي ﷺ لا ينشئ الشعر، ولا ينشده، وإنما جنبه ذلك؛ لما فيه من الشبهة والتنفير كما جعله أُمِّيًّا.

(١) للرسول: الرسول، ن.

(٢) يتمثل: يمثل، ن.

(٣) البيت قائله: بشار بن برد، انظر: ديوان بشار بن برد.

ومتى قيل: هب أنه لا يمكنه الإنشاء، فكيف منع الإنشاد؟

قلنا: يحتمل أنه لم يصرف عنايته إلى حفظ شيء منه، ويحتمل أنه تعالى صرفه عن ذلك، وسئلت عائشة: أكان النبي ﷺ يتمثل بالشعر؟ قالت: كان أبغض الحديث إليه الشعر، غير أنه كان إذا أراد أن يتمثل ببيت جعل أوله آخره.

قال القاضي: والآية محمولة على أنه لا ينشئ، وأما حفظ شعر غيره فيبعد ألا يحفظه، قال: وإنما كان يجعل أوله آخره لعلمه أنه لولاه لكان شعرًا.

وما يروى من قوله: «أنا النبي لا كذب(١)» (٢)، وقوله: «هل أنت...»(٣) ويكسر التاءِ في دَمِيتِ(٤).

وتدل أن الإنذار بالقرآن يقع لمن يستمع دون المعرض عنه.

قوله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا
رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ
آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ
قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ
خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ
يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ
الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ
أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن
فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

---

(١) لا كذب: لا يكذب، ن. وما أثبتناه من هامشها.

(٢) البخاري رقم ٢٧٠٩.

(٣) يقصد قوله: «هل أَنْتِ إلاَّ إِصْبَعٌ دَمِيتِ.. وفي سبيل الله ما لقيت»، والبيت قائله: عبد الله بن رواحة بن ثعلبة الأنصاري.

(٤) ويكسر التاء في دَمِيتِ: ويسكن الياء في ميت، ن.

۞ القراءة

قراءة العامة: ﴿رَكُوبُهُمْ﴾ بفتح الراء مركوبهم، كقولهم: ناقة حَلُوبٌ أي محلوب، وقرأ الأعمش بضم الراء على المصدر، وروي أن في مصحف عائشة: (ركوبتهم)، والرَّكُوب والركوبة واحد، كالحمولة والحَمُول، ولا تجوز القراءة إلا بالمستفيض.

قرأ يعقوب: «أَوَلَيْسَ الذِي خَلَقَ السماوَاتِ والأَرْضَ يَقْدِرُ» بالياء، وكذلك في (الأحقاف): ﴿وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، على الفعل، والقراء كلهم قرؤوا: «بقادر» بالباء والألف في السورتين على اسم الفاعل.

قرأ ابن عامر والكسائي: «فَيَكُونَ» نصب على جواب الأمر، الباقون بالرفع على استئناف.

۞ اللغة

الأيدي: جمع اليد، واليد حقيقة في الجارحة المعروفة، ثم تستعمل في مواضع أخر توسعًا، فيقال في النعمة: يد، تقول: لفلان عندي يد وأَيَادٍ، وبمعنى القدرة كقول [الله]: دَاوُد: ﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ [سورة ص: ١٧]، وبمعنى تحقيق الإضافة يقولون: هذا مما جنت يداك، وهو المعنى في الآية.

والأنعام: الإبل والبقر والغنم، سميت بذلك لِلِينِ مسها.

والذَّلول: المنقاد الذليل السهل، ناقة ذَلول، ومنه: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، والذِّلَّة بكسر الذال: الانقياد، وبضم الذال: الهوان؛ لأنه للينه يذل.

والمشارب: جمع مشرب.

والملكوت: «فَعَلُوتٌ» من المُلْكِ، كالرَّهَبُوتِ من الرهبة، والرَّغَبُوتِ من الرغبة.

۞ الإعراب

قيل: ﴿رَمِيمٌ﴾ ولم يقل: رميمة؛ لأنه معدول عن فاعله، وما كان معدولاً عن

وجهه ووزنه كان مصروفًا عن إعرابه كقوله: ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم:٢٨] معدول عن باغية، وقيل: تأنيث العظام ليس بحقيقي، فجاز تذكيره.

وقال: ﴿مِّنَ ٱلشَّجَرِ﴾ وهو جمع، ثم قال: ﴿ٱلْأَخْضَرِ﴾ لأنه رده على اللفظ.

۞ النزول

قيل: جاء مشرك بعظم بالٍ متفتت، وقال: يا محمد، أتزعم أن الله يبعث هذا بعدما بلي؟ فقال: «نعم»، فنزلت الآية قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ إلى آخر السورة.

واختلفوا في هذا الإنسان مَنْ هو؟

فقيل: العاص بن وائل السهمي، عن سعيد بن جبير.

وقيل: أبيّ بن خلف، عن قتادة، ومجاهد.

وقيل: أمية بن خلف، عن الحسن.

وقيل: عبد الله بن أُبيّ، عن ابن عباس.

۞ المعنى

عاد الكلام إلى ذكر أدلة التوحيد وصحة البحث، فقال سبحانه: «**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ**» أي: لمنافعهم، يعني: أولم يروا إلى إِنْعام الله عليهم بما خلق لهم «**مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا**» أي: خلقناه نحن من غير أن نَكِلَهَا إلى أحد، أو كان لأحد فيها شركة، فهو بمنزلة ما يعمله العباد بأيديهم، ولا يجوز حمله على الجارحة؛ لأنه ليس بجسم، ولأن الظاهر يوجب أن له أيديا، وهذا لا قائل به «**أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ**» ولو لم نخلقها لما ملكوها، ولما انتفعوا بها، فَمِنْ منافعها أصوافها، وألبانها، ولحومها، وجلودها، وركوب ظهرها إلى غير ذلك.

ثم فصَّل تعالى ذلك فقال: «**وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ**» أي: سخرناها حتى صارت منقادة لهم «**فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ**» أي: مركوبهم يركبون من غير امتناع وهو البقر والإبل «**وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ**» الجميع من لحومها وألبانها «**وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ**» من أصوافها وأوبارها وأشعارها وأولادها

وجلودها «وَمَشَارِبُ» أي: من ألبانها «أَفَلَا يَشْكُرُونَ» هذه النعم «وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً» يعني: هؤلاء الكفار اتخذوا إلهًا غيره وهو الأوثان التي عبدوها، وهذا غاية التوبيخ؛ لأنهم عدلوا عن عبادته مع كمال نعمه وقدرته، وعبدوا ما لا ينفع ولا يضر «لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ» أي: ينصرهم من عذاب الله ويدفع عنهم، وقيل: لعلهم ينصرونهم في أمورهم. ثم ردّ عليهم فقال سبحانه: «لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ» أي: لا يقدرون؛ لأنها جماد «وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُحْضَرُونَ» قيل: في النار؛ لأن كل حزب مع ما عبدته من الأوثان في النار، فلا الجند يدفع عنهم الإحراق، ولا هي تدفع عنهم العذاب، عن أبي علي. وقيل: «جُندٌ مُحْضَرُونَ» أي: يتعصبون في الدنيا للأوثان، عن قتادة. وقيل: «وهم» يعني: هؤلاء الكفار لهذه الأصنام «جُندٌ» يحيطونها ويدفعون عنها فكيف يعبدونها؟ وقيل: هم لها جند في الدنيا محضرون في القيامة معها يعذبون بها «فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ» أي: تكذيبهم وكفرهم بك، قيل: قولهم في القرآن: إنه شعر أو سحر «إِنَّا نَعْلَمُ[1]» **هذا وعيد متصل بما قبله، أي: لا تحزن إن كذبوك فالله ناصرك ومصدقك ويعود وبال تكذيبهم عليهم، فهو تسلية له ووعيد لهم، وقيل: تم الكلام عند: «قولهم»**، ثم ابتدأ «إِنَّا نَعْلَمُ[2] مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ» أي: ما يفعلون ظاهرًا وما يضمرون، وقيل: شركهم وقولهم في الله. «أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ» هو ماء الرجل «فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ» أي: بعد أن كان نطفة مهينًا صيرناه خلقًا عجيبًا ذا بيان ومخاصمة وحواس وقلب وبطن ومعرفة، يعني: من تفكر في هذا عرف أن مَنْ قدر على هذا قدر على الإعادة «وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ» أي: بُدُوَّ أَمْرِهِ حيث لم يكن فخلقه الله تعالى، فالإعادة كالابتداء.

ثم فسّر المثال، فـ «قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ» أي: بالية «قُلْ» يا محمد: «يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا» خلقها ابتداء من غير شيء «أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ» أي: يجمع بين أجزائه فيحييها بقدرته «الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا» قيل: في

(١) إنا نعلم: إن الله يعلم، ن.
(٢) إن نعلم: إن الله يعلم، ن.

كل شجر نار، وهو أوجه، لذلك يحترق. وقيل: بل هما شجران: مَرْخٌ وعَفَارٌ، يقطع منهما غُصْنَانِ خضراوان[1] كَسِوَاكَيْنِ ويسحق أحدهما بالآخر فتخرج منهما النار، عن ابن عباس. والعرب تقول: في كل شجر نار، واسْتَمْجَدَ[2] المرخ والعفار «**فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ**» من الشجر «**تُوقِدُونَ**» النار «**أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ**» يعني: خلق هذه الأشياء أعجب من إعادة الأشياء، فإذا قدر على ذلك قدر على هذا، فلما بُهِتَ الكافر وانقطع قال: «**بَلَى**» هو قادر «**وَهُوَ الْخَلَّاقُ**» الكثير الخلق؛ لأنه قادر لذاته «**الْعَلِيمُ**» لذاته يعلم تفاريق الأشياء فيعيدها ويقدر على ذلك فيحييها «**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**» يعني: إذا أراد فعل شيء فعله كما أراد لا يتعذر عليه شيء، وقيل: إنه مَثَلٌ، والمراد ما ذكرنا. وقيل: يحدث صوتًا تعلم الملائكة أنه لإحداث أَمْرٍ «**فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ**» أي: تنزيهًا لمالك كل شيء من كل سوء وعن أن يخلق الخلق ويكلفهم ثم لا يقدرهم؛ لأن الغرض الجزاء، والمراد بقوله: «**بيده**» أي: في قدرته؛ لأنه يقدر على كل شيء يخلقه ويفنيه ويعيده «**وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**» إلى حكمه وجزائه.

۞ الأحكام

الآية تدل على وجوب النظر، متى تفكر [الإنسان] في نفسه واختلاف أحواله عَلِمَ أن[3] له مدبرًا دبره، وإذا رأى التكليف علم أن ثَمَّ دارًا للجزاء.

وتدل على صحة الحجاج في الدين.

وتدل على صحة الإعادة لوجوه:

منها: ابتداء خلق الجواهر؛ لأنه لا يقدر عليها إلا القادر لذاته، فإذا جاز البقاء عليها جاز إعادتها.

(١) غصنان خضروان: حيات خضراء، ن.

(٢) في ن: واستنجد. وما أثبتناه من مجمع البيان في تفسير القرآن م٥/ ج٢٣/ ٤٢.

(٣) أن: أنه، ن.

ومنها: إذا قدر أن يجعل نطفة بشرًا سويًا يقدر على الإعادة، وذلك أن زيادة الأجزاء والرطوبات والتأليفات والحياة والدم والروح، جميع ذلك مما تفرد هو بالقدرة عليه كذلك الإعادة.

ومنها: أن من قدر على خلق النار في الشجر الأخضر قدر على إعادة الإحياء.

ومنها: خلق السموات والأرض.

وتدل على تَنْزيهه عن كل قبيح.

وتدل على صحة القياس؛ لأنه تعالى قاس الإعادة على الابتداء.

سورة الصافات

سورة (الصافات) مائة وثمانون آية في البصري، واثنتان وثمانون في المدني والكوفي، وهي مكية فيما روي عن المفسرين.

وعن أبي، عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة (الصافات) أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد كل جِنٍّ، وتباعدت عنه مَرَدَةُ الشياطين، وبرئ من الشرك، وشهد له حافظاه يوم القيامة أنه كان مؤمنًا بالمرسلين».

ولما ختم سورة (يس) بذكر البعث ودلائله افتتح (الصافات) بذلك أيضًا.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ۝٥ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾

القراءة

قرأ أبو عمرو وحمزة: **(والصافات)**، و**(الزاجرات)** بإدغام التاء فيما يليه، والباقون بالإظهار.

وقرأ أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر والكسائي: «**بِزِينَةِ**» من غير تنوين، «**الكواكب**» بالجر على الإضافة. وقرأ حمزة وحفص عن عاصم: «**بِزِينَةٍ**» منون «**الكواكبِ**» بالجر على البدل، أي: بالكواكب. وقرأ عاصم في رواية أبي بكر «**بِزِينَةٍ**» بالتنوين، «**الكواكبَ**» بالنصب بالتنوين، وقيل: على تقدير: أعني الكواكب.

وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾ بتشديد السين، وهو اختيار أبي حاتم، وأصل الباب: سَمِعَ يَسْمَعُ سَمْعًا.

اللغة

الصف: ترتيب الجمع على خط، كالصف في الصلاة، ويقال: صَفٌّ، وصَافَّةٌ جمعه، والصافات جمع الجمع.

والزاجرات: جمع زاجرة، والزجر: الصرف عن الشيء بالخوف مِنْ[1] عاقبته، زجره زجرًا.

والتاليات: جمع تالية، وهي القارئة، والقراءة والتلاوة بمعنى.

والتزيين: تحسين الشيء في الصورة بما يكون به للنفس منفعة.

والمارد: الخارج إلى الفساد، وهو من صفة الشياطين، وهم المردة، وأصله: الانجراد، ومنه: الأمرد، والمارد: المتجرد من الخير.

والدحر: الدفع بعنف، دَحَرَ دحورًا ودَحْرًا.

والواصب: الدائم الثابت، يقال للعليل: وَصِبٌ: إذا لزمه الوجع وثبت به، وقد واصب على الأمر وواظب أي: داوم، ومنه: وَصِبَ يَوْصَبُ فهو واصب: إذا لزمه الوجع[2].

والخطف: أخذ الشيء بسرعة واستلاب، خطفه واختطفه، ومنه: ﴿فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ﴾ [الحج: ٣١]، [و] في الحديث: «نهى عن المُجَثَّمَةِ والخَطْفَةِ» وهو ما يخطفه الذئب من أعضاء الشاة وهي حية، و«كل ما أُبِينَ من الحي فهو ميت».

---

(١) من: عن، ن.
(٢) الوجع: الواجع، ن.

والشهاب: شعلة نار ساطعة، ومنه: فلان شهاب حرب؛ إذا كان ماضيًا فيها.
والثاقب: المضيء، وثقبت النار، وأثقبتها أنا.

الإعراب

«**وَالصَّافَّاتِ**» محله جر بالقسم، وكذلك أخواتها، وجواب القسم: «**إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ**» و(إلهكم) محله نصب؛ لأنه اسم (إن)، وخبره: (**لواحد**)، و«**رَبُّ**» بدل من واحد.

«**وَحِفْظًا**» نصب على تقدير: زيناها تزيينًا وحفظا، وقيل: تقديره: وحفظناها حفظًا.

«**لاَ يَسَّمَّعُونَ**» رفع لأن تقديره: لئلا يسمعوا(١)، فلما حذف اللام [وحذف أَنْ] رفع ما بعدها كقوله: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر: ٦] أي: لتستكثر، فلما حذف اللام رفع.
«**دُحُورًا**» أي: في هذه الحال.

النزول

قيل: لما قال كفار مكة: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥]، أقسم الله بهذه الأشياء أن إلههم لواحد، عن مقاتل.

المعنى

«**وَالصَّافَّاتِ صَفًّا**» قيل: هم الملائكة تصف صفوفًا في السماء كصفوف المؤمنين للصلاة، عن ابن عباس، ومسروق، والحسن، وقتادة، والسدي. وقيل: يسبحون، وقيل: يصلون، وقيل: هم الملائكة تصف أجنحتها في الهواء واقفة تنظر ما يأمرهم الله تعالى، عن أبي علي. وقيل: هي الطير صافات كقوله: ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ [النور: ٤١]. وقيل: هم المؤمنون يقومون مصطفين في الصلوات، عن أبي مسلم. وقيل: المؤمنون المجاهدون يصطفون عند مجاهدة الكفار. وقيل: أقسم بمن على هذه الصفة ولم

---

(١) يسمعوا: يسمعون، ن.

يعيّن، فيحمل على الملائكة والمؤمنين، واختلفوا في القسم، فقيل: القسم بالله تعالى على تقدير: ورب الصافات، فحذف؛ لأن التعظيم بالقسم إنما هو لله سبحانه، وقد منع من القسم بغيره، عن أبي علي، والقاضي. وقيل: بل أقسم بهذه الأشياء لما يتضمن من تعظيمها لما فيها من الدلالة على توحيده وصفاته «فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا» قيل: هم الملائكة، عن مجاهد، والسدي، وأبي علي. ثم اختلفوا، قيل: تزجر السحاب وتسوقه، وقيل: تزجر عن معاصي الله. وقيل: هي زواجر القرآن وآياته، عن قتادة. وقيل: هم المؤمنون يرفعون أصواتهم عند قراءة القرآن؛ لأن الزجرة هي الصيحة، كأنه[1] قال: الصافات من المؤمنين الصائحين[2] بقراءة القرآن، عن أبي مسلم. «فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا» أي: القارئات، قيل: جبريل والملائكة يتلون كتاب الله، عن مجاهد، والسدي. وقيل: الذكر هو أم الكتاب كتب لهم في اللوح المحفوظ. وقيل: ما يتلى من القرآن، عن قتادة. وقيل: جماعة قراء القرآن وهم المؤمنون يتلون القرآن في الصلاة، عن أبي مسلم. «إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ» أي: من تحق له العبادة والإلهية واحد، وهو صانع العالم ومدبره المتفرد بالقدم والبقاء «رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» أي: خالقهما ومدبرهما «وَمَا بَيْنَهُمَا» من الجان والأنعام وسائر النعم «وَرَبُّ الْمَشَارِقِ» أي: خالق مطالع الشمس والقمر والنجوم، وقيل: مشارق الشمس وهي ثلاثمائة وستون مشرقًا وثلاثمائة وستون مغربًا بعدد أيام السنة، عن ابن عباس، والسدي. وقيل: كل موضع شرقت عليه الشمس فهو مشرق، وكل موضع غربت عليه فهو مغرب، كأنه أراد رب جميع ما شرقت عليه الشمس «إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا» يعني: الأقرب إلينا؛ لأن الدنيا تأنيث الأدنى «بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ» يعني: زين السماء بالكواكب، وقيل: أراد زينة للناظر وإن كانت الكواكب على الأفلاك. وقيل: أراد بالسماء العلو دون نفس السماء، والصحيح الأول؛ لأنه الحقيقة ولا مانع منه «وَحِفْظًا» أي: حفظناها حفظًا «مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ» أي: خبيث خالٍ عن الخير.

ومتى قيل: ما وجه الحفظ؟

(١) كأنه: كأن، ن.

(٢) الصائحين: الصائحات، ن.

قلنا: منعهم من الفساد باستراق السمع لكيلا يقفوا على ما يخبر به الملائكة بينهم من الغيوب التي أعلمهم الله تعالى، ولئلا يلقونه إلى الجن والكهان.

«**لاَ يَسَّمَّعُونَ**» أي: لكي لا يسمعون «**إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَى**» أي: إلى كلام الملأ الأعلى، قيل: الملأ: جماعة من الأشراف، وهي هاهنا الملائكة والجماعة المعظمون، وقيل: الملأ الأعلى: الكتيبة من الملائكة في السماء.

ومتى قيل: لِمَ قيل لهم: الأعلى، والأرض كُرويّة والفلك كذلك، وعلى أكناف الأرض إنس؟

قلنا: الأعلى يحتمل الحال والمكان، فإن حملناه على المكان فالفلك محيط بالأرض، والسماء فوق الفلك، وهو مقر الملائكة.

«**وَيُقْذَفُونَ**» أي: يرمون «**مِنْ كُلِّ جَانِبٍ**» أي: من جوانبهم الستة؛ ليكون خوفهم وتحرزهم أشد، وقيل: من جوانب السماء، عن أبي علي. «**دُحُورًا**» أي: دفعًا وطردًا تبعدهم عن مجالس الملائكة «**وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ**» قيل: دائم، عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد. وقيل: موجع، عن الكلبي. وقيل: شديد. «**إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ**» أي: وثب وثبة وطار طيرة ليسترق السمع فيستمع الكلمة «**فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ**» قيل: مضيء، وقيل: نافذ في كل جهة حتى يصير إلى حيث شاء، عن أبي علي. وقيل: الشهاب: القطعة من النار، والثاقب: الواقد المتأجج، عن أبي مسلم.

۞ الأحكام

تدل الآيات أن الملائكة مكلفون، فمدحوا بالتلاوة والزجر وغيرها.

وتدل على التوحيد، وأنه واحد في القدم، لا قديم معه ولا إله.

وتدل على أن السماء مزينة بالكواكب مع ما فيه من عجيب الصنعة، فتدل على مدبر عالم.

وتدل على أن الكواكب في السماء، خلاف ما يقوله أهل النجوم.

وتدل أن السماء الدنيا مختص بالزينة دون السموات الأخر.

وتدل أن الشياطين مُنِعوا من الاستماع بالشهب.

ومتى قيل: كيف يصح وهم عقلاء أن يروموا الاستراق مع العلم بالمنع والهلاك؟

قلنا: تارة يهلكون وأخرى يَسْلَمون، فلتجويز السلامة يقدمون على ذلك كراكب البحر.

ومتى قيل: ما غرضهم بالاستماع حتى عَرَّضوا أنفسهم لهذا الخطر؟

قلنا: أن يوردوا على ضعفائهم ما يوهمون أنهم يعلمون الغيب، فتحصل لهم الرتبة العظيمة وهم يلقون بالوسوسة إلى ضعفاء الإنس، وهذا كما يفعله علماء السوء وأئمة الضلال لحب الرئاسة.

ومتى قيل: هذه كانت أم حصلت في أيام الرسول؟ وهل هي معجزة له أم لا؟

قلنا: كانت نزرة، ثم كثرت في أيامه، معجزة له حتى صارت كالمعتاد، ثم على قول من لا يُجوِّزُ كون المعجزة باقية بعد الرسول قالوا: عادت كما كانت، وعلى قول من يجوز يقول: غير ممتنع أن تبقى الشهب على كثرتها.

ومتى قيل: الشهب كواكب أم غيرها؟

قلنا: منهم من قال: هي ثابتة وضوؤها، يحدثها الله تعالى فتنقض عليهم، فأما الكواكب فلا تزول عن أماكنها، عن أبي علي، والقاضي. وقيل: يحتمل أنه تعالى يحرك بعض الكواكب عن مواضعها ويصيرها شهبًا، وقيل: الشهاب: نار تحرقهم وتهلكهم، وقيل: بل تبعدهم عن مواضع الملائكة ولا تأتي عليهم.

ومتى قيل: فما تقولون في الكواكب التي هي زينة، والتي هي تسير؟

قلنا: الذي يقوله مشايخنا: إنه تعالى خلق سبعة أفلاك وعليها النجوم السيارة، ثم خلق فوق الأفلاك سبع سماوات، وهي مقر الملائكة، وفيها الجنة، وفوقها العرش، وَزَّيَن التي تلي الأرضَ بالكواكب.

وتدل أن الشياطين والجن مكلفون.

قوله تعالى:

﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ ﴿١١﴾ بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذۡكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوۡاْ ءَايَةٗ يَسۡتَسۡخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلۡ نَعَمۡ وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ فَإِذَا هُمۡ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾﴾

القراءة

قرأ حمزة والكسائي: «عَجِبْتُ» بضم التاء، وهو قراءة ابن مسعود وابن عباس على معنى: أنهم حلوا محل من يتعجب منهم. الباقون بفتحها، أي: عَجِبَ النبي ﷺ، وهو قراءة شريح، وقال: إنما يعجب من لا يعلم، والله تعالى يعلم كل شيء. وقيل: العجب من الله إنكار الشيء، وقد جاء مثل ذلك في الخبر. وقيل: أراد: اسْتَعْظَمْتُ، وقيل: فيه حذف أي: قل: بل عجبت.

فأما قوله: ﴿أَءِذَا﴾ و﴿أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾ فقرأ أبو جعفر ونافع والكسائي ويعقوب الأول بالاستفهام، الثاني بكسر الألف غير مستفهم، ثم اختلفوا، فأبو جعفر استفهم بهمزة واحدة ممدودة، ونافع ويعقوب بهمزة غير ممدودة، والكسائي بهمزتين. وقرأ ابن عامر الأول غير مستفهم، الثاني بالاستفهام، ويستفهم بهمزتين. وقرأ ابن كثير وعاصم وأبو عمرو وحمزة بالاستفهام فيهما، ثم اختلفوا، فابن كثير قرأ بهمزة غير مطولة فيهما، وأبو عمرو بهمزة مطولة، وعاصم وحمزة بهمزتين.

اللغة

الاستفتاء: طلب الفتيا، والاستفهام والاستعلام والاستفتاء نظائر، والفتيا: بيان الحكم.

[واللازم][١] واللازب بمعنى، وهو الملصق باليد، الميم يبدل بالباء؛ لأنها من

(١) ما بين المعكوفين ساقط في ن. وما أثبتناه من هامشها.

مخرجها، فجاز أن يقوم مقامها، تقول العرب: طين لازب ولازم، ويصرف لَزِب ولَزُبَ يَلْزُبُ بكسر الزاي وضمها لُزُوبًا.

والعجب: تغير النفس بالعثور على شيء خفي عليه سببه مما لم تَجْرِ به عادة، عَجِبَ عَجَبًا وتعجب تعجبًا.

والداخر: الصاغر أشد الصَّغر، والصاغر: الذليل الصغير قدره، والدخرة: الصرفة عن الشيء بالمخافة، كأنهم زجروا عن الحال التي هم عليها إلى المصير إلى الوقوف للجزاء.

۞ الإعراب

الواو في قوله: ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ واو الحال.

﴿وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾ ابتداء وخبر، وفيه حذف؛ أي: نعم تبعثون، وأنتم داخرون.

۞ المعنى

ثم عَجَّبَ رَسُولَهُ من حالهم في إنكارهم مع كثرة الدلائل، فقال سبحانه: «**فَاسْتَفْتِهِمْ**» أي: سل هؤلاء الكفرة، قيل: أهل مكة، وقيل: من كان في عصره من الكفار، والكناية عنهم في قوله: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾، فعطف هذا عليها، واختلفوا في هذا السؤال، قيل: سؤال تقرير، وقيل: بل سؤال توبيخ «**أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا**» من الأمم الماضية وقد أهلكناهم بذنوبهم، وقيل: من السموات والأرض وما بينهما، وقيل: من الملائكة والسموات والأرض وغير ذلك، وقيل: أراد الجن والشياطين، يعني: مَنْ قَدَرَ على إهلاكهم مع قوتهم على صعود السماء واستراق السمع يقدر على إهلاك هؤلاء وقد خلقهم من طين «**إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ**» أي: لازق، يعني: آدم. وقيل: لازم، عن مجاهد، وقتادة. «**بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ**» أي: عجبت يا محمد من تكذيبهم، وهم يسخرون من تعجيبك، وقد عجبت من هذا القرآن حين أعطيته وسخر منه أهل الضلال، عن قتادة. وقيل: عجبت من جهلهم ويسخرون من حقك، وقيل: عجبت من إنكارهم التوحيد مع كثرة الدلائل، وهم يسخرون منك إذا دعوتهم إلى التوحيد، عن أبي علي. وقيل: «**يَسْخَرُونَ**» أي: يستدعي بعضهم بعضًا إلى السخرية كما يفعله أهل البدع بأهل الحق «**وَإِذَا ذُكِّرُوا**» بالقرآن ومواعظه لا يتعظون،

«وَإِذَا رَأَوْا آيَةً» أي: حجة ومعجزة، قيل: انشقاق القمر، وقيل: سائر الحجج «يَسْتَسْخِرُونَ» أي: يستدعي بعضهم بعضًا إلى إظهار السخرية، وقيل: يسخرون، وقيل: حسبوه سخرية؛ كقولهم: استحسنه أي: حسبه حسنًا «وَقَالُوا إِنْ هَذَا» أي: القرآن وسائر ما يذكره الرسول «إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ» أي: تمويه ظاهر «أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ» أي: كيف نبعث بعدما صرنا ترابًا «أَوَآبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ» أي: فكيف يبعث آباؤنا بعد أن صاروا ترابًا، و(أو) بمعنى الواو، وقيل لهم: «نَعَمْ» تبعثون بعد الموت والإفناء «وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ» قيل: صاغرون، عن الحسن، وقتادة، والسدي. وهذا على وجهين: أحدهما: تبعثون من غير امتناع، كما يقال: افعل وأنت صاغر، والثاني: تبعثون على وجه الصغار والقلة، «فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ» قيل: صيحة واحدة، وهي النفخة في الصور «فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ» قيل: أحياء ينظرون، وقد كانوا لا حياة فيهم ولا يقدرون على النظر، عن أبي مسلم. وقيل: فإذا هم ينظرون إلى البعث الذي كذبوا به. وقيل: ينظرون إلى ما ينزل بهم، عن أبي علي. وقيل: ينظر بعضهم إلى بعض، وقيل: ينظرون ما يؤمرون به «وَقَالُوا» يعني: هؤلاء الذين بعثوا «يَا وَيْلَنَا» يدعون بالويل لما عاينوا من العذاب «هَذَا يَوْمُ الدِّينِ» قيل: يوم الجزاء والحساب، وقيل: يوم الجزاء على الدين، فاعترفوا خاضعين نادمين.

۞ الأحكام

تدل الآية على أنه تعالى خلق آدم من طين، وكان ترابًا، ثم صار طينًا، ثم حمأ، ثم صلصالاً إلى أن صار حيًا، فتدل على مدبر عليم.

وتدل على وجوب التفكر في الأدلة وقبح الإعراض.

وتدل على أن أهل النار يوم القيامة يندمون ويعترفون، ولكن لا ينفع؛ لأن التكليف زائل.

وتدل على أن الصيحة علامة للبعث، وأنهم يبعثون عن قرب.

وتدل على جهلهم في إنكار البعث.

وتدل على أن السخرية فعلهم.

قوله تعالى:
﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾﴾

اللغة

الفصل: الفرق بين الشيئين حتى يكون أحدهما بمعزل عن الآخر، فصلت بينهم فانفصلوا، والله تعالى يفصل بين أهل الحق وغيرهم.

والحشر: الجمع من كل جهة.

والتناصر: أن ينصر كل واحد منهما صاحبه، والنُّصْرَةُ: المعونة، والناصر: المعين.

والاستسلام: الانقياد وترك التنازع، استسلم: إذا ألقى بيده غَيْرَ مُنازعٍ فيما يراد منه.

والتساؤل: سؤال كل واحد للآخر، وهو تفاعل من السؤال.

واليمين: الجارحة، واليمين: القوة.

والطاغي: الجاني [الذي][1] تجاوز كل حَدٍّ، وأصله: مجاوزة الحد، ومنه: ﴿طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ [الحاقة: ١١].

الإعراب

﴿تَنَاصَرُونَ﴾ أصله: تتناصرون، حذفت إحدى التاءين تخفيفًا.

المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى أحوالهم ومقالهم يوم القيامة، فقال سبحانه: «هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ» ومعنى الفصل أي: اليوم الذي يفصل الله بين عباده، وقيل: يفصل بين المحسن

(١) ما بين المعكوفين ساقط في ن، وللزيادة من هامشها.

والمسيء، وقيل: يوم قطع الخصومات «**الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ**» يعني: تكذبون الرسل فيما تخبركم به «**احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا**» قيل: ظلموا أنفسهم بمخالفة أمر الله وتكذيب الرسل، وقيل: ظلموا الناس، وقيل: ظلموا الرسل بالتكذيب «**وَأَزْوَاجَهُمْ**» قيل: أشباههم، عن ابن عباس، ومجاهد، وابن زيد. ومنه: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ [الواقعة: ٧] أي: أشكالاً وأشباهًا، وقيل: أشياعهم من الكفار، عن قتادة. وقيل: أتباعهم، عن ابن عباس. وقيل: أتباعهم على الكفر من نسائهم، قال الحسن: يعني أزواجهم المشركات، وهذا أوضح الأقوال. وقيل: الرؤساء والأعوان. وقيل: قرناؤهم من الشياطين الذين أطاعوهم، عن الضحاك، ومقاتل. وقيل: مَنْ عَمِلَ مِثْلَ عملهم، فأهل الخمر يجمع إلى أهل الخمر، وأهل الزنا إلى أهل الزنا كذلك غيرهم.

ومتى قيل: فما هذا الحشر؟

قلنا: الحشر إلى النار لذلك قال بعده: «**فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ**».

ومتى قيل: فلم قال: «**وَقِفُوهُمْ**»؟

قلنا: الواو لا يوجب الترتيب، كأنه قيل: احشروهم وقفوهم، ثم احشروهم إلى النار؛ لأن المساءلة تتقدم على دخول النار، وقيل: احشروهم من قبورهم إلى القيامة.

«**وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ، مِنْ دُونِ اللَّهِ**» في الدنيا، قيل: الأصنام، وقيل: الشياطين الذين أطاعوهم، وقيل: كل معبود سوى الله.

ومتى قيل: لماذا تعاد الأصنام؟

قلنا: مبالغة في توبيخهم؛ وجعل ذلك عقوبة لهم، وقيل: أراد بذلك خدم الملوك على الظلم، وعبادتهم: طاعتهم إياهم[١] في معصية الله؛ كعلماء السوء وملوك الظلم بعضهم أعوان بعض.

«**فَاهْدُوهُمْ**» قيل: ادعوهم، عن الضحاك. وقيل: دلوهم، عن ابن عباس. «**إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ**» طريق النار «**وَقِفُوهُمْ**» احبسوهم «**إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ**» قيل: هذه مساءلة

(١) إياهم: إياه، ن.

توبيخ لا مساءلة حساب، وقيل: عن لا إله إلا الله، عن ابن عباس. وقيل: عن خطاياهم، عن الضحاك. وقيل: جميع أفعالهم وأحوالهم، عن القرظي. وهو أوجه. «**مَا لَكُمْ لاَ تَنَاصَرُونَ**» يقال لهم توبيخًا: ما لكم لا ينصر بعضكم بعضًا في دفع العذاب؟ وقيل: هو جواب أبي جهل لما قال يوم بدر: نحن جميع منتصر. «**بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ**» قيل: خاضعون، عن ابن عباس. وقيل: منقادون، عن الحسن. وقيل: ملقون بأيديهم، عن الأخفش. وقيل: استسلموا لما لم يستطيعوا دفعًا «**وَأَقْبَلَ**[1] **بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ [يَتَسَاءَلُونَ]**» قيل: الأتباع والمتبوع، وقيل: أقبل الإنس على الجن، و«**قَالُوا**» يعني: الأتباع للرؤساء والمتبوعين «**إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ**» أي: من جهة النصيحة واليمن والبركة والعمل الذي يتيمن به من وجه يؤمن منكم، والعرب تتيمن بما جاء من اليمين، عن أبي علي. وقيل: من قبل اليمين فتضلوننا عنه، عن الضحاك. وقيل: عن صراط الحق، عن مجاهد. وقيل: عن القوة والقدرة، وقيل: تصدوننا عن طريقة أصحاب اليمين؛ يعني لما فرق الناس يوم القيامة قالت الأتباع للمتبوعين: أنتم صددتمونا عن أصحاب اليمين، أي: أصحاب الجنة. وقيل: تصدوننا عن طريق الجنة والنجاة، واليمين المعني هاهنا هو المعني بقوله: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٢٧]، عن أبي مسلم. «**قَالُوا**» يعني: الرؤساء مجيبين «**بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**» أي: ما كنتم مؤمنين فرددناكم عن الإيمان، وقيل: معناه: أنتم أهملتم أنفسكم فكيف توركون الذنب علينا؟ «**وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ**» أي: قوة نُكْرِهُكُمْ على الكفر فتكونوا مجبورين؛ بل باختياركم اتبعتمونا. وقيل: من حجة لأجلها قدرتمونا لكن للإلف والهوى فعلتم «**بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ**» أي: جاوزتم الحد في العصيان «**فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا**» أي: وجب علينا وعيده «**إِنَّا لَذَائِقُونَ**» العذاب «**فَأَغْوَيْنَاكُمْ**» قيل: جنبناكم من رحمة الله «**إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ**» جانبين، عن أبي علي. وقيل: دعوناكم إلى الضلال لأنا كنا ضالين، يعني: رضينا لكم ما رضينا لأنفسنا؛ لكنا ظننا أنا على حق، فإذا نحن على الضلال داعين إلى الضلال.

(١) وأقبل: فأقبل، ن.

الأحكام

تدل الآية أن يوم القيامة يوم فصل الأمر بين الظالم والمظلوم.

وتدل على الجمع بين الظلمة وأعوانهم وأشياعهم.

وتدل أن أحدًا منهم لا ينصر أحدًا، وأنهم يتجادلون.

وتدل أنهم يتساءلون بينهم ويجادلون، ويُوَرِّكُ بعضهم الذنب على البعض.

ويدل قوله: ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ﴾ أن الفعل لهم، ولو كان كما تزعمه المجبرة لكان الله يغويهم.

قوله تعالى:

﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ
لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ
وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا
عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾
عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ
وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾

القراءة

قرأ حمزة والكسائي: «**يُنْزِفُون**» بكسر الزاي هاهنا وفي (الواقعة). وقرأ عاصم هاهنا بفتح الزاي، وهناك بكسرها. الباقون بالفتح في السورتين. والفرق بينهما أن الفتح من: نزف الرجل فهو منزوف ونَزِيفٌ: إذا ذهب عقله بالسكر، قال:

فَلَثَمْتُ فَاهَا آخِذًا بِقُرُونِهَا ... شُرْبَ النَّزِيفِ بِبَرْدِ مَاءِ الحَشْرَجِ[(١)]

أي: المخمور، وأنشد قطرب قال: أنشد يونس:

---

(١) الصحاح (حشرج)، واللسان (حشرج). والبيت قائله الراعي النميري.

لَعَمْرِي لَئِنْ أَنْزَفْتُم أو صَحَوْتُم لَبِئْسَ النَّدامى أَنْتُم آل أَبْجُرَا(١)

وأراد السكر، والنزيف قيل: السكران، وقيل: المخمور، وجائز أن يكون على المعنيين. وأما الكسر: أَنْزَفَ فهو مُنْزِفٌ: إذا فنيت خمره، ويقال: أنزف: إذا سكر أيضًا، والنزيف: المخمور أيضًا منه.

وفي ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ فتح اللام وكسرها قراءتان بَيِّنَّاها، فالفتح: أخلصهم الله بلطفه واصطفاهم بفضله، وبالكسر: أخلصوا الطاعة لله.

اللغة

الاستكبار: طلب الكبر بما يضعف عنه، وذلك صفة ذمّ، استكبر استكبارًا.

والترك: ضد الأخذ، وهما ضدان، فهل يخلو المكلف منهما؟ قيل: لا، عند أبي علي، وقيل: بلى(٢)، عند أبي هاشم.

والجنون: ذهاب العقل، وأصل الباب: الستر والتغطية، ومنه: جن الليل، والجن، والجنان، والجنين، والمِجَنّ، والجنة.

والإخلاص: إخراج الشائب عن الشيء، أخلصه إخلاصًا، فهو مُخْلِصٌ، وذاك مُخْلَصٌ.

والرزق: العطاء الجاري.

والإكرام: الإعظام.

والكأس: الإناء فيها الخمر، ولا يكون كأسًا حتى يكون فيها الخمر، قال الشاعر:

وَكَانَ الكأسُ مَجْرَاهَا الْيَمِينَا(٣)

---

(١) الصحاح (نزف)، واللسان (نزف).

(٢) بلى: بلا، ن.

(٣) البيت قائله: عمرو بن كلثوم في معلقته وتمامه:

صببت الكأس عنا أم عمرو وكان الكأس مجراها اليمينا

اللسان (صبن)، والصحاح (صبن).

والمعين: مأخوذ من عين الماء، أي: يخرج من العيون كما يخرج الماء، وسمي عينًا لظهوره، يقال: عان الماء: إذا ظهر جاريًا، قاله ثعلب، فهو على مفعول من العين نحو: مَبِيعٍ ومَكِيلٍ، وقيل: سمي معينًا؛ لأنه يجري ظاهر العين. ويجوز أن يكون «فعيلاً» من المعين، وهو الماء الشديد الجري، ومنه: أمعن في السير: إذا اشتد فيه، قال الفراء: ويجوز أن يكون فعيلا من الماعون، وهو الزكاة.

واللذة: نيل المشتهى، فهل هو معنى برأسه، قال أبو علي: نعم، وقال أبو هاشم: لا، بل هو إدراك المشتهى. فأما الألم الحادث من الضرب فمعنى بالاتفاق، فأما إدراك ما نكرهه فعلى الخلاف.

والغَوْلُ: فساد يلحق الشيء في خفية، يقال: اغتاله اغتيالاً: إذا أفسد عليه أمره، ومنه: الغِيَلَةُ والغَوْلُ في خفية، قال الشاعر:

وَمَا زَالَتِ الْكَأْسُ تَغْتَالُنَا ... وَتَذْهَبُ بِالْأَوَّلِ الأَوَّلِ[١]

أي: تَصْرَعُ واحدًا بعد واحد.

والقاصرات: جمع قاصرة، وقصر وأَقْصَرَ: كَفَّ، وقاصرات الطرف: أن يقصرن طرفهن على أزواجهن، لا ينظرن إلى غيرهم.

والعِين: الكُحَّل العُيُون وحِسَانُها، رجل أَعْيَنُ، وامرأة عيناء، ونساء عِينٌ.

والمكنون: المصون من كل شيء، قال الشاعر:

هِيَ زَهْرَاءُ مِثْلُ جَوْهَرَةِ الْغَوَّاص ... مِيزَتْ مِنْ جَوْهَرٍ مَكْنُونِ[٢]

۞ الإعراب

يقال: لم قال: ﴿مَّكۡنُونٞ﴾ والبيض جمع؟

قلنا: لأنه رجع به إلى اللفظ.

(١) الصحاح (غول)، لسان العرب (غول)، تاج العروس (غول).
(٢) الصحاح (سنن)، لسان العرب (خضر).

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ نصب على الاستثناء.

المعنى

ثم بَيَّنَ أن جدالهم الذي تقدم لا يجر نفعًا ولا دفعًا، وأنهم مشتركون في العذاب، وعقب ذلك بذكر أهل الجنة، فقال سبحانه: «فَإِنَّهُمْ» يعني: من تقدم ذكره من الأتباع والمتبوعين «يَوْمَئِذٍ» يعني: يوم القيامة «فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ» أي: جمعوا في العذاب «إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ» أي: كذلك نجزي ونعذب كل مجرم «إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ» أي: يتكبرون عن قبول الحق في إخلاص التوحيد والعدل «وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا» استفهام والمراد الإنكار، أي: لا نترك آلهتنا، يعنون الأصنام «لِشَاعِرٍ» يعني: لقول شاعر، ويعنون به النبي ﷺ، عن الحسن، وقتادة. وقيل: لأجل شاعر، عن أبي مسلم. فرد الله ذلك عليهم، فقال سبحانه: «بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ» أي: بالدين الحق «وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ» في الدعاء إلى التوحيد. وقيل: صدقهم؛ لأنهم بَشَّرُوا به فبعث كما بشروا، وقيل: صدق بنبوتهم «إِنَّكُمْ» أيها الكافرون «لَذَائِقُو الْعَذَابِ الأَلِيمِ» الوجيع «وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» من المعاصي في الدنيا «إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ» قيل: تقدير الاستثناء: إنكم لصائرون إلى النار إلا عباد الله المخلصين، وقيل: يعود إلى قوله: «لَذَائِقُو الْعَذَابِ الأَلِيمِ» إلا المخلصين أي: أخلصوا العبادة لله تعالى فاصطفاهم لأجل ذلك «أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ» قيل: بكرة وعشيًا كقوله[1] ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢] وأراد على تقدير البكرة والعشي في الدنيا، وقيل: يعلمون دوامه، عن أبي مسلم. وقيل: يعلمون مقدار ما يصل إليهم في كل وقت وما يستحقونه، عن أبي علي. «فَوَاكِهُ» كل طعام يؤكل للذة لا للقوت الذي هو حفظ الصحة، وذلك يشتمل على يابس ورطب «وَهُمْ مُكْرَمُونَ» معظمون «فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ. عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ» أي: يقابل بعضهم بعضًا، ويستمتع بعضهم بالنظر إلى بعض وبمحادثتهم «يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ» إناء فيه شراب، قال الأخفش: كل كأس في القرآن فالمراد به الخمر «مِنْ مَعِينٍ» جارية في أنهارها ظاهرة للعيون، وقيل: شديدة الجري «بَيْضَاءَ» أي: صافية في نهاية النظافة واللطافة

(١) كقوله: كقولهم، ن.

«لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ» أي: يلتذ الشارب بشربها[1] «لاَ فِيهَا غَوْلٌ» أي: لا تغتال العقول فتذهب بها، يقال: غاله: إذا ذهب به، عن الشعبي. وقيل: لا تبعد عقولهم عنه. وقيل: لا يكون منه صداع وأذى كما يكون من خمر الدنيا، عن ابن عباس، وقتادة. وقيل: ليس فيها إثم، عن الكلبي. وقيل: وجع البطن، عن قتادة. وقيل: داء، عن الحسن، ومجاهد، وأبي علي. «[وَلاَ هُمْ] عَنْهَا يُنزَفُونَ» قيل: يسكرون، والنزيف: السكران، ولا هم تنزف عقولهم بالسكر، عن أبي علي. وقيل: بكسر الزاي لا ينفد خمرهم «وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ» أي: أزواج حابسات الطرف غاضات الجفون، قصرن أعينهن على أزواجهن، عن الحسن. أشار إلى عفتهن ومحبتهن للأزواج «عِينٌ» قيل: حسان العيون كحلها. وقيل: شديد بياض العين شديد سوادها، عن الحسن. «كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ» أي: مصون. وقيل: شبهها ببيض النعام بكنّها بالريش من الريح والغبار، عن الحسن، وابن زيد. وقيل: شبه لونهن بالبيض في البياض، عن أبي علي. وقيل: شبهها بباطن البيض قبل أن يقشر وتمسه الأيدي، عن سعيد بن جبير، والسدي.

۞ الأحكام

تدل الآيات أن الثواب والعقاب جزاء على الأعمال، خلاف ما يقوله أهل الجبر.

وتدل أن للعبد فعلاً حتى يستحق الجزاء، فيبطل قولهم في المخلوق.

ويدل قوله: ﴿رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ أن الثواب مقدر؛ ولذلك يقع التفاضل بين أهل الثواب.

وتدل أن الثواب نعمة يقترن بها التعظيم؛ لذلك قال: ﴿مُكْرَمُونَ﴾ ، ولذلك يحسن التكليف؛ لأن التعظيم لا يجوز الابتداء به.

وتدل على نعيم أهل الجنة.

وتدل أنهم يأكلون ويشربون ويتمتعون، وأن المثاب هذه الجثة، بخلاف قول الباطنية.

---

(١) بشربها: بشربه، ن.

قوله تعالى:

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

القراءة

اختلف القراء في هذه الثلاثة الاستفهامات: ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾، ﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾، ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾: فقرأ أبو جعفر بكسر الألف في الأولى والثانية من غير استفهام ويستفهم في الثالثة بهمزة ممدودة.

وقرأ نافع الأولى(١) والثانية؛ بالاستفهام بهمزة غير ممدودة، والثالثة(٢): بكسر الألف من غير استفهام، ووافقه الكسائي، إلا أنه يستفهم الثالثة بهمزتين.

وقرأ ابن عامر الأولى والثالثة بالاستفهام بهمزتين والثانية بكسر الألف من غير استفهام.

وقرأ يعقوب الأولى بالاستفهام بهمزة واحدة غير منونة، وفي الثانية والثالثة بكسر الألف من غير استفهام.

وقرأ ابن كثير وعاصم وأبو عمرو وحمزة بالاستفهام في جميعها، ثم اختلفوا، فابن كثير يستفهم بهمزة واحدة غير مطولة، وأبو عمرو بهمزة مطولة، وعاصم وحمزة بهمزتين.

قرأ نافع برواية ورش ويعقوب الحضرمي: «لَتُرْدِينِي» بإثبات الياء في الوصل ويعقوب في الوقف أيضًا، الباقون بحذفها.

(١) الأولى: الأول، ن.

(٢) والثالثة: والثالث، ن.

قراءة العامة: ﴿مُّطَّلِعُونَ﴾ بالتشديد، ﴿فَٱطَّلَعَ﴾ على فعل ماض بالتشديد، وروي عن ابن عباس: «مُطْلِعُونَ»، «فَأُطْلِعَ» يخففهما ويكسر اللام، قال: رَافِعُونَ فَرُفِعَ. وعن ابن عمر: «مُطْلِعُونِ» بكسر النون، «فَأُطْلِعَ» بقطع الألف، وقيل: إنه لا يصح؛ لأن الأسماء إذا أضيفت حذفت منها النون كقولك: مطلعي، وإنما يجوز مطلعين في الفعل على حذف إحدى النونين، ولا تجوز القراءة إلا بالمستفيض.

۞ اللغة

القرين والصاحب من النظائر، والمقارنة والمصاحبة كذلك: وهو الكائن مع غيره بإزائه.

والدِّينُ: الجزاء، يقال: كما تدين تدان، ومنه الدَّيْن؛ لأن جزاءه قضاؤه، ومنه الدين: القيمة، والدِّينُ: العادة، والدَّيْنُ: ما يدان به، وأصل الباب: الجزاء.

الطَّلْعَةُ: الرؤية، وطلع علينا فلان: إذا هجم، وأطلعتك على الأمر، وطليعة الجيش: مَنْ يُبْعَثُ به ليطلع [على] العدو، ويقال: طلعت على القوم أتيتهم[1]، وطلعت عنهم: غبت عنهم.

وسواء الشيء: وسطه؛ لاستواء المسافة إلى الجوانب، ويستعمل بمعنى (غير) كثيرًا.

والمَرْدَى: الهلاك، أَرْدَاهُ: أهلكه.

والمِثْلُ: ما يسد مسد الشيء فيما يرجع إلى ذاته، ثم يستعمل، فيقال: هو مِثْلُهُ في كذا.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى ما يجري بين أهل الدارين، فقال سبحانه: «**فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ**» يعني: أهل الجنة يسأل بعضهم بعضًا «**قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي**

(١) أتيتهم: أبيتهم، ن.

قَرِينٌ» أي: صاحب في الدنيا، قيل: شيطانًا، عن مجاهد. وقيل: كان من الإنس، عن جماعة. ثم اختلفوا، فقيل: كانا أخوين، عن مقاتل. وقيل: شريكين، عن ابن عباس. وقيل: رجلان قص الله خبرهما في سورة (الكهف) ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ [الكهف: ٣٢] الآيات، وكان أحدهما مؤمنًا يسمى يهوذا، والآخر كافرًا يسمى أبو قطروس[1]، وقيل: هذا في كل قرين سوء يصاحب مسلمًا «**يَقُولُ**» يعني: القرين «**أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ**» بالبعث «**أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا**» في الأرض «**وَعِظَامًا**» بالية «**أَئِنَّا لَمَدِينُونَ**» مخرجون ومحاسبون «**قَالَ**» هذا المؤمن «**هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ**» على أهل النار، وقيل: بل قاله الله تعالى. وقيل: الجنة في السماء والنار في الأرض، عن الحسن. «**فَاطَّلَعَ**» هذا المؤمن فرأى قرينه «**فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ**» في وسط النار، عن ابن عباس، والحسن، وقتادة. وقيل: لهم في هذا الاطلاع، وما يرون من أحوال أهل النار سرور زائد ولذة، ولا تلحقهم مشقة. وقيل: سرورهم في توبيخ أهل النار «**قَالَ**» هذا المؤمن: «**تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ**» أيها القرين «**لَتُرْدِينِ**» أي: تهلكني كما أهلكت نفسك به «**وَلَوْلاَ نِعْمَةُ رَبِّي**» أي: ما أنعم به علي من اللطف والعصمة والهداية حتى آمنت «**لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ**» في النار كما حضرت، ثم زاد في التوبيخ فقال: «**أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ. إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَى**» يعني: موتتنا الأولى في الدنيا، قيل: هذا يقوله المؤمنون للملائكة عند ذبح الموت على طريق الاستفهام، وتقول الملائكة: لا، والأول الوجه لأنه نسق الكلام، ويجوز الثاني أيضًا، فأما الثالث فبعيد؛ لأن أهل الآخرة يعلمون دوام النعيم ودوام العقاب، فكان لهم سرورًا وبشارة، يقول بعضهم لبعض أو لأهل النار: أما ينقطع عنا هذا النعيم بالموت أفيدوم وما نحن فيه؟ ومن أنكر دوام الثواب والعقاب كفر. وما روي من ذبح الموت هو مَثَلٌ وإلا فالموت عرض لا [يعد][2] حيوانًا فهو كبش يسمى موتًا ذبح من غير أية أَلَم تنبيهًا على الخلود فعلى هذا يحمل الخبر «**وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ**» على ما سلف منا، ولمَّا رأوا تلك النعم قالوا: «**إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**» يعني: النُّجح والفلاح والظفر بالأماني، قيل: مسرورًا، وقيل: زيادة لتوبيخ الكفار وغيظهم «**لِمِثْلِ**

(١) هكذا في ن. وفي تفسير البغوي ١٦٩/١، وتفسير البيضاوي ٤٩٦/١، وتفسير النسفي ٣/ ١٣، والكشاف ١/ ٧٠٩، وتفسير ابن أبي السعود ٥/ ٢٢١: قطروس.

(٢) ما بين المعكوفين كلمة غير واضحة في ن.

هَذَا» أي: لمثل هذا الثواب والفوز مع عظمه ودوامه «فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ» أي: يجب أن يعمل لكي ينال؛ إذ لا مزيد للأمنية عليه[١]، ولم يذكر جوابًا للكافر؛ لأنه لا يموت، ولم يَجرْ جوابًا.

الأحكام

تدل الآيات على وجوب التحرز من قرين السوء، ووجوب مصاحبة من يدعوه إلى التوحيد والعدل.

وتدل على أن أهل الجنة مطلعون على أهل النار، وفيه زيادة سرور لهم.

وتدل على الترغيب في الطاعات، والتحذير من المعاصي.

وتدل أن للعبد فعلاً حتى يصح الترغيب والترهيب.

قوله تعالى:

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَـٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّـٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَـَٔاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾

اللغة

النُّزل: الريع والفضل، طعام له نُزْل ونَزَل، وقيل: هي الأَنْزَال التي يتقوت بها[٢] وينزل عليها، ويقال: أقمت للقوم نزلهم[٣]؛ أي: ما يصلح أن ينزلوا عليه من الغذاء[٤].

(١) يقصد الفوز العظيم.
(٢) يتقوت بها: يتقرب، ن.
(٣) أقمت للقوم نزلهم: أقمت القوم ونزلتهم، ن.
(٤) الغذاء: العذاب، ن. وما أثبتناه من: تفسير مجمع البيان، للطبرسي: ٨/ ٢٧٢، تفسير البحر المحيط ٤٠/ ٣.

والزَّقْمُ: قال الخليل: هو الفعل مِنْ أَكْلِ الزقوم، والازدقام: الابتلاع، تَزَقَّمَ اللبن: أفرط في شربه. وزعم قطرب أن الزقوم شجرة مُرَّة تكون بتهامة، قال أبو مسلم: وظاهر التلاوة يدل على أن العرب كانت تعرفه، فلذلك فسرها بعد ذلك.

والطلع: طلع النخلة، وهو حملها وثمرها، سمي بذلك لطلوعه.

والشَوْبُ: خلط الشيء بما ليس منه، وهو شر منه، شَابَهُ يَشُوبُهُ شَوْبًا.

والحميم: الحار المحرق المهلك، ومنه: الحميم: الصديق؛ لأنه يدنو من قلبه، كما أنه يدنو من الإحراق.

والإهراع: الإسراع في المشي، يُهْرَعُ ويُرْعَدُ[1] بمعنى.

۞ النزول

قيل: لما نزلت هذه الآية قالت صناديد قريش: كيف تكون في النار شجرة، والنار تحرق الشجرة؟! وقال ابن الزبعري لهم: إن محمدًا يخوفنا بالزقوم، والزقوم بلسان إفريقية الزبد والتمر، فأدخلهم أبو جهل بيته، وقال: يا جارية، زقمينا، فأتتهم بالزبد والتمر، فقال: تزقموا، فهذا مما يوعدكم محمد الحميم، فنزل: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾.

۞ المعنى

لما رَغَّبَ في الجنة بوصفها حذر من[2] النار بوصف ما فيها، فقال سبحانه: «**أَذَلِكَ خَيْرٌ [نُزُلاً]**» يعني: هذا الذي ذكرناه من نعيم الجنة وقِراها وما أعد لأهلها خير «**أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ**» في النار، وقيل: سبب هذا المؤدي إليه خَيْرٌ أم سبب ذلك؛ لأن الزقوم لا خير فيه، وقيل: ذكره على وجه التأكيد لجلالة الثواب وشدة العقاب، والزقوم ثمرة شجرة منكرة الطعم، من قولهم: تزقمت الطعام إذا تناوله على كره ومشقة؛ لما يختص به من المرارة والرائحة الكريهة «**إِنَّا جَعَلْنَاهَا**» أي: تلك الشجرة

---

(١) ويرعد: وهرع، ن.

(٢) من: عن، ن.

«فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ» قيل: امتحانًا وشدة [تنزل بهم]، قالوا: كيف تنبت الشجرة في النار؟ عن قتادة. وقيل: شدة عذاب لهم، عن أبي علي، وأبي مسلم. والفتنة: العقاب.

ثم فسّر الشجرة، فقال: «إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ» أي: قعرها «طَلْعُهَا» أي: ثمرها «كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ» قال الحسن: أصلها في قعر الجحيم، وأغصانها في الدركات.

ومتى قيل: كيف شبه برؤوس الشياطين، ولم يُرَ ذلك.

قلنا: فيه أقوال:

أولها: أن قبح منظرها منظور في النفس، يقال في الشيء المستقبح غاية القبح: كأنه شيطان، وكأنه رأس شيطان، عن ابن عباس، ومحمد بن كعب القرظي. والعرب قد تشبه بما لم يُرَ إذا تصوروا ذلك المعنى في النفس، قال امرؤ القيس:

أَيَقْتُلُنِي والمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي ومَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كأنيابِ أَغْوَالِ[1]

فشبه النصال بأنياب الأغوال، ولم تُرَ.

وثانيها: قيل: إنه شبهه برأس حية تسمى شيطانًا عند العرب، كريهة المنظر، قال الراجز:

كَمِثْلِ شَيْطَانِ الحَمَاطِ أَعْرَفُ[2]

أي: له عرف.

وثالثها: أنه شبه نبت يعرف برؤوس الشياطين، وقيل: هي شجرة قبيحة خشنة مرة منتنة تشبهها العرب برؤوس الشياطين، عن قطرب.

ورابعها: قيل: ذكّر الله تعالى بَتَشُّوهِ الشياطين في النار، حتى لو رآهم أحد

---

(١) البيت قائله: امرئ القيس في قصيدة مطلعها: ألا عم صباحا أيها الطلل البالي، انظر اللسان (شطن)، ديوان امرئ القيس، دار صادر، بيروت.

(٢) تكملة البيت:

عنجرد تحلفُ حين أحلف كمثل الشيطان الحماط أعرف

الصحاح (عجرد)، اللسان (حمط).

لاستوحش منهم؛ فلذلك شبهها برؤوسهم، والأول أوجه وأحسن، وهو قول أبي مسلم وأبي علي.

ومتى قيل: كيف تنبت الشجرة في النار؟

قلنا: قيل: إنها شجرة في النار. وقيل: خالق النار يمنع النار من الإحراق كما يمنعها من الخَزَنَةِ. وقيل: في النار أشجار وثمار وبيوت ومأكول ومشروب وملبوس؛ لكن جميعها عقوبة لأهلها.

«**فَإِنَّهُمْ**» أي: أهل النار «**لَآكِلُونَ مِنْهَا**» من الشجرة «**فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ**» أي: يملؤون بطونهم حتى لا تحتمل زيادة.

ومتى قيل: كيف يأكلون مع مضرتها؟

قلنا: بهم من الجوع المفرط ما يزيد ضرره على ضرر هذه الشجرة، فيستريحون إلى أكله، فإذا أكلوا عطشوا العطش الشديد، فيشربون الحميم المشوب بكل مكروه، فيصير كلاهما عقوبة لهم، وقيل: بل يكلفون أكله عقوبة.

«**ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا**» خلطًا ومزاجًا، يعني: مع حرارته شيب بما يشتد [به] كرهه، عن ابن عباس. وقيل: شرابًا، عن مقاتل. «**مِنْ حَمِيمٍ**» أي: ماء حار محرق «**ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ**» قيل: يكونون بمعزل من النار عند شرب الزقوم، فيعذبون به ثم يصيرون إلى النار، وقيل: (ثم) يعطف اللفظ لا المعنى، وقيل: (ثم) بمعنى قبل؛ أي: وقبل ذلك مرجعهم، قال الشاعر:

وَلَقَدْ سَادَ ثُمَّ سَادَ أَبُوه ... ثم قَدْ سَادَ قبل ذلك جَدُّهُ[1]

وقيل: (ثم) بمعنى الواو. «**إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ**» أي: وجدوا آباءهم ضالين عن الحق «**فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ**» أي: آثار آبائهم إلى النار، عن قتادة، والسدي،

(١) البيت قائله: أبو نواس الحسن بن هانئ وبرواية أخرى:
قل لمن ساد ثم ساد أبوه قبله ... ثم قبل ذلك جده
انظر: ديوان أبي نواس، تحقيق: ايفالد فاغنر وعزيفور شولر، النشرات الإسلامية، بيروت.

وابن زيد. وهو فعل ما لم يسم فاعله، كأنه قيل: بعضهم يسوق بعضًا، وقيل: قدروا آثارهم في الشرك وأسرعوا فيه تقليدًا، وقيل: يهرعون يستحثون مَنْ خلفهم، عن أبي عبيدة. وقيل: يزعجون إلى الإسراع.

۞ الأحكام

تدل الآية على فساد التقليد.

وتدل على شدة أنواع العقاب لأهل النار.

وتدل أنهم عند شرب هذه الأشياء وأكلها، يخرجون من النار حتى يعلموا مضارها؛ إذ لو كانوا في النار لشغلتهم مضار النار عن ذلك.

وتدل على أن في النار أشياء لا تحرقها.

قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ
ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا
عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾

۞ اللغة

الضلال: أصله الهلاك، ثم يسمى الضلال في الدين بذلك؛ لأنه ذهاب عن الحق إلى طريق الهلاك، فأما الإضلال فقد يكون بالأمر وبالدعاء وبالحكم، وقد يكون بالإهلاك.

والمنذر: المُعلم بمواضع الخوف، وبفتحها المخوَّف وهم الكفار.

والكرب: الحزن الثقيل على القلب، قال الشاعر:

عَسَى الْكَرْبُ الَّذِي أمْسَيْتُ فيه   يَكُونُ وَرَاءَهُ فَرَجٌ قَرِيبُ(١)

وأصل النجاة: هو الرفع من الهلكة، والنجوة: المكان المرتفع، والاستنجاء: رفع الحدث.

الإعراب

(لقد) لام القسم. ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ﴾ قيل: استثناء صحيح تقديره: فانظر كيف كان عاقبة المنذرين في الهلاك إلا عباد الله المخلصين. وقيل: الاستثناء من قوله: ﴿أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

﴿سَلَامٌ﴾ رفع لأنه ابتداء، وقيل: محله نصب؛ أي: تركنا سلامًا عليه، إلا أنه رفع بالابتداء.

النظم

يقال: كيف اتصل قصة نوح والأنبياء بما قبلها؟

قلنا: قيل: تسلية للنبي ﷺ في كفر قومه، وأن حالهم كحال من مضى من الأمم مع أنبيائهم.

وقيل: لطفًا وتحذيرًا لأمته عن سلوك مثل طريقتهم؛ فتنالهم من عقوباته مثل ما نالهم.

وقيل: لما وصفهم بالتقليد إلفًا ـ وهذه أعظم المحن في العوام ـ حث على اتباع الأدلة، ثم قص قصة الأنبياء.

وقيل: حثًا له على الصبر كما صبروا.

وقيل: تخويفًا للكفار من نقماته كما فعل بأولئك.

وقيل: بشارة بالفرج وإنزال النصر كعادته في الأنبياء.

---

(١) البيت قائله: هدبة بن الخشرم في قصيدة مطلعها:

طربت وأنت أحيانا طروب   وكيف وقد تعلاك المشيب

انظر المستظرف ٢/١٥٦.

۞ المعنى

«وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ» أي: قبل هؤلاء كفر أكثر الأمم الماضية تقليدًا وإلفًا لدين الآباء «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنذِرِينَ» أي: رسلاً تخوفهم عذاب الله «فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ» الكافرين «إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ» لما أطاعوا عصمهم الله تعالى «وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ» يعني: لما أيس من إيمان قومه دعا الله بالفرج، والدعاء والنداء بمعنى «فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ» يعني: أجبناه، ومعنى (نعم المجيب) أي: أسرع في الإجابة كما سأل وبالغ في تحصيل المراد، وقيل: معناه: أنعم بإجابته، أي: أحسن، عن أبي مسلم. «وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ» خلصناهم في السفينة، وهم المؤمنون «مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ» قيل: من أذى قومه؛ لأن قوله: «ونجيناه» يقتضي أمرًا متقدمًا على الغرق، ولأنه عطف عليه. «ثُمَّ أَغْرَقْنَا»، وقيل: هو الغرق، عن السدي. «وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ» يعني: بعد الغرق، روي عن النبي ﷺ في هذه الآية: «أن الذرية من سام وحام ويافث»[1]. وقيل: الناس من بعد نوح من ذريته، عن ابن عباس، وقتادة. وقيل: العرب والعجم والروم أولاد سام، والترك والخرز والصقالبة[2] ويأجوج أولاد يافث، والسودان[3] أولاد حام، عن سعيد بن المسيب. وقيل: لما خرج نوح من السفينة مات من كان معه من الرجال والنساء إلا ولده ونساءهم، عن ابن عباس. وقيل: الذين كانوا مع نوح سبعة نفر «وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ» أي: أبقينا له فيمن بعده من الأنبياء والمؤمنين والأمم ثناء جميلاً وذكرًا حسنًا، عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. ويكون قوله: «سَلاَمٌ عَلَى نُوحٍ» كلام الله تعالى على غير جهة الحكاية، وقيل: تركنا عليه هؤلاء «سَلاَمٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ»، عن الفراء. وقيل: المراد بالآخرين أمة محمد وهو الأولى؛ لأن الثناء والتسليم إنما يصح على لسان أهل الحق دون الباطل من اليهود والنصارى، وقيل: أراد أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى والمجوس

(١) الترمذي رقم ٣٢٣٠.

(٢) في ن: والصقلية. وما أثبتناه من تفسير البغوي ١/ ٢٠١، وتفسير أبي السعود ٥/ ٢٤٤، وتفسير الطبري ١٠/ ٤٩٧.

(٣) والسودان: والسوادين، ن؛ وما أثبتناه من تفسير الطبري ١٠/ ٤٩٧، وتفسير ابن كثير ٤/ ١٧.

كلهم يثنون عليه، وقيل: هو سلام من الله ابتداء على نوح «إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ» نكافئهم بإحسانهم «إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ» يعني: الكفار قومه.

الأحكام

تدل الآية على أنه تعالى ينجي المؤمنين، ويهلك الكافرين؛ جزاء أعمالهم.

وتدل أنه يجيب دعاء المؤمنين، وربما يعجل، وربما يكون في تأخيره مصلحة.

وتدل أن قولنا: مؤمن: اسم مدح.

وتدل على أن الضلال فعلهم، وكذلك الإحسان.

قوله تعالى:

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾

القراءة

قرأ حمزة: «يُزِفُّون» بضم الياء، الباقون بفتحها، وهما لغتان، قال ابن عرفة: من قرأ بالنصب فهو من: زَفَّ يَزِفُّ، ومن قرأ بالرفع فهو من: أَزَفَّ يُزِفُّ، وقال الفراء: يقال: زف وأزف بمعنى، وهو الإسراع. وقال مجاهد: الوَزِيفُ: النَّسَلان، وتفسير مجاهد على لغة من قال: يزفون، من وزّفَ يَزِف، قال الفراء: وسمعت وَزَف يَزِفُ، نحو: ضرب يضرب، وزَفِيفُ النعام: ابتداء مشيه، ومنه: زَفَفْتُ[1] العروس إلى

(١) زففت: زفيفة، ن.

زوجها، ومنه في حديث تزويج فاطمة: أن النبي ﷺ صنع طعامًا وقال لبلال: «أدخل الناس زَفَّة زَفَّة»[1] أي: فوجًا بعد فوج، سميت بذلك لزَفِيفِها في مشيها، أي: إسراعها.

۞ اللغة

الشيعة: الجماعة التابعة لرئيس لهم، وقد غلب على هذا الاسم شيعة أمير المؤمنين (عليه السلام) الذين كانوا معه على أعدائه، وبعده مع أولاده، وهم خُلَّصُ الزيدية يميلون معهم ويقاتلون بين أيديهم؛ لأن الناس ثلاث فرق: نواصب ليسوا من الشيعة، وروافض ليسوا من الشيعة، لم يبق إلا هؤلاء، ومن نظر في الأخبار علم صحة ما قلنا.

والسليم: البريء من كل عيب.

والإفك: قلب الشيء عن وجهه، وكل كذب إفك.

والرَّوْغُ: الميل عن جهة إلى جهة، راغ روغًا ورَوَغَانًا.

واليمين: الجارحة المعروفة، وهو الأصل، ثم يستعمل في القوة، ويسمى القسم يمينًا؛ لأنهم كانوا يتقوون بها، وقيل: كانوا يضربون الأيمان بعضها على بعض.

والجحيم: النار يجمع بعضها على بعض.

۞ الإعراب

«**نَظْرَةً**» نصب على المصدر.

«**إفكًا**» نصب على المصدر، عن أبي مسلم.

«**آلِهَةً**» نصب لأنه مفعول، عن أبي مسلم.

و(ما) في قوله: «**وَمَا تَعْمَلُونَ**» و«**مَا تَنْحِتُونَ**» بمعنى (الذي)، ومحله نصب، عن أبي مسلم.

---

(١) المعجم الكبير رقم ٣٦٢.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ قصة إبراهيم، فقال سبحانه: «وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ» أي: على منهاج نوح وسنته، عن مجاهد. واختلفوا في هذه الكناية، قيل: ترجع إلى نوح، أي: مِنْ مَفَاخِرِ نوح أن جعل إبراهيم مع جلالته من شيعته وعلى طريقته، وقيل: وإن من شيعة محمد لإبراهيم؛ لأنه كان على دينه، عن الفراء. وليس بصحيح؛ لأنه عدول عن الظاهر ونسق الكلام كما يتقدم، وأكثر المفسرين على القول الأول «إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» أي: بريء من المعاصي والغل والغش، عاش كذلك، وقيل: بقلب سليم من كل مَا سوى الله تعالى لم يتعلق بشيء غيره «إِذْ قَالَ لأَبِيهِ» آزر «وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ» وأراد به التوبيخ دون الاستفهام لعلمه أنهم يعبدون الأصنام «أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ» أي: تريدون عبادة أصنام وتزعمون أنها آلهة إفكًا وكذبًا، والإرادة تتعلق بمحذوف وهو اتخاذهم وعبادتهم، وقيل: الإفك: الأصنام؛ أي: أتتخذون إفكًا آلهة وهي الأصنام، عن أبي علي، قال: وسمى الأصنام إفكًا؛ لأنهم يأفكون لها بأنها آلهة «فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ» قيل: أي شيء ظنكم به؟ هذا هو سوء ظن أن جعلتم معه آلهة، وقيل: ما ظنكم أن يصنع بكم جزاء ما فعلتموه؟ وقيل: ما ظنكم به أن يصنع به إذا اتخذتم حجرًا معبودًا إلهًا؟ وقيل: إيش تظنون به أنه على صفة؟ وقيل: كانوا يتوقعون الثواب على عبادة الأصنام، فرد عليهم؛ أي: كيف تظنون ذلك وأنتم تعبدون حجرًا؟ وقيل: كيف تظنون برب تأكلون رزقه وتعبدون غيره «فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ» قيل: نظر إلى الكواكب، وهو حقيقة الكلام وظاهره. وقيل: في علم النجوم وحسابه، وليس بالوجه؛ لعدوله عن الظاهر، وأنه لم يُرْوَ أنه كان منجمًا، والمنجم يظن فيما يقول، والنبي يقطع «فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ» قيل: هو نظره ابتداء في النجوم لما جن عليه الليل رأى كوكبا، فلما أفل ورأى صفة الحدوث علم أنه ليس بإله، «فَقَالَ: إِنِّي سَقِيمٌ»؛ أي: لست على يقين من الأمر وشفاء من العلم، وكان ذلك ابتداء حال التكليف، فلما استدل وعلم الحق قال: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٨، ٧٩] ودعا إلى توحيد الله وعبادته، عن أبي مسلم. وقيل: إني سقيم بما أرى من أحوالكم القبيحة في عبادة غير الله تعالى،

وقيل: إني سقيم؛ لما علي من الموت، فكأنه عدّ من يموت سقيمًا، كما يعد الدنيا فانية، وقيل: قال إني سقيم؛ لعلة عرضت له، وكان نجم في وقت طلوع نجم، فلما رآه طالعًا قال: إني سقيم لما علم أنه نجم تلك الساعة، ولا يمكنه الخروج إلى عندهم، وذكر بلفظ الماضي لوجوب وقوعه، كأنه قيل: سأسقم لا محالة، وقيل: سأسقم كقوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ [الزمر: ٣٠]، عن الضحاك. والصحيح أنه كان به سقم على ما تقدم، وقيل: نظر في علم النجوم، فغلب على ظنه أنه سيسقم كما يقال: فلان ينظر في الفقه والنحو، وقيل: إني سقيم في الدين على زعمكم بمخالفتكم إياي في الدين. وقيل: إنه كذب في ذلك ليتخلف عنهم، ورووا أنه كَذَبَ ثلاث كذبات: هذه، وقال: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وقوله لسارة: أختي، وهذا باطل؛ لأن الكذب على الأنبياء لا يجوز؛ لأنه يرفع الثقة بقولهم.

ومتى قيل: لأي معنى قال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ؟

قلنا: روي عن ابن عباس وجماعة أنه كان لهم عيد، وكانوا يقربون لأصنامهم قبل الخروج وإذا رجعوا أكلوه، فدعوه ليخرج معهم فقال: إني سقيم، لصحة علمهم بحاله في السقم؛ ولذلك لم يردوا عليه.

«**فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ**» يذهبون إلى عيدهم، وقيل: لما دعاهم إلى التوحيد تولوا عنه معرضين، عن أبي مسلم. «**فَرَاغَ**» أي: مال «**إِلَى آلِهَتِهِمْ**» على زعمهم، كقولك للمبطل: هات حجتك، قال مقاتل: بل كانت[1] اثنين وسبعين صنمًا من أجناس، وكبيرهم من ذهب «**فَقَالَ أَلاَ تَأْكُلُونَ**» قيل: قال هذا بحضرة سدنتهم لَمَّا تحقق التوحيد، فأعرضوا عنه، قال ذلك توبيخًا لهم وتنبيهًا على بطلان ما هم عليه. وقيل: قاله بحضرة جماعتهم. وقيل: لما خرجت العامة قال ذلك للأصنام؛ لأنهم كانوا يضعون الأطعمة عندهم، فلما لم يردوا جوابًا قال: «**مَا لَكُمْ لاَ تَنطِقُونَ**» أي: ما لكم لا تجيبون، نبّه أنها أقل الأشياء وأخسها؛ لأنها جماد لا تأكل ولا تنطق «**فَرَاغَ**» أي: مال «**عَلَيْهِمْ ضَرْبًا**» قيل: كسر الأصنام قبل الرجوع إلى منازلهم، فدخلوا فإذا هي مكسورة «**بِالْيَمِينِ**» قيل: بقوة، عن الفراء. أي: كسرهم بقوة وَحْدَهُ، قيل: باليد

(١) كانت: كان، ن.

اليمنى؛ لأنها أقوى على العمل، عن الربيع بن أنس. وقيل: بالقسم الذي سبق به وهو قوله: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾ [الأنبياء: ٥٧]، وإنما قال: «عَلَيْهِمْ»؛ لأنهم بعبادتهم أجروها مجرى المعبودين فأجرى عليها عبارتهم «فَأَقْبَلُوا» من عيدهم «إِلَيْهِ» إلى إبراهيم، وقيل: إلى بيت أصنامهم بعد الفراغ من عيدهم «يَزِفُّونَ» قيل: يسرعون، عن الحسن، وابن زيد، وأبي مسلم. وقيل: يمشون، عن السدي. وقيل: يزفون زفيف النعام، وهو حال بين المشي والعدو، عن مجاهد. وقيل: يمشون على مهل، عن أبي علي. وقيل: يسعون، عن الضحاك. والمعنى: أقبلوا منكرين لصنيعه. وقيل: حملوه إلى بيت أصنامهم وقالوا: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٢] فأجابهم على وجه الحجاج: «أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ» يعني: كيف ترضون لأنفسكم أن تنحتوا صنمًا من خشب ثم تعبدونها، وتتركون عبادة خالق الأشياء؟! «وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ» أيها القوم «وَمَا تَعْمَلُونَ» أي: تعملون فيها وهي الأصنام، ولم يُرِدْ أعمالهم؛ لأن المعبود هو الخشب دون عملهم، ولأنه احتج عليهم فلا يجوز أن يورد حجة لهم عليه، ولأنه أضاف إليهم، ويقال: فلان يعمل بابًا، والمراد يعمل فيه، وعلى هذا قوله: ﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ﴾ [طه: ٦٩]، وإنما تتلقف المصنوع فيه، فلما عجزوا عن الحجة عدلوا إلى الوعيد تلبيسًا على العوام فـ «قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ. فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا» أي: حيلة وتدبيرًا في إهلاكه وهو الإحراق، فنجاه الله منه ومنع النار عن الإحراق بأن فرقها في خلاف جهته، وجعل بينه وبين النار حائلاً «فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ» المقهورين بإهلاكهم ونجاته، وقيل: أشرفوا عليه فرأوه سالمًا فانكسروا، وعلموا أنه لا ينفذ عليه كيدهم، فعلموا أنهم مغلوبون؛ فذلك قوله: «الْأَسْفَلِينَ».

۞ الأحكام

تدل الآيات على صحة الحجاج في الدين.

وتدل أنه جعل سقمه علة في تأخره عنهم؛ ليتم مراده في كسر الأصنام.

وتدل على أن الفعل في إظهار المقصود قد يكون أبلغ من القول؛ لذلك كسرها ووضع الفأس على عنق كبيرها، ثم أخذ يوبخهم، ولا دليل للمجبرة في قوله: ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾؛ لأنا بيَّنَّا ما قيل فيه.

واستدل بعضهم بقوله: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾﴾ أنه كان يستدل بالنجوم على الحوادث، وقد بيَّنَّا ما قيل فيه.

قوله تعالى:

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾
فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ
ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن
يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟
ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾
كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾

القراءة

قرأ حمزة والكسائي: «تُرِي» بضم التاء وكسر الراء، أي: ما تريني من نصيبك من الصبر والتسليم، وقيل: معناه: ماذا تريك نفسك. الباقون بفتح التاء، ومنهم من يميل، ومنهم من لا يميل، بمعنى: ماذا تشير، والخلاف في شيء قد تقدم ذكره.

وقرأ حفص عن عاصم: «تَرَى» بفتح التاء، والباقون بكسرها.

قراءة العامة: ﴿أَسْلَمَا﴾، وعن ابن مسعود: «**سَلَّمَا**»، وعن ابن عباس: «**استسلما**».

اللغة

التَّلُّ: الدفع والصَّرْعُ، ومنه: تَلَّ يتِل بكسر التاء: سقط، وتَلَّ يَتُلُّ بضم التاء: إذا صب، والتلّ: الصب أيضًا. [و] في حديث أبي الدرداء: وتركوك لِمَتَلِّكَ(١) أي: لمصرعك، ومنه: التَّلُّ من التراب، والتليل: العنق.

---

(١) لمتلك: يمتلك، ن. وما أثبتناه من: تفسر القرطبي: ١٥/ ٩٣.

والبلاء: الاختبار فيما يوجب النقمة أو النعمة؛ ولذلك يقال للنعمة: بلاء، وللنقمة: بلاء؛ لأنها سميت باسم سببها المؤدي إليها، كما يقال لأسباب الموت: هو الموت.

والفداء: جعل الشيء مكان غيره بدفع الضرر عنه.

والذَّبْحُ بالفتح: مصدر ذبح ذبحًا، والذِّبْحُ بالكسر: المذبوح.

۞ الإعراب

«هَبْ» جزم؛ لأنه دعاء، والسؤال محذوف تقديره: وهب لي صالحًا من الصالحين.

و«نَبِيًّا» نصب على الحال، عن أبي مسلم، تقديره: بشرناه بإسحاق وحاله في النبوة.

قيل: الواو في قوله: «وَتَلَّهُ» صلة، وقيل: للجمع والعطف.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تمام قصة إبراهيم عليه السلام فقال سبحانه: «وَقَالَ» يعني إبراهيم «إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي» قيل: إلى المكان الذي أمرني بالذهاب إليه، وقيل: إلى رضائه، وقيل: إلى الأرض المقدسة، وقيل: إلى الشام، وقيل: «إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِي» أي: بعملي ونيتي، عن قتادة. وقيل: لما علم أنه يلقى في النار قال: وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض. «سَيَهْدِينِ» ينجيني، فصدق الله ظنه، وقيل: سيهديني بصلاح ديني ودنياي، وقيل: أراد ببيان الطريق له حيث أراده وتوجه إليه، وقيل: كان أول من هاجر إبراهيم. «رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ» أي: أعطني ولدًا صالحًا من جملة الصالحين «فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ» أي: يكون حليمًا إذا بلغ «فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ» قيل: السعي مع أبيه إلى الجبل، عن ابن عباس. وقيل: السعي في طاعة الله والعبادة، عن ابن زيد. قال الحسن: العمل الذي تقوم به الحجة، وهو قول مقاتل. وقيل: أن يسعى معه إلى منافعه، عن مجاهد. وقيل: الحركة، عن الضحاك. وقيل: بلغ مبلغ الرجال وقوي [على] السعي معه في منافعه، وذلك أحوج ما يكون الوالد إلى ولده، وأقوى ما يكون

الولد، عن أبي علي. «**قَالَ**» إبراهيم «**يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ**» اختلفوا في الذبيح، قيل: إسحاق، عن عمر، وعلي، وابن مسعود، والعباس بن عبد المطلب، وكعب الأحبار، وقتادة، وسعيد بن جبير، ومسروق، وعكرمة، وعطاء، ومقاتل، والزهري، والسدي، وأبي علي. وقيل: إسماعيل، عن ابن عباس، وابن عمر، ومحمد بن كعب القرظي، وسعيد بن المسيب، والحسن، والشعبي، ومجاهد، والربيع بن أنس، والكلبي. قال القاضي: وهو الصحيح؛ لأنه قال بعد قصة الذبح: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ﴾، وقال: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، قال أبو علي: أما البشارة بإسحاق فهو بشارة بنبوته، وأما يعقوب فلم يبينْ أن يعقوب من ولد إسحاق، ولأن حال الذبح بعد مولد إسحاق يعقوب.

قلنا: ظاهر البشارة أنه بإسحاق وبنبوته فلا معنى للتخصيص، وإذا قال: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] فالظاهر أن يعقوب يكون من نسله وليكون به تعلق.

فأما قصة الذبح: فلا شبهة أنه كان حال بلوغ السعي، وقد ظهر أن النبي ﷺ قال: «أنا ابن الذبيحين».

قالوا: أجمع أهل الكتابين أنه إسحاق، وحكوا ذلك عن التوراة.

قلنا: إجماعهم ليس بحجة، ونقلتهم غير مقبولة.

وعن أبي بن كعب قال: كنت عند عمر بن عبد العزيز فسألني عن الذبيح، فقلت: إسماعيل، واستدللت بقوله: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا﴾ الآية، فبعث إلى رجل كان يهوديًّا فأسلم وحسن إسلامه، فسأله عن ذلك، فقال: الذبيح إسماعيل، وإن اليهود تعلم ذلك، ولكنهم حسدوكم معاشر العرب. قال الأصمعي: سألت أبا عمرو عن ذلك، فقال: يا أصمعي أين ذهب عقلك، متى كان إسحاق بمكة؟! إنما كان بمكة إسماعيل، وهو بنى البيت مع أبيه، وبه المنحر.

واختلفوا في موضع الذبح، قيل: هو إسحاق والمذبح بجبال الشام، عن السدي. وقيل: ببيت المقدس، عن عطاء، ومقاتل. وقيل: هو إسماعيل، وكان الذبح بمنى، عن ابن عباس، ومحمد بن كعب.

واختلفوا بأي شيء أمره، وهل ذبحه أم لا؟ وكيف جاز النسخ قبل وقت الفعل؟

قيل: أمر بمقدمات الذبح ففعل، وقيل: أمر بشرط التخلية، فكان كلما اعتمد الشفرة انقلبت(١). وقيل: جعل على حلقه صفحة من نحاس، وقيل: بل ذبح ووصل الله تعالى ما فري [الأوداج] بلا فصل.

ومتى قيل: على التأويل الأول لم قال: «**أذبحك**»؟

قلنا: لم يقل أمرت بالذبح، ولكن رأى في المنام كأنه أضجعه، والسكين تمر في أوداجه؛ ولذلك قال: ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ ولم يقل: ما أُمِرْتَ، قال الحسن: ظن أنه سيؤمر بالذبح، ولم يقل قطعًا.

ومتى قيل: بأي أمارة ظن الذبح؟

قلنا: بالعادة، فإن من أضجع شاة وأخذ الشفرة ووضعها على حلقها ولَبَّتِها يمرها، يعلم بالعادة أنه يريد ذبحها، فلما رأى ذلك ظن أنه سيؤمر بذبحه.

ومتى قيل: لم لا يجوز أن يكون مأمورًا بالذبح لو كان؟

قلنا: لو كان كذلك لما نهي عنه؛ لأنه يكون بَدَاءً، ولما قال: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾، ولأن الذبح لو كان مرادًا لما كرهه من بعد.

ومتى قيل: لم لا يجوز حمله على الوجه الثاني، وهو الأمر بشرط التمكين؟

قلنا: ذاك إنما يصح ممن لا يعلم العواقب.

ومتى قيل: لم لا يجوز أن يقال: إنه ذبحه؟

قلنا: لأن في الآية أنه لما أضجعه ناداه، وليس فيها الذبح، وكان الحسن يقول: ظن أنه يؤمر بالذبح فلم يؤمر. وقال أبو مسلم: الرؤيا من الأنبياء ـ مع أن جميعها صحيحة ـ على ضربين: منها ما تأتي كما رأى، كقوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ [الفتح: ٢٧] الآية، ومنها أن تكون عبارته على خلاف ظاهر ما رأى في النوم كرؤيا يوسف الشمس والقمر والأحد عشر كوكبًا له سجدًا، فكان تأويله سجود أهل مصر له لما وافاه أبواه، وكان رؤيا إبراهيم من هذا القبيل؛ لكنه لم يأمن أن يكون ما رآه مما يكون على الحقيقة [و] يلزمه فرض العمل به ولا يسعه غير ذلك، فدعا ابنه إليه ﴿فَلَمَّآ

(١) انقلبت: انقلب، ن.

أَسْلَمَا﴾ علمه الله تعالى أنه بما فعل صَدَّقَ الرؤيا، وفدى ابنه من الذبح الذي رآه في النوم بذبح عظيم ﴿أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ إنما قال: «أرى» ولم يقل: رأيت؛ لأن الرؤية تكررت، فكأنه قيل: كثيرًا ما أرى، وروي أنه رأى ذلك ثلاث ليالٍ متتابعًا، عن مقاتل. وقيل: إنه علم بالوحي وحرت ما أرى في المنام، وقيل: كان رؤيا الأنبياء حقًا، عن أبي مسلم. وقيل: كان مَنْ نَذَرَ ذبْحَ ولد ما رأى في المنام أن ينفذ نذره، عن ابن عباس. «**فَانظُرْ**» يا بني «**مَاذَا تَرَى**» أي: تشير، وإنما ذكر ذلك؛ لأنه أحب أن يعلم عزيمته في أداء أمره تعالى «**قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ**» من ذلك «**سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ. فَلَمَّا أَسْلَمَا**» انقادا وخضعا لأمر الله، سلم الأب نفس ابنه والابن نفسه، عن قتادة. «**وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ**» قيل: صرعه لجنبه، وقيل: أضجعه على إحدى خديه، وقيل: وضع جبينه على الأرض لئلا يرى وجهه فتلحقه[1] رقة الآباء، عن ابن عباس. وقيل: معنى «**للجبين**» أي: على الجبين وهو ما عن يمين الجبهة وشمالها، وللوجه جبينان والجبهة بينهما، وقيل: كان يومئذ ابن ثلاث عشرة، وقيل: الواو في قوله: «**وَتَلَّهُ**» زيادة للتفخيم، والمعنى: فلما أسلمه تله للجبين، وقيل: بل الواو في قوله: «**وَنَادَيْنَاهُ**» زيادة، وتقديره: فلما أسلما وتله للجبين ناديناه، وزيادة الواو شائع في اللغة «**وَنَادَيْنَاهُ**» يعني: نادينا إبراهيم «**قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا**» أي: فعلت ما أُمِرْتَ به، وقيل: ناداه على لسان ملك «**إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**» أي: عادته جارية بأن يقابل المحسن بالإحسان، فنجى ابنه وأزال غمه «**إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ**» الامتحان الشديد، وأراد: أن ذبح الولد تكليف شديد، وقيل: هذا نعمة عظيمة عليك «**وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ**» بشاة، وسماها عظيمة لعظم حرمته، ومعنى «**فَدَيْنَاهُ**» أبدلناه، وجعلنا الشاة فداه، وقيلَ: لأنه كان مقبولاً فلذلك كان عظيمًا، عن مجاهد. وقيل: لأنه رعى في الجنة أربعين خريفًا، عن سعيد بن جبير. وقيل: كان عظيمًا؛ لأنه كان من عند الله كونه ولم يكن من قبل. وقيل: لأنه فدى به عبدًا عظيمًا، وقيل: كان شاة ساقها إليه ملك. واختلفوا في الذِّبح، قيل: كان كبشًا من الغنم، عن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وسعيد بن جبير. وقيل: وَعْلٌ هبط عليه من ثَبِير، عن الحسن. وقيل: هو

(١) لئلا يرى وجهه فتلحقه: لئلا يرى من جهته تلحقه، ن. والصواب ما أثبتناه من تفسير مجمع البيان، للطبرسي: ٨/ ٢٨٤.

الكبش الذي تُقُبِّلَ من هابيل حين قربه، عن ابن عباس. «**وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ**» أي: على إبراهيم في الأمم بعده، وقيل: في أمة محمد «**سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ**» قيل: الثناء الحسن، وقيل: هو ابتداء سلام من الله عليه، وقيل: أراد أن الآخرين يسلمون عليه «**كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ. وَبَشَّرْنَاهُ**» أخبرناه بما يسر به «**بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ**» قيل: هو بشارة بالولد ونبوته، وقيل: بل بنبوته، عن ابن عباس، وأبي علي. «**وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ**» أي: أنعمنا عليه نعمًا بقيت آثار تلك [النعم] إلى آخر الأمم؛ لأن البركة هي ثبوت الخير. وقيل: تلك البركة قوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد: ٢٦]، ثم فصل حال ذريته فقال: «**وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا**» من أولادهما ونسلهما «**مُحْسِنٌ**» مطيع لله، ويحسن أعماله «**وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ**» بالمعاصي والكفر «**مُبِينٌ**» بيّن ظاهر.

القصة

أما من قال: إن الذبيح إسحاق، فذكر السدي أن إبراهيم لما فارق قومه إلى الشام هاربًا بدينه سأل الله أن يهب له ولدًا صالحًا، فنزلت الملائكة وبشرته بإسحاق على ما قص الله تعالى، فلما بشر هو قال: هو ابن له ذبيح، فلما ولد وبلغ قيل له: أوف بنذرك، فكان هو السبب في أمره بذبح ابنه، فقال لإسحاق: انطلق نقرب قربانًا، وأخذ سكينا وحبلاً وذهب في الجبال، ثم قال: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ﴾ الآية. قال السدي: فلما أخذ الكبش خلى عن الابن، وجعل يُقَبِّلُهُ، ويقول: وُهِبْتَ لي، ثم رجع إلى سارة وأخبرها الخبر، فجزعت وقالت: أردت ذبح ابني.

ومن قال: إن الذبيح إسماعيل، فذكر محمد بن يسار أن إبراهيم لما وضع هاجر بمكة ومعها إسماعيل كان يزورها على البراق، فيغدو من الشام ويقيل بمكة ويبيت بالشام، فلما بلغ إسماعيل معه السعي أُرِيَ في المنام أن يذبحه، فقال: يا بني خذ الحبل والمُدْيَة، وانطلق إلى هذا الشعب لنحتطب، فلما خلي به ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ﴾ الآية، فلما أضجعه نودي: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ وجاء جبريل بكبش فخلى ابنه، وكبر الابن، فأتى به المنحر من منى ونحره.

۞ الأحكام

تدل الآية أنه كان مأمورًا بالذبح أو مقدمات الذبح، وقد بَيَّنَّا ما قيل فيه، والأولى أنه أُمِرَ بمقدمات الذبح.

وتدل على إخلاص إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

وتدل أن في ذريتهما محسنا وظالما، وأن طاعة الأبناء وعصيانهم لا تؤثر في حال الآباء.

ولا حجة للمشبهة في قوله: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾؛ لأنا بَيَّنَّا معناه، وقد ثبت بالدليل أن المكان لا يجوز عليه.

ولا حجة لمن جوز نسخ الفعل قبل وقته وقبل التمكين منه؛ لأنا بَيَّنَّا أنه لم ينسخ، ولأن ذلك يكون بَدَاءً(١)، تعالى الله عن ذلك.

فأما من نذر نحر ولده: فعند أبي حنيفة ومحمد يلزمه شاة كما لزم إبراهيم، وعند الشافعي لا يلزمه شيء، وإذا نذر ذبح نفسه لزمه ذبح شاة استحبابًا، وقال أبو يوسف: لا يلزمه شيء عند أبي حنيفة، وأبي يوسف، وقال محمد: يلزمه شاة. وإن نذر ذبح ولد ولده فعند أبي حنيفة يلزمه شاة، وعن محمد روايتان، وعند مشايخنا أن مُوجِبَ نَذْر ذَبْح ولدِهِ شاةٌ، فلا يصح قولهم: إنه نذر معصية.

قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾
وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ
ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا
كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾

---

(١) والبَدَاءُ: استصابة شيء عُلم بعد أن لم يُعلم اللسان (بدا).

❁ اللغة

المن: أصله القطع، والمن: النعمة؛ لأنه يقطع كل أذية. و﴿أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت: ٨] أي: غير مقطوع. والمنية: الموت؛ لأنها تقطع تصرف الحي.

والنصر والمعونة من النظائر، غير أن كل نصر معونة وليس كل معونة نصرًا، لأن النصر يخص المعونة على الأعداء، والمعونة تعم كل موضع.

والمستبين: المستدعي إلى ما فيه البيان، وأصل البيان: الفصل بين الشيئين، وبان الشيء واستبان وأبان وتَبَيَّنَ وبَيَّنَ بمعنى.

❁ المعنى

ثم عطف بقصة موسى على ما تقدم، فقال سبحانه: «**وَلَقَدْ مَنَنَّا**» أي: أنعمنا «**عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ**» النعم، منها: النبوة، ومنها: النجاة من آل فرعون، ومنها: أورثهم أرضهم وديارهم، ومنها: سائر النعم في دينه ودنياه مما لا يمكن عدّه، من جلب نفع أو سبب فيه أو دفع مضرة أو سبب فيه «**وَنَجَّيْنَاهُمَا**» أخلصناهما «**وَقَوْمَهُمَا**» يعني: بني إسرائيل ومن آمن به «**مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ**» هو استعباد فرعون إياهم «**وَنَصَرْنَاهُمْ**» على أعدائهم «**فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ**» على فرعون وقومه.

ومتى قيل: نصرته لهم كانت في كل وقت؟

قلنا: نعم؛ لأنه كان راضيًا عنهم، وجعل العاقبة لهم، ولكن الظهور على الأعداء قد يختص ببعض الأوقات مصلحة.

«**وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ**» البين الواضح وهو التوراة «**وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**» هو دين الإسلام، عن قتادة. «**وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ**» قيل: الآخرة، وقيل: أمة محمد ﷺ «**سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ**» قيل: ترك هو سلام عليهما، وقيل: إنه ابتداء سلام من الله عليهما، ومعنى سلام عليهما: سلامةٌ لهما في الدارين، وقيل: هو الثناء الحسن «**إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**» أي: من عادته تعالى أن يجازي المحسن بالإحسان «**إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ**».

۞ الأحكام

تدل الآية على عظم نعمه على موسى وهارون.

وتدل أن جزاء المحسن لا يكون إلا الإحسان[١]؛ فيبطل قول المجبرة: إنه ليس بجزاء ويجوز أن يعاقب الأنبياء والمؤمنين ويثيب الكفار والفراعنة.

وتدل على أن اسم الإيمان اسم مدح، وأنه نقل إلى ذلك شرعًا.

قوله تعالى:

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢)﴾

۞ القراءة

قرأ ابن عامر: «**وإن الياس**» بغير همز على وصل الألف، وقرأ الباقون بالهمز بقطع الألف، قال أبو بكر بن مهران: من ذكر عنه وصل الألف فقد أخطأ، وكان أهل الشام ينكرونه، ولا يعرفونه.

وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم: ﴿اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ بالنصب على البدل من (أَحْسَنَ)، وقرأ الباقون: «**اللهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ**» بالرفع على الاستئناف والابتداء، والأول اختيار أبي حاتم وأبي عبيد.

وقرأ نافع وابن عامر ويعقوب: «**آلِ ياسين**» بالمد وفتح الألف وكسر اللام مقطوعة من ياسين، وقرأ الباقون بكسر الألف وجزم اللام وصله بياسين، فمن قرأ بالمد قيل: أراد آل محمد، وقيل: أراد آل ياسين وهو أليق بسياق الكلام، ومن قرأ

---

(١) الإحسان: للإحسان، ن.

(إلياسين) فقيل: إنها لغة في إلياس كإسماعيل نحو: ميكايل وميكائين، وقال الفراء: هو جمع أراد إلياس وأتباعه من المؤمنين كقولهم: المملئون والأسعدون، قال الشاعر:

أَنَـا ابْـنُ سَـعْـدٍ أَكْـرَمَ الـسَّـعْـدِيـنـا[1]

قال الكسائي: والعرب قد تثنّي الواحد وتجمع، قال الشاعر:

قَـدْنِـي مِـنْ نَـصْـرِ الـخُـبَـيْـبَـيْـنِ قَـدِي[2]

وإنما هو أبو خبيب عبد الله بن الزبير، والقراء كلهم على ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ﴾، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ﴾، وعن ابن مسعود وعكرمة: **(وإن إدريس)** و**(سلام على إلياس)**، فقال: إلياس هو إدريس، ولعله فسره به.

اللغة

الأليس: الشجاع، وهو بئر أليس، وقوم ليس، قال الفراء: والأَلْيَسُ: البعير يحمل كُلَّ ما يحمل عليه، ومنه اشتقاق الرجل الأليس، فأما إلياس فهو اسم عجمي معرب؛ ولذلك لا ينصرف، ولو كان من الأليس لانصرف.

والبعل: الزوج والرب والصاحب، وأصله: الرب، وقيل: هو الرب بلغة اليمن، ويقال: هو بعل هذه الدار، وسمي الزوج بعلاً؛ لأنه رب البضع، أي: مالكها، وسمي ذلك الصنم بعلاً؛ لاعتقادهم أنه مالك العبادة.

المعنى

ثم بَيَّنَ قصة إلياس، فقال سبحانه: «**وَإِنَّ إِلْيَاسَ**» قيل: هو إدريس، عن ابن مسعود، وعكرمة، وقتادة. وقيل: هو من أنبياء بني إسرائيل من ولد هارون بن

---

(١) البيت قائله رؤبة بن العجاج، انظر: ديوان رؤبة بن العجاج (مجموع أشعار العرب) تحقيق: وليم بن الورد البروسي، ص ١٩٣، دار ابن قتيبة، الكويت.

(٢) البيت قائله حميد بن ثور وتكملته:

قـدنـي مـن نـصـر الـخـبيبـيـن قـدي ليـس الإمـام بـالـشـحـيـح الـمـلـحـد

الصحاح (لحد)، اللسان (لحد).

عمران ابن عم إليسع، عن ابن عباس، وجماعة من المفسرين، وهو قول محمد بن إسحاق بن يسار وغيره قالوا: بعث بعد حزقيل لما عظمت الأحداث في بني إسرائيل، وكان يوشع لما فتح أرض الشام بوأها بني إسرائيل وقسمها بينهم، فأحل سبطًا منهم ببعلبك وهو سبط إلياس، وفيهم بعث إلياس نبيًا إليهم فأجابه الملك، ثم إن امرأة الملك حملته[1] على أن ارتد وخالف إلياس وطلبه ليقتله، فخرج إلى الجبال والبراري [وعاش] فيها مدة، وقال لقومه[2]: «**أَلاَ تَتَّقُونَ**» أي: ألا تتقون عذاب الله «**أَتَدْعُونَ بَعْلاً**» أي: أتدعون بالإلهية صنمًا «**وَتَذَرُونَ**» عبادة «**أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ**»؟! وهذا إنكار عليهم، يعني: تَدْعُونَ إلهًا من لا يقدر على خلق شيء، وتتركون عبادة من خلق ورزق وصور وقدر. وقيل: بعل كان صنمًا لهم يعبدونها، ولذلك سُمِّيت مدينتهم بعلبك. وقيل: البعل: الرب في لغة اليمن، عن مجاهد، وعكرمة، وقتادة، والسدي. وقال الفراء: هو لغة هذيل، وتقديره: أتدعون ربًا غير الله، وقيل: البعل هاهنا صنم، عن الحسن، والضحاك، وابن زيد. وقيل: البعل: تيس كانوا يعبدونه، حكاه أبو علي. «**وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ**» أي: تتركون عبادة أحسن الخالقين فلا تعبدونه «**اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ، فَكَذَّبُوهُ**» فيما ادَّعى ودعاهم إليه «**فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ**» في العذاب «**إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ**» من قومه «**وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ**» الأمم الأخيرة «**سَلاَمٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ**» بينا أنه الثناء أو قول السلام أو ابتداء سلام من الله، فآل ياسين قيل: آل محمد، وقيل: ياسين: اسم القرآن، كأنه قيل: سلام على من آمن بكتاب الله الذي هو ياسين، وقيل: هو اسم للسورة، وقيل: آل **ياسين** وهو الوجه، وقيل: آل الأنبياء «**إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**» بالإحسان «**إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ**».

۞ الأحكام

تدل الآية على صحة الحجاج في الدين، وأنه حاجهم بأنه تعالى خالقهم وخالق الأولين فوجب أن يعبدوه دون غيره.

وتدل على أن الثواب والعقاب جزاء.

(١) في ن: حصلته. وما أثبتناه من هامشها ظ.

(٢) لقومه: لقوله، ن.

وتدل على أن اتخاذ البعل إلهًا هو فعلهم؛ لذلك وبخهم.

وتدل أن الإيمان اسم مدح في الشرع.

قوله تعالى:

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْأَخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

اللغة

الغابر: الباقي، ومنه الغبار؛ لأنه يبقى بعد ذهاب التراب قليلاً.

والتدمير: الإهلاك، دَمَّرَ يُدَمِّرُ تدميرًا.

المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى قصة لوط فقال سبحانه: «**وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ**» أي: رسولاً كسائر الرسل «**إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ**» أي: من آمن به من أهله خلصناهم من عذاب الاستئصال «**إِلاَّ عَجُوزًا**» امرأته «**فِي الْغَابِرِينَ**» في الباقين في العذاب «**ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ**» أي: أهلكناهم «**وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ**» أي: على آثارهم ومنازلهم «**مُصْبِحِينَ**» أي: وقت الصباح «**وَبِاللَّيْلِ**» أيضًا تمرون على ديارهم، وقيل: كانت منازلهم بالأحقاف على طريق الشام يمرون عليها «**أَفَلاَ تَعْقِلُونَ**» قيل: تستعملون عقولكم، وقيل: أفلا تعلمون.

الأحكام

تدل الآيات على جواز رسولين في وقت واحد.

وتدل أنه لم يخلق فيهم الكفر، ولا أراده ولا أحبه، وأنه من أفعالهم؛ لذلك وبخهم.

قوله تعالى:

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ
ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى
بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن
يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾

۞ اللغة

الآبق والهارب والفارّ نظائر، إلا أن الآبق غلب عليه العبد، والإباق: الفرار إلى حيث لا يهتدي إليه الطالب، أَبَقَ العبد من مولاه يَأْبِقُ إباقًا فهو آبق.

والمشحون: المملوء.

والمساهمة: إلقاء السهام على وجه القرعة.

والدَّحْضُ: الزَّلَقُ، دَحَضَ فهو داحض [إذا سقط، ومنه][1]: «**حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ**» أي: ساقطة.

والالتقام: الابتلاع لِلُّقْمَةِ، التقمه التقامًا.

والمُلِيمُ: فاعل ما يلام عليه.

والعراء ممدود: ما اتسع من الأرض، قال أبو عبيد: سمي بذلك؛ لأنه لا شجر فيه ولا شيء يغطيه، ومنه: العريان، ومنه:

وَنَبَذْتُ بِالْبَلَدِ العَرَاءِ ثِيَابِي[2]

واليقطين: كل شجرة ليس لها ساق تبقى في الشتاء والصيف، وقيل: كل شجرة

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة من هامش ن.

(٢) البيت قائله: حبيب بن عبد الله المعروف بالأعلم الهذلي وتكملته:

ورفعت رجلا لا أخاف عثارها ... ونبذت بالبلد العراء ثيابي

وفي رواية: ونبذت بالمتن العراء ثيابي، انظر: اللسان (عراء).

لا تقوم على ساق كالبطيخ، والقثاء، والقرع، ونحوها، وهو «يَفْعِيل» من قطن بالمكان: إذا أقام به إقامة زائل، لا إقامة راسخ كالنخل ونحوه.

۞ الإعراب

﴿يُونُسَ﴾ اسم أعجمي معرفة لا ينصرف.

﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ محله نصب على الحال.

و(أو) في قوله: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ فيه أربعة أقوال:

أولها: الإبهام، يعني: أرسلناه إلى إحدى الفرقتين.

الثاني: على شك المخاطبين.

الثالث: معناه: (بل).

الرابع: بمعنى الواو.

۞ المعنى

ثم عطف على ما [تقدم] قصة يونس، فقال سبحانه: «**وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ أَبَقَ**» يعني: فرّ عن قومه، وكانوا أضجروه وقد وعدهم بالعذاب فظن نزوله بهم، فخرج من غير إذن، وكان يجب أن يستمر على الدعوة إلى أن يأمره الله تعالى بالخروج.

ومتى قيل: هل يجوز العمل في هذا بالظن؟

قلنا: لا، ولكن خرج[(١)] من أن يكون معتمدًا لمعصية، ولا يجوز أن يقال: أبق من أمر الله؛ لأن ذلك لا يتصور، ولأنه يكون معصية لا تجوز على الأنبياء. وقيل: أمر بلزوم ذلك الموضع فلما خرج كان كالفار عن مولاه، وهذا لا يجوز، وإنما فر من قومه لما آذوه وكذبوه وظن نزول العذاب بهم، ولم يؤمر باللبث ولا بالخروج، فخرج على أنه مباح.

(١) خرج: يخرج، ن.

«إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ» السفينة المملوءة بالناس وغيرهم «فَسَاهَمَ» فقارع، عن ابن عباس، والسدي. يعني: ألقوا بالسهام على سبيل القرع، واختلفوا في سببه، قيل: أشرفوا على الغرق، فرأوا إن طرح واحد لم يغرق الباقون. وقيل: رأوا حوتًا تعرض لهم فقالوا: فينا مذنب مطلوب، فتقارعوا. وقيل: احتبست السفينة، فقال الملاحون: هاهنا عبد آبق؛ لأن عادة السفينة إذا كان فيها عبد آبق لا تجري، فاقترعوا، فوقعت القرعة على يونس ثلاث مرات، قيل: علموا أنه المطلوب، فألقى نفسه في البحر، وقيل: لما وقعت القرعة عليه أكرهوه وألقوه في البحر «فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ» قيل: المفزوعين، وقيل: من الملقين في البحر، وقيل: من المسهومين، عن مجاهد. «فَالْتَقَمَهُ» ابتلعه «الْحُوتُ»، فأوحى الله إليه: «إني لم أجعل لك عبدي رزقًا، ولكني جعلت بطنك له مسجدًا، فلا تكسرن له عظما[1]، ولا تخدشن له لحما[2]، ولا تورد عليه طعامًا ولا شرابًا». «وَهُوَ مُلِيمٌ» قيل: مذنب، عن مجاهد، وابن زيد. وقيل: كان يلوم نفسه على خروجه من بين قومه من غير أمر ربه. وقيل: مستحق للوم، وهذا لوم عتب، لا لوم عقوبة. ومن قال: إنه كان مذنبًا، يقول: كان صغيرة. واختلفوا في مدة لبثه في بطن الحوت، فقيل: ثلاثة أيام، عن مقاتل ابن حيان. وقيل: سبعة أيام، عن عطاء. وقيل: عشرون يومًا، عن الضحاك. وقيل: أربعون يومًا، عن السدي، ومقاتل بن سليمان، والكلبي. «فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ» قيل: كان يسبح الله، ويعبده في الرخاء، فأنجاه الله من البلاء، عن قتادة. وقيل: تسبيحه قوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، عن سعيد بن جبير. وقيل: ما نجاه الله إلا بالتوبة والندم، عن الحسن. واختلفوا في قوله: «مِنَ الْمُسَبِّحِينَ» قيل: المنزهين لله الذاكرين له، وقيل: من المصلين، عن ابن عباس. وقيل: من المطيعين، عن مقاتل. وقيل: من العابدين، عن وهب. وعن الحسن: ما كان له صلاة في بطن الحوت، ولكن قدم عملاً صالحًا قبل الذنب. «لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ» يعني: لصار بطنه قبرًا له إلى يوم القيامة «فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ» قيل: المكان الخالي لا نبت فيه ولا شجر،

(١) عظما: شعرا، ن.

(٢) لحما: عظما، ن.

وقيل: وجه الأرض، عن الكلبي، ومقاتل. وقيل: بأرض واسعة، عن الفراء. وقيل: بالساحل، عن السدي. «وَهُوَ سَقِيمٌ» مريض ضعيف، وعن ابن مسعود أنه خرج كهيئة الفرخ ليس عليه ريش، فاستظل بالشجرة من الشمس «وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً» تظله، فكأنه علاه شجرة «مِن يَقْطِينٍ» قيل: القرع، عن ابن مسعود. وقيل: هو كل نبت ينبسط على وجه الأرض ولا ساق له، عن ابن عباس، والحسن، ومقاتل. وقيل: بل كانت شجرة يستظل بها، وكانت وعلة تختلف إليه، فيشرب من لبنها، عن مقاتل. وقيل: سماها شجرة لساقها ويقطينًا لعظم ورقها «وَأَرْسَلْنَاهُ» قيل: كان رسولاً قبل أن صار إلى بطن الحوت، وتقديره: وقد أرسلناه «إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ» قيل: أرسل إلى القوم الأولين وكان وعدهم بالعذاب وخرج، فلما رأوا الآيات طلبوه فلم يجدوه، فدعوا الله وتضرعوا، فكشف عنهم وعاد هو إليهم، وقيل: بل بعث إلى قوم آخرين غير الأولين، وقيل: أرسل إلى أهل نينوى من أرض الموصل، عن قتادة. وقيل: لم يكن رسولاً قبل أن صار إلى بطن الحوت؛ ولكن كان مؤمنًا، ثم بعث من بعد، وهو خلاف الظاهر. وقيل: معنى (أَرْسَلْنَاهُ): أطلقناه وخليناه، يعني: رجع إلى قومه الأولين «إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ [أَوْ يَزِيدُونَ][(١)]» قيل: عشرون ألفًا، عن ابن عباس، ومقاتل. وقيل: بْضع وثلاثون[(٢)] ألفًا، عن الحسن، والربيع. وقيل: سبعون[(٣)] ألفًا، عن مقاتل بن حيان. «فَآمَنُوا» قيل: هم القوم الأول آمنوا عند رؤية آثار العذاب، وقيل: قوم أخر آمنوا به «فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ» إلى مدة وهو انقضاء آجالهم.

۞ الأحكام

تدل الآية على أن يونس أبق، والصحيح أنه أبق من قومه على ما بَيَّنَّا، وأنه إما أن كانت صغيرة وإما[(٤)] مباحًا.

وتدل أنه لبث في بطن الحوت ونبذ بالعراء، وأنبتت عليه شجرة، وكل ذلك كان تكليفًا وتعبدًا ومعجزة له، ولم يكن عقوبة.

(١) ما أثبتناه بين المعكوفين زيادة من هامش ن.
(٢) وثلاثون: وثلاثين، ن.
(٣) سبعون: سبعين، ن.
(٤) وإما: أو؛ ن.

ومتى قيل: كيف بقي في بطنه من غير غذاء؟

قلنا: إن كان مدة قصيرة فذلك معتاد، وإن كانت طويلة كانت معجزة له.

ومتى قيل: لم أضيف النبذ إلى الله تعالى؟

قلنا: لأنه المسبب بإعطاء الحوت القوة، وبإعطاء يونس قوة، وبإرادته ذلك، وتعبده يونس بتلك الأحوال.

وتدل على أن التسبيح في الرخاء يصرف البلاء في حال الشدة.

وتدل على أنه بعث إلى قوم خاص، فتدل على أن الرسالة قد تعم، وقد تخص.

قوله تعالى:

﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثٗا وَهُمۡ
شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصۡطَفَى
ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ ﴿١٥٦﴾
فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾

القراءة

قرأ أبو جعفر ونافع: «اِصْطَفَى» بوصل الألف والابتداء بكسر الألف على طريق الخبر عن المشركين، تقديره: [يقولون]: ولد الله واصطفى، وقرأ الباقون بقطع الألف وفتحها على طريق الاستفهام.

اللغة

الاستفتاء: طلب الفتيا، والفتيا: بيان الحكم بطريقة الحق، ومنه: الفتوى والفتيا، إذا ضممت الفاء بالياء(١) لا غير، نحو: عُلْيَا، وإذا فتحت الفاء بالواو نحو: شكوى ونجوى.

---

(١) بالياء: وبالياء، ن.

والاصطفاء: «افتعال» من الصفوة، قلبت التاء طاء، وأصله: إخراج الصفوة، اصطفى يصطفي اصطفاءً، وقد اجتمع فيه ألفان: ألف استفهام، وألف وصل، فلما دخلت ألف الاستفهام على ألف الوصل سقطت ألف الوصل، وهذه عادة العرب، قال شاعرهم:

أَسْتَحْدَثَ الرَّكْبُ عَنْ أَشْيَاعِهِمْ خَبَرًا ... أَمْ رَاجَعَ الْقَلْبُ مِنْ أَطْرَابِهِ طَرَبُ[1]

وأصله: استحدث.

۞ النزول

قيل: نزلت الآية في قريش كانوا يقولون: الملائكة بنات الله، عن قتادة، والسدي.

وقيل: جهينة وبنو سليم زعموا ذلك.

۞ المعنى

ثم عاد الكلام إلى الرد على مشركي العرب، فقال سبحانه: «**فَاسْتَفْتِهِمْ**» أي: سلهم يا محمد، وإنما هو سؤال إنكار وتوبيخ وإظهار لجهلهم لا بمعنى الرجوع إلى فتياهم «**أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ**» أي: كيف أجزتم لأنفسكم البنين، وأضفتم البنات إلى الله تعالى؟! وقيل: رُدَّ عليهم، وقل: هب أنكم جوزتم الولد عليه فكيف أضفتم اختيار الأدون إليه؟! وكانوا يقولون: الملائكة بنات الله، على وجه الاصطفاء لا على سبيل الولادة «**أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ**» يعني: أشهدوا خلقهم؛ فيعلموا أنهم إناث أم ذكور؟! وهذا رد آخر عليهم.

ثم بَيَّنَ كذبهم وخزيهم، فقال سبحانه: «**أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ**» أي: من كذبهم لا من علم وحجة «**لَيَقُولُونَ. وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**» في ذلك «**أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ**» أي: كيف اختار الأدون مع كونه مالكًا حكيمًا «**مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ**» خطاب للمشركين وإنكار عليهم؛ أي: كيف تصفون الله بما هو الأنقص، ولأنفسكم بما هو

---

(١) البيت قائله: ذو الرمة. انظر: الصحاح (شيع)، اللسان (شيع)؛ تاج العروس (شيع).

الأفضل، ومعنى الكلام: وضعتم قولكم موضع الحكم بالصواب، وليس كذلك؛ بل هو إفك «أَفَلَا تَذَكَّرُونَ» قيل: تتفكرون في أمر معادكم وحسابكم، وأنكم تجازون على ما تقولون، وقيل: أفلا تتفكرون هل يصح ذلك على الله أم لا «أَمْ لَكُمْ» على ما تقولون «سُلْطَانٌ» حجة «مُبِينٌ» بيّن يظهر الحق، يعني: لا حجة على ما قالوا، وكله إنكار وإن كان ظاهره الاستفهام «فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ» يعني: كتابًا صح أنه من عند الله يدل على ما قلتم «إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ» في ذلك، وأراد أنه لا دليل على ما يقولون في العقل ولا في السمع.

الأحكام

تدل الآية على أنه لا يجوز اتخاذ الولد على الله، فيبطل قول النصارى والباطنية.

وتدل على أن كل قول ليس عليه حجة عقلية أو سمعية فهو باطل، وأن الحجة هي المعرفة تبين الحق من الباطل.

وتدل أنه تعالى يختار في كل شيء الأفضل، فيبطل قول المجبرة: إنه يختار سَبَّ نفسه، وقتل أنبيائه، ويخلق ذلك ويريده.

قوله تعالى:

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾

القراءة

قراءة العامة: «صالي الجحيم»، وعن الحسن برفع اللام، وفيه وجهان: الجمع والقلب على قولهم: شاك السلاح.

اللغة

الفاتن: الداعي إلى الضلال بتزيينه له، فكل من دعا إلى عبادة غير الله تعالى فهو فاتن؛ لأنه يخرج إلى الهلاك، وأصله: الفتنة، ومنه: فتنت الذهب بالنار، إذا أخرجته إلى حال الخلوص.

والصالي: اللازم نحو النار(١)، ومنه: الصلاة للزوم الدعاء فيها، والمُصَلِّي الذي يجيء بعد السابق للزومه أثره، وصالي: أصله صائل، قدم اللام على الياء، ثم حذف الياء فصار «صال».

الإعراب

«عِبَادَ» نصب على الاستثناء.

و«لَهُ» كناية عن محذوف، أي: ما منا ملك إلا وله مقام.

المعنى

ثم ذكر الله تعالى عنهم قبيح أقوالهم، فقال سبحانه: «**وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا**» قيل: جعلوا الملائكة بنات الله، عن مجاهد، وقتادة، وأبي علي. وسمى الملائكة جنًّا لاستتارهم عن العيون، وقيل: قالوا: لحَيّ(٢) من الملائكة يقال لهم: الجن: هم بنات الله، عن ابن عباس. وقيل: قالوا: تزوج إلى الجن فخرج منها الملائكة، عن الكلبي؛ تعالى الله عن ذلك. وقيل: أشركوا الشيطان في عبادة الله فهو النسب الذي جعلوه، عن الحسن. وقيل: أراد به الجن وأنهم جعلوا اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، عن الحسن. وجعلوهم أنداد الرحمن، عن أبي مسلم. وقيل: لما سئلوا عن أمهاتهم قالوا: سروات الجن، أي: كرامهم. وقيل: الْجِنّة اسم لإبليس، قالوا: الله وإبليس أخوان، فالله يفعل الخير وإبليس يفعل الشر. وقيل: قالوا: سروات الجن بنات الرحمن «**وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ**» يعني: قائل هذا القول،

---

(١) في مجمع البيان في تفسير القرآن م٥/ج٢٣/ ٨٩: الصالي الملازم للنار المحترق بها.

(٢) لحيّ: الجنّ، ن. وما أثبتناه من الكشف والبيان، للثعلبي: ج١١/ ٣٤٩.

عن أكثر المفسرين بإنهم كناية عن غير الجِنَّة، كأنه قيل: الجنة ـ وهم الملائكة ـ علمت أن هؤلاء الذين قالوا هذا «**لَمُحْضَرُونَ**» في العذاب، وكيف يكون بينهم وبينه نسبًا وهو يعذبهم وقيل: هو كناية عنه أن الجِنّة تعلم أنهم يعذبون، فكيف بينه وبينهم نسب؟! «**لَمُحْضَرُونَ**» قيل: للعذاب، عن السدي. وقيل: للحساب، عن مجاهد. «**سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ**» أي: تنزيهًا له وبراءة عما يصفه به هؤلاء «**إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ**» قيل: استثناء من المحضرين، يعني: أنهم ناجون وحالهم خلاف حال أولئك، والمُخْلِصُ بالكسر: مَنْ أخلص الاعتقاد والعبادة، وبفتحها أخلصه الله بلطفه. وقيل: هو استثناء من قوله: ﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًاۚ﴾، وقيل: من قوله: ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾. «**فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ**» قيل: الملائكة والجن؛ لأنهم كانوا يعبدونهم. وقيل: هو خطاب للكفار الذين أمر الله رسوله أن يخاطبهم ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾. وقيل: هو الأصنام. «**مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ**» الهاء في قوله: «**عليه**» كناية عن اسم الله سبحانه، والفاتن: المهلك، والمعنى: ما تهلكون أنتم وما تعبدون من دون الله؛ لأنه تعالى لا يهلك عليه أحد إلا من يصير بكفره إلى الجحيم بكفره واختياره، فهو صال فيها أي: محترق، وهذا كما يقال: لا يهلك على الله إلا هالك، وتلخيص المعنى: لا يهلك ولا يعذب إلا من صَلَى[1] الجحيم باختياره وفعله المنكر، عن أبي مسلم. وقيل: الهاء كناية عن المعبودين، والمعنى: إنكم وما تعبدون من دون الله ما أنتم بفاتنين؛ أي: مضلين عليه أحدًا، ولا يستدعي أحدًا إلى الكفر إلا من هو في معلوم الله تعالى أنه سيكفر بالله ويصلى بالنار وإن لم يَدْعُهُم الشيطان؛ لأن من يضل بدعاء الشيطان وغيره فالله يمنع ذلك لئلا يفسده هذا، وتلخيص المعنى: إنكم وما تعبدون من دون الله لا تضلون أحدًا إلا وفي معلوم الله أنه يضل ويصير إلى النار، وقيل: (**على**) بمعنى الباء أي: به، وقيل: إنكم وما تعبدون لا تضلون أحدًا «**إِلاَّ مَنْ**» يتولاكم ممن «**هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ**»، «**وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ**» هذا حكاية عن الملائكة، أي: كيف تقولون: إنها آلهة وهم يقولون: ليس منا أحد إلا وله مقام معلوم، قيل: للعبادة تسبح الله فيه وتصلي، وقيل: تقدم في قوله: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا﴾، وقيل: مقام محدود

(١) صلى: يصلى (بالألف المقصورة)؛ ن.

لا نتجاوز[1] وقيل: هذا قول جبريل للنبي ﷺ لما عبدوا الملائكة، [قال][2]: كيف تعبدونهم وهم بهذه الصفة؟ وقيل: هذا قول النبي والمؤمنين، وقد تقدم ذكرهم في قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، وتقديره: إلا عباد الله المخلصين فإنهم ما جعلوا بينه وبين الجنة نسبًا، ونزهوا الله، ويقولون للكفار: إنكم وما تعبدون من دون الله ما أنتم عليه بفاتنين، وإنكم أُتِيتُمْ من جهتكم فنزهوا الله [تعالى من طلب] مقامكم، فما منا ومنكم إلا وله مقام معلوم للمطالبة والمساءلة يوم القيامة، وفيه تحذير وزجر عن تلك المقالة «وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ» قيل: صافون في الصلاة، عن أبي علي. وقيل: صافون حول العرش ننتظر أمر الله، وقيل: صافون في الهواء بأجنحتنا للعبادة والتسبيح، عن أبي علي. «وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ» قيل: المنزهون لله عما لا يليق به. وقيل: المصلون، وسميت الصلاة تسبيحًا لما فيها من التسبيح.

۞ الأحكام

تدل الآيات أن القوم لما لم يعرفوا الله حق معرفته جوزوا[3] له اتخاذ الولد، وشبهوه بعباده، ولو عرفوه حق معرفته لَمَا أجازوا ذلك.

ويدل قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ على تنزيهه عن كل صفة وفعل لا يليق به.

ويدل قوله: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ أن كل من ضل بدعاء الشيطان يضل، وإن لم يدعه، ولو علم أنه لولا إضلاله لم يضل لكان الله يمنعه منه، عن أبي علي، وهذا بناه على أصله.

ويدل على بطلان قول أصحاب اللطف؛ لأنه بيّن أنهم يضلون كيف بصرف الحال، وعندهم لو فعل اللطف لآمنوا.

(١) نتجاوزه: تتجاوزها، ن.
(٢) ما بين المعكوفين زيادة من هامش ن.
(٣) جوزوا: فجوزوا، ن.

قوله تعالى:

﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾

اللغة

السَّبْقُ: مصدر سَبَقَ سبقًا، وسَابَقَ غيره سباقًا إذا طلب أن يسبقه.

والغلبة والقهر من النظائر: وهو أن يصير غيره بحيث يجري عليه حكمه.

والاستعجال: طلب الشيء قبل وقته.

وساءه يَسُوؤُه سَوْءًا: إذا أوقع به ما يَسُوؤُهُ.

الإعراب

اللام في قوله: ﴿لَيَقُولُونَ﴾ قيل: لام التأكيد، وقيل: لام الابتداء. والهاء في قوله: «به» تعود إلى الذكر .﴿فَسَآءَ صَبَاحُ﴾ رفع؛ لأن (ساء) بمنزلة بئس.

المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى حال الرسل وما نال أعداءهم، فقال سبحانه: «**وَإِن كَانُوا**» يعني: وقد كانوا «**لَيَقُولُونَ**» يعني: أهل مكة قبل مجيء الرسول إليهم، وتلاوته كتاب الله عليهم «**لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِنَ الأَوَّلِينَ**» يعني: كتابًا مثل كتب الأولين كالتوراة والإنجيل «**لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ**» لآمنا به ولأخلصنا فيه «**فَكَفَرُوا بِهِ**» في الكلام حذف، أي: فلما أتاهم الكتاب، وهو القرآن كفروا به «**فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ**» وعيد لهم؛ أي: حين ينزل

بهم العذاب يعلمون عاقبة تكذيبهم وكفرهم، قيل: أراد بذلك في الحروب، وقيل: إذا رأوا العذاب في القيامة «وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا» يعني: وَعْدُنا «لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ» قيل: هو قوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]، وقوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، عن أبي مسلم. وقيل: ما كتب في اللوح المحفوظ أنه سيكون مصلحة للملائكة، وقيل: هو ما أخبر الله به الملائكة أن ينصر أنبياءه، عن أبي علي.

ومتى قيل: كيف سبق الوعد لهم بالنصر وفيهم مَنْ هُزِمَ وقُتِلَ؟

قلنا: فيه وجهان:

الأول: النصر بالحجة، عن السدي.

وثانيهما: ما غُلِبَ نبيّ في حرب ولا قُتِلَ فيها قط، عن الحسن. وقيل: سبقت كلمتنا بالسعادة.

«إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ. وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ» أضاف المؤمنين إلى نفسه ووصفهم بجنده[1] تشريفًا لهم وتعريفًا لفضلهم؛ حيث قاموا بنصرة دينه «فَتَوَلَّ عَنْهُمْ" أي: أعرض عنهم «حَتَّى حِينٍ» إلى مدة، قيل: إلى يوم بدر، عن مجاهد، والسدي. وقيل: إلى الموت، عن ابن عباس، وقتادة. وقيل: إلى يوم القيامة. وقيل: إلى يوم الفتح. وقيل: إلى الوقت الذي قدره الله لهلاكهم. وقيل: نسختها آية القتال، عن مقاتل. وقيل: ليس بمنسوخ وإنما هو إعراض استخفاف وإهانة «وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ» قيل: أنظرهم فسوف يرون العذاب، عن ابن زيد. وقيل: أبصر حالهم بقلبك، وقيل: أبصرهم في حال النصر الذي يأتيك فهم يبصرون، عن أبي علي. وقيل: انظر إليهم إذا عُذِّبوا فهم يبصرون إليك. وقيل: فسوف يبصرون ما أنكروا، وقيل: أراد به عذاب الآخرة. وقيل: بل عذاب الدنيا فإن النبي رآهم أذلاء صاغرون، وهم رأوا ذلك أيضًا «أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ» قيل: لما أوعدهم بالعذاب قالوا إنكارًا واستهزاءً: ائتنا بما تعدنا، فقال تعالى: «أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ» منكرًا لقولهم، أي: يتجرؤون على مثل عذابنا أن يستعجلوه وهو مما لا يُسْتَهْزَأُ به ولا يستعجل؟! «فَإِذَا نَزَلَ

(١) بجنده: جنده، ن.

بِسَاحَتِهِمْ» يعني: العذاب نزل بساحتهم، قيل: بدارهم، عن السدي. وقيل: بفنائهم وناحيتهم «فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ» أي: بئس صباح الكافرين حينئذ، ولا صباح أسوأ من صباح من حل به عذاب الله «وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ. وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ» قيل: إنما كرر ذلك لأنهما عذابان، عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، كأنه قيل: أبصرهم في عذاب الدنيا، وأبصرهم في عذاب الآخرة، عن أبي علي. وقيل: هو تأكيد، والعرب تفعل مثل ذلك في مخاطبتهم، عن أبي مسلم. «سُبْحَانَ رَبِّكَ» تنزيهًا من كل سوء «رَبِّ الْعِزَّةِ» أراد بالعزة ما يفعله بالأنبياء والمؤمنين من الرفعة والإعزاز، وقيل: المالك للعزة القادر عليها، وقيل: الرب العزيز «عَمَّا يَصِفُونَ» أي: [عمَّا] يصفه الكفار به ممّا[1] لا يليق به «وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ» أي: السلامة في الدنيا والآخرة والثناء الجميل عليهم «وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» أي: شكرًا له على ما أنعم فأسبغ ودفع من المكاره، وعن النبي ﷺ أنه كان يقول قبل أن يسلم: «سبحان ربك رب العزة عما يصفون...» إلى آخرها[2].

الأحكام

يدل قوله: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا﴾ على أن مَنْ التزم خيرًا، ثم لم يفِ به يعظم وزره.

وتدل الآية أن الله ينصر رسله، فيبطل قول المجبرة أنه ينصر الكفار عليهم.

ويدل قوله: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ﴾ على فضل المجاهدين، وفيه حث على الجهاد.

ويدل قوله: ﴿سُبْحَٰنَ﴾ على تنزيهه عما لا يليق به.

---

(١) ممّا: وممّا، ن.

(٢) مسند أبي يعلى رقم ١١١٨، وفيه أنه كان يقوله بعد السلام.

سُورَةُ صٓ

[عونك اللهم يا حي يا قيوم](1).

سورة (ص)، وتسمى سورة (ذي الذكر)، وهي مكية فيما نقل، وهي ثمانون(2) وخمس آيات في البصري، وثمان في الكوفي، وست في المدني.

وروى أُبيّ، عن النبي صلى الله عليه وآله: «من قرأ سورة (ص) أعطي من الأجر بوزن كل جبل سخره الله لداوود عليه السلام حسنات، وعصمه الله أن يُصِرَّ على ذنب صغير أو كبير».

ولما ختم سورة (الصافات) بذكر القرآن والرسول وإنكار الكفار ما دعاهم إليه من التوحيد والبعث، افتتح سورة (ص) بذلك ورد عليهم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾

---

(1) ما بين المعكوفين ساقط في ن، وما أثبتناه من هامشها.

(2) ثمانون: ثلاثون، ت، ن.

القراءة

قراءة القراء: (ص) بالجزم[1]؛ لأنها من حروف الهجاء، فتكون مجزومة أبدًا. وعن الحسن وابن أبي إسحاق بكسر الدال من: المصاداة، أي: عارض القرآن بعملك، وقابله به، فاعمل بأوامره ونواهيه، فجعله أمرًا، ويقال: صَادَيْتُهُ[2] مُصَادَاةً: عَامَلْتُهُ بمثل صنعته، وقيل: لما اجتمع ساكنان حرك إلى الكسر.

وقرأ عيسى بن عمرو بفتح الدال، وكذلك (ق) و(نون) قيل: لاجتماع[3] الساكنين يحركهما إلى أخف الحركات، وقيل: معناه: اقرأ (ص)، وقيل: على الإغراء؛ [أي]: عليك (ص)، وهو لا ينصرف.

قراءة القراء: «عُجَاب» بالتخفيف، وعن السلمي وعيسى بن عمرو[4] بالتشديد، وهو المفرط في التعجب، والعجيب والعُجَابُ والعُجَّابُ واحدٌ، إلا أن في التشديد نوع مبالغة نحو: طويل وطُوَال وطُوَّال، ومن هذا البناء ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا﴾ [نوح: ٢٢].

وروي عن الكسائي وابن كثير الوقف على: «لات» بالهاء، والباقون بالتاء، وعن بعضهم الوقف على (لا) ويجعلون التاء متصلة بـ (حين) على ما سنبينه.

ويقال: لِمَ لم يعد (ق) و[5] [ص آية]؟

قلنا: لأنه شبه الاسم المفرد، وإنما يعد ما يشبه الجملة، ويشاكل آخره رؤوس الآي التي بعده.

---

(١) بالجزم يقصد بالتسكين.
(٢) صاديته: صاديت، ت، ن.
(٣) لاجتماع: لاجمتاع، ن.
(٤) عمرو: عمر، ن.
(٥) ق و: ساقط من ن.

۞ اللغة

العزة: المغالبة[1] والممانعة، ومنه: مَنْ عَزَّ بَزَّ، أي: من غَلَبَ سَلَبَ، ومنه: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾ [النساء: ١٣٩]، أي: المنعة وشدة الغلبة، ومنه: العزيز: الغالب، وسمي الملك عزيزًا؛ لأنه غالب أهل مملكته. وعَزَّ يَعِزُّ بكسر العين: إذا صار عزيزًا لا يؤاخذ، كأنه اشتد[2] وجوده، وعَزَّ يَعَزُّ بفتح العين، أي: اشتد.

والشقاق: المباعدة والعداوة؛ لأن كل واحد منهما يكون في شق، أي: في ناحية.

مناص: مفعل من النَّوْصِ، مثل منام من النوم، والنّوص بالنون: التأخر، وبالباء: التقدم، قد جمعهما امرئ القيس في بيت:

أَمِنْ ذِكْرِ لَيْلَى إِذْ نَأَتْكَ تَنُوصُ ... فَتُقْصِرَ عَنْهَا خَطْوَةً وَتَبُوصُ[3]

وقال آخر:

.... سبعون ألفًا عاقِدِي النواصي

.... أسادَ غَيلٍ[4] حين لا مَناصِ

۞ الإعراب

اختلفوا في (لات حين) على قولين[5]:

الأول[6]: زعم بعضهم أن التاء متصلة بـ (لا)، وأنها بمنزلة (ليس) ودخلت التاء

---

(١) المغالبة: المطالبة، ت.

(٢) لا يؤاخذ كأنه اشتد: مطموس في ت.

(٣) انظر الصحاح (بوص)، اللسان (بوص)، تاج العروس (بوص).

(٤) آساد غيل: أشبال عند، ت، ن، وما أثبتناه من البيت والعيون: ٣/ ٤٨١. والبيتان منسوبان للإمام علي بن أبي طالب في رده لعمرو بن العاص في معركة صفين:

لأوردن العاصي ابن العاصي ... سبعين ألفًا عاقدي النواصي

مستحلقين حلق الدلاص ... قد جنبوا الخيل مع القلاص

آساد غيل حين لا مناص

(٥) قولين: القولين، ن.

(٦) الأول: ـ، ن.

للتأنيث، ونصب على معنى ليس، و(لا) حرف تنزيه، فدخلت التاء فيه على قياس نظائرها من بنت وأخت[1] وذلك لأن ما قبلها ساكن، وهذا مذهب الفراء والكسائي وجماعة منهم أبو مسلم، ويقف الكسائي عليه بالهاء، يجعل الألف فيه حركة، فعلى هذا (لات) و(حين) مفتوحتان كأنهما كلمة واحدة.

وقيل: نصب (لات) بـ(لا) كقولك: لا رجل عندك، وقال لبيد:

تَـذَكَّـرَ حُـبَّ لَـيـلـى لاتَ حـيـنـا وَأَمْسَى الشَّيْبُ قَد قَطَعَ القَرِينَا[2]

والثاني: قول من قال: إن التاء متصلة بـ(حين)، والعرب تلحق[3] التاء بحين وبزمان، قال الشاعر:

العَـاطِـفُـونَ[4] تَـحِـيـنَ مَـا مِـنْ عَـاطِـفٍ والـمُـطْـعِـمُـون زَمَـانَ مَـا مِـنْ مُـطْـعِـمِ[5]

فأما قول الشاعر:

طَـلَـبـوا صُـلْـحَـنـا وَلاَتَ أَوَانٍ فَـأَجَـبْـنَـا أَنْ لَـيـسَ حـيـنَ بَـقَـاءِ[6]

فمنهم من قال: التاء متصلة بـ(أوان)، ومنهم من قال بـ(لا)، قال الزجّاج: أنشده أبو العباس[7] بالرفع، وروي بالكسر، قال أبو عبيد: والصحيح أن التاء متصلة[8] مع حين؛ لأني كذا رأيته في الإمام وهو مصحف عثمان،

---

(١) وأخت: ودمت، ت، ن.

(٢) البيت في الأصح لـ «عمرو بن شأس بن عبيد الأسدي»، انظر: يحيى الجبوري، شعر عمرو بن شأس الأسدي، دار القلم، بيروت، ١٩٨٣، ص ٥٩.

(٣) تلحق: ـ ن.

(٤) العاطفون: القاطعين، ت.

(٥) البيت في اللسان (حين)، (عطف) نسبه إلى أبي وجزه:

العاطفون تحين ما من عاطف والمسبغون يدا إذا ما أنعموا
والمانعون من الهضيمة جارهم والحاملون إذا العشيرة تغرم
واللاحقون جفانهم قمع الذرى والمطعمون زمان أين المطعم

وانظر ديوان أبي وجزة السعدي، تحقيق وليد محمد السراقبي، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠٠.

(٦) انظر: اللسان (لات).

(٧) أبو العباس مطموس في ت.

(٨) متصلة: ـ ، ن.

قال علي بن عيسى: وهذا غلط؛ لأنها في المصحف وتأويل العلماء منفصلة.

«مناص» كسر، قيل: بـ(لات).

ومتى قيل: إذا كان (ص) قَسَمًا فما جوابه؟

قلنا: اختلفوا فيه، قيل: محذوف، وقيل: مذكور.

فأما[1] من قال: محذوف، قيل[2]: تقديره[3]: ص والقرآن لقد جاء الحق وظهر الأمر، وحذف الجواب في مثل هذا أبلغ؛ لأن الذكر يقتضي المعنى على وجه، والحذف يصرف إلى كل وجه، فكان أفخم.

وقيل: تقديره: إن الذين كفروا يزعمون أنهم على الحق، وليس كذلك؛ بل هم في عزة وشقاق؛ ولذلك أدخل فيه (بل)، وذلك لا يأتي إلا وينفي خبرًا قبله، ويثبت خبرًا بعده، فلما لم يظهر النفي فيتأول أنه نفى خبرًا مضمرًا، وأثبت خبرًا ظاهرًا، فلما أثبت أنهم في عزة وشقاق دل إنه نفى ضد هذه الصفة[4].

وقيل: تقديره: والقرآن إنه بعث محمدًا بالحق فلم يؤمنوا به بل شاقوه وخالفوه، عن أبي علي.

فأما من قال: الجواب مذكور، اختلفوا، فقيل: جوابه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ كقوله: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: ١، ٢]، عن قتادة.

وقيل: جوابه قوله: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾، وكقوله: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا﴾ [الشعراء: ٩٧]، وكقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ [الطارق: ١]، و﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ﴾ [الطارق: ٤].

وقيل: الجواب قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾.

(١) فأما: وأما، ن.
(٢) قيل: ـ ، ن.
(٣) تقديره: فتقديره، ن.
(٤) الصفة: القصة، ن.

وقيل: قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾، عن الكسائي.

وقيل: فيه تقديم وتأخير، و[تقديره]: الذين كفروا في عزة وشقاق، والقرآن ذي الذكر.

وقيل: معنى (ص): وجب وحق، فهي جواب لقوله: «والقرآن» كما يقال: نزل والله، عن الفراء.

وقيل: جوابه: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾.

وقيل: جوابه قوله: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ﴾(١)، وكان ينبغي أن يقال: لَجُنْدٌ ما(٢)، إلا أنه لما طال الكلام حذفت اللام.

القصة

قيل: لما أسلم عمر، شق ذلك على المشركين، فمشى صناديد قريش وهم خمسة وعشرون رجلاً: الوليد بن المغيرة وكان أكثرهم شرًّا، وأبو جهل، وأبيّ وأمية ابنا خلف، وعمرو بن وهب، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة، وعبد الله بن أبي أمية، والعاص بن وائل، والحارث بن قيس، وعدي بن قيس، والنضر بن الحارث، وأبو البحتري بن هشام، ومخرمة بن نوفل، وزمعة بن الأسود، ومطعم بن عدي، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، وهشام بن عمرو، وسهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى، والأخنس بن شريق(٣)، وعامر بن خالد، وخرط بن عمرو إلى أبي طالب، فقالوا: أنت شيخنا وكبيرنا، وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء، وقد أتينا لتقضي بيننا وبين ابن أخيك، فدعا أبو طالب رسول الله وقال: يابن أخي، هؤلاء قومك يسألونك، فقال: «وماذا يسألونني»؟ فقالوا: دعنا وآلهتنا ندعك وإلهك، فقال صلى الله عليه: «أتعطونني كلمة واحدة تملكون بها العرب والعجم؟»، فقال أبو جهل: لله أبوك، نعطيك تلك وعشر أمثالها، فقال: «قولوا: لا إله إلا الله»، فقاموا وقالوا: أجعل الآلهة إلهًا واحدًا، كيف يسع الخلق كلهم إله واحد؟ فنزلت هذه الآيات.

(١) جند ما مطموس في ت.

(٢) لجند ما: لجندنا، ت، ن.

(٣) شريق: شويق، ت.

❁ المعنى

﴿صٓۚ﴾ قيل: قَسَمٌ، وقيل: اسم من أسماء الله تعالى، عن ابن عباس. وقيل: القسم بالله، أي: ورب ص. وقيل(١): هو من حروف المعجم، عن السدي. وقيل: معناه صدق الله، عن الضحاك. وقيل: اسم من أسماء القرآن أقسم الله به، عن قتادة. وقيل: اسم للسورة(٢)، عن الحسن، وأبي علي. وقيل: فاتحة السورة، عن مجاهد. وقيل: هو مفتاح أسماء الله التي أولها صاد نحو(٣): صمد، صانع المصنوعات، صادق الوعد، عن محمد بن كعب. وقيل: إشارة إلى صدود الكفار عن القرآن. وقيل: إشارة إلى أن القرآن مؤلف من هذه الحروف، وعجزوا عن مثلها مع أنهم بها يتكلمون؛ ليعلموا أنه معجز، وأنه كلام الله ليس من كلام البشر، عن أبي مسلم. وقيل: إشارة إلى أنه من هذه الحروف؛ ليعلم أنه محدث ليس بقديم، عن أبي بكر الزبيري. «وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ» ذي الشرف، عن ابن عباس، والضحاك. ومثله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَۖ﴾ [الزخرف: ٤٤]، وقيل: ذي البيان، عن ابن عباس، ومقاتل. ذي بيان يؤدي إلى الحق؛ لأن فيه ذكر الأدلة التي إذا تفكر فيها العاقل عرف الحق عقلاً وشرعًا، ومن تمسك به سَعِدَ، ومن عدل عنه شقي، وقيل: ذي الوعد والوعيد والأحكام وأخبار الأمم، فهو ذكر لمن تذكر به في سائر ما يحتاج إليه، وقيل: ذي التذكر لكم، عن قتادة. وقيل: فيه ذكر الله وتوحيده وصفاته الحسنى، وأسماؤه، وفيه النبوات وفيه(٤) الشرائع، وفيه ذكر الأنبياء وأخبار الأمم، وابتداء الخلق وانتهاؤهم، وذكر النفخة(٥) والقيامة، والأحكام، والأوامر والنواهي، والمواعظ، والأمثال، وجميع ما يحتاج إليه المكلف، ولما كان كذلك أضاف الذكر إليه ووصفه به، وهو قول أبي علي، ونحو ذلك قوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍۚ﴾ [الأنعام: ٣٨]، «بَلِ الَّذِينَ

(١) وقيل: مطموس في ت.
(٢) للسورة: السورة، ت.
(٣) نحو: ـ، ن.
(٤) فيه: +، ن.
(٥) النفخة: النعمة، ن.

«كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ» قيل: في عزة أي: تكبر عن قبول الحق، وحمية جاهلية، عن قتادة. كقوله: ﴿أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]، وقيل: «في عِزَّةٍ» أي: مَنَعَةٍ واقتدار بتمكين الله إياهم فيقروا به، وقيل: في مُعَازَّة، يريدون أن يكونوا أعز وأرفع، ولا يكونوا تبعًا، «وشقاق» أي: عداوة وعصيان ومخالفة، والشقاق: المخالفة، عن ابن زيد. «كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ» أي: كم أهلكنا قبل هؤلاء الكفار من جماعة بعد جماعة «فَنَادَوْا» يعني: حين أصابهم العذاب نادوا نداء مستغيث بالإيمان «وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ» قيل: ليس حين مهرب وفرار، وقيل: لا مَنْجَى، عن أبي علي. والمناص: المَنْجَى، وقيل: النوص الفوت؛ أي: ليس هذا حين فوت، قال ابن عباس: كل كفار مكة إذا قاتلوا فاضطروا قالوا: مناص، أي: اهربوا، فأنزل الله تعالى «وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ»، «وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ» أي: تعجبوا[(١)] بأن جاءهم منذر[(٢)] رسول منهم ينذرهم أي: يخوفهم بالعذاب «وَقَالَ[(٣)] الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ» فيما يدعي، فراموا دفع الحجة بالشنعة ونبز الألقاب كما تفعله المبتدعة بأهل الحق فبئس زماننا هذا «أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا» هو استفهام منهم، والمراد به التعجب والمبالغة فيه والإنكار، أي: أجعل[(٤)] للعالم إلهًا واحدًا، إذ أبطل جميع الآلهة وجعل العبادة لإله واحد «إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ» أي: متناهٍ[(٥)] في الأعجوبة، وإنما تعجبوا لأنهم عدلوا إلى التقليد والإلف، ولو تفكروا في الأدلة لعلموا صحة ما جاء به.

۞ الأحكام

يدل قوله: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ أنه من جنس الأذكار، وأنه مؤلف، ويدل على حدثه، وإذا حمل على القسم كأنه قيل: ورب ص، فيدل على حدثه؛ لأنه يدل على أنه مربوب.

---

(١) تعجبوا: عجبوا، ن.
(٢) منذر: ـ ، ن؛ منذ، ت.
(٣) وقال: فقال، ن.
(٤) أجعل: جعل، ت.
(٥) متناه: متناهي؛ ن، ت.

ويدل قوله: ﴿وَعَجِبُوٓاْ﴾ الآية على أمور:

منها: أن المبطل يتعجب من الحق، ولا يكون كذلك إلا والمعارف مكتسبة؛ لاستحالة ذلك في الضروري.

ومنها: قبح التقليد، وأنه يُحَسِّنُ القبيح ويقرب البعيد.

وتدل على أن السحر تمويه؛ لذلك نسبوه إليه.

وتدل أن الجعل يكون[1] بمعنى الخبر والحكم؛ لذلك قال: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ﴾.

وتدل أن الكفر والشقاق فعلهم، وكذلك التعجب، فيبطل قول المجبرة في المخلوق.

قوله تعالى:

﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ
ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ۝٧ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ
عَذَابِ ۝٨ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ ۝٩ أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا
بَيۡنَهُمَاۖ فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ ۝١٠ جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ ۝١١ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ
وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ ۝١٢ وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٖ وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ ۝١٣﴾

اللغة

الانطلاق: الذهاب بسهولة، ومنه: طلاقة الوجه، إنما هو سهولته.

والبِشْر، خلاف العبوس، وأطلق: أرسل.

والملأ: الجماعة من الأشراف.

والمشي: السير، مشى مشيًا، وامشوا: سيروا، وقيل: معناه: ليكثر ماشيكم، يعني: الدعاء لهم، وهذا لا شيء؛ لأنه لا يحتمله اللفظ ولا المعنى أيضًا.

أما[2] اللفظ يقال: أَمْشَى الرجل يُمْشِي: إذا كثرت ماشيته، والأمر: أمشوا بقطع

(١) يكون: +، ن.

(٢) أما: ـ، ن.

الألف، والقراءة بوصلها، ولو طرحت الهمزة على النون لانفتحت، والقراءة بالكسر، قال الشاعر:

وَكُلُّ فَتًى وإِنْ أَثْرَى[1] وأَمْشَى ... سَتُخْلِجُهُ عَنِ الدُّنْيَا مَنُونُ[2]

وأما المعنى فإنه لا يشاكل ما قبله ولا ما بعده.

والإرادة والمشيئة والمحبة[3] والقصد والعزم من النظائر وإن كان لكل واحد موضع.

والاختلاق: «افتعال» من الخلق وهو الكذب، والخلق والاختلاق والفراء والافتراء ألفاظ تتقارب معانيها، قال تعالى: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧].

والارتقاء: الصعود من سفل إلى علو درجةً درجةً، قال الشاعر:

لَوْ لَمْ يَجِدْ سُلَّمًا مَا كَانَ مُرْتَقِيًا ... والمُرْتَقَى وَالَّذِي رَاقاه سِيَّانِ

والأسباب: جمع سبب، وهو ما يوصل به إلى المطلوب، يقال: تسببت بكذا أي: توصلت بالتسبب[4]، والسبب على ضربين: سبب موجب كالضرب يوجب الألم، والكون يولد التأليف، وسبب عادة كالذَّكر والأنثى في خلق الولد، والشجر في خلق الثمار، ويقال للباب: سبب، قال الشاعر:

وَمَن هابَ أَسْبابَ المَنَايَا يَنَلْنَهُ ... وَلَوْ نَالَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسُلَّمِ[5]

أي: أبوابه؛ لأنه به يوصل إلى دخول الدار، وبين السبب والعلّة[6] فروق: منها أن السبب يوجب الذوات والعلة توجب[7] الصفات، والسبب إذا وجد قد يمنع من المسبب، وما يمنع المعلول يمنع العلة، والسبب يقف على شرط، والعلة لا تقف.

---

(١) أثرى: أبزى، ت.

(٢) البيت قائله: النابغة الذبياني؛ انظر اللسان (مشي)، وانظر: ديوان النابغة الذبياني، دار صادر بيروت.

(٣) والمحبة: والمحنة، ن، ت.

(٤) بالتسبب: والسبب، ن، ت.

(٥) البيت قائله زهير بن أبي سلمى في معلقته، وفي رواية: وإن يرق أسباب السماء بسلم، وفي رواية أخرى: وإن رام أسباب السماء بسلم، انظر ديوان زهير بن أبي سلمى، دار صادر، بيروت.

(٦) والعلة: والعلم، ت، ن.

(٧) والعلة توجب: والعلم يوجب، ت.

والهَزْمُ: الكسر والدفع، والمهزوم: المدفوع الذي وقعت عليه الهزيمة.

والحزب: الجماعة التي تجتمع من كل أَوْبٍ، والجمع: أحزاب.

۞ الإعراب

(ما) في قوله: «جند ما» صلة وتأكيد، كقولهم[1]: جئت لأمر ما، وعندي طعام ما.

۞ النزول

قيل: نزلت الآيات في الذين اجتمعوا عند أبي طالب، فلما أيسوا من النبي صلى الله عليه وآله قاموا يقول بعضهم لبعض: أجعل الآلهة إلهًا واحدًا، ويقولون للعوام: امشوا واصبروا على آلهتكم.

وقيل: نزلت في عقبة بن أبي معيط، فهو الذي قال: امشوا واصبروا على آلهتكم، عن مجاهد.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى من تلبيس القوم على عوامهم، فقال سبحانه: «**وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنهُمْ**» أي: الأشراف من هؤلاء الكفار الذين تقدم ذكرهم، قيل: انطلقوا إلى أبي طالب لشكاية النبي ﷺ فيما يقوله لآلهتهم، وقيل: انطلقوا من عنده بعد الإياس من النبي ﷺ «**أَنِ امْشُوا**» قيل: امشوا إلى أبي طالب، واشكوا محمدًا، وقيل: امشوا ولا تقيموا على سماع كلام النبي ﷺ ولا على سماع القرآن «**وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ**» قيل: اصبروا على إيجادها وعبادتها «**إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ**» قيل: فساد في الأرض، وعن قريب ينزل به الهلاك ونتخلص منه. وقيل: لأمر يراد بنا من زوال نعمة أو نزول شدة؛ لأنهم كانوا يعتقدون في الأصنام أنهم لو تركوا عبادتها أصابهم القحط والشدة. وقيل: شيء يراد، أي: كيد يكاد بنا، كأنهم اتهموه بطلب رئاسة، فكان هذا القول منهم على وجه التنفير عن النبي، ثم زادوا وقالوا: «**مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي**

(١) كقولهم: لقولهم، ن.

«الْمِلَّةِ الآخِرَةِ» أي: لم نعرفه في عادة زماننا، وإنما كان هذا شيئًا يبلغنا عن الأزمان الماضية؛ لأن النبي ﷺ بعث على فترة من الرسل، وقيل: **«في المِلّة الأخرة»** أي: النصرانية، عن ابن عباس، والقرظي، ومقاتل، والكلبي؛ لأن النصارى تجعل مع الله إلهًا غيره، وقيل: لأنهم لا يقرون بمحمد، وقيل: يعنون ملة قريش إلى ملة زماننا هذا، عن مجاهد، وقتادة. وقيل: **«الملّة الآخرة»** أي: هذا يكون في آخر الزمان، عن الحسن. **«إِنْ هَذَا»** الذي يقوله محمد **«إِلاَّ اخْتِلَاقٌ»** أي: تَخَرُّصٌ وكذب، ثم عَجَّبُوا العامة فقالوا: **«أَءُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ»** يعني: القرآن **«مِنْ بَيْنِنَا»** وليس بأرفعنا نسبًا ولا أكثرنا[1] مالاً وجاهًا، ولم يعلموا أن شرط النبوة الصلاح والاستصلاح، فتعجبوا منه أن خصه الله به، فأجابهم فقال: **«بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي»** يعني لا يحملهم على هذا القول إلا الشك فيما أنزلت على رسولي من الوحي، يعني: أنهم أُتُوا من قبل أنفسهم في هذا، حيث أعرضوا عن الأدلة، فأما الله تعالى فقد أزاح العلة، ونصب الأدلة **«بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ»** أي: لم يذوقوا عذابي، ولو ذاقوه لما قالوا هذا القول **«أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ»** أي: نعمة ربك حتى تجري[2] النبوة على مرادهم، وقيل: **«رَحْمَةِ رَبِّكَ»** أي: نبوة ربك **«الْعَزِيزِ»** القادر الغالب الذي لا يغالب **«الْوَهَّابِ»** كثير الهبات والعطايا، يعني: أنه قادر وهاب يقسم على حسب المصالح، وهم مع عجزهم وجهلهم كيف يعترضون[3] **«أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا»** فيختاروا للرسالة مَنْ أحبوا، بل[4] الاختيار إلى مالك الأشياء لا إليهم، وقيل: إنهم ترفعوا[5] عن اتباع محمد وقبول قوله، فكأن[6] لهم مُلْكَ السموات والأرض [و] خزائن رحمته، وقيل: معناه: هل لهم مُلْكُ السموات والأرض والخزائن، فيتهيأ[7]

(١) ولا أكثرنا: ولا أكثر، ت.
(٢) تجري: تخرج، ت.
(٣) يعترضون: يعرضون، ن.
(٤) بل: أي، ن.
(٥) ترفعوا: يترفعون، ن.
(٦) فكأن: أكان، ن.
(٧) فيتهيأ: فيها، ن.

لهم منع[1] الله من مراده في إكرام نبيه وإرساله «فَلْيَرْتَقُوا» يعني: إن ادعوا ذلك «فَلْيَرْتَقُوا» أي: فليصعدوا «فِي الأَسْبَابِ» قيل: في أبواب السماء وطُرُقِها، عن مجاهد، وقتادة. يعني: مَنْ مَلَكَ شيئًا قدر على التصرف فيه، وقيل: الأسباب: معارج الملائكة، وقيل: من ظن أنه يقدر على منع الله من مراده فليصعد السماء، فإن عجز عنه فهو عن منعه أعجز، وقيل: الأسباب: الطرق، وقيل: الحيل، أي: ليحتال في سبب يصل به إلى السماوات، فيأتي بالوحي إلى من يختارون، وقيل: فليصعد السماء محاربًا، والمعنى: إذا عجزوا عن جميع هذا فليعلموا أنهم مملوكون ينبغي أن يؤمنوا بالله ورسوله «جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الأَحْزَابِ» أي: هم جند هنالك مغلوب مدفوع «مِنَ الأَحْزَابِ» أي: من جملة الأجناد، اختلفوا في معناه، فقيل: هؤلاء الذين يقولون هذا القول جند مهزومون، وأنت عليهم مظفر منصور غالب، قال قتادة: وعد الله نبيه أنه سيهزمهم فجاء كما وعد «مِنَ الأَحْزَابِ» أي: كالقرون الماضية الذين قهروا وأهلكوا، وقيل: «مِنَ الأَحْزَابِ» من حزب إبليس، وقيل: مَنْ أراد مِنْ الأحزاب منع النبي صلى الله عليه[2] وتكذيبه بأن يجند عليه فذلك جند مهزوم، وقيل: فليرتقوا إلى السماء محاربين[3]، فهناك جند لا ينهزم وهؤلاء ينهزمون، وقيل: الأحزاب الذين اجتمعوا عليه يوم الخندق، عن أبي علي.

۞ الأحكام

تدل الآيات على عظيم فعل من يضل غيره بالشبهات، وعلى فساد التقليد، ووجوب النظر؛ لذلك ذمهم لقولهم[4]، ولهذا قلنا بعظم وزر[5] المبتدعة الذين يضلون الناس.

(١) منع: مطموس في ت.
(٢) صلى الله عليه: ـ، ن.
(٣) محاربين: محاربًا، ن.
(٤) لقولهم: بقولهم، ن.
(٥) وزر: قدر، ت.

ويدل قوله: ﴿مَا سَمِعْنَا﴾ على جهلهم؛ لأنه ليس كلّ ما لم يسمع من قوم يجب أن يكون باطلاً؛ بل يراعى الدليل.

ويدل قوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ﴾ أن المعارف مكتسبة.

وتدل على صحة الحجاج في الدين.

ويدل قوله: ﴿مَهْزُومٌ﴾ على وعد من الله لنبيه، وقد وجد فيكون معجزة له؛ لأن الآية مكية، وقصة الأحزاب كانت بالمدينة.

قوله تعالى:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْـَٔيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾

القراءة

قرأ حمزة والكسائي: «فُواقٍ» بضم الفاء، الباقون بفتحها، قال الكسائي: هما لغتان بمعنى، مثل: جُمَام المَكُّوك وجُمَامِهِ، وقَصَاص الشعر وقُصَاصِهِ، وهو من الإفاقة، وما بين الرضعتين فَوَاق، وقال الفراء وأبو عبيد: بينهما فرق، فالفتح معناه: ما لها من راحة، وبالضم: ما لها من مهلة، وانتظر[1] فُوَاقَ ناقة: قدر ما بين الحلبتين.

اللغة

الوتد: معروف، وجمعه: أوتاد.

والأيكة: الغَيْضَةُ، قال أبو عمرو: والأيكة: الملتف[2] من النَّبع والسدر.

والفواق: أصله الإفاقة[3]، والفواق: ما بين حلبتي الناقة مشتق من الرجوع؛ لأنه

---

(١) وانتظر: وانتظاره، ت، ن.

(٢) الملتف: الملتفف؛ ن،ت.

(٣) الإفاقة: الاقامة، ت، ن.

يرجع اللبن إلى الضرع بين الحلبتين، وأفاق من مرضه وغَشْيَتِهِ: إذا رجعت الصحة إليه، وقيل: الإفاقة: الراحة، والفواق: بين الحلبتين، وأفاق المريض: استراح.

والقِطُّ: النصيب، عن الفراء، وأصل القِطّ: الكتاب يكتب الإنسان فيه شيء يصل إليه، عن الكسائي، واشتقاقه من القَطِّ، وهو القطع، وكذلك النصيب هو القطعة من الشيء، قال أبو عبيد: القطّ: الحساب، وفي حديث ابن عمر وابن زيد: (كانا لا يَرَيَانِ بِبَيْعِ القطوط بأسًا إذا خرجت)، والفقهاء لا يجيزونه وهي الجوائز والأرزاق، سميت قطوطًا؛ لأنها تخرج مكتوبة في رقاع، يقال: قَطَّهُ يَقُطُّه قَطًّا، مثل: قدّه يقدّه قدًّا، ومنه: ما رأيته قط، أي: في قِطَعِ الدهر الذي مضى.

۞ النزول

عن أبي العالية والكلبي قالا: لما نزل قوله في سورة (الحاقة): ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الحاقة: ١٩] أو ﴿بِشِمَالِهِۦ﴾ [الحاقة: ٢٥] قالوا استهزاءً: عجل لنا قطنا، فنزلت هذه الآيات.

وعن عطاء: قال النضر بن الحارث وهو القائل: إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء، قال عطاء: نزلت فيه بضع عشرة آية.

وقيل: طلبوا ذلك ليعلموا أنهم(١) من أصحاب اليمين أو من أهل الشمال.

۞ النظم

يقال: كيف يتصل قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ بما قبله؟

قلنا: فيه تسلية للنبي ﷺ، يعني: إن كذبك هؤلاء فقد كذبت قبلهم أمم.

وقيل: بل يتصل بقوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم﴾، ثم فصل ذلك وبين أن تلك الأمم مع قوتهم وعدتهم لَمَّا كذبوا الرسل أهلكناهم، ولم ينفعهم ذلك، فكيف هم مع ضعفهم؟!

(١) أنهم: أنه، ت، ن.

۞ المعنى

«كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ» أي: قبل هؤلاء الكفار «قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ» هم قوم هود «وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ» كذبوا موسى وهارون، وسمي ذو الأوتاد قيل: كانت له ملاعب من أوتاد يلعب عليها لهم، عن ابن عباس، وقتادة، وعطاء. وقيل: كان يعذب الناس بالأوتاد، عن السدي، والربيع بن أنس، ومقاتل، والكلبي. وقيل: ذو البنيان، والبنيان الأوتاد، عن الضحاك. وقيل: ثابت الأمر، الشديد أركان الملك، عن القتيبي، وأبي علي، وأبي مسلم. والعرب تقول: في عز ثابت الأوتاد، يعني: دائم شديد، وأصله: أن بيوتهم تثبت بأوتاد، وقال الأسود بن يعفر:

فــي ظِـلِّ مَـلِـكٍ ثَـابِـتِ الْأَوتَـادِ[1]

وقيل: كان كثير الأوتاد لخيم[2] جيوشه التي تسير في الأرض، فلكثرتها[3] سمي بذلك، حكاه أبو علي.

واختلفوا في كيفية تعذيبه بالأوتاد، فقيل: كان يشد بالأوتاد إلى السواري في الهواء ويتركه حتى يموت، عن مقاتل، والكلبي.

وقيل: كان يمد الرَّجُل، الرَّجُل مستلقيًا على الأرض، ثم يشده على الأرض بالأوتاد، عن مقاتل بن حيان.

وقيل: كان يمد الرجل، ويشده بالأوتاد، ويرسل عليه الحيات والعقارب، عن السدي.

«وَثَمُودُ» يعني قوم صالح كذبوا صالحًا «وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ» هم قوم شعيب كذبوا شعيبًا «أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ» أي: هم القوم مع القوة والشدة، والعرب تبالغ في وصف الشيء وتقول: هو هو، وهم هم، وهو الرجل كل الرجل، قال الشاعر:

---

(١) البيت قائله: الأسود بن يعفر وتكملته: ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة في ظل ملك ثابت الأوتاد، انظر: ديوان الأسود بن يعفر، صنعه د. نوري حمودي القيسي، وزارة الإعلام والثقافة، بغداد، ١٩٧٠، ص ٢٧.

(٢) لخيم: تخدم، ت، ن.

(٣) فلكثرتها: فكثرته، ت، ن.

وَإِنَّ الَّـذِي حَـانَـتْ بِـفَـلْـجٍ دِمَـاؤُهُـمْ هُـمُ الْـقَـوْمُ كُـلُّ الْـقَـوْمِ يَـا أُمَّ خَـالِـدِ[1]

«إِنْ كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ» أي: ما منهم أحد إلا كذب الرسل «فَحَقَّ عِقَابِ» أي: وجب عليهم ونزل بهم «وَمَا يَنظُرُ هَؤُلاَءِ» أي: ما ينتظر هؤلاء «إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً» قيل: «النفخة الأولى في الصور» في حديث مرفوع، وقيل: صيحة عذاب «مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ» أي: من إفاقة بالرجوع إلى الدنيا، عن قتادة، والسدي. وقيل: من رجوع، عن ابن عباس. وقيل: من نظرة، عن مجاهد. وقيل: من فتور كما يفتر المريض، عن ابن زيد. وقيل: من راحة «وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا» قيل: لما توعدهم بالعذاب قالوا استهزاءً: عجل كتابنا وما تعدنا به يا محمد «قِطَّنَا» قيل: كتابنا، عن ابن عباس. وهي الصحيفة التي تحصي كل شيء، وقيل: عقوبتنا وما كتب لنا من العذاب في الدنيا، عن الحسن، وقتادة، ومجاهد، والسدي. يعني: حظنا من العذاب، وقيل: نصيبنا، عن سعيد بن جبير. وقيل: حسابنا، عن مجاهد. «قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ» أي: قبل يوم القيامة.

الأحكام

تدل الآية أن ما جاء به من أمر الله وكل ما قضى لا يتقدم ولا يتأخر.

وتدل على جهل من استعجل عذابه، وأنه عادة الجهال.

وتدل على أن التكذيب فعلهم، حادث من جهتهم.

قوله تعالى:

﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾

---

(١) البيت قائله: لأشهب بن رميلة، انظر: اللسان (فلج).

۞ القراءة

قراءة العامة: «شَدَدْنَا» بالتخفيف، وعن الحسن بالتشديد، وفيه[1] مبالغة.

۞ اللغة

الصبر: حبس النفس عما تنازع إليه، ومنه الحديث[2]: «ونهى أن يقتل شيء من الحيوانات[3] مصبورًا»، وهو أن يحبس حيًّا ثم يرمى فيقتل، ومنه: قُتِلَ فلان صبرًا[4] لا يولد.

والأَيْدُ: القوة.

والأوب: الرجوع، آب[5]: رجع. والأوَّاب: كثير الرجوع.

والفصل: القطع.

والخطاب: مأخوذ من الخَطْبِ، وهو الأمر الكبير، وبناه من الفعل فِعَال الذي يجري بمعنى المفاعلة، كالمنازعة والنزاع، والمقاتلة والقتال.

۞ الإعراب

(الطير) نصب بـ**(سخرنا)**.

«**محشورة**» نصب على الحال.

والهاء في قوله: «**آتيناه**» محله نصب بـ«**آتينا**». و«**الحكمة**» المفعول الثاني. «**وَفَصْلَ الْخِطَابِ**» معطوف عليه.

۞ النزول

قيل: لما قالوا: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ استهزاءً نزل قوله: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾.

---

(١) وفيه: ومنه، ت.

(٢) الحديث: ـ ، ن.

(٣) الحيوانات: الحيوان، ت.

(٤) صبرا: صبورًا، ت.

(٥) آب: إن، ت.

النظم

يقال: كيف يتصل قوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا﴾ بما قبله؟

قلنا: فيه وجوه:

قيل: لما أمره بالصبر تسلية له ذكر قصة داود، وأخذ أبواب الذكر، عن أبي مسلم.

وقيل: بشره بالظفر والتمكين إذا صبر، كما أعطى داود وسليمان وغيرهم.

المعنى

«اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ» يعني: هؤلاء الكفار من الكفر والتكذيب، فوباله يعود عليهم «وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ» قيل: ذو القوة، عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. وقيل: [ذو] القوة في العبادة، وقيل: [ذو] القوة على الأعادي وقهرهم، وقيل: [ذو] النعمة العظيمة والتمكين العظيم «إِنَّهُ أَوَّابٌ» يعني: مع سلطانه كان أوابًا، قيل: مطيعًا، عن ابن عباس. وقيل: رَجَّاعًا إلى الله بالتوبة، عن الضحاك. وقيل: مُسَبِّحا[1]، عن سعيد بن جبير. وقيل: توابًا، عن مجاهد، وابن زيد. «إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ» الله، وكان إذا سبح داود سبحت الطير والجبال معه، يحتمل أنه تعالى خلق في الجبال التسبيح، ويحتمل أنه ينشئ[2] فيها تنشئة فتسبح[3]، فأما الطير فيجوز أن يلهمه التسبيح وإن كان غير مكلف كالمراهق، وقيل: كان يسير معه إذا سار، عن أبي علي. فلما كان سيرها دالاً على توحيد الله وعدله ومعجزة نبيه أضاف التسبيح إليها «بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ» بالصباح والرواح، وقيل: صلاة الضحى في كتاب الله وهو قوله: ﴿وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾[4]، وليس الإشراق طلوع الشمس إنما هو صفاؤها وضوؤها «وَالطَّيْرَ» أي: وسخرنا الطير «مَحْشُورَةً» مجموعة من كل ناحية، وقيل: مسخرة، عن قتادة. ويحتمل أنه تعالى[5] ألهمها حتى يجتمعوا عنده، ويحتمل أن الملائكة حشرت الطيور

---

(١) مسبّحاً: مستحياً، ت، ن. ولعل الصواب ما أثبتناه. وفي معاني مفردات القرآن ٦/ ١٠٧: قال سعيد بن جبير: الأواب المسبح.

(٢) ينشئ: يبني، ن.

(٣) تنشئة فتسبح: تنبيه يسبح، ن.

(٤) والإشراق: بالإشراق، ت.

(٥) تعالى: +، ن.

عنده، ويحتمل أنه تعالى حشرها عنده معجزة له «**كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ**» راجع إلى ما يريد، مطيع له، يعني: الطير والجبال «**وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ**» بنيناه وقويناه، قيل: بالجنود والهيبة وكثرة العدد والعدة، قال ابن عباس: كان أشد الملوك سلطانًا، وكان يحرس محرابه كل ليلة ثلاثة وثلاثون ألف رجل «**وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ**» قيل: النبوة، وقيل: الإصابة في الأمور، وقيل: العلم بالله وشرائعه، عن أبي علي، وأبي العالية. «**وَفَصْلَ الْخِطَابِ**» قيل: كيفية القضاء بين الناس وإصابة الحق فيه، فكان لا يقف في شيء، عن ابن مسعود، والكلبي، والحسن، ومقاتل. وقيل: هو (البينة على المدعي، واليمين على من أنكر)، عن علي عليه السلام، وكعب، وشريح، ومجاهد، وعطاء. وقيل: البيان الكافي في إقامة الحجة على من خالفه في الدين، عن أبي علي. وقيل: كان يقول: أما بعد، وقيل: كان لا يدخل خِطَابَهُ لغو ولا هزل.

۞ الأحكام

الآية تدل على عظم محل داود وما أنعم الله عليه دينًا ودنيا.

وتدل على كثرة عبادته مع عظيم ملكه.

وتدل على معجزاته.

وتدل على أنه أعطاه العلم بأمر الدين والدنيا حتى تمكن من فصل القضاء والاحتجاج على المخالفين.

وتدل على فضل العلم.

قوله تعالى:

﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾

۞ القراءة

قراءة العامة: ﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾ بضم التاء وكسر الطاء الأولى، وعن أبي رجاء العطاردي: بفتح التاء وضم الطاء الأولى، والشطط والإشطاط: مجاوزة الحد، وأصل الكلمة من قولهم: شطت الدار، وأشطَّت: إذا بَعُدَتْ، قال أبو مسلم: أَشَطَّ يُشِطُّ: إذا بعد، وشَطَّ يُشِطُّ(1): إذا بعد، وأنشد:

تَشُطُّ غَدًا دارُ جِيرَانِنَا وَلَلدَّارُ بَعْدَ غَدٍ أَبْعَدُ(2)

قراءة العامة: ﴿وَعَزَّنِى﴾ بغير ألف أي: غلبني، من قولهم: مَنْ عَزَّ بَزَّ، وعن عبيد بن عمير: «وعازني» بالألف من المُعَازَّةِ، وهي المغالبة.

۞ اللغة

الخصم: المطالب المنازع في الأمر، وهو يقع على الواحد والاثنين والجمع، والذكر والأنثى على صيغة واحدة؛ لأنه مصدر، يقال: رجل خَصْمٌ، ورجلان خَصْمٌ، ورجال خَصْمٌ، وامرأة خَصْمٌ، ونساء خَصْمٌ، ومثله قولهم: عَدْلٌ، ولهذا قال: ﴿تَسَوَّرُوا﴾ ونظير الباب: حَرْبٌ وسِلْمٌ.

والتَّسَوُّرُ: الإتيان من جهة السور، والسور: ما ارتفع، وكل مرتفع سور.

والمحراب: مجلس الأشراف الذي يُحَارَبُ دونه لشرف صاحبه، ومنه المُصَلَّى يسمى محرابًا، وموضع القبلة(3) محرابًا.

والبغي: طلب الزيادة، وأصل الباب: الطلب، ومنه: الباغي.

والكفل: النصيب، ومنه: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ﴾ [الحديد: ٢٨] أي: نصيبين.

والفتنة: شدة التعبد، وأصله: الاختبار، يقال: فَتَنْتُ الذهب بالنار حتى أخلصته.

والمآب: المرجع، وآب: رجع.

(١) وشطَّ يُشِطُّ: وشط وشط يشط، ت.

(٢) البيت قائله: عمر بن أبي ربيعة؛ انظر تاج العروس (شطط)؛ اللسان (شطط) ديوان عمر بن أبي ربيعة، تحقيق: فايز محمد، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٦.

(٣) القبلة: القلة، ت.

الإعراب

قال: ﴿خَصۡمَانِ﴾ ، ثم قال: ﴿تَسَوَّرُواْ﴾ لما بينا أن الخصم يقال على الجمع، وقيل: لأنه بني على تقدير فرقتين، وكل فريق جمع، وقيل: الاثنان جماعة، وقيل: يجوز أن يكون معهما غيرهما، وتكلَّم اثنان.

و(إذ) في قوله: ﴿إِذۡ دَخَلُواْ﴾ قيل: معناه (لما)، تقديره: تسوروا لَمَّا دخلوا، وقيل: فيه تقديم وتأخير أي: لما دخلوا تسوروا، كقولهم: أعطيتك إذا سألتني، والسؤال قبل[١] العطاء، وقيل: تسوروا ودخلوا بمعنى، وإنما حسن لاختلاف اللفظين.

و(ما) في قوله: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمۡۗ﴾ صلة، وقيل: بمعنى (الذي).

والواحدة في قوله: ﴿نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ تأكيد.

المعنى

لما بَيَّنَ أنه تعالى آتى داود فصل الخطاب[٢] عقبه بذكر الخصمين اللذين اختصما إليه، فقال سبحانه: «**وَهَلْ أَتَاكَ**» يا محمد «**نَبَأُ الْخَصْمِ**» أي: خبرهم «**إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ**» أي: أتوا داود من سور محرابه، قيل: هو مصلاه، وقيل: كان حائطًا يصير إليه، عن أبي علي. وقيل: دخلوا من غير إذن، وقيل: كانا ملكين، وإلا فلو كانا بشرًا لم يتجاسرا[٣] على ذلك، ولِذلك[٤] قالا له: «**لا تخف**»، والرعية لا[٥] تقول للملك: لا تخف، وكذلك قوله: «**وَلا**[٦] **تُشْطِطْ وَاهْدِنَا**»، وأكثر المفسرين على أنهما ملكان على صورة الإنس، بعثهما الله إلى داود امتحانًا لما سلف منه، وهو قول أبي علي.

---

(١) قبل: قيل، ن.

(٢) الخطاب: القضاء، ن.

(٣) يتجاسرا: يجاسرا، ن.

(٤) ولذلك: وكذلك، ت.

(٥) لا: +، ن.

(٦) ولا: فلا، ت، ن.

وقيل: كانا بَشَرَيْنِ مع قوم تسوروا المحراب، واختصموا في نعاج وأغنام، وحمله على ظاهر الكلام، وهو قول أبي مسلم. «**إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ**» خاف لما دخلوا من جانب الجدار بغير إذن، وقيل: خاف؛ لأنهم دخلوا في غير وقته، وقيل: علم أنهما ملكان، فخاف أنهما جاءَا إليهم[1] «**قَالُوا لاَ تَخَفْ**» يا داود «**خَصْمَانِ**» أي: نحن خصمان، قيل: نحن كخصمين؛ لأنهما لم يكونا خصمين[2]، فحذف كاف التشبيه كما يقال: وجهه[3] القمر، أي: كالقمر، قال الشاعر:

بَــدَتْ قَــمَــرًا وَمَــالَــتْ خُــوطَ بَــانٍ   وفَــاحَــتْ عَــنْــبَــرًا وَرَنَــتْ غَــزَالاً[4]

وقيل: بل كانا خصمين، عن أبي مسلم. «**بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ**» أي: طلب عليه الزيادة «**فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ**» وقيل: لم يقولا: نحن خصمان، ولكن قالا[5]: خصمان، فهو كما يقال للمفتي: خصمان قالا، ورجل قال لامرأته كذا. «**وَلاَ تُشْطِطْ**» قيل: لا تَجُرْ[6]، عن ابن عباس، والضحاك. وقيل: لا تسرف، عن السدي. «**وَاهْدِنَا**» أي: دلنا «**إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ**» وسط الطريق وهو الحق «**إِنَّ هَذَا أَخِي**» قيل: قالا تمثيلاً وهما ملكان[7] لا أُخُوَّةَ بينهما، وقيل: أخي في ديني. وقيل: كانا أخوين من بني إسرائيل، وقيل: كانا أخوين من البشر، واختصما في نعاج، عن أبي مسلم. «**لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ**» قيل: النعجة كناية عن النساء، وهو تفهيم وتنبيه، لا أن هناك نعاجًا، وذلك من لطيف الكنايات، وحسن التعريض، والكنى عن النساء بالنعاج والظباء معروف في أشعارهم، وقيل: المراد: النعاج بأعيانها، عن أبي مسلم. فعلى الأول كأنه يقول: عنده تسع وتسعون امرأة، وعندي امرأة واحدة، وقيل: طَلَبْتُ امرأةً، فمنعني عنها، وتزوجها مع كثرة نسائه، عن أبي علي. وقيل: كان عند داود

---

(١) إليهم: المهم، ن.
(٢) خصمين: جمعين، ت.
(٣) وجهه: وجه، ت.
(٤) البيت قائله المتنبي: انظر ديوان المتنبي.
(٥) قالا: قال، ت، ن.
(٦) لا تجر: لا تخن، ت.
(٧) ملكان: ملكين، ت، ن.

تسع وتسعون امرأة، وطلب امرأة أخرى. وقيل: كانت امرأته أراد أن ينزل عنها ليتزوجها. وقيل: لم يكن عنده تسع وتسعون، وإنما هو مَثَلٌ، عن الحسن. «**فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا**» قيل: أنزل لي[1] عنها[2]، عن ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد. يعني: تحول عنها حتى تصير في نصيبي، وقيل: ضمها إلى جنبي أكفلها، عن أبي العالية. وقيل: اجعلها كفلي، أي: نصيبي، وقيل: ضمها، عن ابن كيسان. وقيل: أكفل مرتي[3] مفعول و(ها) المفعول الثاني وتقديره: أَعْطِ إياي النعجة. «**وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ**» قيل: دافعني عن خطبة هذه المرأة، عن أبي علي. وقيل: غلبني، وقيل: قهرني، عن ابن زيد، والضحاك، يقول: إن تكلم كان أفصح مني، وإن[4] حارب كان أبطش مني. «**قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ**» أيها المدعي «**بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ**» تقديره: بسؤاله نعجتك، فحذف الهاء تخفيفًا، وفي الكلام ما يدل عليه، ونحوه: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ [فصلت: ٤٩] أي: دعائه الخير، وقيل: فيه محذوف، أي: إن كان الأمر كما قلت وذكرت فقد ظلمك، وقيل: بل لما سمع الدعوى استعجل وقال: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾، وكان ينبغي ألا يحكم بالظلم على خصمه إلا بعد سماع كلامه، فهذا كان ذنبه، عن أبي مسلم. وقيل: بل معنى الآية أنه اعترف له صاحبه، فعند ذلك قال: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾، إلا أنه حذف الاعتراف لدلالة الكلام عليه، كما يقال: أمرتك بالتجارة، فاكتسبت الأموال، أي: فاتجرت، يدل عليه ما روي عن السدي قال: لما ادعى هذا قال داوود للآخر: ما تقول؟ قال: هو كذلك، فقال: إذًا[5] لا ندعك، فقال: يا داود أنت أحق بهذا، لك تسع وتسعون امرأة، ولأوريا امرأة، فَرُمْتَهَا، فنظر[6] داود فلم ير شيئًا، فعلم أنهما ملكان، «**وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي**» يعني: من الشركاء يطلب الزيادة

---

(١) انزل لي: أنزلني، ت، ن. وما أثبتناه من: تفسير مجمع البيان، للطبرسي: ٨/ ٣١١، التبيان في تفسير القرآن، للطوسي: ٨/ ٥٣٧، فقه القرآن: ٢/ ٤. الكشف والبيان، للثعلبي: ١١/ ٣٧٠.

(٢) عنها: عليها، ن.

(٣) مرتي: أمرتي، ن.

(٤) وإن: فإن، ت.

(٥) إذاً: إذن، ن.

(٦) فنظر: ونظر، ن.

بغير حق «**بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**» منهم أي: ليسوا[1] باغين «**وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ**» يعني: هؤلاء الذين لا يظن داود، وقيل: علم لَمَّا لَمْ يَرَ أحدًا أنهما ملكان، وقيل: علم أنه أخطأ[2] بالقضية على المدعى عليه، عن أبي مسلم. «**أَنَّمَا فَتَنَّاهُ**» أي: ابتليناه «**فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ**» أي: طلب المغفرة «**وَخَرَّ**» [راكعاً] أي: وقع في الركوع، وقيل: خر ساجدًا «**وَأَنَابَ**» أي: تاب ورجع إلى مرضاة الله تعالى «**فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ**» يعني ما تقدم، قيل: الصغيرة التي أتاها، ويجوز أن يسأل المغفرة وإن كانت مغفورة كقوله: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢]، وكقوله: ﴿لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، «**وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى**» لقربة من رحمة الله ودرجات «**وَحُسْنَ مَآبٍ**» أي: حسن مرجع.

القصة

اختلفوا هل لداود ذنب أم لا؟ فمنهم من قال: لم يكن ثَمَّ ذنب، وإنما استغفر على سبيل الانقطاع، ومنهم من قال: لم يكن ثم ذنب[3] بل كان له ذنب صغير، ثم اختلف هؤلاء، فقيل: كان ذنبه أن أوريا خطب امرأة وكان أهلها رغبوا فيه، وأرادوا أن يزوجوها منه، فبلغ داود عنها ما رغبه فيها، فخطبها، فزوجوها من داود ولم يزوجوها من أوريا، فعاتبه الله عليه، عن أبي علي.

وقيل: بل غاب أوريا لغزوة فزوجت من داود، فاغتم أوريا غمًّا عظيمًا، فعاتبه الله على ذلك.

وقيل: بل تمنى أن تكون امرأة أوريا حلالاً[4]، فاتفق قتل أوريا، فتزوج بها، ولم يجزع عليه كجزعه على أمثاله من جنده، فعوتب؛ لأن ذنوب الأنبياء وإن صغرت يعاتبون عليها؛ لمكانهم من الله تعالى.

وقيل: كان في شريعته إذا مات رجل، وخلف امرأة، فأولياؤه أحق بها إلا أن

(١) أي ليسوا: إذ ليس، ن.
(٢) أخطأ: خطأ، ت.
(٣) لم يكن ثم ذنب: ـ، ت.
(٤) حلالا: +، ت.

يرغبوا عن التزوج بها فحينئذ لغيرهم أن يتزوج بها، فلما قتل أوريا خطب داود امرأته، ولم يخطبها أولياؤه لجلالة داود وهيبته، فعوتب عليه، فهذه الوجوه التي قالها مشايخ العدليين مما يجوز على الأنبياء، وذكروا أنه كان صغيرًا، وعلى جميع هذه الوجوه التي قالوها[1] الخصمان ملكان بعثهما الله تعالى[2] إلى داود ابتلاء وتنبيهًا.

فأما أبو مسلم فإنه حمل الخصمين على بشرين، والنعاج في نعاج، وأن الخطيئة أنه حكم بالظلم على المدعى عليه قبل السؤال عنه على ما بَيَّنَّا.

ومتى قيل: ما أقدم عليه في هذه الوجوه كلها كان دله الله تعالى على أنه لا يجوز أم لا؟

قيل: بل دله وأمكنه أن يعرف ذلك، فترك الاستدلال، ولم يتعمد الخطيئة.

ومتى قيل: إن كانت صغيرة فَلِمَ استغفر؟

قلنا: الأنبياء وإن صغر ذنبهم تلزمهم التوبة لعظم موقعها، لعظم[3] نعم الله تعالى عليهم، ولعظم محلهم.

وقيل: يلزم الاستغفار جبرًا لما[4] ينقص من الثواب، عن أبي هاشم.

وقيل: بل تحرز عن الإصرار، عن أبي علي، فعلى الأول فعله ندب غير واجب، وعلى الثاني واجب.

ومتى قيل: إن كان مغفورًا فلم قال: ﴿فَغَفَرۡنَا لَهُۥ﴾ ؟

قلنا: لأنه يغفر حالاً بعد حال؛ لأن الغفران هو الستر، وترك المؤاخذة، وقد روي عن علي (كرّم الله وجهه): (من حدث بحديث داود على ما يرويه القصاص معتقدًا صحته[5] جلدته حدين؛ لعظم ما ارتكب)، وروي عنه: (من قال: إن داود افتتن بامرأة أوريا جلدته مائة وستين؛ لأنه قذف نبيًا، فيضاعف عليه الحد).

---

(١) قالوها: قالها، ت، ن.
(٢) تعالى: ـ ، ن.
(٣) لعظم: لعظيم، ن.
(٤) لما: مما، ن.
(٥) صحته: لصحته، ت.

فأما ما ترويه الحشوية[(١)] ـ نعوذ بالله منه ـ: فزعموا أنه تعالى ابتلى داود بامرأة أوريا، واختلفوا ما السبب فيه، فقال بعضهم: إنه تمنى على ربه منزلة آبائه فقال: لقد ابتليتهم بما لم تُبْتَلَ[(٢)] به، فسأل الله تعالى أن يبتليه، فابتلاه بالحمامة.

وقال بعضهم: بل كان جعل أيامه أربعة أجزاء: يومًا لنسائه، ويومًا للعبادة، ويومًا لبني إسرائيل يذاكرهم، ويومًا للقضاء وفصل الخصومات، فتذاكروا يومًا، وقالوا: هل يأتي على الإنسان يوم لا يصيب فيه ذنبًا؟ فأضمر داود أنه سيطيق ذلك، فدخل محرابه وغلق أبوابه، فابتلاه الله بالحمامة.

وقيل: بل قال لما ملك أمر بني إسرائيل: والله لأعدلن بينكم، ولم يستثنِ، فابتلي بالحمامة.

وقيل: أعجب داود بعمله فنهي عن ذلك، وأتاه جبريل وقال: إن أعجبت ثانيًا وكلتك إلى نفسك، فقال: يا رب كلني إلى نفسي سنة، فقال: إنها لكثيرة، فقال: شهرًا، فقال: كثير، فقال: أسبوعًا، فقال: إنها لكثير، فقال: يومًا، فقال: إنه لكثير، قال: ساعة، قال: شأنك بها، فدخل المحراب ووضع الزبور يقرأ، ووكل الحراس، فابتلي بالحمامة. فهذا اختلافهم في سبب الابتلاء، وإن كان بعضهم فيها كبيرة.

ثم اختلفوا في الحمامة، فقيل: جاءه الشيطان تمثل في صورة[(٣)] حمامة من ذهب فيه كل لون حسن.

وقيل: بل كانت حمامة من ذهب، قالوا: فلما رأى الحمامة مد إليها يده ليأخذها، وقيل: ليدفعها إلى ابن له صغير، فتنحت الحمامة، فتبعها داود، فما زال يتبعها حتى وقعت في دار أوريا، وإذا امرأته عريانة تغتسل كأجمل ما تكون، فعشقها، فسأل عنها، فقيل: إنها امرأة أوريا، وكان أوريا في غزاة، فكتب إلى صاحب جيشه أن يقدمه أمام التابوت، وكان كل من قدم لا يحل له أن يرجع حتى يقتل أو يفتح، فما

---

(١) الحشوية: الحشو، ن.

(٢) تبتل: تبتلي؛ ن، ت.

(٣) صورة: صوة، ت.

زال يقدم حتى قتل، وتزوج بامرأته، وهي أمّ سليمان، وبعث الله إليه الملكين، وتنبه داود فتاب وبكى، وجعل يتضرع حتى نبت الزرع من دموعه، فأمره الله تعالى أن يأتي قبر أوريا، فأتى أوريا، فأحياه الله، وقال: ما جاء بك يا نبي الله؟ فقال: اجعلني في حل مما كان مني إليك، قال: وما هي؟ قال: قدمتك لتقتل، فقال: غرضي للشهادة والجنة، أنت في حل، فأوحى الله تعالى إليه: قل له ما صنعت، فرجع إلى أوريا وناداه، وأحياه الله تعالى، وعرض عليه القصة، وقال: فعلت بك كذا لمكان امرأتك، فسكت أوريا ولم يتكلم، فأعاد داود الكلام ثلاث مرات لم يجبه أوريا، فقام وجعل يحثو التراب على رأسه ويبكي ويتضرع حتى نودي: غفرت لك، وسأرضي عنك أوريا.

وروي أن داود قال: يا ربِّ بكيت عَلى خطيئتي كذا وكذا، فقال: يا داود تَذْكُرُ عَبْرَتَكَ ولا تذكر عثرتك؟

فكل هذه روايات باطلة، ولعلها من دسيس الملحدة؛ لينفروا الناس عن الأنبياء، والله تعالى جعل أنبياءه حجة على عباده، ونزههم عن كل منفر وكل كبيرة، فلا[1] يجوز على داود، وهو نبي مثل هذه الروايات، بل تجويزه عليه كُفْرٌ؛ لأنه استخفاف به، فكيف يجوز على نبي من أنبياء الله تعالى أن يقول لربه: كلني إلى نفسي، وهذا لا يقوله واحد من عرض الناس؟! والعجيب أنهم يرون هذا وعندهم كيف يكله، وهو خالق أفعاله؟! وكيف وكله إلى نفسه، وهو الذي أوقعه في هذه الفتنة؟! وقد قال بعض مشايخنا: إن قوله: «وظن» يدل أن الذنب كان مظنونًا، وأنه لم يتعمد، وكيف يجوز أن يُقَدِّمَ رجلاً مسلمًا ليقتل لأجل امرأة، ولو فعل هذا بعض الفساق قبح منه، فكيف وهو نبي من أنبياء الله تعالى؟! ولأن إرادة قتل المسلم تَعْظُمُ.

فأما ما روي عن داود من البكاء والتضرع لأجل صغيرة مغفورة فلا يبعد، كما روي أن النبي ﷺ كان يجتهد كل الجهد، ويبكي ويدعو ويتضرع حتى قيل له في ذلك، فقال: «أفلا أكون عبدًا شكورا».

(١) فلا: ولا، ت.

وعن وهب: لما تاب الله عليه بكى على خطيئته ثلاثين سنة، لا تَرْقَأُ له دمعة. وقيل: بقي أربعين سنة كذلك، وقيل: كان لا يأكل ولا يشرب أيامًا يتضرع، وقيل: أصاب الخطيئة، وهو ابن سبعين سنة، وقيل: ما شرب شرابًا بعد المغفرة إلا ممزوجًا بدمع عينيه.

وروي عن النبي ﷺ وآله قال: «خد الدموع في وجه[1] داود خديد الماء في الأرض».

وعن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «كان الناس يعودون داود يظنون به مرضًا وما به مرض، ما به إلا الحياء وخوف الله تعالى».

وعن الحسن: أن داود بعدما أصاب الخطيئة كان يصوم الدهر، ويقوم الليل كله، ويقول: أنا داود الخاطئ.

۞ الأحكام

ظاهر الآية يدل على مواقعة ذنب، وتؤيده الروايات، والصحيح في ذلك ما ذكره شيخنا أبو علي أنه خطب على خِطْبَةِ أوريا، وقد ورد النهي عن ذلك في شريعتنا، فقال ـ صلى الله عليه وآله ـ: «لا يسومن الرجل على سوم أخيه، ولا يخطبن على خطبة أخيه»، ومن الفقهاء من لا يجوز البيع في ذلك، وهو مذهب الهادي عليه السلام، والصحيح أنه كان صغيرًا؛ لأن الكبائر لا تجوز على الأنبياء.

ومتى قيل: هل علم بخطبة أوريا؟

قلنا: لعله لم يتفحص، أو لعل الخطبة كان تكره ولا تحرم على ما هو عند أكثر الفقهاء الآن، وكان مكن من ذلك فترك الاستدلال، ولولا النقل المستفيض وإجماع أهل التفسير لكان الأليق بالظاهر ما حكيناه عن أبي مسلم وهو الظاهر، ولا مانع منه، ولأنه يجوز أن يقال للحاكم[2]: اقض بيننا بالحق، والصحيح أنهما قالا لِكونهما[3]

(١) وجه: خد، ت.

(٢) للحاكم: للحكام، ن.

(٣) لِكونهما: بكونهما، ت.

ملكين، وعظم حالهما[١]، وقد يجوز مثله في الحكام، فأما في الأنبياء فلا يجوز لأحد من أمتهم أن يخاطبهم بمثل ذلك.

وتدل على أن أهل الحق تَقِلّ في كل وقت.

وتدل على أن البغي والظلم فعل العبد، فيبطل قولهم في المخلوق.

قوله تعالى:

﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٩﴾﴾

القراءة

قرأ أبو جعفر وعاصم في رواية أبي بكر عنه: (لِيَتَدَبَّرُوا) بالتاء وتخفيف الدال، الباقون بالياء وتشديد الدال، وأصله: ليتدبر، فأدغم.

اللغة

الخليفة: المدبر للأمر[٢] مِنْ قِبَلِ غيره على جهة البدل من تدبيره، وخليفة الله: مَنْ جعله الله لتدبير عباده.

والنسيان: ضد العلم، والصحيح: أنه عدم علوم ضرورية بأمر جرت العادة بالعلم به، والنسيان: الترك أيضًا.

---

(١) حالهما: محلهما، ن.

(٢) للأمر: الأمر، ت.

۞ الإعراب

العامل في «يوم» ﴿نَسُواْ﴾، وقيل: العامل فيه ﴿عَذَابٌ شَدِيدُۢ﴾ وهو نصب على الظرف.

﴿فَيُضِلَّكَ﴾ نصب؛ لأنه جواب النهي بالفاء وهو: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ﴾.

﴿مُبَٰرَكٌ﴾ نعت للكتاب، أي: كتاب مبارك أنزلناه، والهاء في محل النصب.

۞ النزول

قيل: نزل قوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ﴾ الآية في علي وحمزة وعبيدة، وفي عتبة وشيبة والوليد لما تبارزوا يوم بدر، يعني: لا نسوي بين المؤمن والكافر.

۞ النظم

يقال: كيف يتصل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ[1]﴾ بما قبله؟

قلنا: يتصل بقوله: ﴿يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾، فبين أنه خلق لغرض وهو البعث، وذلك الغرض لا يتم إلا بالحساب والجزاء؛ لأن الغرض التكليف، وإنما يحسن لأجل الثواب.

وقيل: لما أمره بالحكم بالحق بين أنه خلق الخلق للحق لا للباطل.

۞ المعنى

ثم ذكر تعالى ما أنعم على داود، فقال سبحانه: «**يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ**» قيل: خلف من مضى من الأنبياء في الدعاء إلى توحيد الله وعدله، وبيان شرائعه، والحكم بين عباده، عن أبي مسلم. وقيل: مَلَّكْناكَ الحكم فيهم وتدابيرهم، عن أبي علي. «**فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ**» أي: افصل أمورهم بالحق، وضع كل شيء موضعه «**وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى**» أي: لا تتبع في أمورك طريق الهوى؛ بل اتبع طريق الحق «**فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ**» عن دينه «**إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ**» غيرهم «**لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ**» قيل: تقديره: لهم عذاب شديد يوم الحساب بما نسوا، وقيل: بما

---

(١) السَّماء: السماوات، ت.

تركوا، عن السدي، وعكرمة. وقيل: بل معناه نسوا يوم الحساب بأن أعرضوا عنه حتى صاروا كالناسين له، عن الحسن. وقيل: بتركهم الإيمان بيوم الحساب، وقيل: بتركهم العمل بما ينفعهم يوم الحساب «**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ**[1] **وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً**» أي: لو لم يكن مجازاة[2] ومحاسبة وإعادة لكان خلق جميع ذلك عبثًا باطلاً حيث لا يكون على المصائب عوض، ولا بين الظالم والمظلوم انتصاف، ولا على الطاعة ثواب، ولا على المعصية عقاب، ولأن جميع ما يوجد في العالم من العادات الحادثة والأفعال المتسقة للاعتبار، فلو لم يكن كذلك لكان عبثًا، والباطل ما لا يكون فيه غرض صحيح، «**ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا**» يعني: مَنْ لم يؤمن بالمعاد كان ظانًا أن خَلْقَهما باطل «**فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ**».

ثم أكد ذلك فقال سبحانه: «**أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ**».

ثم أكد أمر المعاد فقال سبحانه: «**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ**» يعني: القرآن «**مُبَارَكٌ**» لما فيه من منافع الدين والدنيا، وبالتدبر[3] فيه يصل إلى كل خير «**لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ**» أي: ليتفكروا فيها فإنها جامعة للعقليات[4] والشرعيات «**وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**» يعني: ليتذكروا ما فيه، فهم المخاطبون دون مَنْ لم يكن عاقلاً، واللّبّ: العقل، واللام في قوله: «**لِيَدَّبَّرُوا**» لام الإرادة، أي: أنزلناه نريد منهم أن يدبروا.

۞ الأحكام

تدل الآيات أنه تعالى جمع لداود بين النبوة والخلافة التي تتضمن[5] الحكم بين الناس وتنفيذ الأحكام.

---

(١) السماء: السماوات، ت.

(٢) مجازاة: مجزاة، ت.

(٣) وبالتدبر: التدبير، ت.

(٤) للعقليات: للطيبات، ت

(٥) تتضمن: تنظم، ت.

وتدل أن من اتبع هواه فهو ضال؛ لأنه لم يتبع الدليل ولا الحق[١].

وتدل أن مَنْ حَكَمَ لرشوة أو شفاعة أو محاباة على رئاسة لا ينفذ؛ لأنه أوقع للهوى[٢].

وتدل على وعيد الفساق؛ لأنه بين أنهم لما نسوا الوعيد ارتكبوا الكبائر.

وتدل أن كل من لا يدّبر بالوعيد داخل في جملتهم.

وتدل أنهم لا يستحقون اسم التقوى.

وتدل أنهم لا يكونون في الجنة مع المؤمنين.

وتدل أن الباطل ليس من خلق الله تعالى.

ويدل قوله: «ليدبروا» على وجوب النظر.

ويدل أن الخطاب للعقلاء.

قوله تعالى:

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾

اللغة

نِعْمَ: ضد بِئْسَ، تقول: بئس[٣] الرجل زيدٌ، ونعم الرجل عمرٌو.

والعرض: إظهار الشيء بحيث يرى ليتميز أمره بما يقتضي حاله، وأصله: الإظهار.

---

(١) ولا الحق: ولا الحق بدليل، ن.

(٢) للهوى: الهوى، ت.

(٣) تقول بئس: ـ، ت.

والصافنات: جمع صافنة، وأصله: الصُّفُونُ، قيل: هو الوقوف، عن ابن قتيبة، وأبي مسلم. وقيل: هو القائم على ثلاث، وقد يثني سُنْبُكَهُ، وذلك من عادة الخيل.

والجياد: جمع جواد، وهو السراع من الخيل كأنه يجود بالركض، ورجل جواد: كثير العطاء، وقيل: [جياد] جمع جَوْدٍ، نحو: نشط ونشاط[1].

طفق: أخذ في الفعل، طَفِقَ يفعل كذا، وجعل يفعل كذا، قال أبو عبيدة: طفق يفعل؛ معناه: ما زال يفعل.

الإعراب

«حُبَّ» نصب على المصدر، أي: أحببت الخير حبًّا.

و«مَسْحًا» نصب على المصدر، أي: يمسح مسحًا، وهو المفعول المطلق.

المعنى

ثم عطف على قصة داود حديث سليمان، فقال سبحانه: «وَوَهَبْنَا» أي: أعطينا «لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ» ابنا «نِعْمَ الْعَبْدُ» قيل: كناية عن سليمان؛ لأنه أقرب المذكورين إليه، ولأن أواب في صفة داود، وقد تقدم، وقيل: بل كناية عن داود، والأول أوجه «إِنَّهُ أَوَّابٌ» قيل: رجاع إلى طاعة الله تواب «إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ» على سليمان، قال أبو مسلم: ويحتمل داود «بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ» الأفراس الجياد الواقفات على ثلاث قوائم واضعة طرف سنبكه الرابع على الأرض، وقيل: صُفُونُ الفرس: رَفْعُ إحدى يديه حتى يكون على طرف الآخر، عن مجاهد. وقيل: قيامها على ثلاث ورفع الرابع، عن ابن زيد. «الْجِيَادُ» السراع المشي الواسع الخطو، قيل: غزا سليمان دمشق ونصيبين فأصاب ألف فرس، عن الكلبي. وقيل: ورث من أبيه ألف فرس، وكان أبوه أصاب من العمالقة، عن مقاتل. وقيل: كانت خيلاً خرجت من البحر لها أجنحة، عن الحسن، قال: فصلى سليمان صلاة الأولى وقعد على كرسيه، وهي تعرض حتى غابت الشمس

(١) هكذا في ت، ن. وفي تفسير التبيان ٨/ ٥١٢: سوط وسياط.

«فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي» يعني: أحببت حُبًّا للخيل أو لحب الخيل، كقوله: ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِۚ﴾ [البقرة: ١٩] أي: لحذر الموت، وقيل: أحببت خيرًا ينال بهذا الخيل، عن أبي علي. وقيل: الخير: الخيل، أي: أحببت حب الخيل، عن قتادة، والسدي. وقيل: أراد بالخير المال، وهو الخيل التي عرضت عليه «عَنْ ذِكْرِ رَبِّي» قيل: شغلتني عن ذكر ربي، أي: عن صلاة العصر، عن أمير المؤمنين، وقتادة، والسدي. وقيل: (عن) بمعنى (على) أني آثرت الخيل على ذكر ربي، وقيل: لذكر ربي حتى أجاهد عليه. قال الحسن: ما زال[1] تعرض عليه حتى فاتته صلاة العصر. وقال أبو علي: كانت صلاة العصر لم تكن مفروضة اشتغل عنها بالخيل والنظر إليها. قال القاضي: ويحتمل أن تكون صلاة العصر لم تكن مفروضة في شريعته. وقال بعضهم: كانت صلاة منذورة، وقيل: معنى الكلام: إني أحببت الخيل عن كتاب الله التوراة أو غيرها فإنَّ ذِكْرَ الله: كتابُهُ[2]، وكما أن ارتباط الخيل في كتابنا ممدوح كذلك كان في كتابهم، عن أبي مسلم. «حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ» قيل: توارت الشمس بالحجاب، يعني: غربت، عن ابن مسعود، وجماعة من المفسرين الحسن وغيره، وهو قول أبي علي. ويكون كناية عن غير مذكور، وذلك جائز في كلام العرب، قال تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، قال الشاعر:

حَتَّى إذا أَلْقَتْ يَدًا فِي كَافِرٍ[3]

يعني: الشمس، وقيل: توارت الخيل بالحجاب بأن غابت عن بصره، فإنه أمر بأن تخرج الخيل فأخرجت حتى غاب بصره، عن أبي مسلم. «رُدُّوهَا عَلَيَّ» الهاء كناية عن الخيل، أمر برد الخيل عليه، عن أكثر المفسرين. وقيل: كناية عن الشمس، يعني: سأل الله تعالى[4] أن يردها عليه فردت عليه حتى صلى العصر، عن علي عليه السلام.

---

(١) ما زال: لا زال، ن.

(٢) كتابه: كناية، ن.

(٣) البيت قائله: لبيد بن ربيعة العامري في معلقته وتكملته:

حتى إذا ألقت يدًا في كافر ... وأجن عورات الثغور ظلامها

انظر: ديوان لبيد بن ربيعة العامري، تحقيق: إحسان عباس، وزارة الإعلام، دولة الكويت، ١٩٦٢.

(٤) تعالى: ـ، ن.

«**فَطَفِقَ مَسْحًا**» أي: أخذ يمسح، وما زال يمسح «**بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ**» قيل: أخذ يقطع سوقها وأعناقها بالسيف، وقيل: لا تشغلني عن عبادة ربي مرة أخرى، عن الحسن. وقيل: جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها حبًا لها، عن ابن عباس، والزهري، وابن كيسان. وقيل: أخذ يمسح؛ ليعلم حالها كما يفعل أرباب الخيل، عن أبي مسلم. وقيل: مسح أعناقها وسوقها وجعلها مسبلة في سبيل الله، وسئل ثعلب عن هذه، وقيل له: إن قطرب[1] يقول: يمسحها ويبارك عليها، فأنكر أبو العباس قوله وقال: القول ما قال الفراء: يضرب أعناقها وسوقها، وقيل: المسح لا يفيد القطع وضرب العنق ولا قطع العراقيب؛ إلا أن أكثر المفسرين عليه.

ومتى قيل: لِم قطع السوق والأعناق؟

قلنا: يحتمل أنه يضرب، ويكون لقربان في ذلك الزمان على ذلك الوجه، كما روي أن القربان كان تأكله النار، ثم يكون للخيل عوض ذلك كما يكون على الذبح ليخرج من حد الظلم.

ومتى قيل: أليس ذلك يكون إسرافًا؟

قلنا: إذا كان متعبدًا به فلا يكون إسرافًا، وقد ذبح النبي ﷺ سبعين بدنة عام الحديبية، وقد قال الحسن: لما عقر الخيل أبدله الله مكانها خيرًا منها: الريح غدوها شهر ورواحها شهر، وقال ابن عباس: سألت عليًا (كرّم الله وجهه) عن هذه الآية فقال: ما بلغك فيها يا ابن عباس؟ قلت: سمعت كعبًا يقول: اشتغل سليمان يومًا بعرض الأفراس حتى فاتته الصلاة، فقال: ردوها عليّ ـ يعني الأفراس وكانت أربع عشرة[2] ـ، فأمر بضرب سوقها وأعناقها بالسيف فقتلها، فسلبه الله تعالى ملكه أربعة عشر يومًا؛ لأنه ظلم الخيل بقتلها، فقال علي (كرّم الله وجهه): كذب كعب، لكن اشتغل سليمان بعرض الأفراس ذات يوم؛ لأنه أراد بها الغزو حتى توارت الشمس بالحجاب، فقال بأمر الله للملائكة الموكلين بالشمس: ردوها عليّ، فردت، فصلى

(١) قطرب: نظرت، ت.

(٢) أربع عشر: أربعة عشر، ن.

العصر في وقتها، وإن أنبياء الله لا يَظْلِمُونَ ولا يأمرون بالظلم؛ لأنهم معصومون مطهرون.

۞ الأحكام

الآية تدل على مدح سليمان، وأنه فعل فعلاً استحق به المدح؛ لذلك قال: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾، ثم وصفه بما ذكر، وهذا ضد ما تقوله الحشوية أنه اشتغل بالخيل حتى فاتته صلاة العصر، وهي[1] فرض، ثم أمر بقتل الأفراس من غير ذنب، ولولا أن أكثر المفسرين وأصحاب النقل وأكثر العلماء على أنه ضرب أعناقها وسوقها لكان الأليق بالظاهر ما يقوله أبو مسلم: أنه عُرِضَ عليه الخيل، فما زال تعرض حتى غابت عن عينه، ثم قال: ردوها، فمسح سوقها وأعناقها كما هو العادة من أرباب الخيل، ولقوله: إنما أحب ذلك لا لزينة الدنيا؛ ولكن الله تعالى أمر به في كتابه، فإن حملناه على هذا فلا كلام، وإن حملناه على القطع فقد بيَّنَّا ما قيل فيه، إلا أنه لا بد أن يكون ما فاته نفلاً اشتغل به على ما يقوله أبو علي، وليس في الظاهر أنه كان فرضًا، ولا يجوز على الأنبياء ترك صلاة فرض في وقته؛ لأنه يؤدي إلى الفسق، والتنفير إن كان ناسيًا.

قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾

۞ اللغة

الفتنة: الاختبار والامتحان.

والكرسي: السرير.

---

(١) وهي: وهو، ن.

والتسخير: تذليل العمال للعمل(١).

والرُّخَاءُ: الريح اللينة، وهو من رخاوة الجري وسهولته، رُخَاء: «فُعَالٌ» من الرخو، وهو السهل اللين، كما يقال للطويل: طُوال، وللجسيم جُسَام، وللكبير كُبَارٌ.

والغَوص: النزول في الماء، غاص يغوص غوصًا فهو غائص، وغَوَّصَهُ تغويصًا.

والأصفاد: الأغلال، وقيل: القيود، واحدها: صَفْدٌ، وتجمع [على]: أَصْفِدَةٍ وصُفْدٍ، يقال: صفدته بالحديد بالتشديد والتخفيف. فأما أصفدته بالألف فمعناه: أعطيته، والصَّفَدُ: العطية.

۞ الإعراب

نصب «الشياطين» عطفًا على (الريح) أي: سخرنا الشياطين، وسخرنا كل بناء وغواص، وسخرنا آخرين مقرنين.

۞ المعنى

ثم ذكر تعالى ما ابتلى به سليمان ﵇، فقال تعالى: «وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ» أي: امتحنا واختبرنا، والمراد: شدة التعبد، والاختبار من جهته أن يعامل معاملة المختبر بالتكليف، وإلا فهو عالم لذاته بجميع ما كان ويكون.

ثم فسر الامتحان، فقال سبحانه: «وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا» واختلفوا في هذا اختلافًا شديدًا، ورووا روايات مختلفة، وذكروا في بعضها ما لا يجوز على أنبياء الله، وفي بعضها ما لا يجوز(٢) على الله تعالى، وفيها ما يقرب من الكفر، ولا شبهة أنه من دسيس الملحدة.

ونحن نبين جميع ذلك على سبيل الإيجاز، ونبين الصحيح من الفاسد وما هو أولى:

---

(١) للعمل: العمل، ت.

(٢) على أنبياء الله وفي بعضها ما لا يجوز: ـ، ت.

فقيل: أمره الله تعالى ألا يتزوج من غير بني إسرائيل، فتزوج من غيرهم، فابتلي بحديث الخاتم.

وقيل: بل[1] وطئ امرأة في حال الحيض فسال منها الدم، فوضع خاتمه ودخل الحمام، فجاء الشيطان وأخذه.

وقيل: وطئ في ليلة عدة من جواريه حرصًا على كثرة الولد.

وقيل: إنه تزوج امرأة مشركة، فأراد أن تسلم فقالت: إن أكرهتني على الإسلام قتلت نفسي، فتركها، فعبدت الصنم في دارها أربعين يومًا، فابتلي بحديث الشيطان والخاتم.

وقيل: تزوج بابنة ملك وأحبها حبًّا شديدًا، وكانت تبكي شوقًا إلى أبيها، فأمر سليمان الشياطين حتى مثلوا لها صورة أبيها، فكانت تسجد لتلك الصورة، وتأمر من معها بالسجود، فبلغ ذلك آصف وزير سليمان، فأخبر سليمان، فابتلي بالخاتم والشيطان.

وقيل: احتجب ثلاثة أيام لم ينظر في أمر الناس، فابتلي بذلك.

فهذا ما ذكروا من سبب الابتلاء.

ثم رووا فيما ابتلي به: أن الشياطين أخذوا خاتمه، وأن ملكه كان في خاتمه، ثم قعد [الشيطان] على سريره وطاف على نسائه، وأنه حضره الجن والإنس والطير[2]، وهرب سليمان فلم يعرفه أحد حتى أتى ساحل البحر، وأنكر الناس حديث الشيطان، وتكلموا فيه، وتكلم آصف لنسائه[3]، فذكرن ما أنكرن من ذلك، وعلم الشيطان ذلك، فطار وألقى الخاتم في البحر، وكان سليمان مع الصيادين يأخذ كل يوم سمكتين، فلما كان ذلك اليوم وجد خاتمه في بطن إحداهما، فتختم به وعاد ملكه، واعتكف عليه الطيور، في قصة طويلة ذكروها واختلاف روايات تقل الفائدة في ذكرها.

---

(١) بل: ـ، ن.

(٢) والطير: +، ن.

(٣) لنسائه: بنسائه، ن.

واختلفوا في سبب الإنكار، فقيل: رأوا أحكامه مختلفة فأنكر آصف، فدخل على نسائه وذكر أمره، فذكرن أنه يجامعهن في حال الحيض، وأنه لا يغتسل من جنابة، فعند ذلك أيقنوا.

وقيل: لما أنكروا فراق التوراة طار[1] الشيطان، وقعد آصف على سريره يقضي حتى عاد سليمان، كل ذلك عقوبة له.

وقيل: لما عاد أخذ الشيطان فصفده[2]، واختلفوا في اسمه، فقيل: صخر، وقيل: آصف، وقيل: حقيق، وهذا كله فاسد؛ لأن الأنبياء لا يُعاقبون، ولا تجوز عليهم الكبائر، ولا يجوز أن يُعْبَدَ في بيته الصنم؛ لما فيه من التنفير، ولا يجوز على الله أن يُمَكِّنَ شيطانًا حتى يقعد على سريره، ويحكم بين عباده، ويطأ نساء نبيه، وكيف يغير صورته الشيطان، ولا يقدر عليها[3]، ولا يجوز على الله أن يغير، ومحال أن يقال: مُلْكُهُ كان في خاتمه، والله تعالى أعطاه الملك والنبوة، قال الحسن: ما كان الله ليسلط شيطانًا على نسائه.

فأما ما يقوله علماؤنا وعلماء التفسير: فرووا عن النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ «أن سليمان عليه السلام قال: أطوف الليلة على مائة امرأة، فتلد كل امرأة غلامًا يقاتل في سبيل الله، ولم يقل: إن شاء الله، فطاف، فلم تحبل إلا امرأة واحدة ولدت نصف غلام، فجاءت به القابلة فألقته على كرسيه بين يديه، ولو قال: إن شاء الله كان كما قال»، فكان الابتلاء لأجل الاستثناء، والجسد هو نصف الولد.

وقيل: ولد لسليمان ولد، واحتال الشياطين في قتله، وقالوا: نخاف أن يعذبنا كما عذبنا أبوه، فأمر السحاب فحملته، وأمر الريح أن تحمل إليه غذاءه خوفًا من الشياطين، فمات الولد، فألقي ميتًا على سريره ابتلاء حين[4] خاف من الشيطان، فهو الجسد، عن الشعبي.

(١) طار: فطار، ت، ن.
(٢) فصفده: يصفده، ت.
(٣) عليها: عليه، ت، ن.
(٤) حين: حتى، ت.

وقيل: بل ولد له ولداً[١] ميت، جسد بلا روح، فألقي على سريره، عن أبي علي.

وقيل: بل امتحنه الله بمرض شديد، فصار[٢] جسدًا لا حراك به، مشرفًا على الموت كما يقال: لَحْمٌ على وَضَمٍ، عبارة عن شدة الضعف، وتقديره: ألقينا على كرسيه جسدًا، فحذف الهاء للاختصار، عن أبي مسلم.

«**ثُمَّ أَنَابَ**» رجع إلى الله ورضاه، وقيل: لما رجع إلى حال الصحة جدد الاستغفار كما هو عادة الصالحين. «**قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي**» قيل: لا يطلبه أحد فيناله معجزة يختص به كما اختص موسى بالعصا واليد، وصالح بالناقة، ومحمد بالمعراج والقرآن. وقيل: لا ينبغي لأحد من قومي؛ إذ لو جاز لغيره لأدى إلى التنفير عنه، ولم يرد إلا أن يكون لغيره من الأنبياء. وقيل: أراد ملكًا ثابتًا لا يزول. وقيل: «**لا يَنبَغي**»؛ أي: لا يكون لأحد من بعدي، عن أبي عبيدة، وابن كيسان. وقيل: أراد تسخير الريح والطير، يدل عليه ما بعده، عن مقاتل. فأجاب الله دعاءه وأعطاه، فقال سبحانه: «**فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً**» سريعة طيبة، عن قتادة. وقيل: لينة، عن ابن زيد. وقيل: مطيعة، عن ابن عباس، والحسن، والضحاك، والسدي. أي: تطيع له كيف أراد، وقيل: كان يغدو من إيليا ويقيل بقزوين ويبيت بكابل[٣] «**حَيْثُ أَصَابَ**» قيل: أراد، عن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، والسدي.

ومتى قيل: كيف تطيع الريح وهي[٤] جماد؟

قلنا: هذا على طريق التمثيل، يعني: أنه تعالى يخلق فيها الحركة على حسب إرادته، ويجريها[٥] على حسب مشيئته.

(١) ولد: ولدا، ت.
(٢) فصار: صار، ن.
(٣) بكابل: ببابل، ن.
(٤) وهي: وهو، ن.
(٥) ويجريها: ويجريه، ن.

ومتى قيل: أليس وصف الريح بالعاصف في قوله: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ [الأنبياء: ٨١]؟

قلنا: مرة عاصفة ومرة لينة بحسب إرادة سليمان معجزة.

«**وَالشَّيَاطِينَ**» أي: وسخرنا الشياطين[١] «**كُلَّ بَنَّاءٍ**» يبنون له ما أراد «**وَغَوَّاصٍ**» يغوص البحر، ويستخرجون اللآلئ والحلي، عن قتادة. وقيل: هو استخراج اللؤلؤ من البحر «**وَآخَرِينَ**» وهم الكفرة[٢] المردة منع شرهم «**مُقَرَّنِينَ**» مشدودين «**فِي الْأَصْفَادِ**» قيل: القيود، وقيل: الأغلال، وقيل: السلاسل[٣] تجمع اليدين إلى العنق، عن السدي.

ومتى قيل: كيف سخر الشياطين؟

قلنا: يحتمل أنه تعالى سلط عليهم الملائكة أو مؤمني الجن، ويحتمل أنه سخرهم لسليمان بأن ألقى في قلوبهم الرعب، فأطاعوا كما تطيع الأنعام والدواب.

ومتى قيل: فكيف عملوا تلك الأعمال مع لطافة أجسادهم؟

قلنا: يحتمل أنه كَيَّفَ أجسادهم، وقواهم على تلك الأعمال معجزة له.

ومتى قيل: فإلى ماذا آل حالهم؟

قلنا: ماتوا وتفانوا كالممسوخ من بني إسرائيل؛ لأن في بقائهم فسادًا، وخلاف ما يعتقد فيهم. وقيل: يعيدهم إلى اللطافة.

«**هَذَا عَطَاؤُنَا**» لك يا سليمان «**فَامْنُنْ**» أعط «**أَوْ أَمْسِكْ**» لا تعطِ «**بِغَيْرِ حِسَابٍ**» قيل: لما كان البذل والإمساك يدخل فيه الحساب أزال الحساب عنه، أي: أعط كما شئت وأمسك كما شئت، وقيل: «**بغَيْرِ حِسَاب**» بغير تقدير، فإنه تعالى لم يحدّ له حدًّا، ولكن أباح الإعطاء والإمساك، فأما في الآخرة ففيه الحساب؛ لأنه طاعة، قال

(١) الشياطين: الشيطان، ت، ن.
(٢) الكفرة: الكفار، ت.
(٣) السلاسل: السلال، ت.

الحسن: إن أعطى أُجِرَ، وإن لم يعط لم يؤجر، ولم يُعط[1] أحد مثل ما أُعطي سليمان، وقيل: أراد بالحساب السعة، إن أعطيت أو أمسكت فلا تبعة عليك فيه، هذا في باب الشياطين إن شئت فامنن عليهم، وأجرهم[2] من العمل، وإن شئت أمسكهم ولا حساب عليك فيهم، وقيل: سواء عليك أنفقت، أو أمسكت[3] لكثرته، عن أبي مسلم. وقيل: أراد هؤلاء الشياطين يستخرجون الحلي من المعادن والبحر فافعل ما شئت، فإن ذلك ملكك، وذلك نعمة عظيمة عليه، وقيل: هذا الذي أعطيناك فاعط ما شئت «**وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى**» أي: القربة والاختصاص في الآخرة «**وَحُسْنَ مَآبٍ**» أي: حسن مرجع يوم القيامة.

❁ الأحكام

يدل قوله ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أن التوبة من الصغائر مشروعة.

ويدل قوله: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ﴾ على جواز الصغائر على الأنبياء.

وتدل الآيات على أن الاتساع في الدنيا لا يكره إذا وافق الشرع؛ لذلك قال: ﴿فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ﴾ ، وإنما يكره؛ بل يحرم اكتساب الحرام، ومنع الحقوق الواجبة، والاغترار بالدنيا، والركون إليها، والإعجاب بها.

وتدل على جواز سؤال النعمة، ولا بد أن يكون سليمان سأل بإذن الله تعالى.

قوله تعالى:

﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿٤٤﴾﴾

---

(١) لم يؤجر ولم يعط: +، ن.
(٢) وأجرهم: وجودهم، ت؛ وجورهم، ن.
(٣) أمسكت: مسكت؛ ن، ت.

القراءة

قرأ أبو جعفر: «بِنُصُبٍ» بضم النون والصاد، وقرأ يعقوب بفتحها، وقرأ حفص بفتح النون وسكون الصاد، وقرأ الباقون بضم النون وسكون الصاد، وهي أربع لغات، وقيل: النُّصْب والنَّصَب كالحُزْن والحَزن، والعُدْم والعَدَم، والرُّشْد والرَّشَد، ومعناه: التعب، قال الشاعر:

كِلِيني لِهَمٍّ يا أُمَيْمَةَ نَاصِبٍ ... وَلَيْلٍ أُقَاسِيهِ بطِيءِ الكَوَاكِبِ[1]

اللغة

الرَّكض: الدفع على جهة الإسراع، ومنه: رَكَضَ الفَرَسُ لإسراعه.

والمُغْتَسَلُ: موضع الاغتسال، ونظيره: مَطْلَب موضع الاطلاب، ومُضْطَرَبٌ موضع الاضطراب، قال أبو عبيدة: ما يُغْتَسَلُ [به]: مُغْتَسَلٌ وغُسْلٌ.

والضِّغْثُ: ملء الكف من الشجر والحشائش وما أشبه ذلك، وأصله من الاختلاط، ومنه: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ [يوسف: ٤٤].

والحنث: خلاف البرِّ في اليمين.

المعنى

ثم ذكر قصة أيوب، فقال سبحانه: «وَاذْكُرْ» يا محمد «عَبْدَنَا أَيُّوبَ[2]» أضافه إلى نفسه تشريفًا لأيوب واقتداء به في الصبر على الشدائد «إِذْ نَادَى رَبَّهُ» أي: دعاه «أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ» بتعب ومشقة «وَعَذَابٍ» قيل: بوسوسته، واختلفوا فقيل: في جسده، عن مقاتل. يعني: يقول: طال[3] مرضك، ولا يرحمك ربك. وقيل: في

---

(١) البيت قائله النابغة الذبياني، انظر: اللسان (وكل)؛ الصحاح (وكل) ديوان النابغة الذبياني، دار صادر، بيروت.

(٢) أيوب: ـ ، ن.

(٣) يقول طال: يقول من طال، ن.

نفسه وماله يقول: نالك الفقر، وذهب المال والأهل، فيذكره صحته وماله وأهله ومصائبه فيها، وكان مرض وافتقر، فضاق صدره بهذه الوساوس، فشكا إلى الله تعالى، وقيل: اشتد مرضه فطال حتى تجنبه الناس استقذارًا، وذهب مالُهُ، فَذَكَّرَهُ[١] الشيطان أحواله ووسوس إلى الناس استقذاره، فضاق قلبه بما ناله من الشيطان، ولم يَشْكُ الألم؛ لأنه كان منه تعالى وهو يصبر عليه، وقيل: دام ذلك سبع سنين، عن قتادة. ولا يجوز أن يبلغ حالاً يستقذره الناس؛ لأن فيه تنفيرًا، فأما المرض والفقر وذهاب الأهل فيجوز امتحانًا، ودعا أيوب عند ذلك ربه، فاستجاب له فقال: «**ارْكُضْ بِرِجْلِكَ**» أي: ادفع وحرك «**هَذَا مُغْتَسَلٌ**» قيل: نبعت[٢] عينان، فاغتسل من إحداهما وشرب من الأخرى، فقيل: «**بَارِدٌ وَشَرَابٌ**» فالبرودة للاغتسال والشراب للشرب[٣]، وقيل: بل وصفه بأنه بارد كي لا يظن أنه حميم، وشراب؛ لئلا يظن أنه أُجَاجٌ، وقيل: بل عين واحدة[٤]، وصفها[٥] بالبرودة والشرب، وقيل: لما اغتسل بإحداهما صح ظاهره، ولما شرب من الأخرى صح باطنه «**وَوَهَبْنَا**» أعطينا «**لَهُ أَهْلَهُ**» قيل: أزال مرضه، وأعاد أهله يعني: أولاده، وقيل: كانوا أمواتًا[٦] فأحياهم، ويحتمل أنهم كانوا مرضى فشفاهم، وغُيَّبًا فأحضرهم، «**وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ**» [أي]: في الدنيا، قيل: «الجراد في الدنيا تساقط عليه» [من ذهب]، روي مرفوعًا حتى كثر وهو يرفع، فقيل: يا أيوب، أَمَا تشبع؟، فقال: ومن يشبع من رحمتك؟ فقيل: أطعم أهل قريته سبعة أيام، وَأَمَرَهُمْ أن يحمدوا الله ويشكروه. وقيل: عافاه وقواه حتى كثر أمواله وأولاده، قيل: أعطيناه[٧] أجر موتهم وأعواضًا عنهم، واجتبيناهم مع ذلك «**رَحْمَةً مِنَّا**» أي: نعمة على أيوب «**وَذِكْرَى**» أي: تذكُّرًا وعظة «**لأُولِي الأَلْبَابِ**» لذوي العقول «**وَخُذْ**» أي: قلنا له:

---

(١) فذكره: فذكر، ن.

(٢) نبعت: انبعت؛ ن، ت.

(٣) للشرب: ليشرب، ت.

(٤) واحدة: واحدة باردة، ت.

(٥) وصفها: وصفه، ن.

(٦) أمواتاً: ميتًا، ن.

(٧) أعطيناه: أعطيناهم، ت.

خذ «**بِيَدِكَ ضِغْثًا**» أي: حزمة من الحشيش[1] «**فَاضْرِبْ بِهِ**» امرأتك «**وَلاَ تَحْنَثْ**» في يمينك، وقيل: كان حلف على امرأته لأمر أنكره من قولها، [فقال]: متى عوفيت لأضربنك [مائة جلدة]. وقيل: أساءت عشرتها لمرضه، فقال: خذ ضغثًا بعدما حلفت فاضرب به دفعة واحدة، عن قتادة، والضحاك. «**إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا**» فيما ابتلي به «**نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ**».

۞ الأحكام

تدل الآيات أنه تعالى ابتلى أيوب بمحن في نفسه، وماله، وأهله، فصبر على جميعها، فرضي بقضاء الله تعالى.

وتدل أنه شكا الشيطان فيما وسوس إليه، ولم يَشْكُ ما نزل به من جهة الله تعالى، وإنما صبر عليه على ما هو الواجب في الدين.

ومتى قيل: أليس روي أن الله تعالى سلط إبليس حتى أمرضه؟

قلنا: معاذ الله، الله تعالى لا يسلط على أوليائه[2] أعداءَهُ؛ بل[3] يخلي بعضهم لبعض مصالحهم، فأما أن يسلط أعداءه على أوليائه فلا، فأما المرض والآلام النازلة والإحياء والإماتة فلا يقدر عليها غير الله تعالى.

وتدل أنه تعالى أعطاه بعد ذلك أهله وماله، وأنه برئ من مرضه.

وتدل على قَسَم سبق منه بضرب امرأته، وأنه نهي عن الحنث، وأُمِرَ بِالبِرِّ، فيدل[4] على جواز الحِيلة في دفع الحنث.

فأما ما ترويه الحشوية[5] بأنها قالت له: إن ربك لا يرحمك؛ فتقرب إلى الشيطان ليصرف عنك ضرك، فلا يصح؛ لأنه ليس في الظاهر ذلك، ولأنها من أهل بيت النبوة، ومنه فلا يجوز أن تعتقد وتقول[6] مثل ذلك.

---

(١) الحشيش: الخشب، ت؛ الحثيث، ن.
(٢) أوليائه: أولياءه، ت.
(٣) بل: أو، ن.
(٤) فيدل: فدل، ن.
(٥) الحشوية: الحشو، ن.
(٦) أن تعتقد وتقول: أن يقول ويعتقد، ن، ت.

فأما ما روي أنها باعت ذؤابتها، وأنفقت الثمن، فمما يبعد، وإن كان عند الضرورة جائز، وفي حال الرفاهية لو ورد به الشرع جاز أيضًا.

واختلفوا في سبب الجلد، فقيل: أساءت عشرتها ضجرًا لطول مرضه، فحلف بضربها مائة.

واختلفوا إذا حلف بضرب فلانًا فضربه بجمع خشب، هل يَبَرُّ أم لا؟ فَمَن[1] العلماء من قال: يَبَرُّ؛ اعتبارًا بقصة أيوب، ومنهم من قال: لا يبر؛ إذ ذكر[2] إسماعيل بن إسحاق أن ذلك كان خاصًا لأيوب، قال: ولو جاز مثله في اليمين لجاز في الحدود حتى يضرب الزاني مرة، والقاذف دفعة، فأما عند جماعة من الفقهاء يصير بارّاً؛ لأنه في الحقيقة ضارب بالجميع، فلا فصل بين المفترق والمجتمع.

فأما من لا يقول بشريعة من تقدم يقول: هذا حكم شريعته، ولا يدل على حكم شريعتنا.

وتدل أن للزوج أن يؤدب امرأته.

وتدل على وجوب الصبر، وحسنه.

وتدل على بطلان قول من يقول: إن الأمراض عقوبات؛ لأنه لو كان كذلك لما ابتلى به الأنبياء، ولما وجب الصبر.

ومتى قيل: مع شدة ما ناله كيف شكا الشيطان؟

قلنا: لعلمه أن ما نزل به من جهة الله تعالى من مصالحه، وما أعد له من الأعواض، وما في الصبر من الثواب والرضا بالقضاء سهل عليه ذلك، فصار ما ناله من الشيطان كأنه أعظم فشكاه.

وروي أنه نزل البلاء يوم نزل، وفي داره سبعمائة وصيف.

---

(١) فمن: فمنهم، ن.

(٢) ذكر: وذكر، ن.

قوله تعالى:
﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾

القراءة

قرأ ابن كثير وحده: «عَبْدَنا إِبْراهِيمَ» بغير ألف على واحدة، كأنه يريد إبراهيم، وهي قراءة ابن عباس، الباقون: «عِبادَنا» على الجمع بالألف؛ لأنه ذكر بعده جماعة من الأنبياء، قال ابن عباس: إنما ذكر إبراهيم، ثم ولده بعده.

وقرأ أبو جعفر ونافع: «بِخالِصَةِ ذِكْرَى الدَّارِ» غير منون على الإضافة، وهو رواية هشام عن ابن عامر، الباقون: «بِخَالِصَةٍ» منونة على البدل ومحله جر، وقيل: نصب، أي: أخلصناهم ذكرى الدار.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «هَذَا مَا يُوعَدُون» بالياء، الباقون بالتاء، الأول على الكناية، والثاني على الخطاب. وقرأ حمزة والكسائي: [«والليسع»][(١)] بلامين، والباقون [«والْيَسَع»][(٢)] بلام واحدة.

اللغة

اليد: القوة، وكذلك اليدان والأيد، ويقال: ما لي به يدان، قال الشاعر:

فَاعْمِدْ لِمَا تَعْلُو فَمَا لَكَ بِالَّذِي ... لاَ تَسْتَطِيعُ مِنْ الأُمُورِ يَدَانِ[(٣)]

(١) ما بين المعكوفين زيادة: تفسير القطان: ٣/ ١٦٤.
(٢) ما بين المعكوفين زيادة من: تفسير القطان: ٣/ ١٦٤.
(٣) البيت قائله كعب بن سعد الغنوي يخاطب ابنه على بن كعب، في رواية اللسان (علا)؛ الصحاح (علا) وفي رواية أخرى: اعمد لما تعلو فما لك بالذي.

أي: قوة.

والإخلاص: إخراج الشيء عن الشيء، وأخلصته إخلاصًا فَتَخَلَّصَ[1]، فذلك[2] مخلص.

والاصطفاء: إخراج الصفوة من كل شيء، وهو «افتعال» من الصفوة، قلبت التاء طاء.

والأخيار: جمع خَيِّرٍ، كميت وأموات.

والقاصر: نقيض المادِّ، يقال: هو مادٌّ عَيْنَه إلى فلان، وقاصر طرفه عن فلان، والقصر: جعل الشيء قصيرًا، وأصله من القصر، فهؤلاء قصرن طرفهن على أزواجهن فما في غيرهم بُغْيَةٌ لهن.

والتِّرْبُ: اللِّدَةُ، وهو مأخوذ من اللعب بالتراب، قال ابن أبي ربيعة:

أبْـرَزُوهَـا مِـثْـلَ الـمَـهَـاةِ تَـهَـادَى ... بَـيْـنَ عَـشْـرٍ كَـواعِـبٍ أَتْـرَابِ[3]

الإعراب

﴿وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ رفع على الابتداء.

﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ نصب؛ لأن التاء للجماعة، فلا ينصرف، أي: إنّ جنات عدن.

﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ﴾ نصب على نعت (جنات)، وقيل: لأنه شبه المفعول، ويجوز الرفع على النعت للأبواب، تقديره: مفتحة لهم أبوابها، فحذف الهاء وجعل الألف واللام عوضًا.

﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ نصب على الحال.

---

(١) فتخلص: ومخلص، ت، ن.

(٢) فذلك: وذلك، ت، ن.

(٣) البيت قائله: عمر بن أبي ربيعة، انظر: ديوان عمر بن أبي ربيعة، تحقيق فايز محمد، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٦.

المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى حديث إبراهيم وأولاده، فقال سبحانه: «وَاذْكُرْ» لقومك حديث إبراهيم وإسحاق ويعقوب، قيل: اذكرهم بفضلهم وصبرهم لتسلك طريقتهم. وقيل: اذكر أحوالهم لقومك؛ ليعلموا أنا اصطفيناهم لدينهم وعلمهم بالله «أُوْلِي الأَيْدِي» أي: ذوو القوة على العبادة «وَالأَبْصَارِ» الفقه في الدين، عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. قال أبو مسلم: أولو العلم والعمل، والأيدي: العمل، والأبصار: العلم، وقيل: الأيدي: الأعمال الصالحة، وقيل: أولُو النعم على عباد الله بالدعاء إلى الدين، وقيل: الذين لهم بصر(١) وقوة في أمور الدين، خلاف أصحاب الدنيا «إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ» جعلناهم خالصًا، وقيل: جعلنا الخالصة لهم خالصة، ثم فسر، فقال: «بِخَالِصَةٍ» أي: بالألطاف التي جعلناها لهم، و«ذِكْرَى الدَّارِ» قيل: معناه: الخالصة التي أخلصناهم بها «ذِكْرَى الدَّارِ»؛ يعني: ذكرناهم الدار الآخرة، وما فيها من الثواب والعقاب، فتذكروا ذلك، وأخلصوا له العبادة، فاصطفاهم، فعلى هذا الذكر من صفة الله. وقيل: الخالصة ذكرى الدار، وهي أنهم يذكرون الدار الآخرة، فخافوا العقاب، ورجوا الثواب، فأخلصوا العبادة، فكان ذكرهم للدار الآخرة لطفًا في إخلاصهم، وعلى هذا الذكر من صفة الأنبياء. وقيل: أخلصوا ذكر الله، فأخلصوا لله قلوبهم، لذكر الدار الآخرة، تقديره: أخلصناهم لذكر الدار بالخالصة، فالذكر أيضًا من صفتهم. وقيل: ذكرى الدار هي الخالصة، كانوا يذكرونها للعمل(٢) لها، ودعاء الناس إليها. وقيل: الخالصة هي الدعوة الخالصة إلى الله تعالى، وعلى هذا أيضًا الذكر من صفة الأنبياء. وقيل: «ذِكْرَى الدَّارِ» يعني: ذكر الناس لهم بالثناء الحسن الذي ليس لغيرهم من أجل قيامهم بالنبوة، عن أبي علي. وعلى هذا الذكر من صفة المؤمنين والملائكة، قال أبو مسلم: هو الذكر السائر لهم في الدنيا بالأعمال الجميلة والمنصب(٣) الرفيع في الآخرة.

واختلفوا في الدار، قيل: الدار الآخرة، عن مجاهد. وقيل: الجنة، عن ابن زيد. وقيل: دار الدنيا، عن أبي علي، وأبي مسلم. على حسب اختلافهم على ما تقدم.

(١) بصر: نضر، ت.

(٢) للعمل: بالعمل، ت.

(٣) والمنصب: من الصيب، ت، ن.

«وَإِنَّهُمْ» يعني: من تقدم ذكرهم من الأنبياء «عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ» من المختارين للنبوة «الأَخْيَارِ» في الدنيا بالمنزلة الرفيعة وفي الآخرة بالدرجة العظيمة «وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ» قيل: اسم، وقيل: نعت وصفة لا اسم، لذلك دخل عليه الألف واللام، أي: يسع الحكمة والعلم ومعرفة الله تعالى، عن أبي علي. وقيل: هو اسم وأدخل عليه الألف واللام، وقيل: هو ابن عم إلياس «وَذَا الْكِفْلِ» قيل: ذا الضِّعْفِ من الثواب، قال تعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ﴾ [الحديد: ٢٨]، واختلفوا، فقيل: هو زكريا تكفل بمريم وضمها إلى نفسه، وقيل: كان نبيًا، قال له ملك من الملوك: تضمن لي الجنة إذا[١] أسلمت؟ فضمن، فوفى الله ضمانته. وقيل: كان مؤمنًا تكفل بأمر أنبياء خلصهم من القتل، وذلك أن ملكًا في بني إسرائيل أخذ جماعة من الأنبياء، قيل: أربعمائة، فقتل مائة، فتكفل ذو الكفل بالباقي وخلصهم، وقيل: بل هربوا من الملك فضمهم إلى نفسه حتى سلموا. وقيل: تكفل بأعمال صالحة فوفّى بها. وقيل: هو حِزْقِيلُ. «وَكُلٌّ مِنَ الأَخْيَارِ» جمع خَيِّرٍ، يقال: رجل خَيِّرٌ، وامرأة خَيِّرَةٌ «هَذَا ذِكْرٌ» قيل: الذي ذكر في هذه السورة من ذكر الأنبياء بيان[٢] للخلق بما عنده لِمَنْ أطاعه، وقيل: هذا القرآن ذكر وشرف لمن أتاه الله، وقيل: هذا مدح لهؤلاء الأنبياء فاذكر قصصهم لأمتك؛ ليقتدوا بهم، عن أبي علي. وقيل: هذا القرآن يذكر فيه معالم دينهم «وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ» قيل: لمن[٣] اتقى المعاصي، وهم المؤمنون. «لَحُسْنَ مَآبٍ» المرجع الحسن، وهو الجنة، فلا مآبَ أحسنُ منها.

ثم فسر المآب فقال سبحانه[٤] «جَنَّاتِ عَدْنٍ» أي: إقامة لا ظعن عنها «مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ» قيل: تفتح بغير كلفة، وقيل: مفتحة على أصدقائهم يتزاورون[٥] لا تغلق لِشُحٍّ أو خوف، وقيل: مفتحة أبوابها لتسافر العيون فيها، عن أبي مسلم. وقال

---

(١) إذا: إذ، ت.

(٢) بيان: وبيان، ت.

(٣) لمن: من، ن.

(٤) سبحانه: ــ، ن.

(٥) يتزاورون: يتراؤون، ت.

الحسن: تُكَلَّمُ[(١)]، يقال: انفتحن، انقفلن[(٢)]. «مُتَّكِئِينَ فِيهَا» يعني: جالسين آمنين جِلْسَةَ الملوك «يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ».

«وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ» يعني: أزواج «قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ» قيل: قصرن أعينهن على أزواجهن، فلا ينظرن إلى غيرهم «أَتْرَابٌ» قيل: أقران على سنّ واحد، ليس فيهن عجوز ولا هرمة، وقيل: على مقدار سن الأزواج من غير زيادة ولا نقصان. وقيل: أشكال في الخلقة «هَذَا» يعني: ما تقدم من ذكر النعم «مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ» أي: في يوم الحساب «إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ» أي: عطاؤنا الذي أعطيناه أهل الجنة «مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ» أي: انقطاع، عن قتادة.

الأحكام

يدل قوله: ﴿بِخَالِصَةٍ﴾ أنه تعالى يلطف لعباده في أمر دينهم حتى يصيروا مخلصين، وأن ذكر الدار من الألطاف؛ لأن المكلف إذا تصورها رغب في فعل الطاعات، واجتناب المعاصي.

وتدل أن ذا الكفل كان نبيًا؛ لذلك ذكره في جملة الأنبياء، خلاف ما روي عن قتادة: أنه كان رجلاً صالحًا ولم يكن نبيًا.

ويدل قوله: ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ أن أبوابها مفتحة للمتقين فقط، فيبطل قول المرجئة.

وتدل على دوام الجنة، خلاف قول جهم.

قوله تعالى:

﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾﴾

---

(١) في مجمع البيان في تفسير القرآن م٥/ ج٢٣/ ١٢٤: بكلم.
(٢) انقفلن: انغلقن، ن.

القراءة

قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم: «وغَسَّاقٌ» بالتشديد حيث كان، وهي قراءة أصحاب عبد الله، وقرأ الباقون بالتخفيف، قال الفراء: من شدده جعله اسمًا على «فَعَّالٍ» كالطَّبَّاخ والخَبَّاز، ومن خفف جعله اسمًا على «فَعَالٍ» كالعَذَاب.

قرأ أبو عمرو ويعقوب: «وأُخَرُ» بضم الألف على جمع: أخرى؛ أي: أصناف أخر من العذاب، وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم، وروي نحوه عن ابن كثير، وذلك أنه نعته بالجمع وهو أزواج، نحو: الكُبْرَى والكُبَرِ. وقرأ الباقون: (آخر) على واحد، أي: عذاب آخر.

اللغة

الطغيان: مجاوزة الحد، ومنه: ﴿طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ [الحاقة: ١١].

والحميم: أصله الحرارة، وهو الحارُّ الشديدُ الحرارةِ، ومن ذلك سميت[(١)] الحمى لشدة حرارتها.

والغسّاق: قيل: مشتق من الغسق، وهو السواد والظلمة، ضد ما يزاد[(٢)] في الشراب من الصفاء والرقة، عن أبي مسلم. ومنه[(٣)] قيل: ليل غاسق، وغَسَقَتْ عَيْنُهُ. وقيل: الغساق: ما يسيل من الصديد، غَسَقَتْ القرحة تَغْسِقُ غَسْقًا، ومنه يقال: غَسَقَتْ عينه: إذا سالت تَغْسِقُ. وقيل: إنه بالتخفيف: النازل الذي يجري ببرودة، وسمي الليل غاسقًا؛ لأنه أبرد من النهار. ومن زعم أن غساق ليس بعربي فقد أخطأ؛ لأن القرآن نزل بلغة العرب، ولهذه اللفظة تَصَرُّفٌ واشتقاق، ووردت به الأشعار.

والشِّكْل بكسر الشين: النظير في الحسن، وبالفتح: الضرب المتشابه، وهو المِثْلُ، ومنه: أشكل: إذا اشتبه[(٤)] لتماثله، والشُّكْلَةُ بضم الشين: حمرة في العين.

---

(١) سميت: سمي، ت، ن.

(٢) ما يزاد: ما يراد، ن.

(٣) ومنه: فيه، ت.

(٤) اشتبه: اشتكبه، ت.

والفوج: الجماعة، وجمعها: أفواج.

والاقتحام: أصله الدخول، وقيل: هو أن يرى نفسه في هوة أو وهدة، يقال: اقتحم فهو مقتحم، ومنه الحديث: «من سره أن يقتحم[1] جراثيم جهنم فليقض في الجدّ» يعني: بخلاف السنة.

والرَّحْبُ: السعة، وهو المَرْحَبُ، ومنه: رَحْبَةُ المسجد، قال أبو عبيدة: تقول لا مرحبًا به، أي: لا رَحُبَتْ عليه الأرض؛ أي: لا[2] اتسعت، قال القتيبي: ومنه قولهم:

لاَ مَـرْحَـبًـا بِـغَـدٍ وَلاَ أَهْـلاً بِـهِ ... إِنْ كَـانَ تَـفْـرِيـقُ الْأَحِـبَّـةِ فِـي غَـدِ[3]

والضِّعْفُ: المِثْلُ المضموم إلى مثله، ومنه: التضعيف، والمضاعفة، والأضعاف.

الإعراب

رفع (جهنم) و(غساق)، قال الفراء بـ(هذا) على التقديم والتأخير أي: هذا جهنم وغساق فليذوقوه، وقيل: هو رفع بـ(هذا)، و(يذوقوه) اعتراض[4]، وإن شئت جعلته مستأنفًا، وجعلت الكلام قبله مكتفيًا، كأنك قلت: هذا العذاب فليذوقوه، ثم: قلت منه جهنم حميم، ومنه غساق.

﴿وَءَاخَرُ﴾ معطوف على ﴿حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾.

و﴿أَزْوَٰجٌ﴾ نعت الآخر.

والهاء في ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ راجع إلى ﴿هَٰذَا﴾ تقديره: هذا حميم وهذا غساق فليذوقوه[5]، و﴿هَٰذَا﴾ محله نصب لوقوع ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ عليه، وقيل: رفع تقديره: فليذوقوا هذا.

---

(١) في سنن الدارمي ٢/ ٤٥٠ برقم (٢٩٠٢)، وسنن سعيد بن منصور ١/ ٤٨ برقم (٥٦): يتقحم.
(٢) لا: ـ ، ن.
(٣) البيت قائله: النابغة الذبياني؛ في قصيدة مطلعها: أمن آل مية رائح أو مغتدِ، انظر: ديوان النابغة الذبياني.
(٤) اعتراض: إعراض، ن.
(٥) راجع إلى... فليذوقوه: ـ ، ن.

❁ المعنى

ثم عقب الوعد بالوعيد كعادة الله في كتابه، فقال تعالى: «هَذَا[1]» يعني: هذا الثواب للمتقين «وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ» قيل: العصاة، عن أبي علي. وقيل: الكفار «لَشَرَّ مَآبٍ» مرجع، ولا مآب شر من نار تلظى. وقيل: (هذا) خبر ابتداء، يعني: الأمر هذا الذي أخبرتك به، وقيل: هو تكرير للتأكيد.

ثم فسر المآب، فقال سبحانه: «جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا» أي: يدخلونها فيصيرون صِلاَءَ جهنم، أي: وقودًا وحطبًا، عن أبي مسلم. «فَبِئْسَ الْمِهَادُ» أي: بئس الفراش لمن تمهدها «هَذَا» بَيَّنَّا الكلام فيه «فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ» أي: حار منتهى في الحرارة «وَغَسَّاقٌ» قيل: هو القيح الذي يسيل منهم يجمع ويسقونه، عن ابن[2] عمر، ومحمد بن كعب، وقتادة، والأخفش. وقيل: هو عين في جهنم تسيل إليها كل ذات حمة من حية وعقرب، عن كعب. وقيل: هو قيح شديد النتن، وهو ما يسيل من أعينهم من دموعهم يسقونه مع الحميم، عن السدي. وقيل: هو ما يأخذ بالحلق، عن أبي علي. وقيل: هو الزمهرير الذي يحرق ببرده كما تحرق النار بحرارتها، عن ابن عباس. فكأنه يطاف بهم بين حر شديد، وبرد شديد، نعوذ بالله منه، وقيل: البارد الذي انتهى برده، عن مجاهد، وقتادة. «وَأُخَرُ» بضم الألف، يعني: أصنافًا من العذاب على الجمع، ومن فتح الألف ووحَّد فالمعنى: عذاب آخر «مِنْ شَكْلِهِ» أي: من صنف العذاب وجنسه في الشدة، قيل: إنه الزمهرير، عن ابن مسعود. وقيل: السلاسل والأغلال ونحوه، عن الحسن. «أَزْوَاجٌ» قيل: أقران من كل نوع. وقيل: مجموعة بعض الأنواع إلى بعض كالسلاسل والأغلال مضمومة إلى الحميم والغساق «هَذَا فَوْجٌ» أي: جماعة «مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ» داخلون في جهنم معكم، وفي الكلام حذف، أي: يقال لهم: هذا فوج، قيل: هم قادة الضلالة إذا دخلوا النار ثم يدخل الأتباع، فتقول الخزنة للقادة: «هذا» يعني: الأتباع «فَوْجٌ» جماعة[3] «مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ» في الأتباع [صالوا] النار، عن

(١) هذا: +، ن.
(٢) ابن: أبي، ت.
(٣) جماعة: +، ن.

ابن عباس. يعني: ادخلوها كما دخلتم، وقيل: يعني بالأول: إبليس، والآخر: بني آدم، عن الحسن. «**لَا مَرْحَبًا بِهِمْ**» أي: لا سعة لهم، ولا اتسعت أماكنهم، يقول القادة للأتباع[1]: «**إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ**»، «**قَالُوا**» يعني: الأتباع «**بَلْ أَنتُمْ**» أيها القادة «**لَا مَرْحَبًا بِكُمْ**» لا سعة فأنتم أولى بالضيق منا؛ لأنا اتبعناكم وأنتم دعوتمونا حتى أصابنا هذا البلاء، وقيل: هذا قالوه على سبيل الدعاء «**أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا**»، و«**قَالُوا**» يعني: الأتباع «**رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا**» من شرع لنا هذا من القادة والرؤساء «**فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ**» أي: مضاعفًا على عذابنا، فيكون أحد الضعفين لكفرهم، والآخر لدعائهم إلى الكفر[2] وإضلالهم الناس، قال ابن مسعود: يعني حَيَّات وأفاعيَ، ولا يجوز أن يدعى[3] بتضعيف العذاب من غير سبب؛ لأنه ظلم.

❁ الأحكام

تدل الآية على أن الطاغي من أهل النار، وذلك يتناول الكفار والفساق.

وتدل على أنه يجتمع على أهل النار أنواع العذاب.

وتدل على أن أهل النار يلعن بعضهم بعضًا، ويتبرأ القادة من الأتباع، والأتباع من القادة، تحذيرًا من التقليد، وحثًّا على اتباع الأدلة، وأن كل صداقة في غير الدين تعقب العداوة.

قوله تعالى:

﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَـٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ ﴿٦٦﴾﴾

---

(١) للأتباع: الأتباع، ت.
(٢) إلى الكفر: +، ن.
(٣) يدعى: يدعو، ن.

۞ القراءة

قرأ أبو جعفر ونافع وابن كثير وابن عامر وعاصم: «**أَتَّخَذْنَاهُم**» بقطع الألف وفتحها على الاستفهام، وجعلوا (أم) جوابًا لها تقديره: أتخذناهم سخريًّا في الدنيا وليسوا[1] كذلك فلم[2] يدخلوا معنا النار، أم مالت الأعين عنهم فلا نراهم هم في النار حجبوا عن أبصارنا. قال الفراء[3]: هو استفهام للشيء، معناه[4]: التعجب أو التوبيخ، فهو مجاز باستفهام ونطرحه، وقال ابن كيسان: أم كانوا خيرًا منا ولا نعلم نحن ذلك، فكانت أبصارنا تزيغ عنهم في الدنيا فلا نعدهم شيئًا. وقرأ أبو عمرو ويعقوب وحمزة والكسائي: «**مِنَ الْأَشْرَارِ اتَّخَذْنَاهُم**» بوصل الألف والابتداء به، «**اِتخذناهم**» بكسر الألف، واختاره أبو عبيد لوجهين:

أحدهما: أن الاستفهام متقدم في قوله[5]: (مَا لنا)؟.

والآخر: أن المشركين لم يكونوا يشكون في اتخاذهم المؤمنين في الدنيا سخريًّا، فكيف يستفهمون عن شيء علموه؟! و(أم) على[6] هذا بمعنى (بل).

وقرأ أبو جعفر ونافع وحمزة والكسائي: «**سُخريًا**» بضم السين، الباقون بكسرها، قيل: هما بمعنى، وقيل: بالكسر هو الهزل، وبالضم هو التذليل والتسخير، عن أبي عبيدة.

۞ اللغة

الزَّيْغُ: الميل، زاغ عن الطريق، أي: جار وعدل، ومنه: الزيغ: الشك والجور.

والعزيز: نقيض الذليل، والعزيز: الذي يمتنع من الضيم لعظم مقدوره.

---

(١) وليسوا: فليس، ت، ن.
(٢) فلم: فلا، ت، ن.
(٣) الفراء: القراء، ت.
(٤) معناه: معنى، ت.
(٥) في قوله: في قوله في، ت.
(٦) على: وعلى، ت.

النزول

قيل: نزلت الآية في أبي جهل والوليد بن المغيرة وذويهما يقولون: ما لنا لا نرى عمارًا وخبّابًا وصهيبًا وبلالاً؟ عن مجاهد.

المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى مخاصمة أهل النار، فقال سبحانه: «**وَقَالُوا**» يعني: الكفار، وقيل: هم صناديد قريش «**مَا لَنَا لاَ نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الأَشْرَارِ**» مثل: بلال وصهيب وضعفاء المسلمين «**أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ**» فلا نراهم، اختلفوا في معناه حسب اختلافهم في القراءة على قولين:

أولهما: أنه إخبار، ومعناه: كنا نتخذهم سخريًا، وزاغت أبصارنا عنهم، فلا نراهم، والأول أوجه.

وثانيهما: أنه استفهام.

ثم اختلفوا، فقيل: معناه: أتخذناهم سخريًا وليسوا كذلك فلم يدخلوا النار أم زاغت أبصارنا عنهم وهم في النار؟! قال أبو مسلم: معناه: لم يدخلوا النار أم هم فيها ونحن لا نراهم؟!.

ومتى قيل: هل يجوز أن يقال: إنهم علموا أنهم استحقوا الثواب لإيمانهم وعدولهم عن الكفر، ولأنهم كانوا أعداءهم، فلا بد من انتصاف منهم. [الجواب].

إذا[(١)] علموا ذلك علموا حالهم، وقال بعضهم: يجوز ألا يعلموا ذلك بألا يعلموا بماذا ختموا أعمارهم، وكيف يعلمون مع جواز التغيير. وقيل: علموا أنهم في الجنة. قالوا: معنى الآية: (أَمْ) بمعنى: بل، : «زَاغَتْ» [أي][(٢)] مالت أبصارنا عنهم، ولا شك أنهم في الجنة، وقيل: بل هو خطاب الأتباع للقادة والسابقين: أين من كنتم تقولون: إنهم أشرار، وكنا نحن نسخر منهم بقولكم؟ أَحُبِسُوا في موضع آخر من النار

---

(١) إذا: وإذا، ت، ن.

(٢) أي: +، ت، ن.

أم مالت أعيننا عنهم، على وجه التكذيب، أي: كنتم كاذبين في ذلك، يوبخونهم، ويظهرون الحسرة على متابعتهم، وقيل: معناه: اتخذناهم سخريًّا ورأيتهم على ذلك، أم زاغت أبصارنا عن حالهم؟ قالوه[١] تحسّرًا وندمًا لا شكًّا، وقيل: إنهم قالوا ذلك على[٢] سبيل النياحة[٣]، كما تقول أم الميت: ما لي لا أراك في الدار التي بوأتها لك ومجلسك الذي قدرت لك؟! ما[٤] بالي لا أراك؟ غبت عنها أم أنت فيها وأنا لا أراك؟! تحسر وتندم لا استفهام.

ومتى قيل: ظاهر اللفظ الشك؟

قلنا: مَنْ حَمَلَهُ على الشك فلا سؤال، ومن حمله على الخبر يقول: لا شبهة أن في القيامة يعلم حالهم للانتصاف وللعداوة كما قلنا، فنقول: هو إما توبيخ للقادة أو تحسر على سبيل النوح، أو تعجب كقوله: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ ، وكرجل رأى فقيرًا ثم رآه مَلِكًا فقال: أهذا في النوم أم في اليقظة؟ يريد التعجب، كأنهم قالوا: العجب أنا كنا نسخر منهم والآن هم في هذه الحالة، وهذا معنى آخر في الآية.

«**إِنَّ ذَلِكَ**» أي: الذي ذكرت «**لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ**» يعني: مخاصمتهم على ما تقدم، وقيل: مخاصمتهم قولهم: لا مرحبًا بكم، وقيل: قولهم: اتخذناهم، «**قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ**» مخوف بهذه الأحوال «**وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ**» الواحد في الإلهية وصفاته، القهار القادر على ما يشاء «**رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ**» القادر الذي لا يمتنع عليه شيء، ومع قدرته وعظمة ملكوته غفار يستر ذنوب عباده.

۞ الأحكام

تدل الآية على مخاصمة تجري بين أهل النار، وكل ذلك تحسر وتلهف على ما خلفوا لأنفسهم.

---

(١) قالوه: قالوا، ت.

(٢) كتب في النسخة ت فوق لفظة: (على): لفظة: (عن).

(٣) النياحة: النياحية، ت.

(٤) ما: وما، ن.

وتدل أنه ﷺ بُعِثَ داعيًا إلى التوحيد والعدل، ومبينًا لهما، كما بعث مبينًا للشرائع.

ومتى قيل: أليس يعلم ذلك عقلاً؟

قلنا: لا يمتنع أن يكون المعلوم أن مع بيانه يكون أقرب إلى معرفة ذلك؛ ليكون بيانه لطفًا.

وتدل أنه يُعْرَفُ بأفعاله؛ لذلك قال: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.

وتدل أن السخرية فعل العبد؛ لذلك تحسر على قوله، فيصح قولنا في المخلوق.

قوله تعالى:

﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾

قرأ أبو جعفر: «**إلا إنما**» بكسر الألف؛ لأن الوحي قول. وقرأ الباقون: «**أنما**» بالفتح لوقوع الوحي عليه.

۞ اللغة

النبأ: الخبر العظيم الشأن، وجمعه: أنباء.

الإعراض: الانحراف بوجهه، أعرض عنه.

۞ الإعراب

(**إليّ أنما**) قال الفراء: إن شئت جعلت (**أنما**) في موضع رفع بتقدير[1]: فالوحي إليّ الإنذار، وإن شئت جعلت المعنى: ما يوحى إلي إلا لأني نذير.

(١) بتقدير: بتقديره، ت.

۞ المعنى

ولما تقدم الوعد والوعيد عقبه بتوبيخهم على إعراضهم، فقال سبحانه: «قُلْ» يا محمد: «هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ» أي: خبر عظيم، قيل: القرآن، عن ابن عباس، وقتادة، والسدي، ومجاهد. ووصفه[١] بالعظم؛ لما فيه من الأنباء، والأوامر، والزواجر، والأحكام، وقال بعضهم: لأنه معجز من كلام الله تعالى، وقيل: لأن فيه التوحيد، والعدل، والقصص، والشرائع، وجميع ما يحتاج إليه، وقيل: هو يوم القيامة، عن الحسن. وذكر عظيم؛ لما فيه من الثواب والعقاب. وقيل: ما أخبركم[٢] به بأني منذر إنه نبأ عظيم [مع] إعراض منكم[٣] «مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الأَعْلَى» أي: وجوه الملائكة، والملأ: الجماعة الأشراف «إِذْ يَخْتَصِمُونَ» يتناظرون، قيل: اختصموا في حديث آدم وقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠]، عن ابن عباس، وقتادة، والسدي. فما علمت ما كانوا فيه إلا بوحي من الله تعالى، وهذا محمول على أنهم تناظروا[٤] أولاً فيما بينهم، ثم دعوا إلى الله تعالى[٥] فبين لهم، وقيل: اختصامهم فيما طريقه الاجتهاد، وقيل: بل على وجه المذاكرة واستخراج الفائدة؛ لأن بعضهم أعلم من بعض، وقد يجتمع أهل الحق للمناظرة مع اتفاقهم على كلمة واحدة، وهي كلمة الحق؛ إذ لا يجوز أن يختصموا في دفع الحق. وقيل: إن النبي ﷺ قال لابن عباس: «أتدري فيم اختصم الملأ الأعلى»؟ قال: قلت: لا، قال: «اختصموا في الكفارات والدرجات، فأما الكفارات فإسباغ الوضوء في السَّبَرَات، ونقل الأقدام إلى الجماعات، وانتظار الصلاة بعد الصلاة. وأما الدرجات: إفشاء السلام، وإطعام الطعام، والصلاة بالليل والناس نيام»، كأنهم يتناظرون[٦] أيها أفضل «إِن يُوحَى إِلَيَّ»

---

(١) ووصفه: وصفه، ت.
(٢) ما أخبركم: ما أخركم، ت.
(٣) منكم: منكر، ت، ن.
(٤) تناظروا: يتناظروا، ت، ن.
(٥) تعالى: ـ، ن.
(٦) يتناظرون: يتناظروا؛ ن، ت.

يعني: لولا الوحي وكوني نذيرًا لكم ما كان لي من علم بالملأ الأعلى، وإنما يوحى إليّ لأني نذير مبين، أُنْذِرُ بالساعة والوعيد، وأبين الأحكام والوعد والوعيد. وقيل: ناظروا إبليس لمَّا أمر معهم بالسجود قال: لا أسجد؛ لأني خير منه، فقالوا: نسجد؛ لأنا أمرنا، والله أعلم بالمصالح. فناظروه في وجوه المصالح. وقيل: ما أنبأتكم به نبأٌ عظيمٌ دالٌّ على نبوتي؛ لأني لا أكتب ولا أقول كتابًا، فإنما أعلم ذلك بالوحي، وإنما يوحى إليّ لأني نذير مبين.

الأحكام

تدل الآية على عظم منزلة القرآن، ووجوب التدبر فيه.

وتدل أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب، وإنما يعلم بالوحي، والإمام أولى، فيبطل قول الإمامية.

قوله تعالى:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾

اللغة

البَشر والإنسان من النظائر، غير أن البشر مأخوذ من البَشَرَةِ وهي الجلدة الظاهرة، والإنسان مأخوذ من الأُنس؛ لأن من شأنه أن يأنس بعقله ما يؤنس به.

واليد: اسم يقع على معانٍ، منها: الجارحة، وهو أصل الباب، وذلك يستحيل عليه تعالى؛ لأنه ليس بجسم. وبمعنى القوة، وبمعنى النعمة، وبمعنى الصلة وتحقيق الإصابة، كقولهم: فعلته بيدي، وقال الشاعر:

أَيـهُّـا الـمُـشْـتَـهِـي فَـنَـاءَ قُـرَيْـشٍ   بِـيَـدِ اللهِ عُـمْـرُهَـا [وَالْـفَـنَـاءُ](١)

يعني: إليه فقط.

وأما «بِيَدَيَّ» فيجوز أن يريد يدان، وهو القوة، فلما أضيف سقطت النون، قال الشاعر:

فَـاعْـمِـدْ لِـمَـا تَـعْـلُـو فَـمَـا لَـكَ بِـالَّـذِي   لاَ تَـسْـتَـطِـيـعُ مِـنَ الأُمُـورِ يَـدَانِ(٢)

وقال آخر:

تَـحَـمَّـلْـتُ مِـنْ عَـفْـرَاءَ مَـا لَـيْـسَ لِـي بِـهِ   وَلا لِـلْـجِـبَـالِ الـرَّاسِـيَـاتِ يَـدَانِ(٣)

والرجيم: المرمي بالحجر، ومنه: الرجم.

الإعراب

قيل: العامل في قوله: ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ يعني: يختصمون إذ قال، و(إذ) عبارة عن الوقت، يعني: تخاصموا في الوقت الذي أمر الله ملائكته بالسجود لآدم وأخبرهم بخلقه. وقيل: محذوف؛ أي: اذكر إذ قال.

والألف في قوله: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ ألف استفهام، دخلت على ألف الكلمة، فحذف إحداهما، والمراد به الإنكار.

المعنى

لما تقدم ذكر مخاصمة الملأ الأعلى في حديث آدم، وأكثر المفسرين عليه بَيَّنَ

---

(١) ما بين المعكوفين في ت، ن: وفناها البيت قائله: عبد الله بن قيس الرقيات، في قصيدة مطلعها: أقفرت بعد عبد شمس كلاء، انظر: ديوان عبد الله بن قيس الرقيات، تحقيق: محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت.

(٢) اللسان (علا)؛ الصحاح (علا).

(٣) البيت قائله: عروة بن حزام في قصيدة مطلعها: خليلي من عليا هلال بن عامر، انظر: ديوان عروة بن حزام، دار الجيل، بيروت.

تعالى ذلك، فقال سبحانه: «إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا» يعني: آدم «مِنْ طِينٍ» وإنما تصير تلك الأجزاء بشرًا بما يخلق فيه من التأليف والحياة والرطوبات ونحوها، فلا يعترض عليه قول من قال بانقلاب الأعيان «فَإِذَا سَوَّيْتُهُ» أي: خلقته، وتم خلقي إياه «وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي» أي: أحييته وجعلت فيه الروح، وهو النفس المتردد، وأضاف النفخ إليه؛ أي: توليت جميع ذلك من غير سبب وواسطة «فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ»، وقد بَيَّنَّا ما قيل فيه، وأنه سجدة التحية لا سجدة العبادة، وقيل: إنه قبلة السجدة وهي لله تعالى «فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ» لأنه مأمور معهم بالسجود ولم يكن منهم؛ بل كان من الجن على ما قال تعالى، وخلق من النار، والملائكة من الريح «اسْتَكْبَرَ» أي: ترفع من السجود لآدم تكبرًا «وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ» قبل ذلك «قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ» قيل: خلقت من غير واسطة، عن أبي علي؛ نحو قوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ﴾ [يس: ٧١]. وقيل: خلقته بقدرتي، عن أبي مسلم. قال مجاهد: اليد هاهنا بمعنى التأكيد والعلم كقوله: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧] أي: ربك. وقيل: «بيدي» أي: بنعمتيَّ: نعمة الدين ونعمة الدنيا، أو نعمته الظاهرة والباطنة، والباء بمعنى اللام، أي: خلقته للدين والدنيا، ليكون هو وذريته خلفاء الأرض.

ومتى قيل: هلا جعلتموه على الجارحة كما تزعمه المشبهة؟

قلنا: الله تعالى ليس بجسم، ولا يجوز عليه النقص، ولو أوجبت هذه الآية إثبات يدين لوجب بقوله[1] ﴿بِأَيۡدِينَاۖ﴾ [التوبة: ٥٢] إثبات أَيْدٍ.

ومتى قيل: يده لا تشبه أيدينا.

قلنا: فذاك ليس بيد معقول.

ومتى قيل: هلا حملتم على أنهما صفات له على ما تزعمه الكلابية؟

قلنا: وذلك خطأ لغة ومعنى، أما اللغة: فلا يعقل فيهما بمعنى الصفة، وأما

(١) بقوله: لقوله، ن.

المعنى: فلا يعقل صفة تسمى يدًا، ويجب أن يكون الساق صفة، والوجه صفة، والجنب صفة، والاستواء صفة، وكل ذلك لا يعقل.

«أَسْتَكْبَرْتَ» إنكارٌ، لا استعلام، أي: لماذا ترفعت عن السجود إذ أمرتك به، أَنِفْتَ تكبرًا أم علا قدرك؟ «**قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ**» فجهل وجه المصلحة في الأمر، وجعل الفضل بأصل الخلقة، وإنما هو بالطاعة، وفَضَّل النار على الطين وذلك خطأ كله «**قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا**» قيل: من الجنة، وقيل: من السماء، عن الحسن. وقيل: من الخلقة التي أنت فيها، فغير الله خلقته[1]، عن أبي العالية. «**فَإِنَّكَ رَجِيمٌ**» قيل: مطرود ومعذب. وقيل: مرجوم بالشهب إن رجعت إليها كما ترمى الشياطين، عن أبي علي. «**وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي**» قيل: على لسان عبادي إذ أمرتهم بلعنك، وقيل: حكمي بأنك مطرود، ومستخف بك. وقيل: طردي إياك، وإبعادي إياك من رحمتي «**إِلَى يَوْمِ الدِّينِ**» يعني: لا ينقطع إلى يوم القيامة.

۞ الأحكام

تدل الآية على فضل آدم ونبوته.

وتدل على وجوب السجود له؛ لذلك كفر إبليس بإنكاره.

وتدل أنه لا يتوب إلى القيامة.

ومتى قيل: هل ينقطع اللعن عنه يوم الفناء؟

قلنا: يدوم إلى ذلك الوقت، ثم يعاد اللعن. وقيل: بل يفعل به ما هو أعظم من العقاب الدائم، عن أبي علي.

وتدل على أن كُفْرَ إبليس ليس بِخَلْقِ الله فيه.

---

(١) خلقته: خلقه، ت.

قوله تعالى:

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٧٩ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٨٠ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۝٨١ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٨٣ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ۝٨٤ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٥ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ۝٨٦ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٨٧ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ۝٨٨﴾

القراءة

قرأ عاصم وحمزة ويعقوب: «**قال فالحقُّ**» بالرفع «**والحقَّ**» بالنصب، وهو قراءة مجاهد والأعمش، وقرأ الباقون بالنصب فيهما، أما الرفع: فعلى تقدير: أنا الحق، أو مني الحق، أو هو الحق، وقيل: فعلي الحق، وقيل: قولي الحق. وأما النصب: فقيل: بالإغراء؛ أي: عليك الحق، وقيل: بوقوع الفعل عليه أي: أقول الحق، أو سأفعل الحق، وقيل: الأول قَسَمٌ، والثاني مفعول، تقديره: فالحقّ، أي: بالله الحق لأملأن، ويكون ﴿وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾ اعتراضًا[1] بين الكلامين، وقيل: هو جواب إبليس؛ يعني: سأفعل الحق في أمركم وأقول الحق، عن أبي علي. وقيل: أتبع قسمًا بعد قسم، عن أبي مسلم. قال الفراء وأبو عبيد: معناهما حقًّا، أدخل عليه الألف واللام كما يقال: الحمد لله وحمدًا لله، هما بمعنى. وقرأ طلحة بن مصرف: «**فالحَقِّ والحَقِّ**» بالكسر فيهما على القسم.

اللغة

الإنظار: التأخير، ومنه: ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

والمعلوم: ما ظهر للعالم، والمعلوم: ما يكون موجودًا أو معدومًا، فأما المقدور فلا بد أن يكون معدومًا، وما وجد خرج من كونه مقدورًا لهم، ثم إن كان مما لا يبقى خرج من كونه مقدورًا، وكذلك إن كان مما يبقى من فعل العبد، فأما ما كان من فعله تعالى ويبقى فهو مقدور له بمعنى أنه يفنيه ويعيده.

---

(١) اعتراضاً: اعتراض، ت.

والإغواء: الدعاء إلى الغيّ بالتزيين والوسوسة، وأصله: الخيبة[1]، والمغوي يدعو إلى ما فيه الخيبة[2] في العاقبة، أغواه إغواءً.

والتّكلف: توسع في طلب الأمر، وهو صفة نقص.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى ما قال إبليس وما أجيب به، فقال سبحانه: «**قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي**» أي: أمهلني وأخرني ولا تهلكني، وإنما قال ذلك لما أحس بالعقاب والهوان.

ومتى قيل: ما غرضه بهذا التأخير؟

قلنا: أيس من رحمته فلم يكن شيء يسأله ويتمناه إلا هذا. وقيل: كان غرضه التشفي من بني آدم بالإغواء[3]. وقيل: تأخير العقوبة. وقيل: شهوة البقاء، كما لأهل الدنيا من الظلمة وغيرهم.

«**إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**» قيل: يوم القيامة يبعث الخلق «**قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ**» المؤخرين «**إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ**» قيل: هو يوم[4] القيامة، عن جماعة منهم أبو علي، وأبو مسلم؛ ولذلك قال: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧]، فهو خطاب لبني آدم إلى يوم القيامة، وقيل: أنظره إلى الوقت الذي علمه الله تعالى أنه يفنيه إليه، وليس هو يوم القيامة.

ومتى قيل: هل أجيب دعاؤه؟

قلنا: قيل: لا، وكان منظرًا، عن أبي علي. وقيل: بل استصلاحًا، عن أبي بكر أحمد بن علي. وهو منبئ عن إجابة دعاء الكفار والفساق.

«**قَالَ فَبِعِزَّتِكَ**» أقسم بالله «**لَأُغْوِيَنَّهُمْ**» يعني: بني آدم كلهم «**أَجْمَعِينَ**» تأكيدًا «**إِلاَّ**

---

(١) الخيبة: الجنية، ت.
(٢) الخيبة: الجنية، ت.
(٣) بالإغواء: بالإغراء، ت.
(٤) يوم: ـ، ن.

عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ»، وإنما استثناهم لعلمه بأنهم لا يقبلون، فأيس منهم؛ إذ ليس عليه إلا الدعاء، فإذا علم أنهم لا يقبلون لم يبق له عليهم سلطان.

فلما أقسم على إغوائهم أقسم الله تعالى أن يدخله ومن تبعه النار، فقال سبحانه: «**قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ**» وقيل: الحق والحق أقول، عن ابن عباس، وقيل: بالله الحق والحق أقول «**لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ**» من بني آدم، يعني: من يقبل منك. «**قُلْ**» يا محمد: «**مَا أَسْأَلُكُمْ**» أيها الناس «**عَلَيْهِ**» على تبليغ الوحي والرسالة «**مِنْ أَجْرٍ**» أي: لا طمع لي فيكم؛ لأنه يؤدي إلى التنفير «**وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ**» قيل: المتقولين القرآن من قِبَلِ نفسي، وقيل: لا أتكلف أمرًا لم يأمرني به الله سبحانه، وقيل: لا أقول شيئًا بغير علم، وقيل: لا أكلف نفسي ما هو موضوع عني، وإنما أنا رسول، عن أبي مسلم. «**إِنْ هُوَ**» يعني: القرآن «**إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ**» قيل: عظة للخلق، وقيل: فيه ذكر ما يحتاجون إليه، وقيل: شرف لمن آمن به «**وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ**» أي: خبره بعد وقت، أي: خبر القرآن عند الموت، عن الحسن، وقتادة. وقيل: يوم القيامة، عن أبي مسلم. وقيل: بعد بدر. وقيل: بعد المشاهدة التي يضطرون فيها إلى الإيمان.

۞ الأحكام

تدل الآيات أن إبليس مؤخر إلى يوم فناء الخلق.

ومتى قيل: ما فائدة بقائه مع أنه يغوي الخلق؟

قلنا: أما إغواؤه عند أبي علي كانوا يَضِلُّون وإن لم يكن هو. وعند أبي هاشم يجوز أن يضل بوسوسته، فيكون زيادة تكليف.

فأما فائدة إنظاره فالله أعلم بتفاصيل المصالح، ولا بد أن فيه مصلحة، وقيل: أراد بإنظاره ليبقى الجهاد في الدين والعلم بعداوته ربَّه[1]، ولما فيه من البعث على التفكر في العلوم وحلّ الشُّبَهِ.

(١) ربه: ويه، ن.

فأما من يقول: أَنْظَرَهُ جزاء على أعماله، فلا يصح؛ لأن تلك الطاعات أبطلها بالكفر، وعلى أنه ينبغي أن المرتد يكون أطول عمرًا، وهذا فاسد.

فأما ما تقوله المجبرة: إنه أنظره ليغوي، فلا يصح؛ لأنه قبيح، وبعد فإن من مذهبهم أن الغواية خَلْقُ الله، فسواء كان إبليسُ أو لم يكن.

ومتى قيل: لولا التبقية ما أمكنه الوسوسة؟

قلنا: إنما بقاه للتكليف، ومكنه بالقدرة والآلات ليعمل بالطاعات[1]، فهو في عصيانه بمنزلة سائر الكفار، والتمكين لا يصح إلا من الأمرين جميعًا، وذلك لا يقتضي أنه يريد المعصية، كما أن الشهادة لا تصح إلا بعد الإنكار، ولا يقتضي أن يكون القاضي مريدًا للإنكار.

وتدل على أن جهنم تمتلئ[2] بالجن والإنس زيادة عقوبة، وخلوها لا فائدة فيه، قال الحسن: لو كان في النار واحد لامتلأت منه[3]، ولا كذلك الجنة؛ لأن سعة المكان زيادة في سرورهم ونعيمهم.

وتدل أن النبي لا يسأل أحدًا؛ لأنه يؤدي إلى التنفير، فمن هذا الوجه تدل على أنه ينبغي أن يخلو عن كل منفر.

وتدل أن جميع ما يقوله[4] ويفعله من جهة الله تعالى؛ لذلك قال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾.

(١) بالطاعات: بالطاعة، ت.
(٢) تمتلئ: تملأ، ن.
(٣) منه: به، ن.
(٤) يقوله: يقول، ت، ن.

سُورَةُ الزُّمَر

سورة (الزمر)، وتسمى سورة (الغُرَف)، قال القاضي: وهي مكية على ما ذكره المفسرون. وعن قتادة أنها مكية إلا قوله: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ﴾.

وهي خمس وسبعون آية في المدني والكوفي، واثنتان في البصري.

وعن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأ سورة الزمر لم يقطع الله رجاءه، وأعطاه ثواب الخائفين».

وعن عائشة: «كان النبي ﷺ يقرأ كل ليلة (بني إسرائيل)، و(الزمر)».

ولما ختم سورة (ص) بذكر القرآن وأنه لم يتكلفه من قِبَلِ نفسه، وإنما هو وحي يوحى إليه، وأنهم سيعلمون نبأه من بعد حين، افتتح هذه السورة ببيان صفة القرآن، وأنه تنزيل من الله تعالى.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ
ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ
إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ
كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ
ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ
وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾﴾

اللغة

التنزيل والإنزال بمعنى، يقال: نَزَّلَهُ تنزيلاً، وأنزله إنزالاً.

والإيلاج: الإدخال، أولج يولج إيلاجًا.

والتكوير: اللفّ، ومنه: كَوْرُ العمامة.

والأجل: الوقت.

الإعراب

﴿تَنزِيلُ﴾ رفع، قيل: لأنه خبر ابتداء محذوف، أي: هذا تنزيل، وقيل: فيه تقديم وتأخير، ورفعه بـ (من) أي: من الله العزيز تنزيل الكتاب، وقيل: هو ابتداء، وخبره فيما بعده، وهو: ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

«الدِّينَ» نصب بتقدير: أخلصوا له الدين، قال الفراء: ويجوز فيه الرفع، قال الزجاج: لا يجوز لأنه يصير ما بعده تكريرًا.

«مخلصًا» نصب على الحال، أي: في حال الإخلاص.

المعنى

«تَنْزِيلُ الْكِتَابِ» أي: هذا القرآن المنزل تنزيل «مِنَ اللَّهِ» أنزله هو، فاعملوا[1] به «الْعَزِيزِ» القادر الذي لا يمتنع عليه شيء، وإنما ذكر اسم العزيز هاهنا قيل: لأن إنزاله صَدَرَ من عزيز أنزله وحفظه حتى يصل إليك من غير تغير لتكون الحجة لك، قيل: عزيز قادر على الانتقام ممن يخالفه «الْحَكِيمِ» قيل: الذي أحكمه؛ لأنه يحكم أقواله وأفعاله، وقيل: معناه: العليم، أي: أنزله وهو عليم يُنْزِل على ما تقتضيه الحكمة «إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ» يا محمد «الْكِتَابَ» القرآن «بِالْحَقِّ» قيل: بالدين الحق[2]، وقيل: جميع ما فيه حق من الأخبار والأوامر، والوعد والوعيد، فاعبدوا الله وحده، كما أمرتم في هذا

---

(١) فاعملوا: فاعلموا، ت.

(٢) الحق: بالحق، ت، ن.

الكتاب المنزل «**مُخْلِصًا**[١] **لَهُ الدِّينَ**» يعني: أخلصوا العبادة له فلا تعبدوا غيره «**أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ**» (ألا): كلمة وضعت لافتتاح الكلام والتنبيه، كأنه يقول: اعلم أن الدين الخالص لله، قيل: هو شهادة أن لا إله إلا الله، عن قتادة، وليس بالأوجه؛ لأن بمجرد[٢] هذا القول لا يصير مؤمنًا، وقيل: هو جميع العبادات خالصة له لا يستحقها إلا الله، وهو الاعتقاد الواحد في التوحيد والعدل، والنبوات والشرائع، والإقرار بها، والعمل بموجبها، والبراءة من كل دين سوى دين الإسلام، فالدين الخالص هو الإسلام «**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ**» يعني: الأصنام، وقيل: أولياء يتولوا أمرهم، عن أبي علي. وقيل: المراد به: المالك، أي: زعموا أن فيهم دون الله مالك يملكهم، عن أبي مسلم. «**مَا نَعْبُدُهُمْ**» أي: ويقولون: ما نعبدهم «**إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى**» قيل: كانوا إذا قيل لهم: مَنْ خلقكم؟ ومن خلق السموات والأرض؟ قالوا: الله، فإذا قيل: فما معنى عبادتكم الأوثان؟ قالوا: تقربنا إلى الله زلفى، وتشفع لنا عند الله، عن قتادة. وقيل: جوابه في (الأحقاف): ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٨]، و«**زُلْفَى**» قيل: منزلة القربى، عن السدي. وقيل: قربى، عن ابن زيد. «**إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ**» يوم القيامة «**فِي مَا**[٣] **هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**» من أمر الدين، فيثيب المحق، ويعاقب المبطل «**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي [مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ]**[٤]» إلى طريق النجاة، وقيل: لا يحكم بالهداية لمن كان كاذبًا[٥] كافرًا بل يحكم عليه بالكفر والكذب «**لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا**» على ما زعموا وجاز ذلك عليه «**لاَصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ**» قيل: لكان يصطفي الأرفع، ولا يختار الأَدْوَنَ وهو البنات، عن أبي مسلم. وقيل: لكان يصطفي من الحور العين. وقيل: هذا رد على اليهود والنصارى وغيرهم، أي: لو أراد الله اتخاذ ولد لم يتخذ باختيارهم حتى يضيفوا إليه من شاؤوا؛ بل كان يتخذ باختياره، عن أبي علي. «**سُبْحَانَهُ**» أي: هو منزه مطهر

(١) مخلصاً: مخلصين، ت، ن.
(٢) بمجرد: مجرد، ت.
(٣) ما: فيما كانوا، ت، ن
(٤) من هو كاذب كفار: ـ ، ك.
(٥) كاذبا: ـ ، ن.

عن الأولاد والأنداد؛ لأن ذلك علامة الحاجة والحدث وكونه جسمًا كسائر الأجسام، وهو واحد ليس كمثله شيء «**هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ**» في الإلهية وفي استحقاق القدم والصفات الأزلية «**الْقَهَّارُ**» القادر على قهر ما يشاء، ومثله لا يجوز عليه الولد.

ثم نبه على كمال قدرته، فقال سبحانه: «**خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ**» قيل: بالحق[1] لإقامة الحق وعبادة الله والدلالة على وحدانيته «**يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ**» أي: يلف هذا على ذاك وذاك على هذا، وقيل: يدخل أحدهما في الآخر بالزيادة والنقصان، فما يزيد في أحدهما يَنْقُصُ من الآخر، عن الحسن وجماعة، ومنتهى النقصان تسع ساعات، ومنتهى الزيادة خمس عشرة ساعة، وقيل: يأتي أحدهما خلف الآخر «**وَسَخَّرَ**» أي: ذلل بأن يجريه كما يشاء «**الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى**» أي: إلى أجل مسمى، قيل: هو قيام الساعة، فإنهما يجريان إلى ذلك الوقت، عن أبي علي، وأبي مسلم. وقيل: هو المطلع والمغرب لكل واحد وقت معلوم في الشتاء والصيف «**أَلاَ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ**» مع قدرته على أخذكم لا يؤاخذكم[2] ويغفر لكم إن تبتم.

۞ الأحكام

يدل قوله: ﴿تَنزِيلُ﴾ أن القرآن محدث لاستحالة الإنزال على القديم.

ويدل قوله: ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ أن القرآن لا يُغَيَّرُ ولا يبدل[3]؛ لأنه يحفظه، فيبطل قول الإمامية.

ويدل قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أن جميع ما فيه والعمل به حق.

وتدل أنه أنزله ليعمل به، خلاف ما تقوله المجبرة؛ لأنه لو أراد بإنزال القرآن أن يعمل أكثر الناس بالباطل ـ على ما يزعمون ـ لكان إنزاله بالباطل لا بالحق، عن أبي علي.

---

(١) بالحق: +، ن.
(٢) يؤاخذكم: لا يأخذكم، ن.
(٣) لا يغير ولا يبدل: لا يبدل ولا يغير، ن.

وتدل على أن الواجب في العبادة الإخلاص.

وتدل أن القوم عبدوا الأصنام تقربًا إلى الله، فيبعد أن يعتقد عاقل أن الحجر والجماد ينفع ويضر، فلا بد أنهم اعتقدوا أنهما قربة، وهذا اعتقاد أصحاب المتوسطات، وقيل: اعتقدوا فيها النفع والضر، وليس لاعتقاد[1] العامة والجهال حَصْرٌ.

ويدل قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أنه أراد بخلقه الحق، ولم يرد الباطل، خلاف قول أهل الجبر: إن كل باطل فَمِنْ خَلْقِهِ وإرادته وقضائه، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

قوله تعالى:

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾

۞ القراءة

اختلفوا القراء في هاء ﴿يَرْضَهُ﴾ على ثلاثة أوجه:

(١) لاعتقاد: الاعتقاد، ت.

أولها: قرأ أبو جعفر ونافع وعاصم وحمزة ويعقوب وأبو عمرو بضم الهاء مختلسة غير مشبعة للتخفيف والدلالة على الأصل.

الثاني: قرأ أبو عمرو ويعقوب في بعض الروايات عنهما: «يرضهْ» ساكنة الهاء بالتخفيف.

والثالث: قرأ ابن عامر وابن كثير والكسائي ونافع في بعض الروايات مضمومة الهاء مشبعة، وروي نحوه عن ابن عمرو[1]، وعن[2] أبي بكر عن عاصم على الأصل.

واختلفوا في ﴿لِّيُضِلَّ﴾ ، فقرأ أبو عمرو ويعقوب بفتح الياء على معنى: يَضِلُّ بنفسه، الباقون بضم الياء على معنى: يُضِلُّ غيره.

واختلفوا في قوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وحمزة: «أَمَنْ» خفيفة الميم، والباقون: «أمّن» بالتشديد.

أما التخفيف ففيه وجهان:

الأول: أن الألف ألف الاستفهام، والجواب محذوف، على تقدير: كمن ليس كذلك، وقيل: كالذي جعل لله أندادًا، فاكتفى بما سبق ذكره، قال الشاعر:

فَأُقْسِمُ لَوْ شَيْءٌ أَتَانَا رَسُولُهُ ... سِوَاكَ وَلَكِنْ لَمْ نَجِدْ لَكَ مَدْفَعَا

فحذف (لدفعناه) وهو مراد.

الثاني: أن يكون ألف نداء، كأنه قيل: يا مَنْ، والعرب تنادي بالألف، كما تنادي بالياء، فتقول: أَزَيْدُ[3] أقبل، وأَيْ زَيْدُ، قال الشاعر:

أَبَنِي كُلَيْبٍ إِنَّ عَمَّيَّ اللَّذَا ... قَتَلَا الْمُلُوكَ وَفَكَّكَا الأَغْلَالَا[4]

المعنى: يا من هو قانت، أنت من أهل الجنة.

---

(١) ابن عمرو: ابن، ت، ن.

(٢) وعن: عن، ت.

(٣) أزيد: يا زيد، ت، ن.

(٤) البيت قائله: الأخطل في قصيدة مطلعها: كذبتك عينك أم رأيت بواسط، انظر: اللسان (لذا)؛ ديوان الأخطل، تحقيق: كارين صادر، دار صادر، بيروت، ١٩٩٩.

فأما من شدد ففيه وجهان:

أحدهما: أن تكون الميم في (أم) صلة، ويكون معنى الكلام الاستفهام وجوابه محذوف، تقديره: أمن هو قانت كمن هو غير قانت؟

الثاني: أن يكون بمعنى العطف على الاستفهام، تقديره: فهذا خير أَمَّنْ هو قانت؟ فحذف لدلالة الكلام عليه.

۞ اللغة

الأزواج: الأصناف.

والإنابة: أصلها الرجوع، أناب يُنِيبُ إنابة، فهو منيب.

والتخويل: العطية العظيمة على جهة الهبة، وهي المُتَخَوَّلَةُ، خَوَّلَهُ الله مالاً، ومنه الحديث: «كان يَتَخَوَّلُهُمْ بالموعظة» أي: يتعهدهم، ومنه: إذا بلغ بنو العاص ثمانين[1] رجلاً اتخذوا مال الله دولاً وعباد الله[2] خَوَلاً، أيظنون العباد عبيدهم أعطاهم الله ذلك.

والكفر: مقابلة النعمة بالجحود، ونقيضه: الشكر، الاعتراف بالنعم وتعظيم المنعم وطاعته.

والقنوت: أصله الدوام، قنت قنوتًا: إذا دام على الطاعة.

والآناء: جمع، واحدها: إِنًى مكسور الأول[3] مقصورًا.

۞ الإعراب

﴿خَلَقَا﴾ نصب على «خلقكم».

---

(١) ثمانين: ثمانون، ت، ن.

(٢) وعباد الله: وعباده، ت.

(٣) الأول: الألف، ت.

ومتى قيل: لم قال: ﴿خَلَقَكُمْ﴾، ثم قال: ﴿جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، و(ثم) للتعقيب والتراخي، وخلق بني آدم تأخر عن خلق الزوج؟

قلنا: فيه أقوال:

أولها: أنه عطف يوجب أن الكلام الثاني بعد الأول كقولهم: رأيت ما كان منك اليوم، ثم ما كان منك أمس، قال الشاعر:

وَلَقَدْ سَادَ ثُمَّ سَادَ أَبُوهُ ثُمَّ قَدْ سَادَ قَبْلَ ذَلِكَ جَدُّهُ[1]

الثاني: أنه معطوف على المعنى، كأنه قيل: خلقكم من نفس واحدة أوجدها وحدها، ثم خلق منها زوجها.

الثالث: قيل: خلق الذرية في ظهر آدم، وأخرجها منه كالذَّرِّ، ثم خلق بعد ذلك حواء من ضلع من أضلاعه، وقد بَيَّنَّا أن حديث إخراج الذرية غير صحيح، ولا يجوز حمل الكلام عليه.

﴿ثَمَٰنِيَةَ﴾ نصب بـ«أنزل»، والهاء في قوله: «يرضه» كناية عن الشكر، أي: يرضى الشكر لكم.

﴿مُنِيبًا﴾ نصب على الحال.

﴿خَلْقًا﴾ نصب على المصدر.

النزول

قيل: نزل قوله: ﴿أَمَّنْ[2] هُوَ قَٰنِتٌ﴾ في عمار، وأبي حذيفة بن المغيرة، عن مقاتل، فالذين يعلمون عمار، والذين لا يعلمون: أبو[3] حذيفة[4].

(١) البيت قائله: أبو نواس الحسن بن هاني في قصيدة مطلعها البيت، انظر: ديوان أبي نواس. ورواية الديوان:

قل لمن ساد ثم سادَ أبوه قبله ثم قبل ذلك جده

(٢) أمن: أم من، ن.

(٣) أبو: أبي، ت.

(٤) أبو حذيفة بن المغيرة المخزومي.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى كمال قدرته بخلق آدم وذريته وخلق الأنعام، وحثهم على الشكر، فقال سبحانه: «خَلَقَكُمْ» يا بني آدم «مِن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ» وهو آدم؛ لأنه أبو[1] البشر «ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا» حواء خلقها من ضلع من أضلاعه، ثم خلق الذرية منهما «وَأَنْزَلَ لَكُمْ» قيل: وأنشأ لكم، عن الحسن. وقيل: أنزلها بعد أن خلقها في الجنة، عن أبي علي. وقيل: أعطاكم الأنعام بأن خلقها لكم، والإعطاء بلفظ الإنزال أَبْلَغُ في التعظيم، وإنما ذكر بلفظ الإنزال لعلوه، كقولهم: رفعت قصتي إلى الأمير، فلا يريد المكان؛ بل يريد علوَّ الحال[2]، عن أبي مسلم. وقيل: جعلها نُزْلاً ورزقًا لكم، فالإنزال من النزل «مِنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ» قيل: من الإبل والبقر والضأن والمعز اثنين، عن قتادة، ومجاهد، والضحاك. ثبوتها في سورة (الأنعام). «يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ» قيل: نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظامًا، ثم يكسو العظام لحمًا، ثم يُنْشِئُ خلقًا آخر، عن قتادة، ومجاهد، والضحاك، والسدي، وأبي علي، وأبي مسلم. وقيل: خلقًا في بطون أمهاتكم بعد الخلق في ظهر آدم، عن ابن زيد، وليس بشيء. وقيل: خلقًا في أصلاب الآباء، ثم في رحم الأمهات، يريد في أجسامكم في بطون أمهاتكم شيئًا بعد شيء، عن أبي علي. «فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ» قيل: ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، عن ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، والسدي، والضحاك، وابن زيد. وقيل: ظلمة صلب الرجل، وظلمة الرحم، وظلمة البطن، وقيل: الثالث: ظلمة الليل، بَيَّنَ أن هذه الظلمات لم تمنع من الإنشاء والتصوير؛ ليعلم كمال قدرته وأنه لا مثل له «ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ» يعني: الذي جعل[3] هذه الأشياء هو ربكم «لَهُ الْمُلْكُ» القوة على التصرف كيف شاء «لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ» أي: لا تحق العبادة إلا له «فَأَنَّى تُصْرَفُونَ» من الحق إلى الباطل، وقيل: الشيطان يصرفه، وقيل: أئمة الكفر، وقيل: بل هو ينصرف، وأتى بلفظ ما لم يسم فاعله على

(١) أبو: أب، ت، ن.
(٢) الحال: بحال، ت.
(٣) جعل: فعل، ن.

عادة العرب، يقولون: أنى يُذْهَبُ بك، وهو الذاهب، عن أبي مسلم. «إِن تَكْفُرُوا» هذه النعم ولا[1] تشكروا «فَإِنَّ اللَّهَ[2] غَنِيٌّ عَنكُمْ» أي: كفركم يضركم ولا يضره «وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ» يعني: وإن كان لا يضره فإنه يكرهه ولا يريده؛ لقبحه، ولما فيه من المفسدة «وَإِن تَشْكُرُوا» الله تعالى على نعمه بأن تؤمنوا وتتبعوا أوامره وتطيعوا رسوله «يَرْضَهُ لَكُمْ» أي: مع غناه عن الشكر يرضاه لحسنه «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ» أي: لا يُؤَاخَذُ أحد بذنب غيره، عن مجاهد. والوزر: الحِمْلُ، والوازرة: الحاملة «ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ[3]» مصيركم «فَيُنَبِّئُكُم» يخبركم بأن يجازيكم «بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ» يعلم ما يستحقه كل أحد.

ثم بَيَّنَ عبادة العصاة، فقال سبحانه: «وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ» أي: ما يضره من المحن والشدائد في نفسه وماله وأهله «دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ» أي: مخلصًا راجعًا إليه مستغيثًا به، داعيًا له، وليس يريد التائب[4]؛ لأنه لا بد أن يكون شاكرًا للنعم، صابرًا على المحن، راضيًا بحكم الله في الحالين «ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ» أعطاه «نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ» تضرعه الأول، وأقبل على عبادة الأصنام، وقيل: أراد بالنسيان الترك، وقيل: الغفلة، وقيل: الإعراض عن[5] «مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ» يعني: نسي في حال الرخاء ما كان يدعو في حال الضر والشدة «وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا» أي: أشباهًا، قيل: من الأوثان يعبدونهم، وقيل: من الرجال يطيعونهم في معاصي الله، عن السدي. «لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ» قيل: يريد به إضلال الناس عن الحق، وقيل: يضل عن طريق الجنة، واللام للعاقبة أي: عاقبته أنه يضل عن طريق الجنة ويدخل النار «قُلْ» يا محمد لهذا الكافر: «تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ» أي: استمتع بما خُوِّلْتَ مع كفرك «قَلِيلًا» قيل: مدتكم في الدنيا، ثم تموتون وتزول النعم «إِنَّكَ» إذا مت صرت «مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ» تعذب فيها دائمًا،

---

(١) ولا: فلا، ن.

(٢) فإن الله: فإنه، ت، ن.

(٣) ثم إلى ربكم مرجعكم: ثم إليه مرجعكم، ن.

(٤) التائب: الباب، ت.

(٥) عن: عـ؛ ت؛ ـ، ن.

وقيل: فيه تقديم وتأخير تقديره: تمتع قليلاً إنك من أصحاب النار بكفرك، وقيل: تمتع فإن الدنيا تنقطع عن قليل، وتصير إلى نار دائمة[1]، وهذا تهديد وليس بأمر، كقوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ [فصلت: ٤٠]، وقيل: هذا خطاب للرؤساء؛ فإنهم كانوا يتمتعون برئاستهم، ويتظاهرون على تقوية الكفر، فقال: تمتع أيها الكافر بكفرك فإنها متعة قليلة وندامة طويلة «أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ» أي: دائم على الطاعة، عن ابن عباس، والسدي. وقيل: القنوت: قراءة القرآن وقيام الليل، عن ابن عمر. «آنَاءَ اللَّيْلِ» ساعاته «سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ» بذلك، أي: عذاب الآخرة «وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ» أي: قل لهم: هل يستوي العالم والجاهل، فإذا قالوا: لا؛ كذلك عندي لا يستوي المؤمن والكافر، وقيل: قل لهم: هل يستوي العالم بالله والجاهل، فإذا لم يجيبوك فقل: لا يستوي؛ ولكن إنما يعلم ذلك مَنْ تذكر وتدبر «إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ» أي: مَن استعمل عقله وتدبر، قيل: مَنْ له عقل.

ومتى قيل: «أمن» يقتضي جوابًا فما هو؟

قلنا: قيل: هو محذوف تقديره: أمن هو قانت كمن يتمتع بكفره، ثم مصيره إلى النار.

«قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ» أي: احذروا نقمته في مخالفة أمره «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ» يعني: من أحسن العمل في الدنيا فله مثوبة حسنة في الآخرة، وهو الخلود في الجنة، وقيل: الإحسان على ضربين: إحسان إلى الغير بالإنعام عليه والدعاء إلى الدين، وإحسان بفعل الحسن أن يطيع الله تعالى فيما كلفه. والحسنة على ضربين: حسنة في الدنيا بالثناء والمدح والقول الجميل، وحسنة في الآخرة الثواب الجزيل. وقيل: الحسنة: الخير، عن مقاتل. وقيل: العافية والصحة، عن السدي. «وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ» أي: الدنيا واسعة، فتهاجروا[2] عن دار الشرك، عن مجاهد. وقيل: أرض الجنة واسعة فاطلبوها بالأعمال الصالحة، عن مقاتل، وأبي

(١) دائمة: دائم، ن.

(٢) فتهاجروا: تهاجروا، ت.

مسلم. وقيل: البلاد التي وعدوا كثيرة الخير، فتحولوا إليها، فالله لا يضيعكم «**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ**» أي يوفى مَنْ صبر، قيل: على الهجرة وترك الوطن والإقامة بالغربة، وقيل: على الطاعة وعن المعصية، وقيل: على البلايا والمحن «**أَجْرَهُمْ**» أي: ما يستحقون من الجزاء والثواب «**بِغَيْرِ حِسَابٍ**» قيل: لأنه يعطي أكثر من مقادير الأعمال، عن أبي علي. وقيل: لا تضيق فيه؛ لأن ما يعطى بحساب يتضيق، عن أبي مسلم. قال قتادة: لا، والله ما هناك مكيال، ولا ميزان.

۞ الأحكام

تدل الآية على أحكام:

منها: كمال قدرته وعلمه. وأنه مدرك لا بآلة.

ومنها: أنه[1] لا يريد القبيح.

وتدل على أنه لا يعذب بغير ذنب.

ومنها: الترغيب في العلم وفضله.

ومنها: الحث على الهجرة.

ومنها: الحث على الطاعة.

أما الأول[2]: فخلقه وتصويره في الرحم، وخلق آدم من تراب، وخلق حواء من ضلعه، وذلك لا يتأتى إلا من قادر عالم على الكمال، ولأنه لو كان مدركًا بآلة لكان لا يدرك في الرحم، فلا يتأتى التصوير على سنن واحد.

وتدل أنه ليس بجسم؛ لأن الجسم لا يقدر على ذلك.

وأما الثاني: فقوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾، والرضى هو الإرادة، وقوله: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾.

---

(١) ومنها أنه: ومنها على أنه، ت.

(٢) يقصد الأول من قوله (منها) أعلاه، في جملة (منها: كمال قدرته...).

وأما الثالث: فمن وجوه: قوله: ﴿إِن تَكْفُرُوا﴾، وقوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾، وقوله: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾.

وقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، وقوله: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ﴾ الآية، فنبه على عادة سيئة ذامًا لها.

[وأما الرابع] فقوله[1]: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ﴾، وقوله: ﴿وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾، وقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾، وقوله: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾، وقوله: ﴿لِّيُضِلَّ﴾، وقوله: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ كل ذلك يبطل قولهم في المخلوق. (وقوله): ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾. (وقوله): ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾. وأما الرابع[2]: فقوله[3]: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾. وأما الخامس: فقوله: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا﴾ حث على الشكر، وقوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾، وقوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ﴾، وقوله: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾، وقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾.

ويدل قوله: ﴿آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ أن قيام الليل أفضل من قيام النهار؛ لما فيه من زوال شغل القلب، ولزوال الرياء.

ويدل قوله: ﴿وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ أن المؤمن يجب أن يعبد ربه بين الخوف والرجاء.

ويدل قوله: ﴿حَسَنَةٌ﴾ أن المحسن يجازى بالإحسان، وجميع ذلك إنما يصح على مذهب العدل أن للعبد فعلاً، وأنه تعالى يجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

قوله تعالى:

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ ۗ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ ۚ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾

---

(١) فقوله: وقوله.

(٢) وأما الرابع: +، ت، ن.

(٣) فقوله: قوله، ت.

اللغة

الأمر: قول القائل لمن دونه: (افْعَلْ) إذا كان مريدًا للمأمور به؛ ولذلك لا يجوز أن يأمر نفسه لاستحالة الرتبة، وهو حقيقة في القول مجاز في الفعل؛ لأن تصرفه في القول يطرد فيه، وقد ترد صيغة الأمر فلا تكون أمرًا بأن تكون تهديدًا أو إباحة أو إرشادًا أو نحوها.

والدِّينُ: الطاعة، والدِّينُ: الجزاء، والدِّينُ: ما يدان به، والدِّينُ: العادة.

والإخلاص في الدين: أن يعمله لله تعالى من غير شائب.

والظُّلَّةُ: الستر العالي، وجمعه: ظلل، وقيل: الظلة في العذاب مجاز وتَوَسُّعٌ، وإنما أطلق؛ لأنها في مقابلة ما لأهل الجنة من الظلل.

والتخويف والترهيب والتحذير نظائر، ونقيض الترهيب: الترغيب.

النزول

قيل: لما دعوا رسول الله -صلى الله عليه وآله- إلى دين الآباء نزلت هذه الآيات.

المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى ما أمر به وما أعد لمن خالف أمره عطفًا على ما تقدم من الأمر بالطاعة، فقال سبحانه: «**قُلْ**» يا محمد: «**إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ**» يعني: أمرت بعبادته في أي وقت كان، وأي بلد كان «**مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ**» يعني: أعبده على وجه الإخلاص، فلا أعصيه في شيء، ولا أخص بالطاعة والعبادة إلا إياه «**وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ**» قيل: من أمتي الذين أسلموا بدعائي، وقيل: إنه إشارة إلى أنه يرضى لهم ما رضي لنفسه، ورضيه الله له، إني أدعوكم إلى شيء بدأت بنفسي، فأجبت ربي، واستسلمت له، وقيل: [أنا] أول من يتمسك بالعبادات التي أرسلت بها لوجوبها عليَّ، [و] وجوب الاقتداء بي، وقيل: معناه: كما أُمِرْتُ بأن أعبده مخلصًا أمرت أن يكون عملي واعتقادي سالمًا[1] لله، وقيل: أمرت أن أكون من المستسلمين، وإذا

(١) سالما: سالمة، ت.

خص على هذه الوجوه لم يكن تكرارًا «**قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي**» فاحذروا أنتم معصيته، وقيل: إنها منسوخة؛ لأنها نزلت قبل غفران ذنوبه، وهذا فاسد؛ لأنه ليس في الآية وقوع ذنب، وإنما فيها أنه يخاف، ولأن ذنوب الأنبياء تقع مُكَفَّرَةً «**قُلِ**» يا محمد: «**اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي**» فلا أعبد معه شيئًا، ولا أعصيه في شيء «**فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ**» فستجدون جزاءه، وقيل: تقديره: إذا لم تقبلوا نصحي فأنتم وشأنكم، فإني لا أعبد أحدًا سواه، وقيل: إنها منسوخة بآية القتال، وهذا في غاية الفساد؛ لأنه ليس بِأَمْرٍ حتى يُنْسَخَ؛ وإنما هو تهديد ووعيد؛ فلا ينافي القتال والقتل «**قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ**» الخسران: عبارة عن ذهاب ما يُنْتَفَعُ به، كأنه قيل: الخاسر مَنْ خسر نفسه بإهلاكها وإيرادها في[1] النار «**وَأَهْلِيهِمْ**» قيل: لأنه لا يكون لهم في النار أهل، وقد كان لهم في الدنيا أهل، عن مجاهد، وابن زيد. وقيل: فلو كانوا معهم في النار فلا ينتفعون بهم، وقيل: خسروا أنفسهم لِلْمُعَدِّ لهم في الجنة من الحور العين، عن الحسن. قال ابن عباس: إن الله تعالى جعل لكل إنسان في الجنة منزلاً وأهلاً، فمن عمل بطاعته كانت له، ومن عصاه صار إلى النار، ودفع منزله وأهله إلى من أطاع، وهو قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠]، وقيل: أهليهم الذين كانوا معهم على دينهم هلكوا معهم أيضًا، عن أبي مسلم. «**أَلاَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ**» البين الواضح، ولا خسران أعظم ممن[2] فاتته الجنة وصار إلى النار؛ لأنه يشتمل[3] على كل ضرب من الهلاك والضرر «**لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ**» قيل: سرادقات وأطياف «**من النار**» من النار ودخانها «**وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ**» فُرُشٌ ومهاد، وقيل: سُمّي[4] ما تحتهم ظلل؛ لأنه ظلل لِمَنْ تحتهم، وقيل: لأنها تنقلب عليهم، وقيل: ما تحته سمي ظلة للمجاورة كقوله:

عَـلَـفْـتُـهَـا تِـبْـنًـا وَمَـاءً بـارِدًا

عن أبي مسلم.

---

(١) في: ـ، ن.
(٢) ممن: من، ت.
(٣) يشتمل: يستعمل، ت.
(٤) سمي: سميت، ن.

وقيل: إنما سمي الظلة لأنها في مقابلة ما لأهل الجنة، وقيل: معناه: النار تحيط بهم كالدائرة «ذَلِكَ» يعني: العذاب المذكور «يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ» أي: يخوفهم فعل المعاصي التي بها يُسْتَحَقُّ ذلك «يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ» أي: اتقوا معاصي الله ومخالفة أمره.

الأحكام

تدل الآيات أنه يقال للذي يقدر على المعاصي: إنه تركها خوفًا، وعند المجبرة ما ترك معصية قط خوفًا ورغبة لله، ولكن إما لأنه لم يقدر عليها، أو لأنه لم تُخْلَقْ فيه.

وتدل أن الذي يُتَوَعَّدُ بشرط العصيان.

ثم يقال للمجبرة: ما تقولون في النبي ﷺ، هل ترك معصية قط لله تعالى وطلب رضاه قَدَرَ عليها؟ فإن قالوا: نعم، تركوا مذهبهم، وإن قالوا: لا، قلنا: فلو قدر على أي كفر ومعصية في العالم أكان يفعلها؟ فلا بد من [الجواب] بـ(لا)، فيقال: ما تقولون في إبليس أيقدر على خير؟ فإن قالوا: لا، قلنا: ولو قدر على كل طاعة، أكان يفعلها؟ فإن قالوا: نعم، قلنا: فثناؤكم على إبليس أحسن من الثناء على رسول الله.

ويدل قوله: ﴿فَٱعۡبُدُواْ﴾ أن صيغة الأمر تَرِدُ وليس بأمر لعينه.

ويدل قوله: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ﴾ أن فعل العبيد[1] حادث من جهتهم ليصح التخويف، ولو كان خلقًا له لما أفاد التخويف، وكيف يخوفهم ليتركوا ما خلق فيهم ولا يقدرون على تركه، فيبطل قولهم في المخلوق والاستطاعة.

---

(١) العبيد: العبد، ت.

قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾

اللغة

الطاغوت: فاعول من الطغيان، عن أبي مسلم. وقيل: هو اسم أعجمي، نحو: جالوت وهاروت. وقيل: وزنه «فَعَلُوت»، وقال أبو حاتم: والعرب تجعل الطاغوت واحدًا وجمعًا ومذكّرًا ومؤنّثًا، وقيل: أصله «طغى» زيدت التاء فيه، والعرب تزيد التاء، عن أبي علي. وقيل: هو اسم لكل ما يعبد من دون الله.

والإنابة: الرجوع، ونظيرها: التوبة، ونقيضها: الإصرار.

والبشرى: الإعلام بما يظهر في بَشْرَةِ وجهه من السرور.

والإنقاذ: الإنجاء، أنقذه: أنجاه.

والغرفة: المنزلة العالية، يقال للسماء: غرفة.

الإعراب

﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ﴾ في محل الجر، تقديره: أفأنت تنقذه؟ وقيل: تقديره: أفأنت تنقذ من في النار منهم؟ وأتى بالاستفهام مرتين، فقال: ﴿أَفَمَنْ﴾، ﴿أَفَأَنتَ﴾ للتأكيد والتنبيه(١) على المعنى.

﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾ نصب على المصدر.

(ميعاد) أصله: «مِوْعَادٌ»، قلبت الواو ياء لسكونها وانكسار ما قبلها.

(١) والتنبيه: التنبيه، ت.

۞ النزول

قال ابن زيد في قوله: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ﴾ الآية[1]: نزلت في ثلاثة نفر كانوا في الجاهلية يقولون: لا إله إلا الله: زيد بن عمرو بن نفيل، وأبو ذر الغفاري، وسلمان الفارسي.

۞ المعنى

لما تقدم الوعيد للكفار والعصاة عقبه بالوعد للمتقين على عادته تعالى في الجمع بين الوعد والوعيد، فقال سبحانه: «**وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا**» أي: تباعدوا عن «**الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا**» قيل: الطاغوت: الأوثان، وقيل: الشيطان، عن مجاهد، والسدي، وابن زيد. وأَنَّثَهُ لِلَفْظِهِ، وقيل: هو كل ما دعا إلى عبادة غير الله، وتأنيثه للجماعة. وقيل: هو جماعة الشيطان، واجتناب الطاغوت إن حمل على الشيطان: اجتناب طاعته وترك ما يدعو إليه، فإذا اتبعه في عبادة غير الله فكأنه عبده، وإن حمل على الأصنام فاجتنابها[2]: ترك عبادتها «**وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ**» أي: رجعوا إليه فعبدوا وأخلصوا عبادته «**لَهُمُ الْبُشْرَى**» في الدنيا والآخرة وحسن المآب.

ثم أمر النبي ﷺ أن يخبر عن صفات المؤمنين، فقال سبحانه: «**فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ**» قيل: أولاه بالقبول والعمل به، وأَرْشَدُهُ إلى الحق، وقيل: أحسنه طاعة الله، عن قتادة. وقيل: أحسن ما يؤمر به، عن السدي. وقيل: معناه: يجتنب التقليد؛ ليسمع الحق والباطل، ثم يتفكر في الأدلة، فيتبع أحسنها في عقله، وهو ما تسكن إليه نفسه، وإنما قال: الأحسن الأنفع. وقيل: يتبعون الناسخ دون المنسوخ. وقيل: يتبعون القرآن؛ لأنه أحسن الحديث وأدل الدليل، يتضمن كل ما يحتاج إليه المكلف «**أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ**» بالألطاف، وقيل: هداهم إلى الجنة، وقيل: حكم بهدايتهم ومدحهم بها.

---

(١) الآية: هاتان الآيتان، ن.

(٢) فاجتنابها: فباجتنابها، ت، ن.

ومتى قيل: لم لا يحمل على أنه هداهم وغيرهم لما لم ينتفعوا به فكأنه[1] هداهم بالأدلة؟

قلنا: لأنه تعالى عَمَّ به المكلفين أجمع، إلا أن يحمل ذلك على أنهم انتفعوا به، فكأنه هداهم، وغيرهم لما لم ينتفعوا به فكأنه لم يفعل بهم.

«وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ» لأنهم يتبعون عقولهم حيث تفكروا وعلموا[2] الحق واتبعوه، وقيل: هم أولو الألباب بأن يوصفوا بأنهم عقلاء. «أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ» وجب عليه «كَلِمَةُ الْعَذَابِ» أي: كلمة الوعيد استحق الوعيد لكفره، وقيل: الكلام يقتضي جوابًا، ثم اختلفوا، فقيل: جوابه: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ﴾ تقديره: من حق عليه العذاب أفأنت[3] تنقذه؟! وقيل: جوابه: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ بكفره كمن ليس كذلك في معلوم الله، وقيل: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ يتخلص منه بغير إيمان «أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ» هذا نفي، أي: لا تنقذهم بجهدك؛ فإنما يتعلق ذلك بجهدهم في الإيمان والطاعة.

ثم وعد المتقين، فقال سبحانه: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ﴾ أي: معاصيه «لَهُمْ غُرَفٌ» أي: منازل عالية، أنشأها الله ابتداء، وهي القصور المبنية، لا تحتاج إلى تكلف بناء «مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ» يعني: مع القصور «مَبْنِيَّةٌ» جميعها «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ» قيل: من تحت الغرف، وقيل: من تحت الأشجار «وَعْدَ اللَّهِ» أي: ذلك وعد الله، وعدها الله المتقين، والله لا يخلف الميعاد؛ لأن ذلك قبيح، وهو لا يفعل القبيح[4].

۞ الأحكام

يدل قوله: «فبشر» على وجوب النظر؛ لأن اتباع الأمر[5] [الأحسن] إنما يتبين بهذه الطريقة.

---

(١) فكأنه: كأنه، ت.

(٢) وعلموا: وعملوا، ت.

(٣) أفأنت: أنت، ت.

(٤) لأن ذلك قبيح... القبيح: ـ، ن.

(٥) الأمر: ـ، ن.

وتدل على بطلان التقليد؛ لأن معه لا يُعْلَمُ الأحسن.

وتدل[1] على أن استماع الحق والباطل يحسن، وإن لم يحسن اتباع الباطل.

وتدل على عظم محل الدعاء إلى الحق.

ويدل قوله: «أولئك» أن متبع الحق موعود بالثواب.

ويدل قوله: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ على أنه ﷺ لا يشفع لمن في النار، فيبطل قول المرجئة في الشفاعة.

وتدل على أنه تعالى لا يخلف الوعد والوعيد، خلاف ما يقوله بعض المرجئة.

وتدل على أن التقوى واتباع الحق فِعْلُ العبد.

قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾﴾

اللغة

السلوك: دخول بمرور على الشيء؛ ولذلك يقال: دخل في الإسلام، ولا يقال: سلك في الإسلام، يقال: سلكته فيه، وأَسْلَكَهُ: إذا أجراه، وسلكت الخيط في الإبرة، وأنشد ثعلب:

(١) وتدل: فتدل، ت.

وَهُمْ سَلَكُوكَ فِي أَمْرٍ عَصِيبِ

والينابيع: جمع يَنْبوعٍ، وهي العيون في المكان الذي ينبع منه الماء، نبع[1] الماء: إذا جاز من العين نبوعًا، ونوابع البعير: مسائل عَرَقِهِ.

والهيج: شدة الاضطراب بالانقلاب، هاج هيجًا وهيجانًا، والهيج: الجَفَافُ لأنها.

والحَطْمُ: كسر الشيء اليابس، والمحطوم: المكسور، ومنه سُمّي جهنم حطمة؛ لأنها تكسر كل شيء. ومنه: الحطيم بمكة، قال النضر: لأن البيت رفع وترك ذاك محطومًا، وهو[2] حجر الكعبة مما يلي الميزاب.

الشرح: الانفتاح والسعة، يقال: شرح صدره: إذا انفتح، واتسع بالشيء فيقبله، وشرحت الأمر: بينته، وشرحت اللحم: فتحته، وهي الشريحة.

والقسوة: الضلالة، وكل صلب فهو قاس، ومنه: قسوة القلب: جفاؤُهُ وغلظته، ومثله القساوة.

مثاني: جمع مثنى، مأخوذ من الاثنين، وهو المردد[3] المكرر، تقول: ثنَيت وثنّيت مخففًا ومشددًا: إذا أضفت إليه مثله.

۞ الإعراب

نصب ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ على التمييز، فميز[4] القرآن من جملة الأحاديث، وقيل: هو بدل من «**أحسن الحديث**».

ويقال في قوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ كالقاسية قلوبهم، وقيل: محذوف، تقديره: أفمن شرح الله صدره للإسلام بالدلائل[5] ومثلها، وصار مسلمًا

---

(١) نبع: مع، ت، ن.

(٢) هو: +، ن.

(٣) المردد: المزيد، ن.

(٤) فميز: فتميز، ن.

(٥) بالدلائل: بالدلالات، ن.

كمن كان ضالاً فاسقًا؟ وقيل: أفمن شرح الله صدره فاهتدى كمن قسا قلبه فلم يهتدِ؟!

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ جزم، علامته ذهاب الياء؛ لأن أصله ألم «ترى»، فسقطت الياء للجزم؛ لأن «لم» تجزم ما بعدها والراء مفتوحة على حالها.

۞ النزول

قيل: نزل قوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ﴾ في عمار بن ياسر.

وقيل: بل نزل في رسول الله ﷺ، عن مقاتل.

﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾ أبو جهل وأمثاله من الكفار، عن ابن مسعود، وابن عباس.

قالت الصحابة: يا رسول الله، لو حدثتنا، فنزل: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾.

وقيل: نزل قوله: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ﴾ الآية في أبي جهل، عن سعيد بن المسيب.

۞ النظم

يقال: بم يتصل قوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ﴾ ؟

قلنا: بما قبله من ذكر أدلة التوحيد والعدل الذي إذا تفكر فيها العاقل انشرح صدره، وسكنت[1] نفسه إلى التوحيد.

ويقال: بم يتصل قوله: ﴿نَزَّلَ﴾ ؟

قلنا: قيل: بما قبله من ذكر أدلة التوحيد والعدل الذي إذا تفكر فيها[2] العاقل انشرح صدره، فهو على نور من ربه، فبين أن النور هو القرآن.

وقيل: يتصل بما تقدم من قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، ثم بين أن أحسن الحديث القرآن، وأنه أولى بأن يُتَّبَعَ، عن أبي مسلم.

---

(١) وسكنت: وتسكن؛ ن، ت.

(٢) فيها: فيه، ن.

ومتى قيل: كيف يتصل قوله: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى﴾ بما قبله؟

قلنا: على تقدير: من لم يهتد[1] بهدى الله لا يهتدي بغيره، أفيهتدي من يتقي بوجهه سوء العذاب، يعني: المقيم على كفره؟ عن أبي مسلم.

۞ المعنى

ولما تقدم ذكر التوحيد والدعاء إليه عقبه بذكر دلائله، فقال تعالى: «**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ**» قيل: ما أوجب الله على عباده اعتقاد شيء إلا نصب عليه دليلاً ليُعلم به صحته؛ تنبيهًا على أن الحق ما صدر عن دليل، ومعنى «**ألم تر**» ألم تعلم «**أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ**» قيل: من السحاب وما علا فهو سماء، وقيل: أنزل من السماء إلى السحاب، ثم أنزل إلى الأرض، عن أبي علي، وهو أوجه؛ لأنه حقيقة الإضافة، وقيل: أدخله العيون، ونظيره: ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المؤمنون: ١٨]، «**يَنَابِيعَ**» أي: عيونًا «**فِي الأَرْضِ**»، وقيل: كل ما في الأرض فمن السماء ينزل على الصخرة، ثم يقسم منها العيون والرَّكايا، عن الشعبي، والضحاك. «**ثُمَّ يُخْرِجُ**[2] **بِهِ**» بالماء «**زَرْعًا**» الزرع: كل ما ينبت من غير ساق، والشجر: ما له ساق، والنبات يعم الجميع «**مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ**» قيل: صنوفه، كالبُرِّ، والشعير، والذرة، والسمسم ونحوه، وقيل: بين ألوان النبات أخضر وأصفر وأحوى وأحمر وأبيض وأسود، عن أبي مسلم. أشار إلى أن المنبت هو الله تعالى لا الطبع؛ إذ لو كان الطبع لما اختلف، والماء والأرض والهواء والشمس والطبائع واحد «**ثُمَّ يَهِيجُ**» قيل: يجف وييبس «**فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا**» بعد خضرته «**ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا**» فتاتًا متكسرًا «**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ**» أي: حجة للعاقل إذا تفكر فيها علم أن لها صانعًا، وأنها محدثة، وتتنقل الأحوال، فيستدل على صحة الابتداء والإعادة، وأنه تعلق بمختار[3]. «**أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ**» أي: فتح ووسع قلبه، وشرح الصدر يكون بثلاثة أشياء:

أولها: بقوة الأدلة وهو الذي نصبها، ويختص بذلك العلماء.

---

(١) يهتد: يهتدي، ت.

(٢) ثم يخرج: ويخرج، ت.

(٣) تعلق بمختار: فعل مختار، ن.

وثانيها: بالألطاف التي تتجدد على قلبه حالاً بعد حال، كقوله: ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧].

وثالثها: بتوكيد الأدلة، وإلقاء الخواطر، وحلّ الشُّبَهِ.

«الإِسْلَامِ» أي: لقبول الإسلام، والثبات عليه «فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ» قيل: على دلالة وهدى من ربه، وشبه الدلالة بالنور؛ لأنه بها يعرف الحق كما بالنور تعرف أمور الدنيا، عن أبي علي. وقيل: النور كتاب الله، فمنه يأخذ، وإليه ينتهي، عن قتادة. وعن ابن مسعود أن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ [لَمَّا] تلا هذه الآية، قلنا: يا رسول الله، ما انشراح الصدر؟ قال: «إذا دخل النور القلب انشرح وانفتح»، قلنا: فما علامة ذلك؟ قال: «الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والتأهب للموت قبل نزول الموت». «فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ» الويل: تنبيه على الشدائد والمضار، وهو وعيد لمن قسا قلبه، وقسوة القلب تكون بأسباب:

منها: اعتقاد الجهالات.

ومنها: حب الدنيا من المال والجاه.

ومنها: الإعراض عن الحق والدليل.

ومنها: ازدحام الشُّبَهِ بوساوس الشياطين.

ومنها: دعوة علماء السوء وشبههم.

ومنها: الإلف والعادة.

ومنها: تقليد الآباء، كل ذلك قسوة القلب.

ومتى قيل: لين القلب وقسوته ما هو(١)؟ وممن؟

قلنا: أما لين القلب فربما يكون من الله بالألطاف، فيقبل الحق، وينقاد له، وربما يكون من العبد بأن يتفكر في الأدلة والمواعظ، فيلين قلبه. ولينُ القلبِ: قبولُ الحق والإعراضُ عن الباطل. وأما قسوة القلب فتحصل بهذه الأسباب، فيعتاد اعتقاد

(١) ما هو: ما هي، ن.

الباطل، فربما يكون منه، وربما يكون من شياطين الإنس والجن. وقسوة القلب: رد الحق واعتقاد الباطل، وأسبابه منه ومن غيره على ما بينا.

«**أُوْلَئِكَ**» يعني: القاسية قلوبهم «**فِي ضَلَالٍ**» عن الحق «**مُبِينٍ**» بين.

ثم بين أن من نور الله كتابه الذي يشرح به الصدر، فقال سبحانه: «**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ**» سماه أحسن؛ لأنه معجز، ويشتمل على جميع ما يحتاج إليه المكلف من التنبيه على أدلة التوحيد والعدل، وبيان أحكام الشرائع، ومن المواعظ والزواجر الداعية إلى الحق، وقصص الأنبياء وأممهم، والوعد، والوعيد، ولا إخلاف فيه ولا تناقض «**كِتَابًا**» هو القرآن، سماه كتابًا؛ لأنه يُكْتَبُ «**مُتَشَابِهًا**» يشبه بعضه بعضًا، وقيل: في حسن نظمه وجزالة لفظه، وجودة معانيه، وتصديق بعضه بعضًا، فلا تناقض فيه، قال قتادة: تشبه[1] الآيةُ الآيةَ والكلمةُ الكلمةَ، وجميعها معجز، وقيل: يتشابه في الحكم الذي فيه من الحجج والمواعظ والحدود «**مَثَانِيَ**» قيل: يثنى في التلاوة، فلا يمل لحسن ذلك. وقيل: سمي مثاني لاتفاق خواتيم الآية فيه على مخالفة قوافي الشعر والخطب والأسجاع، وسمي مثاني؛ لأنه يضاف إليه مثله مما في نظمه وروايته[2]، عن أبي مسلم. قال أبو مسلم: ولما أنزل الله تعالى القرآن بخلاف كلامهم في سائر الأجناس سماه بأسماء تخالف أسماءهم، فمنها القرآن، والسور، والآيات وغيرها. «**تَقْشَعِرُ مِنْهُ**» تضطرب وتشمئز «**مِنْهُ**» من القرآن إذا سمع لما فيه من الوعد والوعيد، والأخبار، وذكر القيامة «**جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ**» إن عصوه «**ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ**» يعني: إلى العمل بكتاب الله، وقيل: (إلى) بمعنى اللام أي: لذكر الله.

ومتى قيل: كيف تلين وتقشعر؟

قلنا: المراد في الحالتين لذلك ذكره ثم فهو مضطرب عند الوعيد، يسكن عند الوعد[3]. وقيل: يطمئن قلبه للإيمان به، يضطرب عند الوعد والوعيد، وقد يقشعر خوفًا ويطمئن خضوعًا[4].

---

(١) تشبه: فتشبه، ن.

(٢) وروايته: وورواية، ت، ن.

(٣) الوعد: الوجد، ت.

(٤) خضوعاً: خوضًا، ت.

«ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ» يعني: القرآن يهدي الله به عباده؛ لِمَا نصب فيه من الأدلة «يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ» وهم الذين أتاهم القرآن قد هداهم به، ولم يؤته[1] جميع عباده؛ بل خص أمة محمد ﷺ، عن أبي علي. وقيل: أراد يهدي به من يشاء وهم الذين يهتدون به، خصهم لأنهم ينتفعون به، وإنما يوصف من اهتدى بأنه هداه الله، فأما من لم يهتد، وإن دله الله فلا يوصف بأنه هداه؛ إذ ليس معه هداية «وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ» قيل: من ضل عن الله ورحمته فلا هادي له، يقال: أضللت بعيري إذ ضل، عن أبي مسلم. وقيل: من يضلله عن زيادة الهدى والألطاف؛ لأن الكافر لا لطف له عنده، وقيل: من يحكم الله بضلاله لا يحكم بهدايته أحد، عن أبي مسلم. وقيل: من يضلل الله عن طريق الجنة ونيل الثواب لا يهديه إليها أحد، عن أبي علي. ولا يجوز حمله على أنه يضل عن الدين؛ لأنه قبيح، ولا يجوز عليه تعالى، وقد أضافه إلى الكفار والشياطين فقال سبحانه: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾ [طه: ٧٩]، ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٥]، ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ [يس: ٦٢]، فأضاف إلى هؤلاء الضلال. «أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» أي: يدفع العذاب عن نفسه بوجهه وهو في[2] غاية الصعوبة[3]؛ لأن[4] الوجه أعز عضو من الإنسان، وقيل: يخر على وجهه في النار، عن مجاهد. وقيل: يرمى به في النار منكوسًا، فأول شيء منه [تمسه النار وجهه، عن عطاء][5]. وقيل: معناه يتلقى عذاب النار بوجهه. وقيل: يرد مغلولة يده إلى عنقه إلى النار، وفي عنقه صخرة عظيمة من الكبريت، فتشتعل النار في الحجر فيبلغ وهيجها إلى وجهه لا يطيق دفعها عن وجهه من أجل الأغلال، عن مقاتل.

ومتى قيل: فما جواب: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾؟

قلنا: محذوف، تقديره: كمن هو آمِنٌ من العذاب، فحذف لدلالة الكلام عليه.

«وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ» تقوله الخزنة «ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ» أي: وباله وجزاءه.

---

(١) يؤته: يؤتها، ن.
(٢) في: ـ، ت.
(٣) الصعوبة: الضرورة، ت، ن.
(٤) لأن: لأنه، ت.
(٥) ما بين المعكوفين في ن: سد النار وجهه في النار، عن مجاهد. والصواب ما أثبتناه من تفسير السبغوي: ٧/ ١١٧.

۞ الأحكام

يدل أول الآيات أن الماء منزل[1] من السماء، ثم يخرج من العيون والأودية.

ويدل قوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ[2]﴾ أن شرح الصدر غير الإسلام؛ لذلك قال: ﴿لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾ ثم أضاف شرح الصدر إلى نفسه وهو الألطاف والأدلة، وأطلق الإسلام، فليس له أن يقول: إنه خلقه.

وتدل أن القساوة ليست من خَلْقِهِ لذلك ذمهم عليها.

ويدل قوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ على حدث القرآن حيث وصفه بأنه منزل، وبأنه حديث.

وتدل أنه يشبه بعضه بعضًا.

ومتى قيل: أليس وصفه بأنه متشابه وبأنه محكم يمكن معرفة المراد بظاهره، وبعضه[3] متشابه لا يشبه المراد فيرجع إلى غيره؟

ويدل قوله: «تقشعر» أن صفة المؤمن أنه يطمئن قلبه إلى القرآن، فإذا عرف صحته يقشعر لما فيه من الوعيد.

وعن العباس أن النبي ﷺ قال: «إذا اقشعر جلد المؤمن من خشية الله حرمه الله على النار».

فأما ما تقوله الحشوية والصوفية مذموم.

وسئل ابن عمر عن ذلك فقال: هذا صنيع أصحاب محمد.

قوله تعالى:

﴿ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي
ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ
مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا
رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا
يَعۡلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

---

(١) منزل: ينزل، ن.

(٢) أفمن شرح الله صدره: أفمن يتقي شرح، ت.

(٣) وبعضه: وبعض، ت، ن.

القراءة

قرأ ابن عباس ومجاهد والحسن وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب[1] «**سالمًا**» بالألف وكسر اللام على أنه اسم سالم للفاعل، يقال: سَلِمَ فهو سالم، واختاره أبو عبيد، وقال: لصحة المعنى فيه، وذلك لأن السالم الخالص، وهو ضد المشترك، وأما السَّلَمُ فهو ضد المحارب، ولا ذكر للحرب هاهنا. وقرأ سعيد بن جبير: «**سِلْما**» بغير ألف وكسر السين وسكون اللام. وقرأ الباقون: «**سَلَما**» بغير ألف وفتح السين واللام[2]، واختاره أبو حاتم، قال: هو الذي لا تنازع فيه، وهما مصدران، تقديره: ذا سَلَمٍ، وذا سِلْمٍ.

قراءة العامة: «**مَيِّتٌ**» و«**ميتون**» بغير ألف، وعن ابن محيصن وابن أبي علية: «**مايت**» و«**مايتون**» بالألف في الحرفين.

اللغة

العِوَجُ بكسر العين: فيما لا شخص له، يقال: في الدِّين عِوَج، وفي الكلام عِوَج: عدل به عن جهة الصواب، وفي الحائط عَوَجٌ بفتح العين.

والذوق: إدراك الطعم بحاسة مخصوصة، ذقت الطعام، ثم يستعمل في غيره تشبيهًا، ومنه: الخزي، أي: إدراك ألمه إِدْراكَ الذائق، ويقال: إن الله تعالى مُدْرِكٌ للطعوم، ولا يقال: ذائق؛ لأن الذوق يقتضي الحاسة، بخلاف الإدراك.

والمشاكس: المتمانع بالتنازع[3]، تشاكسوا في الأمر تشاكسًا، وتشاكس في البيع: تماكس، وبناؤه «متفاعلون»، وأصله من الشَّكَاسَةِ، وهو سوء الخلق، يقال: رجل شَكِسٌ شرس: إذا ساء خلقه، وخالف الناس.

والسَّلَمُ: مصدر سَلِمَ فلان له سلمًا، بمعنى: خلص له خلوصًا، وسلم سَلَمًا

---

(١) وأبو عمرو ويعقوب: وأبو عمرو يعقوب، ت.

(٢) واللام: والام، ت.

(٣) هكذا في ت، ن. وفي مجمع البيان في تفسير القرآن ك٥/ ج٢٣/ ١٥٢: التشاكس: التمانع والتنازع.

وسِلْمًا وسلامة، معناه: كأنه يسلم إليه فهو سلم له، وقال الزجاج: أي سالم له، لا يشاركه فيه أحد.

والميت بالتشديد والتخفيف[1]: قيل بمعنى، وهما لغتان، وقيل بالتشديد: اسم لمن لم يمت وسيموت، وبالتخفيف: الذي فارقه الروح، عن الفراء، والكسائي. وروي نحوه عن الحسن، ولهذا لم[2] يخفف أحد من القراء في هذه الآية، ومن قال: هما بمعنى أنشد:

إِنَّمَا الْمَيْتُ مَيِّتُ الْأَحْيَاءِ

والاختصام: افتعال من الخصومة، والخَصْمُ مصدر؛ لذلك يقال للواحد والاثنين والجماعة والذكر والأنثى: خصم.

۞ الإعراب

«**قرآنًا**» نصب لأنه مفعول، أي: ضربنا القرآن مثلاً، وقيل: تقديره: أنزلنا القرآن، وقيل: للتمييز، وقيل: هو نعت للقرآن في قوله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ إلا أنه معرفة والثاني نكرة، فبلغت النكرة من المعرفة فنصب.

«**عربيًا**» نعت للقرآن.

﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ نصب على الحال.

قوله: «**مثلاً**» نصب بـ(ضرب)، وكذلك (**رجلاً**)، قال الكسائي: نعته بـ(**رجلا**) للمثل وتفسيرًا[3] له، وإن شئت نصبته بنزع الخافض، تقديره: ضرب مثلاً لرجل.

۞ المعنى

لما تقدم ذكر الحجج ومَنْ آمن بها، ومن قسا قلبه[4] عقبه بذكر الأمم وتكذيبهم

(١) والتخفيف: +، ن.
(٢) لم: لا، ت.
(٣) وتفسيراً: وتفسير، ن.
(٤) قلبه: قبله، ت.

لأنبيائهم تسلية له وتحذيرًا لقومه أن ينزل بهم ما نزل بأولئك، فقال سبحانه: «**كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**» من أمم الأنبياء كقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم «**فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ**» لا يعلمون، ولا خطر ببالهم مثله «**فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ**» الذل(١) والهوان «**فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**» فخسف بعضهم وأغرق بعضهم ومسخ آخرين، فذلك خزيهم في الدنيا «**وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**» يعني: أن العذاب المعد لهم أعظم لدوامه وعظمه، وخلوصه من كل راحة لو علموا ذلك العذاب، وقيل: لو علموا ذلك لامتنعوا من العصيان «**وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ**» يعني: ما قص من أخبار الأمم، وما نزل بهم، وما ذكر من المواعظ «**لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**» أي: لكي يتذكروا أو يتدبروا فيها، فيعلموا ما يجب عليهم من أمر الدين ويعملوا بموجبه «**قُرآنًا عَرَبِيًا**» يعني: أن تلك الأمثال في القرآن، والقرآن بلغة العرب ليفهموا ذلك «**غَيْرَ ذِي عِوَجٍ**» قيل: غير ذي لَبْسٍ، عن مجاهد. وقيل: غير ذي تضاد، عن عثمان بن عفان. وقيل: غير ذي لحن، عن بكر بن عبد الله. وقيل: ليس فيه لبس، ولا تناقض، ولا مختلف، ولا تضاد، ولا خلف، ولا كذب؛ لأن جميع ذلك كلام حكيم، وجميع ما ذكرنا يُعَدُّ عوجًا فلا يجوز عليه «**لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**» أي: ليتقوا الكفر والمعاصي، وقيل: يوحدوه، فيتقوا الشرك؛ لئلا يحل بهم ما حل بغيرهم.

ثم ضرب للمؤمن والكافر مثلاً، فقال سبحانه: «**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً**» بدأ بذلك ليستمعوا إليه، ثم ضرب مثلاً للكافر في عبادة الأصنام فقال: «**رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ**» أي: مختلفون، شبه الاختلاف بالتشاكس(٢)، فَهُمْ على حد منه ويتنازعون(٣)، وكل يطالبه بالتأمر عليه فهل يستوي حال هذا العبد مع رجل يكون «**سَلَمًا**» أي: خالصًا «**لِرَجُلٍ**» بأنه يتوفر على خدمة مولاه، ويجد منه من البر والإكرام ما لا يجده المشترك من مواليه المشاكسين مع(٤) التوفر على خدمتهم(٥) كلهم فلا يجد

---

(١) الذل: والذل، ت، ن.

(٢) بالتشاكس: يتشاحون، ت، ن.

(٣) ويتنازعون: وينازعون، ت، ن.

(٤) مع: من، ت، ن.

(٥) خدمتهم: خدمة، ت، ن.

منهم يدا. وقيل: إن الخالص لمالك واحد يستحق من معونته وحياطته ما لا يستحقه صاحب الشركاء. وقيل: ضرب للمؤمن في عبادته لله خالصًا، وللمشرك في عبادته الأصنام هذا المَثَلَ، عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. ووجه ذلك: أن المشرك لا يجد من الله كرامة؛ لأنه لا يعبده خالصًا، ولا من الأصنام بِرًّا، فهو كالعبد المشترك بين جماعة مشتركين سيئة أخلاقهم، لا يجد من أحد برًّا وكرامة، ومثل المؤمن الذي يعبد الله وحده ـ في أنه يجد[1] كرامته وبره ـ كعبد له مولى واحد يتوفر على خدمته، فيجد من بر مولاه وكرامته ورضاه، أشار إلى أن الواجب عبادة الله وحده من غير إشراك، فإن المشرك[2] مُنَغَّصُ العيش والموحد السالم في راحة، وقيل: العبد المشترك أبدًا في شدة لا يرضى عنه واحد ولا[3] يكرمه، فهو في عمل شديد ضائع بخلاف من له مولى واحد، كذلك المؤمن والمشرك «**هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً**» أي: لا يستويان في حالهما، قل يا محمد: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ**» قيل: احمدوه على هذا البيان الظاهر، والهداية، وقيل: احمدوه واشكروه حيث لطف لكم حتى عبدتموه وحده، وأخلصتم الإيمان والتوحيد، أي نعمة عظيمة موجبة للشكر، وقيل: الحمد لله دون كل معبود، وقيل: احمدوا الله حيث جعلكم من أهل البصيرة «**بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ**» قيل[4]: أكثرهم ضال فاحمدوا الله على العلم، وقيل: لا يعلمون طريق الاستدلال بالشاهد على الغائب، وقيل: لا يعلمون أنك ناصح لهم، وقيل: احمد الله بأن أظهرك بالحجة عليهم بأنهم لا يعلمون؛ حيث جعلوا أنفسهم عبيدًا لجماد لا ينفع ولا يضر.

ثم بين أن لهم مقامًا يبين[5] المحق من المبطل، فقال سبحانه: «**إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ**» يعني: سيموتون جميعًا، وذكر بلفظ الماضي؛ لأنه كائن لا محالة، قال قتادة: نعي إلى رسول الله ﷺ نفسه، ونعيت إليكم أنفسكم «**ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ**» أي: في الموضع الذي يحكم هو بين عباده «**تَخْتَصِمُونَ**» المحق والمبطل، والظالم

---

(١) من أحد برًّا... يجد: +، ن.
(٢) المشرك: الشرك، ن.
(٣) ولا: ـ، ن.
(٤) قيل: وقيل، ت، ن.
(٥) يبيّن: بين، ت، ن.

والمظلوم، واختلفوا في هذه الخصومة، قيل: خصومة المسلمين الكفار في الدين، عن ابن زيد. وقيل: هو الخصومة بين أهل الإسلام، عن أبي العالية. وقيل: بين المهتدي والضال، والصادق والكاذب، عن ابن عباس. وكان أبو العالية[1] يقول: هم أهل القبلة، قال ابن عمر: كنا نرى أن هذه الآية فينا وفي أهل الكتابين، وقلنا: كيف نختصم ونبينا واحد، وكتابنا واحد؟! حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف، فعلمت[2] أنها نزلت فينا.

وعن أبي سعيد الخدري في هذه الآية: كنا نقول: ربنا واحد، ونبينا واحد، وديننا واحد، فما هذه الخصومة؟! فلما كان يوم صفين وشد بعضنا على بعض بالسيوف، قلنا: نعم هو هذا.

وعن إبراهيم: لما نزلت هذه الآية قالوا: كيف نختصم، ونحن إخوان؟! فلما قتل عثمان قالوا: هذه خصومتنا.

وقيل: أراد الخصومة في الدنيا والدين بين المؤمن والكافر، وبين الموحد والمشبه، والظالم والمظلوم، وكذلك في باب الأديان؛ لأن جميع ذلك مما تقع فيه الخصومة، فهذا أوجه، وحينئذ يظهر المحق من المبطل.

۞ الأحكام

يدل قوله: ﴿فَأَذَاقَهُمُ﴾ أنه تعالى جمع لهم بين عذاب الدنيا والآخرة، فدل أن أحدهما لا يسقط الآخر.

وتدل أن الفاسق إذا أقيم عليه الحد لا تسقط عنه عقوبة الآخرة إلا أن يتوب.

ويدل قوله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا﴾ أن القرآن يشتمل على الأدلة والأمثال.

ويدل قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أنه أراد منهم التذكر، خلاف ما تقوله المجبرة.

ويدل قوله: ﴿قُرْءَانًا﴾ الآية على أنه لا تفاوت فيه ولا تناقض، وأنه حجة، وأنه محدث؛ لأن القديم لا يكون عربيًّا.

وتدل على أنه يضرب الأمثال، ويذكر أمورًا في الدنيا ليفهم بها أمور الدين، فشبه

---

(١) وقيل بين المهتدي... العالية: +، ن.

(٢) فعلمت: فعملت، ت.

الموحد بعبد له مولى واحد، فهو في راحة من خدمته، ويتوفر عليه كرامته، والمشرك بمنزلة من له موالٍ سيئة الأخلاق، فهو في عناء من خدمتهم، وهم[1] لا يتوفرون على رعايته.

ويدل قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أنه أراد من الجميع التقوى.

ويدل قوله: ﴿تَخْتَصِمُونَ﴾ أنه لا يخلق الكفر والظلم، ولا يريده؛ إذ لو كان جميع ذلك خلقه لكانت الخصومة له، لا بينهم؛ لأنه خلق الكفر في الكافر، والظلم في الظالم، والإيمان في المؤمن، فما معنى الخصومة بينهم؟

قوله تعالى:

﴿۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾

۞ القراءة

قرأ حمزة والكسائي: «**بِكَافٍ عِبَادَهُ**» بألف على الجمع، وهو قراءة أبي جعفر والأعمش، يعني: كافي المؤمنين، وقيل: الأنبياء ينصرهم فلا يحتاجون إلى نصرة غيره. الباقون: «**عبده**» بغير ألف، يعني: النبي ﷺ.

قراءة العامة: «**جاء بالصدق**» على الواحد، وعن بعضهم: «**جاؤوا**» على الجمع، قيل: أراد الأنبياء، وقيل: الأتباع.

---

(١) وهم: فهم، ن.

۞ اللغة

الكذب: خبر مَخْبَرُهُ على خلاف خَبَرِهِ.

والصدق: خبر مخبره على ما تناوله، وهما من أقسام الكلام.

والمثوى: المقام، أثوى يُثْوِي إثواءً، وثوي يَثْوِي.

والكفاية: سد الخلة على مقدار الحاجة، ولا يقدر على كفاية العبد في جميع ما يحتاج إليه إلا الله تعالى.

والتخويف: إخبار بموضع الخوف.

والانتقام: الانتصار من العدو.

۞ الإعراب

يقال: لِم جاز «**هم المتقون**» على الجمع و(**الذي**) واحد؟

قلنا: لأنه واحد في لفظه، جَمْعٌ في معناه؛ لأنه يراد به الجنس فهو اسم مبهم، قال الشاعر:

إِنَّ الَّـذِي كَـانَـتْ بِـفَـلْـجٍ دِمـاؤُهُـمْ[(١)] هُـمُ الْـقَـوْمُ كُـلُّ الْـقَـوْمِ يَـا أُمَّ خَـالِـدِ

۞ النزول

قوله: ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ قيل: نزل في أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ، عن أبي العالية، وجماعة.

وقيل: نزل في النبي ﷺ.

وقوله: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾ قيل: إن المشركين قالوا للنبي ﷺ: أما تخاف آلهتنا حيث تعيبها بأن تصيبك بسوء أو تخبلك، فأمر رسول الله ﷺ خالدًا بكسر العُزّى، فقالوا:

---

(١) شطر البيت في تفسير البيضاوي ١/ ٥٦٦، وروح المعاني ٣/ ٣٥:

إن الـذي حـانـت بـفـلـج دمـاؤهـم

إياك يا خالد فبأسها شديد، فضرب خالد أنفها بالفأس، فهشمها، وقال: كفرانك يا عزى، لا سبحانك، سبحان مَنْ أهانك.

وروي أنهم قالوا: لَتَكُفَّنَّ عن شتم آلهتنا أو لنأمرنّها حتى تخبلك.

ومتى قيل: كيف يخوفونه بها، وهي جماد؟

قلنا: من لا يستعمل عقله فهو والبهيمة سواء، فهو مع كونه جمادًا اعتقدوا فيه النفع والضر تقليدًا كقول عاد لهود عليه السلام: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: ٥٤].

المعنى

لَمَّا تقدم ذكر الاختصام بين الفريقين بَيَّنَ حالهما، فقال سبحانه: «**فَمَنْ أَظْلَمُ**» هذا استفهام، والمراد التقرير، أي: لا أحد أظلم «**مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ**» بأن أضاف إليه الولد والشبيه أو وصفه بغير صفته، أو أضاف القبيح إليه «**وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ**» قيل: بالقرآن، عن قتادة. وقيل: بالأنبياء والشرائع وكل ما يجب قبوله من الحق عقلاً وشرعًا «**أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى**» أي: منزلاً ومقامًا «**لِلْكَافِرِينَ**» استفهام، والمراد التقرير، يعني: جهنم مثواه «**وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ**» أي: أتى به، قيل: محمد ﷺ «**وَصَدَّقَ بِهِ**» المؤمنون، جاء بالقرآن[1] وصدقوه فيه، وهو حجتهم في الدنيا والآخرة، عن مجاهد، وقتادة، ومقاتل. واحتجوا بقوله: «**أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**» وقيل: الذي جاء بالصدق: جبريل جاء بالقرآن، وصدق به محمد: تلقاه بالقبول، عن السدي. وقيل: الذي جاء بالصدق: محمد جاء بلا إله إلا الله، فصدق به أبو بكر، عن علي بن أبي طالب (عليه السلام)، وأبي العالية، والكلبي. وقيل: الذي جاء بالصدق: الأنبياء، وصدق به في الدنيا: الأتباع، عن عطاء، والربيع. وعلى هذا (**الذي**) بمعنى (الذين)، وأراد به الجنس، وقيل: هو المؤمن صدق به في الدنيا وجاء به يوم القيامة، عن الحسن. وقيل: «**الذي جَاءَ بِالصِّدْقِ**»: الأنبياء والملائكة وأولو العلم؛ لأن كلهم

(١) جاء بالقرآن: جاء به بالقرآن، ت.

جاؤوا بالصدق، وتلقوه من غيرهم، و«صَدَّقَ بِهِ» من قبله منهم «أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ» اتقوا عذاب الله باتقاء معاصيه «لَهُم مَا يَشَاؤُونَ عِندَ رَبِّهِمْ» أي: ما يشاؤون من النعم يوصله الله إليهم، وبَيَّنَ أنه تعالى يفصل بينهم عند الاختصام، فيجعل الجنة مثوى للمؤمنين والنار مثوى للكافرين «لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ» قيل: فعل ذلك بهم؛ ليكفر سيئاتهم ويجزيهم بحسناتهم، وقيل: فعلوا ما فعلوا ليكفر الله سيئاتهم بحسناتهم «أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا» وهو الشرك والكبائر، وإنما يصير مكفرًا عنهم بالتوبة، فأما الصغائر فتقع مكفرة بما معه من ثواب طاعاته، وهذا التكفير يتناول جزاء الأعمال؛ لأن غير الأعمال انقضت، فتكفيرها بتكفير جزائها، كأنه قال: ليكفر عنهم العقاب الذي استحقوه بسوء أعمالهم «وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي[1] كَانُوا يَعْمَلُونَ» أي: يجازيهم على حسن أعمالهم، وهو الإيمان، وقيل: يجوز أن يكون (أحسن) نعتًا للجزاء، أي: من أحسن[2] جوزي بأحسن منه، فيغفر سوء عمله، ويجازيه بأحسن الجزاء «أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ» هو استفهام والمراد التقرير، أي: هو كاف عبده المؤمن، فمن قرأ: (عبده) قيل: محمد ﷺ، عن السدي، وابن زيد، وجماعة. ومن قرأ: (عباده) قيل: أنبياءه، وقيل: المؤمنين، يكفيهم بنصرته على أعدائهم «وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ» يعني: بالأوثان التي كانوا يعبدونها، عن قتادة، والسدي، وابن زيد. وهذا تعجيب من جهلهم في تخويفهم بجماد مع أن الله تعالى يأمره ويعصمه «وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ» قيل: من يجده ضالاً فما له من هاد ما لم يهتد بنفسه، وقيل: من يضلل الله عن طريق الجنة والثواب لا يهديه إليها أحد، وقيل: من يحكم بضلاله ويصفه بأنه ضال لا يصفه أحد بأنه هاد، «وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ» أي: من اهتدى بهداه لا يضله أحد، وقيل: يحكم بهداه، وقيل: يهديه إلى طريق الجنة والثواب، وقيل: من ضل عن الله لم يهتد بغيره، عن أبي مسلم. «أَلَيْسَ اللَّهُ [بعزيز]» استفهام والمراد التقرير، يعني: الله عزيز، أي: قادر على ما يشاء، «ذي انتِقَامٍ» ينتقم من أعدائه.

---

(١) الذي: ما، ت، ن.

(٢) في ت: +، ما ما.

۞ الأحكام

تدل الآية أن أعظم الذنوب الكذب على الله بأن نشبهه أو نضيف إليه القبائح.

وتدل أن الثواب جزاء الأعمال.

ويدل قوله: ﴿لِيُكَفِّرَ﴾[1] على ثبوت الإحباط والتكفير بين الثواب والعقاب.

ويدل قوله: ﴿بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أن العمل حادث من جهتهم.

وتدل على بشارة عظيمة للمؤمنين في تكفير السيئات، والجزاء على الحسنات[2].

وتدل على أنه تعالى ينصر عبده ويعصمه، ويوجب التوكل عليه، وأن ينتقم له من أعدائه.

قوله تعالى:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾

۞ القراءة

قرأ أبو عمرو ويعقوب: «**كاشفاتٌ**» بالتنوين «**ضُرَّهُ**» بالنصب «**ممسكاتٌ**» بالتنوين «**رحمتَهُ**» بالنصب، الباقون: «**كاشفاتُ**» «**ممسكاتُ**» بغير تنوين، «**ضُرِّهِ**» و«**رحمتِهِ**» بالجر على الإضافة.

---

(١) ليكفّر: وليكفرن، ت؛ وليكفر، ن.

(٢) الحسنات: الحساب، ت.

۞ اللغة

الرحمة: النعمة، وجميع ما يفعله تعالى من النعم رحمة منه.

والمكانة: مصدر قولك: فلان مكين من فلان، وفلان مَكِينٌ بَيِّنُ المكانة.

۞ الإعراب

في تأنيث (كاشفات) و(ممسكات) وجهان:

أحدهما: أن من العرب من كان يزعم أنه يعبد الملائكة، وأنهم بنات الله.

والثاني: بأن منهم من كان يعبد الأصنام ومن عَبَدَهُمْ من الجن، وهكذا يجمع المؤنث، تقول: امرأة خارجة، ونساء خارجات، عن أبي مسلم.

۞ النظم

يقال: بِمَ يتصل قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾؟

قلنا: فيه وجهان:

أحدهما: بقوله: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ فَبَيَّنَ أنه لا ينبغي أن يخوفوا مع اعترافهم بالله، وأنه الخالق.

وثانيها: لما تقدم ذكر التوحيد وبطلان الشرك دل على ذلك.

ويقال: ما الذي يقتضي ذكر ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا﴾؟

قلنا: بيان أن الواجب العمل به، وبما تضمنه من التوحيد والعدل والشرائع.

۞ المعنى

«**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ**» الخطاب للنبي ﷺ، والكناية عن المشركين الذين تقدم ذكرهم، أي: ولئن سألت يا محمد هؤلاء الكفار «**مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ**» فإذا اعترفوا بذلك فـ «**قُلْ**» لهم: «**أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ**» من دونه إلهًا «**إِنْ أَرَادَنِي اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ**» ولفظه استفهام، والمراد الإنكار، أي: لا يقدرون على ذلك، فكيف تعبدونهم؟! وكيف تخوفون بهم، ولا

تخافون من خَلَق[1] السماوات والأرض ولا تعبدونه، وهو يرجى رحمته، ويخشى عذابه؟! «قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ» فيه حذف، يعني: إذا اعترفوا فقل: حسبي الله إلهًا أعبده، وناصرًا أستنصره و«عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ».

ثم أوعدهم، فقال سبحانه: «قُلْ» يا محمد لهم: «اعْمَلُوا» وليس بِأَمْرٍ، وإنما هو تهديد «عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ» وقيل: على تمكنكم، أي: على ما أنتم عليه إن رضيتم بالنار «إِنِّي عَامِلٌ[2]» على ما أنا عليه، وقيل: اعملوا على ناحيتكم وشاكلتكم، إني عامل على شاكلتي، عن مجاهد. وقيل: ما أنتم عليه من الاعتقاد، أي: اعملوا على ديانتكم التي تدينون بها أَعْمَل على ديانتي، عن أبي علي. وقيل: اعملوا على ما أنتم عليه من قوتكم، إنا متمكنون في الدنيا حيًّا وميتًا فلا انتقال، الحمد لله[3] على ما عندي من الاشتغال عنها للجزاء، عن أبي مسلم. وقيل: على جهتكم التي اخترتموها وتمكنكم في العمل بها.

ثم زاد في الوعيد، فقال سبحانه: «فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ» إذا[4] أتاكم عذاب الله مَن المُحِقُّ والمبطل «مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ» أي: ستعلمون من يأتيه العذاب منا ومنكم «وَ» من «يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ» دائم يوم الجزاء، والعذاب الأول في الدنيا، والثاني في الآخرة.

ثم بيّن أن ما[5] يتلى من هذه الآيات حق وصدق، فقال سبحانه: «إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ» يعني: القرآن «لِلنَّاسِ» لمنافعهم في دينهم «بِالْحَقِّ» أي: تبيين، وجعل الحق صفة للكتاب لفوائد:

منها: وجوب الإبلاغ.

ومنها: وجوب الاتباع.

---

(١) خلق: خالق، ن.
(٢) إني عامل: +، ن.
(٣) لله: ـ، ن.
(٤) إذا: إذ، ت.
(٥) ما: +، ن.

ومنها: التدبر[1] فيه.

ومنها: العمل به، وقبوله.

ومنها: أنه لا لبس فيه ولا خلف.

«فَمَنِ اهْتَدَى» بالقرآن «فَلِنَفْسِهِ» أي: يعود نفعه عليه «وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ» على نفسه حيث يعود وبال ضلاله[2] عليه «وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ» قيل: برقيب في إيصال الحق إلى قلوبهم وحفظه عليهم حتى لا يتركوه، وقيل: لَسْتَ عليهم بوكيل لتجبرهم على الإيمان، وقيل: بكفيل يلزمك إيمانهم، إنما عليك البلاغ.

الأحكام

تدل الآيات أن العبادة تستحق لخالق النعم[3] دون من لا ينفع، ولا يضر.

وتدل على صحة الحجاج في الدين.

وتدل أنه أنزل الكتاب ليبلغه ويأمر بالعمل به، وأنه أراد الاهتداء به دون الإضلال.

وتدل أن الهداية والضلال فعلهم على ما نقوله.

قوله تعالى:

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

---

(١) التدبر: التدبير، ت.

(٢) وبال ضلاله: وبالضلالة، ت.

(٣) لخالق النعم: للخالق المنعم، ن.

۞ القراءة

قرأ حمزة والكسائي والأعمش: «قُضِيَ» بضم القاف وكسر الضاد وفتح الياء على ما لم يسم فاعله، «الموتُ» رفع. الباقون بفتح القاف والضاد وسكون الياء، «الموتَ» بالنصب، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لقوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾ فهو يقضي عليها.

۞ اللغة

التوفي: قبض الشيء على التمام، يقال: توفيت من فلان، واستوفيت بمعنى، ومنه: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ [آل عمران: ٥٥]، قال الفراء: إني قابضك من الأرض بغير موت، والموت: ضد الحياة، وقيل: هما عرضان يتعاقبان، لا يقدر عليها غير الله، وقيل: الحياة عرض، وذهاب العلوم الضرورية(١)، وتبقى معه الحياة والروح، وقبض الموت ينافي الحياة.

اشمأزت: نفرت، وروي عن ثعلب عن ابن الأعرابي: الشَّمْزُ: نفور الشيء من الشيء يكرهه، وقال أبو عبيدة عن ابن زيد: اشمأزت: ذُعِرَتْ.

۞ النظم

يقال: كيف يتصل قوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾ بما قبله؟

قلنا: يتصل لقوله: «حفيظ»، لمّا بَيَّنَ أنه ليس بحفيظ عليهم بيّن أن الحفيظ عليهم مَنْ يتوفاهم ويصرفهم كيف يشاء، ويقبضهم في النوم، ويبعثهم في اليقظة، ويحييهم ويميتهم.

وقيل: يتصل بقوله: ﴿[أَلَيْسَ] ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ تقديره: هو أقدر أم ما أعدوه، فهو يكفيك أمرهم، وهي لا تكفي لهم أمرًا، عن أبي مسلم.

---

(١) الضرورية: الضرورة، ن.

وقيل: يتصل بقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ بَيَّنَ أن المستحق للعبادة خالق السموات والأرض، ومالك النفع والضر والموت والحياة.

ويقال: كيف يتصل قوله: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا﴾ بما قبله؟

قلنا: قيل: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ﴾ فكما أن أصنامهم لا تملك نفعًا، لا تملك شفاعة.

وقيل: يتصل بما قبله من ذكر الأصنام، أي: يعبدون مَنْ هذه صفته، ويتخذون.

وقيل: يتصل بقوله: ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ﴾ أي: على الله توكلوا أم على الذين اتخذوا؟!

وقيل: بقوله: ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: هلا تفكروا فعلموا أن ما هم عليه ليس[1] بشيء، وأن القديم هو الله الواحد.

۞ المعنى

«اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ» يعني: يقبضها عن التصرف ويمسكها ويحبسها، ويدل عليه أنه جعل الإرسال ضد التوفي، قيل: إن المراد بالتوفي الإمساك والحبس «حِينَ مَوْتِهَا» يعني: وقت موتها[2] وانقضاء أجلها بإخراج الحياة والروح «وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا» يعني ويقبض التي لم تمت في منامها، فيحبسها عن[3] التصرف «فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ» إلى يوم القيامة لا تعود إلى الدنيا «وَيُرْسِلُ الأُخْرَى» يعني: النائم «إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى» إلى وقت سمي لموته «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ[4] لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» في الأدلة، وقيل: في الآية تقديم وتأخير، وتقديره: الله يتوفى الأنفس حين موتها فيمسك، والتي لم تمت في منامها تعيش إلى انتهاء أجلها.

---

(١) ليس: +، ن.
(٢) إلى هنا نهاية النسخة ن.
(٣) عن: على، ت.
(٤) لآيات: لآية، ت.

ثم بَيَّنَ أن الأوثان لا تملك لنفسها ولا لغيرها[1] شيئًا، فقال سبحانه: «**أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ**» قيل: (أم) بمعنى (بل)، معناه: بل اتخذوا وزعموا [شفعاء]، وقيل: المراد به الإنكار [على] الذين يتوكلون عليها أن[2] اتخذوها شفعاء، وقيل: يتفكرون في هذا أم يعتمدون على شفاعتها من دون الله، يعني: الأصنام «**شفعاء**» أي: لتشفع لهم، وقيل: الشفيع: الناصر، يعني: يطلبون نصرتها «**أَوَلَوْ كَانُوا لاَ يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلاَ يَعْقِلُونَ**» أي: كيف تشفع[3]، وهي جماد لا تقدر ولا تعلم، وفيه تعجيب من جهلهم، وقيل: معناه: لو كانوا لا يملكون الشفاعة ولا يعقلون أنكم تعبدونها [لَمَّا][4] كنتم تعبدونها.

ثم بَيَّنَ أن النصرة لله تعالى، فقال سبحانه: «**قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا**» قيل: المتولي للنصرة هو الله تعالى، وقيل: هو الذي يأذن في الشفاعة فيجب أن يكون هو المرجو «**لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ**» إلى حكمه «**تُرْجَعُونَ. وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ**» قيل: نفرت، عن السدي، والضحاك، وأبي علي، وأبي مسلم. وقيل: انقبضت، عن ابن عباس، ومجاهد، ومقاتل. وقيل: كفرت واستكبرت، عن قتادة. وقيل: أنكرت، عن المؤرج. «**وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ**» يعني: الأوثان «**إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ**» يفرحون.

۞ الأحكام

تدل الآية على صحة الحجاج في الدين.

وتدل على جهل القوم؛ رجوا جمادًا وعبدوها.

ويدل قوله: ﴿ٱشۡمَأَزَّتۡ﴾ أن المعارف مكتسبة، عن أبي علي.

وتدل أن الاستبشار فِعْلُهُم.

---

(١) لنفسها ولا لغيرها: بنفسها ولا بغيرها، ت.

(٢) عليها أن: عليه أن، ت.

(٣) تشفع: يشفعون، ت.

(٤) لَمَّا: أم، ت.

قوله تعالى:

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭۚ بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٥١﴾﴾

اللغة

الفَطْرُ: أصله الشق، وقيل: الظهور، عن أبي مسلم. ومنه: فَطَرَ نابُ البعير: إذا بدا. وفَطَرَ الصائمُ: شَقَّ صَوْمه، وفاطر السموات: مبتدئ خلقهما، وقيل: ﴿كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

والبُدُوُّ: الظهور، بدا يبدو، ومنه: البَدَاءُ.

والحسبان[١] والظن نظائر، فلما كان أهل النار لم يعلموا ما ينزل[٢] بهم من العذاب صح أن يقال: بدا لهم من عذابه ما لم يقدروا أنهم يصيرون إليه.

الإعجاز: امتناع الفعل على القادر، ومنه: إعجاز القرآن، أصله: العجز ضد القدرة.

الإعراب

نصب «فاطر» على النداء.

(١) الحسبان: الحساب؛ ت.

(٢) ينزل: نزل، ت.

و﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ نصب بنزع الخافض، يعني: في يوم القيامة، وقيل: نصب على الظرف.

«**عالم**» نصب على النداء، أي: يا عالم، فهو نداء مضاف.

ويقال: هل يجوز أن يكون (**فاطر**) صفة (**اللَّهُمّ**)؟

قلنا: فيه خلاف، قال سيبويه: لا يجوز ذلك، وتقدير الآية: اللهم يا فاطر. وقال أبو العباس: يجوز على تقدير: يا الله فاطر(١).

۞ المعنى

ولما تقدم ذكر الأدلة فلم يتفكروا فيها، وذكر الموعظة فلم تنجع فيهم، أمره أن يحاكمهم إلى الله تعالى لينْزِلَ بهم ما يستحقونه، فقال سبحانه: «**قُلِ**» يا محمد: «**اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**» أي: خالقهما ابتداء من غير شيء «**عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ**» يعني: ما غاب وما حضر، وقيل: الموجود والمعدوم «**أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**» مِنْ أَمْرِ دينهم ودنياهم، وحكمة إثابة المؤمنين وعقوبة الكافرين، والانتصاف من المظلوم والانتقام من الظالم.

ثم بَيَّنَ حالهم، فقال سبحانه: «**وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا**» قيل: أشركوا، وقيل: ظلموا أنفسهم بالعصيان، وقيل: ظلموا آيات الله بالتكذيب، وقيل: ظلموا الناس، والكل مراد. «**مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا**» من الأموال «**وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ**» أي: جعلوا ذلك فداء لأنفسهم «**مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» أي: من شدة العذاب، وسمي سوءًا؛ لأنه يسوء صاحبه «**وَبَدَا لَهُمْ**» أي: ظهر لهم «**مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ**» قيل: ظهر من جزاء أعمالهم الذي ينزل بهم في الآخرة ما لم يكن في حسابهم في الدنيا أنها تنزل بهم، وقيل: ظنوا أنها حسنات، فبدت لهم سيئات، عن السدي. يعني: حسبوها طاعة وإيمانًا، فظهر يومئذ أنها مَعَاصٍ وكُفْرٌ، وكان سفيان إذا قرأ

---

(١) في تفسير التبيان ٨/ ٣٥: وقال أبو العباس: يجوز أن يكون صفة (اللهم) حملاً له على (يا الله فاطر السموات والأرض).

هذه الآية قال: ويل لأهل الرياء، ويل لأهل الرياء. وقيل: ظهر لهم من سيئات أعمالهم ما قد نَسَوْهُ[1]، وقد عَدَّ الله تعالى عليهم الصغير والكبير، وقيل: ظهر لهم من أمر البعث والجزاء ما لم يظنوه «**وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ**» قيل: حل بهم، وقيل: حق الوعيد عليهم «**مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ**» فسمي جزاء الاستهزاء استهزاء؛ لأنهم كانوا يستهزئون إذا ذكر عندهم البعث والنشور ليجازَى عليها يوم القيامة «**فَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ**» أعطيناه «**نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ**» قيل: علم برضاه عني؛ فلذلك أعطاني ما أولاني من النعم، وقيل: على عِلْمٍ مِنَ الله بأني له أهل، وقيل: على خبر عندي، عن قتادة. وقيل: على علم لي من الجَلَدِ والحِيَلِ ووجوه المكاسب، عن الحسن، وأبي علي. فأشار إلى جهلهم بدفع المنافع والمضار وممن هي «**بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ**» قيل: النعمة فتنة؛ أي: امتحان من حيث توجب الشكر وحقوق الله تعالى، وقيل: النعم فتنة؛ أي: عذاب لهم إذا أضافوها إلى أنفسهم، وقيل: العلوم فتنة، مَنْ عَمِلَ بها كانت مثوبة، ومن لم يعمل بها كانت حجة عليه، وقيل: هذه الكلمة التي قالها فتنة «**وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ**» قيل: لا يعلمون مواضع النعمة وما يجب فيها من الشكر، وقيل: لا يعلمون عواقب أمرهم «**قَدْ قَالَهَا**» يعني: هذه الكلمة «**الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**» قيل: من الكفار، وقيل: أراد قارون في قوله: ﴿أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٨٧]، «**فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**» يعني: لم يغن عنهم اكتسابهم شيئًا من العذاب «**فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا**» قيل: جزاء سيئات [أعمالهم وقد يسمى جزاء السيئة][2] سيئة، فتقديره: فأصابهم عقاب ما كسبوا «**وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاَءِ**» الذين كانوا في عصر النبي ﷺ «**وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ**» يعني: لا يعجزون الله بالخروج عن قدرته، وقيل: لا يفوتون[3] الله.

(١) نسوه: نسيوها، ت.
(٢) ما بين المعكوفين زيادة من:
(٣) لا يفوتون: لا يقولون، ت. وما أثبتناه من تفسير مجمع البيان للطبرسي: ٨/ ٣٦١.

۞ الأحكام

تدل الآيات على أن الواجب بعد الإنابة، وظهور الدليل المحاكمة إلى الله تعالى.

وتدل أن الواجب في الطاعة فِعْلُها لتعظيم المعبود؛ لذلك بدا لهم ما فعلوا ظنًّا أنها طاعة فكانت سيئة.

وتدل أن جميع النعم منه وإن كان سببه من جهة العبد لجريان العادة، فلا معنى لقول من يقول: فما معنى الكسب؟

وتدل على أن النعم ابتلاء من الله بما يجب فيه من الشكر والحقوق.

وتدل على أن كل أحد يجازى بفعله.

وتدل على بطلان قول من يقول: إن المعارف ضرورة.

وتدل أن السقم والصحة منه تعالى خلاف ما يقوله المنجمون والأطباء.

قوله تعالى:
﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾
۞قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ
جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ
ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن
يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾

۞ القراءة

قرأ أبو عمرو والكسائي ويعقوب: «تَقْنِطُوا» بكسر النون، وقرأ الباقون بفتحها وهما لغتان، وعن أشهب العقيلي بضمها، يقال: قَنَطَ يَقْنِطُ، نحو: ضرب يضرب، وقَنِطَ يَقْنَطُ نحو: حَمِدَ يَحْمَد.

وقرأ أبو جعفر ونافع وابن كثير وابن عامر وعاصم: «يا عِبَادِيَ» بفتح الياء، وقرأ أبو عمرو[1] وحمزة والكسائي وعاصم في بعض الروايات ويعقوب بغير فتح، وكلهم

(١) أبو عمرو: أبو عمر، ت.

يقفون عليه بإثبات الياء؛ لأنها ثابتة في المصحف إلا في رواية أبي بكر عن عاصم أنه يقف بغير ياء.

۞ اللغة

السَّرَفُ: أصله المجاوزة للحد.

والقُنُوط: اليأس من الرحمة، واليأس مع اليقين، والرجاء مع التجويز.

والإنابة: الرجوع.

والبغتة: الفجأة، بَغَتَهُ الأمر بَغْتًا، وباغته مباغتة.

۞ الإعراب

«**بغتة**» نصب على الحال.

۞ النزول

اختلفوا في قوله: «**يا عبادي**» فيمن نزل؟

فقيل: في أهل مكة قالوا: يزعم محمد أن مَنْ عَبَدَ الأوثان وقتل النفس لم يغفر له، وقد عبدناها وقتلنا فكيف نسلم ونهاجر؟! فنزلت الآية، عن ابن عباس.

وقيل: نزلت في وحشي قاتل حمزة لما أراد أن يسلم وخاف ألا تقبل توبته، فلما نزلت الآية أسلم، فقيل لرسول الله ﷺ: هذه خاصة أم للمسلمين عامة؟ فقال: «بل هي عامة»، عن ابن عباس.

وقيل: نزلت في أناس أصابوا ذنوبًا عظامًا في الجاهلية، فلما جاء الإسلام أشفقوا ألا يتوب عليهم، فدعاهم الله إلى الإسلام بهذه الآية، عن قتادة.

وقيل: نزلت في عياش بن ربيعة والوليد بن الوليد ونفر من المسلمين أسلموا، ثم فتنوا، وعذبوا، فافتتنوا، فكان المسلمون يقولون فيهم: لا يُقْبَلُ مِنْ هؤلاء صَرْفٌ ولا عَدْلٌ، فنزلت الآيات، فكتبها عمر، وأنفذ بها إليهم فأسلموا.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى أن النعم منه، خلاف ما تقدم من قولهم، فقال تعالى: «**أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ**» أي: يوسع على من يشاء من عباده «**وَيَقْدِرُ**» أي: يضيق بحسب المصلحة «**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**» هم يستدلون، فعلموا ذلك.

ثم دعاهم إلى الإسلام بألطف كلام، فقال: «**قُلْ**» يا محمد «**يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ**» يعني: جاوزوا الحد في العصيان «**لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ**» أي: لا تيأسوا[(١)] فتقيموا على الكفر والعصيان، والقنوط: أن يظن العاصي أن لا مخلص له في حال التكليف، وهذا باطل؛ لأنه وإن عظمت ذنوبه وكثرت وتاب قبلت توبته، وغفرت ذنوبه «**إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا**» قيل: بشرط التوبة، وقيل: يغفر لمن يشاء. وعن أبي الجوزاء: ما علمت أحدًا من أهل العلم ولا من أصحاب محمد ﷺ يقول لذنب: إن الله لا يغفر هذا، وعن ثوبان أن النبي ﷺ تلا هذه الآية فقال رجل: يا رسول الله، ومن أشرك؟ فسكت النبي ﷺ، ثم قال: «ألا ومن أشرك، ألا ومن أشرك، ألا ومن أشرك»، فدل أن هذا الغفران بالتوبة «**إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**».

«**وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ**» قيل: ارجعوا إليه بالطاعة، عن ابن زيد. «**وَأَسْلِمُوا لَهُ**» أي: استسلموا له وانقادوا في جميع ما أتاكم به، عن أبي علي. وقيل: ادخلوا في السلم واخرجوا من عداوته إلى ولايته وهو الإسلام، عن أبي مسلم. «**مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ**» الاستئصال، وقيل: العذاب في وقت النزع بالضرب والاستخفاف «**ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ**» أي: لا ينصركم أحد لينجيكم «**وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ**» قيل: اتبعوا القرآن فإنه أحسن شيء أنزل تلاوة وعملاً، وقيل: الأحسن ما أمر الله به في الكتاب، عن السدي. وقيل: الأحسن هو المُحْكَمَاتُ، عن ابن زيد. وقيل: الأحسن هو الناسخ دون المنسوخ، عن أبي علي. قال علي بن عيسى: والمنسوخ لا يجوز العمل به فلا يجوز حمل الآية عليه؛ لأن الحسن يكون أحسن من القبيح، وقيل: هذا لا يصح؛ لأن الناسخ أصلح وأحسن، وإن كان المنسوخ حسنًا، وقيل: الأحسن أن

(١) ما بين المعكوفين كلمة غير واضحة في ت، ن.

يفعل ما أمر الله تعالى به وينتهي عما نهى عنه «مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ» قيل: الاستئصال، وقيل: العذاب في وقت النزع «بَغْتَةً» قيل: فجأة، وقيل: من قبل الاستعداد له «وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ» أي: لا تعلمون وقت حلوله.

۞ الأحكام

تدل الآية الأولى أن الله يبسط الرزق ويَقْدِر بحسب المصلحة.

وتدل الثانية أنه يغفر الذنوب جميعًا، ولا بد من شرط التوبة لإجماع الأمة أن الكفر لا يغفر إلا بالتوبة.

وتدل على بطلان قول من يقول: إن قتل النفس لا يُغْفَرُ، وإن تاب، وقوله: «وأنيبوا» بعده يدل على ما قلنا؛ إذ لو غفر من غير التوبة لم يكن [للأمر] بالتوبة معنى، ولأنهم اتفقوا أن الآية وردت في الكفار.

ومتى قيل: لمّا أضاف العباد إلى نفسه دل أن الكفار لا يدخلون فيه؟

قلنا: لأنه استدعاء للإسلام، فكان ذلك لطفًا.

ويدل على أن للعبد طريقًا إلى النجاة في جميع الأحوال.

ويدل أن من فاتته التوبة لا يجد ناصرًا، فيبطل قول المرجئة في الشفاعة.

ويدل على وجوب اتباع القرآن، وتدبره، واتباعه، والعمل به.

قوله تعالى:

﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾

۞ القراءة

قرأ أبو جعفر: «**يا حسرتاي**» بياء بعد الألف مثل: (**بشراي**). وقرأ الباقون: «**يا حسرتا**» بغير ياء مثل: بشرى، ويا آسفا، والألف فيه تدل على ياء الإضافة، وهو كناية عن المتكلم، وتقديره: يا حسرتاي على الإضافة؛ ولكن العرب تبدل الياء التي هي كناية المتكلم في الاستغاثة ألفًا تمد الصوت بالألف يقولون: يا ويلتا، ويا ندما، ويخرجون على لفظ الدعاء، وربما ألحقوا به الهاء، أنشد الفراء:

يَـا مَـرْحَـبَـاهُ بِـحِـمَـارِ نَـاجِـيَـهْ(١)

وربما يلحقون به الياء بعد الألف لتحقيق الإضافة على قراءة أبي جعفر.

و[قرأ] يعقوب (**يُنْجِي**) خفيفة، والباقون مشددة، وهما لغتان: أَنْجَى يُنْجِي، ونَجّى يُنَجّي.

قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم: «**بمفازاتهم**» على الجمع، والباقون: «**بمفازتهم**» بغير ألف على الواحد، واختاره أبو حاتم، قال: لأن المفازة ههنا الفوز.

قراءة القراء: «**جَاءَتْكَ**» بفتح الكاف «**واستكبرتَ وكنتَ**» بفتح التاء فيهما أجمع على الخطاب، يقال له ذلك، وقرأت عائشة بكسرها أجمع رُدَّ إلى النَّفْسِ، وروي نحوه عن النبي ﷺ، روته أم سلمة.

۞ اللغة

النفس والذوات واحد، وأصله من النفاسة، فأنفس ما يكون في الحيوان نفسه، وهو عينه.

والتحسر والتندم والتأسف من النظائر وهو: الاغتمام بما فات وقته، وأصل الحسرة: شدة الندم، و«**يا حسرتا**» أي: يا حسرتهم على أنفسهم، قال الأزهري: قد

---

(١) البيت في تفسير القرطبي ١٥/ ٢٣٧:

يا مرحباه بحمار ناجيه إذا أتى قربته للسانيه

علم أن الحسرة لا تُدْعَى، ودعاؤها تنبيه للمخاطبين، كأنه يقول: يا حسرتاي أجيبي[1] فهذا وقتك، وأصل الباب: هو الانقطاع، يقال: حَسَرَتْ الناقة أي: انقطع سيرها كلالاً، ومنه: ﴿خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٤] أي: منقطع، فكأن النادم تَحَسَّرَ كما تَحَسَّرَ الذي [لا] تقوم به دابته في السفر البعيد.

والتفريط والتقصير من النظائر، فَرَّطَ [فُرُوطا] إذا أهمل، ولم يأخذ بالحزم، وفرط تفريطًا بالتخفيف: إذا تقدم، ومنه: «فرطكم على الحوض»، وفَرَّطَ تَفْرِيطًا بالتشديد: إذا ضيع، أَفْرَطَ يُفْرِطُ: إذا جاوز الحد، وأفرطته: قدمته.

والجَنْبُ: عضو من أعضاء الإنسان معروف، جُنِبَ جنبًا: إذا اشتكى جَنْبَهُ، وجُنِبَ فهو مجنوب: أخذه ذات الجنب، كصُدِرَ فهو مصدور. والجَنْبَةُ: الناحية، من ذلك أخذ، ومنه: «[وعلى جنبي الصراط داع» أي: جنبيه]، والجَنَاب: الجانب، وجمعه: أَجْنِبَةٌ، قال الفراء[2]: والجنب أيضًا: معظم الشيء وأكثره، يقال: هذا قليل في جنب مودتك، والجَنْبُ: الأمر، يقال: ما فعلت في جنب حاجتي، قال كُثَيِّر:

أَلاَ تَـتَّـقِـيَـن الله فَـي جَـنْـبِ عَـاشِـقٍ ... لَـهُ كَـبِـدٌ حَـرَّى عَـلَـيْـكِ تَـقَـطَّـعُ

ومنه: جَنَبْتُهُ: أبعدته، أي: فعلته في جانب، ومثله الجنابة؛ لأنها البعد.

والسخرية: الهزء.

ويقال لما كان موضع هلاك: المنجاة[3]، ومنه: المفازة، سميت بذلك تفاؤلاً[4]، وأصله: الفوز، وهو المنجاة.

۞ الإعراب

في نصب: «فأكون» وجهان:

---

(١) أجيبي: أجب، ت.
(٢) في ت: القراء. والصحيح ما أثبتناه من تفسير القرطبي ١٥/ ٢٣٧.
(٣) يقال لما كان موضع هلاك المنجاة: يقال ما كان بالهمز المنجاة، ت.
(٤) تفاؤلا: تقولا؛ ت.

أحدهما: أنه جواب (لو).

والآخر: العطف على المصدر، وهو الكَرَّةُ، أي: لو أن لي كرة فأكون.

قال الأخفش: و(ترى) غير عامل في ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ إنما هو ابتداء وخبره.

﴿أَن تَقُولَ﴾، تقديره: من قبل أن يأتيكم، ومن قبل أن تقول.

﴿بَلَىٰ﴾ جواب النفي.

(مفازتهم): أصله «مَفْوزَتهم»؛ لأنه من الفوز؛ ولكن الواو قلبت ألفًا؛ لأنها مفتوحة.

۞ القصة

قال أبو صالح: كان في بني إسرائيل ناسك، فألقى الشيطان إليه أن لك عُمْرًا طويلاً، فتمتع بالدنيا ثم [تُبْ]، فأخذ في الفسق، وجاءه ملك الموت بغتة، فقال: يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله، وهو عمري في طاعة الشيطان، وأسخطت ربي، وندم حين لا تنفع الندامة، فأنزل الله تعالى خبره في القرآن.

وعن الحسن أن هذه الآية نزلت في المجبرة.

وروي أن الشيطان يحضر، ويقال له: لِمَ لمْ تسجد لآدم وعصيت الله؟ فقال: كان ذلك بقضاء الله وقدره، فيقال له: كذبت، فيقول: لي على ذلك شهود، فينادى: أين شهود الشيطان وخصماء الرحمن؟، فتقوم طائفة من هذه الأمة، ويشهدون له بذلك، فيخرج من أفواههم دخان أسود، وتسود وجوههم. قال: ويدل عليه أنه ورد عقيب قوله ﴿بَلَىٰ﴾ وهذا مذهب الجبر.

وقيل: الآية عامة في المجبرة والمشبهة، وكل من يكذب على الله تعالى.

۞ المعنى

ولما حثهم على التوبة حذرهم فوتها وامتناع التلافي، فقال سبحانه: «**أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ**» أي: لئلا تقول نفس يوم القيامة إذا لم تؤمن في الدنيا، كقوله: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥] و﴿أَن تَضِلُّواْ﴾ [النساء: ١٧٦]، يعني: أنيبوا قبل أن يأتي العذاب فتقول: «**يَاحَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ**» قصرت في طاعة الله «**فِي جَنْبِ اللَّهِ**» وقيل: في أمره، عن مجاهد، والسدي.

وقيل: في طاعته، عن الحسن. وقيل: في حقه، عن سعيد بن جبير. وقيل: في الجانب الذي يؤدي إلى رضا الله وثوابه المجانب للسبل المضلة، عن أبي مسلم. والعرب تسمي الجانب جنبًا، قال الشاعر:

النَّاسُ جَنْبٌ والأَمِيرُ جَنْبُ

أي: الناس في جانب، والأمير في جانب، وقيل: «فِي جَنبِ اللهِ»: في ذاته، يقال: كسبت هذا المال في جنب فلان، وقيل: يا شدة الندامة على ما فرطت في جنب أمر الله، كما يقال: هذا قليل في جنب ما كنت أرجو نيله «وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ» المستهزئين بالنبي والكتاب، عن قتادة، والسدي. وقيل: من الساخرين لمن يدعوني إلى الإيمان، يعني: ما كنت إلا كذلك «أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ» لما لم ينظروا في الأدلة وأعرضوا عن القرآن واشتغلوا بالدنيا والأباطيل، توهموا أن الله لم يهدهم، ولم يُزِحْ عللهم، فقال بالظن: «لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي». وهنا[1] رد الله عليه فأجاب بقوله: «بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا...» الآية، وقيل: لو أن الله هداني إلى النجاة بأن ردني إلى حال التكليف لكنت ممن يتقي المعاصي، عن أبي علي. هذا هو الوجه؛ لأنهم يضطرون إلى العلم بأن الله هداهم، وقيل: معنى «هداني» اهتديت، كأنه يقول: لو اهتديت حين هداني الله، وقيل: يقول ذلك تحسرًا لا تخبرًا، وقيل: لم يعلم أنه تعالى نصب الأدلة وأزاح العلة لاتباع الرؤساء وتقليدهم فعل ذلك على حسب اعتقادهم في الدنيا، فتقديره: أفتقول: كنا نقول: لو أن الله هداني. وقيل: معناه: لو لطف لي لاهتديت، وهذا أيضًا لا يصح؛ لأنه لو كان لهم لطف لفعل. وقيل: ينطق الله لسانه ليتكلم بما كان يتكلم به في الدنيا لكذبه «أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً» أي: رجعة إلى الدنيا «فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ» فيها، فقال تعالى: «بَلَى» ففيه رد لما قالوا وإثبات خلافه، أي: ليس كما قلتم، ولقد جاءتكم آياتي. «آيَاتِي» وهي[2] الكتب، والمعجزات، وبعث الرسل، وإزاحة العلل «فَكَذَّبْتَ بِهَا» فأتيت في ذلك مِنْ قِبَلِ نفسك، عُرِضَتْ عليك فكذبت بها، أي:

(١) وهنا: وهذا، ت، ن.

(٢) وهي: وهو، ت.

بآياتي، وقيل: بكتب الأنبياء «**وَاسْتَكْبَرْتَ**» أي: أنفت عن قبول الحق واتباع الرسل «**وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ**».

«**وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ**» بإضافة الولد إليه أو الشبه بخلقه أو تجويزه «**وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى**» مقام «**لِلْمُتَكَبِّرِينَ**» عن أن يؤمنوا، وقيل: سواد وجوههم يخالف سواد وجوه الآخرين؛ ليعلم أنهم الذين كذبوا على الله «**وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوا**» أي: يخلص من يتقي معاصيه «**بِمَفَازَتِهِمْ**» أي: بمنجاتهم من العذاب، قيل: بأعمالهم الحسنة، وقيل: بطاعتهم، عن ابن عباس. وقيل: بجزاء أعمالهم «**لاَ يَمَسُّهُمُ السُّوءُ**» أي: لا يصيبهم مكروه، فلا يحزنون.

۞ الأحكام

الآية تدل على أن المستحق للعذاب يتلهف ويتحسر، ويقول جميع ذلك حين لا طريق إلى الخلاص، وفيه لطف للسامع ليستدرك قبل فوت الاستدراك.

وتدل أنهم كانوا لم يعرفوا التوحيد والعدل؛ لذلك تلهفوا حين علموا ذلك ضرورة.

وتدل على تسلية للنبي ﷺ والمؤمنين، كأنه قيل: لا يهمنكم أمرهم وتكذيبهم، فسترى القوم مسودة وجوههم، ومن اتبعك في أعظم النعم.

وتدل على قبح السخرية، وأنه إذا كان بالدِّينِ والنبي والكتاب يكون كفرًا.

ويدل قوله: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى﴾ أنه أزاح علة العبد، وأُتِيَ في نزول العذاب به مِنْ قِبَلِ نفسه.

وتدل على عظيم درجة الكذب على الله وأنه يبلغ الكفر.

وتدل أن المؤمن لا يلحقه مكروه وحزن، خلاف قول بعضهم.

فأما دلالات الآية على المجبرة وما قبلها وما بعدها في المخلوق والاستطاعة والإرادة فمن وجوه كثيرة، وتفصيلها يطول، وجملتها دلالة قوله: «**لا تسرفوا**»، ولا يقال: أسرف إلا وله فعل وهو يقدر على تركه.

ومنها: أنه مَنَّ على عباده بغفران ذنوبهم، ولو كان هو الخالق لجميع القبائح فما معنى الامتنان.

ومنها: قوله: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ﴾ فكيف يُنيبون وقد خلق فيهم الإصرار وقدرته، ومنعهم[1] قدرة التوبة، وأراد الإصرار ولم يرد التوبة.

ومنها: قوله: ﴿وَأَسۡلِمُواْ﴾ وكيف يأمر به وبالمسابقة[2] مع عدم القدرة، وخلق ضده فيه.

ومنها: قوله: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ﴾ ودلالته كدلالة قوله: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ﴾ ـ ﴿وَأَسۡلِمُواْ﴾.

ومنها: قوله: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ﴾، وكيف يتحسر وليس إليه شيء ولا له قدرة؟! وإنما يصح التحسر على التفريط إذا كان التفريط فعله وهو يقدر على تركه.

ومنها: قوله: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ﴾ ولو رد ألف مرة، ولم يَخْلُقْ فيه الإيمان وقدرة الإيمان لما أمكنه أن يؤمن، فما معنى سؤال الرجعة؟

ومنها: قوله: ﴿فَرَّطتُ﴾ وأي تفريط من جهته؟! والتفريط مِنْ قِبَلِ مَنْ خلق فيه الكفر وقدرته، ومنع قدرة الإيمان وخلق فيه التفريط.

ومنها: قوله: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ فكيف والسخرية خلق فيه؟.

ومنها: قوله: ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ فكيف ولو لم[3] يخلق فيه لما صح منه.

ومنها: قوله: ﴿بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي﴾ تنبيهًا على إزاحة العلة، ولو كان الأمر على ما زعموا لم يكن للآيات معنى، ولا كان التكذيب من جهتهم؛ بل جميع ذلك من خلقه، فما بال هذا التوبيخ؟

ومنها: قوله: ﴿كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ وكيف وبخهم وعندهم أنه الخالق لذلك الكذب والمريد له؟!

---

(١) ومنعهم: ومنعه، ت، ن.
(٢) وبالمسابقة: وبالمسايفة، ت.
(٣) ولو لم: ولمو لم، ت.

وتدل على أنهم كاذبون على الله في التشبيه والجبر، وكل ذلك يزيد صحة مذهب التوحيد والعدل.

قوله تعالى:

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾

القراءة

قرأ أبو جعفر ونافع: «تَأْمُرُونِيَ» بنون واحدة مخففة بفتح الياء على حذف إحدى النونين للتخفيف. وقرأ ابن كثير بنون واحدة مشددة مفتوحة الياء على الإدغام. وقرأ ابن عامر: «تَأْمُرُونَنِي» بنونين ساكنة الياء، وكذلك هي في مصاحف الشام. وقرأ عاصم وأبو عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب مشددة النون على الإدغام مرسلة الياء.

قراءة العامة: «لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ» بالرفع [وقرئ: «لَيُحْبِطَنّ عَمَلكَ»] على إضافة الإحباط(١) إلى الله تعالى.

اللغة

المقاليد: المفاتيح، واحدها: مِقْلِيدٌ، نحو: منديل ومناديل، ويقال: إقليد في واحده أيضًا، وقيل: المقاليد: الخزائن، والإقليد: المفتاح، وقيل: واحدها مِقْلَادٌ، نحو: مفتاح ومفاتيح، وقيل: هي فارسية معربة إِكْلِيد(٢)، وقيل: واحدها: قَلْد، على غير قياس.

---

(١) على إضافة الإحباط: على الإضافة للإحباط، ت.

(٢) إكليد: الكليد، ت. وما أثبتناه من: بحر العلوم، للسمرقندي: ٤/ ٤٤، وفي الكشف والبيان، للثعلبي ١١/ ٤٥٠: وقيل: هي فارسية معربة إكليل.

والحبط: البطلان والفساد، وأصله: داء يكون في الجوف تعظم منه البطن.

الإعراب

يقال: ما عامل الإعراب في قوله: ﴿أَفَغَيْرَ﴾؟

[قلنا]: قوله: ﴿أَعْبُدُ﴾ على وجهين:

أحدهما: أن يكون ﴿تَأْمُرُوٓنِّيٓ﴾ اعتراضًا فيكون التقدير: أتأمروني أعبد غير الله أيها الجاهلون.

الثاني: على التقديم والتأخير.

ويقال: ما موضع ﴿أَعْبُدُ﴾ من الإعراب؟

قلنا: فيه وجهان:

أحدهما: لا موضع له على الاعتراض بـ ﴿تَأْمُرُوٓنِّيٓ﴾ فيكون على تقدير: أعبد غير الله أيها الجاهلون.

الثاني: موضعه نصب على الحال إذا لم يكن ﴿تَأْمُرُوٓنِّيٓ﴾ تقديره اعتراضًا، تأمروني عابدًا غير الله، فيخرجه مخرج الحال. وجائز أن يقال[1]: رفع لنزع الحرف الذي ينصب[2] وهو (أن) [وهي أداة] تنصب الأفعال، ولو كان معه (أن) لقيل [أن] أَعْبُدَ غير الله بنصب أعبد، ومثله قول طرفة:

أَلاَ أَيُّ هَـذَا الـزَّاجِـرِي أَحْـضُـرُ الْـوَغَـى وَأَنْ أَشْـهَـدَ الـلَّـذَّاتِ هَـلْ أَنْـتَ مُـخْـلِـدِي

يعني: أن أحضر، فحذف (أن) وجعل الفعل على طريق الحال.

النزول

قيل: إن المشركين دعوا رسول الله إلى دين آبائه، فنزل[3] قوله: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ﴾.

(١) وجائز أن يقال: وواحرو إن قيل، ت.
(٢) الذي ينصب: التي تنصب، ت.
(٣) فنزل: فدل، ت.

۞ المعنى

ولما تقدم الوعد والوعيد بين أنه القادر على جميع ذلك، وأنه يجازي من يجحد ذلك، فقال سبحانه: «اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ» يعني: مُحْدِثُهُ ومبدعه، قيل: هو أن يحدث مقدرًا على حسب إرادته، [و] قيل: هو ما يفعل مخترعًا، وقيل: ما يفعل لا بآلة «وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ» أي: الحافظ والمدبر «لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ» قيل: خزائن، وقيل: مفاتيح، وقيل: عبارة عن النعم؛ لأنها تكون مخزونة، وله مفاتيح فهو يفتح السماء بالمطر والأرض بالنبات، وقيل: المقاليد: جوامع الأمور، وقيل: المقاليد: المفاتيح التي بها تفتح بركات السماء والأرض، وهو التوحيد والعدل، والثناء عليه بما هو أهله، وتسبيحه وتهليله، رواه علي عليه السلام وعثمان عن النبي ﷺ. «وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ» خسروا أنفسهم وأموالهم بأن فوَّتوا بها الجنة وجميع المنافع «قُلْ» يا محمد لهؤلاء الكفار: «أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ» يعني: من لا يستحق العبادة وهي الأصنام، ولولا جهلهم لما عبدوها، وقيل: ذكر نفسه وأراد تعظيم عبادة غير الله والمبالغة في الزجر عنه «وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ» من الأنبياء، وقيل: إلى الأمم على لسان الأنبياء «لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ» قيل: ذكر النبي وأراد غيره، وقيل: أراد المبالغة في الزجر عن الشرك، وقيل: هو خطاب له على التقدير ونهي عن شيء لم يقع منه «وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ» منافع نفسه «بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ» لأنه المستحق العبادة «وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ» لنعمه دينًا ودنيا.

۞ الأحكام

يدل أول الآيات على عظيم موقع العلم بالله وبرسوله، وأن مَنْ عَلِمَهُ علم أنه المستحق للعبادة.

وتدل على عظيم حال الجهل في عبادة غير الله.

وتدل أن القوم كانوا عارفين بالله، فيبطل قول من يقول: المعارف ضرورة.

ويدل هذا التوبيخ أن الشرك ليس بخلق الله.

وتدل أن العبادة لا يستحقها غير الله.

وتدل على وجوب شكر نعمه.

وتدل أن عقاب الشرك أعظم من ثواب كل طاعة؛ لذلك أحبطها وإن عظمت كثواب التوبة.

ومتى قيل: قوله: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يدل أنه خالق أفعال العباد؟

قلنا: الآية وردت تمدحًا، ولا تمدح في خلق الكفر والقبائح، وورد حجة عليهم، ولو كان كما زعموا لكان حجة عليه، ولأن الخلق يقتضي حصول فعل على تقدير في الحكمة والصلاح، والقبائح لا يتناولها اللفظ، ولأنه يتناول كل مخلوق، وأفعال العباد غير مخلوقة.

قوله تعالى:

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾

القراءة

قراءة العامة: «مَطْوِيَّاتٌ» رفع. وقرأ عيسى بن عمر بالكسر، ومحلها نصب على الحال والقطع.

قراءة العامة: «أشرقت» بفتح الألف، وأضاف الإشراق إلى الأرض. وقرأ عبيد بن عمير بضم الألف على ما لم يسم فاعله.

۞ اللغة

القدرة والتقدير واحد، عن أبي مسلم، وهو الظن، يعني: ما قدروا فيه ما هو حق التقدير والظن به، وذلك نحو قوله: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ﴾ [فصلت: ٢٣]، والقدر: هو اختصاص الشيء بمقدار.

والقبض: مصدر قبضت قبضًا، والقبضُ بالضاد معجمةً: التناولُ بملء الكف، وبالصاد غير معجمة: التناول بأطراف الأصابع، ومنه الحديث: (كان بلال يجيء به قُبصًا قُبصًا)[1]، قبصًا جمع: قبصة بالصاد غير المعجمة[2].

والطي: خلاف النشر، طويت الكتاب.

واليمين: الجارحة والقوة والقسم، وقيل: أصل الباب: الجارحة، وقيل: القوة.

والصَّعْقُ: الغشيان، ثم يسمى صوت الرعد صاعقة؛ لأنه يُصْعَقُ منه الإنسان، ويسمى الموت صعقة؛ لأنه يغشى عليه. وقيل: الصعق: الموت بصيحة شديدة، ومنه: صعق: إذا مات بحال هائلة.

۞ الإعراب

رفع﴿قَبْضَتُهُۥ﴾ لأنه خبر الابتداء، وقيل: بنزع حرف الصفة كقول الشاعر:

فَعَيْنَاكِ عَيْنَاهَا وَجِيدُكِ جِيدُها ... وَلَكِنَّ عَظْمَ السَّاقِ مِنْكِ دَقِيقُ

أي: عيناك كعيناها، وأجاز الفراء[3] النصب، وقال الزجاج: لا يجوز.

۞ النظم

يقال: كيف يتصل قوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ﴾ بقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾؟

(١) يجيء به قبصا قبصا: يجر العرب قبصا، ت، ن، وما أثبتناه من: تاج العروس ١/٤٤٩٩.

(٢) المعجمة: معجمة؛ ت.

(٣) الفراء: القراء، ت.

قلنا: يعني ما عظموه حق عظمته، ولا عرفوه حق معرفته، عبدوا معه غيره مع اقتداره على السموات والأرض، وأن ما عبدوه جماد، ثم اتصل بالوعيد لهم على قولهم.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى حالهم وما ينالهم يوم القيامة، فقال سبحانه: «**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ**» أي: ما عظموه حق عظمته ولا عرفوه حق معرفته؛ إذ وصفوه بما لا يجوز عليه، وعبدوا معه غيره، قال الحسن: ما عظموه إذ هو المنعم، ثم هم عبدوا غيره، وقيل: ما وصفوه بما يستحقه بالإلهية «**وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» يعني: الأرض في مقدوره، فيصرف كيف شاء، كالذي يقبض عليه القابض، وقيل: ملكه يوم القيامة بلا منازع، وهو اليوم ملكه. قال الأخفش: يقال: خراسان في قبض فلان، ليس أنها في كفه، وإنما أرادوا أنه بملكه، وهو متسلط عليه. وقيل: خص يوم القيامة؛ لأنه المالك خاصة، وفي الدنيا قد يملك غيره، وقد يحكم[1] غيره «**وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ**» قيل: مجموعات مضبوطات مع كثرتها وكثرة من فيها، وقيل: السموات مضبوطة في ملكه. قيل: مجموعات له في ملكه، عن أبي مسلم. وقيل: مطويات يعني مملكات[2]. ومعنى «**بِيَمِينِهِ**» قيل: بقدرته، وقيل: بقسمه وبقوته، حلف أنه يطويها ويفنيها، وقيل: هو ملكه كما يقال: ملك يمين «**سُبْحَانَهُ**» تنزيهًا له وبراءة عما وصفوه به من الشرك. «**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ**» قيل: هو قرن ينفخ فيه إسرافيل، وقيل: هما نفختان: نفخة يموتون عندها، ونفخة يَحْيَوْنَ. وقيل: نفختان: نفخة الغشيان يغشى عليهم ثم يموتون، ويفني الله الأجسام ثم يحييهم، عن أبي علي. والحياة والموت مقدور لله تعالى، والنفخة علامة، كما جعلت البوقات والطبول علامة الرحيل، والفائدة تصور العاقل أخذ الأمر، وحديث الحشر. وقيل: الصُّور: جمع صورة، وهو نفخ الروح في الأجسام «**فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ**» قيل: مات، وقيل: غشي عليه، ثم يموتون بعد ذلك «**إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ**» فإنه لا يموت حتى يميته الله بعد ذلك، واختلفوا في المستثنى،

---

(١) يحكم: حكم، ت.

(٢) مملكات: مهلكات؛ ت.

قيل: صاحب الصور إسرافيل، وقيل: جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، عن السدي في حديث مرفوع، وقيل: هم الشهداء، عن سعيد بن جبير. وقيل: «هم مقلدون أسيافهم حول العرش»، روي مرفوعًا. وقيل: خزان الجنة والنار، عن الضحاك. وقيل: حملة العرش اثنا عشر ملكًا: جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، عن كعب. وقيل: إنه تعالى يفني جميع الأجسام بعد الصعق والموت ثم يعيدها «**ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ**» أي: في الصور مرة «**أُخْرَى فَإِذَا هُمْ**» الخلق «**قِيَامٌ يَنظُرونَ**» من قبورهم يحييهم الله تعالى فقاموا ينظرون إلى ما يرد عليهم، أما المؤمن إلى النعم والمسار، والعاصي إلى أنواع المضار. وقيل: ينظرون نظر تعجب ولا شيء أعجب منه ولا أعظم. «**وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا**» قيل: أضاءت بنور يخلقه الله؛ لأنه يكور الشمس والقمر، ثم يخلق نورًا أيضًا، وأضاف النور إليه؛ لأنه خلقه كما أضاف[1] الناقة[2]، فيكمل بها سرور المؤمنين؛ إذ يرى في كل وقت من المحاسن ما يسره، والعاصي يلقى ما يغمه. وقيل: النور: العدل، عن الحسن، والسدي؛ يعني: يعمّ الأرض والخلق عدله فلا يبقى هناك ظلم، وقيل: إن المراد كثرة رحمته وسعة نعمه، كما يقال: فلان نور هذه البلدة إذا كان منافع أهلها ومحاسنهم منه. وقيل: بحكم ربها، عن الضحاك. «**وَوُضِعَ الْكِتَابُ**» يعني: صحائف أعمالهم التي كتبها الحفظة، فيؤتى بها وتوضع بين يدي صاحبها «**وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ**» قيل: الذين يشهدون للرسل بالبلاغ، عن ابن عباس. وقيل: الذين استشهدوا في الجهاد وطاعة الله تعالى، عن السدي. وقيل: هم الحفظة، يدل عليه قوله: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ [ق: ٢١]، وقيل: الشهداء عدول الآخرة يشهدون على الأمم بما شاهدوا، عن أبي علي، وأبي مسلم. وهذا كالعادة أن القضاء يكون بمشهد الشهود العدول «**وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ**» بالثواب للمؤمنين والعقاب للكافرين والانتصاف للمظلوم من الظالم، فلا يكون في ذلك اليوم ظلم ولا جور «**وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ**»؛ لأن المطيع لا يبخس حقه، ولا العاصي بعقوبة تزيد على ما يستحقه بعمله «**وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ**» يعني: بعد القضاء بتفاضل أعمالهم،

---

(١) أضاف: الضاف، ت.

(٢) في قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾، وقوله: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾. أي في قوله ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ فأضافها إلى ذاته تشريفا.

وبقدر ما يستحقونه القادر على إيفائه عليهم «وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ» من الحفظة والشهود، وإنما أحضر الشهود؛ ليظهر لأهل الجمع أحوالهم، ويزداد سرور المؤمنين، وحسرة الكافرين، والإخبار عنه لطف للمكلفين.

الأحكام

تدل الآيات على أن الواجب معرفة الله بصفاته[1]، حتى يعظمه كما هو أهله، وأنهم لما لم يعرفوه شبهوه وجعلوا له أندادًا.

وتدل على أن عند البعث ينفخ في الصور، وقد تظاهرت به الأخبار.

ويدل قوله: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أنه لا يعاقب أحدًا بذنب غيره ولا بغير ذنب، وأنه ينتصف للمظلوم من الظالم.

وتدل أن أفعالهم حادثة من جهتهم، وإلا لم يكن الجزاء حقًّا، وكذلك دلالة قوله: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وأيّ ظلم أعظم من أن يخلق فيه الكفر والقدرة الموجبة للكفر ويمنع من الإيمان، ثم يعاقب عليه. وما معنى إحضار الشهداء.

قوله تعالى:

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ
خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُواْ
بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ
فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا
وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ
ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُۖ فَنِعْمَ أَجْرُ
ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم
بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

---

(١) بصفاته: لصفاته، ت.

۞ القراءة

قرأ عاصم وحمزة والكسائي: «فُتِحَتْ» بالتخفيف في الحرفين، الباقون بالتشديد.

۞ اللغة

[السَّوْقُ: الحث على الشيء، ومنه قولهم: الكلام يجري على سياقة واحدة][1]، ومنه: السُّوقُ؛ لأن المعاملات يساق فيها بالبيع والشراء، ومنه: الساق لأنه [به] يساق.

والزُّمَرُ: الجماعة، واحدها: زُمْرَةٌ.

يَتَبَوَّأُ: يتخذ، وأصله: تَبَوَّأَ، أي: رجع.

وحف به وأحدق وأطاف نظائر، والأحفة: الجوانب، الواحد حِفَافٌ، وحف القوم: إذا صاروا في جانب.

۞ الإعراب

يقال: أين جواب قوله: «إذا» في قوله: ﴿إِذَا جَآءُوهَا﴾؟

قيل: ﴿وَفُتِحَتْ﴾، وقيل: قوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ والواو زائدة تقديره: حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها قال لهم خزنتها، وحذف الواو جائز كقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً﴾ [الأنبياء: ٤٨] يعني: ضياء.

وقيل: جوابه مضمر، تقديره: حتى إذا جاءوها فازوا وتمت سعادتهم، ونالوا الخير، وحذف الجواب أبلغ لذهاب النفس فيه كل مذهب.

وقيل: بل الجواب مضمر عند قوله: ﴿فَٱدْخُلُوهَا﴾ يعني: دخلوها.

ويقال: لم ذكر الواو في صفة الجنة دون ذكر النار؟

قلنا: فيه وجوه:

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة من: مجمع البيان في تفسير القرآن م٥/ج٢٤/ ١٧٥.

قيل: لأن أبواب النار سبعة وأبواب الجنة ثمانية، ففرق بينهما للإعلام بهذا المعنى.

وقيل: للتصرف في الكلام.

وقيل: لبيان أنها كانت مفتحة قبل مجيئهم بخلاف النار، فيكون تقديره: وقد فتحت، فالواو واو الحال.

وقيل: الواو زائدة.

وقيل: واو الثمانية؛ لأن من عادتهم أن يذكروا العدد إلى سبعة بغير واو ثم يدخلون الواو في الثمانية، ومنه: ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾ [الحاقة: ٧]، ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ١١٢]، ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢]، ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: ٥].

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى جزاء الفريقين بعد فصل القضاء، فقال تعالى: «**وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ**» قيل: يساقون سوقًا عنيفًا ويسحبون على وجوههم «**زُمَرًا**» قيل: جماعات في تفرقة زمرة بعد زمرة «**حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا**» ليدخلوها «**وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا**» على سبيل التوبيخ: «**أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ**» هو استفهام، والمراد التقرير، أي: قد أتاكم رسل «**يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ**» يعني: حججه ودلائله على توحيده وعدله، ونبوة أنبيائه، وسائر أحكامه وشرائعه «**وَيُنذِرُونَكُمْ**» أي: يخوفونكم «**لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى**» يعني: قد جاءتنا الرسل «**وَلَكِنْ حَقَّتْ**» وجبت «**كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ**» أي: آيات الوعيد على من كفر بالله، ونحن كَفَرْنا، فحق وعيده علينا، فتقول لهم الخزنة: «**ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ**» وإن لكل قوم منهم درجة وبابًا، ولذلك قال: «**أَبْوَابَ جَهَنَّمَ**» يعني: ادخلوا فيها متفرقين على قدر الاستحقاق، قال الحسن: سبعة أبواب لسبعة أصناف، وقد بَيَّنَّا، «**فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ**» يعني: الذين تكبروا عن قبول الحق «**وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا**» يعني: يساقون مكرمين، كقوله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥].

ومتى قيل: كيف ذكر السوق، وذلك يُنْبِئ عن الاستخفاف؟

قلنا: لمقابلة اللفظ باللفظ، كما يقال في العذاب: فبشرهم، والبشارة إنما هي الخبر السار، وقيل: معناه: حشر، فذكر لفظ السَّوْقِ، والمراد ما ذكرنا.

«**اتَّقَوْا رَبَّهُمْ**» معاصيه لأجله «**إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا**» أي: جماعات «**حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا**» أي: وقد فتحت أبوابها «**وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا**» عند الاستقبال: «**سَلَامٌ عَلَيْكُمْ**» أي: سلامة من الله، يحيونهم بالسلامة فيزدادون سرورًا، وقيل: هو الدعاء بالسلامة والخلود، أي: سلمتم من الآفات «**طِبْتُمْ**» قيل: ذلك تشريف أعمالكم، وقيل: كنتم صالحين طاهرين؛ فلذلك استحققتم، وقيل: طبتم نفسًا بما نلتم من الجنة ونعيمها. وقيل: إذا قربوا من الجنة يَرِدُون على عين من الماء، فيغتسلون بها ويشربون، فيطهر الله أجوافهم، فلا يكون بعد ذلك منهم حَدَثٌ وأذى، ولا يتغير لونهم، فتقول الملائكة: طبتم «**فَادْخُلُوهَا**» يعني: الجنة «**خَالِدِينَ**» دائمين «**وَقَالُوا**» يعني: أهل الجنة: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ**» يعني: أنجز لنا ما وعدنا على ألسنة الرسل وفي الكتب، نحو قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ [التوبة: ٧٢]، «**وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ**» يعني: أرض الجنة، قيل: صارت لنا في آخر الأمر فهو كالميراث، وقيل: ورثوها عن أهل النار «**نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ**» أي: نتخذ متبوأ ومأوى حيث أردنا، أشار إلى كثرة قصورهم ومنازلهم وسعة نعمتهم «**فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ**» أي: نعم أجر المطيعين «**وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ**» قيل: ومن أمور الآخرة وعجائبها أنك ترى الملائكة «**حَافِّينَ**» قيل: طائفين، عن ابن الأنباري. وقيل: محدقين، عن قتادة، والسدي. «**مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ**» دخلت (من) للتأكيد، والعرش: سقف الجنة «**يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ**» يعني: ينزهونه ويحمدونه[1] على سبيل الالتذاذ لا على سبيل التعبد؛ لأنه لا تكليف عليهم في الآخرة «**وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ**» قيل: بين أهل الجنة وأهل النار، وكرر تأكيدًا أنه لم يعاقب إلا بحق، وقيل: المراد به في الجنة والنار، أي: يعطي كل أحد ما يستحقه بعد دخولهم الدارين، وقيل: بل هو قبل الدخول «**وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**» قيل: إنه من كلام الله تعالى حين قضى بالحق تمدحًا، وقيل: كلام أهل

(١) ينزهونه ويحمدونه: ينزهوه ويحمدوه؛ ت.

الجنة، حمدوه على نعمه العظيمة تلذذًا، وقيل: عَلَّمَ عباده بأن يحمدوه في خواتيم أمرهم على نعمه دينًا ودنيا، وروى ابن عمر «أن النبي ـ صلى الله [عليه] وآله ـ قرأ على المنبر آخر سورة (الزمر) فتحرك المنبر مرتين».

۞ الأحكام

يدل قوله: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ﴾ وتوبيخهم لأهل النار أن الفعل حادث من جهتهم.

ويدل قوله: ﴿فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ أن ما نالوا مستحق بفعلهم.

ومتى قيل: في الآية ذكر المؤمن والكافر وذلك يبطل قولكم في المنزلة بين المنزلتين؟

قلنا: ذكر الفريقين لا يدل على عدم ثالث، ولو كان كذلك لكان الفاسق مُغْرًى بالمعاصي.

وتدل أنه يقضي بالحق، وينتصف للمظلوم من الظالم.

سُورَةُ غَافِرٍ

۞ سورة حم المؤمن(١)

قال القاضي: هي مكية فيما نقله المفسرون، وهي خمس وثمانون آية في الكوفي، واثنتان(٢) في البصري، وأربع في المكي والمدني، وست في الشامي، وأصح الأعداد عدد الكوفة؛ لأنها عدد أمير المؤمنين عليه السلام(٣).

وسميت (حم المؤمن)؛ لأن فيها ذكر مؤمن آل فرعون.

ولما ختم سورة (الزمر) بذكر أهل الجنة وأهل النار والملائكة الذين حول العرش افتتح هذه السورة بمثل ذلك.

۞ فضل الحواميم

روى أنس عن النبي ﷺ: «حواميم ديباج القرآن».

ابن عباس: (لكل شيء لباب، ولباب القرآن الحواميم).

[وعن] أنس عن النبي ﷺ: «من أراد أن يرتع في رياض الجنة فليقرأ الحواميم».

وفي فضل هذه السورة: روى أبيّ بن كعب عن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأ حاميم المؤمن لم يبق روح نبي ولا صديق ولا شهيد ولا مؤمن إلا صلوا عليه واستغفروا له».

---

(١) في ك: بسم الله الرحمن الرحيم رب يسر ولا تعسر.

(٢) واثنتان: واثنان ت، ك.

(٣) عليه السلام: ـ ، ك.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى:

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٤ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٦﴾

۞ القراءة

قرأ عاصم في رواية أبي بكر وحمزة والكسائي: ﴿حمٓ﴾ بكسر الحاء، الباقون بفتح الحاء، وعن أبي جعفر وبعض الروايات عن نافع وابن عامر بين الفتح والكسر، وهو ألا يفتحها فتحًا شديدًا.

وقرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر: «حَقَّتْ كَلِمَاتُ» بالألف على الجمع، والباقون: «كَلِمَةُ» على واحد.

۞ اللغة

التنزيل: مصدر نَزَّلَهُ تنزيلاً، وسمي الكتاب تنزيلاً؛ لأنه تعالى أنزله فهو تنزيله، وسواء قولك: نَزَّلْتُ وأنزلت، نحو: عَظَّمْتُ وأعظمت، وسَمَّيْتُ وأَسْمَيْتُ.

والعزيز: القادر الممتنع بحيث يقدر هو على غيره، وغيره لا يقدر على منعه، وهو يختص بالقديم، وأصل الصفة: المنع.

والعليم: الكبير المعلوم، وفيه مبالغة العالم[1].

والتَّوْبُ: يجوز فيه وجهان:

(١) العالم: العالم ونحو، ت.

أحدهما: أن يكون جمع توبة، كَدَوْمٍ ودَوْمَةٍ، وعَوْمٍ وعَوْمَةٍ.

والثاني: أن يكون مصدرًا، تاب يتوب توبًا، وأصله: الرجوع.

والطَّوْلُ: الفضل والإنعام الذي تطول مدته على صاحبه، طال عليه: إذا أفضل، وله عليه طَوْلٌ أي: فَضْلٌ.

والأحزاب: الجماعات، واحدها: حزب.

والدَّحْضُ: الزَّلَقُ، وحجة داحضة، أي: باطلة، دحضت حجته، وأدحضه الله.

والمجادلة: المخاصمة، وأصله من الجَدَالَةِ، وهي الأرض، فكل واحد من المتخاصمين يريد من صاحبه أن يصرعه على الأرض.

الإعراب

﴿حمٓ﴾ قد جعل اسمًا معربًا، قال الشاعر:

يُذَكِّرُني حَامِيمَ والرُّمحُ شَارِعٌ[1] فَهَلَّا[2] تَلَا حَامِيمَ قَبْلَ التَّقَدُّمِ[3]

وقال الكميت:

وَجَدنَا لَكُمْ فِي آلِ حَامِيمَ آيَةً

و﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ رفع على الابتداء والخبر.

﴿غَافِرِ ٱلذَّنبِ﴾. ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ معطوف بعضه على بعض، والعرب تعطف بالواو، وغير الواو، قال الشاعر:

---

(١) شارع: شاحر، ت، ك.

(٢) فهلا: هلا، ت، ك.

(٣) البيت اختلف في قائله؛ قيل: رجل من بني أسد، وقيل: شداد بن معاوية، وقيل: الأشتر النخعي، وقيل: عصام بن مقشعر، وذلك في مقتل محمد بن طلحة بن عبيد الله في معركة الجمل. انظر: يوسف بن عبد الله بن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج١، ص ٤٢٧، تحقيق: علي محمد البجاوي، النصري.

لاَ يَبْعَدَنْ قَوْمِي الَّذِينَ هُمُ ... سُمُّ العُدَاةِ وَآفَةُ الجُزُرِ
النَّازِلُونَ بِكُلِّ مُعْتَرَكٍ ... وَالطَّاهِرُونَ مَعَاقِدَ الأُزُرِ[١]

قيل: محل قوله: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ كسر على تقدير: لأجل أنهم، وقيل: محله نَصْبٌ بمعنى: لأنهم، وقيل: رَفْعٌ على البدل من الكلمة، وقيل: أراد بقوله: ﴿بِرَسُولِهِمْ﴾ الرجال، ولو أراد الأمة لقال: برسولها، وكذلك في قراءة ابن مسعود، عن الفراء[٢].

۞ المعنى

﴿حمٓ﴾ اسم السورة، عن الحسن، وقتادة، وأبي علي. وقيل: اسم من أسماء الله، عن ابن عباس، وعكرمة. وقيل: قسم أقسم الله بحكمه وملكه لا يعذب مَنْ عاد إليه بقوله: لا إله إلا الله مخلصًا من قلبه، عن القرظي[٣]. وقيل: هو افتتاح أسمائه: حليم، حميد، حي، حكيم[٤]، حنّان، والميم افتتاح أسمائه: ملك، مجيد[٥]، منّان، ومبتدئ، ومعيد، عن عطاء الخراساني. وقيل: هو إشارة إلى أن القرآن مركب من هذه الحروف، وهي لغتكم، وعجزتم عنه، فاعلموا أنه معجز وكلام الله، عن أبي مسلم. وقيل: إشارة إلى أن القرآن من هذه الحروف؛ لتعلموا أنه محدث ليس بقديم، عن أبي بكر الزبيري. وقيل: قالوا: لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه، فافتتح السورة بهذه الحروف ليستمعوا إليه، فيأتي ما بعده ليكون حجة عليهم. وقيل: معناه: قضي ما[٦] هو كائن، عن الضحاك، والكسائي؛ كأنه أراد الإشارة إلى (حُمَّ) بضم الحاء وتشديد الميم «تَنزِيلُ الْكِتَابِ» أي: القرآن، وجعله تنزيلاً على سعة

---

(١) البيت قائله: الخرنق بنت بدر بن هفان البكرية. وقيل: حاتم الطائي، وفي رواية: والطيبون معاقد الأرز، انظر: اللسان (نضر).
(٢) الفراء: القراء، ت.
(٣) القرظي: القرعي، ت، ك. وما أثبتناه من مجمع البيان في تفسير القرآن م٥/ج٢٤/ ١٧٩.
(٤) حكيم: وحكيم، ك.
(٥) مجيد: ومجيد، ك.
(٦) قضي ما: ومن ما؛ ت، ك، وما أثبتناه من: الكشف والبيان؛ للثعلبي: ١١/ ٤٧٠، زاد المسير: ٥/ ٨٢.

اللغة، وإنما نزل به مُنْزِلُهُ من الملائكة، فنزله الله تعالى من اللوح المحفوظ إلى الملك، ويأتي به الملك إلى الرسول، فليس[(١)] هو تعالى في موضع حتى يقال: إنه[(٢)] تعالى أنزله من ذلك الموضع؛ لأن ذلك صفة الأجسام، والله الذي تحق له العبادة «**الْعَزِيزِ**» القادر على ما يشاء لا يمتنع عليه شيء، فهو قادر لذاته لم يَزَلْ ولا يزال[(٣)]، [لا يجوز عليه العجز، قادر على كل مقدور، «**العليم**» بجميع الأشياء لذاته لم يزل ولا يزال][(٤)] يعني: لما كان قادرًا عالمًا أنزله كما أراد معجزًا بحسب المصالح «**غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ**» لمن لم يقل: لا إله إلا الله «**ذِي الطَّوْلِ**» ذي الفضل على من يقول: لا إله إلا الله، عن ابن عباس. وقيل: غافر ذنب المذنبين بالتوبة، أو طاعة أعظم منها، وقابل توب التائبين، شديد العقاب على المُصِرِّينَ، عن أبي علي. «**ذِي الطَّوْلِ**» قيل: ذي النعم، عن ابن عباس. وقيل: ذي الفضل على المؤمن، عن الحسن، وقتادة. وقيل: ذي المن، عن الضحاك. وقيل: ذي السعة، عن السدي. وقيل: ذي القدرة، وقيل: إنما ذكر «**ذِي الطَّوْلِ**» عقيب قوله: «**شَدِيدِ الْعِقَابِ**» ليعلم أن العاصي أُتِيَ في هلاكه مِنْ قِبَل نفسه، لا من قبل الله، وإلا فنعمه سابغة[(٥)] عليه دينًا ودنيا «**لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ**» ومن هو الموصوف بهذه الصفات دون غيره «**إِلَيْهِ الْمَصِيرُ**» المرجع للجزاء، وإنما جمع في هذه الصفات ليكون العبد مترددًا بين الرجاء والخوف «**مَا يُجَادِلُ**» أي: يخاصم «**فِي آيَاتِ اللَّهِ**» قيل: يتلقى القرآن بالإنكار والرد، وقيل: في جميع حججه ودلائله «**إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ**» قيل: تصرفهم في البلاد للتجارات، وبقاؤهم آمنين سالمين مع كفرهم، فإنه أمهلهم، ولم يهملهم.

ثم ذكر حال الأمم عظة له، فقال سبحانه: «**كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ**» أي: قصدوه بالتكذيب والمخالفة والقتال «**لِيَأْخُذُوهُ**»

---

(١) فليس: وليس، ك.

(٢) إنه: له، ك.

(٣) ولا يزال: +، ك.

(٤) ما بين المعكوفين زيادة من ك.

(٥) سابغة: سابقة ت، ك. وما أثبتناه من مجمع البيان في تفسير القرآن م٥/ ج٢٤/ ١٨١.

قيل: ليأخذوه[١] أخذًا، فمنعه[٢] عن قتالهم، وقيل: ليأخذوه: ليقتلوه[٣]، عن قتادة. «**وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ**» ليدفعوا ويزيلوا، وقيل: ليبطلوا ما جاء به الرسول «**فَأَخَذْتُهُمْ**» أي: عاقبتهم «**فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ**» أي: فانظر يا محمد كيف كان عقابي لهم، والأخذ عبارة عن العقاب. والأَخِيذُ: الأسير، ولذلك قيل في معناه: يعاقبون في الآخرة كما عوقبوا في الدنيا بالاستئصال، وقيل: معنى «**حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ**» على مشركي العرب، كما حقت على مَنْ قبلهم، ومعنى «**حَقَّتْ**»: وجبت [«كَلِمَةُ ربّك»]، وعيده [«على الذين كفروا» وهو] قول[٤] الله عليهم بالوعيد «**أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ**» أي: دائمون فيها، لازمون لعذابها.

۞ الأحكام

يدل قوله: ﴿تَنزِيلُ﴾ على حدث القرآن لاستحالة الإنزال في القديم، وكذلك ينزل[٥].

ويدل قوله: ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾؛ لأنه لم يفصل، وفيه ترغيب في التوبة.

ويدل قوله: ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ على أنه المنعم على جميع عباده.

ويدل قوله: ﴿وَجَٰدَلُوا۟﴾ على قبح المجادلة في المذاهب الباطلة، فيدل على وجوب النظر ومعرفة الحق.

ويدل قوله: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ﴾ أن العاقل إنما ينبغي ألا يغتر بتمكين الظالم[٦] مع ما فيه من الهموم، وآخره أنه في النار.

---

(١) قيل ليأخذوه: +، ك.
(٢) فمنعه: يمنعه، ك.
(٣) ليقتلوه: لتقتلوه، ت، ك.
(٤) قول: نزل، ت.
(٥) نزل ينزل: ت، ك.
(٦) بتمكين: بتمكن: ت، ك.

قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾﴾

اللغة

التسبيح: التنزيه من كل سوء، ويقال: وقَيْتُ الشيء أَقِيهِ[1] وَقْيًا، والوقاية: ما يقي الشيء إلى حفظه، وهو واقٍ، والأمر: قِ، وإنما هو: قي، حذفت الياء للجزم، وأصله: وقي، ومنه: التقوى اسم على فَعْلى، قلبت الواو تاء[2]، وأصله من وقَيْتُهُ أَقِيهِ، أي: منعته.

والمَقْتُ: أشد البغض، ونكاح المَقْتِ: أن يتزوج الرجل امرأة أبيه إذا طلقها أو مات عنها، فإذا ولد له قيل للولد: مَقْتِيٌّ.

الإعراب

نصب ﴿رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ قيل: على التمييز، وقيل: بنزع الخافض، فنقل الفعل إلى الموصوف مبالغة، كقولهم: طبت به نفسًا.

قوله: ﴿وَمَن صَلَحَ﴾ في محل النصب عطفًا على الهاء والميم في قوله: ﴿وَعَدتَّهُمْ﴾ فحذف إيجازًا، وقيل: وأدخلهم وأدخل مَنْ صَلَحَ.

وفي مصحف أُبيّ: «وَمَنْ تَقِهِ».

(١) أقيه: أوقيه، ك.

(٢) تاء: ياء، ت.

۞ المعنى

لما تقدم أحوال الكافرين عقبه بذكر المؤمنين واستغفار الملائكة لهم، فقال سبحانه: «**الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ**» يعني: الملائكة، قيل: هم صنفان: صنف هم حملة العرش، وصنف يطوفون به. وقيل: كثف[1] الله أجسامهم حتى حملوا العرش، وقيل: بل أعطاهم من القوة ما يحملونه، وهم على هيئة الملائكة. وقيل: أراد بِحَمَلَةِ العرش الذين يعبدون الله حوله، كما يقال: حملة القرآن لمن يعبد الله به، لا أنه حمله على الحقيقة، والأول أوجه؛ لأنه الحقيقة، ويجوز أن يكونوا متعبدين بحمله وبالتسبيح، وقيل: حملة العرش أول من خلق الله تعالى من الملائكة، عن مقاتل. «**يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ**» قيل: ينزهونه عما لا يليق به ويحمدونه على ذلك، وقيل: يحمدونه على أفعاله التي كلها إنعام، ويسبحونه بإضافة النعم إليه. وقيل: يسبحونه ويعدونه نعمة منه؛ لما يؤدي إلى الثواب، فيحمدونه على ذلك. وقيل: ينزهونه عن صفات المخلوقين، ويحمدونه على أن أفعاله كلها حكمة، فالمعنى أنهم يوحدونه ويعدلونه «**وَيُؤْمِنُونَ بِهِ**» أي: يصدقون بصفاته «**وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا**» أي: يشفعون لهم بطلب المغفرة لهم من الله «**رَبَّنَا**» أي: ويقولون: ربنا «**وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا**» يعني: وسعت رحمتك وعلمك كل شيء، والمراد بالعلم: المعلوم، أي: لم يختص معلومًا به بل هو عالم بكل معلوم، ورحمته لم تختص حيًّا؛ بل شملت أنواع الحيوانات «**فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا**» أي: رجعوا إليك نادمين من كل ذنب «**وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ**» أي: دينك، وقيل: طريق مرضاتك «**وَقِهِمْ**» أي: امنعهم واحفظهم من «**عَذَابَ الْجَحِيمِ**» أي: النار الشديد التوقد «**رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ**» أي: إقامة لا تفنى «**الَّتِي وَعَدْتَهُم**» على ألسن أنبيائك «**وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ**» أي: اجعل معهم الصالحين من آبائهم «**وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ**» أولادهم[2]؛ لأن بجميع هؤلاء يكمل السرور «**إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ**» القادر على ما تشاء، وقيل: المستغني عن كل شيء «**الْحَكِيمُ**» لا يفعل إلا الحكمة «**وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ**» قيل: اصرف عنهم جزاء السيئات،

(١) كثف: كشف، ت.

(٢) وأولادهم: أولادهم، ت، ك.

فيسمى الجزاء سيئة توسعًا، كقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ﴾ [الشورى: ٤٠]، والعاصي يعده سيئة إذا وقع به، ولأنه يسوء ما فيه. وقيل: قهم أنواع العذاب، وسماه سيئة لما بَيَّنَّا. وقيل: وقهم أنواع المعاصي بالألطاف «**وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ**» عنه أي: مَنْ تَصْرِف عنه سوء عاقبة سيئاته، وقيل: من تصرف عنه السيئات بلطفك «**يَوْمَئِذٍ**» قيل: يوم القيامة «**فَقَدْ رَحِمْتَهُ**» أنعمت عليه «**وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**» أي: الظفر العظيم بالبغية.

ثم عاد الكلام إلى من تقدم ذكرهم من الكفار، فقال سبحانه: «**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ**» يوم القيامة وهم في النار «**لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ**» أي: بغض الله إياكم أكبر من بغضكم أنفسكم. قيل: مقتوا أنفسهم حين عاينوا العذاب، فقيل لهم: مقت الله إياكم أكبر، عن قتادة، ومجاهد، والسدي، وابن زيد. وقيل: لما رأوا أعمالهم الخبيثة مقتوا أنفسهم، فنودي: «**لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ**»، عن الحسن. وقيل: الأتباع والمتبعون لما تخاصموا ولعن بعضهم بعضًا نودوا بأن مقت الله أكبر من مقت بعضكم بعضًا، كقوله: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١]، عن أبي علي. وقيل: لمقت الله إياكم وأنتم في الدنيا «**إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ**» أكبر من مقتكم أنفسكم عند حلول العذاب بكم.

۞ الأحكام

تدل الآيات أن الملائكة مكلفون، وأن تكليف هؤلاء يتعلق بالعرش، فمنهم من يحمله(١)، ومنهم من يطوف به كما يطوف بالبيت.

وتدل أنهم يشفعون للمؤمنين، ويستغفرون لهم، وفائدته بيان درجتهم، وزيادة(٢) درجة للمؤمن بشفاعتهم، أو جبر لنقص وقع في ثوابهم بسبب الصغائر.

وتدل على أن الشفاعة للمؤمنين دون الفساق.

وتدل على أن من أعظم النعمة مشاركة الأقربين له في النعم.

(١) يحمله: الحملة، ت.

(٢) وزيادة: فزيادة، ت.

ويدل آخر الآية أن الكفر فعلهم؛ حيث مقتوا أنفسهم، ونودوا بالتوبيخ، ومقتهم الله، ولو كان خلقًا له لما صح ذلك.

وتدل على بطلان مذهب المجبرة في أنه لا يجوز أن يدعو الداعي [بما] يعلم أنه لا[1] يكون، عن أبي علي.

قوله تعالى:

﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (١١) ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (١٢) هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ (١٣) فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (١٤) رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (١٥) يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾

القراءة

قرأ يعقوب: «لِتُنْذِرَ» بالتاء على الخطاب، وروي عنه بالياء، وهو قراءة الفراء[2]، كناية تعود إلى قوله: ﴿مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾.

اللغة

قيل: الحياة معنى، والموت ليس بمعنى، وقيل: الموت والحياة عَرَضَانِ يتعاقبان على الجملة، لا يقدر غير الله عليهما، ومن خاصة الحياةِ الإدراكُ بها.

والالتقاء والتلقِّي من النظائر، يقال: ألقى إليّ فلان حديثًا، وعندي خبر ألقيته إليك، والتلاقي من الالتقاء. وأصله: التلاقي، حذفت الياء إيجازًا.

---

(١) لا: +، ك.

(٢) الفراء: القراء، ت.

والبروز: الظهور بالخروج عما كان فيه، بَرَزَ يَبْرُزُ بروزًا فهو بارز، والجمع: بارزون، فجميع العباد يومئذ يخرجون من القبور فيظهرون.

۞ الإعراب

﴿رَفِيعُ﴾ رفع على تقدير: هو رفيع.

﴿يَوْمَ هُم﴾ رفع بالابتداء.

﴿بَٰرِزُونَ﴾ خبره.

﴿يَوْمِ﴾ نصب على الظرف، وقيل: بنزع الخافض أي: في يومهم.

۞ النظم

يقال: كيف يتصل قوله: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا﴾ بما قبله؟

قلنا: لما تقدم ذكر[1] كفرهم وكان من جملته[2] إنكار البعث عقبه باعترافهم بالبعث يوم القيامة، ولما ذكر مقتهم أنفسهم لعظيم ما نزل بهم ذكر سؤالهم الرجعة إلى الدنيا.

ويقال: كيف يتصل قوله: ﴿فَٱعْتَرَفْنَا﴾ بما قبله؟

قلنا: الاعتراف بالذنب بعد الإقرار بصفة الرب كأنه قيل: اعترفنا بك ربنا وأنت أَمَتَّنا وأحييتنا، واعترفنا مع هذا أَنَّا عصيناك، فهل سبيل إلى الخروج إلى طاعتك؟

ويقال: كيف يتصل قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ بما قبله؟

قيل: يتصل بما قبله يعني: العلي الكبير هو الذي يريكم آياته، عن أبي علي.

وقيل: من هذه صفته يريكم آياته، وهو رفيع الدرجات.

وقيل: بقوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾، ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾، عن أبي مسلم.

وقيل: بقوله: ﴿ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾.

وقيل: لما ذكر حال الفريقين ذكر الدرجات.

---

(١) ذكر: ذكرهم، ت.

(٢) جملته: جملتهم، ت.

وقيل: لما حث على العبادة والإخلاص رغَّبهم بذكر الدرجات.

ومتى قيل: كيف اتصال قوله: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ﴾ ؟

قلنا: يتصل بقوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ وذلك أن يوحي إلى من يشاء. وقيل: يتصل بقوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ ، ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ﴾.

۞ المعنى

ثم بين اعترافهم، فقال سبحانه: «**قَالُوا**» يعني: الكفار «**رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ [وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ]**» قيل: الموتة الأولى حيث كانوا نطفًا فأحياهم في الدنيا، ثم أماتهم الموتة الثانية، ثم أحياهم للبعث، فهما حياتان وموتتان، ونظيره: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ[1]﴾ [البقرة: ٢٨]، عن ابن عباس، وقتادة والضحاك، وأبي مسلم. وقيل: الإماتة الأولى في الدنيا بعد الحياة، والثانية في القبر قبل البعث، والحياة الأولى في القبر، والثانية في الحشر، عن السدي. وقيل: الحياة الأولى في الدنيا، والثانية في القبر، ولم يُرِدْ الحياة يوم القيامة، والموتة الأولى في الدنيا، والثانية في القبر، عن أبي علي. «**فَاعْتَرَفْنَا**» أي: أقررنا «**بِذُنُوبِنَا**» من الكفر والمعاصي «**فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ [مِنْ سَبِيلٍ]**» وقيل: هل سبيل إلى الخروج لنصلح أعمالنا؟ «**ذَلِكُمْ**» في الكلام حذفٌ، يدل على المنطوق به، كأنه قيل: أُجِيبوا بأن لا سبيل إلى الخروج؛ بل مخلدون فيها.

ثم بَيَّنَ علة الخلود، فقال سبحانه: «**ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ**» وأنكرتم أن يكون وحده إلهًا، وقلتم: أجعل الآلهة إلها واحدًا، «**وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا**» أي: تصدقوا المشرك[2] في شركه، وقيل: وإن يشرك به بعد الرد إلى الدنيا لو كان كنتم تُصَدِّقون المشرك، لذلك ذكره بلفظ المستقبل «**فَالْحُكْمُ لِلَّهِ**» تعالى، يعني[3]: في إنزال كل أحد الموضع الذي استحقه بعمله، وقيل: في إدامة العذاب ومنع الرجوع، و«**الْعَلِيِّ**» القادر على ما يشاء «**الْكَبِيرِ**» العظيم الشأن.

(١) وكنتم أمواتا فأحياكم: ـ ، ك.
(٢) المشرك: المشركين، ت.
(٣) يعني: +، ك.

ثم بَيَّنَ ذلك، فقال سبحانه: «**هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ**» أي: حججه وبيناته الدالة على توحيده وعدله، ومنها الذي يتضمن ـ مع كونه حجة ـ نعمًا عليكم أنه ينزل لكم من السماء رزقًا؛ يعني: المطر الذي هو سبب الرزق، وقيل: ينزل عليكم الرزق مع كفركم، فلم تتفكروا فيه ولم تشكروه «**وَمَا يَتَذَكَّرُ**» أي: لا يتفكر في أدلته «**إِلاَّ مَنْ يُنِيبُ**» قيل: يُقْبِلُ على طاعة الله، عن السدي. أي: يرجع إليه بالتوبة والإخلاص، وقيل: يرجع إلى نفسه ويتفكر فيها وفي سائر آياته، فيعلم أن له صانعًا ومدبرًا «**فَادْعُوا اللَّهَ**» ولا تسألوا بهم أيها المؤمنون «**مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**» أي: الطاعة والعبادة، وقيل: لا تتركوا العبادة مخافة المشركين، عن أبي علي. فإنه لا يرضى بذلك «**وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**» قيل[1]: لو كره الكفار من أقاربكم، عن أبي مسلم. «**رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ**» قيل: طبقات الثواب للأنبياء والمؤمنين في الجنة، وقيل: رافع السموات وهو[2] فوق كل شيء [وليس فوقه شيء، وكل شيء] مقدر، عن ابن عباس. وقيل: رافع لمن يشاء من عباده، فإن جعلت (رفيع) من صفة الله تعالى، فمعناه: رافع الدرجات «كقدير وقادر»، وإن جعلته من صفة الثواب فهو تنبيه على عظم شأنه، فهو رفيع «**ذُو الْعَرْشِ**» أي: خالقه ومالكه، وقيل: العرش: الملك أي: ذو الملك، عن أبي مسلم. وقيل: أراد السماء وبناءها «**يُلْقِي الرُّوحَ**» أي: ينزل الوحي، عن قتادة، والضحاك. وسماه[3] روحًا؛ لأنه الذي به يحيا[4]، وقيل: هو القرآن، وقيل: هو كل كتاب أنزله على نبي من أنبيائه «**مِنْ أَمْرِهِ**» قيل: من قوله، وقيل: بأمره «**عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ**» ممن يعلم أنه يصلح لذلك «**لِيُنْذِرَ**» أي: يخوف «**يَوْمَ التَّلَاقِ**» يعني: القيامة، وسمي بذلك قيل: لأنه يلتقي [فيه] الأولون والآخرون، عن أبي علي. وقيل: يلتقي أهل السماء وأهل الأرض، عن قتادة، والسدي، وابن زيد. وقيل: يلتقي المرء عمله، وقيل: يوم يلتقي الخلق والخالق، عن ابن عباس؛ يعني: أنه يحكم بينهم. وقيل: يلتقي الظالم

---

(١) قيل: وقيل، ك.
(٢) وهو: وهنّ، ت، ك.
(٣) وسماه: +، ك.
(٤) يحيا: +، ك.

والمظلوم والخصوم، عن ميمون بن مهران. وقيل: يلتقي كل عابد مع معبوده، وقيل: يلتقي الملائكة والإنس، وقيل: يلتقي المؤمن مع البشارة والإكرام، والكافر مع الهوان والعذاب، وقيل: يلتقي كل واحد مع قرينه، وقيل: الكل مراد؛ لأن الالتقاء يحصل في جميع ذلك «يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ» قيل: يصيرون ظاهرين للخروج من القبور ولا يستترون بشيء، وقيل: يبرز بعضهم لبعض، فلا يخفى [عن] أحد حال آخر؛ لأنه يكشف ما كان مستورًا «لاَ يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ» من أعمالهم وأحوالهم، سِرِّهم وجهرهم، وقيل: لا يخفى عليه من أحوالهم شيء؛ لذلك صح أن يجمع أجزاءهم ويحييهم. وقيل: لا يخفى عليه أحد؛ بل يحييهم جميعًا، ويبعثهم، عن أبي علي.

ومتى قيل: لم قال: «منهم» وهو لا يخفى عليه شيء منهم ومن غيرهم؟

قلنا: فيه وجهان:

أولهما: أن (مِنْ) للتبيين، لا للتخصيص.

وثانيهما: يعني: يجازيهم، ولا يخفى عليه شيء منهم، فخص لتخصيص الجزاء.

«لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ» يعني: يوم القيامة يقول ذلك عند الجزاء(١)، وقيل: يقولها بعد فناء الخلق، وهذا غير صحيح(٢)؛ لأنه ليس ثَمَّ مُخَاطَبٌ فيكون لغوًا، ولأنه قال: ﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ﴾ ثم قال: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ﴾ فما قالوه خلاف الظاهر.

ومتى قيل: لم قال: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ وهو مالك في الدنيا والآخرة؟

قيل: لأنه [في الدنيا] يملك غيره، وثَمَّ لا حكم لأحد.

ومتى قيل: أليس ثَمَّ مَلَّكَ الأنبياء(٣) والمؤمنين الملك العظيم؟

قلنا: المراد يوم القيامة قبل(٤) تمليك أهل الجنة، ولأنه لا يستحق إطلاق اسم ملك إلا له؛ لأنهم مملوكون.

---

(١) الجزاء: الحشر، ك.

(٢) وهذا غير صحيح: وهذا لا شيء، ك.

(٣) الأنبياء: للأنبياء، ك.

(٤) قبل: قيل، ت، ك. والصواب ما أثبتناه من مجمع البيان في تفسير القرآن م٥/ج٢٤/١٨٨.

«لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ» قيل: لما قَرَّرَهم[1] أقر المؤمن والكافر بأنه لله الواحد القهار، وقيل: بل أجاب هو نفسه والخلق سكوت، لا يؤذن لهم في الكلام، عن الحسن. وقيل: معناه: الملك يومئذ لله، فورد على وجه السؤال والجواب للتأكيد وزيادة البيان، عن أبي مسلم. والقادر على ما يشاء قهرهم بالموت والبعث، وقيل: المؤمن يلتذ بالاعتراف به، والكافر يقول على وجه التحسر والصغر، عن أبي علي.

۞ الأحكام

يدل قوله: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا﴾ على صحة ما نقوله في عذاب القبر، وإطلاق اسم الموت على النطفة مجاز، فَحَمْلُ الكلام على حقيقته أولى.

ومتى قيل: فالإحياء يجب أن يكون ثلاثًا؟

قلنا: إثبات حياتين لا يمنع إثبات ثالثة.

ومتى قيل: فمتى يكون عذاب القبر؟

قلنا: اختلفوا فيه، فمنهم من قال: أول ما يدفن، وقيل: ما بين النفختين، وأما مشايخنا فيقولون: نقطع بكونه، وأما وقته فلا نقطع، فيجوز أن يتقدم ويتأخر.

ومتى قيل: كيف يصح، ولو نبش القبر رُئِيَ الميت بحاله؟!

قلنا: يجوز أن يعيده إلى تلك الحالة، ويجوز أن يعذب مَنْ عَلِمَ أن قبره ينبش بعد النبش.

ومتى قيل: هلا قلتم: إن الميت يعذب أو الروح؟

قلنا: أما الميت فيستحيل أن يتألم، وأما الروح فهو النفس، وليس هو المكلف.

ومتى قيل: فما الفائدة فيه؟

قلنا: الله أعلم بوجه المصلحة، ويجوز أن يكون لطفًا للملائكة، والخبر عنه لطفًا لنا، فأما الميت فيستحيل أن يكون لطفًا له[2] لانقطاع التكليف.

(١) قررهم: قرنهم، ت، ك.
(٢) له: ـ، ك.

ومتى قيل: فهل يعاد عاقلاً؟

قلنا: لا بد أن يحييه الله تعالى، ويجعله عاقلاً؛ ليعلم أنه يعذب جزاء.

ومتى قيل: فمن يُعَذَّبُ؟

قلنا: المستحق للعذاب، فأما المؤمن يثاب ولا يعذب.

ومتى قيل: فما تقولون في السؤال، وفي قصة منكر ونكير؟

قلنا: أما السؤال نقطع[(١)] به، فأما منكر ونكير فيجوز[(٢)] ذلك؛ لورود الخبر به وإن لم يظهر كظهور عذاب القبر.

ويدل قوله: ﴿يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ أنه نصب الأدلة ليتفكر فيها، فيدل على وجوب النظر وفساد التقليد، وأن المعارف غير ضرورية.

ويدل قوله: ﴿مُخْلِصِينَ﴾ على وجوب الإخلاص.

ويدل قوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ﴾ على عظيم ما يستحقه أهل الجنة، وفيه ترغيب في الطاعات.

ويدل قوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ﴾ أن جميع الخلق ينقادون ويعترفون، ويزول ملك كل أحد.

قوله تعالى:

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾

---

(١) نقطع: قطع، ت، ك.
(٢) فيجوز: يجوز؛ ت، ك.

۞ القراءة

قرأ ابن عامر ونافع: «الذين تَدْعُونَ» بالتاء على الخطاب، والباقون بالياء.

۞ اللغة

الآزفة: الدانية، أَزِفَ الأمر: إذا دنا، يَأْزَفُ[1] أَزَفًا، ومنه: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ﴾ [النجم:٥٧] أي: دنيت القيامة، وسميت آزفة لدنوها.

والكاظم: الممسك على ما في قلبه، يقال: كظم غيظه: إذا تجرعه، وأصل الكظم للبعير على جِرَّتِهِ يرددها في حلقه.

والحميم: القريب، يقال: حم الشيء: إذا قرب.

والقضاء: فَصْلُ الأمرِ والحُكْمِ.

۞ الإعراب

﴿كَٰظِمِينَ﴾ قيل: نصب على الحال، أي: في حال الكظم، وقيل: على القطع، قال الزجاج: تقديره: قلوب الظالمين عند الجمع كاظمين.

۞ المعنى

ثم وصف تعالى ذلك اليوم، فقال سبحانه: «الْيَوْمَ[2]» يعني: يوم القيامة «تُجْزَى»[3] أي: تكافأ «كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ» بما عملت من خير أو شر «لاَ ظُلْمَ الْيَوْمَ» بنقصان ثواب مستحق أو زيادة عقوبة غير مستحقة «إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ» لا يؤخر الثواب والعقاب، وقيل: لا يشغله حساب أحد عن حساب آخر.

ومتى قيل: كيف يحاسب ويسائل؟

قلنا: يحدث كلامًا مع كل أحد في محل يضطره إلى أنه كلامه تعالى، وقيل: يأمر الملائكة بأن تحاسب وتسائل.

---

(١) يأزف: ويأزف، ك.

(٢) اليوم: اليوم تجزى، ت.

(٣) تجزى: تجازى، ت.

«**وَأَنذِرْهُمْ**» أي: خَوِّفهم «**يَوْمَ الآزِفَةِ**» أي: الدانية، قيل: هو يوم القيامة؛ لأن كلَّ آتٍ قريبٌ، وقيل: يوم دُنُوِّ المجازاة، وقيل: هو اليوم الذي يقرب فيه الموت، وتبلغ الأرواح إلى الصدور والحناجر، عن أبي مسلم. «**إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ**» قيل: من الخوف والاضطراب زالت وشخصت[1] عن صدورهم فتعلقت بحلوقهم، فلا هي تعود إلى أماكنها، ولا تخرج فيموتوا أو يستريحوا. وقيل: هو عند الموت وخروج أرواحهم، فهم كاظمون لها أي: القلوب والنفوس أي: ممسكها، عن أبي مسلم. وقيل: هو تشبيه وتَوَسُّعٌ، أي: لو زال القلب عن موضعه لخوف لزال ذلك اليوم. «**كَاظِمِينَ**» ساكتين على امتلائهم غيظًا وغمًّا «**مَا لِلظَّالِمِينَ**» يومئذ «**مِنْ حَمِيمٍ**» قريب وصديق «**وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ**» أي: يجاب فيطاع، مجازٌ وتَوَسُّعٌ. وقيل: ليس لهم شفيع يدفع عنهم العذاب، عن أبي علي. وقيل: يرفع عنهم الموت، عن أبي مسلم. «**يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ**» قيل: فيه تقديم وتأخير[2]، أي: يعلم الأعين الخائنة، عن المؤرج. وقيل: الخائنة والخيانة بمعنى، أي: خيانة الأعين، وقيل: هو مسارقة النظر إلى المرأة، عن ابن عباس. وقيل: نظر الأعين إلى ما نهى الله تعالى[3] عنه، عن مجاهد، وقتادة. «**وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ**» أي: يعلم سرائر الصدور «**وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ**» أي: يحكم بين عباده بالحق، وقيل: يخبر عباده بما يكون بعد الموت لهم، عن أبي مسلم. «**وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ**» أي[4]: من دون الله «**لاَ يَقْضُونَ بِشَيْءٍ**» قيل: الأصنام لا يحكمون، ولا يخبرون؛ لأنها جماد «**إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**» يسمع المسموعات، ويرى المرئيات.

الأحكام

يدل قوله تعالى: ﴿تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ﴾ على أنه يجازى كل أحد بفعله، ولا يؤخذ بذنب غيره.

---

(١) وشخصت: وشحطت، ت.
(٢) وتأخير: وتأخر، ك.
(٣) تعالى: ـ، ك.
(٤) من دونه أي: ـ ، ك.

وتدل أنه لا ظلم في ذلك اليوم.

وتدل على أنه قادر على ما لو فعله كان ظلمًا، فيبطل مذهب المجبرة في خلق الأفعال، وفي أفعال المشركين، وفي أنه لا يقدر على الظلم، وأيّ ظلم أعظم من أن يخلق الكفر في واحد، ثم يعذبه أبد الأبد لمكان ما خلقه وأراده[(١)].

ويدل قوله: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ[(٢)]﴾ على صحة قولنا[(٣)]: إنه لا شفيع لأهل الكبائر.

ويدل آخر الآية أنه يقضي بالحق، وكل باطل ليس من قضائه.

وتدل على صحة الحجاج في الدين، وأنه لا يستحق العبادة جَمادٌ لا يضر، ولا ينفع.

قوله تعالى:

﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾

---

(١) خلقه واراده: خلقت وأردت، ت، ك.

(٢) قوله: ما للظالمين: ـ، ك.

(٣) قولنا: قولنا (ما للظالمين)، ك.

القراءة

قرأ ابن عامر وحده: «كَانُوا هُمْ أَشَدُّ مِنكُم» بالكاف، وكذلك في مصاحف الشام على الخطاب، وقرأ الباقون بالهاء كذلك هي[(١)] في مصاحفهم.

وقرأ أبو جعفر ونافع وأبو عمرو[(٢)] «أَنْ يُبَدِّلُ دِينَكُمْ وَأَنْ» بغير ألف قبل الواو و«يُظْهِرَ» بضم الياء وكسر الهاء «الفساد» بالرفع على إضافة الظهور إليه. وقرأ يعقوب وحفص عن عاصم: «أو» بألف قبل الواو «يُظْهِرَ» بضم الياء وكسر الهاء «الفَسَادَ» بالنصب. وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم «أو» بالألف «يَظْهَرَ» بفتح الياء والهاء «الفَسادُ» بالرفع.

وقرأ: «عذت» بإدغام الذال في التاء أبو جعفر ونافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي، وقرأ الباقون بالإظهار[(٣)].

اللغة

الوقاية: المنع والحفظ، وَقَى يَقِي وقاية، فهو واقٍ.

والقوة والقدرة بمعنى، وتستعمل بمعنى الصلابة، و[حبل قوي، أي][(٤)]: صلب، [وأصله من][(٥)] قَوى الحبل، وهو شدة الفتل.

الإعراب

(فرعون وهامان وقارون) أسماء معرفة أعجمي لا[(٦)] تنصرف.

---

(١) هي: +، ك.

(٢) وأبو عمرو: أبو عمر، ت.

(٣) بالإظهار: للإظهار، ت.

(٤) ما بين المعكوفين في ت، ك. وأمر. وما أثبتناه من: التبيان في تفسير القرآن للطوسي: ٩/ ٦٥.

(٥) ما بين المعكوفين زيادة من: التبيان في تفسير القرآن؛ للطوسي: ٩/ ٦٥.

(٦) لا: فلا، ك.

۞ المعنى

ثم زاد في الإنذار، فقال سبحانه: «أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ» من كفار الأمم «كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً» في أنفسهم «وَآثَارًا فِي الأَرْضِ» وهو ما بقي من أبنيتهم العجيبة، وقيل: آثارًا في الأرض أي: ذهابًا بالطلب في الدنيا فلم ينفعهم ذلك حتى أُخِذوا «فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ» أي: أهلكهم «بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ» أي: من عذابه «مِنْ وَاقٍ» يقيهم، ويدفع العذاب عنهم، عن قتادة.

ثم بَيَّنَ العلة في إهلاكهم، فقال سبحانه: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ» بالحجج[١] والمعجزات «فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ» أي: أهلكهم عقوبة على كفرهم «إِنَّهُ قَوِيٌّ» أي: قادر على الانتقام منهم «شَدِيدُ الْعِقَابِ».

«وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا» أي: بحججنا[٢] «وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ» حجة ظاهرة. قيل: الآيات والسلطان شيء واحد، وذكرها تأكيدًا لاختلاف المعنى، فكأنه ذكر الحجة، وذكر أنه بها يتسلط[٣] عليهم، وقيل: الآيات حجج التوحيد والعدل، والسلطان: المعجزات التي بها ظهرت نبوته، وقهر فرعون وقومه «إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ» كاذب[٤] فيما يدعي ويدعو إليه «فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا» قيل: بالمعجزات الدالة على نبوته، وقيل: بالدين الحق «قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ» قيل[٥]: أمر فرعون بقتل الأبناء مرتين: مرة قبل بعثة موسى خوفًا على ملكه حين أُنْذِرَ به، ومرة بعد البعثة لئلا[٦] يتقوى بهم، وليتفرقوا عنه، وقيل: عقوبة لهم، قال قتادة: كان فرعون أمسك عن قتل الولدان، فلما بعث موسى

(١) بالحجج: الحجج، ت.
(٢) بحججنا: حججنا، ت.
(٣) بها يتسلط: أنها تتسلط، ت.
(٤) من هنا بداية المقابلة على النسخة د.
(٥) قيل: يدل، ت، ك.
(٦) لئلا: للا، ت، ك.

أعاد القتل عليهم، وأما استحياء النساء قيل: للمهنة، وقيل: قتلوا الأبناء واستحيوا النساء؛ ليصدهم بذلك عن اتباعه ومظاهرته، «وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ» أي: مكرهم وتدبيرهم في استبقاء ملكه، وانقطاع القوم وتوهين أمره «إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ» قيل: في هلاك، وقيل: في ذهاب عن الصواب.

ولما أحس فرعون بزوال ملكه على يده هَمَّ بقتله، فقال لِمَلَئِهِ: «وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ» الذي يزعم أنه أرسله لينصره عليَّ ويمنعه مني، وهذا إن قاله اعتقادًا فهو جهل عظيم، حيث لم يعلم أنه تعالى قادر على ما يشاء، وإن قاله عنادًا حفظًا على مملكته فهو شديد الجرأة على ربه «إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ» يعني: يُغَيِّر دينكم الذي أنتم عليه من عبادة فرعون والأصنام، إلى عبادة الله، وظهوره الفساد قيل: أراد يظهر دينه، ويعمل بعبادة الله، عن قتادة. وقيل: يظهر الحرب بين الفريقين، فيحارب موسى بمن آمن فتخرب البلاد، وتضطرب[1] العباد. وقيل: أراد بالأرض أرض مصر، عن أبي مسلم، وقيل: أراد جنس الأرض. فلما بلغ موسى ذلك قال «إِنِّي عُذْتُ» أي: اعتصمت «بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ»؛ لأن الإيمان بيوم الحساب يمنع عن فعل القبيح، والمتكبر الذي ينكر البعث لا يبالي ما يفعل.

الأحكام

تدل الآيات على زجر عظيم، ووجوب التفكر في الأمم الماضية، وكيف أُخِذُوا لما كفروا، وفيه تسلية للنبي ﷺ في تكذيبهم إياه، ووعيد لقومه.

وتدل على أن رؤساء الباطل يموِّهون، فلا ينبغي للعاقل أن يشتغل بالتقليد، ويجب أن ينظر ليعلم الحق فيتبعه.

وتدل على وجوب الاستعاذة بالله عند المهمات.

ويدل قوله: «ذروني» أنه كان في قومه مَنْ ينهاه مِنْ قتله خوفًا على فرعون أن يهلك على يد موسى، عن أبي علي.

(١) وتضطرب: تضطرب، ك.

وتدل استعاذة موسى أن التكبر فعل العبد، ليس بخلق الله؛ إذ لو كان خلقًا لكان يجب أن يستعيذ منه.

قوله تعالى:

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾

القراءة

قراءة العامة(١): «[التَّناد]» بالتخفيف من النداء، من قوله: ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾ [ق: ٤١] وينادي بعضهم بعضًا. وقرأ الحسن كذلك، إلا أنه أثبت الياء على الأصل. وقرأ ابن عباس والضحاك بتشديد الدال، وهو «تفاعل» مِنَ نَدَّ البعير: إذا شرد، يقال: نَدَّ البعير، وند الإنسان(٢)، والمعنى: يوم الفرار والهرب، وذلك إذا عاينوا(٣) العذاب هربوا في الأرض وندّوا(٤) كما تَنِدُّ الإبل: إذا شردت على أربابها، قال الضحاك: وذلك إذا سمعوا زفير النار ندّوا هِرَابًا، فلا يأتون قطرًا من الأقطار إلا وجدوا ملائكة

---

(١) قراءة العامة: قرأ عاصم قراءة العامة، د.

(٢) الإنسان: +، ت، ك.

(٣) عاينوا: تعاينوا، د.

(٤) هربوا في الأرض وندّوا: «هربوا وندّوا في الأرض»، ت، ك.

صفوفًا، فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه، وذلك نحو قوله: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ(1)﴾ [الرحمن: ٣٣]، وقوله: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾ [الحاقة: ١٧].

اللغة

الإسراف: مجاوزة الحد في العصيان.

والظهور: الغلبة، ومنه: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

والبأس: الشدة، ومنه: البأساء، ومنه(2): البؤس: شدة الفقر، ورجل بئيس: شديد، وعذاب بئيس، وبَؤُسَ يَبْؤُسُ بأسًا: إذا اشتد، وبَئِسَ يَبْأَس فهو بائس: إذا افتقر.

والدأب: العادة، دَأَبَ يَدْأَبُ دَأْبًا فهو دائب في عمله: إذا استمر فيه.

والتنادي: التداعي ونداء(3) بعضهم بعضًا.

الإعراب

«اليوم» نصب(4) على الظرف.

و«ظاهرين» نصب على الحال، وقيل: تم الكلام عند قوله: ﴿لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ ثم ابتدأ: ﴿ظَٰهِرِينَ﴾.

المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى مقام مؤمن آل فرعون واعظًا لقومه، فقال سبحانه: «**وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ**» قيل: استشار فرعون في قتله، فأشاروا بقتله، فقام هو وأشار بالكف عنه وخوفهم قتله. وقيل: كان يكتم إيمانه، فلما جد الأمر لم يملك

---

(١) من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان: ـ ، ت، ك.

(٢) البأساء، ومنه: +، ت، ك.

(٣) التداعي ونداء: وندا، ت، ك.

(٤) نصب: نصبت، ت، د.

نفسه، فقام بالأمر بالمعروف. واختلفوا في نسبه، فقيل: كان من قوم فرعون قبطيًا، عن الحسن. وقيل: ابن عم فرعون، عن السدي، ومقاتل. وقيل: كان آمن بموسى، وكتم[1] إيمانه خوفًا من فرعون، وهو الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، وقيل: بل[2] كان إسرائيليًا، وتقديره: وقال رجل مؤمن يكتم آل فرعون إيمانه، قال أبو مسلم: هذا خطأ، لا يقال: كتمت[3] حديثي من فلان، وإنما يقال: كتمت فلانًا، ولا يقال: من[4] آل فرعون مَنْ كان على دينه؛ لأن حقيقة (آل) يقع على ذي القرابة، كقوله: ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾ [الحجر: ٥٩] [والأحزاب]: المتحزبون[5] المتوافقون في الدين، كقولهم: آل فرعون. ثم يحتاج هذا التأويل إلى تقديم وتأخير.

واختلفوا في اسمه، فأكثر أهل العلم على أنه حِزْقِيل، عن ابن عباس وغيره. وقيل: خِوْبِيل، عن وهب. وقيل: حيول، عن ابن إسحاق. وقيل: حبيب. والأول أصح. «**أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّي اللَّهُ**» أي: لأجل أنه يقول في ذلك ويُوحّد[6] الله تقتلونه؟ وهذا استفهام والمراد الإنكار، يعني[7]: من قال هذا لا يستحق القتل لاسيما «**وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ**» أي: بالدلالة والمعجزات الدالة على صدقه فلا تقتلوه، «**وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ**» لا يضركم ذلك «**وَإِنْ يَكُ صَادِقًا**» فيما يوعدكم به «**يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ**» من العذاب، قيل: ذكر البعض وأراد الكل على طريق المظاهرات في الحجاج، قال الشاعر:

قَدْ يُدْرِكُ الْمُتَأَنِّي بَعْضَ حَاجَتِهِ ... وَقَدْ يَكُونُ مَعَ[8] الْمُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ[9]

---

(١) وكتم: يكتم، ت، ك.
(٢) بل: +، ت، ك.
(٣) كتمت: كتم، د.
(٤) من: ـ، ت، ك.
(٥) في د: النحاريين.
(٦) ويُوحّد: وتوحيد، د.
(٧) يعني: بمعنى، د.
(٨) مع: من، د.
(٩) البيت قائله: عمير بن شييم بن عمرو المعروف بـ «القطامي التغلبي». انظر: ديوان القطامي، طبعة ليدن، ١٩٠٢.

فذكر البعض وأراد الكل، وقيل: يصبكم بعض الذي يعدكم؛ لأنه يكفي ذلك لكم، وقيل: بعضه في الدنيا، وقيل: كان يتوعدهم أمورًا[(١)] مختلفة؛ لكونهم[(٢)] على أصناف من المعاصي، وقيل: ذكر البعض؛ لأنه ألطف كلام يتكلم به في مجالس الملوك «**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي**» قيل: إلى الجنة، وقيل: إلى خير. واختلفوا قيل: هو من كلام المؤمن، وقيل: بل من كلامه تعالى بعد تمام كلام المؤمن، عن أبي علي. «**مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ**» قيل: مجاوز للحد في العصيان، وقيل: مشرك، وقيل: قتال، عن السدي. «**كَذَّابٌ**» على الله تعالى، «**يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ**» غالبين على بني إسرائيل «**فِي الأَرْضِ**» قيل: أرض مصر «**فَمَنْ يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ**» من عذابه «**إِنْ جَاءَنَا**» قيل: راعى حرمتهم، وحفظ الأدب، فقال: لكم الملك، ثم قال في العذاب: إن جاءنا، أضاف الملك إليهم والعذاب إلى نفسه، وهذا من ألطف الكلام فـ«**قَالَ فِرْعَوْنُ**» في جوابه: «**مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى**» أي: ما أريكم من النصيحة إلا ما أرى ذلك بنفسي. وقيل: ما أعلمكم إلا ما أعلم، عن الضحاك؛ كقوله: ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ [النساء:١٠٥]، وقيل: ما أريكم من قبل موسى إلا الصواب، أي: الصواب الذي أريكم في قتله فيه الخلاص عن موسى «**وَمَا أَهْدِيكُمْ**» أدلكم «**إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ**» فأوهم[(٣)] أنه يدلهم على طريق خير «**وَقَالَ الَّذِي آمَنَ**» قيل: هو مؤمن آل فرعون؛ لأنه نسق الكلام، عن أكثر المفسرين، وهو الصحيح. وقيل: بل هو موسى؛ لأن الأول كان يكتم إيمانه، عن أبي علي، وليس بالظاهر؛ لأنه لا[(٤)] يجوز أن يذكر على وجه النصيحة، كقوله: ﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا﴾، ويجوز أنه أظهر الإيمان بعد ما كان يكتمه «**إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ**» قيل: لما رأى إصرار فرعون وقومه حذرهم أن ينزل بهم ما نزل[(٥)] بالأمم. والأحزاب: الجماعات، وأراد الأمم التي أهلكوا. وقيل: حذرهم

(١) أمورا: بأمور، ت.

(٢) لكونهم: لأنهم كانوا، ت.

(٣) فأوهم: فأبهم، د.

(٤) لا: +، ت، ك.

(٥) نزل: ينزل، ت، ك.

عذاب الآخرة. واليوم يطلق على النعمة والمحنة، كأنه قيل: يوم إهلاكهم[1] «**مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ**» قيل: مثل عادتهم، وقيل: مثل عادة الله فيهم «**وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ**» ممن أهلكوا بالعذاب «**وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ**» قيل: معناه: لو قتلتموه ظلمًا[2] ظلمتموه، والله لا يريد الظلم؛ بل يريد العدل والنَّصَفَة، وقيل: لا يريد أن يظلمهم، وإنما أهلكوا بذنوبهم.

«**وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ**» يعني: التنادي، وهو أن ينادي بعضهم بعضًا، وقيل: يوم ينادي بعض الظالمين بعضًا بالويل والثبور، فيقول: يا ويلنا ونحوه، وقيل: يوم ينادي أَصْحابُ الجَنَّةِ أَصْحابَ النَّارِ ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا﴾ [الأعراف: ٤٤] الآية، وينادي أصحاب النار أصحاب الجنة ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾، عن الحسن، وقتادة، وابن زيد. وقيل: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١]، وقيل: ينادي الملائكة بعقاب العصاة أن خذوهم، وهم يتولون مدبرين، وقيل: ينادي المؤمن: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩]، والكافر ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾[3] [الحاقة: ٢٥] وقيل: نادى باللعنة على الظالمين، وقيل: ينادون إلى المحشر، أي: يدعون، عن أبي مسلم. وقيل: ينادى عليهم بالسعادة والشقاوة. وقيل: الجميع مراد. «**يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ**» أي: تنصرفون عن موقف الحساب، وقيل: منصرفين إلى النار، عن الحسن، وقتادة. وقيل: فارين[4] غير معجزين، عن مجاهد[5]. «**مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ**» **حافظ** يحفظكم[6] من عذاب الله «**وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ**» قيل: من يهلكه فلا هادي له إلى طريق نجاته.

الأحكام

تدل الآيات على جواز كتمان الإيمان عند الخوف.

(١) إهلاكهم: هلاكهم، ت، ك.
(٢) ظلما: +، ت.
(٣) والكافر «يليتني لم أوت كتبيه»: +، ت، ك.
(٤) عن موقف... فارين: +، ت، ك.
(٥) في تفسير البيان: ٩/ ٧٥: وقال مجاهد: مارين غير موجودين ولا معجزين.
(٦) يحفظكم: يحفظ، د؛ يحفظه، ت.

وتدل على جواز الإظهار مع الخوف على النفس إذا كان فيه إعزاز الدين.

وتدل على أن القتل يَعْظُمُ بدرجة المقتول.

وتدل على وجوب النصح بطريقة الاستظهار.

وتدل على أنه لا يريد الظلم، وإذا لم يُرِدْ ولم[1] يخلقه، فيبطل قول المجبرة في المخلوق.

قوله تعالى:

وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾

۞ القراءة

قرأ ابن عامر، وأبو عمرو، وقتيبة عن الكسائي: (قَلْبٍ) منونًا (متكبِّرٍ) صفة القلب، [وباقون] (قَلْبِ) بغير تنوين على الإضافة، أضاف القلب إلى المتكبر، ويؤيد هذه[2] الأقوال: ما روي عن ابن مسعود: (عَلَى قَلْب كُلِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّار).

۞ اللغة

السَّرَفُ: مجاوزة الحد، وهو ضد القصد، والسَّرَفُ: الجهل، والسرف: الإغْفال[3]، يقال: أسرف فهو مسرف.

والارتياب: الشك، وأصله: الريب.

والمَقْتُ: أشد البغض.

---

(١) ولم: لم، ت، ك.

(٢) هذه: هذ، د.

(٣) الإغفال: الانجفال، ت، د، ك.

۞ الإعراب

«مقتًا» نصب على التميز.

۞ المعنى

ثم زاد في الوعظ، فقال سبحانه: «**وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ**» يعني: يوسف بن يعقوب «**مِنْ قَبْلُ**» أي: من قبل موسى، وقيل: من قبل المؤمن[١]. وقيل: يجوز أن يكون فيهم من عُمِّر حتى لقي موسى، وكان لقي يوسف. وقيل: أتى آباءكم، وقيل: كان فرعون موسى هو فرعون يوسف عُمِّر إلى زمن موسى، عن وهب. وقيل: هو غيره، عن أكثر أهل العلم. «**بِالْبَيِّنَاتِ**» بالحجج والمعجزات، قيل: شق القميص، ورؤيا الملك، وريح[٢] القميص، وصلاح بصر يعقوب، وإخباره أهل السجن بما يُفْعَلُ بهما[٣]، وبما يحمل إليهم «**فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ**» أي: مما دعاكم إليه من الدين «**حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً**» أي: لا يبعث الله[٤] رسولاً إلى[٥] دينه؛ بل يهمل الله الخلق عن الدعاء. وقيل: كانوا لا يقرون به، فلما هلك قالوا: كان يوسف رسولاً، ومات والله تعالى لا يبعث بعده رسولاً آخر. وقيل: قالوا تخلصنا منه، ولا يأتينا بعده رسول «**كَذَلِكَ**» الكاف للتشبيه، فتقتضي أمرًا تقدم من فعله حتى يشبه الآخر به، فقيل في ذلك: إنهم لما كذبوا الرسل خذلهم الله فضلوا، وتمادوا في الارتياب، كأنه يقول[٦]: هكذا يكون خذلان الله للكافرين حتى يزدادوا ضلالاً إلى ضلالهم، عن أبي مسلم. وإنما يفعل ذلك لأن في معلومه أنه ليس لهم لطف، ولو كان لَفَعَلَ بهم. فقيل[٧]: كذلك يعاقب الله[٨] كل كافر، ويضله عن طريق الجنة، عن أبي علي. وقد تقدم ذكر العقاب في قوله: ﴿يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ و﴿يَوْمَ

---

(١) المؤمن: المؤمنين، د.
(٢) ريح: +، ت، ك.
(٣) يفعل بهما: فعل المؤمنين، ت، د، ك.
(٤) الله: +، ك.
(٥) حتى إذا هلك... إلى: ـ، ت.
(٦) كأنه يقول: كما نقول، د.
(٧) وقيل: فقيل، ت، د، ك.
(٨) الله: +، ت، ك.

ٱلتَّنَادِ﴾، وفي قوله: «يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ» قيل: كافر، وأصله: مجاوزة الحد في العصيان «مُرْتَابٌ» يشك في دينه «الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّه» أي: يخاصمون في حججه «بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ» أي: بغير حجة أتتهم في ذلك من الله «كَبُرَ مَقْتًا» أي: ذلك الجدال كبر: عظم «عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا» يعني: أنه يبغض تعالى ذلك الفعل بغضًا شديدًا «كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ» أي: هكذا يعاقب، والطبع علامة في القلب يتميز به الكافر من المؤمن «عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ» عن عبادة الله «جَبَّارٍ» قيل: قَتَّال، وقيل: المتجبر الذي يأنف من قبول الحق والخضوع لله تعالى.

الأحكام

تدل الآيات على قبح الجدال بالباطل، وحسنه في الدين.

وتدل على أنه تعالى(١) يبغض الجدال بالباطل، فيبطل قول المجبرة: إنه يحبه ويريده.

وتدل على أنه تعالى جعل في قلب الكافر(٢) سمة وعلامة، ولا يقال: إنه يمنع من الإيمان؛ لأنه بمنزلة الجبر أنه لا يؤمن، ولأنه قادر على الإيمان، ولأنه جعل الطبع عقوبة على الكفر، فدل(٣) أنه غير الكفر.

قوله تعالى:

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾

---

(١) تعالى: ـ، ت.

(٢) قلب الكافر: قلوب الكفار، ت، ك.

(٣) فدل: دل، ت، ك.

القراءة

قرأ حفص عن عاصم: «**فَأَطَّلِعَ**» بفتح العين على جواب «**لعلي**» وهي[1] قراءة حميد الأعرج، وأنشد الفراء لبعض العرب:

عَـلَّ صُـرُوف الـدَّهْـرِ أَوْ دُولاَتِـهـا تُـدِيـلُـنـا[2] الـلَّـمَّـة مِـنْ لَـمَّـاتِـهَـا[3]

فَـتَـسْـتَـرِيـحَ الـنَّـفْـسُ مِـنْ زَفْـرَاتِـهَـا[4]

بنصب الحاء على جواب التمني.

وقرأ الباقون بالرفع عطفًا على قوله: «**أَبْلُغُ**».

وقرأ عاصم وحمزة والكسائي: «**وَصُدَّ**» بضم الصاد على أن فرعون صَرَفَ: بغير صِرْفَةٍ: نَفْسَهُ أو غيره. الباقون: (**صَدَّ**) بفتح الصاد على أنه منع الناس عن الإيمان.

فأما (**يدخلون**) بضم الياء وفتح الخاء، وفتح الياء وضم الخاء[5] قراءاتان[6]، وقد تقدم ذكرهما[7].

اللغة

الصرح: البناء الظاهر الذي لا يخفى على عين الناظر وإن بَعُدَ، وهو من التصريح بالأمر، وهو ظاهر بأتم[8] إظهار.

والسبب: كل ما يتوصل به إلى الشيء يَبْعُدُ عنك، وجمعه: أسباب، يقال: الطريق[9] سبب، والحبل سبب. والفرق بين السبب والعلة أن السبب يوجب

(١) وهي: وهو، ت، د، ك.
(٢) تديلنا: يزيلننا، ت، د، ك.
(٣) لمّاتها: تماتها، د؛ ماتها، ت، ك.
(٤) انظر: اللسان (لمم)؛ الصحاح (لمم).
(٥) وفتح الياء وضم الخاء: وضم الخاء وفتح الياء، ت، ك.
(٦) قراءاتان: من اتل، ت.
(٧) ذكرهما: ذكرها، ك.
(٨) بأتم: مأتم، ت.
(٩) يقال الطريق: الطريق، ت.

الذوات، كالضرب يوجب الألم، والكون يوجب التأليف، والعلة توجب الصفات كالحركة توجب كونه متحركًا، وغير ذلك مما قيل فيه.

والاطلاع: هو الظهور على الشيء برؤيته من إشراف إلى انحدار، وقيل: الاطلاع والبلوغ بمعنى، ومنه: الطليعة.

وصد: أعرض، وصد غيره: صرفه، واقع وغير واقع، يقال: صَدَّهُ يَصُدُّهُ صَدًّا، وأَصَدَّهُ يُصِدُّهُ إصدادًا من النظائر.

والتباب: الهلاك بالانقطاع، ومنه: تَبًّا لهم، وقوله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١] أي: خسر. من النظائر بانقطاع الرجاء، وأصله من الانقطاع، يقال: بَتَّ[١] الحاكم الحُكْمَ أي: قطعه، وطلقها بَتَّةً، أي: قاطعة، وبت الحبل: انقطع.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى ما موه به فرعون عند الانقطاع عن الحجة، فقال سبحانه: «**وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ**» قيل: هو وزيره وصاحب أمره، «**ابْنِ لِي صَرْحًا**» قيل: قصرًا عاليًا، وأَمْرُهُ بالصرح لا يخلو من وجهين:

أحدهما: أن يكون تمويهًا[٢] على العوام، وليس أنه يتمكن من صعود السموات فيه إلى إله موسى.

وثانيهما[٣]: أن يكون من جهله اعتقد أنه يقدر على بلوغ السماء، وفيه على كل حال أنواع من الجهل:

منها: أن أحدًا من البشر لا يقدر على أن ينبني بناء يبلغ[٤] السماء ويصعد.

والثاني: توهمه أن الإله يكون في السماء.

(١) بتَّ: تبَّ، ت، د.
(٢) تمويها: مموهًا، ت.
(٣) وثانيهما: وثانيها، ت.
(٤) لا يقدر على أن ينبني بناء يبلغ: لا يقدر على بلوغ، د.

والثالث: إيهامه العوام أن ما أتى به موسى لا يدل على صدقه، وأن صدقه يعرف بخبر من السماء. وأقرب الوجوه أنه كان يموه[1]، وإلا فلا يخفى عليه حاله.

قال الحسن: إنما قال ذلك تمويهًا وكذبًا، وهو يعلم أن له إلهًا.

«**لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ**» قيل: منازل السماوات، عن ابن عباس. وقيل: طرقها، عن السدي. وقيل: أبوابها، عن قتادة. «**فَأَطَّلِعَ إِلى إِلَهِ مُوسَى**» أي: أنظر إليه فأراه، وقيل: لأصعد إليه، والاطلاع: الصعود، عن أبي علي. «**وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا**» يعني: أظن موسى يكذب فيما يقوله أن له إلهًا غيري أرسله إلينا «**وَكَذَلِكَ**» أي: هكذا «**زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ**» قيل: زينت[2] له نفسه سوء عمله فرآه حسنًا، وقيل: زينه قومه وأشياعه؛ لأنهم يصورون للخلق الباطل بصورة الحق[3]، وقيل: شياطين الإنس والجن. ولا يقال: الله زينه له؛ لأنه لو زينه لَمَا ذمَّه عليه. «**وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ**» أي: منع عن طريق الحق ومنع هو غيره[4] على معنى القراءتين. «**وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ**» أي: مكره وحيله وتدابيره «**إِلاَّ فِي تَبَابٍ**» أي: في خسران، عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. وقيل: في ضلال، وقيل: في هلاك، يعني: وباله عاد إليه.

«**وَقَالَ الَّذِي آمَنَ**» يعني: مؤمن آل فرعون، عن الحسن وجماعة. وقيل: هو موسى، عن أبي علي. «**يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِي أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ**» طريق الحق، وقيل: طريق الثواب «**يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ**» أي: يتمتع به كل أحد مدة ثم ينقطع «**وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ**» قيل: استقرت الجنة بأهلها، والنار بأهلها، عن قتادة. والقرار: المحل الذي يستقر فيه الإنسان. «**مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا**» أي: من عمل معصية فإنه لا يعاقب إلا بمقدار ما يستحق عليها «**وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ**» أي[5]: بزيادة فعل؛ إذ لو كان بِقَدْرِهِ لكان يحاسبه.

---

(١) يموه: مموهًا، ت.

(٢) زينت: زين، ت، د، ك.

(٣) الحق: الحسن، ت.

(٤) ومنع هو غيره: ومعه غيره على، ت.

(٥) ما بين المعكوفين زيادة من ت، ك.

الأحكام

يدل أمره بالصرح أنه ظن أن إله موسى جسم في مكان، وذلك كُفْرٌ مضمومٌ إلى كفره.
ويدل قوله: «أهدكم» أن الهدى ليس هو نفس الإيمان، وإنما هو الدلالة والبيان.
وتدل على[1] أن العلماء[2] المسلمين هداة إلى الحق، كمؤمن آل فرعون.
وتدل الآية أن كل أحد يُجازَى بما يستحق بعمله.
وتدل على أن فعل العبد حادث من جهته.
وتدل أن الدنيا دار زوال، والآخرة دار قرار، فينبغي للعاقل أن يختار ما يبقى على ما يفنى.

قوله تعالى:

﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ۝٤١ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ۝٤٢ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٤٣ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ۝٤٤ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ۝٤٥ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ۝٤٦﴾

القراءة

قرأ أبو جعفر، ونافع، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، ويعقوب: «أدخلوا» بقطع الألف وكسر الخاء من الإدخال، أي: يقال للملائكة: أدخلوهم النار. الباقون: بضم الألف والخاء عند الابتداء، وعند الوصل بوصل الألف من الدخول، أي: يقال لهم: ادْخُلُوا.

---

(١) على: ـ، ت.
(٢) العلماء: علماء، د.

۞ اللغة

لا جرم: قيل: معناه: حق ووجب، ولا رد لكذبهم، وقيل: جرم: كسب، يقال: جرم وأجرم واجترم: إذا كسب الذنب، ومنه قوله: ﴿فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾ [هود: ٣٥] ويقال: جرم ولا جرم بمنزلة قولك: لا بد، ولا محالة، وأصل الجَرْمِ: القطع، وهذا زمن الجِرَام، أي: جِرَام النخل.

وفوض أمره إليه: أي رده، ومنه: شركة المفاوضة، كأنه[١] فوض كل واحد منهم إلى صاحبه التصرف[٢] على العموم.

ويقال: حاق به الأمر يحيق: إذا لزمه ووجب عليه، وقال الأزهري: الحيق في اللغة: ما يشتمل على الإنسان من مكروه فعله.

۞ الإعراب

نصبت (جرم) لأنك نفيته.

والفاء في قوله: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ جواب الشرط، أي: لما قام بالحق وقاه الله من مكرهم.

﴿ٱلنَّارُ﴾ رفع؛ لأنه بدل من سوء.

۞ المعنى

ثم زاد في توبيخهم ووعظهم، فقال سبحانه حاكيًا[٣] عن المؤمن: «**وَيَا قَوْمِ ما لِي أَدْعُوكُم إِلى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلى النَّارِ**» أي: أدعوكم إلى الإيمان الذي هو سبب النجاة، وتدعونني إلى الكفر الذي هو سبب النار واستحقاقها.

ثم فسره فقال: «**تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ**» يعني: لا

(١) كأنه: كأنه كأنه، ت.

(٢) منهم إلى صاحبه التصرف: منهم التصرف إلى صاحبه، د.

(٣) حاكياً: حاكيًا حاكيًا، ك.

أعلم لله شريكًا؛ لأن الدليل دلَّ[1] على أنه لا شريك له، وأنتم تدعونني إليه «**وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ**[2]» أي: إلى[3] عبادة الله، ومعرفته وتوحيده[4]، وهو العزيز، أي: القادر على ما يشاء، «**الْغَفَّار**» لذنوب عباده، وإنما ذكر هاتين الصفتين وعدًا ووعيدًا، أي: إن آمنتم غفر لكم، وإن كفرتم أخذكم «**لاَ جَرَمَ**» قيل: معناه: حقّاً مقطوعًا من[5] الجرم، وهو القطع، وقيل: هو رد الكلام، كأنه قيل: لا محالة أن لهم النار، وقيل: لا ثبات لِمَا تدعون «**أَنَّمَا تَدْعُونَنِي [إِلَيْهِ]**» إلى عبادته وهو الأصنام «**لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلاَ فِي الآخِرَةِ**» فتقديره: ليست له إجابة دعوة في الدنيا ولا في الآخرة[6]، عن السدي. وقيل: ليس له دعوة ينتفع بها. وقيل: ليس له دعوة مستجابة، عن قتادة. وقيل: ليس له دعوة في الدنيا لعبادته؛ لأن الأصنام لا تدعو إلى عبادتها، ولا في الآخرة؛ لأنها تتبرأ[7] من عبادتها، وقيل: معناه: لا تدعى لكشف بلية ولا لجلب منفعة؛ لأنها لا تنفع ولا تضر، ومن دعاه فقد أخطأ[8]. قيل: لا دعوة له في الدنيا من حيث الحجة، ولا في الآخرة من حيث الفوز. وقيل: ليس له منفعة في الدنيا يدعى لأجلها، ولا شفاعة في الآخرة. وقيل: ليس له دعوة الإلهية. وقيل: لا تُقَدِّمُ دعوته فلا[9] تجب عبادته، بل هو شيء يطرح «**وَأَنَّ مَرَدَّنَا**» مصيرنا «**إِلَى اللَّهِ**» إلى حكمه «**وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ**» قيل: بقتل النفس بغير حقها، عن مجاهد. وقيل: بالشرك، عن ابن عباس، وقتادة. وقيل: المسرف: الجبار المتكبر، عن عكرمة. «**هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ**» أي: الدائمون فيها، الملازمون لها معذبين.

ثم عاد إلى الوعظ، فقال: «**فَسَتَذْكُرُونَ ما أَقُولُ لَكُمْ**» أي: ستذكرون أيها الكفار

(١) دل: ـ، ك؛ قائم، ت.
(٢) العزيز: العزيز الغفار، د.
(٣) إلى: +، ت.
(٤) ومعرفته وتوجيده: ومعرفة توحيده، د.
(٥) من: في، ت، ك.
(٦) في الدنيا ولا في الآخرة: ـ ، ت، ك.
(٧) تتبرأ: تبرأ، ت، ك.
(٨) ومن دعاه فقد أخطأ: ومن فقد دعاه فقد أخطأ، د.
(٩) ولا: فلا، د.

هذه العظات، وما قدمته من النصح يوم القيامة، يوم لا ينفع الذكر، وقيل: إذا أتاكم عذاب الله بالغرق، وقيل: عند النزع تذكرون، وقيل: إذا لم تقبلوا نصحي، فستذكرونه على وجه التحسّر والتندّم. «**وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ**» قيل: هو كلام موسى، وقيل: كلام مؤمن آل فرعون، وهو الصحيح، ومعناه: أَكِلُ أمري إلى الله، وأعتمد على لطفه ورحمته «**إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ**» أي: عالم بحالهم، يجازي كل أحد بما يستحقه، فهو على هذا وعيد، وقيل: يعلم أني محق فيما أَدعي، فهو على هذا إخبار[1] على أن ما يقوله حق. «**فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ ما مَكَرُوا**» أي: منعه الله عن سوء ما دبروا في بابه[2]، وحفظه منهم، وقيل: هموا بقتله، عن الحسن. والضمير في قوله: «**فَوَقَاهُ**» قيل: يعود على موسى، عن أبي علي. وقيل: على مؤمن آل فرعون، عن أكثر المفسرين. وقيل: نجا هو مع موسى، وكان قبطيًّا، عن قتادة، ولم ينج من قوم فرعون غيره، وقيل: هموا بأخذه وصلبه، فهرب إلى جبل، فبعث فرعون رجلين في طلبه، فوجدوه قائمًا يصلي وحوله الوحوش صفوف فخافا[3] ورجعا هاربين. وقيل: مكرهم ما تقدم ذكره عن قوم فرعون، وهو قوله: ﴿ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾. «**وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ**» قيل: حاق: نزل ووقع، وقيل: وجب: وآله[4]: أتباعه، وقيل: مَنْ كان على دينه، عن الحسن. وذكر آله[5] ولم يذكره؛ لأنهم أُهْلِكوا بسببه فكيف به؟ «**سُوءُ الْعَذَابِ**» في الدنيا: الغرق، وفي الآخرة: النار «**النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا**» أي[6]: آل فرعون[7] «**غُدُوًّا وَعَشِيًّا**» وقيل: تعرض عليهم منازلهم من النار صباحًا ومساء، ويقال لهم: هذه منازلكم توبيخًا، فيتحسرون. ويقال: عرض النار كناية عن العذاب، أي: يعذبون صباحًا ومساء إلى يوم القيامة، ثم يدخلون نار جهنم، وهذا هو الوجه. وقيل: قوله: «**غُدُوًّا وَعَشِيًّا**» عبارة عن الدوام، وهو أوجه. وقيل: يجوز أن يخصوا[8]

(١) إخبار: استفهام، د، ت.
(٢) بابه: ثيابه، ت.
(٣) فخافا: فجاوا، د.
(٤) وآله، آله، د.
(٥) آله: الله، ت.
(٦) أي: على، ت.
(٧) آل فرعون: ـ، د.
(٨) يخصوا: بحصول، ت.

بالعذاب في هذين الوقتين. وقيل: لما هلكوا جعلت أرواحهم في أجواف طير سود[١]، تعرض على النار غدوًّا وعشيًّا، عن السدي. وهذا لا يصح؛ لأن الروح جماد لا يعذب، وإنما المعذب المكلف هو الشخص، فلا بد أن يعيد الله حياتهم، ثم يعذبون. «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا» أي: يقال: أدخلوا بـ«آلَ فِرْعَوْنَ» قيل: كانوا ستمائة ألف، عن[٢] مقاتل. «أَشَدَّ الْعَذَابِ» عذاب جهنم.

الأحكام

تدل الآيات أن التوحيد والإيمان سبب النجاة، والكفر سبب الهلاك.

وتدل على أن الواجب على الناصح إذا خولف أن يفوض أمره إلى الله.

وتدل أن القوم هموا بذلك الناصح، وأن الله وقاه شرهم.

وتدل على عذاب القبر، عن محمد بن كعب، وعكرمة.

وتدل أن عذاب الدنيا أخف من عذاب الآخرة.

قوله تعالى:

﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾

---

(١) سود: أسود، ت.

(٢) عن: ـ، ت، ك.

۞ القراءة

قرأ أبو جعفر وابن كثير وابن عامر ويعقوب: «لَا تَنْفَعُ» بالتاء لتأنيث المعذرة، وقرأ الباقون بالياء، كأنه أراد الاعتذار.

قراءة العامة: «إِنَّا كُلٌّ» بالضم رفع (كل)؛ لأنه خبر (إن)، وقرأ ابن السميقع: (كُلاًّ) بالفتح جعلها تأكيدًا.

۞ اللغة

التَّبَعُ: يصلح أن يكون مصدرًا، يقال: تَبِعَ تَبَعًا، ويجوز أن يكون جمعًا، واحده: تابع، نحو: خادم وخَدَم، وقيل: هو واحد، وجمعه: أتباع.

والخزنة: جمع خازن، نحو: ظالم، وظَلَمَة.

والأشهاد: جَمْعٌ واحده: شهيد، كشريك وأشراك[1]، وقيل: جمع شاهد، كصاحب وأصحاب، وهو الذي يشهد بالحق لأهله، وعلى المبطل ببطلانه.

۞ المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى ما يجري بين أهل النار، فقال سبحانه: «وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ» أي: يتخاصمون «فَيَقُولُ[2] الضُّعَفَاءُ» الأتباع «لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا» يعني: الرؤساء والمتبوعين الذين تكبروا وأنفوا عن قبول الحق «إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا» أي: تابعين لكم في الدنيا، مطيعين فيما تأمروننا به «فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا» أي: تكفون عنا، من الغِنَى الذي هو الكفاية، «نَصِيبًا [مِنَ النَّارِ]» أي: قدرًا[3] من العذاب، وإنما قالوه[4] على وجه النياحة والاستراحة، وإلا فهم يعلمون أنه لا يكون. وقيل: قالوه تحسّرًا وغمًا وتهجينًا لرؤسائهم، فأجابوهم «قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا[5]» أي: نحن وأنتم فيها سواء،

(١) كشريك وأشراك: كسويد وأسواد، ت، د، ك.
(٢) فيقول: فقال، ت، د، ك.
(٣) قدرًا: ـ ، ت.
(٤) قالوه: قالو، ت، د، ك.
(٥) فيها: ـ ، ت، ك.

فلو أمكننا أن نكفيكم لكفينا أنفسنا، فلا منجى لأحد «إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ» فأنزل بكل[1] أحد ما يستحقه، وهو العدل فيما يقضي، فإذا سمعوا ذلك أقبلوا على الخزنة «وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ» وهم الملائكة «ادْعُوا رَبَّكُمْ» أي: كونوا شفعاء لنا عند الله «يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ» وقد علموا أنه لا يكون، وإنما قالوه تحسرًا من شدة العذاب، فتجيبهم الخزنة، وقيل: لا يجيبونهم إلا بعد ألف سنة، ثم يقولون: «أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ» بالحجج على التوحيد والعدل، ومُكِّنْتُم مِنْ قبولها فلم تقبلوا؟ وهذا استفهام والمراد به التقرير «قَالُوا فَادْعُوا» قيل: يقولون: الشفاعة فيكم غير مقبولة[2] فادعوا أنتم، فدعاؤنا ودعاؤكم واحد في أنه لا يجاب، وقيل: قالوها استخفافًا بهم، وقيل: معناه فادعوا بالويل والثبور، فالدعاء فيكم غير مجاب «وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلَالٍ» أي: هلاك؛ لأنه يزيدهم يأسًا وقنوطًا «إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» قيل: ننصرهم بوجوه النصر، فمنها النصر بالحُجَّةِ، ومنها النصر بالغلبة في الحروب، ومنها النصر بالألطاف والتأييد وتقوية القلب[3]، ومنها النصر بالإهلاك للعدو وتعذيبهم، ومنها النصر بإلقاء الرعب في قلوب الأعداء، كما قال ﷺ: «نصرت بالرعب». قيل: أراد بالرسل جميع الأنبياء[4]؛ لأنه وإن قُتِلَ بعضهم فكلهم منصورون بوجوه من النصر، وقيل: أراد محمدًا ﷺ، وقيل: أراد أنهم يفلحون[5]، فخصهم في الدنيا وفي[6] الآخرة، عن أبي العالية. «وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ» قيل: الملائكة والنبيون والمؤمنون، عن قتادة. أي: يشهدون على الخلق، واليوم يوم القيامة «يَوْمَ لاَ يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ» قيل: معاذيرهم؛ لأنها جميعها ليست[7] بعذر، وهو قولهم: أُمِرْنا به، وكنا تبعًا، وقيل: لأنهم يعتذرون بالباطل، كقولهم: ﴿رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] يعني: عند أنفسنا

---

(١) بكل: لكل، ك.
(٢) مقبولة: مسموعة، ت، ك.
(٣) القلب: الغلبة، د، ك.
(٤) الأنبياء: الرسل، ت، ك.
(٥) أنهم يفلحون: أنه يفلح، ت، د، ك.
(٦) في: +، ت.
(٧) لأنها جميعها ليست: لأنه جميعها ليس، د، ت، ك.

«وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ» أي: البعد من رحمة الله، ومعناه: عليهم، فأقام اللام مقام على[1] «وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ» شر منقلب، وهو الجحيم، واللام للاستحقاق.

ومتى قيل: فما الجامع بين هذه الآية، وبين قوله: ﴿وَلَا[2] يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦]؟

قلنا: قوله: ﴿لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ[3] مَعْذِرَتُهُمْ﴾ لا يدل على أنهم يعتذرون، فيحتمل أنه أراد لو اعتذروا لما نفعهم. وقيل: يستروحون إلى ذلك[4]، فيدعون كما يدعون بالويل والثبور. وقيل: ثَمَّ مقامات: يعتذرون في بعض، ولا يؤذن لهم في ذلك[5] في بعض.

الأحكام

تدل الآيات على تخاصم أهل النار، وعلى اعترافهم بذنوبهم، ومجيء الرسل، وإزاحة العلل، ولو كان خَلَقَ فيهم الكفر ومنعهم من الإيمان لم يكن لذلك الكلام معنى.

وتدل على أنه ينصر رسله، فيبطل قول المجبرة أنه ينصر الكفار.

وتدل أن في الآخرة شهداء، وفائدته علم الجميع بأنه أوصل إلى كل أحد ما يستحقه، وفي الخبر عنه لطف لنا.

وتدل على أن الظالم من أهل النار.

وتدل على أنه لا تقبل المعاذير؛ لأنه ليس بدار تكليف.

وتدل على أن الظلم فعل العبد.

---

(١) على: عليهم، د، ت، ك.

(٢) ولا: فلا، ت.

(٣) لا ينفع الظالمين: لا تنفعُهم، ت، د.

(٤) ذلك: تلك، د.

(٥) في ذلك: ـ ، ت.

قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى
ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ
وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى
صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾
لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا
ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا
يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى
سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾

القراءة

قرأ عاصم وحمزة والكسائي: «**تتذكرون**» بالتاء على الخطاب، الباقون بالياء[1].

وقرأ أبو جعفر وابن كثير ويعقوب وعاصم في بعض الروايات عنه: «**سَيُدْخَلُون**» بضم الياء وفتح الخاء، على ما لم يسم فاعله من الإدخال، وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الخاء من الدخول، أضاف الدخول إليهم.

اللغة

الداخر: الصاغر الذليل، دَخَرَ الرجل وهو داخر: إذا ذل، وأَدْخَرَهُ غيره: أَذَلَّهُ.

الإعراب

«**داخرين**» نصب على الحال.

(١) بالياء: ـ، ت.

۞ النزول

قيل: نزل قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ في اليهود، وكانوا يجادلون في القرآن حسدًا، عن ابن عباس.

وقيل: كانوا[1] يقولون: صاحبنا المسيح ـ يعني الدجال ـ يخرج في آخر الزمان، فيبلغ سلطانه البر والبحر، ويرد[2] الملك إلينا، وتسير معه الأنهار، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية.

۞ المعنى

لما[3] تقدم نصرة الرسل بين تفصيل ذلك، فقال سبحانه: «**وَلَقَدْ آتَيْنَا**» أعطينا[4] «**مُوسَى الْهُدَى**» يعني: الحجج والبينات «**وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ**» أي: التوراة «**هُدًى**» أي: دلالة، يعرفون بها معالم دينهم «**وَذِكْرَى**» مواعظ، وقيل: يذكرهم شرائع دينهم «**لأُولِي الأَلْبَابِ**» قيل: لمن يستعمل عقله ويتفكر، وقيل: للعلماء، وقيل: للعقلاء المكلفين.

ثم عاد الخطاب إلى النبي ﷺ فقال: «**فَاصْبِرْ**» يا محمد فإنا ننصرك كما نصرنا موسى وإن آذاك[5] قومك. وقيل: الخطاب للمؤمن. كأنه قيل: اصبر أيها السامع. وقيل: إنه خطاب لموسى على نسق الكلام «**إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ**» أي: وعده لأوليائه بالنصر في الدنيا، والجنة في الآخرة، وقيل: وعده بإهلاك أعدائه وإظهار دينه «**وَاسْتَغْفِرْ**[6] **لِذَنْبِكَ**» قيل: صغيرة تقدمت منك، ولعظيم نعمه على الأنبياء كلفوا التوبة من الصغائر [فهي] تجب كلما ذكرها وإلا كان مُصِرًّا، عن أبي علي. وقيل: ذنبه أنه

---

(١) كانوا: وكانوا، ت.
(٢) ويرد، ورد، د، ك.
(٣) لما: ولما، ت، ك.
(٤) أعطينا: +، ت، ك.
(٥) آذاك: آذوك، ت.
(٦) واستغفره: فاستغفر، ت، ك.

حدث نفسه أن الظفر كان يفوته. وقيل: استعجل[1] النصر قبل وقته. «**وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ**» أي: نزهه بإضافة النعم إليه، وحسن الثناء عليه، ونفي التشبيه عنه، وتنزيهه عن الأفعال القبيحة، وقيل: نزه صفاته عن صفات المحدثين، وأفعاله عن صفات الظالمين. وقيل: صَلِّ بحمد ربك «**بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ**» من زوال الشمس إلى الليل، ومن طلوع الفجر إلى طلوع الشمس. وقيل: هي كناية عن الصلوات[2] الخمس، وقيل: بل هو كناية عن الدوام، وقيل: خص هذين الوقتين لأن العبد أقرب إلى أن يتفرغ للعبادة، وقيل: أراد صلاة الغداة والعصر. «**إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ**» قيل: جادلوا في إنكار البعث، وقيل: في نبوته، وقيل: في التوحيد، وقيل: هم اليهود، وقيل: المشركون «**بِغَيْرِ سُلْطَانٍ**» حجة «**أَتَاهُمْ**» من جهة الله «**إِنْ فِي صُدُورِهِمْ**» أي: ما في قلوبهم، فكنى بالصدر عن القلب؛ لأنه موضعه، كما يقال: صدر للموضع[3] الشريف. «**إِلاَّ كِبْرٌ**» أي: يتكبرون عن قبول الحق، واتباع الرسل حسدًا وبغيًا «ما هم ببالغيه» قيل: في صدروهم عظمة ما هم ببالغيها؛ لأنهم يصيرون إلى الذل والهوان، عن مجاهد. وقيل: في قلوبهم كِبْرٌ لحسدك على النبوة التي أكرمك الله بها **مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ**؛ لأنه تعالى يرفع به من يشاء. وقيل: يريدون لك أمرًا كبيرًا من السوء ولا يبلغونه لدفاع الله عنك. وقيل: آمالاً كانوا يتمنونها نحو هجوم عساكر تغلب على الإسلام، وما هم ببالغيه؛ لأنه تعالى تكفل بنصره «**فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ**» أي: اعتصم به ليكفيك شرهم «**إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ**[4]» لأقوال هؤلاء الذين جادلوا بالباطل، البصير[5] بضمائرهم «**لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ**» يعني: خلق السموات والأرض أعجب وأعظم من البعث، فإذ قدر على خلقهما وتسكينهما، وتعاقب الليل

---

(١) استعجل: استعمل، ت، د.

(٢) الصلوات: الصلاة، د، ت، ك.

(٣) للموضع: الموضع، د.

(٤) السميع: السميع العليم، ت، ك.

(٥) البصير: العليم، د، ت، ك.

والنهار فيهما، وتسيير النجوم ونحوها، فهو يقدر على إعادتهم. وقيل: أراد كيف تنكرون البعث مع إقراركم أنه خلق السموات والأرض، وهو أكبر وأعجب «**وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ**[1] **لاَ يَعْلَمُونَ**» يعني: الكفار، وقيل: أكثر مِنْ خَلْقِ الدجال، ولكن اليهود الذين يجادلون في أمره لا يعلمون. «**وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ**» أي: لا يستوي من أهمل نفسه فهو كالأعمى لا يبصر شيئًا، ومن يتفكر فيعرف الحق، وكذلك لا يستوي «**الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلاَ الْمُسِيءُ**» بعمل المعاصي «**قَلِيلاً مَا يَتَذَكَّرُونَ**» أي: قَلَّ تفكرهم في العواقب «**إِنَّ السَّاعَةَ**» أي: القيامة «**لآتِيَةٌ**[2] **لاَ رَيْبَ فِيهَا**» أي: لا شك في مجيئها «**وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ**» أي: لا يصدقون بها «**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**» يعني: انصرفوا عن الأوثان التي لا تسمع ولا تنفع، ولا تجيب لكم، يعني: اعبدوني وحدي. وقيل: المراد به: الذِّكْرُ والدعاء، والأول أحسن. «**إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي**» قيل: توحيدي وطاعتي. وقيل: من دعائي، عن السدي. والأول قول أكثر المفسرين. «**سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ**» صاغرين أذلاء.

۞ الأحكام

يدل قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ على قبح الجدال بالباطل، وأما الجدال بالحق لنصرة الدين فمحمود.

ويدل قوله: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على صحة الحجاج في الدين.

وتدل على أن المعارف مكتسبة؛ لذلك قال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ[3] لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وتدل على وجوب الدعاء والانقطاع إليه؛ لذلك قال: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[4].

(١) أكثر الناس: أكثرهم ت، ك.

(٢) لآتية: آتية، ت، ك.

(٣) أكثر الناس: أكثرهم، ت، ك.

(٤) أستجب لكم: +، ت.

وتدل على أنه يضمن الإجابة.

ومتى قيل: نحن نرى كثيرًا من الأدعية لا تستجاب؟

قلنا: إنما يستجيبه لعبده[1] المؤمن؛ لأنه يجري مجرى الثواب، ويتقدم ويتأخر بحسب المصلحة، ولا بد في الدعاء أن يكون مشروطًا بالصلاح.

ومتى قيل: إذا كان الصلاح في فعله لا بد أن يفعله، فما معنى الدعاء؟

قلنا: ربما يكون الصلاح في فعله إذا تقدم الدعاء، فلولا الدعاء لما كان صلاحًا.

ومتى قيل: لِمَ وجب الدعاء حتى ذم على تركه؟

قلنا: لما[2] فيه من الإخلاص، والانقطاع إليه، والاعتراف بأن النعم منه، وأن الجاحد بذلك لا يرجع إليه.

ومتى قلنا: إن المراد بالدعاء العبادة فلا كلام، والإخلاص[3] هو قول أكثر المفسرين.

قوله تعالى:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى
ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ
لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ
ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم
مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ
إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾

---

(١) لعبده: من عبده، ت؛ بوعده، ك.

(٢) لما: لأن، د.

(٣) العبادة فلا كلام، والإخلاص: العبادة والإخلاص، د.

۞ القراءة

قراءة العامة: «صُوَرَكُمْ» بضم الصاد، وعن ابن رزين العقيلي بكسر الصاد، وهما لغتان.

۞ اللغة

الصُّوَرُ: جمع صورة.

وتبارك: تفاعل من البركة وهو الزيادة، ومعناه: الحياة والبقاء.

۞ المعنى

لما تقدم الدعاء إلى عبادته وتوحيده عقبه بذكر أدلة التوحيد، فقال سبحانه: «**اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ**» يعني: أراد بخلق الليل أن يكون محلاً لسكونكم[1]، فتسكن فيه كل الحيوانات، وتستريحون من الكد والتعب «**وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا**» أي: خلق النهار مضيئًا تبصرون فيه مصالح دنياكم «**إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ**» بهذه النعم عليكم من غير استحقاق ولا تقدم طالب، ومع هذا فإن أكثر الناس لا يشكرون؛ لجهلهم[2] بالنعم والمنعم[3] يعني: مَنْ أَنْعَمَ عليكم بهذه النعم «**اللَّهُ**[4] **رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ**» أي: لا يستحق العبادة غيره «**فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ**» قيل: كيف تصرفون عن هذه الأدلة مع وضوحها[5]؟ وقيل: كيف تصرفون عن عبادته مع هذه النعم التي أنعم عليكم بها؟ «**كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ**» قيل: كما صرف هؤلاء عن الحق، كذلك صرف مَنْ تَقَدَّمَ من الكفار، صرفهم أكابرهم ورؤساؤهم[6]. وقيل: كما صُرِفَ هؤلاء بِشُبْهَةٍ، كذلك يصرف مَنْ قَبْلَهُمْ بِتُرَّهاتٍ، كَشُبَهِ النصارى واليهود. وقيل: كما صرف هؤلاء عن طريق الحق، كذلك يصرفون

(١) لسكونكم: لسكونهم، ت.

(٢) لجهلهم: لجهله، ت، ك.

(٣) بالنعم والمنعم: بالتعرف بالمنعم، ت، ك.

(٤) الله: +، ت، ك.

(٥) وضوحها: وجوبها، ت.

(٦) أكابرهم ورؤساؤهم: الأكابر وهم رؤساؤهم، ت، ك.

عن الثواب وطريق الجنة جزاء على إفكهم. وقيل: يؤفك: يهلك، أي: كذلك يهلك من كان قبلهم «بِآيَاتِ اللَّهِ» حججه[1] يتكبرون.

ثم زاد في الأدلة، فقال سبحانه: «اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا» أي: مستقرًا تستقرون عليه، فخلق فيها[2] السكون، ولولا ذلك لهوت[3] «وَالسَّمَاءَ بِنَاءً» بناها كالسقف للأرض «وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ»؛ لأن صورة الإنسان أحسن الصور «وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ» فجعل كل طيب لذيذ رزقًا للناس، وما ينفر عنها طباعهم رزقًا للحيوانات، كالورق والحشيش ونحوه «ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ» أي: خالق هذه الأشياء هو خالقكم «فَتَبَارَكَ اللَّهُ» أي: جل بأنه الثابت الدائم لم يزل، ولا يزال «رَبُّ الْعَالَمِينَ، هُوَ الْحَيُّ» إنما تمدح به؛ لأنه الحي لم يزل، ولا يزال من غير حياة ولا فاعل، ولا ما يتعدى به، ولا بنية «لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ» أي: اعبدوه «مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ» أي: تخلصون له العبادة «الْحَمْدُ لِلَّهِ» أي: احمدوه[4] على هذه النعم، قال الفراء: إنما[5] هو خبر، وفيه إضمار، كأنه قيل: ادعوه واحمدوه، وقولوا «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ[6]». وعن مجاهد، عن ابن عباس: (من قال لا إله إلا الله، فليقل على إثرها: الحمد لله رب العالمين، فذلك قوله: «فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ».

۞ الأحكام

تدل الآيات على أنه الخالق لهذه الأشياء، ولا يقدر عليها غيره.

وتدل أنه خلقها لمنافع العباد بها دينًا ودنيا، أما منافع الدنيا فظاهرة، وأما منافع الدين فمتى تفكروا فيها علموا أن لها صانعًا يستحق العبادة، فيدعوهم ذلك إلى عبادته وشكر نعمته.

---

(١) حججه: +، ت، ك.
(٢) فيها: فيه، ت، د، ك.
(٣) لهوت: لهوى، ت، د، ك.
(٤) أحمدوه: احمده، د.
(٥) إنما: +، ت.
(٦) رب العالمين: ـ، ت، ك.

ويدل قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أنه منعم على الكفار، خلاف قول أهل الجبر.

قوله تعالى:

﴿۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُۖ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾

۞ القراءة

قراءة العامة: و«السَّلاسِلُ» بالرفع عطفًا على الأغلال، و«يُسْحَبُون» بضم الياء يعني: أهل النار يسحبون. وعن ابن عباس: «السلاسِلَ» بفتح اللام، «يَسْحَبُونَ» بفتح الياء، يعني: هم يسحبون السلاسل، فيكون أشد عليهم.

۞ اللغة

الأَشُدُّ[1]: حال استكمال القوة، وهو جمع شدة، يقال: شِدَّةٌ وأَشُدٌّ كنعمة وأَنْعُمٍ.

والعلقة: القطعة من الدم.

والأجل: الوقت.

والأغلال: جمع غُلٍّ، وهو طوق يدخل في العنق للإذلال[2] والتعذيب.

---

(١) الأَشُدُّ: الأشيد، ت.

(٢) للإذلال: والإذلال، ت.

والسلاسل: جمع سلسلة، وهو حلق منتظمة في جهة الطول مستمرة.

والسحب: الجرّ، سُحِبَ سَحْبًا.

والسَّجْرُ: إلقاء الحطب في معظم النار.

النزول

قيل: نزل قوله: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ﴾ في مشركي مكة، لما دعوه إلى موافقتهم.

فأما قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾ بالباطل، عن ابن سيرين، وجماعة، ومجادلتهم بالباطل قولهم: الله الذي خلق الكفر في الكفار، وخلق فيه القدرة الموجبة، وأراد منه الكفر، ولم يرد منه[١] الإيمان[٢]، ولا خلقه، ولا أقدره عليه، فمع هذا كيف يؤمن؟! فكذب الرسل؛ لأنهم دعوهم[٣] إلى الإيمان، وأتوا بخلاف ما هم عليه.

لمعنى

ثم نهى عن عبادة غيره، فقال سبحانه: «قُلْ» يا محمد: «إِنِّي نُهِيتُ» أي: نهاني الله، وإنما جاء بلفظ المجهول تفخيمًا «أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ» أي: تدعونه إلهًا وتعبدونه، وهي الأوثان «لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي» يعني: أعطاني الحجج «وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ» قيل: أنقاد له، وقيل: أُخْلِصُ العبادة له، وقيل: أُسْلِمُ أموري كلها إليه.

ثم دعا إلى ذكر الأدلة المتضمنة للنعم، فقال سبحانه: «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ» يعني: آدم، وهو أبو[٤] الجميع خلقه من تراب، فأحال التراب لحمًا ودمًا وعظمًا وعصبًا، فَصَوَّرَ منه شخصًا سويًا، «ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ» أي: خلق أولاده من نطفة، وهو ماء الرجل والمرأة «ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ» فتصير النطفة قطعة[٥] دم «ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً»

---

(١) منه: ـ، ت، ك.

(٢) الإيمان: للإيمان، ت.

(٣) دعوهم: دعوا، د.

(٤) أبو: أب، ت، ك.

(٥) قطعة: علقة، ت.

أي: أطفالاً، والطفل يراد به الواحد والجمع، قال الله تعالى: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟﴾ [النور: ٣١] «ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ» أي: حال القوة والكمال «ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّنْ يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ» أي: يموت قبل بلوغ الأشد، وقيل: قبل بلوغ[1] الشيخوخة «وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى» أي: يبقيه ليبلغ وقتًا محدودًا لا يجاوزه. وقيل: الأجل المسمى: ما سمي له من الوقت فيموت عنده. وقيل: هو القرن الذين تقوم عليهم القيامة، والأجل: القيامة، عن الحسن. «وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» قيل: لتعقلوا ذلك. وقيل: لتعلموا الآيات فتُدلوا بها على توحيده «هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا» أي: خلق وقدر «فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» قيل: يوجده من غير امتناع وتعذر، والقول مَثَلٌ، وقيل: يحدث هذا القول علامة للملائكة أنه يفصل[2] أمرًا. «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ» أي: ينازعون في حججه بالباطل، قيل: الآيات[3] التوحيد والعدل، وقيل: المعجزات الدالة على نبوته «أَنَّى يُصْرَفُونَ» أي: كيف ينصرفون عنها مع وضوحها «الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» عاقبة أمرهم، ووبال فعلهم «إِذِ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاَسِلُ يُسْحَبُونَ» أي: يُجَرُّون «فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ» أي: توقد عليهم النار، وقيل: يصيرون وقود النار، عن مجاهد. وقيل: يطرحون في النار كما يطرح الحطب على النار، عن أبي علي.

۞ الأحكام

تدل الآيات على وجوب اتباع الدلائل.

وتدل على قبح الجدال بالباطل.

ويدل قوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ[4] تَعْقِلُونَ﴾ أنه أراد من الجميع أن يعلموه، خلاف قول المجبرة.

---

(١) بلوغ: ـ، ت، ك.

(٢) يفصل: يفعل، ت، ك.

(٣) الآيات: آيات، ك.

(٤) ولعلكم: لعلكم، ت، د، ك.

ويدل قوله: ﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ أنه تعالى لم يصرفهم؛ لأنه أخرج الكلام مخرج التعجب، ولو كان هو صرفهم لما صح ذلك، ولكان هذا التعجب[1] مع خلقه الكفر فيهم وصرفهم عن الإيمان أعجب.

ويدل قوله: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ﴾ أن ما يعبدون من دون الله لا ينفعهم، ولا يدفع عنهم ضرًا.

وتدل على أن الجدال والتكذيب فعلهم، فيصح[2] قولنا في المخلوق.

قوله تعالى:

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤) ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٦) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (٧٨)﴾

اللغة

الفرح والمرح والبطر والأشر نظائر، والمرح: شدة الفرح، وفرس مَرُوحٌ، أي: نشيط، وكذلك مِمْرَاحٌ، وفرس مَرُوح: يَمْرَحُ من رآها عجبًا.

المعنى

ثم بَيَّنَ تعالى ما يوبخ به أهل النار، فقال سبحانه: «**ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ**[3]»

---

(١) التعجب: التعجيب، ك.

(٢) فيصح: فيصحح، ت، د، ك.

(٣) أين ما كنتم: ـ، ت.

أي: لهؤلاء الكفار إذا دخلوا النار «**أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ مِن دُونِ اللَّهِ**» يعني: الأصنام التي عبدوها، وهذا سؤال توبيخ، يعني: كنتم تزعمون أنها تنفع وتضر، فأين هي[(١)] اليوم؟ «**قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا**» أي: ضاعوا وهلكوا، فلا نراهم، ولا نقدر عليهم «**بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا**» قيل: معناه لم نكن ندعو شيئًا ينفع ويضر، ويسمع ويبصر. وقيل: لم نكن ندعو شيئًا يستحق العبادة، أو ينتفع بعبادته، عن أبي علي. وقيل: لم نَدْعُ شيئًا ينفعنا، وهذا كما يقال لشيء يسمع: ليس هذا بشيء، عن أبي مسلم؛ لأن كل ما لا يغني شيئًا يقال: ليس بشيء. فأما من يقول: إنهم أنكروا وجحدوا وجهلوا، فليس بشيء؛ لأن قولهم: «**قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا**» اعتراف بعبادتهم، ولأن الآخرة دار إلجاء. فلا[(٢)] يُمَكَّنُون من الكذب. وقيل: معناه: ضاعت عبادتنا لها، فلم نكن نصنع شيئًا [إذ] عبدنا، فقال كما يقول المتحسر: ما فعلت شيئًا. «**كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ**» قيل: يضلهم عن طريق الجنة والثواب كما يضلهم عما عبدوه، ويندمون بها، عن أبي علي. وقيل: يهلكهم ويعذبهم، عن أبي مسلم. وقيل: كذلك يضلهم عما اتخذوه إلهًا بصرفهم عن الطمع في نيل نفع من جهته. وقيل: كذلك يضل الله أعمالهم بإبطالها، عن الحسن. «**ذَلِكُمْ**» يعني: هذا العذاب الذي أصابكم إنما هو «**بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ**» أي: بفرحهم بالباطل «**وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ**» أي: تبطرون وتفجرون، وقيل: ذلك بفرحهم بالأوثان، ومرحهم بتكذيب رسول الله ﷺ فـ«**ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ**» وهي سبعة أبواب، فهم مقتسمون على منازلهم «**خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ**» أي: مقام مَنْ تكبر عن قبول الحق في النار، وقيل: المثوى: المنزل «**فَاصْبِرْ**» يا محمد على تبليغ الرسالة، وإن نالك منهم الأذى «**إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ**» بالنصر لأنبيائه، والانتقام من أعدائه «حق» أي: صِدْقٌ لا خلف فيه «**فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ**» من العذاب في حياتك، وإنما قال: «**بعض**» لأن المعجل في الدنيا بعض ما يستحقه الكفار، لأن المستحق لا يتناهى «**أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ**» قبل أن يحل بهم ذلك «**فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ**» فنجازيهم.

---

(١) هي: ـ، ت، ك.

(٢) فلا: ولا، د، ك.

ثم زاد في تسليته، فقال سبحانه: «**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُم مَّنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ**» أخبارهم «**وَمِنْهُم مَّنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ**» ما جرى عليهم من أممهم مثل ما يجري عليك، فصبروا حتى جاء وعد الله ولم يقدروا بأنفسهم على إتيان آية «**وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ**» بمعجزة وحجة لا يقدر عليها «**إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ**» قيل: لا يقدرون على استعجال العذاب، ولكن الله تعالى يقدر عليها، «**وأَمْرُ الله**»: قيل: الساعة، وقيل: عذابه في الدنيا والآخرة «**قُضِيَ بِالْحَقِّ**» أي: حكم لكل أحد[1] بما يستحقه «**وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ**» أي: ظهر خسرانهم بحرمان الثواب ونزول العقاب.

الأحكام

يدل قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ﴾ أن الضلال بمعنى الهلاك؛ لأن في الآخرة لا يكون ضلال عن الدين.

وتدل أن ذلك جزاء على أعمالهم.

وتدل على أن المرح مذموم، وهو الفرح بالباطل بطرًا.

ويدل قوله: ﴿قُضِيَ بِٱلْحَقِّ﴾ أن أمور الآخرة تجري على العدل، فتقدر تقدير الاستحقاق.

وتدل على قبح التكبر.

وتدل على أن في الرسل مَنْ لم يبلغنا[2] خبره.

وتدل على أن المرح فعلهم، فيبطل قول المجبرة في المخلوق.

(١) أحد: واحد، ك.

(٢) يبلغنا: يبلغا، ك.

قوله تعالى:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ
وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ
ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن
قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟
يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا
كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ
مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ
هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

اللغة

الأنعام: الإبل والبقر[1] والغنم، سميت بذلك لنعم[2] مِشْيَتها.

والبأس: العذاب.

والسُّنَّة: الطريقة.

والخسران: ذهاب رأس[3] المال.

الإعراب

في نصب «سنة» ثلاثة أوجه:

قيل: بنزع الخافضة، أي: كسنة الله.

(١) الإبل والبقر: البقر والإبل، د، ك.
(٢) لنعم: بنعم، ك.
(٣) رأس: ـ ، ك.

وقيل: على المصدر، تقول العرب: سَنَّ يَسُنُّ سَنًّا وسُنَّةً.

وقيل: على التحذير[1]، أي: احذروا سنة الله، كقوله[2]: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ [الشمس: ١٣].

۞ المعنى

ثم عاد إلى ذكر الأدلة وعَدِّ النعم، فقال سبحانه: «**اللَّهُ**» الذي تحق له العبادة «**الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعَامَ**» أي: خلقها لمنافعكم «**لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ**» يعني: بعضها للركوب والأكل، كالإبل والبقر، وبعضها للأكل كالأغنام، وقيل: الأنعام: الإبل وحدها، وقيل: الأصناف الثمانية، وهو الوجه «**وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ**» في أصوافها وأوبارها وأشعارها وألبانها «**وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ**[3]» أي: في الأسفار يحمل عليها الأثقال وتركب، وتبلغ المقاصد. وقيل: تبلغون ما تحتاجون إليه من الأمور التي فيها قربة لله تعالى؛ لأن ما كان معصية يكرهها ولا يريدها، وما كان مباحًا لا يريده ولا يكرهه، وما كان طاعة يريدها، عن أبي علي. «**وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ**» يعني: على الأنعام في البر وعلى الفلك في البحر «**وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ**»؛ لأن جميعها دالة على توحيده وعدله.

ثم وعظهم بذكر الأمم الماضية تسلية له ووعيدًا لهم ودعاء إلى الإيمان، فقال سبحانه: «**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ**» عددًا «**وَأَشَدَّ قُوَّةً**» في أنفسهم وأعوانهم «**وَآثَارًا فِي الأَرْضِ**» بارتفاع الأبنية، واتخاذ المنازل والقصور، واستخراج الكنوز. فينظروا إلى آثارهم، ويعتبروا بذلك؛ لأنهم تفانوا وتركوا جميع ذلك «**فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ**» أي: لم ينفعهم كسبهم لذلك، وقيل: هو بمعنى الاستفهام، يعني: أيّ شيء أغنى عنهم؟! كذلك هؤلاء ما يؤمنهم أن ينالهم مثل ما نال أولئك، وقيل: أراد بالكسب: المكسوب من الأموال والحشم.

---

(١) التحذير: الإغراء؛ ت، ك، د.

(٢) كقوله: لقوله، ت.

(٣) صدوركم: صدوكم، ت.

ثم بَيَّنَ تعالى أنه كان أزاح علتهم، وأنهم أُتُوا في ذلك من جهتهم، فقال تعالى: «فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ» يعني: الأمم «رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ» بالحجج «فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ» قيل: قالوا: نحن أعلم منهم لا نُبْعَث ولا نعذب، عن الحسن، ومجاهد. يعني: كان عندهم أنه علم، وهو جهل. وقيل: رضوا بالشرك الذي كانوا عليه، عن الضحاك. أي: أعجبوا به، وظنوا أنه عِلْمٌ، وهو جهل وكفر. وقيل: أعجبوا بما عندهم، والفرح: شدة الإعجاب. وقيل: فرحوا بما عندهم من المال والجاه والرئاسة، وبطروا. وقيل: فرح[1] الرسل بما عندهم من العلم بنجاتهم، وهلاك أعدائهم، والأول الوجه، خرج مخرج الجزاء، كأنه قيل: لما جاءتهم الرسل لم يقبلوا وفرحوا، ولذلك عطف عليه «وَحَاقَ بِهِمْ» أي: حل ونزل، وقيل: وجب «مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ» من العذاب «فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا» عذابنا «قَالُوا آمَنَّا» أي: ذلوا وخضعوا، وتركوا التكبر، وآمنوا بالله «وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ» من الأصنام «فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا» أي: لم ينفعهم بعد رؤية العذاب؛ لأنه يكون ملجأ إليه «سُنَّةَ اللَّهِ» أي: هذه طريقة الله «الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ» أي[2] في عذاب الكفار. وقيل: في قبول التوبة أنه لا يقبلها إلاَّ مِن المختار دون المُلْجَأ الذي قد عاين العذاب. وقيل: في إمهال الكفار مدة، ثم أخذهم بغتة «وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ» أي: خسرتم بفوت الجنة ودخول النار.

۞ الأحكام

يدل أول الآيات على توحيده؛ لأن هذه الأشياء لا يقدر عليها غيره تعالى.

وتدل أنه خلقها لمنافع العباد.

وتدل أنه يفعل الفعل لغرض وحكمة، خلاف ما يقوله بعض المجبرة.

وتدل على أن إنكار الآيات فعلهم؛ لذلك توعدهم عليها.

---

(١) فرح: فرحوا، ت، د، ك.

(٢) أي: يقول، ت، د، ك.

وتدل على أن إيمان المُلْجَأِ لا يُقْبَلُ.

ومتى قيل: لم سمي إيمانًا؟

فجوابنا: معناه: صورة للإيمان، وإن لم يستحق عليها ثوابًا، ولأن التوبة يجب أن تكون[1] لوجوبها لا لرؤية العذاب، ولأن توبة الملجأ لو قُبِلَتْ لما دخل الكافرُ النارَ.

(١) يجب أن تكون: تجب أن يكون، ت، د، ك.

الفهرس

سورة النمل ٥٤٠٥

سورة القصص ٥٤٦٧

سورة العنكبوت ٥٥٤١

سورة الروم ٥٥٩٥

سورة لقمان ٥٦٤٣

سورة السجدة ٥٦٦٩

سورة الأحزاب ٥٦٩١

سورة سبأ ٥٧٧٧

سورة فاطر ٥٨٢٥

سورة يس ٥٨٦٣

سورة الصافات ٥٩٠٥

سورة ص ٥٩٦٣

سورة الزمر ٦٠٣٣

سورة غافر ٦١٠١